رموز الكنوز
في
تفسير الكتاب العزيز

تأليف

الإمام الحافظ عز الدين عبد الرازق بن رزق الله الرَّسْعني الحنبلي

(٥٨٩ - ٦٦١هـ)

دراسة وتحقيق

أ. د. عبد الملك بن عبد الله بن دهيش

الجزء الثالث

حقوق الطبع محفوظة للمحقق

أ. د. عبدالملك بن عبدالله بن دهيش

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

يطلب من :

مكتبة الأسدي للنشر و التوزيع

مكة المكرمة ـ العزيزية ـ مدخل جامعة أم القرى ت ـ ٥٥٧٠٥٠٦ فاكس ـ ٥٥٧٥٢٤١

فرع العزيزية الشارع العام ت ـ ٥٢٧٣٠٣٧ ص. ب ٢٠٨٣

سورة يونس عليه الصلاة والسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

ولا خلاف بين القارئين أنها مائة آية وتسع آيات، وهي مكية.

وروي عن ابن عباس: أن فيها من المدني: ﴿ومنهم من يؤمن به ... الآية﴾[1]، وقوله: ﴿فإن كنت في شك ...﴾ إلى آخر الثلاث آيات[2].

واستثنى أيضاً قوم: ﴿قل بفضل الله وبرحمته﴾ والتي تليها فقالوا: هو من المدني[3].

الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

قال الله تعالى: ﴿ألر﴾ قرأ ابن كثير وقالون وحفص: «ألر» بتفخيم الراء حيث وقع، وقرأ وَرْش بين اللفظين، والباقون بالإمالة[4].

وقد سبق القول على الحروف المقطعة في أول البقرة.

وقد اختلفت الرواية عن ابن عباس في معنى: «ألر» فقال في رواية عطاء:

---

(١) زاد المسير (٤/ ٣).

(٢) الإتقان (١/ ٤٨).

(٣) زاد المسير (٤/ ٣).

(٤) الحجة للفارسي (٢/ ٣٤٨)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٢٧)، والكشف (١/ ١٨٦)، والنشر (٢/ ٦٦)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٦)، والسبعة في القراءات (ص:٣٢٢).

معناه: أنا الله الرحمن(١).

وقال في رواية الضحاك: أنا الله أرى(٢).

وقال في رواية عكرمة: (ألر حم نون) اسم الرحمن على الهجاء.

وقال في رواية [ابن](٣) أبي طلحة: هو قسم أقسم الله به(٤).

وقال مجاهد وقتادة: اسم من أسماء القرآن(٥).

وقال ابن زيد: اسم السورة(٦).

قوله تعالى: ﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ قال ابن عباس: «تلك» بمعنى: هذه(٧).

وقال غيره: هي على أصلها(٨).

---

(١) أخرجه الطبري (١١/ ٧٩). وانظر: الوسيط (٢/ ٥٣٧)، وزاد المسير (٤/ ٤). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٣٤٠) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه الطبري (١١/ ٧٩)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٢١). وانظر: الوسيط (٢/ ٥٣٧)، وزاد المسير (٤/ ٤). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٣٣٩) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والبيهقي في الأسماء والصفات وابن النجار في تاريخه.

(٣) زيادة على الأصل.

(٤) أخرجه الطبري (١/ ٨٧). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤).

(٥) أخرجه الطبري (١/ ٨٧، ١١/ ٧٩)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٢١). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤).

(٦) أخرجه الطبري (١/ ٨٧). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤).

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٢٢) عن أنس بن مالك. وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤)، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٤٠) وعزاه لابن أبي حاتم عن أنس بن مالك.

(٨) زاد المسير (٤/ ٤).

قال مجاهد وقتادة: الإشارة إلى الكتب المتقدمة[1]. فيكون المعنى: هذه الآيات التي أنزلت على محمد تلك الآيات التي وصفت ووعدتم بإنزالها في الكتب المتقدمة.

وقال الزجاج[2]: الإشارة إلى الآيات التي جرى ذكرها من القرآن.

وقال ابن الأنباري[3]: الإشارة إلى «الر» وأخواتها من حروف المعجم، أي: تلك الحروف المفتتحة بها السور هي آيات الكتاب؛ لأنه بها يتلى، وألفاظه إليها ترجع.

وقيل: تلك إشارة إلى ما [تضمنته][4] السورة من الآيات[5].

و «الكتاب»: السورة، و «الحكيم»: قيل معناه: ذو الحكمة؛ لاشتماله عليها ونطقه بها.

والمشهور في التفسير وعند أرباب اللغة والمعاني: أنه المحكم المبيّن الواضح، الذي لا يتطرق إليه الباطل ولا الاختلاف بوجه من الوجوه.

---

(١) أخرجه الطبري (١١/ ٨٠)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٢١). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤)، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٤٠) وعزاه لابن أبي حاتم عن قتادة.
قال الآلوسي في تفسيره روح المعاني (١١/ ٥٩): وأما حمل الكتاب على الكتب التي خلت قبل القرآن من التوراة والإنجيل وغيرهما؛ فهو في غاية البُعد، فتأمل.
وبنحوه قال الطبري، قال: لأنه لم يجيء للتوراة والإنجيل قبل ذِكر ولا تلاوة بعده فيوجه إليه الخبر.

(٢) معاني الزجاج (٣/ ٥).

(٣) انظر: زاد المسير (٤/ ٤).

(٤) في الأصل: تضمنه. والتصويب من البحر المحيط (٥/ ١٢٦).

(٥) انظر: البحر المحيط (٥/ ١٢٦).

فعيل بمعنى: مفعول؛ كقول الأعشى:

وَغَرِيبَةٍ تَأْتِي المُلُوكَ حَكِيمَةٍ قَدْ قُلْتُهَا لِيُقَالَ مَنْ ذا قَالَهَا[(١)]

قوله تعالى: ﴿أكان للناس عجباً﴾ استفهام في معنى التوضيح لأهل مكة والإنكار عليهم، والتعجب من تعجبهم أن أرسل الله محمداً منذراً ومبشراً، ﴿أن أوحينا﴾ في موضع رفع على أنه اسم «كان»، و «عجباً» خبره، واللام في «للناس» متعلق بمحذوف «كان» صفة تعجب، فلما تقدم صار حالاً[(٢)]؛ كقوله:

لِمَيَّةَ مُوحِشاً طَلَلُ ....[(٣)]

وإن شئت كان ظرفاً لـ«كان».

قوله تعالى: ﴿إلى رجل منهم﴾ يريد: محمداً ﷺ.

قال ابن عباس: لما بعث الله محمداً ﷺ أنكرت الكفار وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد، فأنزل الله هذه الآية[(٤)].

---

(١) البيت للأعشى. وهو في: اللسان، مادة: (حكم)، والقرطبي (٨/ ٣٠٥)، والدر المصون (٤/ ٣)، وروح المعاني (٢١/ ٦٥).

(٢) انظر: التبيان (٢/ ٢٤)، والدر المصون (٤/ ٣).

(٣) صدر بيت، وعجزه: (يَلُوحُ كَأَنَّهُ خِلَلُ). انظر البيت في: اللسان، مادة: (وحش، خلل)، والصحاح (٣/ ١٠٢٥)، والدر المصون (٥/ ٨٣).

قال ابن بري: البيت لكثيّر، وصواب إنشاده: (لعَزَّة موحشاً). ويروى: (لسلمى موحشاً)؛ كما في اللسان.

(٤) أخرجه الطبري (١١/ ٨١)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٢٢). وانظر: الماوردي (٢/ ٤٢١)، وزاد المسير (٤/ ٥)، ولباب النقول (ص:١٢٨)، وأسباب النزول للواحدي (ص:٢٧٠). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٣٤٠) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه.

ويروى أنهم قالوا: العجب أن الله لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب، فأنزل الله: ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم﴾[١] يعرفونه ويألفونه.

و «أن» في قوله: ﴿أَنْ أنذر الناس﴾ في محل النصب بـ «أوحينا».

وقال الزمخشري[٢]: هي أَنْ المفسرة؛ لأن الإيحاء فيه معنى القول، ويجوز أن تكون المخففة من الثقيلة، وأصله: أنه أنذر الناس، على معنى: أن الشأن قولنا: أنذر الناس.

﴿وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ أي: بشرهم بأن لهم سابقة وفضلاً ومنزلة ورفعة عند ربهم.

فإن قلت: لم سُمِّيت السابقة قَدَماً؟

قلتُ: لما كان السعي والسبق بالقدم سميت المِسْعَاة الجميلة والسابقة قَدَماً، كما سُمِّيت النعمةُ يداً؛ لأنها تعطى باليد، وإضافته إلى «صدق» دلالة على زيادة فضل، وأنه من السوابق العظيمة.

وقال ابن الجوزي رحمه الله[٣]: العرب تجعل القدم كناية عن العمل [الذي][٤] يتقدم فيه ولا يقع فيه تأخير.

قال ذو الرمة:

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٣٨).

(٢) الكشاف (٢/ ٣١٣).

(٣) زاد المسير (٤/ ٦).

(٤) زيادة من زاد المسير، الموضع السابق.

لَكُمْ قَدَمٌ لا يُنْكِرُ النَّاسُ أَنَّهَا مَعَ الْحَسَبِ الْعَادِي طَمَّتْ عَلَى الْبَحْرِ [١]

وهذه الجملة المقولة في تفسير قوله: ﴿قدم صدق﴾ إليها ترجع أقوال المفسرين وأهل المعاني وأرباب اللسان[٢].

قال الحسن: «قدم صدق»: هو محمد ﷺ يشفع لهم يوم القيامة[٣].

وفي الكلام إضمار تقديره: فلما أنذر وبشر.

﴿قال الكافرون إن هذا﴾ يعنون: الذي جاء به محمد ﷺ من الكتاب المعجز الدال على صحة ما دعا إليه ﴿لسحر مبين﴾.

وقرأ ابن كثير وأهل الكوفة: «لساحر»، إشارة إلى الرسول ﷺ[٤].

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ

---

(١) البيت لذي الرمة. انظر: ديوانه (ص:٣٦١)، والطبري (١١/ ٨٢)، والقرطبي (٨/ ٣٠٦)، وزاد المسير (٤/ ٦)، والبحر المحيط (٥/ ١٢٧)، والدر المصون (٤/ ٤)، وروح المعاني (١١/ ٦٣).

(٢) أخرجه الطبري (١١/ ٨٢)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٢٣). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٤١) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري (١١/ ٨٢)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٢٤). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٣٤١) وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ.

(٤) الحجة للفارسي (٢/ ٣٥٢)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٢٧)، والكشف (١/ ٤٢١)، والنشر (٢/ ٢٥٦)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٦)، والسبعة في القراءات (ص:٣٢٢).

كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

وما بعده سبق تفسيره[١] إلى قوله: ﴿يدبر الأمر﴾ أي: يقضيه ويمضيه.

﴿ما من شفيع إلا من بعد إذنه﴾ قال ابن السائب: ما من شفيع من الملائكة والنبيين إلا من بعد أمره في الشفاعة[٢].

﴿ذلكم﴾ إشارة إلى الله الخالق الموصوف بالاستواء على العرش وتدبير الأمر، هو ﴿الله ربكم﴾ لا الأصنام التي لا تعقل ولا تقدر على شيء ﴿فاعبدوه﴾ وَحِّدوه ﴿أفلا تذكرون﴾ تذكراً ينبهكم من رقدة غفلتكم ويرشدكم إلى قبح ما سوَّلت لكم أنفسكم وزيَّنت لكم شياطينكم من عبادة أحجار تنحتونها بأيدكم، وتماثلون بينها وبين ربكم العظيم الذي خلق ورزق ودبَّر، وقضى وقَدَّر.

ثم خَوَّفهم البعث فقال تعالى: ﴿إليه مرجعكم جميعاً﴾ «مرجعكم»: مبتدأ، خبره: «إليه». «جميعاً» حال من الكاف والميم، ﴿وعد الله حقاً﴾ مصدران[٣].

قوله تعالى: ﴿إنه يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ استئناف خارج مخرج التعليل لما ذكره من الوعيد بالرجوع إليه ليجازيهم على الأعمال التي أسلفوها.

وقرأتُ لأبي جعفر: «حقاً أنه» بفتح الهمزة، على معنى: لأنه أو بأنه، أو هو منصوب بالفعل الذي نصب «وعد الله»، أي: وعد الله[٤].

قوله: ﴿ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط﴾ أي: بالعدل، وهو

(١) عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأعراف.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٣٨)، والماوردي (٢/ ٤٢٢) بلا نسبة.

(٣) انظر: التبيان (٢/ ٢٤)، والدر المصون (٤/ ٥).

(٤) النشر (٢/ ٢٨٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٧).

متعلق بـ«يجزي»، على معنى: ليجزيهم بقسطه وعدله. ويجوز أن يكون المعنى: ليجزيهم بقسطهم وبما عدلوا ولم يظلموا حين آمنوا وعملوا الصالحات.

ورجَّح بعض المحققين هذا المعنى لمقابلة قوله: ﴿بما كانوا يكفرون﴾.

والحَمِيمُ: الماء الحارّ[1].

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

قوله تعالى: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء﴾ وقرأ قُنْبُل عن ابن كثير: «ضِئَاءً» بهمزتين بينهما ألف في جميع القرآن[2].

قال صاحب الكشاف[3]: الياء في «ضياء» منقلبة عن واو ضوء؛ لكسرة ما قبلها. وقرئ: «ضئاءً» بهمزتين بينهما ألف على القلب، بتقديم اللام على العين، كما قيل في عاق: عقاً، والضياء أقوى من النور، وقد ذكرته في أول البقرة.

والمعنى: جعل الشمس ذات ضياء، والقمر ذا نور.

﴿وقَدَّرَهُ﴾ أي: وقَدَّر القمر، والمعنى: قَدَّرَ مسيره ﴿منازل﴾، أو قدره ذا منازل؛

---

(١) انظر: اللسان، مادة: حمم.

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٣٥٥)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٢٨)، والكشف (١/ ٥١٢)، والنشر (١/ ٤٠٦)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٧)، والسبعة في القراءات (ص:٣٢٣).

(٣) الكشاف (٢/ ٣١٤).

كقوله: ﴿والقمر قدرناه منازل﴾ [يس:٣٩] وهي ثمانية وعشرون منزلاً في كل شهر، وهي النجوم التي كانت العرب تنسب إليها الأنواء.

قال ابن قتيبة[١]: وأسماؤها عندهم: الشَّرَطان[٢]، والبَطَيْن، والثُّرَيَّا، والدَّبَران[٣]، والهَقْعَة، والهَنْعَة، والذِّراع، والنَّثْرَة، والطَّرْف، والجَبْهَة، والزُّبْرَة[٤]، والصَّرْفَة، والعَوَّاء، والسِّماك، والغَفْر، والزُّبانى، والإِكْليل، والقَلْب، والشَّوْلَة، والنَّعائِم، والبَلْدَة، وسَعْدُ الذَّابح، وسَعْدُ بُلَع، وسَعْدُ السُّعُود، وسَعْدُ الأَخْبِيَة، وفَرْغُ الدَّلْوِ المقدَّم، وفَرْغُ الدَّلْوِ المؤخَّر، والرِّشاء وهو الحُوت[٥].

وقد جمع أسماءها شيخنا موفق الدين عبدالله بن أحمد رضي الله عنه وأرضاه نظماً لنفسه فأنشدني:

فَنَطْح وبَطْن والثُّرَيَّا ومِجْدَح ... وهَقْع وهَنْع والذِّراع ونَثْرَه
وطَرْف [وجَبْهَة][٦] والخراة وصَرْفَة ... وعَوَّاء يتلوها السماك وغفره
زُبانا وإِكليل وقَلْب وشَوْلَة ... نَعَائم بَلْدات وسَعْد ونحره
وسَعْد وسَعْد ثم سَعْد وفرعه ... وفرع وحوت ناضب عنه بحره

---

(١) تأويل مشكل القرآن (ص:٣١٧).

(٢) الشرطان: وتسمَّى أيضاً: النَّطْح، والناطح؛ لأنها عند أصحاب الصور قَرْنا الحَمَل (صبح الأعشى ٢/ ١٧٣).

(٣) وتسمى أيضاً: المجْدَح، وتالي النجم، وعين الثور (صبح الأعشى ٢/ ١٧٤).

(٤) وتسمى أيضاً: الخراتان، وعُرف الأسد، والزبرتين (صبح الأعشى ٢/ ١٧٦).

(٥) انظر: صبح الأعشى (٢/ ١٧٣-١٨١). وانظر أسماء المنازل في كتاب الأنواء لابن قتيبة من (ص:١٦)، واللسان، مادة: (نوأ).

(٦) في الأصل: وجبة.

﴿لتعلموا عدد السنين والحساب﴾ يعني: حساب الأوقات والساعات والأيام والليالي والشهور.

﴿ما خلق الله ذلك﴾ الإشارة إلى الخلق المذكور، ولم يُرد الأعيان، إذ لو أرادها لقال: «تلك»، ﴿إلا بالحق﴾ أي: إلا خلقاً متلبساً بالحق، الخالي عن العبث، الجاري على وفق الحكمة والمصلحة.

﴿نُفَصِّلُ الآيات﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص: «يُفَصِّلُ» بالياء، وقرأ الباقون بالنون(١).

والمعنى: يبيّن الآيات ويوضحها ﴿لقوم يعلمون﴾ فيدلّهم علمهم وعقلهم على صحة الاستدلال بالصنعة على الصانع، وبالقدور على القادر.

قوله تعالى: ﴿إن في اختلاف الليل والنهار﴾ أي: في تعاقبهما ومجيئهما وذهابهما، ﴿وما خلق الله في السموات والأرض﴾ من عجائب مبتدعاته وغرائب مصنوعاته، ﴿لآيات لقوم يتقون﴾ الشرك والمعاصي، فتبعثهم تقواهم على التفكر، ويدعوهم الحذر إلى النظر.

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى: ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا﴾ قال ابن عباس: لا يخافون البعث؛

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٣٥٣)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٢٨)، والكشف (١/ ٥١٣)، والنشر (٢/ ٢٨٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٧)، والسبعة في القراءات (ص:٣٢٣).

لأنهم لا يؤمنون به[(١)].

فالرجاء هاهنا بمعنى: الخوف؛ كقوله: ﴿لا ترجون لله وقاراً﴾ [نوح:١٣].

وقيل: المعنى: لا تأملون حسن لقائنا كما يأمله السعداء.

وقيل: المعنى: لا تخافون سوء لقائنا الذي يجب أن يخاف.

﴿ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها﴾ وآثروها على الآخرة ذهاباً مع الأمل والغرور، ﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ يعني: آيات القرآن وما فيها من الحكم والأحكام.

وقيل: عن آياتنا المذكورة في هذه السورة من خلق السماء والأرض والشمس والقمر.

وقال ابن عباس: «عن آياتنا»: القرآن ومحمد ﷺ[(٢)].

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى: ﴿يهديهم ربهم بإيمانهم﴾ أي: يسدّدهم ويرشدهم ويوفقهم للاستقامة على سلوك النجاة بسبب إيمانهم.

وقال مجاهد: جعل لهم نوراً يمشون به[(٣)].

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٣٩)، وزاد المسير (٤/ ١٠).

(٢) زاد المسير (٤/ ١٠).

(٣) أخرجه الطبري (١١/ ٨٩)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٢٩)، ومجاهد (ص:٢٩٢). وذكره السيوطي

وقال مقاتل[1]: يهديهم بالنور على الصراط إلى الجنة.

﴿تجري من تحتها الأنهار في جنات النعيم﴾ بيان وتفسير لمفضى الهداية.

﴿دعواهم فيها﴾ أي: دعواهم في جنات النعيم، ﴿سبحانك اللهم﴾ قال ابن عباس: كلما اشتهى أهل الجنة شيئاً قالوا: سبحانك اللهم، فجاءهم ما يشتهون، فإذا طعموا قالوا: الحمد لله رب العالمين، فذلك قوله: ﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾[2].

قال الزجاج[3]: أَعْلَمَ الله أنهم يبتدؤون بتعظيمه وتنزيهه، ويختمون بشكره والثناء عليه.

وقال صاحب الكشاف[4]: يجوز أن يراد بالدعاء هاهنا: العبادة؛ كقوله: ﴿وأعتزلكم وما تدعون من دون الله﴾ [مريم:٤٨] على معنى: أن لا تكليف في الجنة ولا عبادة، وما عبادتهم إلا أن يسبحوا الله ويحمدوه، وذلك ليس بعبادة، وإنما يلهمونه فينطقون به تلذذاً بلا كلفة؛ كقوله: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية﴾ [الأنفال:٣٥].

قوله تعالى: ﴿وتحيتهم فيها سلام﴾ أي: تحية بعضهم لبعض، وتحية الله لهم،

= في الدر (٤/ ٣٤٤) وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(١) تفسير مقاتل (٢/ ٨٢).

(٢) أخرج نحوه الطبري (١١/ ٨٩) عن ابن جريج. وانظر: الوسيط (٢/ ٥٣٩)، وزاد المسير (٤/ ١٠). وذكر نحوه السيوطي الدر المنثور (٤/ ٣٤٥) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وأبي الشيخ عن ابن جريج.

(٣) معاني الزجاج (٣/ ٨).

(٤) الكشاف (٢/ ٣١٦).

وتحية الملائكة إياهم: سلام.

والنون في قوله: «أن الحمد لله» هي المخففة من الثقيلة. وأصله: أنه الحمد، على إضمار الشأن، كقول الشاعر:

.... أَنْ هَالِكٌ كُلُّ مَنْ يَحْفَى وَيَنْتَعِلُ [١]

وقرأتُ على الشيخين أبي البقاء عبدالله بن الحسين العكبري وأبي عمرو عثمان بن القاسم الياسري رحمهما الله تعالى ليعقوب [الحضرمي][٢] من رواية أبي حاتم سهل بن محمد السجستاني عنه: «أَنَّ» [بالتشديد][٣]، «الحمدَ» بالنصب[٤].

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿ولو يعجل الله للناس الشر... الآية﴾ قيل: إنها نزلت في النضر بن الحارث حين قال: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك... الآية﴾[٥] [الأنفال:٣٢].

والمعنى: لو يعجل الله للناس العذاب والشر إذا دعوا به على أنفسهم وقت الغضب والضجر ﴿لَقُضِيَ إليهم أجلهم﴾.

---

(١) عجز بيت للأعشى، وقد تقدم.

(٢) في الأصل: الحرمي.

(٣) في الأصل: بالتشدد.

(٤) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٧).

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٤٠)، وزاد المسير (٤/ ١١).

قال عامة المفسرين: لماتوا وهلكوا جميعاً وفرغ من هلاكهم[(١)].

قال قتادة: هو دعاء الرجل على نفسه وأهله وولده وماله بما يكره أن يستجاب له[(٢)].

وقال مجاهد: هو قول الإنسان لولده وماله إذا غضب: اللهم لا تُبارِك فيه، والْعَنْهُ[(٣)].

وحكى الماوردي[(٤)] أن المعنى: ولو يعجل الله للكافرين العذاب على كفرهم، كما عجل لهم خير الدنيا من المال والولد، لعجل لهم قضاء آجالهم ليتعجلوا عذاب الآخرة. ويقوي هذا تمام الآية، وسبب نزولها.

وقرأ ابن عامر: «لقَضَى» بفتح القاف والضاد، «أجلَهم» بالنصب[(٥)].

﴿فنَذَرُ الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون﴾ أي: نُمْهلهم ونُمْلي لهم ونمدهم بالنعم [إلزاماً][(٦)] للحجة عليهم واستدراجاً لهم. وقد سبق ذكر الطُّغيان

---

(١) انظر: الطبري (١١/ ٩١)، والوسيط (٢/ ٥٤٠).

(٢) أخرجه الطبري (١١/ ٩٢)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٣٢). وانظر: الوسيط (٢/ ٥٤٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٤٦) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (١١/ ٩٢)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٣٢)، ومجاهد (ص:٢٩٢). وذكره البخاري تعليقاً (٤/ ١٧٢١). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٤٦) وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٤) تفسير الماوردي (٢/ ٤٢٥).

(٥) الحجة للفارسي (٢/ ٣٥٣)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٢٨)، والكشف (١/ ٥١٥)، والنشر (٢/ ٢٨٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٧)، والسبعة في القراءات (ص:٣٢٣).

(٦) في الأصل: ألزماً.

والعَمَه.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً﴾ الإنسان هاهنا: اسم جنس.

قال ابن عباس: هو الكافر إذا أصابه ما يكره من فقر أو مرض أو بلاء أو شدة أخلص في الدعاء، مضطجعاً كان أو قائماً أو قاعداً[(١)].

فعلى هذا؛ قوله: «لجنبه» وما عطف عليه، أحوال من الضمير المرفوع في «دعانا». ويجوز أن يكون الحال من «الإنسان»[(٢)].

المعنى: وإذا مس الإنسان الضر في حال اضطجاعه أو قعوده أو قيامه دعانا، فإن المضرورين على ضروب: منهم المضطجع وهو صاحب الفراش، ومنهم القاعد، ومنهم القادر على القيام، وكلهم مفتقرون إلى استدفاع البلايا بالإخلاص والدعاء.

﴿فلما كشفنا عنه ضرّه مرّ﴾ أي: مضى مستمراً على طريقته الأولى مغروراً بالعافية، ناسياً ضرره، راكباً رأسه في طغيانه، متّبعاً هواه.

وقيل: «مرّ» هي موقف الضراعة والدعاء.

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٤٠).

(٢) انظر: التبيان (٢/ ٢٥)، والدر المصون (٤/ ١٢).

﴿كأن لم﴾ أي: كأنه لم يدْعُنا، فخَفَّفَ وحذف ضمير الشأن؛ كقولِ الخنساء:

كَأَنْ لَمْ يَكُونُوا حِمىً يُتَّقى إِذِ النّاس إِذ ذاكَ مِنْ عَزَّ بزّا[1]

وقول الآخر:

.... كَأَنْ ثَدْيَاهُ حُقَّـــانِ[2]

﴿كذلك﴾ أي: كما زين للكافرين الابتهال والتضرع عند البلاء والإعراض عند الرخاء ﴿زين للمسرفين﴾ وهم الطغاة ﴿ما كانوا يعملون﴾ من الكفر والسيئات.

قال ابن عباس: نزلت في أبي حذيفة هاشم بن المغيرة المخزومي[3].

وقال عطاء: في عتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة[4].

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

---

(١) البيت للخنساء. انظر: ديوانها (ص:٥٩)، وزاد المسير (٢/ ٢٢٧، ٤/ ١٣).

(٢) عجز بيت، وصدره: (وَوَجْهٌ مُشْرِقُ النَّحْرِ). ويروى:

وصدر مشرق النحر كأن ثدييه حقان

انظر البيت في: الكتاب لسيبويه (٢/ ١٣٥)، والمحتسب (١/ ٩)، واللسان، مادة: (أنن)، والطبري (١٢/ ١٢٥)، وزاد المسير (٤/ ١٦٣)، وتهذيب اللغة، مادة: (أنن)، والدر المصون (٢/ ٣٩٠، ٤/ ١٢)، وروح المعاني (١١/ ٨٠).

(٣) زاد المسير (٤/ ١٢).

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٤٠)، وزاد المسير (٤/ ١٢).

قوله تعالى: ﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا﴾ «لما» ظرف لـ«أهلكنا»[(١)].

والظلم هنا: الشرك.

والواو في: ﴿وجاءتهم رسلهم بالبينات﴾ واو الحال[(٢)]. والبينات: المعجزات الظاهرة والبراهين الباهرة.

﴿وما كانوا ليؤمنوا﴾ قال مقاتل[(٣)]: معناه: وما كان كفار مكة ليؤمنوا بنزول العذاب بهم في الدنيا.

وقال أبو سليمان الدمشقي: الضمير في قوله: ﴿وما كانوا﴾ يعود إلى القرون المهلكة[(٤)]، وهو إما عطف على «ظلموا»، أو اعتراض[(٥)]. واللام في «ليؤمنوا» توكيد لنفي إيمانهم. يعني: وما كانوا يؤمنون حقاً، وإشعار أنهم يموتون على كفرهم.

قال ابن الأنباري[(٦)]: ألزمهم الله ترك الإيمان لمعاندتهم الحق، وإيثارهم الباطل.

وقال الزجاج[(٧)]: جائز أن يكون جعل جزاءهم الطبع على قلوبهم، وجائز أن

---

(١) انظر: الدر المصون (٤/ ١٣).

(٢) انظر: التبيان (٢/ ٢٦)، والدر المصون (٤/ ١٣).

(٣) تفسير مقاتل (٢/ ٨٥).

(٤) زاد المسير (٤/ ١٣).

(٥) انظر: التبيان (٢/ ٢٦)، والدر المصون (٤/ ١٣).

(٦) انظر: زاد المسير (٤/ ١٣).

(٧) معاني الزجاج (٣/ ١٠).

يكون أعلم ما قد عَلِمَ منهم. والدليل على أنه طبع على قلوبهم [جزاء][١] لهم قوله: ﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾.

وقوله: «كذلك» معناه: مثل ذلك الجزاء الذي جوزي به المهلكون من القرون الماضية، نجزي المجرمين المكذبين من هذه الأمة.

وفي هذه الآية تخويف شديد لأهل مكة.

قوله تعالى: ﴿ثم جعلناكم﴾ خطاب لهذه الأمة.

قال ابن عباس: جعلناكم يا أمة محمد ﷺ ﴿خلائف﴾[٢].

قال قتادة: ما جعلنا الله خلائف إلا لينظر إلى أعمالنا، فأروا الله تعالى من أعمالكم خيراً بالليل والنهار[٣].

﴿لننظر كيف تعملون﴾ أي: لنختبركم ونختبر أعمالكم. و «كيف» في محل النصب بـ«تَعْمَلُون» لا بـ«نَنْظُرَ»[٤]؛ لتضمنه معنى الاستفهام المانع من تقدم عامله عليه في الكلام.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ

(١) في الأصل: جازاء. والتصويب من معاني الزجاج (٣/ ١٠).

(٢) زاد المسير (٤/ ١٣).

(٣) أخرجه الطبري (١١/ ٩٤)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٣٣). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٤٧) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٤) انظر: الدر المصون (٤/ ١٣).

شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن
قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ
كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ وهم مشركوا أهل مكة، وقد فسرناه آنفاً.

﴿ائت بقرآن غير هذا﴾ يعنون: بقرآن ليس فيه ما يَعِظُنا يؤذينا، من سبّ آلهتنا، وتضليل آبائنا، وتسفيه آرائنا، ﴿أو بَدِّلْهُ﴾ من قبل نفسك، فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة، وأسقط عيب الآلهة وما يؤذينا، ﴿قل ما يكون لي﴾ أي: ما ينبغي ولا يصلح ولا يصح لي ﴿أن أبدّله من تلقاء نفسي﴾ أي: من قِبَلها، ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إليّ﴾ ليس إليّ تبديل ولا نسخ ولا تصرف بزيادة ولا نقصان، ﴿إني أخاف إن عصيت ربي﴾ بالتبديل وغيره ﴿عذاب يوم عظيم﴾.

فإن قيل: لأي حكمة أجابهم عن سؤال التبديل دون سؤالهم الإتيان بقرآن غير هذا؟

قلت: لأن التبديل المشار إليه مقدور عليه، والإتيان بقرآن غير هذا ليس في وسعه، لأنه إما أن يأتي به من عند الله أو من عند نفسه، الأول ليس إليه، والثاني محال لا يقدر عليه بحال، فاقتراحهم إياه بعد تحديهم بالإتيان بسورة مثله وظهور عجز القوى البشرية عن مماثلته عناد وعدول عن سنن الإنصاف في شرع الجدال، فيجب الإضراب عنه والإعراض عن جوابه.

﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم﴾ أي: ما قرأت عليكم القرآن، ﴿ولا أدراكم

به﴾ أي: ولا أعلمكم الله به.

وقرأ ابن كثير في رواية قُنْبُل: «ولأدراكم به» من غير ألف قبل الهمزة[1]، جعلها لام الابتداء دخلت على «أدرى».

والمعنى على هذه القراءة: لو شاء الله لأعلمكم به على لسان غيري، لكنه يختص بنبوته ويجتبي لرسالته من يشاء من عباده.

﴿فقد لبثتُ فيكم عمراً من قبله﴾ يعني: مكثتُ بين أظهركم أيتها الأمة الأمية أربعين سنة، تعرفون صدقي وأمانتي، لا أشتغل بعلم ولا أجالس عالماً، ثم أتيتكم بكتابٍ فُصِّلَتْ آياته، وبهرت العقول بيّناته، وأعجز الفصحاء والبلغاء والخطباء، فلم يقدروا على معارضته ولا مناقضته، ﴿أفلا تعقلون﴾ فتعلموا أن مثلي لا يكذب على الله تعالى ولا يقدر على الإتيان بقرآن غيره ولا يستجيز التبديل.

قوله تعالى: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ فجعل له أنداداً وأولاداً، ﴿إنه لا يفلح المجرمون﴾ أي: لا يسعد المشركون.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

---

(١) الحجة لابن زنجلة (ص:٣٢٨-٣٢٩)، والكشف (١/ ٥١٤)، والنشر (٢/ ٢٨٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٦).

﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم﴾ إن أضاعوه ﴿ولا ينفعهم﴾ إن أطاعوه، وهذا عجز ظاهر يوجب اختلال الإلهية، فإن من حق المعبود أن يكون قادراً على ثواب أهل طاعته، وعقاب أهل معصيته.

وفي هذا تنبيه على أن الاقتدار على النفع والإضرار أكمل الأحوال وأتمها. ولهذا قيل[1] في البرامكة[2]:

عند الملوك مضرةٌ ومنافعٌ وأرى البرامك لا تَضُرُّ وتنفَع

إن كان شراً كان غيركم له أو كان خيراً كان فيكم أجمع

فلا يُعْرَف أهجاهم أم مدحهم.

وباعتبار هذا؛ جعلوا قول الشاعر:

قبيلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل[3]

هجواً عظيماً.

وجعلوا أمدح بيت قالته العرب قول النابغة الجعدي، وقد سبق إنشاد البيت وأخيه في سورة [النساء][4] عند قوله تعالى: ﴿من فتياتكم المؤمنات﴾ [٢٥].

وقال الآخر[5]:

---

(١) في الأصل زيادة قوله: في قال.

(٢) البيتان لنصيب الأصغر، المعروف بأبي الحجناء، وهو في: الأغاني (٥/ ٤٠٥).

(٣) البيت من قول النجاشي. وهو في: الإصابة (٦/ ٤٩٣)، والمغني لابن قدامة (٧/ ٢٩٧).

(٤) زيادة على الأصل.

(٥) الأبيات في: الإيضاح في علوم البلاغة (١/ ٥٦)، وديوان المعاني، باب المديح، والتذكرة السعدية، باب الحماسة والافتخار.

متى تهزز بني قطن تجدهم سيوفاً في عواقبهم[1] سيوف
جلوس في مجالسهم رزان وإن ضيف ألمّ فهم وقوف
إذا نزلوا حسبتهم بدوراً وإن ركبوا فإنهم حتوف

وقال آخر[2]:

تذلل أعناق الصعاب بيأسه وأعناق طلاب الندى بالفواضل
فما انقبضت كفاه إلا بصارم ولا انبسطت كفاه إلا بنائل

وهذا باب واسع، وما قيل فيه أكثر [من][3] أن يحصر.

قوله تعالى: ﴿ويقولون﴾ يعني: عبدة الأوثان ﴿هؤلاء﴾ إشارة إلى "ما" من قوله: «ما لا يضرهم»، يعنون: الأصنام ﴿شفعاؤنا عند الله﴾ تُقَرِّبُنا إليه في إصلاح معايشنا، وإنجاح حوائجنا، وتسهيل مآربنا، وتذليل مطالبنا، قل لهم يا محمد على وجه الرزء عليهم: ﴿أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض﴾ أي: أتخبرونه أنه له شركاً شفيعاً، وهو لا يعلم لنفسه شريكاً في السموات ولا في الأرض.

وفي قوله: «بما لا يعلم» إعلام بأن هذا الحال محال، إذ لو كان صحيحاً لتعلق به علمه.

ثم نزّه نفسه عما يأفكون فقال: ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾.

---

(١) في مصادر تخريج البيت: عواتقهم.

(٢) البيتان في: ديوان المعاني، باب المديح، والتذكرة الفخرية، باب التهاني وما يضاف إليها، والتذكرة السعدية، باب الحماسة والافتخار.

(٣) زيادة على الأصل.

وقرأ حمزة والكسائي: «تشركون» بالتاء[1]، على الخطاب هنا، وفي النحل في موضعين، وفي الروم.

و «ما» هاهنا موصولة أو مصدرية.

قوله تعالى: ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة﴾ قد ذكرنا تفسيره في سورة البقرة، واختلاف العلماء في تأويله.

والأظهر في معناه أن يقال: وما كان الناس إلا أمة واحدة حنفاء متفقين على كلمة التوحيد في زمن آدم فاختالتهم الشياطين، وقتل قابيل هابيل، وانتشر الشر والشرك، وعُبدتِ الطواغيت، فاختلفوا، فبعث إليهم نوحاً عليه الصلاة والسلام.

﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ بتأخير هذه الأمة، وأنه لا يعاجلهم بالعذاب، كما فعل بمن قبلهم، ﴿لقُضِيَ بينهم﴾ بإنزال العذاب بالمكذبين، وإظهار المحِقّ من المبْطِل، وهو قوله: ﴿فيما فيه يختلفون﴾.

وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟
إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ
مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا
تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى
ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ
ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٣٥٨)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٢٩)، والكشف (١/ ٥١٥)، والنشر (٢/ ٢٨٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٨)، والسبعة في القراءات (ص:٣٢٤).

لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿ويقولون لولا أنزل عليه آية﴾ خارقة كالعصا واليد والناقة، وهذا عناد وتمرّد وجُرأة، أوجبها الانهماك في الغي، والاغترار بتجاوز الله عنهم، وإلا وأي معجز أعظم سلطاناً وأنور برهاناً من القرآن المجيد.

﴿فقل إنما الغيب لله﴾ فهو المستأثر بعلم الحِكَم المودعة في منع إجابتكم إلى ما تقترحون من الآيات، ﴿فانتظروا﴾ نزول الآية وكل ما أنتم بصدد انتظاره لي ﴿إني معكم من المنتظرين﴾ ما يفعل بكم جزاءً على عتوكم وتمردكم واقتراحكم.

قوله تعالى: ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة﴾ من عافية في أبدانهم وسعة في معايشهم وأرزاقهم ﴿من بعد ضراء مستهم﴾ وهي القحط والجدب، فإن أهل مكة قحطوا سبع سنين بدعاء رسول الله ﷺ عليهم حين قال: «اللهم سلط عليهم سنين كسنيّ يوسف، فأكلوا العظام والجلود، حتى جاءه أبو سفيان فقال: يا محمد! ادعُ لنا بالخصب، فإن أخصبنا صدّقناك، فدعا لهم فَسُقوا ولم يؤمنوا»[1].

﴿إذا لهم مكر في آياتنا﴾ أي: سعي في دفع القرآن والتكذيب به، ﴿قل الله أسرع مكراً﴾ أخفى كيداً وأقدر على مجازاتكم، ﴿إن رسلنا﴾ الحفظة الكرام ﴿يكتبون﴾ في صحائف أعمالكم ﴿ما تمكرون﴾.

وقُرِئ على شيخنا أبي البقاء ليعقوب إلا من رواية أبي حاتم ورويس،

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٨٢٣ ح٤٥٤٤)، ومسلم (٤/ ٢١٥٦ ح٢٧٩٨).

ولعاصم من رواية أبان: «يمكرون» بالياء، لقوله: ﴿إذا لهم مكر﴾، وهي قراءة الحسن ومجاهد في آخرين[١].

قال صاحب الكشاف[٢]: «إذا» الأولى للشرط، والآخرة جوابها، وهي للمفاجأة.

فإن قلت: ما وَصَفَهُم بسرعة المكر، فكيف صَحَّ قوله: ﴿أسرع مكراً﴾؟

قلتُ: بل دلَّت على ذلك كله المفاجأة، كأنه قال: وإذا رحمناهم من بعد ضراء فاجأوا وقوع المكر منهم، وسارعوا إليه [قبل أن يغسلوا رؤوسهم من مس الضراء][٣]، ولم يتلبثوا ريثما يسيغون غصّتهم.

والمعنى: أن الله دَبَّرَ عقابكم، وهو مُوقِعه بكم قبل أن تدبِّروا كيف تعملون في إطفاء نور الإسلام.

«إن رسلنا يكتبون» إعلامٌ بأن ما يظنونه خافياً مطوياً لا يخفى على الله، وهو منتقم منكم.

قوله تعالى: ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر﴾ وقرأتُ لابن عامر وأبي جعفر: «يَنْشُرُكُمْ»، من النَّشْر بعد الطَّيْ، وهي قراءة زيد بن ثابت[٤]. ومنه: ﴿ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ [الروم:٢٠].

---

(١) النشر (٢/ ٢٨٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٨).

(٢) الكشاف (٢/ ٣٢١).

(٣) زيادة من الكشاف، الموضع السابق.

(٤) الحجة للفارسي (٢/ ٣٥٩)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٢٩)، والكشف (١/ ٥١٦)، والنشر (٢/ ٢٨٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٨)، والسبعة في القراءات (ص:٣٢٥).

والمعنى: هو الذي يسيركم في البر على الدواب، وفي البحر على السُّفُن.

وقوله: ﴿حتى إذا كنتم في الفُلْك﴾ ليس غايةً للتسيير، وإنما هو مرتبط بما بعده، ﴿وَجَرَيْنَ بهم﴾ عدول عن خطابهم إلى الإخبار عنهم، تذكيراً لغيرهم وتعجيباً له من مثل حالهم، والضمير في «وَجَرَيْنَ»: للفُلْك، وقد ذكرناه في البقرة، وهو هاهنا جمع.

﴿بريح طيبة﴾ أي: لَيِّنَة لا عاصف ولا قاصف، ﴿وفرحوا بها﴾ أي: بالريح، ﴿جاءتها﴾ يعني: جاءت الفُلْك.

وقال الفراء[١]: وإن شئتَ جعلتها للريح، كأنه قيل: جاءت الريح الطيبة.

﴿ريح عاصف﴾ وهي الشديدة الهبوب، يقال: عَصَفَتِ الرِّيحُ فهي عاصِف وعاصِفَةٌ، وأَعْصَفَت فهي مُعْصِف ومُعْصِفَة[٢].

﴿وجاءهم الموج من كل مكان﴾ أي: من جميع أمكنة الموج، أو من كل مكان في البحر، ﴿وظنوا﴾ أي: وتيقنوا، وقيل: توهموا ﴿أنهم أحيط بهم﴾ أي: دنوا من الهلكة.

قال ابن قتيبة[٣]: وأصله: أن العدو إذا أحاط ببلد، فقد دنا أهله من الهلكة.

﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾ قال ابن عباس: تركوا الشرك، وأخلصوا لله الربوبية[٤].

---

(١) معاني الفراء (١/ ٤٦٠).

(٢) انظر: اللسان، مادة: عصف.

(٣) تفسير غريب القرآن (ص:١٩٥).

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٤٣)، وزاد المسير (٤/ ٢٠).

﴿لئن أنجيتنا﴾ على إرادة القول، أو لأنّ «دعوا» من جملة القول.

والمعنى: لئن أنجيتنا من هذه الريح العاصف القاصف، ﴿لنكونن من الشاكرين﴾ لأَنْعُمِكَ بتوحيدك وطاعتك.

﴿فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض﴾ يترمون إلى الفساد، وقد سبق ذكر اشتقاقه.

قال ابن عباس: يبغون في الأرض بالدعاء إلى عبادة غير الله تعالى والعمل بالمعاصي والفساد(١).

ولما كان بعض البغي مشروعاً، كما فعل المسلمون ببني قريظة والنضير، قال: ﴿يبغون في الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا﴾ أي: إنما بغي بعضكم على بعض وما تنالونه به، إنما تتمتعون به في الحياة الدنيا ويزول عنكم ويسلب منكم.

واختلف القراء في قوله: «متاع»؛ فقرأ حفص عن عاصم «متاعَ» بالنصب. وقرأ الباقون بالرفع(٢).

فمن رَفَعَ قال: «بغيكم» مبتدأ، «متاع» خبره. وقيل: خبره: «على أنفسكم»، على معنى: بغيكم عائد على أنفسكم راجع إليها، و «متاع» خبر بعد خبر، أو هو خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هو متاع الحياة الدنيا.

---

(١) زاد المسير (٤/ ٢٠). وانظر: الوسيط (٢/ ٥٤٣).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٣٥٩-٣٦٠)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٣٠)، والكشف (١/ ٥١٦)، والنشر (٢/ ٢٨٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٨)، والسبعة في القراءات (ص:٣٢٥).

ومن نَصَبَ فعلى المصدر[١]. المعنى: يتمتعون متاع الحياة الدنيا.

وقد أخرج الترمذي من حديث أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»[٢]. وقال: هذا حديث صحيح.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: لو بغى جبل على جبل، لجعل الله الباغي منهما دكاء[٣].

وكان المأمون ينشد في أخيه حين رام نقل الخلافة إلى ابنه ونقض ما أخذ عليهما أبوهما من العَهْد المؤكد والأيمان المغلظة[٤]:

فَلَوْ بَغَى جَبَلٌ [يَوْماً][٥] عَلَى جَبَلٍ ... لانْدَكَّ مِنْهُ أَعَالِيهِ وَأَسْفَلَه[٦]

وقال الحسن رحمه الله: ما من ذنب أعجل عقوبة من كلمة بغي أو عقوق والد.

وقال محمد بن كعب: ثلاث من كُنَّ فيه كُنَّ عليه: البغي، والنكث، والمكر. قال الله تعالى: ﴿إنما بغيكم على أنفسكم﴾[٧].

---

(١) انظر: التبيان (٢/ ٢٦)، والدر المصون (٤/ ١٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ٦٦٤ ح٢٥١١).

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٥٣) وعزاه لابن مردويه.

(٤) قلت: بل كان المأمون يبغي نقل الخلافة إلى نفسه، وسلبها من أخيه الأمين. وانظر نص العهود المؤكدة والأيمان المغلظة في: تاريخ الأزرقي (١/ ٢٣٤-٢٤٣).

(٥) في الأصل: يوم. والتصويب من مصادر البيت.

(٦) انظر البيت في: فيض القدير (٥/ ٣١٤)، وكشف الخفاء (٢/ ٢٠١)، وروح المعاني (١١/ ١٠٠).

(٧) أخرج نحوه أبو نعيم في الحلية (٥/ ١٨١) عن مكحول بأطول منه، بلفظ: «أربع من كُنّ فيه كُنّ =

إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

ثم إن الله سبحانه وتعالى شبّه حال الدنيا في سرعة تَقَضِّيها وزوال نضارتها، بالنبات في تفرّقه وجفافه، بعد تكاثفه والتفافه، فقال: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء﴾ وهو المطر، ﴿فاختلط به نبات الأرض﴾ أي: التفّ بسبب الماء نبات الأرض واشتبك بعضه ببعض.

وقيل: المعنى: اختلط وتداخل النبات بذلك الماء.

﴿مما يأكل الناس﴾ من الحبوب والثمار وغيرها ﴿والأنعام﴾ من الرعي والكلأ، ﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها﴾ يعني: زينتها وكمال حسنها بالنبات من النور والزهر المستحسن في النظر، ما بين أبيض يَقَق، وأحمر قانٍ، وأخضر [ناضر](1)، وأصفر فاقع، وأسود حالك، إلى غير ذلك من المسمّيات والألوان الحسان.

= له، وثلاث من كُنّ فيه كُنّ عليه ...». وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٥٣) وعزاه لأبي الشيخ عن مكحول.

(١) في الأصل: ياصع. انظر: زاد المسير (١/ ٩٨).

قال الزمخشري[1]: هذا كلام فصيح، جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس، إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكْتستها.

قوله تعالى: ﴿وازَّينت﴾ أصلها: «وَتَزَيَّنَتْ»، فأدغمت التاء في الزاي واجتلبت لها ألف الوصل.

وعلى الأصل قرأ أُبيّ بن كعب وابن مسعود[2].

وقرأ جماعة منهم سعد بن أبي وقاص والحسن: «وَأَزْيَنَتْ» مقطوعة مفتوحة وإسكان الزاي وتخفيفها وتخفيف الياء، أي: صارت ذات زينة[3].

﴿وظن أهلها أنهم قادرون عليها﴾ متمكنون من منفعتها، آمنون من علتها، متسلطون على غلتها، ﴿أتاها أمرنا﴾ قضاؤنا بإهلاكها ببعض العاهات، ﴿فجعلناها حصيداً﴾ شبيهاً بما يحصد من الزرع في قطعه واستئصاله، ﴿كأن لم تغن بالأمس﴾ كأن لم تكن ولم تقم على الصفة التي كانت من قبل، من قولهم: غَنِيَ القوم بالمكان؛ إذا أقاموا به[4].

قال الزجاج[5]: كأن لم تَعْمَر، والمغاني: المنازل التي يعمرها الناس بالنزول بها.

وقال الزمخشري[6]: «كأن لم تغن» أي: لم يغن زرعها، أي: لم يلبث، على حذف المضاف في هذه المواضع لا بد منه، وإلا لم يستقم المعنى.

(١) الكشاف (٢/ ٣٢٥).

(٢) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٨).

(٣) مثل السابق.

(٤) انظر: اللسان، مادة: غنا.

(٥) معاني القرآن للزجاج (٣/ ١٥).

(٦) الكشاف (٢/ ٣٢٥).

وقرأ الحسن: «كأن لم يغن» بالياء[(١)]، على أن الضمير للمضاف المحذوف، الذي هو الزرع.

وعن مروان: أنه قرأ على المنبر: «كأن لم [تتغنّ][(٢)] بالأمس»[(٣)]، من قول الأعشى:

.... طَوِيلُ الثَّوَاءِ طَوِيلُ التَّغَنِّ[(٤)]

والأمس: مَثَلٌ في الوقت القريب، كأنه قيل: كأن لم تغن آنفاً.

﴿كذلك نفصل الآيات﴾ أي: نُبيِّنُها بضرب الأمثال والتقريب إلى الأفهام، ﴿لقوم يتفكرون﴾ فيستثمرون من ذلك علماً يبعثهم إلى الزهد في الدار الفانية، والرغبة في الدار الباقية.

قال يحيى بن معاذ الرازي: لا يزال دينك متمزقاً، ما دام قلبك بحب الدنيا متعلقاً[(٥)].

وكان بشر الحافي يقول: مساكين أهل الدنيا هم والله في موضع رحمة[(٦)].

قوله تعالى: ﴿والله يدعوا إلى دار السلام﴾ وهي الجنة، وقد ذكرنا تفسير دار السلام في سورة الأنعام [١٢٧]، والصراط المستقيم في سورة الفاتحة [٦].

---

(١) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٨).

(٢) في الأصل: يتغن. والتصويب من البحر المحيط (٥/ ١٤٦).

(٣) انظر: البحر المحيط (٥/ ١٤٦).

(٤) البيت للأعشى، وصدره: (وَكُنْتُ امْرءاً زَمَناً بالعراق). وهو في: تهذيب اللغة، مادة: (غنا)، والقرطبي (١/ ١٤)، والبحر المحيط (٥/ ١٤٦)، والدر المصون (٤/ ٢١).

(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٥٢)، وابن الجوزي في صفة الصفوة (٤/ ٩٣).

(٦) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (٢/ ٨٢).

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿للذين أحسنوا﴾ قال ابن عباس: قالوا: لا إله إلا الله، ﴿الحسنى﴾ هي الجنة[1]، ﴿وزيادة﴾ قال ابن عباس وجمهور العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم وعامة المفسرين: الزيادة: النظر إلى وجه الله تعالى.

قرأتُ على أبي المجد محمد بن الحسين القزويني، أخبركم أبو منصور محمد بن أسعد الطوسي فأقرَّ به، قال: حدثنا أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، أخبرنا أبو سعد الحميدي[2]، أخبرنا أبو عبدالله محمد بن عبدالله الحافظ، أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أبو بكر محمد بن إسحاق الصاغاني، حدثنا الأسود بن عامر، حدثنا حماد بن سلمة.

وأنبأنا حنبل بن عبدالله بن الفرج قال: أخبرنا أبو القاسم هبة الله بن الحصين، أخبرنا أبو علي المذهب، أخبرنا أبو بكر أحمد بن جعفر، حدثنا عبدالله بن الإمام أحمد، قال: حدثني أبي رضي الله عنه، حدثنا يزيد بن هارون[3]، حدثنا حماد بن

---

(١) أخرجه الطبري (١١/ ١٠٨)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٤٤). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٥٨) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي.

(٢) في البغوي: أحمد بن العباس الحميدي.

(٣) يزيد بن هارون بن زاذان بن ثابت السلمي مولاهم، أبو خالد الواسطي، أحد الاعلام الحفاظ المشاهير، كان ثقة كثير الحديث، ولد سنة ثماني عشرة ومائة، ومات سنة ست ومائتين (تهذيب =

سلمة، عن ثابت البناني، عن عبدالرحمن بن أبي ليلى، عن صهيب قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة نودوا: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً لن تروه؟ قالوا: وما هو؟ ألم يبيّض وجوهنا ويزحزحنا عن النار ويدخلنا الجنة. قال: فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم منه، ثم قرأ: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾»[١].

أخبرنا أبو الحسن علي بن الأثير[٢] بقراءتي عليه غير مرة وغيره، قالوا: أخبرنا أبو الفضل عبد الله بن أحمد الطوسي الخطيب، أخبرنا السرّاج، أخبرنا أبو القاسم بن علي بن الحسين بن محمد بمكة، أخبرنا أبو القاسم عبيدالله بن محمد بن إسحاق بن حبابة، حدثنا عبدالله بن محمد البغوي، حدثنا هدبة.

وأخبرنا به عالياً أبو العباس الخضر بن كامل بن سالم المعبر الخاتوني[٣] قراءةً عليه وأنا أسمع في شوال سنة ست وستمائة، أخبرنا أبو الدر ياقوت بن عبدالله[٤] =

التهذيب ١١/ ٣٢١-٣٢٢، والتقريب ص:٦٠٦).

(١) أخرجه مسلم (١/ ١٦٣ ح١٨١)، والترمذي (٥/ ٢٨٦ ح٣١٠٥).

(٢) علي بن الأثير أبي الكرم بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، أبو الحسن عز الدين، المحدث اللغوي، صاحب "التايخ" و"معرفة الصحابة" و"الأنساب" وغير ذلك. ولد بجزيرة ابن عمر سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وكانت داره مجمع الفضلاء، وكان مكملاً في الفضائل، نسابةً أخبارياً، عارفاً بالرجال وأنسابهم، ولا سيما الصحابة، وله "تاريخ الموصل" لم يتم، مات في شعبان سنة ثلاثين وستمائة (طبقات الحفاظ ص:٤٩٥-٤٩٦).

(٣) الخضر بن كامل بن سالم بن سبيع الدمشقي السروجي الدلال المعبر. سمع من الفقيه نصر الله المصيصي، وأبي الدر ياقوت الرومي، وببغداد من الحسين بن علي سبط الخياط، وروى الكثير. مات في شوال سنة ثمان وستمائة وهو في عشر التسعين (سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١١).

(٤) ياقوت بن عبد الله الرومي، أبو الدر، الملقب مهذب الدين، من أهل بغداد، كان مولى لأبي منصور =

مولى ابن البخاري التاجر، حدثنا أبو محمد عبدالله ابن هزارمرد الصريفيني[١]، حدثنا أبو طاهر محمد بن عبدالرحمن المخلص، حدثنا أبو القاسم البغوي عبدالله بن محمد، حدثنا [هدبة][٢] بن خالد القيسي، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن صهيب قال: «قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يثقل موازيننا، ويُبيِّض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويُجِرْنا من النار، فيكشف الحجاب، فينظرون إلى الله، وما شيء أعطوه أحبّ إليهم من النظر إليه، وهي الزيادة»[٣]. هذا حديث صحيح انفرد بإخراجه مسلم، فرواه عن عبيد الله بن عمر القواريري، عن عبدالرحمن بن مهدي، وعن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يزيد بن هارون، كلاهما عن حماد بن سلمة.

وكأنني سمعته من طريق الإمام أحمد من ابن الحصين، ومن طريق مسلم عن عبد الغافر شيخ شيخنا، ومن طريق أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي

الجيلي التاجر، وتعلم في المدرسة النظامية (الأعلام ٨/ ١٣١).

(١) عبدالله بن محمد بن عبدالله بن عمر بن أحمد بن مجيب بن المجمع بن بحر بن معبد بن هزارمرد الصريفيني، أبو محمد، خطيب صريفين، كان صدوقاً، ولد ليلة الجمعة لخمس خلون من سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، وتوفي في ثالث جمادى الآخرة سنة تسع وستين وأربعمائة (سير أعلام النبلاء ١٨/ ٣٣٠-٣٣٢).

(٢) في الأصل: هبة. وهو خطأ. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١١/ ٩٧)، وتهذيب التهذيب (١١/ ٢٤).

(٣) أخرجه مسلم (١/ ١٦٣ ح١٨١)، وأحمد (٦/ ١٥ ح٢٣٩٧٠)، والبغوي في تفسيره (٢/ ٣٥١).

صاحب «شرح السنة» منه، ومن طريق السرّاج من الخطيب أبي الفضل الطوسي.

وقال الزمخشري[١]: وزعمت المشبّهة والمجبّرة[٢]: أن الزيادة: النظر إلى وجه الله تعالى، وجاءت بحديث [موضوع][٣]. ثم ساق هذا الحديث، ولم يقل عليه شيئاً سوى إيمائه إلى أنه موضوع بقوله: وجاءت.

وما هذه بأول جنايتهم على هذا الدين وتعطيلهم الأحاديث الصحيحة الصريحة؛ بناء على خيالاتهم الفاسدة أنها مصادمةٌ للعقل.

وقد أخرج البخاري ومسلم أيضاً في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال الناس لرسول الله ﷺ: «هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال النبي ﷺ: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا. قال: فهل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا. قال: فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك»[٤].

وأخرجا أيضاً من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ نحوه[٥].

---

(١) الكشاف (٢/ ٣٢٦).

(٢) المشبهة: قوم شبهوا الله تعالى بالمخلوقات ومثلوه بالمحدثات (التعريفات ص:٢٧٤)، والمجبرة أو الجبرية: الذين يقولون: أجبر الله العباد على الذنوب أي: أكرههم، ومعاذ الله أن يكره أحداً على معصية (تاج العروس ١/ ٢٥٨٣).

(٣) في الأصل والكشاف: مرفوع. وهو خطأ، وهو ما أكده ابن حيان في البحر المحيط بقوله تعليقاً على ذلك: وأما قوله: وجاءت بحديث موضوع، فليس بموضوع، فقد خرجه مسلم في صحيحه عن صهيب ... (انظر: البحر المحيط لابن حيان ٥/ ١٤٦-١٤٧).

(٤) أخرجه البخاري (٥/ ٢٤٠٣ ح٦٢٠٤)، ومسلم (١/ ١٦٣-١٦٤ ح١٨٢).

(٥) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٧١-١٦٧٢ ح٤٣٠٥)، ومسلم (١/ ١٦٧ ح١٨٣).

قوله تعالى: ﴿ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة﴾ يقال: رَهِقَهُ ما يَكْره رَهَقاً؛ إِذَا غَشِيَهُ[١].

قال الزجاج[٢]: القَتَرُ: الغَبَرة معها سواد.

قال ابن عباس: سواد الوجوه مع الكآبة[٣].

وقال عطاء: دخان جهنم[٤].

وقرأ جماعة منهم الحسن: «قَتْر» بإسكان التاء[٥].

والذِّلّة: الهوان.

قوله تعالى: ﴿والذين كسبوا السيئات﴾ قال ابن عباس: عملوا الشرك[٦].

﴿جزاء سيئة بمثلها﴾ فيه إضمار تقديره: وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها لا يزاد عليها.

وقال الفراء[٧]: التقدير: لهم جزاء سيئة بمثلها.

وأنشد ثعلب:

---

(١) انظر: اللسان، مادة: رهق.

(٢) معاني الزجاج (٣/ ١٥).

(٣) أخرجه الطبري (١١/ ١٠٩)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٤٦). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٦٠) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

والكآبة: هي سوء الحال والانكسار من الحزن (اللسان، مادة: كأب).

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٤٥)، وزاد المسير (٤/ ٢٥).

(٥) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٨).

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٤٥)، وزاد المسير (٤/ ٢٥).

(٧) معاني الفراء (١/ ٤٦١).

فَإِنْ سَأَلَ الوَاشُـونَ عَنْـهُ فَقُـلْ لَهُـمْ   وَذَاكَ عَطَـاءٌ لِلْوُشَـاةِ جَزِيـلُ
مُلِـمٌّ بلَيْلَى لَمَّـةً ثـمَّ إِنَّـهُ   لَهَـاجِرُ لَيْلَى بَعْدَهَا فَمُطِيـلُ [١]

أراد: هو مُلِمّ.

والباء في قوله: «بمثلها» زائدة.

﴿ما لهم من الله من عاصم﴾ أي: مانع فمنعهم من عذابه، ﴿كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً﴾ قرأ الأكثرون: «قِطَعاً» بفتح الطاء، جمع قِطْعَة؛ كدِمْنَةٌ ودِمَن. وقرأ ابن كثير والكسائي: «قِطْعاً» بإسكان الطاء[٢].

وقوله: «من الليل» صفة لـ«قِطَعاً»[٣].

وقوله: «مُظْلِماً» حال من الجار والمجرور، والعامل فيها «أغشيت»، أو ما في الجار والمجرور من معنى الفعل[٤].

ومن أسكن الطاء جعل «مُظْلِماً» صفة لـ«قِطَعاً».

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا

---

(١) انظر البيتين في: زاد المسير (٤/ ٢٥-٢٦).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٣٦١)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٣٠)، والكشف (١/ ٥١٧)، والنشر (٢/ ٢٨٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٨)، والسبعة في القراءات (ص:٣٢٥).

(٣) انظر: التبيان (٢/ ٢٧-٢٨)، والدر المصون (٤/ ٢٥).

(٤)مثل السابق.

أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾
قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن
يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ
فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ
ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى
ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾ يعني: الكفار وآلهتهم، ﴿ثم نقول للذين أشركوا مكانكم﴾ أي: الزموا مكانكم حتى يفصل بينكم.

قال الزجاج(١): هي كلمة [جَرَتْ](٢) على الوعيد.

وقوله: ﴿أنتم﴾ توكيد للضمير في «مكانكم»، ﴿وشركاؤكم﴾ عطف عليه(٣)؛ كقوله: ﴿اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ [البقرة:٣٥].

﴿أنتم وشركاؤكم﴾ بمعنى: آلهتهم، ﴿فزَيَّلْنا بينهم﴾ فرَّقنا بينهم، من قولك: أَزَلْتُ الشَّيْءَ عن مكانه أُزِيلُه، وَزَيَّلْنا للتكثير. والمعنى: قطعنا الوصل التي كانت بينهم في الدنيا، وتبرَّأ كل معبود من دون الله ممن عبده، وذلك قوله: ﴿وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون﴾.

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ١٦).

(٢) في الأصل: وجرت. والتصويب من معاني الزجاج، الموضع السابق.

(٣) انظر: التبيان (٢/ ٢٨)، والدر المصون (٤/ ٢٧).

قال ابن عباس: أنكروا عبادتهم[١].

وذلك أن الله تعالى يُنطق الأوثان، فتقول: ما كنا نشعر بأنكم إيانا تعبدون، فتبرؤا منهم قطعاً لأطماعهم الكاذبة، وآمالهم الخائبة في قولهم: تُقرِّبنا إلى الله وتَشْفَع لنا عنده، فيقول المشركون: بلى عبدناكم، فتقول الأصنام: ﴿فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم﴾.

قال ابن الأنباري[٢]: الباء في «بالله» دخلت توكيداً للكلام، إذ سقوطها ممكن، كما يقال: خذ بالخطام، [وخذ][٣] الخطام.

﴿إن كنا عن عبادتكم لغافلين﴾ هذه «إنْ» المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة.

وقال الزجاج وكثير من النُّحَاة البصراء بالعربية[٤]: المعنى: ما كنا عن عبادتكم إيانا إلا غافلين؛ لأنه لم يكن فينا أرواح، ولم يكن لنا قلوب نعقل بها هنالك، أي: في ذلك المقام، أو في ذلك الوقت، على استعارة اسم المكان للزمان.

قال الزجاج[٥]: ﴿هنالك﴾ ظرف، المعنى: في ذلك الوقت تبلوا، وهو منصوب [بـ«تَبْلُوا»][٦]، والأصل: «هناك»، وكسرت اللام لسكونها وسكون الألف، والكاف للمخاطبة.

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٤٦)، وزاد المسير (٤/ ٢٧).

(٢) انظر: زاد المسير (٤/ ٢٧).

(٣) في الأصل: وجد. والتصويب من زاد المسير، الموضع السابق.

(٤) معاني الزجاج (٣/ ١٦).

(٥) معاني الزجاج (٣/ ١٧).

(٦) في الأصل: بتلو. والتصويب من معاني الزجاج، الموضع السابق.

﴿تبْلُوا﴾ أي: تختبر وتذوق ﴿كل نفس ما أسلفت﴾ في الدنيا من خير وشر.

وقرأ حمزة والكسائي: «تتلوا» بتائين[1]، بمعنى: تقرأ كتاب أعمالها، ودليله قوله تعالى: ﴿اقرأ كتابك﴾ [الإسراء:١٤]، وقوله: ﴿مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾ [الكهف:٤٩]، وقوله: ﴿فأولئك يقرؤون كتابهم﴾ [الإسراء:٧١].

وقيل: معنى «تَتْلُوا»: تَتْبَع، فالمعنى: هنالك تتبع كل نفس صالحة أو طالحة ما قدمت من العمل؛ لأن العمل يهدي صاحبه إلى مستقره من الجنة والنار.

﴿ورُدُّوا إلى الله مولاهم الحق﴾ الثابت الربوبية الصادق فيها، ﴿وضل عنهم﴾ بطل وزال ﴿ما كانوا يفترون﴾ أي: يختلقون لله من الأنداد والأولاد.

ثم ألزمهم الحجة باضطرارهم إلا ما لا يجدون بداً من الإقرار به، فقال: ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض﴾ أي: من السماء المطر، ومن الأرض الحبوب والثمر، ﴿أم من يملك السمع والأبصار﴾ أي: من يقدر على خلقهما وتسويتهما على الهيئة القابلة لما هو المقصود منهما والمراد بهما، ومن يقدر على حمايتهما وحفظهما من الآفات المتكاثرة في الأزمان المتطاولة المتقاطرة، مع لطف مغانيهما وجواهرهما.

﴿ومن يدبر الأمر﴾ يريد: أمر الكون الكلي من الهيكل العلوي والمركز السفلي، ﴿فسيقولون الله﴾ قل لهم عند إقرارهم بذلك منكراً وموبخاً: ﴿أفلا تتقون﴾ الذي خلق ورزق وقدر ودبَّر فلا تشركوا به شيئاً.

﴿فذلكم الله﴾ الذي فعل هذه الأشياء ﴿ربكم الحق﴾ الثابت الربوبية لا

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٣٦٢)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٣١)، والكشف (١/ ٥١٧)، والنشر (٢/ ٢٨٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٨-٢٤٩)، والسبعة في القراءات (ص:٣٢٥).

الأصنام، ﴿فماذا بعد الحق﴾ الذي ظهر دليله ووضح سبيله ﴿إلا الضلال﴾ لحصول القطع والجزم بأن لا واسطة بينهما، ﴿فأنى تصرفون﴾ أي: كيف تصرفون عقولكم عن الحق الواضح إلى الضلال الفاضح.

﴿كذلك﴾ أي: مثل ذلك الحق أو مثل ذلك الصرف، ﴿حقت كلمة ربك﴾ حق عليهم ﴿أنهم لا يؤمنون﴾.

قال الزجاج[(١)]: «أنهم لا يؤمنون» بدل من «كلمة ربك»، أَعْلَمَ الله أنهم بأعمالهم قد امتنعوا من الإيمان. وجائز أن تكون الكلمة: حقَّت عليهم لأنهم لا يؤمنون، وتكون الكلمة: ما وُعدوا به من العقاب.

ومن قرأ: «كلمات» على الجمع هاهنا، وفي الموضع الثاني، وفي حم المؤمن - وهو نافع وابن عامر -؛ فلِتعدد الوعيد[(٢)].

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى: ﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق﴾ أي: من يقدر على أن

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ١٨).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٣٦٣)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٣١)، والكشف (١/ ٤٤٧)، والنشر (٢/ ٢٦٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٩)، والسبعة في القراءات (ص:٣٢٦).

يوجده ابتداء ﴿ثم يعيده﴾ تلاشية، ﴿قل﴾ لهم يا محمد إذا بُهِتوا وانسدَّت عليهم مسالك المبادرة إلى المكابرة: ﴿الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ يوم القيامة ﴿فأنى تؤفكون﴾.

﴿قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق﴾ أي: يدل عليه ويوضح طريق الوصول إليه، ﴿قل الله يهدي للحق﴾ يقال: هدى للحق وهدى إليه، ﴿أفمن يهدي إلى الحق﴾ وهو الله الذي هدى الخلق إلى الحق وأوضحه لهم على أَلْسِنَةِ الرسل، وجعل لهم برهاناً فاصلاً وسبباً موصلاً مميزاً بين الحق والباطل يسمى العقل، فهذا الله الذي هدى الخلق إلى الحق ﴿أحق أن يتبع﴾ فيما أمر ونهى وشَرَّع.

﴿أَمَّنْ لاَ يَهِدِّي﴾ وهو الصنم ﴿إلا أن يُهْدَى﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ووَرْش عن نافع: «[أَمَّنْ][1] لا يَهَدِّي» بفتح الياء والهاء وتشديد الدال[2].

وروي عن أبي عمرو اختلاس فتحة الهاء[3]، وبالوجهين قرأت على أشياخي له.

وقرأ قالون عن نافع بفتح الياء وسكون الهاء وتشديد الدال، وروي عنه اختلاس فتحة الهاء كأبي عمرو[4].

وقرأ حفص عن عاصم بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال، ومثله أبو بكر

---

(١) في الأصل: أم.

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٣٦٤)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٣١)، والكشف (١/ ٥١٨)، والنشر (٢/ ٢٨٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٩)، والسبعة في القراءات (ص:٣٢٦).

(٣) انظر: المصادر السابقة.

(٤) مثل السابق.

إلا أنه زاد كسر الياء[١].

وقرأ حمزة والكسائي بفتح الياء وسكون الهاء وتخفيف الدال[٢].

فمن شَدَّدَ بناه على اهتدى يهتدي، ثم أدغم التاء في الدال؛ لاتفاقهما في المخرج. فابن كثير ومن وافقه نقل حركة الياء إلى الهاء. ومن اختلس الفتحة أشار بالاختلاس إلى الفتحة إلى عدم أصالتها، وأنه جيء بالاختلاس لتخليص الهاء من السكون. ومن كَسَرَ الهاء؛ فلالتقاء الساكنين.

ومن كَسَرَ الياء والهاء فَعِلَّته الاتباع. ومن سَكَّنَ الهاء بقّاها على أصلها. ومن خَفَّفَ جعله من هدى يهدي.

فالمعنى: لا يهدي غيره إلا إن هداه الله، أو لا يهتدي في نفسه ولا يصح منه الاهتداء، إلا أن ينقله الله من حاله فيجعله حيواناً فاهماً.

﴿فما لكم﴾ «ما» مبتدأ، و «لكم» خبره[٣].

قال الزجاج[٤]: قوله: «فما لكم» كلام تام، كأنه قيل لهم: أي شيء لكم في عبادة الأوثان، ثم قيل لهم: ﴿كيف تحكمون﴾ على أي حال تحكمون. فموضع «كيف» نصب بـ«تحكمون».

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٣٦٤)، والكشف (١/ ٥١٨)، والنشر (٢/ ٢٨٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٩)، والسبعة في القراءات (ص:٣٢٦).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٣٦٤)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٣٢)، والكشف (١/ ٥١٨)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٩).

(٣) التبيان (٢/ ٢٨)، والدر المصون (٤/ ٣٢).

(٤) معاني الزجاج (٣/ ٢٠).

قال مقاتل[١]: المعنى: كيف تقضون بالجَوْر؟

قوله تعالى: ﴿وما يتبع أكثرهم إلا ظناً﴾ قال الثعلبي والشيخ أبو الفرج ابن الجوزي وكثير من العلماء[٢]: المراد بالأكثر: الكل، وقالوا: المعنى: وما يتبعون إلا الظن في قولهم أنها آلهة.

وقال صاحب الكشاف[٣]: المعنى: وما يتبع أكثرهم في إقرارهم بالله إلا ظناً؛ لأنه قول غير مستند إلى برهان عندهم.

والقولان بعيدان، فإن إطلاق الأكثر على الكل في غاية الشذوذ إن ثبت جواز استعماله.

وقول صاحب الكشاف بعيد أيضاً؛ لأن البراهين على معرفة الله والاستدلال بالصنعة على الصانع أمر ظاهر لمن له أدنى مُسْكة من عقل، ولذلك احتجّ الله تعالى عليهم مُلزماً لهم باعترافهم وإقرارهم بالله، وأنه الذي خلقهم ورزقهم، ولم يجدوا بُدّاً من الانقياد إلى تسليم ما ألزموا به، مع استلزام تسليم ذلك بطلان ما انتحلوه ديناً، ولو كان منشأ إقرارهم -كما زعم صاحب الكشاف- لكانوا بسبيل من الإنكار على ما هو المتعارف المتعاهد من ذوي الخصام.

والذي يظهر في نظري: أن المعنى: «وما يتبع أكثرهم» وهم الهمج الرعاع، والاتباع في قولهم أن الأصنام آلهة، «إلا ظناً»؛ لأنه قول لا يقوم بصحته دليل نقلي ولا برهان عقلي.

---

(١) تفسير مقاتل (٢/ ٩٢).

(٢) الثعلبي (٥/ ١٣٢)، وزاد المسير (٤/ ٣١).

(٣) الكشاف (٢/ ٣٣٠).

وأما ذووا البصائر من قادتهم وسادتهم كلهم أو أكثرهم فكانوا على يقين من ضلالهم وبطلان ما هم عليه، لكن حملهم عليه البغي والحسد وحب الاقتداء بالآباء. هذا أبو جهل مع شِدَّة تَمَرُّده وكُفْره يقول لرسول الله ﷺ وقد خلا به يوماً: والله إني لأعلم أنك على الحق، ولكن إذا ذهبتْ قصيٌّ بالسقاية والحجابة واللواء والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فأنزل الله فيه: ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون ... الآية﴾[1].

والوليد بن المغيرة همّ بالدخول في [الإسلام][2] فمنعه أبو جهل، وقد ذكرنا كلامه في الأنفال[3].

وأبو طالب يقول[4]:

أَلاَ أَبْلِغَا عَنِّي عَلَى ذاتِ بَيْننا ... لُؤَيّاً وَخُصَّا مِنْ لُؤَيٍّ بَنِي كَعْبِ
بأَنَّا وَجَدْنَا في الكِتَابِ مُحَمَّداً ... نبيّاً كَمُوسَى خُطَّ في أَوَّلِ الكُتْبِ
وَأَنَّ عَلَيْهِ في العِبَادِ مَحَبَّةً ... وَلاَ خَيْرَ مِمَّنْ خَصَّهُ اللهُ بالحُبِّ

واضطره حب الاقتداء بالسلف، حتى قال عند موته: على ملة الأشياخ.

قوله تعالى: ﴿إن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ «شيئاً» مفعول «يغني»[5]،

---

(١) أسباب النزول للواحدي (ص:٢١٨).

(٢) في الأصل: إسلام.

(٣) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا ...﴾ [الأنفال:٣١].

(٤) انظر: ديوانه (ص:٢١١)، وسيرة ابن هشام (٢/ ١٩٧)، ومعجم البلدان (٤/ ٣٤٥).

(٥) التبيان (٢/ ٢٨)، والدر المصون (٤/ ٣٢).

[وجائز][1] أن يكون في موضع المصدر، أي: لا يغني غناء، وكذا قالوا في قوله: ﴿لا تجزي نفس عن نفس شيئاً﴾ [البقرة:٤٨]، وفي قوله: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً﴾ [النساء:٣٦]، وفي قوله: ﴿يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾ [النور:٥٥]. والمعنى: أن ظنهم أنها آلهة وأنها تنفعهم وتشفع لهم عند الله، لا يقوم مقام الحق ولا يسدّ مسدّه.

وقال مقاتل[2]: المعنى: لا تدفع عنهم من العذاب شيئاً.

وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله﴾ جواب لقولهم: ﴿ائت بقرآن غير هذا أو بدّله﴾، وجواب لقولهم: ﴿افتراه﴾ و «أنْ» مع «يفترى» بمنزلة المصدر، يعني: وما كان هذا القرآن افتراء من دون الله[3].

ويجوز أن تكون «كان» تامة، فيكون التقدير: وما نزل هذا القرآن وظهر لأن

(١) في الأصل: ويز. ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٢) تفسير مقاتل (٢/ ٩٢).

(٣) التبيان (٢/ ٢٨)، والدر المصون (٤/ ٣٣).

يفترى، أو بأن يفترى.

وقال الفراء[١]: معنى الآية: ما ينبغي لمثل هذا القرآن أن يفترى، فجاءت «أن» على معنى: ينبغي.

﴿ولكن تصديق﴾ التقدير: ولكن كان تصديق ﴿الذي بين يديه﴾ الكتب المنزلة، فهو مصدق لها وشاهد بصحتها.

وقيل: تصديق الذي بين يديه من البعث وأمر الآخرة.

وقيل: تصديق للنبي الذي بين يديه؛ لأنهم شاهدوا النبي وعرفوه قبل سماعهم القرآن.

﴿وتفصيل الكتاب﴾ أي: تبين ما كتب وفرض من الأحكام.

قال الزمخشري[٢]: ﴿لا ريب فيه من رب العالمين﴾ جائز أن يكون داخلاً في [حيز][٣] الاستدراك، كأنه قيل: ولكن كان تصديقاً وتفصيلاً [منتفياً][٤] عنه الريب كائناً من رب العالمين.

وجائز أن يكون «من رب العالمين» متعلقاً بـ«تصديق» و «تفصيل»، كأنه قيل: ولكن تصديقاً وتفصيلاً من رب العالمين، ويكون «لا ريب فيه» اعتراضاً.

قوله تعالى: ﴿أم يقولون افتراه﴾ قال أبو عبيدة[٥]: «أم» بمعنى الواو.

---

(١) معاني الفراء (١/ ٤٦٤).

(٢) الكشاف (٢/ ٣٣٠).

(٣) في الأصل: خبر. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

(٤) في الأصل: فمنتفياً. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

(٥) مجاز القرآن (١/ ٢٧٨).

وقال الزجاج[(١)]: بمعنى: بل.

﴿قل فأتوا بسورة مثله﴾ شبيهة به في البلاغة وحسن النظم، فإنكم مثلي نسباً ولساناً ومنشأً، إن كان الأمر على ما تزعمونه من كوني افتريته، ﴿وادعوا﴾ أي: واستعينوا بمن ﴿استطعتم من دون الله﴾ على الإتيان بسورةٍ مثله، فإنه لا يقدر على ذلك إلا الله، ﴿إن كنتم صادقين﴾ أني افتريته.

﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله﴾ أي: سارعوا إلى التكذيب بالقرآن في أول وهلة، قبل الوقوف والنظر في معجزه وتدبر ألفاظه الرصينة، ومعانيه الرزينة، فراراً منه، ونفوراً عنه؛ لما استقر في أنفسهم من حب الاقتداء بالآباء، وحسداً وعناداً للمخصوص من بينهم بمنصب الرسالة.

قال صاحب الكشاف[(٢)]: وقيل: هم الذين كذبوا وهم شاكّون.

وقيل: معنى قوله: «ولما يأتهم تأويله»: ولم يأتهم بَعْدُ تَأْوِيلُ ما فيه من الإخبار بالغيوب، أي: عاقبته، حتى يتبين لهم أكذب هو أم صدق، يعني: أنه كتاب معجز من جهتين: من [جهة][(٣)] إعجاز نظمه، ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب، فيسرعوا إلى التكذيب [به][(٤)] قبل أن ينظروا في نظمه وبلوغ حدّ الإعجاز، وقبل أن يَخْبُرُوا إخباره بالمغيبات وصدقه وكذبه.

قيل لسفيان بن عيينة رحمه الله: الناس يقولون: كلُّ إنسان عدو ما جهل.

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ٢١).

(٢) الكشاف (٢/ ٣٣١).

(٣) في الأصل: وجهة. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

(٤) زيادة من الكشاف، الموضع السابق.

فقال: هذا في كتاب الله. قال الله: ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه﴾[(١)].

وقيل للحسين بن الفضل: هل تجد في القرآن: من جهل شيئاً عاداه؟ قال: نعم في موضعين؛ قوله: ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه﴾، وقوله: ﴿وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم﴾[(٢)].

أخبرنا أبو الحسن علي بن عبدالكريم، المعروف بابن الأثير الجزري وغيره، قالوا: أخبرنا الخطيب أبو الفضل عبدالله بن أحمد الطوسي، أخبرنا أبو محمد جعفر بن أحمد السراج، حدثنا عبدالوهاب بن علي، أخبرنا المعافا بن زكريا، حدثنا الحسين بن القاسم الكوكبي، حدثنا جرير بن أحمد بن أبي [داود][(٣)]، قال: سمعت العباس بن المأمون قال: سمعت أمير المؤمنين المأمون يقول: قال لي ابن موسى الرضا عليهما السلام: ثلاثة موكل بها ثلاثة: تحامل الأيام على ذوي [الآداب][(٤)] الكاملة، واستيلاء الحِرْمان على المتقدم في صنعته، ومعاداة العوام لأهل المعرفة[(٥)].

وقد ذكرت هذا في أوائل البقرة بإسناد آخر.

قوله تعالى: ﴿ومنهم من يؤمن به﴾ قال ابن عباس: يعني: ومن اليهود[(٦)].

---

(١) زاد المسير (٤/ ٣٣).

(٢) مثل السابق.

(٣) في الأصل: رواد. انظر: سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٩٥، ١٣/ ١٢٨). وانظر ترجمة والده في: لسان الميزان (١/ ١٧١).

(٤) في الأصل: الأدوات. والتصويب من التدوين (١/ ٤٣٩).

(٥) ذكره القزويني في كتابه: التدوين في أخبار قزوين (١/ ٤٣٨-٤٣٩).

(٦) زاد المسير (٤/ ٣٤).

وقال مقاتل[١]: ومن قريش.

﴿من يؤمن به﴾ أي: بمحمد.

وقيل: بالقرآن، ويعلم بأنه حق، لكنه يعاند بالتكذيب.

﴿ومنهم من لا يؤمن به﴾ أي: منهم من يشك ولا يُصدِّق. هذا قول الزجاج[٢].

وقال غيره: المعنى: ومنهم من يؤمن به، ومنهم من يصر على التكذيب ولا يؤمن به، فأخبر الله بما سبق من علمه فيهم، ﴿وربك أعلم بالمفسدين﴾ أي: المعاندين والمكذبين. وهذا تهديد لهم.

وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

﴿وإن كذبوك﴾ أصروا على تكذيبك فتبرأ منهم، ﴿فقل لي عملي ولكم عملكم﴾، وهذا كقوله: ﴿فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون﴾ [الشعراء:٢١٦].

قال ابن عباس ومقاتل والكلبي وجمهور سلف المفسرين: نسختها آية

---

(١) تفسير مقاتل (٢/ ٩٣).

(٢) معاني الزجاج (٣/ ٢٢).

السيف[١].

والصحيح: أنها محكمة؛ لإمكان العمل بالآيتين.

﴿ومنهم من يستمعون إليك﴾ أي: ومنهم ناس يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع ونطقت بالحكم ولكنهم لا يعون ولا يقبلون.

﴿أفأنت تسمع الصم﴾ قال الزجاج[٢]: هم لشدة عداوتهم وبغضهم للنبي ﷺ وسوء استماعهم بمنزلة الصم، ﴿ولو كانوا لا يعقلون﴾ أي: ولو كانوا مع ذلك جهالاً، وهذا مثل قول الشاعر:

.... أَصَمُّ عَمَّا سَاءَهُ سَمِيعُ[٣]

قال صاحب الكشاف[٤]: المعنى: أتطمع أنك تقدر على إسماع الصم ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم؛ لأن الأصم العاقل ربما تَفَرَّس، واستدل إذا وقع في صِمَاخِهِ[٥] دَوِيّ الصوت، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعاً فقد تم الأمر.

﴿ومنهم من ينظر إليك﴾ أي: يعاينون أدلة صدقك، وأعلام نبوتك، ولكنهم لنفرتهم عنك وكراهتهم لما جئت به كالعُمْي.

---

(١) الطبري (١١/ ١١٩)، والوسيط (٢/ ٥٤٨)، وزاد المسير (٤/ ٣٤). وانظر دعوى النسخ في: الناسخ والمنسوخ لابن سلامة (ص:١٠٣)، والناسخ والمنسوخ لابن حزم (ص:٤١)، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (ص:٣٧٢-٣٧٣).

(٢) معاني الزجاج (٣/ ٢٢).

(٣) لا يعرف قائله.

(٤) الكشاف (٢/ ٣٣٢).

(٥) الصِّماخ: الخرقُ الباطن الذي يُفضي إلى الرأس. ويقال: هو الأُذن نفسها (اللسان، مادة: صمخ).

﴿أفأنت تهدي العمي﴾ أي: أفأنت [تقدر][(١)] على هداية العُمْي، ﴿ولو كانوا لا يبصرون﴾ أي: ولو انضمّ إلى فقد أبصارهم؛ لأن الأعمى الألمعي يهتدي بنور بصيرته إلى عِلْمِ ما يهتدي البصير إليه بضوء بصره.

والمعنى: أن هؤلاء في الناس من أن يقبلوا ويصدقوا، كالصم والعمي الذين لا عقول لهم ولا بصائر.

قوله تعالى: ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً﴾ لأنه المالك على الحقيقة، فيستحيل نسبة الظلم إليه بوجه من الوجوه.

﴿ولكنّ الناس﴾ وقرأ حمزة والكسائي: «ولكنْ» بتخفيف النون وكسرها في الوصل، ورفع «الناس»[(٢)].

﴿أنفسهم يظلمون﴾ بما اكتسبوا من الكفر والمعاصي، فإن الفعل منسوب إليهم وإن كان القضاء جرى به عليهم.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى: ﴿ويوم نَحْشُرُهُمْ﴾ وقرأ حفص: «يَحْشُرُهُمْ» بالياء[(٣)].

﴿كأن لم يلبثوا﴾ قال ابن عباس: يعني: في قبورهم[(٤)].

---

(١) في الأصل: يقدر.

(٢) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٠).

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٣٧٦)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٣٢)، والكشف (١/ ٤٥١-٤٥٢)، والنشر (٢/ ٢٦٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٠)، والسبعة في القراءات (ص:٣٢٧).

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٤٩)، وزاد المسير (٤/ ٣٦).

﴿إلا ساعة من النهار﴾ قال الضحاك: قَصُرَ عندهم مقدار الوقتُ الذي بين موتهم وبعثهم، فصار كالساعة من النهار، لهول ما استقبلوا من القيامة[١].

وقال مقاتل[٢]: «كأن لم يلبثوا» يعني: في الدنيا.

والكاف في «كأن» في موضع الحال[٣]، تقديره: مشابهين قوماً لم يلبثوا إلا ساعة.

﴿يتعارفون بينهم﴾ أي: يعرف بعضهم بعضاً، كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلاً.

قال ابن عباس: إذا بعثوا من قبورهم تعارفوا، ثم تنقطع المعرفة[٤].

قال الزجاج[٥]: في معرفة بعضهم بعضاً وعلم بعضهم بإضلال بعض، التوبيخ لهم وإثبات الحجة عليهم.

وقيل: إذا تعارفوا وَبَّخَ بعضهم بعضاً، فيقول هذا لهذا: أنت أضللتني وكسبتني دخول النار[٦].

وقوله: «يتعارفون» حال بعد حال، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في «يلبثوا».

ويجوز أن يكون مستأنفاً، على معنى: هم يتعارفون بينهم، ويجوز أن يكون

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٤٩)، وزاد المسير (٤/ ٣٦).
(٢) تفسير مقاتل (٢/ ٩٤).
(٣) التبيان (٢/ ٢٩)، والدر المصون (٤/ ٣٧).
(٤) الماوردي (٢/ ٤٣٧) من قول الكلبي، وزاد المسير (٤/ ٣٦).
(٥) معاني الزجاج (٣/ ٢٢).
(٦) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٤٩)، وزاد المسير (٤/ ٣٦).

العامل في «يوم نحشرهم»: «يتعارفون»[(١)].

﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله﴾ على إرادة القول، تقديره: يتعارفون بينهم قائلين ذلك، أو هي شهادة من الله على خسرانهم.

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى: ﴿وإما نرينك بعض الذي نعدهم﴾ مثل قوله: ﴿فإما يأتينكم مني هدى﴾ [البقرة:٣٨]، وقد سبق القول فيه.

قال المفسرون: وكانت وقعة بدر مما أراه الله في حياته[(٢)].

﴿أو نتوفينك﴾ قبل أن نريك.

قال الزجاج[(٣)]: أَعْلَمَ الله عز وجل النبي ﷺ أنه ينتقم من بعض هذه الأمة، ولم يُعلِمْه أيكون ذلك قبل وفاته أو بعدها.

والذي تدل عليه الآية: أن الله -عز وجل- أعلمه أنه إن لم ينتقم منهم في العاجل انتقم منهم في الآجل.

---

(١) التبيان (٢/ ٢٩)، والدر المصون (٤/ ٣٧).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٤٩)، وزاد المسير (٤/ ٣٦).

(٣) معاني الزجاج (٣/ ٢٣).

قال الزمخشري[١]: جواب «نتوفينك» و «نرينك» [محذوف][٢]، كأنه قيل: وإما نرينك بعض الذي نعدهم في الدنيا فذلك، أو نتوفينك [قبل][٣] أن نريكه هو، فنحن نريكه في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾ قال الفراء[٤]: «ثم» هاهنا عطف.

قال الزمخشري[٥]: فإن قلت: الله شهيد على ما يفعلون في الدارين فما معنى ثُمَّ؟

قلتُ: ذكرت الشهادة، والمراد: مقتضاها ونتيجتها، وهو العقاب، فكأنه قال: ثم الله معاقب على ما يفعلون.

وقرأ ابن أبي عبلة: «ثَمَّ الله» بفتح الثاء[٦]، أي: هنالك الله شهيد عليهم باستنطاق جوارحهم وإظهار فضائحهم.

قوله تعالى: ﴿ولكل أمة رسول﴾ قد سبق معنى الآية فيما مضى[٧].

والمعنى: لكل أمة من الأمم رسول أرسله الله إليهم، مبشراً لمن أطاعه بثوابه، ومحذراً لمن عصاه بعقابه، وآمراً لهم بعبادة الله وتوحيده، ومبيناً لهم أحكام شريعته في عبيده.

---

(١) الكشاف (٢/ ٣٣٣).

(٢) في الأصل: محذف. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

(٣) زيادة من الكشاف، الموضع السابق.

(٤) معاني الفراء (١/ ٤٦٦).

(٥) الكشاف (٢/ ٣٣٣).

(٦) زاد المسير (٤/ ٣٧).

(٧) عند تفسير الآية (٣٤) من سورة الأعراف.

﴿فإذا جاء رسولهم﴾ أي: فإذا أتاهم بالبينات فكذبوه ولم يتبعوه ﴿قضي بينهم﴾ وبينه ﴿بالقسط﴾ أي: بالعدل، فأنجى الرسول ومن وافقه، وأهلك من شاققه أو نافقه. وهذا معنى قول الحسن(١).

ويجوز أن يكون المعنى: فإذا جاء رسولهم الموقف شاهداً عليهم ولهم، قضي بينهم بالقسط.

قوله تعالى: ﴿ويقولون﴾ يعني: مكذبي كل أمة، في قول ابن عباس(٢). أو مكذبي هذه الأمة، في قول غيره(٣).

والمعنى: ويقولون للنبي وأتباعه على وجه الاستبعاد لما توعدوا به من العذاب والمعاد: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾.

﴿قل﴾ لهم يا محمد ﴿لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً﴾ المعنى: فكيف أملكه عليكم وأجلب العذاب إليكم. وقد سبق تفسير الآية في سورة الأعراف(٤).

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾

---

(١) زاد المسير (٤/ ٣٧).

(٢) مثل السابق.

(٣) مثل السابق.

(٤) عند تفسير الآية (١٨٨) من سورة الأعراف.

قوله تعالى: ﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً﴾ المعنى: أخبروني إن أتاكم عذاب الله «بياتاً» ليلاً وأنتم ساهون نائمون، «أو نهاراً» وأنتم متشاغلون بطلب معايشكم.

وجواب الشرط محذوف، تقديره: تندموا، أو يكون الجواب: «ماذا يستعجل»؛ كقولك: إن أتيتك [ماذا][1] تُطْعِمُني؟. أو يكون الجواب ﴿أثم إذا ما وقع آمنتم به﴾، ويكون «ماذا يستعجل» اعتراضاً.

والمعنى: إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه، حين لا ينفعكم الإيمان.

وقوله: «ما» في موضع رفع، و «ذا» بمعنى الذي في موضع خبره، أي: ما الذي يستعجله. ويجوز أن تكون «ماذا» اسماً واحداً منصوباً بـ«يستعجل»، والهاء في «منه» تعود إلى العذاب[2].

قال أهل التفسير: كانوا يقولون: نكذب بالعذاب ونستعجله، ثم إذا ما وقع آمنا به، فقال الله تعالى موبخاً لهم: ﴿أثم إذا ما وقع آمنتم به﴾[3]؟.

قال الزمخشري[4]: ودخول حرف الاستفهام على ثم، كدخوله على الواو والفاء في قوله: ﴿أفأمن أهل القرى﴾ [الأعراف:٩٧]، ﴿أو أمن أهل القرى﴾ [الأعراف:٩٨].

﴿آلآن﴾ على إرادة القول، أي: قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب: الآن آمنتم

---

(١) في الأصل: فإذاً. والتصويب من الكشاف (٢/ ٣٣٤).

(٢) التبيان (١/ ٩١، ٢/ ٢٩)، والدر المصون (٤/ ٤٠-٤١).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٥٠)، وزاد المسير (٤/ ٣٨).

(٤) الكشاف (٢/ ٣٣٤).

به، ﴿وقد كنتم به تستعجلون﴾ أي: وقد كنتم تكذبون؛ لأن استعجالهم كان على جهة التكذيب والإنكار.

وقرأتُ على الشيخين أبي البقاء وأبي عمرو الياسري لأبي جعفر من طريق النهرواني، ولنافع من رواية وَرْش «آلاَن» بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام حيث وقع[١]. وقد سبق القول على معناه في سورة البقرة عند قوله: ﴿قالوا الآن جئت بالحق﴾ [٧١].

﴿ثم قيل للذين ظلموا﴾ زيادة في عذابهم، وقَطْعاً لأطماعهم، وما عساه يتوهمونه من احتمال مزايلة العذاب، ﴿ذوقوا عذاب الخلد﴾ وهو الدوام ﴿هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون﴾ من الكفر والآثام.

قوله تعالى: ﴿ويستنبئونك أحق هو﴾ أي: ويستخبرونك على وجه الاستهزاء فيقولون: أحق هو؟ يعنون: العذاب والبعث، ﴿قل إي وربي﴾ أي: نعم وربي.

وفتَحَ الياء من «ربي» نافع وأبو عمرو، وأسكنها الخمسة الباقون[٢].

﴿إنه لحق وما أنتم بمعجزين﴾ بفائتين العذاب، وهو لاحق بكم لا محالة.

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٣٧٤-٣٧٥)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٣٣)، والكشف (١/ ٩١)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٠)، والسبعة في القراءات (ص:٣٢٧).

(٢) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٢).

﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٥٦﴾

قوله تعالى: ﴿ولو أن لكل نفس ظلمت﴾ أي: أشركت. وقوله: «ظلمت» في موضع جر صفة لـ«نفس»[(١)].

﴿ما في الأرض﴾ يعني: ما فيها من ذهب وفضة وغيرهما من أصناف الأموال وما ينتفع به، ﴿لافتدت به﴾ لبذلته مفتدية بـه مـن العـذاب، ﴿وأسرُّوا الندامـة﴾ أخفوها وكتموها عجزاً عن إظهارها لما لابسهم وخامر قلوبهم من خوف أهوال القيامة.

وقال أكثر المفسرين: المعنى: إخفاء الرؤساء الندامة من الذين أضلوهم، حياء منهم، وخوفاً من تقريعهم وتوبيخهم[(٢)].

وقال جماعة، منهم أبو عبيـدة[(٣)] [والمفـضل][(٤)]: «أسرُّوا الندامـة» بمعنـى: [أظهروا][(٥)]؛ لأنه ليس بيوم تصنّع ولا تـصبّر، والإسرار مـن الأضـداد، يقـال: أسررت الشيء، بمعنى: أخفيته وأظهرته، وأنشدوا قول الفرزدق:

وَلَمَّا رَأَى الحَجَّاجَ جَرَّدَ سَيْفَهُ   أَسَرَّ الحَرُورِيُّ الذِي كَانَ أَضْمَرَا[(٦)]

---

(١) الدر المصون (٤/ ٤٣).

(٢) الطبري (١١/ ١٢٣)، وزاد المسير (٤/ ٣٩).

(٣) لم أقف عليه في مجاز القرآن. وانظر: زاد المسير (٤/ ٣٩).

(٤) في الأصل: والفضل. والتصويب من زاد المسير، الموضع السابق.

(٥) في الأصل: أظهوها. والتصويب من زاد المسير، الموضع السابق.

(٦) لم أقف عليه في ديوانـه. وهـو في: اللسان، مـادة: (سرر)، والطـبري (١٦/ ١٥٢)، وزاد المـسير (٤/ ٣٩)، والبحر المحيط (٥/ ١٦٧) وفيه: «أظهرا» بدل: «أضمرا»، والـدر المـصون (٤/ ٤٣)، وروح المعاني (١٧/ ٧).

﴿وقضي بينهم بالقسط﴾ أي: بين الظالمين والمظلومين، ودلّ على ذلك ذكر الظلم.

قوله تعالى: ﴿ألا إن لله ما في السموات والأرض ألا إن وعد الله حق﴾ قال ابن عباس: يريد ما وعد أولياءه من الثواب وأعداءه من العقاب(١).

﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ يريد: المشركين.

﴿هو يحيي ويميت﴾ فأنى يعجزه ما يريد بكم من عذاب وغيره.

ثم تهددهم فقال: ﴿وإليه يرجعون﴾.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَـٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم﴾ يعني: القرآن،

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٥٠)، وزاد المسير (٤/ ٤٠).

﴿وشفاء لما في الصدور﴾ أي: ودواء لما في القلوب من أمراض الشك والشرك والجهل، ﴿وهدى﴾ بيان ﴿ورحمة للمؤمنين﴾.

﴿قل بفضل الله﴾ وهو الإسلام، ﴿وبرحمته﴾ وهي القرآن. هذا قول ابن عباس وأكثر المفسرين[١].

وقال أبو سعيد الخدري: «فضل الله»: القرآن، «ورحمته»: أن جعلكم من أهله[٢].

وقيل: «فضل الله»: القرآن، «ورحمته»: السُّنَّة[٣].

﴿فبذلك فليفرحوا﴾ قال الزمخشري[٤]: الفاء داخلة لمعنى الشرط، كأنه قيل: إن فرحوا بشيء فليخصوهما بالفرح، فإنه لا مفروح به أحق منهما.

وقرأ أُبيّ بن كعب ورويس عن يعقوب: «فَلْتَفْرَحُوا» بالتاء[٥]، وكذلك الحسن، إلا أنه كسر اللام[٦].

---

(١) أخرجه الطبري (١١/ ١٢٥)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٥٩). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٦٧) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي.

(٢) أخرجه الطبري (١١/ ١٢٤)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٥٨)، وسعيد بن منصور في سننه (٥/ ٣١٤)، وابن أبي شيبة (٦/ ١٣٢)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٥٢٤). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٦٧) وعزاه لأبي الشيخ وابن مردويه عن أنس.

(٣) وهو قول خالد بن معدان. انظر: زاد المسير (٤/ ٤١).

(٤) الكشاف (٢/ ٣٣٦).

(٥) الحجة لابن زنجلة (ص:٣٣٣)، والكشف (١/ ٥٢٠)، والنشر (٢/ ٢٨٥)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٢).

(٦) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٢).

وقرأ ابن مسعود: «فَافْرَحُوا»(١).

﴿هو خير مما يجمعون﴾ من متاع الدنيا.

وقرأتُ لأبي جعفر وابن عامر ورويس: «مما تجمعون» بتاء المخاطبة(٢).

﴿قل﴾ يا محمد لكفار قريش: ﴿أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق﴾ أي: خلق لكم من زرع وضرع. وعَبَّرَ عن الخلق بالإنزال؛ لأنه بسببه. و «ما» في قوله: «ما أنزل الله» في محل النصب بـ«أنزل» أو بـ«أرأيتم»، في معنى: أخبرونيه(٣).

﴿فجعلتم منه حراماً وحلالاً﴾ وهو قولهم: ﴿هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم﴾ [الأنعام:١٣٨]، وقولهم: ﴿ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا﴾ [الأنعام:١٣٩] وأمثال ذلك.

﴿قل آلله أذن لكم﴾ في التحليل والتحريم ﴿أم على الله تفترون﴾ في نسبة ذلك إليه.

ويجوز أن تكون الهمز للإنكار، و «أم» منقطعة، بمعنى: بل.

﴿وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة﴾ قال صاحب الكشاف(٤): «يوم القيامة» منصوب بالظن، وهو ظن واقع فيه.

وقيل: في الكلام إضمار، تقديره: ما ظنهم أن الله فاعل بهم يوم القيامة جزاء

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٣٦٧).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٣٦٧)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٣٣-٣٣٤)، والكشف (١/ ٥٢٠)، والنشر (٢/ ٢٨٥)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٢)، والسبعة في القراءات (ص:٣٢٧-٣٢٨).

(٣) الدر المصون (٤/ ٤٦).

(٤) الكشاف (٢/ ٣٣٧).

لهم على افترائهم وكفرهم.

﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ حيث أنعم عليهم بإرسال الرسل إليهم.

وقيل: «إن الله لذو فضل على الناس» حيث لم يعجل عليهم بالعقوبة، ﴿ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ نعمة تأخير العذاب عنهم.

قوله تعالى: ﴿وما تكون في شأن﴾ «ما» نافية[١]، والمعنى: ما تكون يا محمد في عمل من الأعمال، ﴿وما تتلو منه﴾ أي: من الشأن؛ لأن تلاوة القرآن شأن من شؤون الرسول ﷺ.

وقيل: «وما تتلو منه» أي: من الله ﴿من قرآن﴾، وقيل: الضمير للتنزيل، أي: وما تتلو من التنزيل من قرآن؛ لأن كل جزء من التنزيل قرآن، والإضمار قبل المذكر تفخيم له، والخطاب للنبي ﷺ، وأمته داخلون في خطابه، ولذلك قال: ﴿ولا تعملون من عمل﴾.

قال ابن الأنباري[٢]: جَمَعَ في هذا ليدل على أنهم داخلون في الفعلين الأولين.

﴿إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه﴾ أي: تندفعون فيه.

وقال ابن قتيبة[٣]: تأخذون.

وقال الزجاج[٤]: تنشرون[٥] فيه. يقال: أفاض القوم في الحديث؛ إذا انتشروا

---

(١) التبيان (٢/ ٣٠)، والدر المصون (٤/ ٤٧).

(٢) زاد المسير (٤/ ٤٢).

(٣) تفسير غريب القرآن (ص:١٩٧).

(٤) معاني الزجاج (٣/ ٢٦).

(٥) في معاني الزجاج: تنتشرون.

فيه وخاضوه[١].

﴿وما يَعْزُبُ عن ربك﴾ وقرأ الكسائي: «يَعْزِبُ» بكسر الزاي هنا وفي سبأ، وهما لغتان[٢].

والمعنى: وما يغيب عن ربك، والعازب: البعيد، ومنه العَزَبُ، كأنه [بَعُدَ][٣] عن الأهل، وتقول: امرأة عَزَبٌ وعَزَبَةٌ، وكلاهما فصيح.

﴿من مثقال ذرة﴾ يعني: زنة ذرة. وقد سبق الكلام على "المثقال" و"الذَّرَّة" في سورة النساء عند قوله: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ [النساء:٤٠].

قوله تعالى: ﴿في الأرض ولا في السماء﴾ إن قيل: لم قَدَّمَ في الذِّكْر الأرض على السماء، ومن حَقِّ السماء أن تُقَدَّمَ على الأرض لشرفها، وكذلك قَدَّمَها في سورة سبأ[٤] في قوله: ﴿لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض﴾ [سبأ:٣].

قلتُ: الأمر على ما ذكرت، لكن لما كان المقصود من هذه السياقة إعلام العباد باطلاع الله على خفايا أعمالهم وأسرارهم، وتنبيههم على تعلق الجزاء بالقليل والكثير، والنقير والفتيل والقطمير من أقوالهم وأفعالهم، قَدَّمَ ذِكْر الأرض؛ لأن الإشارة إلى العِلْم بما فيها أقرب وأدخل في المقصود الذي هو إعلام المكلَّفين وتنبيههم على مجازاتهم، وأوغل في إثبات صفة العلم لله تعالى، على أن العطف

---

(١) انظر: اللسان، مادة: فيض.

(٢) الحجة لابن زنجلة (ص:٣٣٤)، والكشف (١/ ٥٢٠)، والنشر (٢/ ٢٨٥)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٢)، والسبعة في القراءات (ص:٣٢٨).

(٣) في الأصل: معد. والصواب ما أثبتناه. انظر: اللسان، مادة: عزب.

(٤) يلاحظ أن ذكر السماء قُدّم على ذكر الأرض في سورة سبأ.

بالواو حكمه حكم التنبيه عند البصراء بالعربية.

قوله تعالى: ﴿ولا أصغر من ذلك ولا أكبر﴾ قرأ حمزة برفع الراء فيهما. وقرأ الستة الباقون بنصب الراء فيهما[١].

فمن رَفَعَ حمله على موضع «مِنْ»، على تقدير: وما يعزب عن ربك مثقال ذرة ولا أصغر ولا أكبر، كما أن الجماعة حملوا غيره من قوله: ﴿ما لكم من إله غيره﴾ على موضع «مِنْ»، أي ما لكم إله غيره.

وقال الزجاج وغيره[٢]: الفتح على معنى: ما يعزب عن ربك من مثقال ذرة ولا مثقالٍ أصغر من ذلك ولا أكبر، والموضع موضع خفض، إلا أنه فتَحَ لأنه لا ينصرف.

والاستثناء على هذين الوجهين منقطع أو متصل على التقديم والتأخير، تقديره: وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا في كتاب مبين إلا كنا عليكم شهوداً.

وقيل: الوقف على قوله: «ولا في السماء»، والفتح في «أصغر» و «أكبر» لنفي الجنس، والرفع على الابتداء، وما بعده الخبر. والكتاب المبين: [اللوح][٣] المحفوظ.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٣٦٨)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٣٤)، والكشف (١/ ٥٢١)، والنشر (٢/ ٢٨٥)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٢)، والسبعة في القراءات (ص:٣٢٨).

(٢) معاني القرآن للزجاج (٣/ ٢٦).

(٣) زيادة على الأصل.

ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى
ٱلْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا
يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ
مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾
هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ
لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ
أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ
ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ
ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى: ﴿أَلا إن أولياء الله﴾ وهم الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة.

قال ابن عباس: « قال رجل: يا رسول الله، مَنْ أولياء الله؟ قال: الذين إذا رُؤوا [ذُكِرَ](١) الله عز وجل »(٢). يشير بذلك إلى سَمْتِهم وهَدْيِهم وخُشُوعهم.

---

(١) في الأصل: ذكروا. والتصويب من المصادر التالية.

(٢) أخرجه الطبري (١١/ ١٣١)، وابن أبي شيبة (٧/ ٧٩)، والطبراني في الكبير (١٢/ ١٣)، وابن أبي شيبة (٧/ ٧٩). وذكره الضياء المقدسي في المختارة (١٠/ ١٠٧-١٠٨)، والحكيم الترمذي في =

قال علي عليه السلام: ((أولياء الله صفر الوجوه من السهر، عمش العيون من العبر، خمص البطون من الطوى، يبس الشفاه من الذوى))[١].

وقيل: هم المتحابون في الله عز وجل[٢].

روى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: ((إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة، لمكانهم من الله عز وجل. قالوا: يا رسول الله! من هم؟ وما أعمالهم لعلنا نحبهم؟ قال: هم قوم تحابوا بروح الله بغير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها بينهم، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، ثم قرأ: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾))[٣].

فصل

وفي هذه الآية -على هذا التأويل- دليل واضح على فضل المحبة في الله عز وجل.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن الله تعالى يوم القيامة يقول: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي، يوم لا ظل إلا

= نوادر الأصول (٢/ ٣٩)، والديلمي في الفردوس (١/ ١٣٨)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٣). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٧٠) وعزاه للطبراني وأبي الشيخ وابن مردويه والضياء في الأحاديث المختارة.

(١) ذكره القرطبي في التفسير (٨/ ٣٥٨)، والعجلوني في كشف الخفاء (١/ ٥٨).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٧٣) وعزاه لابن مردويه عن أبي هريرة.

(٣) أخرجه أبو داود (٣/ ٢٨٨ ح٣٥٢٧)، والبيهقي في الشعب (٦/ ٤٨٦ ح٨٩٩٨).

ظلي))[١].

وفيه من حديث أبي هريرة أيضاً: أن النبي ﷺ قال: ((إن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى، فأرصد الله له ملكاً على مَدْرَجَته[٢]، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أخاً لي في هذه القرية، فقال: فهل له عليك من نعمة تَرُبُّها[٣]؟ قال: لا، إلا إني أحببته لله عز وجل. قال: فإني رسول الله إليك أن الله أحبّك كما أحببت له))[٤].

قرأتُ على أبي المجد محمد بن الحسين القزويني رحمه الله، أخبركم الإمام أبو منصور محمد بن أسعد الطوسي فأقرَّ به، قال: حدثنا الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، حدثنا أبو الحسن محمد بن محمد الشيرزي[٥]، أبنا زاهر بن أحمد السرخسي[٦]، أبنا إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي[٧]، أبنا أبو

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٨٨ ح٢٥٦٦).

(٢) المَدْرَجَة: الطريق (اللسان، مادة: درج).

(٣) تربّها: أي تحفظها وتراعيها وتُرَبّيها (اللسان، مادة: ربب).

(٤) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٨٨ ح٢٥٦٧).

(٥) محمد بن محمد الشيرزي، أبو الحسن، من قرية شير من سرخس، حدث عن أبي علي زاهر بن أحمد السرخسي، حدث عنه الحسين بن مسعود الفراء في كتاب "شرح السنة" له (تكملة الإكمال ٣/ ٥٦٠).

(٦) زاهر بن أحمد بن محمد عيسى، أبو علي السرخسي، الفقيه الشافعي، دخل نيسابور سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة، وتوفي سنة تسع وثمانين وثلاثمائة، وهو ابن ست وتسعين سنة (التقييد ص: ٢٧١-٢٧٢).

(٧) إبراهيم بن عبد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، أبو إسحاق الهاشمي، سمع من أبي مصعب الزهري كتاب الموطأ، مات بسامراء سنة خمس وعشرين وثلاثمائة (سير أعلام النبلاء ١٥/ ٧١-٧٣، والتقييد ص: ١٩٠-١٩١).

مصعب[١]، عن مالك، عن أبي حازم بن دينار[٢]، عن أبي إدريس الخولاني قال: دخلت مسجد دمشق فإذا فتى برّاق الثنايا، وإذا الناس معه إذا اختلفوا في شيء أسندوه إليه وصدروا عن رأيه، فسألت عنه فقيل: هذا معاذ بن جبل. فلما كان الغد هَجَّرْتُ فوجدته قد سبقني بالتَّهْجِير[٣] ووجدته يصلي، قال: فانتظرته حتى قضى صلاته، ثم جئته من قبل وجهه فسلمت عليه، ثم قلت: والله إني لأحبك لله، فقال: آلله، فقلت: آلله، فقال: آلله، فقلت: آلله. وأخذ بحبوة ردائي فجذبني إليه، وقال: أبشر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله عز وجل: وجبتْ محبتي للمتحابين فيّ، والمتزاورين فيّ، والمتباذلين فيّ[٤].

قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا﴾ مبتدأ، خبره: «لهم البشرى»، أو في موضع نصب على المدح، أو صفة لـ«أولياء»[٥].

قوله: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا﴾ أخرج الإمام أحمد رحمه الله في مسنده

---

(١) أحمد بن أبي بكر القاسم بن الحارث بن زرارة بن مصعب بن عبد الرحمن بن عوف المدني، أبو مصعب الزهري، قاضي المدينة، صدوق احتج به أصحاب الصحاح، ولد سنة خمسين ومائة، ولازم الإمام مالك، وسمع منه الموطأ وأتقنه عنه، مات سنة اثنين وأربعين ومائتين (سير أعلام النبلاء ١١/ ٤٣٦-٤٤٠، والأعلام ١/ ١٩٧).

(٢) سلمة بن دينار، أبو حازم الأعرج الأفزر التمار المدني القاص، مولى الأسود بن سفيان المخزومي، ويقال: مولى بني شجع من بني ليث، كان ثقة كثير الحديث، مات في خلافة أبي جعفر بعد سنة أربعين ومائة (تهذيب التهذيب ٤/ ١٢٦، والتقريب ص:٢٤٧).

(٣) التهجير: التبكير والمبادرة إلى كل شيء (اللسان، مادة: هجر).

(٤) أخرجه ابن حبان (٢/ ٣٣٥ ح٥٧٥)، والحاكم (٤/ ١٨٦ ح٧٣١٤).

(٥) التبيان (٢/ ٣٠)، والدر المصون (٤/ ٤٩).

والترمذي من حديث عبادة بن الصامت قال: «سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا﴾ قال: هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له»(١).

ويؤيد ذلك ما أخرج البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات. قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة»(٢).

وقال قتادة والضحاك والزهري: هي بشارة الملائكة لهم عند الموت(٣).

وقال الحسن: ما بشر الله به في كتابه من جنته وكريم ثوابه؛ كقوله: ﴿وبشر المؤمنين﴾ [التوبة:١١٢]، ﴿وأبشروا بالجنة﴾ [فصلت:٣٠]. وهذا اختيار الفراء والزجاج(٤).

والصحيح: أن جميع ما ذكروه مع ما يصدق عليه اسم البشارة داخل في الآية ومرادٌ منها.

أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن الحسين بن رواحة الأنصاري الحموي بقراءتي عليه بالموصل، قال: أبنا الحافظ أبو طاهر السلفي بثغر الاسكندرية، أبنا الرئيس أبو

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٥٣٤ ح٢٢٧٥)، وأحمد (٥/ ٣١٥ ح٢٢٧٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٢٥٦٤ ح٦٥٨٩).

(٣) أخرجه الطبري (١١/ ١٣٨)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٦٥-١٩٦٦)، وابن أبي شيبة (٧/ ٢٢٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٧٨) وعزاه لابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا في ذكر الموت وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وأبي القاسم بن منده في كتاب سؤال القبر عن الضحاك. ومن طريق آخر عن الزهري وقتادة، وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) معاني الفراء (١/ ٤٧١)، ومعاني الزجاج (٣/ ٢٦).

عبدالله الثقفي رئيس أصبهان، ثنا أبو زكريا يحيى بن إبراهيم النيسابوري المزكي، أبنا أبو بكر أحمد بن سلمان، ثنا عبدالملك بن محمد[١]، ثنا عبد الصمد بن عبد الوارث[٢]، ثنا شعبة، عن أبي عمران، عن عبدالله بن الصامت، عن أبي ذر، أنهم قالوا: ((يا رسول الله! الرجل يعمل لآخرته ويحبه الناس؟ قال: ذاك عاجل بشرى المؤمن))[٣]. هذا حديث صحيح أخرجه مسلم عن محمد بن المثنى، عن عبدالصمد، عن شعبة. وأخرجه أيضاً عن بندار -واسمه محمد بن بشار-، عن غندر -واسمه محمد بن جعفر-، عن شعبة. وكأنني سمعته من طريق مسلم من الفراوي.

وأما البشرى في الآخرة فبأنواع؛ منها: تلقي الملائكة إياهم مسلمين ومبشرين بالفوز والبشارة برضوان الله.

ومنها: بياض وجوههم، وإعطاؤهم صحائف أعمالهم بأيمانهم.

﴿لا تبديل لكلمات الله﴾ أي: لا تغيير لأقواله ولا خلف لمواعيده، ﴿ذلك﴾ إشارة إلى كونهم مبشرين في الدنيا والآخرة ﴿هو الفوز العظيم﴾.

---

(١) عبد الملك بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الملك بن مسلم، أبو قلابة الرقاشي الضرير، كنيته أبو محمد، فغلب عليه أبو قلابة، رجل مأمون صدوق، سكن بغداد إلى أن مات، وكان موصوفاً بالخير والصلاح، مات في شوال سنة ست وسبعين ومائتين (تهذيب التهذيب ٦/ ٣٧١، والتقريب ص:٣٦٥).

(٢) عبد الصمد بن عبد الوارث بن سعيد بن ذكوان، أبو سهل التميمي مولاهم البصري، محدث البصرة، كان ثقة مأمون، مات سنة سبع ومائتين (تذكرة الحفاظ ١/ ٣٤٤، وتهذيب التهذيب ٦/ ٢٩١).

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٣٤-٢٠٣٥ ح٢٦٤٢).

قوله تعالى: ﴿ولا يحزنك قولهم﴾ أي: ولا يحزنك تكذيبهم وإنكارهم وحرصهم على إطفاء نورك وإخفاء أمرك، ولا يهمنك ما يتوعدونك به، ثم استأنف فقال: ﴿إن العزة لله﴾ أي: الغلبة والقهر لله ﴿جميعاً﴾ فهو ناصرك ومظهر دينك إنه ﴿هو السميع﴾ لأقوالهم ﴿العليم﴾ بما تنطوي عليه ضمائرهم.

قوله تعالى: ﴿ألا إن لله من في السموات﴾ وهم الملائكة ﴿ومن في الأرض﴾ وهم الإنس والجن، لاختصاص «مَنْ» بمن يعقل. المعنى: فإذا كان العقلاء المميِّزون مع اختصاصهم بوصف الإنافة[1] على كافة الحق عبيداً لله عز وجل، ولا يصلحون أن يكونوا شركاءه، فما لا يعقل من حجر وشجر أحرى أن يكون مملوكاً وأن لا يتخذ له شريكاً.

قوله تعالى: ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء﴾ جائز أن تكون «ما» نافية، وجائز أن تكون بمعنى «الذي»، وجائز أن تكون استفهامية.

فإن كانت نافية، كان المعنى: وما يتبعون شركاء على الحقيقة، وإن كانوا يسمونها شركاء لاستحالة الاشتراك في الإلهية، ﴿إن يتبعون إلا الظن﴾ أي: ظنهم بأنها شركاء ﴿وإن هم إلا يخرصون﴾ أي: يحزُرون ويقدرون تقديراً باطلاً.

فعلى هذا: «شركاء» نصب «يَتَّبع».

ويجوز أن يكون المعنى -على قولنا أنها نافية-: وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إلا الظن، وتكون «شُرَكاء» منصوباً بـ«يَدْعُونَ»، والعائد إلى «الذين» الواو في «يَدْعُونَ»، ويكون قوله: «إِنْ يَتَّبِعُونَ» مكرراً؛ لطول الكلام.

---

(١) الإنافة: أي الرِّفْعَة والشَّرَف (اللسان، مادة: نوف).

وإن كانت بمعنى «الذي»: فمحلها النصب عطفاً على «مَنْ»[(١)]، ويكون التقدير: ولله ما يتبعه الذين يدعونهم[(٢)] من دون الله شركاء، أي: وله شركاؤهم، فحذف العائد من الصلة، و «شُرَكَاء» على هذا؛ حال من ذلك المحذوف.

وإن كانت استفهامية كان المعنى: وأي شيء تتبعون، و «شُرَكَاء» على هذا نصب بـ«يَدْعُونَ»[(٣)].

ثم ذكَّرهم ونبَّههم على أنه هو المستحق للعبادة بما يدل على كمال قدرته ونعمته على عباده، فقال: ﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه﴾ فتستريحوا من تعب التردد نهاراً في طلب المعايش، ﴿والنهار مبصراً﴾ مضيئاً تُبصرون فيه مذاهب المكاسب ومطالب الأرزاق، ﴿إن في ذلك﴾ الذي فعل وجعل ﴿لآيات﴾ لدلالات على وحدانيته وانفراده باستحقاق العبادة والطاعة ﴿لقوم يسمعون﴾ سماع اعتبار.

قوله تعالى: ﴿قالوا اتخذ الله ولداً﴾ قال ابن عباس: هم أهل مكة، قالوا: الملائكة بنات الله[(٤)].

ثم نزّه نفسه عن اتخاذ الولد فقال: ﴿سبحانه﴾، ثم نَبَّه على العِلَّة فقال: ﴿هو الغني﴾ لأن الباعث على طلب الولد؛ الحاجة إما إليه، أو إلى السبب المفضي إليه،

---

(١) في قوله تعالى: ﴿ألا إن لله مَنْ في السماوات﴾.

(٢) في الكشاف: يدعون.

(٣) التبيان (٢/ ٣٠)، والدر المصون (٤/ ٥١).

(٤) ذكره الطبري (١١/ ١٤٠)، والواحدي في الوسيط (٢/ ٥٥٤)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٧).

والله سبحانه غني مُنَزَّهٌ عن ذلك، ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ عبيداً وملكاً، فهو مستغن باتخاذهم عباداً عن اتخاذهم أولاداً، ﴿إن عندكم من سلطان بهذا﴾ أي: ما عندكم من حجة ظاهرة مضيئة بهذا الذي تقولونه.

ثم وبَّخهم فقال: ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾. وكفى بهذه الآية ذماً للمقلِّدين في الدين، وشهادةً لهم بالجهل في انتحال ما لا يشهد بصحته كتاب ناطق، ولا سنة عادلة، ولا برهان عقلي.

﴿قل إن الذين يفترون على الله الكذب﴾ بإضافة الولد إليه وغير ذلك مما لا يجوز عليه، ﴿لا يفلحون﴾ أي: لا يفوزون ولا يسعدون في العاقبة. وهاهنا تم الكلام.

ثم قال: ﴿متاع في الدنيا﴾ يتمتعون به قليلاً وينقطع عنهم، ﴿ثم إلينا مرجعهم﴾ بعد الموت، ﴿ثم نذيقهم العذاب الشديد﴾ الفظيع الذي لا ينقطع ﴿بما كانوا يكفرون﴾ بوحدانيتي وتكذيب رسلي.

۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ نوح﴾ أي: قُصَّ عليهم خبره مع قومه، عساه أن

يُحدثَ لهم خوفاً يزجرهم عن تكذيبك، ﴿إذ قال لقومه يا قوم إن كان كَبُرَ عليكم﴾ أي: ثَقُلَ عليكم وشَقَّ ﴿مقامي﴾ أي: طول مكثي بين أظهركم.

وقيل: المعنى: إن كان كَبُرَ عليكم قيامي مُذَكِّراً لكم؛ لأنهم كانوا إذا وعظوا قاموا على أرجلهم، كما يحكى عن عيسى ﷺ: أنه كان يَعِظُ الحواريين قائماً وهم قعود.

﴿وتذكيري بآيات الله﴾ قال ابن عباس: وعظي وتخويفي إياكم عقوبة الله[(١)].

﴿فعلى الله توكلت﴾ في دفع كيدكم وأذاكم ونصرتي عليكم، ﴿فأجمعوا أمركم﴾ أي: اعزموا عليه، مِنْ أَجْمَعَ الأمر؛ إذا نَوَاهُ وَعَزَمَ عليه[(٢)].

وقرأ جماعة، منهم الأعرج [و][(٣)] الجحدري والأصمعي عن نافع: «فاجْمَعُوا» بوصل الهمزة وفتح الميم[(٤)]، من جَمَع يجمَع.

قال المؤرج[(٥)]: [أَجْمَعْتُ الأَمْرَ أَفْصَحُ مِنْ أَجْمَعْتُ][(٦)] عليه[(٧)]، وأنشد:

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٥٥).

(٢) انظر: اللسان، مادة: جمع.

(٣) زيادة على الأصل.

(٤) الحجة للفارسي (٢/ ٣٦٩)، والنشر (٢/ ٢٨٥)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٣)، والسبعة في القراءات (ص:٣٢٨).

(٥) هو: أبو فيد مؤرج بن عمرو بن الحارث السدوسي النحوي البصري، من أعيان أصحاب الخليل بن أحمد، كان له اتصال بالمأمون العباسي، توفي سنة ١٩٥ هـ (وفيات الأعيان ٥/ ٣٠٧، والأعلام ٧/ ٣١٨).

(٦) في الأصل: اجتمعت الأمراء فصحَّ ما اجتمعت. والمثبت من زاد المسير (٤/ ٤٧).

(٧) زاد المسير (٤/ ٤٧).

يَا لَيْتَ شِعْرِي وَالْمُنَى لاَ تَنْفَعُ هَلْ أَغْدُوَنْ يَوْماً وَأَمْرِي مُجْمَعُ[١]

قرأ الحسن البصري ويعقوب: «وَشُرَكَاؤُكُمْ» بالرَّفع، ونصبه الباقون[٢].

فمن رَفَعَ عَطَفَ على الضمير في «فَأَجْمِعُوا» وجاز من غير توكيد كالمنفصل؛ لقيام الفاصل مقامه لطول الكلام، كما تقول: أطرب زيداً وعمرو.

ومن نَصَبَ فعلى معنى: وادعوا شركاءكم، وكذلك هو في مصحف أُبيّ بن كعب. والعرب تضمر مثل هذا الفعل إذا كان في الكلام دليل عليه؛ كقوله:

وَعَلَفْتُها تِبْناً [وَمَاءً][٣] بَارِداً ....[٤]

نصب «الماء» لمحذوف دل الكلام عليه، وهو ما بين العلف والسقي من الرابطة، التقدير: وسقيتها ماء بارداً.

وقال الزجاج[٥]: الواو في «وشركاءكم» بمعنى: مع، أي: فأجمعوا أمركم مع شركاءكم، كما تقول: لو تُركت الناقةُ وفصيلَها لَرَضعها، أي: لو تركتها مع فصيلها.

ويجوز أن يكون نصب «شركاءكم» على قراءة من وصل الهمزة في «فأجمعوا» على العطف؛ على الأمر، المعنى: أجمعوا أمركم وأجمعوا شركاءكم.

---

(١) البيت لا يعرف قائله. وهو في: الخصائص (٣/ ١٣٦)، والنوادر (ص:١٣٣)، ومعاني الفراء (١/ ٤٧٣)، والبحر المحيط (٥/ ١٧٧)، والدر المصون (٤/ ٥٣)، والطبري (١١/ ١٤١، ١٦/ ١٨٣)، والقرطبي (١١/ ٢٢١)، وزاد المسير (٤/ ٤٨، ٥/ ٣٠٠).

(٢) النشر (٢/ ٢٨٦)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٣).

(٣) في الأصل: ماء. انظر: مصادر تخريج البيت.

(٤) صدر بيت لذي الرمة، وقد تقدم.

(٥) معاني الزجاج (٣/ ٢٨).

﴿ثم لا يكن أمركم عليكم غمة﴾ قال الزجاج[١]: المعنى: ليكن أمركم ظاهراً منكشفاً، ويجوز «ثم لا يكن أمركم عليكم غُمة» أي: غَمّاً.

قال الزمخشري[٢]: فإن قلت: ما معنى الأمرين؟ أمرهم الذي يجمعونه، وأمرهم الذي لا يكون عليهم غمة؟

قلت: أما الأمر الأول: فالقصد إلى إهلاكه، يعني: فأجمعوا ما تريدون من إهلاكي واحتشدوا فيه، وابذلوا وسعكم في كيدي، وإنما قال ذلك؛ إظهاراً لقلة مبالاته [وثقته][٣] بما وعده ربه من كلاءته وعصمته [إياه][٤]، وأنهم لن يجدوا إليه سبيلاً.

وأما الثاني ففيه وجهان:

أحدهما: أن يراد: أهلكوني لئلا يكون عيشكم بسببي غصة وحالكم عليكم غمة، أي: غَمّاً وهَمّاً، [والغَمّ][٥] والغُمَّة كالكَرْب والكُرْبة، وأنشد قول الخنساء:

وَذِي كُرْبَةٍ أَرْخَى ابن عَمْرو خِنَاقَهُ ... وَغُمَّته عَنْ وَجْهِهِ فَتَجَلَّت[٦]

والثاني: أن يراد به ما أريد بالأمر الأول.

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ٢٨).

(٢) الكشاف (٢/ ٣٤٢).

(٣) في الأصل: وثقة. والتصويب من الكشاف (٢/ ٣٤٢).

(٤) زيادة من الكشاف، الموضع السابق.

(٥) مثل السابق.

(٦) البيت للخنساء. انظر: ديوانها (ص:٢٦) وفيه: "ومختنق راخى" بدل: "وذي كربة أرخى"، والطبري (١١/ ١٤٣).

والغُمَّة: السترة، مِنْ غَمَّهُ؛ إذا ستره[1]. ومنها قوله عليه الصلاة والسلام: «ولا غمة في فرائض الله»[2]، أي: لا سترة، ولكن يجاهر بها، يعني: لا يكن قصدكم إلى إهلاكي مستوراً عليكم، ولكن مكشوفاً مشهوراً تجاهرونني به.

﴿ثم اقضوا إليّ﴾ ذلك الأمر الذي تريدون بي، أي: أدّوا إليّ قطعه وتصحيحه، كقوله: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر﴾ [الحجر:٦٦]، أو أدُّوا إليّ ما هو حق عليكم عندكم من هلاكي، كما يقضي الرجل غريمه، ﴿ولا تنظرون﴾ ولا تمهلون.

وقيل: امضوا ما في أنفسكم واحكموه وافرغوا منه، يقال: قضى فلان؛ إذا مات ومضى، وقضى دَيْنه؛ إذا أدَّاه وفرغ منه.

وقرئ شاذاً: «ثم افضوا إليّ» بالفاء[3]، أي: انتهوا إليّ بشرِّكم.

وقيل: هو مِنْ أَفْضَى الرّجلُ؛ إذا خرج [إلى][4] الفضاء[5]، أي: أصحروا به إليّ وأبرزوه لي.

﴿فإن توليتم﴾ أي: أعرضتم عن تذكيري بآيات الله ﴿فما سألتكم من أجر﴾ على تذكيري ونصيحتي وإبلاغي رسالة ربي، فيكون ذلك سبباً لتولِّيكم عنّي ونفرتكم مني، ﴿إن أجري إلا على الله﴾ أي: ما ثوابي إلا عليه، ﴿وأُمرت أن أكون من المسلمين﴾ الذي من شأنهم الاستسلام لله، والتوكل عليه، والالتجاء إليه.

---

(١) انظر: اللسان، مادة: (غمم).

(٢) ذكره القرطبي (٢٠/ ٢١٣).

(٣) البحر المحيط (٥/ ١٧٩).

(٤) زيادة من الكشاف (٢/ ٣٤٢).

(٥) انظر: اللسان، مادة: فضا.

﴿فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف﴾ يخلُفون الهالكين بالغرق، كما قال: ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ [الصافات:٧٧]، وذلك أن الناس بعد الغرق صاروا من ذرية نوح، وهلك أهل الأرض جميعاً بتكذيبهم لنوح سوى ذريته الذين نجوا معه، وذلك قوله: ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر﴾ يا محمد ﴿كيف كان عاقبة المنذرين﴾ أي: آخر أمر الذين أنذرتهم الرسل فلم يؤمنوا.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿ثم بعثنا من بعده﴾ أي: من بعد نوح.

﴿رسلاً إلى قومهم﴾ قال ابن عباس: يريد: إبراهيم وهوداً ولوطاً وصالحاً وشعيباً[(١)].

﴿فجاؤوهم بالبينات﴾ بالحجج البالغة الشاهدة بصدق دعواهم ﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾ أي: فما كان أولئك الأقوام ليؤمنوا ﴿بما كذبوا به﴾ أي: بما كذب به قوم

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٥٥)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٩).

نوح ﴿من قبل﴾ بعثة الرسل، يشير إلى تشابه قلوبهم في الكفر وتماثلهم في العناد.

وقيل: الضميران مُتَّحِدان، فما كان أولئك الأقوام ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل بعثة الرسل إليهم حين كانوا أهل جاهلية، يشير إلى تصميمهم على الكفر، وأن النذارة لم تؤثر فيهم خيراً، ولم تُثْنِهم شيئاً عن غيّهم وجهلهم.

وقال مقاتل[1]: المعنى: فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من العذاب قبل نزوله.

فإن قيل: لم أدخل «به» هاهنا في قوله: ﴿بما كذبوا به من قبل﴾ ولم يدخل في الأعراف في قوله: ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل﴾؟

قلتُ: لما صدر الكلام هاهنا بقوله: ﴿فكذبوه فنجيناه﴾ فذكر لـ«كذبوا» مفعولاً وقيّده، جاء بـ«كذبوا به» في سياق الكلام مقيّداً لما أطلق هناك في صدر الكلام، ولكن «كذبوا» ولم يقيده قال: «بما كذبوا من قبل» في سياق الكلام.

﴿كذلك﴾ أي: مثل ذلك الصنع المحكم ﴿نطبع على قلوب المعتدين﴾.

قوله تعالى: ﴿ثم بعثنا من بعدهم﴾ أي: من بعد الرسل الذين أرسلوا من بعد نوح ﴿موسى وهارون إلى فرعون وملئه﴾ أشراف قومه ﴿بآياتنا﴾ يريد الآيات التسع ﴿فاستكبروا﴾ أنفوا وتعظموا عن قبولها ﴿وكانوا قوماً مجرمين﴾ كافرين ذوي آثام عظام.

﴿فلما جاءهم الحق من عندنا﴾ أي: عرفوا أنه هو الحق وأنه من عند الله لا من قبل موسى وهارون، ﴿قالوا﴾ بهتاناً وعناداً وتمويهاً على الأغبياء منهم: ﴿إن هذا لسحر مبين﴾.

---

(١) تفسير مقاتل (٢/ ١٠٠).

﴿قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا﴾ قال الزجاج[١]: المعنى: أتقولون للحق لما جاءكم هذا اللفظ؟ أي: «إن هذا لسحر مبين».

ثم قَرَّرهم فقال: ﴿أسحر هذا﴾؟

قال ابن الأنباري[٢]: إنما أدخلوا الألف على جهة تفظيع الأمر، كما يقول الرجل إذا نظر إلى الكسوة الفاخرة: أَكِسْوَةٌ هذه؟ يريد بالاستفهام تعظيمها، وتأتي الرجل جائزة، فيقول: أَحَقٌّ ما أرى؟ مُعَظِّماً لما وَرَدَ عليه.

فعلى قول الزجاج: مفعول «أتقولون» محذوف، وهو ما دلَّ عليه قولهم: «إن هذا لسحر مبين».

وعلى قول ابن الأنباري: يكون قوله: «أسحر هذا» حكاية لكلامهم.

﴿ولا يفلح الساحرون﴾ جائز أن يكون من تمام ما حكاه عنهم، وجائز أن يكون ابتداء كلام من الله تعالى خارج مخرج الاحتجاج عليهم، معناه: كيف يكون هذا سحر وقد أفلح به موسى وفاز بمقصوده، والساحر لا يفلح.

﴿قالوا أجئتنا لتلفتنا﴾ أي: لتصرفنا وتصدنا ﴿عما وجدنا عليه آباءنا﴾ من الدين ﴿وتكون لكما الكبرياء﴾ والكبرياءُ وصفٌ غالبٌ على الملوك، ولذلك استحسن نفيه عنهم في المدح. قال ابن الرّقيات في مصعب:

مُلْكُهُ مُلْكُ رَأْفَةٍ لَيْسَ فيهِ   جَبَرُوتٌ مِنْهُ وَلاَ كبْرِيَاءُ[٣]

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ٢٩).

(٢) انظر: زاد المسير (٤/ ٥٠).

(٣) البيت يُنسب لقيس بن الرقيات. ورواية الديوان:

ملكه ملك قوة ليس فيه   جبروت ولا به كبرياء

=

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾

﴿وقال فرعون﴾ مموهاً على أغمار القبط بنسبة السحر إلى موسى وهارون ﴿ائتوني بكل ساحر عليم﴾.

وقرأ حمزة والكسائي: «بكل سحّار» بتقديم الحاء وتشديدها للمبالغة(١)، وأماله الكسائي على أصله.

﴿فلما جاء السحرة قال لهم موسى﴾ بقصد إظهار الحق وإعلاء كلمة التوحيد باستعلاء معجزته ﴿ألقوا ما أنتم ملقون﴾ من الحبال والعصي.

﴿فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر﴾ أي: الذي جئتم به السحر، لا الذي سَمّاه فرعون وقومه من آيات الله سحراً.

=

انظر: ديوانه (ص:٩١)، والكامل (٢/ ٢٦٩)، والخزانة (٣/ ٢٦٩)، والشعر والشعراء (١/ ٥٢٤)، والبحر المحيط (٥/ ١٨١)، والدر المصون (٤/ ٥٨).

(١) الحجة لابن زنجلة (ص:٣٣٥)، والكشف (١/ ٤٧١)، والنشر (٢/ ٢٧٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٣).

فعلى هذا «ما» موصولة واقعة مبتدأ، و «السحر» خبر[١].

ويؤيد هذه القراءة قراءة ابن مسعود: «ما جئتم به سحرٌ»[٢]، وقراءة أُبيّ بن كعب: «ما أتيتم به سحرٌ»[٣].

وقرأ أبو عمرو: «آلسحر» بقطع الهمزة والمد على الاستفهام[٤]، ووافقه أبان عن عاصم وأبو جعفر وأبو حاتم عن يعقوب.

والتقدير: أي شيء جئتم به، أهو السحر؟.

قال الزجاج[٥]: هذا الاستفهام على جهة التوبيخ.

وقال ابن الأنباري[٦]: هذا الاستفهام لتعظيم ما جاؤوا به من السحر، والعرب تستفهم عما هو معلوم عندها. قال امرؤ القيس:

أَغَرَّكِ مِنِّي أَنَّ حُبَّكِ قَاتِلِي ... وَأَنَّكِ مَهْمَا تَأْمُرِي القَلْبَ يَفْعَلِ[٧]

وقال قيس بن ذريح:

أَرَاجِعَةٌ يا لُبْنُ أَيَّامُنا الأُولى ... بِذِي الطَّلْحِ أَمْ لاَ مَا لَهُنَّ رُجُوعُ[٨]

---

(١) التبيان (٢/ ٣٢)، والدر المصون (٤/ ٥٩).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٣٧٢).

(٣) البحر المحيط (٥/ ١٨١).

(٤) الحجة للفارسي (٢/ ٣٧١)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٣٥)، والكشف (١/ ٥٢١)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٣)، والسبعة في القراءات (ص:٣٢٨).

(٥) معاني الزجاج (٣/ ٣٠).

(٦) زاد المسير (٤/ ٥١).

(٧) البيت لامرئ القيس. انظر: ديوانه (ص:١٣)، والقرطبي (١٧/ ٢٣)، وزاد المسير (٤/ ٥١).

(٨) البيت لقيس بن ذريح. وهو في: زاد المسير (٤/ ٥١).

فاستفهمَ وهو يعلم أنهن لا يرجعن.

﴿إن الله سيبطله﴾ أي: [سيظهر][(١)] بُطلانه، ﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾ لا يثبته ولا يديمه، ولكن يزيله ويمحقه.

﴿ويحق الله الحق﴾ أي: يظهره ويثبته ﴿بكلماته﴾ أي: بِعِداته السابقة بذلك.

قوله تعالى: ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه﴾ أي: ما صدقه إلا طائفة من ذرية بني إسرائيل.

قال مجاهد: هم أولاد الذين أُرسل إليهم موسى، مات آباؤهم لطول الزمان وآمنوا هم[(٢)].

وقيل: الضمير في «قومه» يعود إلى «فرعون». والمعنى: ما آمن لموسى إلا ذرية من قوم فرعون، أمهاتهم من بني إسرائيل، وآباؤهم من القبط. وآمنت به آسية امرأة فرعون، وماشطته، وامرأة خازنه. والقولان عن ابن عباس[(٣)].

والضمير في قوله: ﴿على خوف من فرعون وملئهم﴾ يعود إلى «فرعون»، أي: آمنوا به خائفين من فرعون وملأ آل فرعون، كما يقال: ربيعة ومضراً، وجمع لما يذهب الوهم إليه عند ذكره من أتباعه، كما تقول: قدم الخليفة فكثر الناس.

ويجوز أن يعود الضمير إلى «الذرية»، أي: على خوف من فرعون وملأ الذرية. ثم إن كانت الذرية من بني إسرائيل؛ فالمراد: على خوف من ملأ بني إسرائيل

---

(١) في الأصل: سيهر. والصواب ما أثبتناه.

(٢) أخرجه الطبري (١١/ ١٤٩)، ومجاهد (ص:٢٩٥). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٨٢) وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر وأبي الشيخ.

(٣) أخرجه الطبري (١١/ ١٥٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٨٢) وعزاه لابن جرير.

الذين كانوا على رأي فرعون، أو الذين كانوا يمنعون أعقابهم خوفاً من فرعون عليهم وعلى أنفسهم.

وإن كانت الذرية من القبط؛ فالمعنى: على خوف من فرعون ومن ملأهم أشراف القبط وعظمائهم، ﴿أن يفتنهم﴾ بالقتل والتعذيب. ونسبت الفتنة إلى فرعون وحده؛ لأنه الأصل فيها.

﴿وإن فرعون لَعَالٍ في الأرض﴾ لمتطاول قاهر غالب في أرض مصر، ﴿وإنه لمن المسرفين﴾ بادعائه الربوبية.

وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾

﴿وقال موسى﴾ لبني إسرائيل حين شكوا إليه ما توعدهم به اللعين من إعادة ذبح أبنائهم واستحياء نسائهم ﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله﴾ على الحقيقة ﴿فعليه توكلوا﴾ معتصمين بسلطانه وعظمته وكبريائه من بغي فرعون وطغيانه عليكم ﴿إن كنتم مسلمين﴾.

﴿فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة﴾ موضع فتنة ﴿للقوم الظالمين﴾ بأن تسلطهم علينا فيفتنوننا عن ديننا، أو يفتنون بنا فيقولون: لو كان هؤلاء على الحق ما سُلِّطنا عليهم، ﴿ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾، سألوا النجاة من ذُلِّ الاستعباد واستحياء النساء وذبح الأولاد، فاستجاب الله منهم دعاءهم وأهلك أعداءهم.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ﴾ أي: اتخذا ﴿لقومكما بمصر بيوتاً﴾ للعبادة والصلاة مستقبلة الكعبة.

قال ابن عباس: كانت الكعبة قبلة موسى ومن معه[1].

قال الزجاج[2]: المعنى: صَلُّوا في بيوتكم.

وكان السبب في ذلك: أن الطاغية فرعون هدم مساجدهم ومنعهم من الصلاة فيها حنقاً على موسى وأخيه، فأمرهم الله عز وجل أن يجعلوا بيوتهم مساجدهم ويعبدوه فيها خِفْيَة، كما كان المسلمون بمكة في أول الإسلام.

﴿وأقيموا الصلوة﴾ قال ابن عباس: أتموا الصلاة. وهذا وقف التمام[3].

ثم خاطب نبيه ﷺ آمراً له بتبشير المؤمنين بالنصر والاستيلاء في الدنيا، والفوز

---

(١) القرطبي (٨/ ٣٧١). وانظر: الماوردي (٢/ ٤٤٧)، وزاد المسير (٤/ ٥٤).

(٢) معاني الزجاج (٣/ ٣٠).

(٣) زاد المسير (٤/ ٥٥).

بالجنة في الأخرى، فقال: ﴿وبشر المؤمنين﴾ هذا قول جمهور المفسرين[(١)].

وقال صاحب الكشاف[(٢)]: إن قلت كيف نَوَّعَ الخطاب، فثَنَّى أولاً، ثم جَمَعَ، ثم وَحَّد؟

قلتُ: خوطب موسى وهارون أن يتبوآ لقومهما بيوتاً، ويختاراها للعبادة، وذلك مما [يفوض إلى][(٣)] الأنبياء، ثم خاطبهما وقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها؛ لأن ذلك واجب على الجمهور، ثم خصَّ موسى عليه السلام بالبشارة التي هي الغرض؛ تعظيماً لها وللمبشر بها.

قوله تعالى: ﴿وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحيوة الدنيا﴾ أي: ما يتزينون به من ثياب وحُلي وفرش وأثاث وغير ذلك.

قال ابن عباس: كان لهم من [لدن][(٤)] فسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن من ذهب وفضة وزبرجد وياقوت[(٥)].

﴿ربنا ليَضلوا عن سبيلك﴾ وقرأ أهل الكوفة: «ليُضلوا» بضم الياء[(٦)].

وقال ابن الأنباري[(٧)]: هي لام الدعاء، فالمعنى: ابتلهم بالضلال، فيكون دعاء

---

(١) الماوردي (٢/ ٤٤٧)، وزاد المسير (٤/ ٥٥) كلاهما من قول سعيد بن جبير.

(٢) الكشاف (٢/ ٣٤٦).

(٣) في الأصل: يفرض على. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

(٤) في الأصل: الزين. والمثبت من الوسيط (٢/ ٥٥٧)، وزاد المسير (٤/ ٥٥).

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٥٧)، وزاد المسير (٤/ ٥٥).

(٦) الحجة للفارسي (٢/ ٢٠٨)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٣٥)، والنشر (٢/ ٢٦٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٣)، والسبعة في القراءات (ص:٢٦٧).

(٧) انظر: زاد المسير (٤/ ٥٦).

بلفظ الأمر؛ كقوله: ﴿ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم﴾.

وقيل: المعنى: آتيتهم ذلك لكي يضلوا، وهذا قول الفراء[١].

وقيل: هي لام العاقبة والصيرورة[٢]، المعنى: آتيتهم زينة وأموالاً، فأصارهم ذلك إلى الضلال. وسأكشف ذلك إن شاء الله تعالى عن وجه المعنى في الخلاف بين الكوفيين والبصريين في هذه اللام عند قوله تعالى في القصص: ﴿ليكون لهم عدواً وحَزَنا﴾ [القصص:٨].

﴿ربنا اطمِس﴾ وقرأتُ لأبي عمرو من رواية الحلبي عن عبد الوارث عنه: «اطمُس» بضم الميم[٣].

قال ابن عباس: بلغنا أن الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحاً وأثلاثاً وأنصافاً[٤].

قال عطاء: لم يبق لهم معدن إلا طمس [الله عليه][٥]، فلم ينتفع به أحد بعد[٦].

وقال ابن زيد: صار ذهبهم ودراهمهم وعدسهم وكل شيء لهم أحجاراً[٧].

قال قتادة: وبلغنا أن حروثاً لهم صارت حجارة[٨].

---

(١) انظر: معاني الفراء (١/ ٤٧٧).

(٢) وهو قول الخليل وسيبويه.

(٣) زاد المسير (٤/ ٥٦).

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٥٧)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٥٦).

(٥) زيادة من الوسيط (٢/ ٥٥٧).

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٥٧).

(٧) أخرجه الطبري (١١/ ١٥٨). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٥٦).

(٨) أخرجه الطبري (١١/ ١٥٨)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٧٩). وذكره السيوطي في الدر المنثور =

وقال السدي: مسخ الله أموالهم؛ النخل والثمار والدقيق والأطعمة حجارة، فكانت إحدى الآيات التسع[(١)].

﴿واشدد على قلوبهم﴾ اطبع عليها وقسِّها، حتى لا تَلين ولا تنشرح للإيمان.

﴿فلا يؤمنوا﴾ عطف على «ليضلوا»[(٢)].

وقيل: هو دعاء عليهم[(٣)]؛ كقول الأعشى:

فَلاَ يَنْبَسِطْ مِنْ بَيْنِ عَيْنَيْكَ مَا انْزَوَى وَلاَ تَلْقَنِي إِلاَّ وَأَنْفُكَ رَاغِمُ[(٤)]

﴿قال قد أجيبت دعوتكما﴾ قال المفسرون: كان موسى يدعو وهارون يُؤَمِّن[(٥)].

ويجوز أن يكون الدعاء صدر منهما، وكان بين الدعاء والإجابة أربعون سنة، ﴿فاستقيما﴾ على ما أنتما عليه من الدعوة إلى توحيدي وإبلاغ رسالتي، والصبر على ديني.

= (٤/ ٣٨٤) وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(١) زاد المسير (٤/ ٥٦). وهو قول مجاهد.

(٢) انظر: التبيان (٢/ ٣٣)، والدر المصون (٤/ ٦٥).

(٣) وهو قول الفراء والكسائي وأبي عبيدة والزجاج. انظر: زاد المسير (٤/ ٥٧).

(٤) انظر: ديوانه (ص:١١٥)، واللسان، مادة: (زوي)، وتهذيب اللغة (١٣/ ٢٧٦)، والطبري (١١/ ١٥٩)، والقرطبي (٨/ ١٢٩، ٣٧٥)، وزاد المسير (٤/ ٥٧)، والبحر المحيط (٥/ ١٨٦)، والدر المصون (٤/ ٦٥).

(٥) أخرجه الطبري (١١/ ١٦٠-١٦١)، وسعيد بن منصور (٥/ ٣٣١)، ومجاهد (ص:٢٩٧). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٨٥) وعزاه لأبي الشيخ عن ابن عباس. ومن طريق آخر عن عكرمة، وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وأبي الشيخ. ومن طريق آخر عن محمد بن كعب، وعزاه لسعيد بن منصور. ومن طريق آخر عن أبي صالح وأبي العالية والربيع، وعزاه لابن جرير.

﴿ولا تَتْبَعانِ﴾ وخفف النون ابن ذكوان عن ابن عامر استثقالاً؛ لتشديدها مع التشديد في أول الكلمة[١].

وروى الداجوني عن هشام عن ابن عامر: التخيير بين تشديد النون وتخفيفها، وروي عنه أيضاً سكون التاء وتخفيفها[٢].

وقرأ الباقون: «تتَّبعانِّ» بتشديد التاء والنون[٣]، نهي، بالنون [الثقيلة][٤]، ويقال في الواحد: لا تَتْبَعَنَّ، فتفتح النون لالتقاء الساكنين، وتُكسر في التثنية لهذه العلة.

قال الزجاج[٥]: موضع «تتبعان» جزم، إلا أن النون الشديدة دخلت للنهي مؤكدة، وكُسرت لسكونها وسكون النون التي قبلها، واختير لها الكسر؛ لأنها بعد الألف تشبه نون الاثنين.

وقال أبو علي[٦]: إن شئت كان على لفظ الخبر، ومعناه: الأمر، كقوله: ﴿يتربصن بأنفسهن﴾ [البقرة:٢٢٨]، و﴿لا تضار والدة﴾ [البقرة:٢٣٣]. وإن شئت

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٣٧٢)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٣٦)، والكشف (١/ ٥٢٢)، والنشر (٢/ ٢٨٦)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٣)، والسبعة في القراءات (ص:٣٢٩).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٣٧٢)، والنشر (٢/ ٢٨٦)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٣)، والسبعة في القراءات (ص:٣٢٩).

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٣٧٢)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٣٦)، والكشف (١/ ٥٢٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٤).

(٤) في الأصل: الثقلية.

(٥) معاني الزجاج (٣/ ٣١).

(٦) الحجة للفارسي (٢/ ٣٧٣).

جعلته حالاً من قوله: [«استقيما»، وتقديره][1]: استقيما غير متبعين.

وقال أبو الحسن الأصبهاني صاحب كشف المشكلات[2]: من شَدَّدَ النون كان نهياً بعد أمر، ومن خَفَّفَ النون كان قوله: «ولا تتبعان» في موضع الحال، أي: استقيما غير متبعين، وأنشدوا قول الفرزدق:

بأَيْدِي رِجَالٍ لَمْ يَشِيمُوا سُيُوفَهُمْ ... وَلَمْ تَكْثُرِ القَتْلَى بهَا حِينَ سُلَّتِ[3]

أي: لم يشيموا غير كاثرة بها القتلى، والمعنى: لم يشيموا سيوفهم إلا في تلك الحالة.

قوله تعالى: ﴿ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾ معناه: لا تتبعان طريق الجهلة فرعون وقومه ومن شابههم، وهذا كما قال لنوح: ﴿إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ [هود:٤٦]، وكما قال لنبينا عليه الصلاة والسلام: ﴿ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾ [الجاثية:١٨].

۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ

---

(١) زيادة من الحجة (٢/ ٣٧٣).

(٢) كشف المشكلات (١/ ٢٠٤، ٥١٧).

(٣) البيت للفرزدق. انظر: ديوانه (ص:١٣٩) "طبعة الصاوي"، واللسان، مادة: (خرر، شيم)، والحجة للفارسي (٢/ ٣٧٣)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي (ص:١٢٢)، وشرح شواهد المغني (ص:٧٧٨)، وتذكرة النحاة (ص:٦٢٠)، وشرح المفصل (٢/ ٦٧)، ومغني اللبيب (ص:٣٦٠).

ﭐلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾

قوله تعالى: ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده﴾ «جاوزنا»: عبرنا بهم البحر.

قال أبو عبيدة[١]: أتبعهم [وتبعهم][٢] سواء.

والمعنى: لحقهم فرعون وجنوده. وقد ذكرنا قصتهم في البقرة.

﴿بغياً وعدواً﴾ أي: ظلماً وعدواناً، ﴿حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه﴾ قرأ حمزة والكسائي: «إنه» بكسر الهمزة على الاستئناف، بدلاً من «آمنت»، وفتحها الباقون على تقدير: بأنه[٣]، فلما سقطت الباء أفضى الفعل فنصب.

قال الزمخشري[٤]: كَرَّرَ المخذولُ المعنى الواحد ثلاث مرات في ثلاث عبارات حرصاً على القبول، ثم لم يقبل منه حيث أخطأ وقته.

وقال ابن الأنباري[٥]: جنح فرعون إلى التوبة حين أُغلق بابُها؛ بحضور الموت ومعاينته الملائكة، فقيل له: ﴿آلآن﴾ أي: في هذا الوقت وقت الاضطرار تؤمن ﴿وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾ باستعبادك خلقي، وجحدك حقي،

---

(١) مجاز القرآن (١/ ٢٨١).

(٢) في الأصل: واتبعهم. والتصويب من مجاز القرآن، الموضع السابق.

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٣٧٣)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٣٦)، والكشف (١/ ٥٢٢)، والنشر (٢/ ٢٨٧)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٤)، والسبعة في القراءات (ص:٣٣٠).

(٤) الكشاف (٢/ ٣٤٩).

(٥) انظر: زاد المسير (٤/ ٥٩-٦٠).

وادّعائك ما لا ينبغي لبشر أن يدّعيه.

قرأتُ على ابن بهروز، أخبركم عبد الأول بن عيسى فأقرَّ به، قال: ثنا عبد الرحمن الداودي، ثنا عبدالله بن أحمد بن حمويه، أبنا إبراهيم بن خريم الشاشي، ثنا عبد بن حميد، ثنا حجاج بن منهال، ثنا حماد بن سلمة، عن علي بن [زيد](١)، عن يوسف بن مهران(٢)، عن ابن عباس، أن النبي ﷺ قال: ((لما أغرق الله تعالى فرعون قال: ﴿آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل﴾. قال جبريل: يا محمد، فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسّه في فيه، مخافة أن [تدركه](٣) الرحمة))(٤).

قال كعب الأحبار: أتى جبريل إلى فرعون بفُتْيا: ما يقول الأمير لعبد في مُلْك رجل نشأ في ماله ونعمته، ولا سيد له غيره، فكَفَرَ نعمته، وجَحَدَ حَقَّهُ، وادَّعى السِّيادة دونه؟

فكتب فرعون فيه: يقول أبو العباس الوليد بن مصعب بن الريان: جزاء العبد الخارج على سيده أن يغرق في البحر، فأخذه جبريل ومَرّ، فلما ألجمه الغرق وأيقن بالهلاك ناوله جبريل خَطَّهُ وغرّقه(٥).

وقال الضحاك بن قيس: اذكر الله في الرخاء يذكرك عند الشدة، إن يونس كان

---

(١) في الأصل: يزيد. وهو خطأ. انظر ترجمته في: تهذيب التهذيب (٧/ ٢٨٣-٢٨٤)، والتقريب (ص:٤٠١).

(٢) يوسف بن مهران البصري، ثقة قليل الحديث (تهذيب التهذيب ١١/ ٣٧٣، والتقريب ص:٦١٢).

(٣) في الأصل: تدكره. والتصويب من مصادر التخريج.

(٤) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٨٧ ح٣١٠٧)، وأحمد (١/ ٣٠٩ ح٢٨٢١).

(٥) تفسير النسفي (٢/ ١٤٠-١٤١).

عبداً صالحاً تقياً، وإنه كان يذكر الله، فلما وقع في بطن الحوت سأل الله تعالى، فقال الله تعالى: ﴿فلولا أنه كان من المسبحين * للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤]. وإن فرعون كان عبداً طاغياً ناسياً لذكر الله تعالى، فلما أدركه الغرق قال: آمنت، فقال الله تعالى: ﴿آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾(١).

قوله تعالى: ﴿فاليوم ننجّيك ببدنك﴾ وقرأتُ ليعقوب الحضرمي: «نُنْجِيك» بالتخفيف(٢).

والمعنى: نُلقيك على نَجْوَةٍ من الأرض، وهو المكان المرتفع(٣).

قال كعب: رماه الماء إلى الساحل كأنه ثور(٤).

ويجوز أن يكون المعنى: نعيذك مما وقع فيه قومك من قعر البحر.

قال ابن عباس: لم يكن البحر يلفظ غريقاً، فصار لا يقبل غريقاً إلى يوم القيامة(٥).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ١٣٨). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٦٠)، والسيوطي في الدر المنثور (٧/ ١٢٦) وعزاه لابن أبي شيبة.

(٢) النشر (٢/ ٢٥٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢١٠).

(٣) انظر: اللسان، مادة: نجا.

(٤) أخرجه الطبري (١١/ ١٦٦) عن ابن جريج. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٨٨) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف وأبي الشيخ عن مجاهد.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٨٤) بأطول منه. وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٦١)، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٨٦) وعزاه لابن أبي حاتم.

وقرأ عبدالله: «نُنَحِّيكَ» بالحاء المهملة[١]، أي: نلقيك بناحية مما يلي البحر.

وقوله تعالى: ﴿ببدنك﴾ في محل الحال[٢]، أي: في الحال التي لا روح فيك، وإنما أنت بدن[٣].

وهذا قول مجاهد[٤].

وقيل: المعنى: ننجيك عرياناً لست إلا بدناً لا لباس عليك[٥].

وقيل: «ننجيك ببدنك»: أي: بدرعك[٦].

قال ابن عباس: كان عليه درع من ذهب، وقيل: من لؤلؤ، فعرفوه بها[٧].

وقال ابن قتيبة[٨]: المعنى: ننجيك وحدك. وهو قول طائفة من أهل العلم[٩]،

---

(١) زاد المسير (٤/ ٦٠).

(٢) التبيان (٢/ ٣٣).

(٣) قال الطبري (١١/ ١١٤): فإن قال قائل: ما وجه قوله: "ببدنك"؟ وهل يجوز أن ينجيه بغير بدنه، فيحتاج الكلام إلى أن يقال فيه: "ببدنك"؟
قيل: كان جائزاً أن ينجيه بهيئته حياً كما دخل البحر، فلما كان جائزاً ذلك قيل: ﴿فاليوم ننجيك ببدنك﴾ ليعلم أنه ينجيه بالبدن بغير روح، ولكن ميتاً.

(٤) قال مجاهد في تفسيره (ص:٢٩٧): ((يعني: بجسدك)). وانظر: الوسيط (٢/ ٥٥٨)، وزاد المسير (٤/ ٦١).

(٥) وهو قول الزجاج في معانيه (٣/ ٣٢). وانظر: زاد المسير (٤/ ٦١).

(٦) وهو قول أبي صخر. أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٨٤). وانظر: الماوردي (٢/ ٤٤٩)، وزاد المسير (٤/ ٦١). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٨٨) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٧) زاد المسير (٤/ ٦١).

(٨) تفسير غريب القرآن (ص:١٩٩).

(٩) انظر: الوسيط (٢/ ٥٥٨)، وزاد المسير (٤/ ٦١)، والدر المنثور (٤/ ٣٨٨).

قالوا: لم يقذف البحر سواه.

وقال السدي: دعا موسى حين قال بنو إسرائيل: لم يغرق فرعون، فخرج في ستمائة ألف وعشرين ألفاً عليهم الحديد(١).

ثم نَبَّه على علّة تنجيته ببدنه فقال: ﴿لتكون لمن خلفك آية﴾ أي: لتكون لمن خلفك من الناس عبرة ونكالاً إلى يوم القيامة، أو لتكون لمن خلفك من الناس علامة على هلاكك ومهانتك وبطلان إلاهيتك، مع ما في ضمن ذلك من تطييب قلوب بني إسرائيل وتَشَفِّيهم منه برؤيتهم إياه غريقاً مَهيناً، ودفعِ ما عساه يتوهمه أغمارهم وأغباؤهم من خيانة بعد إخبار موسى بهلاكه، وتكذيب من قال منهم: هو أعظم شأناً من أن يموت أو يغرق، وترغيم مُتَّخذيه إلهاً.

وقرأ علي عليه السلام وابن السميفع وأبو المتوكل وأبو الجوزاء: «لمن خَلَقَكَ» بفتح اللام والقاف(٢)، على معنى: لتكون لخالقك آية على قدرته وعظمته وانتقامه من [المنتهكين](٣) حِماه، وإظهار تصرفاته فيك ما بين إحياء وإماتة، وإعزاز وإذلال، أيها الطاغي الباغي بِادِّعائه الربوبية.

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

---

(١) زاد المسير (٤/ ٦١).

(٢) زاد المسير (٤/ ٦٢).

(٣) في الأصل: المتهكين. والصواب ما أثبتناه.

قوله تعالى: ﴿ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق﴾ أي: أنزلناهم منزلاً كريماً مرضياً.

واختلف فيهم؛ فقيل: هم أصحاب موسى[(١)].

وقيل: قريظة والنضير[(٢)].

فالمبوّأ الصدق على القول الأول: مصر والشام.

وعلى القول الثاني: ما بين الشام والمدينة من أرض يثرب.

﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ المآكل المستلذّة، ﴿فما اختلفوا﴾ وتشعبوا فرقاً في دينهم وكتابهم ﴿حتى جاءهم العلم﴾ واتضحت لهم البراهين واستنارت لهم أعلام الهدى، وذلك بالتوراة والعلم الذي اكتسبوه من شريعتهم -على القول الأول-، وبمحمد ﷺ والقرآن -على القول الثاني-، كأنه قيل: فما اختلفوا في رسالة محمد وصفته حتى جاءهم العلم، وهو البيان الذي لا يجامعه ريب بأنه هو النبي الموعود به المنعوت في كتابهم، ﴿إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة﴾ قضاء فصل ومجازاة، ﴿فيما كانوا فيه يختلفون﴾ في الدين.

فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ

---

(١) وهو قول الضحاك. أخرجه الطبري (١١/ ١٦٦)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٨٥). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٨٩) وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) ذكره الواحدي في: الوسيط (٢/ ٥٥٩)، وابن الجوزي في: زاد المسير (٤/ ٦٢).

﴿ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك﴾ اختلفوا في تأويل هذه الآية؛ فذهب الأكثرون إلى أن الخطاب للنبي ﷺ، والمراد غيره من أهل الشك، وهو أسلوب من أساليب العرب، يخاطبون الرجل ويريدون غيره[١].

قال الزجاج[٢]: والدليل على ذلك قوله في آخر السورة: ﴿قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني... الآية﴾، فأعلم الله تعالى أن نبيه ﷺ ليس في شك، وأمره أن يتلو عليهم ذلك.

ويروى عن الحسن رحمه الله تعالى أنه قال: لم يشكَّ ولم يسأل[٣]، فهذا بَيِّنٌ جداً.

والدليل على أن المخاطبة للنبي ﷺ مخاطبةٌ للناس، قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء﴾ [الطلاق:١] فقال: «طلقتم» ولفظ أول الخطاب للنبي ﷺ وحده، فهذا أحسن الأقوال.

قال[٤]: وفيها قولان آخران.

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٥٩)، وزاد المسير (٤/ ٦٣).

(٢) معاني الزجاج (٣/ ٣٢-٣٣).

(٣) أخرجه الطبري (١١/ ١٦٨). وأخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٨٦) عن ابن عباس. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٨٩) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء المقدسي في المختارة عن ابن عباس.

(٤) أي: الزجاج.

﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل﴾ كما يقول الرجل للرجل: إن كنت أبي فتعطف عليّ، أي: [إن كنت][(١)] أبي فواجب أن تتعطف عليّ، ليس أنه يشك أنه أبوه.

وفيها وجه ثالث[(٢)]: أَنْ تكون «إِنْ» في معنى «ما»، فيكون المعنى: ما كنت في شك مما أنزلنا إليك.

﴿فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك﴾ أي: لسنا نريد أن نأمرك أن تسأل لأنك شاك، ولكن لتزداد [بصيرة][(٣)]، كما قال إبراهيم ﷺ، قال: ﴿أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ [البقرة:٢٦٠]، فالزيادة في التثبت ليست مما يبطل صحة العقد.

وقال ابن قتيبة[(٤)]: كان الناس على عهد رسول الله ﷺ أصنافاً، منهم كافر مكذب، ومؤمن مصدق، وشاكّ في الأمر لا يدري كيف هو، يُقَدِّمُ رِجْلاً ويُؤَخِّرُ أخرى. فخاطب الله تعالى هذا الصنف من الناس فقال: إن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان محمد ﷺ فاسأل.

وقال الزمخشري[(٥)]: هذا بمعنى الفرض والتمثيل، كأنه قيل: فإن وقع لك شكّ مثلاً وخيّل لك الشيطان خيالاً منه تقديراً، ﴿فاسأل الذين يقرؤون الكتاب

---

(١) في الأصل: فأنت. والتصويب من معاني الزجاج (٣/ ٣٣).
(٢) ذكره الزجاج (٣/ ٣٣).
(٣) زيادة من زاد المسير (٤/ ٦٣).
(٤) تأويل مشكل القرآن (ص:٢٧٢).
(٥) الكشاف (٢/ ٣٥٢).

من قبلك﴾؛ كعبدالله بن سلام وأصحابه، فإنهم من الرسوخ في العلم والإحاطة بصحة رسالتك وتحقيق معرفتك، بالمنزلة التي تصلح لمن تَدَاخَلَهُ شَكٌّ وامْتِراء أن يراجعهم ويستوضح ما الْتَبَسَ عليه من جهتهم.

﴿لقد جاءك الحق من ربك﴾ أي: أتاك الحق الذي لا مرية فيه، ﴿فلا تكونن من الممترين﴾.

﴿ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين﴾ أي: دُمْ واثبت على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك وانتفاء التكذيب بآيات الله.

ويجوز أن يكون على طريقة التهييج والإِلْهاب، كقوله: ﴿فلا تكونن ظهيراً للكافرين * ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك﴾ [القصص:٨٦-٨٧].

وقيل: هو نهي للنبي ﷺ، والمراد غيره.

أو: فلا تكونن أيها الإنسان أو السامع الذي يتطرق إلى مثله الامتراء والتكذيب.

قوله تعالى: ﴿إن الذين حَقَّتْ عليهم كلمة ربك﴾ أي: ثبتت ووجبت عليهم كلمة ربك السابقة في اللوح المحفوظ بأنهم يموتون كفاراً، وأنهم قوم مُعَذَّبون مسخوط عليهم ﴿لا يؤمنون﴾.

﴿ولو جاءتهم كل آية﴾ خارقة سألوك الإتيان بها ﴿حتى يروا العذاب الأليم﴾ فحينئذ لا ينفعهم الإيمان الاضطراري، كما لم ينفع فرعون إيمانه.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فلولا﴾ أي: فَهلاَّ، وكذا قرأها عبدالله بن مسعود وأُبيّ بن كعب رضي الله عنهما[1].

﴿كانت قرية آمنت﴾ أي: قرية واحدة من القرى التي أهلكناها آمنت. والمراد: آمن أهلها قبل معاينة العذاب، ولم تُؤَخَّر كما أُخِّرَ فرعون إلى أن أَلْجَمَهُ الغرق وعاين الملك ﴿فنفعها إيمانها﴾.

قوله تعالى: ﴿إلا قوم يونس﴾ قال صاحب الكشاف[2]: «إلا قوم يونس» استثناء من «القرى»؛ لأن المراد أهاليها، وهو استثناء منقطع، بمعنى: ولكن قوم يونس.

ويجوز أن يكون متصلاً، والجملة في معنى النفي، كأنه قيل: ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس، وانتصابه على أصل الاستثناء.

وقرئ [بالرفع][3] على البدل[4].

وقال الزجاج[5]: وأما النصب في قوله: ﴿إلا قومَ يونس﴾ مثله في الشعر:

---

(١) البحر المحيط (٥/ ١٩٢).

(٢) الكشاف (٢/ ٣٥٣).

(٣) زيادة من الكشاف، الموضع السابق.

(٤) رُوي ذلك عن الجرمي والكسائي. انظر: البحر المحيط (٥/ ١٩٢).

(٥) معاني القرآن للزجاج (٣/ ٣٤-٣٥).

.... ومـــا بـــالربع مـــن أحـــد

إلا أواري ....(١)

ويجوز الرفع على أن يكون على معنى: فَهَلاَّ كانت قرية آمنت، فيكون «إلا قوم يونس» صفة. ويجوز أن تكون بدلاً من الأول؛ لأن معنى «إلا قومَ يونس» محمول على معنى هلاَّ كان قوم قرية، أو قوم نبي آمنوا إلا قوم يونس.

وفي الرفع وجه آخر: وهو البدل، وإن لم يكن الثاني من جنس الأول(٢)، كما قال الشاعر:

وَبَلْدَةٌ لَيْسَ بها أَنِيسُ ... إِلاَّ اليَعَافِيرُ وَإِلاَّ العِيسُ(٣)

﴿ومَتَّعناهم إلى حين﴾ أي: إلى زمن انقضاء آجالهم.

---

(١) جزء من بيتين للنابغة. وهما:

وَقَفْتُ فيها أُصَيْلالاً أُسَائِلُها ... عَيَّتْ جَوَاباً وما بالرَّبْعِ مِنْ أَحَدِ

إِلاَّ الأواريَ لأْياً ما أُبَيِّنُهـــا ... والنُّؤْيُ كالحوضِ بالمَظْلومة الجَلَدِ

انظر: ديوانه (ص: ٣٠)، والكتاب (٢/ ٣٢١)، والمقتضب (٤/ ٤١٤)، وشرح المفصل لابن يعيش (٢/ ٨٠)، وأوضح المسالك (٢/ ٣٨٩)، ومجاز القرآن (١/ ٣٢٨)، والتصريح (٢/ ٣٦٧)، والإنصاف (١/ ١٧٠)، والطبري (١/ ٧٨)، والقرطبي (٧/ ٣٥٦)، واللسان، مادة: (أصل).

والأواري: جمع آري، وهو مربط الدواب.

(٢) أي هو استثناء منقطع.

(٣) البيت لجران العود النميري، وهو عامر بن الحرث. والشاهد: أن الاستثناء منقطع، ومع ذلك رفع. انظر البيت في: الطبري (٥/ ٢٧٧، ١٢/ ٤٥، ٢٧/ ٦٥)، والقرطبي (٥/ ٣١٢، ٦/ ١٠، ١٠/ ٢٦، ٢٠/ ٨٩)، والتمهيد لابن عبد البر (٥/ ١٤٥)، وابن يعيش (٢/ ٨٠)، والخزانة (٤/ ١٩٧)، ومعاني الزجاج (٣/ ٣٥)، وروح المعاني (١٤/ ١٧٣، ٣٠/ ١٥٢).

الإشارة إلى قصتهم:

ذكر أهل العلم بالتفسير والسِّيَر: أن يونس بن متّى عليه السلام بُعث إلى نينوى من أرض الموصل يدعوهم إلى [الله](١) ورفض الأصنام، فأَبَوْا عليه ولم ينقادوا إليه، فأخبرهم أن العذاب نازل بهم ومصبِّحُهم بعد ثلاث، ثم خرج -عليه السلام- من بين أظهرهم، فلما تغشّاهم العذاب للوقت الذي توعدهم بنزول العذاب فيه، قال ابن عباس: وجدوا حَرَّهُ على أكتافهم، ولم يبق بينهم وبينه إلا قدر ثلثي ميل(٢).

قال وهب: أغامت السماء غيماً أسود هائلاً يدخن دخاناً شديداً، فهبط حتى تغشّى مدينتهم(٣). فلما أيقنوا بالهلاك طلبوا نبيهم فلم يجدوه، فتداركهم الله تعالى برحمته، وألقى في قلوبهم الندم والتوبة، فلبسوا المسوح، وحثوا على رؤوسهم الرماد، وبرزوا إلى الصعيد بنسائهم وصبيانهم ودوابهم، وفرّقوا بين النساء والصبيان، والدواب وأولادها، فحنّ بعضهم إلى بعض، وتضرعوا إلى الله، وعَلَتِ الأصوات، وارتفع الضجيج والعجيج، وأظهروا التوبة والإيمان وأخلصوا نياتهم وقالوا: آمنا بما جاء به يونس، وكان ذلك يوم عاشوراء ووافق يوم الجمعة(٤).

---

(١) في الأصل: الإسلام. والمثبت من زاد المسير (٤/ ٦٥).

(٢) انظر قول ابن عباس في: زاد المسير (٤/ ٦٥).

(٣) زاد المسير (٤/ ٦٥).

(٤) زاد المسير (٤/ ٦٥-٦٦).

قال مقاتل[١]: عجّوا إلى الله تعالى أربعين ليلة.

قال ابن مسعود: بلغ من توبة أهل نينوى: أن ترادّوا المظالم بينهم، حتى إن الرجل كان يقتلع الحجر قد وضع عليه أساس بنيانه فيردّه[٢].

وقال أبو الجلد[٣]: لما غشيهم العذاب مشوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا: ما ترى؟ قال: قولوا: يا حي حين لا حي، يا حي يا قيوم، يا محيي الموتى، ويا حي لا إله إلا أنت[٤]. فقالوها فكشف عنهم العذاب.

وسنذكر قصة يونس في موضعها إن شاء الله تعالى.

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ
يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ
وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾
فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى
مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ

---

(١) تفسير مقاتل (٢/ ١٠٥).

(٢) زاد المسير (٤/ ٦٦).

(٣) هو جيلان بن فروة، أبو الجلد الأسدي البصري، صاحب كتب التوراة ونحوها، كان ثقة (الجرح والتعديل ٢/ ٥٤٧).

(٤) أخرجه الطبري (١١/ ١٧٢)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٨٩)، وأحمد في الزهد (ص:٤٤-٤٥). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٩٣) وعزاه لأحمد في الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

قوله تعالى: ﴿ولو شاء ربك﴾ أي: ولو شاء مشيئة قسر وقهر ﴿لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾ أي: مجتمعين على الإيمان مطبقين عليه.

قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ حريصاً على إيمان جميع الناس، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت له السعادة[(١)].

قال الأخفش[(٢)]: جاء بقوله: «جميعاً» مع «كل» [تأكيداً][(٣)]؛ كقوله: ﴿لا تتخذوا إلهين اثنين﴾ [النحل:٥١].

﴿أفأنت﴾ يا محمد ﴿تكره الناس﴾ تلجئهم إلى الإيمان وتضطرهم إليه ﴿حتى يكونوا مؤمنين﴾ أي: لا تقدر على ذلك ولا هو في وسعك.

وزعم قوم أن هذا منسوخ بآية السيف[(٤)].

ولا يصح؛ لأن المقصود من الآية: الإعلام بأنه لا يوقعُ في القلوب ما يضطرها إلى الإيمان إلا الله وحده، ألا تراه يقول عقيب ذلك: ﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله﴾ قال ابن عباس: بقضائه وقدره[(٥)].

---

(١) أخرجه الطبري (١١/ ١٧٣). وانظر: الوسيط (٢/ ٥٦٠)، وزاد المسير (٤/ ٦٧).

(٢) معاني الأخفش (ص:٢١٩). وانظر: زاد المسير (٤/ ٦٧).

(٣) في الأصل: تأكيد. والتصويب من زاد المسير، الموضع السابق.

(٤) ذكر دعوى النسخ هنا ابن سلامة في: الناسخ والمنسوخ (ص:١٠٤). وورد هذا ابن الجوزي في نواسخ القرآن (ص:٣٧٣). ولم يتعرض لدعوى النسخ هنا معظم من ألّف في النسخ.

(٥) الوسيط (٢/ ٥٦٠)، وزاد المسير (٤/ ٦٧).

وقال الزجاج[(١)]: بتوفيقه.

وقال غيره: بتيسيره وتسهيله وما يمنحهم من ألطافه.

﴿ويجعل الرجس على الذين﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم: «ونجعل» بالنون[(٢)].

وقرأ الأعمش: «الرجز» بالزاي[(٣)].

قال الحسن والزجاج[(٤)]: «الرجس»: العذاب[(٥)].

﴿على الذين لا يعقلون﴾ قال ابن عباس: هم الذين لا يؤمنون. يشير إلى أنهم لا يعقلون دلائل التوحيد ومعجزات الرسل عليهم الصلاة والسلام[(٦)].

﴿قل﴾ لهم يا محمد ﴿انظروا ماذا في السموات والأرض﴾ من الآيات والعبر [الدالة][(٧)] على القدرة والوحدانية؛ كالشمس والقمر والنجوم وغيرها من العجائب، المقتضية صانعاً حكيماً ومدبراً لا يشبهه شيء.

﴿وما تغني الآيات والنذر﴾ يعني: الرسل، و «ما» استفهامية أو نافية، ﴿عن قوم لا يؤمنون﴾ في علم الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ أي: فهل

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ٣٦).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٣٧٩)، والكشف (١/ ٥٢٣)، والنشر (٢/ ٢٨٧)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٤)، والسبعة في القراءات (ص:٣٣٠).

(٣) البحر المحيط (٥/ ١٩٣).

(٤) معاني الزجاج (٣/ ٣٦).

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٦١)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٦٨).

(٦) مثل السابق.

(٧) في الأصل: الدلة.

ينتظرون بعد الإعراض عن النذير في آياتي، والتفكر في عجائب مخلوقاتي، وبعد تكذيب رسولي الذي أيدته بالبراهين القاطعة، والحجج المنيرة الساطعة، والمعجزات الخارقة مثل وقائع الله تعالى بأمثالهم مثل مكذبي الأمم الخالية.

قال ابن الأنباري[١]: العرب تُكنّي بالأيام عن الشرور والحروب، وقد يُقصدُ بها أيام [السرور][٢] والأفراح إذا قام دليل بذلك.

والمعنى هاهنا: يجب أن لا تنتظروا إلا أياماً مثل أيام المكذبين من الأمم الماضية في وقوع العذاب بهم.

﴿قل فانتظروا﴾ قال الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي رضي الله عنه[٣]: المعنى: قل فانتظروا هلاكي.

والأظهر عندي: أنه تهديد لهم، على معنى: انتظروا ما يجب أن تنتظروه من وقائع الله بكم، ﴿إني معكم من المنتظرين﴾ لكم.

﴿ثم ننجّي رسلنا والذين آمنوا﴾ من العذاب الواقع بالمكذبين من الأمم، ﴿كذلك﴾ أي: مثل ذلك الإنجاء ﴿نُنْجِ المؤمنين﴾ منكم أيتها الأمة المحمدية من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

وقوله: ﴿حقاً علينا﴾ يعني: حق ذلك علينا حقاً.

قرأ يعقوب وحفص والكسائي في روايته عن أبي بكر عن عاصم: «نُنْجِ

---

(١) انظر: زاد المسير (٤/ ٦٩).

(٢) في الأصل: الشرور. والتصويب من زاد المسير، الموضع السابق.

(٣) زاد المسير (٤/ ٦٩).

المؤمنين» بتخفيف الجيم، وقرأ الباقون بالتشديد[1].

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس﴾ أي: يا أهل مكة ﴿إن كنتم في شك من ديني﴾ بما خامر قلوبكم من الفواحش المُضِلَّة، والوساوس المُزِلَّة، فإني أحاكمكم إلى عقولكم، بشرط الإنصاف بالإنصاف، فليت شعري! من أي وجه يتطرق الشك إليك في ديني، وقد جاء آمراً لكم بتوحيد الذي أنعم عليكم بالإيجاد، وتنزيهه عن الشركاء والأولاد، وزاجراً لكم عما أنتم عليه من عبادة أحجار لا تقدر على مثوبة عابديها، ولا على عقوبة جاحديها، فإذا نظرتم في ذلك علمتم أن ديني لا مدخل للشك فيه وجزمتم بتضليل القائل بما ينافيه.

﴿ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم﴾ فهو الإله الحق الذي يجب أن يعبد ويخشى،

---

(١) الحجة لابن زنجلة (ص:٣٣٧)، والكشف (١/ ٥٢٣)، والنشر (٢/ ٢٥٨-٢٥٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٤)، والسبعة في القراءات (ص:٣٣٠).

﴿وأمرت أن أكون من المؤمنين﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

فإن قيل: لأي معنى قال هاهنا: ﴿وأمرت أن أكون من المؤمنين﴾؟ وقال في آخر النمل: ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ [٩١]؟.

قلت: تقدمها قوله تعالى: ﴿ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين﴾، ثم قال بعده: ﴿وأمرت أن أكون﴾ منهم، فأقام المُظْهَر موضع المُضْمَر. وفي النمل تقدمها قوله: ﴿إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ [النمل:٨١]، فكأنه قال: وأمرت أن أكون ممن إذا سمع آيات الله آمن بها وكان من المسلمين.

قوله تعالى: ﴿وأن أقم وجهك﴾ عطف على ما قبله بتأويل المصدر(١)، التقدير: أمرت بالكون من المؤمنين، وبإقامة الوجه للدين، والمعنى: استقم ولا تلتفت يميناً ولا شمالاً.

قال ابن عباس: أَقِمْ عملك(٢).

﴿حنيفاً﴾ حال من «الوجه» أو «الدين»(٣).

قوله تعالى: ﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك﴾ يعني: لا ينفعك إن دعوته ﴿ولا يضرك﴾ إن تركت دعاءه، ﴿فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين﴾ الواضعين الدعاء في غير موضعه.

---

(١) التبيان (١/ ٢٤٧)، والدر المصون (٤/ ٧٢-٧٣).

(٢) زاد المسير (٤/ ٧٠).

(٣) الدر المصون (٤/ ٧٣).

﴿وإن يمسسك الله بِضُرّ﴾ من فقر أو مرض وغيرهما ﴿فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير﴾ نعمة من مال أو عافية وغيرهما ﴿فلا راد لفضله﴾ يشير إلى أنه لا كاشف للضر والبلاء، ولا صارف لما يريده من العافية والرخاء إلا هو، فهو الحقيق بالعبادة والدعاء، لا الأصنام التي لا تقدر على شيء من الأشياء، ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ لمن استغفره من كفره ومعاصيه.

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

﴿قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم﴾ وهو محمد ﷺ والقرآن، فلم يبق لكم عذر ولا على الله حجة، ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها﴾ أي: فلها نفع هداها، وعليها وَبال ضلالها، ﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾ بحفيظ موكول إلى حملكم على ما أريد، وإنما أنا بشير ونذير. وقد سبق القول على أمثالها في النسخ والإحكام.

﴿واصبر﴾ على دعائهم غيري وأذاهم إياك من أجلي ﴿حتى يحكم الله﴾ لك بإعزازك وإظهار دينك وإذلال أعدائك ﴿وهو خير الحاكمين﴾ والأمر بالصبر منسوخ بآية القتال عند ابن عباس وأكثر المفسرين[١].

---

(١) الوسيط (٢/ ٥٦٢)، وزاد المسير (٤/ ٧١). وانظر دعوى النسخ في: الناسخ والمنسوخ للنحاس (ص:٥٢٩) عن ابن زيد، والناسخ والمنسوخ لابن سلامة (ص:١٠٤). وردّ قول النسخ ابن الجوزي في نواسخ القرآن (ص:٣٧٤).

وأنكر قوم ذلك. وقد تكلمت عليه في البقرة عند قوله: ﴿فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره﴾ [١٠٩].

سورة هود عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي مائة وإحدى وعشرون آية في المدني، وثلاث وعشرون في الكوفي، وهي مكية. واستثنى قوم قوله تعالى: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار ... الآية﴾ فقالوا: هي مدنية(١).

واستثنى قوم: ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك﴾.

قرأتُ على الشيخ أبي محمد عبد المجير بن محمد بن عشائر القبيصي بمنزله بحلب، أخبركم أبو الفضل عبدالله بن أحمد بن محمد الخطيب الطوسي بالموصل، ثنا أبو الخطاب نصر بن أحمد البطر(٢)، ثنا دَعْلَج(٣)، ثنا جعفر الحسيني وأبو جعفر

---

(١) قال السيوطي في الإتقان (١/ ٤٨): ودليله ما صح من عدة طرق أنها نزلت بالمدينة في حق أبي اليسر.

(٢) نصر بن أحمد بن عبدالله بن البطر البغدادي البزاز القارئ، أبو الخطاب، مسند العراق. ولد سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة، كان يسكن باب الغربة ثم المشرعة مما يلي البدرية، وكان صالحاً صدوقاً، صحيح السماع، مات في سادس عشر ربيع الأول سنة أربع وتسعين وأربعمائة، وله ست وتسعون سنة (سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٦-٤٩).

(٣) دعلج بن أحمد بن دعلج بن عبد الرحمن، أبو محمد السجستاني المعدل، كان من ذوي اليسار والأحوال، وأحد المشهورين بالبر والأفضال، وله صدقات جارية ووقوف محبسة على أهل الحديث ببغداد ومكة وسجستان، جاور بمكة زماناً ثم سكن بغداد واستوطنها، وكان ثقةً ثبتاً، توفي يوم الجمعة في جمادى الآخرة سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة (تاريخ بغداد ٣٨٧-٣٩١، =

بن حسان التمار قالا: ثنا أبو كريب، ثنا معاوية بن هشام، عن شيبان.

وقرأتُ على شيخ الإسلام موفق الدين عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي في شعبان سنة تسع وستمائة واللفظ له، أخبركم شيخ الإسلام أبو محمد عبدالقادر بن أبي صالح الجيلي فأقرَّ به، أبنا أبو بكر أحمد بن المظفر بن سوسن التمار[(١)]، أبنا أبو علي الحسن بن أحمد بن شاذان[(٢)]، أبنا أبو بكر[(٣)] محمد بن العباس بن نجيح البزار من لفظه، ثنا محمد بن الفرج أبو بكر الأزرق[(٤)]، ثنا عبيد الله بن موسى، أبنا شيبان، عن أبي إسحاق، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن أبا بكر رضي الله عنه قال: «يا رسول الله أراك قد شِبْت؟ قال: شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخواتُها، وعَمَّ

= والأعلام ٢/ ٣٤٠).

(١) أحمد بن المظفر بن الحسين بن عبدالله بن سوسن، أبو بكر التمار، سمع من أبي علي الحسن بن أحمد بن شاذان، وأبي القاسم عبد الرحمن بن عبيد الله الحرفي وغيرهما، حدث عنه محمد بن ناصر السلامي وعبد القادر بن أبي صالح الجيلي وغيرهما، مات في سنة ثلاث وخمسمائة، وله اثنتان وتسعون سنة (سير أعلام النبلاء ١٩/ ٢٤١-٢٤٢، وتكملة الإكمال ٣/ ٢٥٤).

(٢) الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن الحسن بن محمد بن شاذان البغدادي، أبو علي البزاز، ولد في ربيع الأول سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، له كتب منها: "المشيخة الصغيرة"، و"الأفراد"، و"فوائد ابن قانع"، وغيرها، وكان صحيح السماع صدوقاً، توفي سلخ عام خمسة وعشرين وأربعمائة (سير أعلام النبلاء ١٧/ ٤١٦-٤١٨، والأعلام ٢/ ١٨٠).

(٣) في الأصل زيادة: بن. وهو خطأ. انظر ترجمته في: تاريخ بغداد (٣/ ١١٨).

(٤) محمد بن الفرج بن محمود البغدادي، أبو بكر الأزرق، صدوق، ربما وهم، مات في آخر سنة اثنتين وثمانين ومائتين (تهذيب التهذيب ٩/ ٣٥٤، والتقريب ص:٥٠٢، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٩٤-٣٩٥).

يتساءلون، والواقعة، والمرسلات، وإذا الشمس كُوِّرَتْ»[١].

وأخبرنا به عالياً الشيخ أبو العباس الخضر بن كامل بن سالم قراءة عليه وأنا أسمع سنة ست وستمائة، قال: أبنا أبو الدر ياقوت بن عبدالله التاجر، أبنا أبو محمد عبدالله بن محمد بن عبدالله بن هزارمرد الصريفيني، حدثنا أبو طاهر محمد بن عبدالرحمن بن العباس المخلص سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، ثنا أبو بكر أحمد بن عبدالله بن سيف السجستاني، أبنا يونس بن عبد الأعلى، أبنا ابن وهب، أبنا طلحة بن عمرو[٢]، عن عطاء، عن ابن عباس: «أن أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله، لقد أسرع إليك الشَّيْب!! قال: أجل، شَيَّبَتْنِي هودٌ وأخواتها. قال عطاء: أخواتها: اقتربت الساعة، والمرسلات عرفاً، وإذا الشمس كورت»[٣]. هذا حديث صحيح.

الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٠٢ ح٣٢٩٧)، والحاكم (٢/ ٣٧٤ ح٣٣١٤).

(٢) طلحة بن عمرو بن عثمان الحضرمي المكي، متروك الحديث، مات سنة اثنتين وخمسين ومائة (تهذيب التهذيب ٥/ ٢١، والتقريب ص:٢٨٣).

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٩٧) وعزاه لابن عساكر، وابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٤٣٥).

عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿كتاب﴾ أي: هذا كتاب ﴿أحكمت آياته﴾ نظمت نظماً رصيناً سليماً عن الخلل والتناقض والنسخ.

قال ابن عباس: لم ينسخ بكتاب كما نسخت الكتب والشرائع(١).

«أحكمت» منعت من الفساد، من قولهم: أَحْكَمْتَ الدَّابَّةَ؛ إِذا وَضَعْتَ عليها الحكمة لتمنعها من الجماح(٢).

قال جرير:

أَبَنِي حَنيفَةَ أَحْكِمُوا سُفَهَاءَكُمْ ... إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمُ أَنْ أَغْضَبَا(٣)

قال قتادة: أحكمت من الباطل(٤).

﴿ثم فصلت﴾ بفرائد الفوائد، كما تفصل القلائد [بالفرائد](٥)، ما بين حرام وحلال، ووعد ووعيد، وترغيب وترهيب، وغير ذلك.

وقيل: فصلت في النزول شيئاً بعد شيء(٦).

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٦٣) من قول الكلبي، وزاد المسير (٤/ ٧٣).

(٢) انظر: اللسان، مادة: حكم.

(٣) البيت لجرير. انظر: ديوانه (ص:٧٢)، والعمدة (٢/ ١٦٨)، والكامل (٣/ ٢٦)، والقرطبي (١/ ٢٨٨)، وأمثال الحديث (١/ ٩٣، ١٠٠)، والكشاف (٢/ ٣٥٨)، والبحر المحيط (٥/ ٢٠١)، والدر المصون (٤/ ٧٥).

(٤) أخرجه الطبري (١١/ ١٧٩-١٨٠)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٩٥). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٩٩) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٥) زيادة من تفسير النسفي (٢/ ١٤٥). وفي البحر المحيط: بالدلائل.

(٦) زاد المسير (٤/ ٧٤). وهذا القول ذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن (ص:٢٠١).

و «ثم» للتراخي في الحال لا في الوقت، كما تقول: وهو حسن الوجه ثم كريم الفعل.

﴿من لدن﴾ أي: من عند ﴿حكيم﴾ في إحكام كتابه، ﴿خبير﴾ في تفصيله.

﴿أن لا تعبدوا﴾ مفعول له، على معنى: لا تعبدوا[١]، وتكون «أَنْ» مفسرة. كأنه قيل: قال: لا تعبدوا، وأمركم أن لا تعبدوا ﴿إلا الله إنني لكم منه﴾ أي: من جهته؛ كقوله: ﴿رسول من الله﴾ [البينة:٢]، أو هي صلة لـ«نذير»، أي: أنذركم منه ومن عذابه إن كفرتم، وأبشركم بثوابه إن آمنتم[٢].

﴿وأن استغفروا﴾ معطوف على «أن لا تعبدوا»[٣]، أي: أمركم بالتوحيد والاستغفار.

والمعنى: استغفروا ربكم من الذنوب المستأنفة، ﴿يمتعكم﴾ جواب «وأن استغفروا».

ومعنى: ﴿يمتعكم متاعاً حسناً﴾ يطوّل نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية. قال ابن عباس: يتفضل عليكم بالرزق والسعة[٤].

﴿إلى أجل مسمى﴾ وهو الموت، وهذا كقوله: ﴿فلنحيينه حياة طيبة﴾ [النحل:٩٧].

قرأتُ على قاضي القضاة أبي صالح نصر بن عبد الرزاق بن عبد القادر بن أبي

---

(١) الدر المصون (٤/ ٧٥).

(٢) الدر المصون (٤/ ٧٦).

(٣) التبيان (٢/ ٣٤)، والدر المصون (٤/ ٧٦).

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٦٣)، وزاد المسير (٤/ ٧٥).

صالح بن جنكي دوست الجيلي الحنبلي، وعلى أبي عبدالله محمد بن أبي البدر بن فتيان الفقيه الحنبلي[١]، قلت لكل واحد منهما على إفراده: أخبرتكم شهدة بنت أحمد بن الفرج الكاتبة فأقرَّ به، قالت: أبنا أبو الفرج محمد بن محمود بن الحسن القزويني في سنة سبع وثمانين وأربعمائة، أبنا أبو علي إبراهيم بن محمد الهاني، أبنا أبو القاسم إسماعيل بن أحمد النجمي السيوردي، أبنا أبو القاسم منصور بن الحكم الأشغارياني[٢] -قرية من قرى الفرغانة (مرغينان)- في مسجد الجامع قال: سمعت جعفر بن نسطور الرومي[٣] صاحب رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً في الآخرة، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب))[٤].

قوله تعالى: ﴿ويؤت كل ذي فضل فضله﴾ أي: يعطي كل ذي فضل في الطاعة والعمل الصالح فضله من الثواب والدرجات على حسب تفاضلهم في

---

(١) محمد بن أبي البدر بن فتيان الفقيه العدل، أبو عبد الله، سمع من شهدة ومن بعدها الكثير، وسماعه صحيح، وهو رجل حسن (تكملة الإكمال ٤/ ٤٦٢).

(٢) منصور بن الحكم، متهم بالكذب (ميزان الاعتدال ٦/ ٥١٧، ولسان الميزان ٦/ ٩٣).

(٣) جعفر بن نسطور الرومي، أحد الكذابين الذين ادّعوا الصحبة بعد النبي ﷺ بمئين من السنين، ذكره ابن حجر في التجريد فقال: الإسناد إليه ظلمات، والمتون باطلة، وهو دجال أو لا وجود له (الإصابة ١/ ٥٥١، ولسان الميزان ٢/ ١٣٠). والحديث بهذا الإسناد مكذوب. وصح بعضه من طرق أخرى. انظر: التخريج.

(٤) أخرجه أبو داود (٢/ ٨٥ ح١٥١٨)، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٤ ح٣٨١٩)، وأحمد (١/ ٢٤٨ ح٢٢٣٤)، والحاكم (٤/ ٢٩١ ح٧٦٧٧)، والبيهقي في الكبرى (٣/ ٣٥١ ح٦٢١٤) كلهم من حديث ابن عباس.

الطاعات.

وقيل: هو على حذف المضاف، تقديره: ويؤت كل ذي فضل جزاء فضله.

وقال ابن مسعود وابن عباس: يؤت كل من فضلت حسناته على سيئاته فضله، يعني: الجنة[١].

﴿وإن تولوا﴾ تقديره: وإن تتولوا، فحذف إحدى التائين، وابن كثير شَدَّدَ التاء، وقدم ذكر ذلك.

والمعنى: وإن تُعرضوا عن الإيمان.

﴿فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾ وهو يوم القيامة.

﴿إلى الله مرجعكم﴾ تهديد شديد، ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ إعلام بأنه لا يمتنع عليه ما أراد من ثواب وعقاب.

أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم﴾ نزلت في الأخنس بن شريق، كان حلو المنطق حبيب القلوب، وكان هو وأحزابه من المنافقين[٢] ﴿يُثْنُونَ صدورهم﴾ يعطفونها ازوراراً وانحرافاً عن الحق، ويطوونها على عداوة محمد ﷺ، ﴿ليستخفوا منه﴾ أي: من الله تعالى. ويدل عليه تمام الآية.

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٦٣)، وزاد المسير (٤/ ٧٥).

(٢) ذكره الماوردي (٢/ ٤٥٨)، والواحدي في أسباب النزول (ص:٢٧١) وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٧٦).

وقيل: ليستخفوا من محمد ﷺ. وكان طائفة من المشركين يقولون: إذا أغلقنا أبوابنا وأرخينا ستورنا واستغشينا ثيابنا وثنينا صدورنا على عداوة محمد ﷺ كيف يعلم بنا؟ فأخبر الله تعالى عما كتموه.

﴿ألا حين يستغشون ثيابهم﴾ قال ابن زيد: يستترون بها إذا ناجى بعضهم بعضاً في أمر رسول الله ﷺ[(١)].

وقيل: يستغشونها لئلا يسمعوا القرآن، كما قال مخبراً عن قوم نوح: ﴿جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم﴾ [نوح:٧].

قال قتادة: أخفى ما يكون ابن آدم: إذا حنى صدره، واستغشى ثيابه، وأضمر هَمَّهُ في نفسه[(٢)].

﴿يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ فأي فائدة في تثنيهم صدورهم واستغشائهم ثيابهم.

وقرأ ابن عباس: «تَثْنَوْنِي صدورهم»[(٣)]، جعل الفعل للصدور، وجاء على بناء تفعوعل للمبالغة في الشيء، مثل: تَحْلَوْلِي، مِن الحلاوة.

وفَسَّرها ابن عباس فقال: إن ناساً كانوا يستحيون أن يفضوا إلى السماء في الخلاء ومجامعة النساء[(٤)]. فتكون على هذا في حق المؤمنين.

---

(١) أخرجه الطبري (١١/ ١٨٤). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٧٧).

(٢) أخرجه الطبري (١١/ ١٨٤)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٠٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٠٠-٤٠١) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) تفسير الطبري (١١/ ١٨٤)، وزاد المسير (٤/ ٧٧).

(٤) أخرجه البخاري (٤/ ١٧٢٣)، والطبري (١١/ ١٨٥)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٩٩). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٠٠) وعزاه للبخاري وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي =

﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦ ﴾

قوله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ «مِنْ» زائدة. والدَّابَّة: اسم لكل حيوان دَبَّ ودَرَجَ، ذَكَراً كان أو أنثى، مميزاً أو غير مميز[1]. والمعنى: على الله رزقها تفضلاً منه.

ولما ضمنه سبحانه وتعالى -وكان ما ضمنه الله متحتم الوجود- أتى بلفظ الوجوب فقال: ﴿على الله رزقها﴾، ولهذه الآية وأمثالها قلّ حرص ذوي الألباب في طلب الرزق.

وأخرج الإمام أحمد في كتاب الزهد[2] بإسناده عن مسروق قال: «أكونُ بالرزق أوثق مني حين[3] يقول الخادم: ليس عندنا قفيز ولا درهم»، يشير بذلك إلى ثقته بموعد الله تعالى وطمأنينته وسكونه إليه.

﴿ويعلم مستقرها ومستودعها﴾ سبق تفسيره في الأنعام[4]، و «الكتاب المبين»: اللوح المحفوظ.

الشيخ وابن مردويه.

(١) انظر: اللسان، مادة: دبب.

(٢) الزهد (ص:٤١٩).

(٣) في الزهد: ما أكون أوثق مني بالرزق حين.

(٤) عند تفسير الآية رقم (٩٨).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى
ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ
بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا
عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ
لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وكان عرشه على الماء﴾ فيه دليل على أن العرش والماء مخلوقان قبل الأرض والسماء.

قال وهب بن منبه: أول شيء خلق العرش.

والصحيح: أن العرش مسبوق بخلق القلم.

قال ﷺ: «أول ما خلق الله القلم»[1]، وهو قول ابن عباس ومجاهد.

وقيل لابن عباس: على أي شيء كان الماء؟ قال: على متن الريح[2].

قوله تعالى: ﴿ليبلوكم﴾ متعلق بـ«خَلَقَ»، أي: خلق السموات والأرض وجعلها مساكن عباده، وكلفهم الأمر والنهي لمعنى الابتلاء والاختبار الذي يناط به الجزاء.

وقد روى ابن عمر عن النبي ﷺ في قوله: ﴿أيكم أحسن عملاً﴾ أنه قال:

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٩٢ ح٣٦٩٣)، والبيهقي في سننه (٩/ ٣).

(٢) أخرجه الطبري (١٢/ ٥)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٠٥)، وعبد الرزاق (٥/ ٩٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٠٣-٤٠٤) وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات.

«أيكم أحسنُ عقلاً، وأوْرَعُ عن محارم الله عز وجل، وأسرعُ في طاعة الله»[١].

قال الحسن وسفيان: أيكم أزهد في الدنيا[٢].

﴿ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا﴾ من أهل مكة وغيرهم الذين هم على مثل رأيهم، استبعاداً لبعثهم بعد تمزق لحومهم وتفرق أوصالهم، واعتقادهم استحالة ذلك. إن هذا القول أو إن هذا القرآن الذي تقول فتجلب به العقول، وتفرق به بين الآباء والأبناء والرجال والنساء، ﴿إلا سحر مبين﴾.

قال الزجاج[٣]: السحر باطل عندهم، فكأنهم قالوا: إن هذا إلا باطل بيّن.

قوله تعالى: ﴿ولئن أخرنا عنهم﴾ أي: عن المشركين ﴿العذاب﴾ يعني: عذاب الآخرة، وقيل: عذاب الدنيا ﴿إلى أمّة معدودة﴾ الأُمَّة: الجماعة. فالمعنى: إلى انقضاء جماعة من الأوقات، أو إلى مجيء أمة، أو انقراض أمة.

---

(١) وهو حديث موضوع، وهو من الأحاديث التي تتحدث عن فضل العقل ولم يصح في فضله حديث، فرواه الطبري (١٢/ ٥)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٠٦)، وفي سنده داود بن المحبر وهو ضعيف جداً صاحب مناكير. قال الدارقطني: كتاب العقل وضعه أربعة، أولهم ميسرة بن عبد ربه، ثم سرقه منه داود بن المحبر... إلخ. وقال الحاكم: حدثوا عن الحارث بن أبي أسامة عنه -أي: عن داود بن المحبر- بكتاب العقل وأكثر ما أودع في ذلك الكتاب عن الحديث الموضوع على رسول الله ﷺ. ونسب السيوطي الحديث في الدر (٤/ ٤٠٤) لداود بن المحبر في كتاب العقل وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم في كتاب التاريخ وابن مردويه. وانظر: تفسير الماوردي (٢/ ٤٥٩).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٠٦) عن سفيان. وذكره الماوردي (٢/ ٤٥٩)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٧٩)، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٠٤) وعزاه لابن أبي حاتم عن سفيان.

(٣) معاني الزجاج (٣/ ٤٠).

فإن قيل: قوله: «معدودة» مُشْعِرٌ بالقِلَّة، ولهذا قال: ﴿دراهم معدودة﴾ [يوسف:٢٠]، والأوقات والذوات التي يقترن العذاب بانقضائها متكثرة؟

قلت: الأوقات قليلة كسرعة زوالها وقرب تَقَضِّيها وفنائها. قال الله تعالى: ﴿إنهم يرونه بعيداً * ونراه قريباً﴾ [المعارج:٦-٧]، وكذلك الذوات وإن تعددت، فهي قليلة بالنسبة إلى سائر الذوات المخلوقة.

﴿ليقولن﴾ استهزاء وتكذيباً ﴿ما يحبسه﴾. قال الله تعالى: ﴿ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم﴾ قال الزجاج[1]: «يوم يأتيهم» منصوب بـ«مصروفاً»، المعنى: ليس العذاب مصروفاً عنهم يوم يأتيهم.

من قال: أنه عذاب الدنيا قال: المعنى إذا أخذتهم سيوف النبي ﷺ لم تغمد عنهم حتى يُبادوا وتعلوا كلمة الإسلام.

﴿وحاق بهم﴾ أحدق بهم وأحاط ﴿ما كانوا به يستهزؤون﴾ وهو العذاب الذي كانوا يستعجلون به.

وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾
وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ ۚ إِنَّهُۥ
لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ
وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ
صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ٤٠).

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾

قوله تعالى: ﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة﴾ قال الزجاج[١]: «الإنسان» اسم جنس. والمنصوص عن ابن عباس: أنه الوليد بن المغيرة[٢].

وقال غيره: عبد الله بن [أبي][٣] أمية المخزومي.

و «الرحمة»: النعمة من صحة، أو أمن، أو مال، أو ولد، أو غير ذلك.

﴿ثم نزعناها منه﴾ أي: سلبناه تلك الرحمة ﴿إنه ليؤوس﴾ من عود مثل تلك النعمة التي كنا أنعمنا بها عليه إليه ﴿كفور﴾ بقنوطه من الرحمة. قال الله تعالى: ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ [يوسف:٨٧].

وقال مقاتل[٤]: إنه ليؤوس عند الشدة من الخير، كفورٌ لله في نعمه في الرخاء.

فصل

اللام في «لئن» لتوطئة القسم، والتقدير: والله لئن.

وقوله: «إنه ليؤوس كفور» جواب القسم لا جواب «إِنْ»؛ لأن جواب «إِنْ» مجزوم، أو الفاء؛ كقولك: إِنْ تَأْتِنِي آتِكَ، وَإِنْ تَأْتِنِي فَزَيْدٌ يُكْرِمك، وإذا قلت: لئن تأتني، لم يجز أن تقول: آتك، وإنما تقول: لآتينك. والدليل على هذا قوله: ﴿لئن اجتمعت الإنس والجن -إلى قوله-: لا يأتون بمثله﴾ [الإسراء:٨٨] فأغنى عن

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ٤١).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٦٦)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٨٠).

(٣) زيادة من المصدرين السابقين. وانظر ترجمته في: الإصابة (٤/ ١١-١٣)، وتعجيل المنفعة (١/ ٢١١).

(٤) تفسير مقاتل (٢/ ١١٠).

جواب الشرط.

ومثله قول كثيّر:

لَئِنْ عَادَلي عَبد العَزيز بمِثْلِهَا   وَأَمْكَنَني مِنْها إذاً لا أُقيلُها[1]

أي: والله لا أقيلها.

ولو كان جواب «إن» لقال: أقلها، بالجزم.

إذا ثبت ذلك فقول بعض المفسرين: التقدير: فإنه ليؤوس كفور.

وقوله: ﴿ولئن أطعتموهم إنكم﴾ أي: فإنكم ﴿لمشركون﴾ [الأنعام:١٢١]، فأضمر الفاء: قول فاسد. ويؤيد ذلك قوله: ﴿ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك﴾ [الإسراء:٨٦]، ﴿لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار﴾ [الحشر:١٢]، فهذا كله جواب القسم لا جواب الشرط.

قوله تعالى: ﴿ولئن أذقناه نعماء﴾ صحّة وسعة في الرزق، ﴿بعد ضراء مسته﴾ من مرض أو فقر ﴿ليقولن﴾ جهلاً واغتراراً ﴿ذهب السيئات عني﴾ يريد: الضر والفقر، ﴿إنه لفَرِحٌ﴾ أَشِرٌ بَطِرٌ غيرُ صابر على الضَرَّاء، ولا شاكر على السَّرَّاء، ﴿فخور﴾ على عبادي وأوليائي بما أذقته من نعمي ورزقته من كرمي، شامخاً عليهم يظن أنني فعلت به وبهم ذلك لكرامته وهوانهم، هيهات بل يستكملوا نصيبهم من كرامتي سالماً موفراً.

حدثنا شيخنا أبو محمد عبدالله بن أحمد بن محمد رحمه الله، أبنا أبو الحسن علي

(١) البيت لكثيّر. وهو في: روح المعاني (١٢/ ١٦).

بن عساكر المقرئ البطائحي(١)، أبنا أبو طالب اليوسفي(٢)، أبنا أبو علي التميمي(٣)، أبنا أبو بكر القطيعي، ثنا عبدالله بن الإمام أحمد، حدثني أبي، ثنا يزيد، أبنا أبو الأشهب(٤)، حدثني سعيد بن أيمن مولى كعب بن سور(٥) قال: « بينما رسول الله ﷺ يحدّث أصحابه، إذ جاء رجل من الفقراء فجلس إلى جنب رجل من الأغنياء، فكأنه قبض من ثيابه عنه، وتَغَيَّر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: يا فلان، [أخشيت](٦) أن يعدو غناك عليه، أو أن يعدو فقره عليك؟! قال: يا رسول

(١) علي بن عساكر بن المرحب البطائحي الضرير، أبو الحسن، مقرئ العراق، كان عالماً بالعربية، إماماً في السنة. ولد سنة تسعين وأربعمائة، وتوفي في شعبان سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة (سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٤٨-٥٥٠).

(٢) عبدالقادر بن محمد ابن عبدالقادر بن محمد بن يوسف البغدادي، أبو طالب اليوسفي. شيخ صالح ثقة، متحرّ في الرواية، ولد سنة نيف وثلاثين وأربعمائة، وتوفي في آخر يوم الجمعة ثامن عشر ذي الحجة سنة ست عشرة وخمسمائة (سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٨٦-٣٨٧).

(٣) الحسن بن علي بن محمد بن علي بن أحمد بن وهب بن شبيل بن فروة بن واقد، أبو علي التميمي الواعظ، المعروف بابن المُذْهب، راوي مسند الإمام أحمد، ولد سنة خمس وخمسين وثلاثمائة، وكان مسكنه بدار القطن، مات في ليلة الجمعة سلخ شهر ربيع الآخر من سنة أربع وأربعين وأربعمائة، ودفن صبيحة تلك الليلة في مقبرة باب حرب (تاريخ بغداد ٧/ ٣٩٠-٣٩١، والأعلام ٢/ ٢٠١-٢٠٢).

(٤) جعفر بن حيان السعدي، أبو الأشهب العطاردي البصري الخراز الأعمى، ثقة، ولد سنة سبعين أو إحدى وسبعين، ومات سنة خمس وستين ومائة، وله خمس وتسعون سنة (تهذيب التهذيب ٢/ ٧٥-٧٦، والتقريب ص:١٤٠).

(٥) سعيد بن أيمن مولى كعب بن سور. يروي عن أنس، وروى عنه أبو الأشهب وحماد بن زيد (التاريخ الكبير للبخاري ٣/ ٤٥٥، والثقات ٤/ ٢٧٧).

(٦) في الأصل: أحسبت. والتصويب من الزهد (ص:٤٩).

الله، وشر الغنى؟ قال: نعم، [إن غناك][1] يدعوك إلى النار، وإن فقره يدعوه إلى الجنة. قال: فما ينجيني منه؟ قال: تواسيه منه، قال: إذاً أفعل، فقال الآخر: لا إرب لي فيه[2]. قال: فاستغفر لأخيك وادْعُ له »[3].

قال ابن عباس في قوله: «إنه لفرح فخور»: يفاخر أوليائي بما وسعت عليه[4].

قوله تعالى: ﴿إلا الذين صبروا﴾ قال الزجاج[5]: هذا استثناء ليس من الأول. المعنى: لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات، وهم المؤمنون صبروا على البلاء، ﴿وعملوا الصالحات﴾ في العافية والرخاء فحازوا فضيلتي الصبر والشكر، ﴿أولئك لهم مغفرة وأجر كبير﴾.

قوله تعالى: ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك﴾ أي: فلعلك تارك تبليغ بعض ما يوحى إليك من سَبِّ آلهتهم وعيبها، ﴿وضائق به﴾ أي: بتبليغه ﴿صدرك﴾ كراهة ﴿أن يقولوا لولا﴾ أي: هلا ﴿أنزل عليه كنز﴾ يستغني به ويغني به أصحابه ﴿أو جاء معه ملك﴾ يعضده ويشهد له، ﴿إنما أنت نذير﴾ليس عليك إلا البلاغ، ثم نسخ بآية السيف.

وقيل: المعنى ليس عليك أن تأتيهم بمقترحاتهم، إنما أنت منذر لهم، فلا يتوجه النسخ على هذا[6].

---

(١) زيادة من الزهد (ص:٤٩).

(٢) أي: لا حاجة لي فيه.

(٣) أخرجه أحمد في الزهد (ص:٤٩).

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٦٦)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٨١).

(٥) معاني الزجاج (٣/ ٤١).

(٦) الناسخ والمنسوخ لابن سلامة (ص:١٠٥)، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (ص:٣٧٥).

=

﴿والله على كل شيء﴾ من اقتراحهم وتهاونهم بك وردّهم قولك وغيره ﴿وكيل﴾ أي: حافظ لذلك وعليه مجُاز، وَكِّل أمركَ إليه.

قال الزمخشري[1]: إن قلت: لِمَ عَدَلَ عن «ضيق» إلى «ضائق»؟

قلتُ: ليدل على أنه ضِيقٌ عارض غير ثابت؛ لأن رسول الله ﷺ كان أفسح الناس صدراً. ومثله قولك: زيد سيد وجواد، تريد: السيادة والجود الثابتين المستقرين، فإذا أردت الحدوث قلت: سائد وجائد.

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿أم يقولون افتراه﴾ «أم» منقطعة، ﴿قل فأتوا بعشر سور مثله﴾ في

= قلت: لم يتعرض لدعوى النسخ في هذه الآية أصحاب أمهات كتب النسخ.

(١) الكشاف (٢/ ٣٦٣).

حسن النظم ورصانة اللفظ وصحة المعنى ﴿مفتريات﴾ بزعمكم ودعواكم.

فإن قيل: كيف تحداهم بالإتيان بسورة مثله؟

قلتُ: إما أن يكون التحدي وقع بالكثير أولاً، فلما عجزوا عدل إلى التحدي بالقليل، وإما أن يكون التحدي وقع أولاً بالقليل، فلما ضاق عليهم الخناق ولم يقدروا على إتيان المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة وسع عليهم مجال المعارضة فقال: ايتوا بعشر سور. وباقي الآية سبق تفسيره.

﴿فإن لم يستجيبوا لكم﴾ خطاب للنبي ﷺ، والجمع للتعظيم، أو الخطاب له ولأصحابه.

وقيل: الخطاب للمشركين. المعنى: إن لم يستجيبوا لكم مَنْ تدعونه إلهاً إلى الإعانة على المعارضة ﴿فاعلموا﴾ حينئذ ﴿أنما أنزل بعلم الله﴾ سبق تفسيره في النساء عند قوله: ﴿أنزله بعلمه﴾ [١٦٦]. وإن كان الخطاب بقوله: «فإن لم يستجيبوا لكم» للمسلمين، فالمعنى: دوموا على عملكم، إنما أنزل بعلم الله، ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ أمر لهم بالإسلام بألطف عبارة، وهو مثل قوله: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ [المائدة:٩١].

قوله تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾ قال مجاهد: نزلت في المرائين بأعمالهم[١].

وقال غيره: في الكفار الذين لا يؤمنون بالبعث، وهو الأظهر؛ لقوله: ﴿ليس لهم في الآخرة إلا النار﴾.

---

(١) زاد المسير (٤/ ٨٤).

﴿نُوَفِّ إليهم أعمالهم فيها﴾ أي: نوصلهم أجور أعمالهم في الدنيا فنمدّهم بالأموال والبنين وسعة الأرزاق والرفاهية والأمن وبلوغ الأماني، حتى يوافوا القيامة وليست لهم حسنة يجزون بها.

أخبرنا حنبل بن عبدالله بن الفرج إذناً قال: أخبرنا أبو القاسم هبة الله بن الحصين، أبنا ابن المذهب، أبنا أبو بكر القطيعي، أبنا عبدالله بن الإمام أحمد، حدثني أبي قال: ثنا عبد الصمد، ثنا همام، ثنا قتادة، عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة، يثاب عليها الرزق في الدنيا، ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا، فإذا لقي الله يوم القيامة لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً»[١]. انفرد بإخراجه مسلم، فرواه عن زهير، عن يزيد بن هارون، عن همام.

﴿وهم فيها﴾ أي: في الدنيا ﴿لا يبخسون﴾ أي: لا يُنقصون من أجور أعمالهم شيئاً.

وزعم مقاتل[٢] أن قوله: ﴿نُوَفِّ إليهم أعمالهم فيها ... الآية﴾ نسخ بقوله: ﴿عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد﴾ [الإسراء:١٨].

وهذا ليس بصحيح؛ لأن الأخبار لا تنسخ.

﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها﴾ أي: بطل في الآخرة ثواب ما عملوا في الدنيا من حسنة؛ لأنهم أُطْعموا بها كما ذكرناه، أو تكون الكناية في قوله: «فيها» تعود إلى «الآخرة» وهو أقرب المذكورين، على معنى: وحبط في الآخرة ثواب ما صنعوا، ﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾ من الخير؛ لأنهم لم

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٦٢ ح٢٨٠٨).

(٢) تفسير مقاتل (٢/ ١١٢).

يأتوا به على الوجه الصحيح.

وقرأتُ لعاصم من رواية أبان عنه: «وبطل ما كانوا» على نظم الماضي[١].

قوله تعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ وهو محمد ﷺ. وقيل: محمد ومن تبعه على برهان من الله وبيان واضح من دين الإسلام وصحته.

وقيل: «البينة»: القرآن. والمعنى: أفمن كان على بينة كمن لم يكن، فحذف لظهور المعنى، كما قال الشاعر:

فَأَقْسَمَ لَوْ شَيْءٍ أَتَانَا رَسُولَه ... سِواكَ وَلَكِنْ لم نجدْ لَكَ مَدْفَعَا[٢]

وقد دَلَّ على المحذوف قوله: ﴿مثل الفريقين﴾.

﴿ويتلوه﴾ أي: يتبعه ﴿شاهد منه﴾ أي: شاهد من الله عز وجل، وهو جبريل عليه السلام ليؤيده ويسدده، وهذا قول أكثر المفسرين[٣].

وقال جماعة، منهم: محمد بن علي وزيد بن علي: المعنى: ويتبع محمداً ﷺ شاهد منه، وهو علي عليه السلام[٤].

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٢١١).

(٢) البيت لامرئ القيس. انظر: اللسان، مادة: (وحد)، والطبري (١٢/ ١٨، ١٣/ ١٥٢، ٢٣/ ٢٠١، ٢٩/ ١٠٦)، والبغوي (٣/ ٢٠)، وزاد المسير (٢/ ١٤١، ٤/ ٨٧)، وروح المعاني (٧/ ١٢٨، ١٣/ ١٥٤).

(٣) أخرجه الطبري (١٢/ ١٦)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠١٤)، وأبو الشيخ في العظمة (٣/ ٩٧٤). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤١٠) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه من طريق عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري (١٢/ ١٥)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠١٥). وانظر: الماوردي (٢/ ٤٦١)، وزاد المسير (٤/ ٨٥).

قال علي عليه السلام: رسول الله ﷺ على بينة من ربه، وأنا شاهد منه[١].

وقيل: الضمير في قوله: «ويتلوه» يعود إلى «البينة»، فإنها بمعنى البيان.

المعنى: ويتبع البينة، أو يقرأ البينة؛ إن أريد بها القرآن. «شاهد منه» أي: من الله، وهو جبريل عليه السلام، أو من محمد ﷺ، وهو لسانه في قول الحسن وقتادة[٢]. ويروى مثله عن علي عليه السلام أو ابن عمه، على ما حكيناه.

قوله تعالى: ﴿ومن قبله﴾ أي: ويتلو محمداً ﷺ بالتصديق له من قبله، أي: من قبل بعثه، أو من قبل نزول البينة إن قلنا هي القرآن.

﴿كتاب موسى﴾ وهو التوراة، فإنها تشهد برسالة محمد ﷺ وصدقه.

وقال الزجاج[٣]: المعنى: وكان من قبل هذا كتاب موسى دليلاً على أمر النبي ﷺ، ويكون «كتاب موسى» على العطف على قوله: «ويتلوه شاهد منه».

«ومن قبله كتاب موسى»: أي: وكان يتلوه كتاب موسى؛ لأن النبي ﷺ بشَّر به موسى وعيسى في التوراة والإنجيل. قال الله تعالى: ﴿الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ [الأعراف:١٥٧]. ونصب ﴿إماماً﴾ على الحال[٤]؛ لأن «كتاب موسى» معرفة.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠١٥). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤١٠) وعزاه لابن مردويه وابن عساكر.

(٢) أخرجه الطبري (١٢/ ١٤-١٥)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠١٤). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤١٠) وعزاه لأبي الشيخ عن محمد بن علي ابن الحنفية.

(٣) معاني الزجاج (٣/ ٤٤).

(٤) التبيان (٢/ ٣٦)، والدر المصون (٤/ ٨٦).

وقال ابن الأنباري[(١)]: «كتابُ موسى» مفعول في المعنى؛ لأن جبريل تلاه على موسى فارتفع الكتاب، وهو مفعول بمضمر بعده تأويله: ومن قبله كتاب موسى كذلك، أي: تلاه جبريل أيضاً.

قلت: ويؤيد هذا المعنى قراءة من قرأ «كتابَ موسى» بالنصب[(٢)].

قوله تعالى: ﴿أولئك﴾ أصحاب موسى. وقيل: أصحاب محمد. وقيل: أولئك الذين هم على بينة، ﴿يؤمنون به﴾ أي: بكتاب موسى. وقيل: بالقرآن. وقيل: بمحمد ﷺ.

﴿ومن يكفر به من الأحزاب﴾ فإن قلنا: أن الضمير يرجع إلى «كتاب موسى»؛ فالمراد بالأحزاب: الذين تَحَزَّبُوا على الرسل من جميع الأمم. وهو قول سعيد بن جبير[(٣)].

وإن قلنا: الضمير يرجع إلى محمد ﷺ، أو إلى القرآن؛ فالمراد بالأحزاب: أهل مكة ومن ضامّهم من المُتَحَزِّبين على الرسول ﷺ.

﴿فالنار موعده فلا تَكُ في مرية منه﴾ إن قيل: لم حذفت النون؟

قلتُ: لشبهها إذا أسكنت بحروف المد واللين، وكثرة دورها في الكلام، فإن تحركت اختل أحد السببين، فلا يجوز: لم يك الرجل منطلقاً، ألا ترى أنه لا يجوز: لم يَهُ زيد ولم يَصُ، في لم يهن ولم يصن، فإن تحرك ما بعدها وسكنت النون جاز إثبات النون وحذفها.

---

(١) انظر: زاد المسير (٤/ ٨٧).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٢١١).

(٣) أخرجه الطبري (١٢/ ١٩)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠١٥). وانظر: الماوردي (٢/ ٤٦٢).

فإن قيل: فما المختار عندهم؛ الحذف -كما جاء هاهنا-؟ أم إثبات النون كما جاء في قوله تعالى: ﴿فلا تكن في مرية من لقائه﴾ [السجدة:٢٣]؟

قلت: الحذف إذا تعلقت بالجمل الكثيرة؛ لأن الكثرة أحد سببي جواز حذفها، وهذه الكثرة نعني بها في أمر الأفعال التي هي كان، ونعبر بها عن كل فعل، وكثرة الجمل هي التي تثقلها تعلقت بها من قبلها أو من بعدها. فقوله هاهنا: «فَلاَ تَكُ» جاء بعد أن تعلق بآيات ذوات جمل تقدمته وهي: ﴿أفمن كان على بينة ... الآية﴾، وكذلك قوله: ﴿ولم تك شيئاً﴾ في مريم جاء بعد قوله: ﴿أنى يكون لي غلام﴾ إلى قوله: ﴿ولم تك شيئاً﴾ [مريم:٨-٩].

وأما قوله تعالى: ﴿فلا تكن في مرية من لقائه﴾ [السجدة:٢٣] فإنه لم يتقدمه من الجُمل ما يثقله.

وأما قوله تعالى: ﴿فلا تَكُ في مرية مما يعبد هؤلاء﴾ فإنها تعلقت بما بعدها إلى آخر الآية.

وقرأتُ على شيخنا أبي البقاء: «مُرية» بضم الميم حيث جاء في القرآن، وهي قراءة الحسن وقتادة[١]. أي: لا تَكُ في شك من أن موعد الكفار من الأحزاب النار.

وقيل: فلا تك في مرية من القرآن. وقد سبق الكلام على نظائر هذا.

ثم استأنف فقال: ﴿إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس﴾ قال ابن عباس: يعني: أهل مكة لا يؤمنون أنه الحق[٢].

---

(١) زاد المسير (٤/ ٨٩).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٦٨)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٨٩).

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ أي: ومن أشدّ ظلماً ممن اختلق على الله كذباً، فزعم أن له ولداً أو شريكاً، ﴿أولئك يعرضون على ربهم﴾ يحبسون في الموقف وتعرض قبائحهم على ربهم، ﴿ويقول الأشهاد﴾ وهم الرسل والملائكة.

وقال مقاتل[1]: الناس، وهو جمع شاهد أو شهيد، كناصر وأنصار، وشريف وأشراف.

قال ابن الأنباري[2]: وفائدة الإخبار بما يعلمه الله: تعظيم الأمر المشهود عليه، ودفع المجاحدة فيه.

﴿هؤلاء الذين كذبوا على ربهم﴾ بما نسبوا إليه مما لا يجوز عليه من اتخاذ الأنداد والأولاد.

---

(١) تفسير مقاتل (٢/ ١١٣).

(٢) انظر: زاد المسير (٤/ ٨٩).

والظاهر أن قوله: ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾ من تمام كلام الأشهاد، يدل عليه ما أخبرنا به أبو المجد محمد بن الحسين القزويني، أبنا أبو منصور محمد بن أسعد، حدثنا الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، أبنا أبو طاهر محمد بن علي، أبنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي (١)، أبنا أبو سعيد الشاشي (٢)، ثنا عيسى بن أحمد العسقلاني، أبنا يزيد بن هارون، أبنا همام.

وقرأتُ على أبي بكر بن بهروز، أخبركم عبد الأول، أبنا عبدالرحمن بن محمد، أبنا عبدالله بن أحمد، أبنا إبراهيم بن خريم، ثنا عبد بن حميد، أبنا أبو الوليد، ثنا همام.

وأخبرنا الشيخان أبو القاسم السلمي وأبو الحسن علي بن أبي بكر البغداديان، أبنا أبو الوقت، أخبرنا الداودي، أبنا السرخسي، أبنا الفربري، ثنا البخاري، ثنا موسى بن إسماعيل، ثنا همام.

أنبأنا أبو علي بن عبدالله بن سعادة واللفظ له، أبنا أبو القاسم هبة الله بن محمد، أبنا الحسن بن علي، [أبنا] (٣) أحمد بن جعفر بن مالك، حدثنا أبو عبدالرحمن عبدالله بن الإمام أحمد، حدثني أبي رضي الله عنه، ثنا عفان، ثنا همام -والمعنى واحد-، ثنا قتادة، عن صفوان بن محرز قال: «كنت آخذاً بيد ابن عمر، إذ عرض له رجل

---

(١) علي بن أحمد بن محمد بن الحسن الخزاعي، أبو القاسم، حدث بمسند الهيثم بن كليب الشاشي عنه، وبكتاب "شمائل النبي ﷺ" للترمذي، وبكتاب "غريب الحديث" لابن قتيبة كلاهما عن الهيثم عنهما، كان ثقة مكثر من الحديث، ولد ببلخ سنة عشرين وثلاثمائة، ومات ببخارى سنة إحدى عشرة وأربعمائة (التقييد ص:٤٠٢-٤٠٣).

(٢) الهيثم بن كليب بن سريج بن معقل الشاشي، أبو سعيد، صاحب المسند الكبير، مات بالشاش سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة (التقييد ص:٤٧٩، وسير أعلام النبلاء ١٥/ ٣٥٩-٣٦٠).

(٣) زيادة على الأصل.

فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ قال في النجوى يوم القيامة؟ فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله تعالى يدني المؤمن فيضع عليه كنفه، ويستره من الناس ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. قال: ثم يعطى كتاب حسناته. وأما [الكفار][١] والمنافقون فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين»[٢]. وأخرجه مسلم أيضاً عن زهير بن حرب، عن إسماعيل بن علية، عن هشام الدستوائي، عن قتادة.

قوله تعالى: ﴿الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً .. الآية﴾ سبق تفسيرها فيما مضى[٣].

﴿أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض﴾ أي: لم يكونوا بالذين يُعجزون الله في الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابهم.

وقال ابن عباس: يريد: لم يعجزوني أن آمر الأرض فتخسف بهم[٤].

﴿وما كان لهم من دون الله من أولياء﴾ يمنعونهم من عقابه ﴿يضاعف لهم العذاب﴾ لضلالهم وإضلالهم.

---

(١) في الأصل: الكافر. والتصويب من صحيح مسلم (٤/ ٢١٢٠)، وأحمد (٢/ ٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢/ ٨٦٢ ح٢٣٠٩)، ومسلم (٤/ ٢١٢٠ ح٢٧٦٨)، وأحمد (٢/ ٧٤ ح٥٤٣٦).

(٣) عند تفسير الآية رقم (٤٥) من سورة الأعراف.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٦٩)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٩٠).

﴿ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون﴾ قال ابن عباس: أخبر الله تعالى أنه حال بين أهل الشرك وبين طاعته في الدنيا والآخرة. فأما في الدنيا فإنه قال: ﴿ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون﴾. وأما في الآخرة فإنه قال: ﴿فلا يستطيعون * خاشعة أبصارهم﴾(١) [القلم:٤٢-٤٣].

وقال قتادة: صُمٌّ عن سماع الحق فلا يسمعونه، وما كانوا يبصرون الهدى(٢).

وقيل: المعنى: يضاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون السمع فلا يسمعون، وبما كانوا يبصرون الهدى فلا ينظرونَ(٣) ولا يعتبرون، فحذف الباء، كما في قولهم: لأجزينك ما عملت وبما عملت. ذكره الفراء(٤)، وأنشد:

تُغَالِي اللَّحْمَ لِلأَضْيَافِ نِيّاً وَتُرْخِصُهُ إذا نضِجَ القُدُورُ(٥)

أراد: تُغالي باللحم.

وقيل: الضمير في قوله: «ما كانوا» يعود إلى قوله: «من أولياء»، وهي الأصنام التي اتخذوها آلهة، فنفى صلاحيتهم للولاية بقوله: «ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون»، وهذا المعنى منقول عن ابن عباس(٦).

فعلى هذا يكون قوله: «يضاعف لهم العذاب» اعتراضاً.

---

(١) أخرجه الطبري (١٢/ ٢٢). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٤١٣) وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه الطبري (١٢/ ٢٢)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠١٨). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤١٤) وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وأبي الشيخ.

(٣) قوله: «ينظرون» مكرر في الأصل.

(٤) معاني الفراء (٢/ ٨).

(٥) انظر البيت في: اللسان، مادة: (رخص، سفه، غلا)، وزاد المسير (١/ ١٤٨، ٣/ ٣٩٨، ٤/ ٩١).

(٦) الطبري (١٢/ ٢٣)، وزاد المسير (٤/ ٩١).

﴿أولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ لأنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله تعالى، فخسروا في صفقتهم وغُبنوا غبناً عظيماً، ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي: بطل عنهم ما كانوا يكذبون ويختلقون من الآلهة وشفاعتها.

قوله تعالى: ﴿لا جَرَمَ﴾ قال الزجاج[١]: «لا» نفيٌ لما ظنوا أنه ينفعهم، كأنه قيل: لا ينفعهم ذلك.

وقال سيبويه[٢] عن الخليل: «لا» رَدٌّ لقولهم، و «جَرَمَ»: فعل ماض، بمعنى: كسب، المعنى: كسب لهم ذلك الفعل الخسران، تقول: جرم فلان ذنباً، مثل: كسبه، وجرمته: كسبه إياه، ويقال أيضاً: أجرمته ذنباً.

وفي قراءة ابن مسعود: «لا يُجرمنكم شنآن» في المائدة[٣] بضم الياء، وكذلك: أكسبته ذنباً، وأنشد ابن الأعرابي:

.... وأكسبني مالاً وأكسبته أجرا

والأول أشهر وأكثر، ويقال: فلان جارم أهله، أي: كاسبهم. قال الشاعر:

جَرِيمَةُ ناهِضٍ في رَأْسِ نيق ... تَرى لِعِظَامِ مَا جَمَعَتْ صَلِيبَا[٤]

قال الأزهري: وهذا من أحسن ما قيل فيه.

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ٤٦).

(٢) انظر: الكتاب (٣/ ١٣٨).

(٣) الآية رقم: ٢.

(٤) البيت لأبي خراش الهذلي. انظر: ديوان الهذليين (٢/ ١٣٣)، وتهذيب اللغة (١١/ ٦٧)، واللسان، مادة: (صلب، جرم)، وشرح أشعار الهذليين (٣/ ١٢٠٥)، والبحر المحيط (٥/ ٢١٣)، والدر المصون (٤/ ٨٨).

قال الزجاج[١]: وزعم سيبويه[٢] أَنَّ جَرَمَ بمعنى: حق.

قال[٣]: وقول الشاعر:

وَلَقَدْ طَعَنْتُ أَبَا عُيَيْنَةَ طَعْنَةً جَرَمَتْ فَزَارَةُ بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا[٤]

معناه: أحقَّت الطعنة فزارة بالغضب.

وقال الفراء[٥]: «لا جرم» كلمة كانت في الأصل بمنزلة: «لا بُدَّ» و «لا محالة»، فكَثُرَ استعمالها حتى صارت بمنزلة: «حقاً». ألا ترى أن العرب تقول: لا جرم لآتينك، [فتراها][٦] بمنزلة اليمين، فكذلك فسرها المفسرون.

قال ابن عباس: يريد: حقاً أنهم في الآخرة هم الأخسرون[٧].

فإن قيل: لأي معنى قال هاهنا: ﴿الأخسرون﴾، وفي النحل: ﴿لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون﴾ [النحل:١٠٩]؟

قلت: هذه إخبار عن قوم ضوعف العذاب لهم، حيث ضلوا وأضلوا وصدوا

(١) معاني الزجاج (٣/ ٤٥-٤٦).

(٢) انظر: الكتاب (٣/ ١٣٨).

(٣) أي: الزجاج.

(٤) البيت لأبي أسماء بن الضَّريبة، أو عطية بن عفيف، يرثي كرز ابن عامر، وكان طعن حصين بن حذيفة الفزاري طعنة مميتة يوم بني عقيل وهو يوم الحاجر. انظر البيت في: الكتاب لسيبويه (٣/ ١٣٨)، واللسان، مادة: (جرم)، وأمالي المرتضى (٤/ ١٦٩)، ومجاز القرآن (١/ ١٤٧)، والخزانة (٤/ ٣١٠)، والمقتضب (٢/ ٣٥٢)، والطبري (٦/ ٦٣)، والماوردي (٢/ ٤٦٤)، وزاد المسير (٤/ ٩٢)، ومعاني الفراء (٢/ ٩)، وروح المعاني (٦/ ٥٥، ١٢/ ١٢١، ٢٤/ ٧١).

(٥) معاني الفراء (٢/ ٨). وانظر: الوسيط (٢/ ٥٦٩)، وزاد المسير (٤/ ٩١).

(٦) في الأصل: فترها. والتصويب من الوسيط وزاد المسير، الموضعان السابقان.

(٧) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٦٩)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٩١).

عن سبيل الله، فهم أخسرون لمضاعفة العذاب لهم. وفي النحل أخبر عن قوم كافرين فقال: ﴿ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة﴾ [النحل:١٠٧] ولم يذكر مضاعفة العذاب لهم فقال: ﴿هم الخاسرون﴾. هذا مع ما فيه من مراعاة الفواصل، فإن ما قبلها هاهنا «يبصرون» و «يفترون»، والتي في النحل فعلى وزان الكافرين والغافلين.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿وأخبتوا إلى ربهم﴾ أي: اطمأنوا إليه وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع والتواضع، من الخبت، وهي الأرض المطمئنة(١).

قال ابن عباس: خافوا ربهم وأنابوا إليه(٢).

قوله تعالى: ﴿مثل الفريقين﴾ يعني الكافرين والمؤمنين ﴿كالأعمى والأصم والبصير والسميع﴾ قال صاحب الكشاف(٣): هو من اللف والطباق، وفيه معنيان: أن يشبه الفريق [تشبيهين](٤) اثنين، كما شبه امرؤ القيس قلوب الطير بالحشف والعناب.

---

(١) انظر: اللسان (مادة: خبت).

(٢) زاد المسير (٤/ ٩٢).

(٣) الكشاف (٢/ ٣٦٧).

(٤) في الأصل: بشبهين. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

قلتُ: وذلك في قوله:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْباً وَيَابساً لَدَى وَكْرِهَا العُنَّابُ والحَشَفُ البَالي(١)

قال: وأن يشبّه بالذي جمع بين العمى والصمم، أو الذي جمع بين البصر والسمع، على أن تكون الواو في «الأصم» وفي «السميع» لعطف الصفة على الصفة.

﴿هل يستويان﴾ يعني الفريقين ﴿مثلاً﴾ تشبيهاً ﴿أفلا تذكرون﴾ أيها الكفار الأغمار.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: «أني» بفتح الهمزة، بتقدير حرف الجار، وكأن وجه الكلام: بأنه لهم نذير، لكنه من باب الالتفات وخطاب التكوين.

وقرأ الباقون: «إني» بكسر الهمزة، على إضمار القول(٢).

---

(١) البيت لامرئ القيس. انظر: ديوانه (ص:٣٨)، واللسان، مادة: (أدب)، والتصريح (١/ ٣٨٢)، والمنصف (٢/ ١١٧)، ودلائل الإعجاز (ص:٦٦)، والدر المصون (٤/ ٩٠)، وروح المعاني (١٢/ ٣٤، ٢٢/ ١٤٠).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٣٨٥)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٣٧)، والكشف (١/ ٥٢٥)، والنشر =

﴿أن لا تعبدوا﴾ بدل من «إني لكم نذير مبين»[١]، أي: أرسلناه بأن لا تعبدوا إلا الله، أو تكون مفسرة متعلقة بـ«أرسلنا» أو بـ«نذير».

﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾ وصفُ اليوم بالأليم، ووصفُ العذاب بالأليم من الإسناد المجازي؛ لوقوع الألم فيه، ومثله قولهم: نهارك صائم وليلك قائم.

﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا﴾ يعنون إنساناً مثلنا، لا فضل لك علينا يوجب اختصاصك بالرسالة.

﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا﴾ قال ابن عباس: يريد: المساكين الذين لا عقول لهم ولا شرف ولا مال[٢].

والرّذل: الدُّون من كل شيء[٣]، والجمع أَرْذَل، ثم يجمع على أَراذِل، مثل: كلب وأَكْلَب وأَكَالِب.

قوله تعالى: «نرى» فعل مستقبل، والكاف للمفعول.

وقوله: «اتّبعك» فعل، فاعله: «الذين هم أراذلنا»، والفعل والفاعل في موضع النصب مفعول ثان لـ«نراك» إن كان بمعنى: نعلم، وفي محل الحال إن كان من رؤية العين[٤].

=

(٢/ ٢٨٨)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٥)، والسبعة في القراءات (ص:٣٣٢).

(١) انظر: الدر المصون (٤/ ٩١).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٧٠).

(٣) انظر: اللسان (مادة: رذل).

(٤) التبيان (٢/ ٣٧)، والدر المصون (٤/ ٩١).

﴿بادي الرأي﴾ اتفقوا على ترك الهمز من «بادي» وعلى إثباته في «الرأي»، إلا أبا عمرو فإنه قرأهما بالعكس من ذلك[1].

ومعنى الكلام: اتبعوك في الظاهر وخالفوك في الباطن، أو اتبعوك في ظاهر الرأي ولم يتدبروا ما قلت ولم يتفكروا فيه، فهو من بدا يبدو. ومن هَمَزَ فهو من الابتداء، أي: اتبعوك حين ابتدؤوا ينظرون.

قال بعض البصراء بالعربية: قوله: «بادي الرأي»، نصب على الظرف، أي: ظاهر الرأي. والعامل فيه «نراك».

فإن قلت: فما قبل «إلاَّ» لا يعمل فيما بعده إلا إذا تم الكلام قبل «إلاَّ». لا يجوز: ما أعطيت أحداً إلا زيداً درهماً.

فإن أبا علي قد كفاك جواب هذا السؤال، وحمل «بادي الرأي» على أنه ظرف لما قبله، ثم رجع عنه في قوله: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب﴾ [الشورى:٥١]، فحمله على إضمار فعل آخر دَلَّ عليه «يكلم»، على تقدير: أو يكلمهم من وراء حجاب.

وقال: والظرف عندنا في الاثنين على الفعل قبل «إلا»؛ لأن الظرف يُكتفى فيه برائحة الفعل.

قوله تعالى: ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ ازدراءٌ منهم لنوح وأتباعه، ﴿بل نظنكم كاذبين﴾ في دعوى نوح الرسالة إلينا.

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٣٨٦)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٣٨)، والكشف (١/ ٥٢٦)، والنشر (١/ ٤٠٧)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٥)، والسبعة في القراءات (ص:٣٣٢).

قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾

﴿قال يا قوم أرأيتم﴾ أي: أخبروني ﴿إن كنت على بينة من ربي﴾ أي: يقين وبصيرة.

قال ابن الأنباري[1]: «إن كنتُ» شرط لا يوجب شكاً يلحقه، لكن الشك يلحق المخاطَبين من أهل الزيغ.

﴿وآتاني رحمة من عنده﴾ وهي النبوة.

فإن قيل: هل بين هذا الموضع وبين قول صالح: ﴿وآتاني منه رحمة﴾ فرق في المعنى؟

قلت: كلا، لكن هاهنا تقدمها قوله: ﴿ما نراك إلا بشراً مثلنا﴾، وقوله: ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا﴾، وقوله: ﴿بل نظنكم كاذبين﴾، فلما تقدمتها أفعال ثلاثة متعدية إلى مفعولين لا يحجز بينهما معمول فيه، أُجري هذا الفعل مجراها. وفي قصة صالح تقدمه: ﴿يا صالح قد كنت فينا مرجوّاً﴾ فوقع خبر «كان» الذي هو كالمفعول لـ«كان»، وقد تقدمه الجار والمجرور، وجرى جواب صالح في تقديم الجار والمجرور مجرى قولهم.

قوله تعالى: ﴿فعَمِيَتْ عليكم﴾ أي: خَفِيَتْ عليكم. وقيل: عميتم عنها، فهو من المقلوب، كقولك: أدخلت القلنسوة في رأسي، وأدخلت القبر زيداً.

---

(١) انظر: زاد المسير (٤/ ٩٦-٩٧).

قال الفراء[١]: وهذا مما حوّلت العرب الفعل إليه، وهو في الأصل لغيره، كقولهم: دخل الخاتم في يدي، والخُفّ في رِجْلي، وإنما الإصبع تدخل في الخاتم والرِّجْل في الخُفّ. واستجازوا ذلك إذا كان المعنى معروفاً.

وقرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر: «فَعُمِّيَتْ» بتشديد الميم وضم العين[٢]، بمعنى: أُخْفيت عليكم. ويؤيدها قراءة أبي بن كعب: «فَعَمَّاها عليكم»[٣].

﴿أنلزمكموها﴾ أي: أنكرهكم على قبولها، ﴿وأنتم لها كارهون﴾.

قال قتادة: والله لو استطاع نبي الله ألزمها قومه، ولكن لم يملك ذلك[٤].

وقرأتُ على شيخنا أبي البقاء عبدالله بن الحسين النحوي لأبي عمرو من رواية

---

(١) معاني الفراء (٢/ ١٢).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٣٨٨)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٣٨)، والكشف (١/ ٥٢٧)، والنشر (٢/ ٢٨٨)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٥)، والسبعة في القراءات (ص:٣٣٢).

(٣) انظر: زاد المسير (٤/ ٩٧).

قال الزمخشري في الكشاف (٢/ ٣٦٩): فإن قلت: فما حقيقته؟ قلت: حقيقته: أن الحجة كما جعلت بصيرة ومبصرة، جعلت عمياء؛ لأن الأعمى لا يهتدي ولا يهدي غيره، فمعنى ﴿فعميت عليكم﴾: البينة، فلم تهدكم، كما لو عمي على القوم دليلهم في المفازة بقوا بغير هاد.

فإن قلت: فما معنى قراءة أُبيّ؟ قلت: المعنى: أنهم صمموا على الإعراض عنها، فخلاهم الله وتصميمهم، فجعلت تلك التخلية تعمية منه، والدليل عليه قوله: ﴿أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾ يعني: أنكرهكم على قبولها، ونقسركم على الاهتداء بها، وأنتم تكرهونها ولا تختارونها، ولا إكراه في الدين.

قال أبو حيان في البحر المحيط (٥/ ٢١٧): وتوجيهه في قراءة أُبيّ هو على طريقة المعتزلة.

(٤) أخرجه الطبري (١٢/ ٢٩)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٢٣). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤١٦) وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ.

عبدالله بن عمر الزهري، عن أبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري النحوي عنه: «أَنُلْزِمْكُمُوهَا» بجزم الميم، وهو لحن عند الخليل وسيبويه وحذاق البصريين. وبعضهم يقول: كان أبو عمرو يختلسها، وظن الراوي أنه أسكنها.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿ويا قوم لا أسألكم عليه﴾ أي: على تبليغ الرسالة ﴿مالاً﴾ فيوجب ذلك التهمة في حقي، ﴿إن أجري إلا على الله﴾ لا عليكم ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾.

قال ابن جريج: سألوه طردهم أنفة وحمية من أن يكونوا معهم على سواء[1].

﴿إنهم ملاقوا ربهم﴾ فمعاقب من ظلمهم وطردهم وحقرهم.

﴿ولكني أراكم قوماً تجهلون﴾ قال ابن عباس: تجهلون ربوبية ربكم وعظمته[2].

وقيل: تجهلون لأمركم إياي بطرد المؤمنين[3].

ويجوز أن يكون المعنى: تجهلون أنهم خير منكم، أو تجهلون على المؤمنين وتدعونهم أراذل سفهاً منكم وحمقاً.

---

(١) أخرجه الطبري (١٢/ ٢٩-٣٠).؟ وانظر: الوسيط (٢/ ٥٧١)، وزاد المسير (٤/ ٩٨). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤١٦) وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٧١).

(٣) زاد المسير (٤/ ٩٨).

﴿ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم﴾ أي: من يمنعني من عذابه إن طردت المؤمنين ذهاباً مع أنفتكم وكبركم ﴿أفلا تذكرون﴾.

وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٣٣ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٣٤

﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ فأدعي فضلاً عليكم في الملك والغنى حتى تقولوا: ما نرى لكم علينا من فضل، ﴿ولا أعلم الغيب﴾ فأطلع على الضمائر فأعلم المخلص من المنافق، فإنهم نسبوا المؤمنين إلى النفاق.

وقيل: نزل ذلك بهم؛ لأنهم قالوا له: متى يجيء العذاب؟

وقيل: أجدبت أرضهم فسألوه: متى يجيء المطر؟.

﴿ولا أقول إني مَلَك﴾ حتى تقولوا: ما نراك إلا بشراً مثلنا.

﴿ولا أقول للذين تزدري أعينكم﴾ تحتقر وتستصغر، حتى قلتم: هم أراذلنا، ﴿لن يؤتيهم الله خيراً﴾ هوانهم عليه، ﴿الله أعلم بما في أنفسهم﴾ فهو مجازيهم بعلمه فيهم، ﴿إني إذاً لمن الظالمين﴾ إن صدر مني ما نفيته عني.

﴿قالوا يا نوح قد جادلتنا﴾ أي: بالغت في خصومتنا ﴿فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ في وعد العذاب.

فنفى عن نفسه وعنهم القدرة وأثبتها لله، فقال: ﴿إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين * ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم﴾ وجزاء الشرط في قوله: ﴿إن كان الله يريد أن يغويكم﴾ ما دل عليه قوله: «ولا ينفعكم نصحي».

ومعنى «يُغْوِيَكُم»: يُضِلَّكم ويهلككم.

قال ابن السكيت[1]: من قولك: غوى الفصيل يغوي غوىً؛ إذا لم يرو من لبأ أمه حتى يموت هزالاً[2].

وقال غيره: هو أن يكثر من شرب اللبن حتى يهلك[3].

﴿هو ربكم﴾ يتصرف فيكم كيف شاء بالإغواء والإرشاد ﴿وإليه ترجعون﴾ يوم المعاد.

أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾

﴿أم يقولون﴾ بل يقولون ﴿افتراه﴾ اختلق الوحي وأتى به من عند نفسه، ﴿قل إن افتريته فَعَلَيَّ إجرامي﴾ إثم إجرامي، والإجرام: اكتساب السيئة.

وقرأت لأبي عمرو من رواية عبد الوارث عنه: «أجرامي» بفتح الهمزة، وهي قراءة أبي المتوكل وابن السميفع[4]، وهو جمع جرم.

قال صاحب الكشاف[5]: المعنى: إن صح وثبت أني افتريته فعليّ عقوبة

(١) إصلاح المنطق (ص:١٨٩).

(٢) انظر: اللسان (مادة: غوى).

(٣) مثل السابق.

(٤) زاد المسير (٤/ ١٠٠).

(٥) الكشاف (٢/ ٣٧١).

إجرامي، أي: افترائي، وكان حقي حينئذ أن تُعرضوا عني وتتألّبوا عليّ.

﴿وأنا بريء﴾ يعني: ولم يثبت ذلك، وأنا بريء منه.

ومعنى: ﴿مما تجرمون﴾ من إجرامكم في إسناد الافتراء إليّ، فلا وجه لإعراضكم ومعاداتكم.

وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى: ﴿وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ قال المفسرون: حينئذ استجاز نوح الدعاء عليهم فقال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾(١) [نوح:٢٦].

﴿فلا تبتئس﴾ تحزن حزن بائس مستكين بما فعلوه من تكذيبك وإيذائك، فقد حان حين الانتقام منهم.

﴿واصنع الفلك بأعيننا﴾ قال ابن عباس: بمرأى منا(٢).

وقال الربيع: بحفظنا(٣).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٢٤). وانظر: الوسيط (٢/ ٥٧٢)، وزاد المسير (٤/ ١٠٠).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٧٢)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٠١).

(٣) مثل السابق.

وهو في محل الحال، بمعنى: اصنعها محفوظاً آمناً من أعدائك.

﴿ووحينا﴾ أي: بوحينا إليك أن تصنعها وكيف تصنعها، ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ أي: لا تسألني الصفح عنهم ولا إمهالهم، ﴿إنهم مغرقون﴾ محكوم عليهم بذلك في سابق علمي وقضائي.

الإشارة إلى كيفية عمل السفينة:

قال ابن عباس: كان نوح عليه السلام يُضربُ، ثم يُلَفُّ في لبد فيلقى في بيته يرون أنه قد مات، ثم يخرج فيدعوهم، حتى جاء رجل ومعه ابنه وهو يتوكأ على عصا، فقال: يا بني، انظر هذا الشيخ لا يغررك. قال: يا أبت أمكني من العصا، فأخذها فضربه ضربة شجة موضحة، وسالت الدماء على وجهه فقال: رب [قد][١] ترى ما يفعل بي عبادك، فإن[٢] يكن لك فيهم حاجة [فاهْدهم][٣]، وإلا فصبرني إلى أن تحكم، فأوحى الله تعالى إليه ﴿أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ إلى قوله: ﴿واصنع الفُلْك﴾، قال: يا رب، وما الفُلْك؟ قال: بيت من خشب يجري على وجه الماء، أُنجي فيه أهل طاعتي، وأُغرق أهل معصيتي. قال: يا رب! وأين الماء؟ قال: إني على ما أشاء قدير. قال: يا رب! كيف أتخذ هذا البيت؟ فبعث الله تعالى إليه جبريل عليه السلام فعلّمه، وأوحى الله تعالى إليه أن عَجِّل عمل السفينة فقد اشتد غضبي على من عصاني، فاستأجر نجّارين يعملون معه، وسام وحام ويافث ينحتون السفينة، وكانت من خشب الساج، وجعل لها ثلاث بطون،

---

(١) زيادة من زاد المسير (٤/ ١٠٢).

(٢) في الأصل زيادة: لم. انظر: زاد المسير، الموضع السابق.

(٣) زيادة من زاد المسير، الموضع السابق.

وجعل طولها ستمائة ذراع، وعرضها ثلاثمائة [وثلاثون][(١)] ذراعاً، وعلوها ثلاثة وثلاثين ذراعاً، وفجّر الله تعالى له عين القار تغلي غلياً فأطلاها، وحمل في البطن الأول الوحوش والسباع والهوامّ، وفي الوسط الثاني الدواب والأنعام، وركب هو ومن معه في البطن الأعلى[(٢)].

وزعم مقاتل[(٣)]: أنه صنع السفينة في أربعمائة سنة. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿ويصنع الفلك﴾ حكاية حال ماضية، ﴿وكلما مرّ عليه ملأ من قومه﴾ وهو يصنعها ﴿سخروا منه﴾ تضاحكوا استهزاء به.

قال ابن عباس: لم يكن في الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر، فلذلك سخروا منه، وإنما مياه البحار بقية الطوفان[(٤)].

قال ابن إسحاق: كانوا يسخرون ويقولون: صرتَ بعد النبوة نجاراً[(٥)].

وقال مقاتل[(٦)]: كانوا إذا قالوا له: ما تصنع؟ يقول: أصنع بيتاً يمشي على وجه الماء، فيسخرون من قوله.

﴿قال إن تسخروا منا﴾ في هذه الحال ﴿فإنا نسخر منكم﴾ في المآل، وقيل:

---

(١) في الأصل: وثلاثون. والتصويب من زاد المسير (٤/ ١٠٢).

(٢) زاد المسير (٤/ ١٠١-١٠٢).

(٣) تفسير مقاتل (٢/ ١١٧).

(٤) الماوردي (٢/ ٤٧١)، وزاد المسير (٤/ ١٠٣).

(٥) الطبري (١٢/ ٣٦)، والوسيط (٢/ ٥٧٣)، والماوردي (٢/ ٤٧١) بلا نسبة، وزاد المسير (٤/ ١٠٣). وانظر: الدر المنثور (٤/ ٤٢١).

(٦) تفسير مقاتل (٢/ ١١٧). وانظر: الوسيط (٢/ ٥٧٣)، والماوردي (٢/ ٤٧١) بلا نسبة، وزاد المسير (٤/ ١٠٣).

المعنى إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم لاستجهالكم إيانا، وهذه اللغة الغالبة.

وروى أبو زيد والخليل: سخرت به أيضاً.

ثم هددهم فقال: ﴿فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه﴾ يذله ويهينه وهو الغرق في الدنيا.

وقوله: «من يأتيه» منصوب: بـ«تعلمون» أي: فسوف الذي يأتيه عذاب يخزيه، ﴿ويحل عليه﴾ في الآخرة ﴿عذاب مقيم﴾ دائم.

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾

﴿حتى إذا جاء أمرنا﴾ قال الزمخشري[1]: هذه «حتى» التي يبتدئ بعدها الكلام، دخلت على الجملة من الشرط والجزاء.

فإن قلت: وقعت غاية لماذا؟

قلت: لقوله: «ويصنع الفلك»، أي: وكان يصنعها إلى أن جاء وقت الموعد.

فإن قلت: فإذا اتصلت «حتى» بـ«يصنع»، فما تصنع بما بينهما من الكلام؟

قلتُ: هو حال من «يصنع»، كأنه قال: يصنعها. والحال أنه لما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه.

فإن قلت: فما جواب «كلّما»؟

قلت: أنت بين أمرين؛ إما أن تجعل «سخروا» جواباً و «قال» استئنافاً على تقدير سؤال سائل، أو تجعل «سخروا» بدلاً من «مرّ»، أو صفة لـ«ملأ» و «قال»

---

(١) الكشاف (٢/ ٣٧٣).

جواباً. والمعنى: حتى إذا جاء أمرنا بإهلاكهم.

﴿وفار التنور﴾ قال علي عليه السلام: هو وجه الأرض[(١)].

قال ابن عباس: قيل له: إذا رأيت الماء قد علا وجه الأرض فاركب أنت وأصحابك[(٢)].

ونقل عن علي عليه السلام أيضاً: أنه طلوع الفجر ونور الصبح[(٣)].

وقال الحسن ومجاهد: كان تنُّوراً من حجارة[(٤)].

قال ابن عباس: هو تنُّور آدم، وهبه الله تعالى لنوح عليهما السلام، وقيل له: إذا فار الماء منه فاحمل ما أُمرتَ به، فإنه هلاك قومك[(٥)].

واختلفوا في المكان الذي فار منه الماء؛ فقال علي عليه السلام: فار من مسجد

---

(١) أخرجه الطبري (١٢/ ٣٨) عن ابن عباس وعكرمة، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٢٩). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٠٥)، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٢٢) وعزاه لأبي الشيخ عن عكرمة.

(٢) أخرجه الطبري (١٢/ ٣٨)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٢٩). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٢٢) وعزاه لسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) أخرجه الطبري (١٢/ ٣٨، ٣٩)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٢٨). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٢٣) مجزءاً، وعزا الجزء الأول من الأثر لابن جرير وابن المنذر. وعزا الجزء الثاني لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٤) أخرجه الطبري (١٢/ ٣٩). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٢٢) وعزاه لابن جرير عن الحسن.

(٥) أخرجه الطبري (١٢/ ٣٩)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٢٩). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٢١) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

الكوفة، وهو قول الأكثرين[(١)].

وروي عن ابن عباس: أنه فار بالهند[(٢)].

وقال مقاتل[(٣)]: فار من دار نوح، وكانت بالشام في موضع يقال له: عين وردة.

﴿قلنا احمل فيها﴾ أي في السفينة ﴿من كُلِّ زوجين اثنين﴾ وقرأ حفص: «من كُلٍّ»[(٤)] بالتنوين هنا وفي المؤمنين[(٥)]، أي: من كل شيء، أو من كل صنف، زوجين اثنين، فنصب «زوجين» بالفعل، وجعل «اثنين» نعتاً لـ«زوجين». وفيه معنى التوكيد كقوله: ﴿إلهين اثنين﴾ [النحل:٥١]، وقوله: ﴿ولي نعجة واحدة﴾ [ص:٢٣]، والباقون عدّوا الفعل إلى «اثنين» وجرّوا «زوجين» لإضافة «كل» إليها.

قال ابن قتيبة[(٦)]: الزوج يكون واحداً ويكون اثنين، وهو هاهنا واحد.

قال مجاهد: من كل صنف ذكراً وأنثى[(٧)].

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٢٨). وانظر: الطبري (١٢/ ٤٠)، والماوردي (٢/ ٤٧٢)، وزاد المسير (٤/ ١٠٥). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٢٢) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه الطبري (١٢/ ٤٠)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٢٩). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٠٦).

(٣) تفسير مقاتل (٢/ ١١٨).

(٤) الحجة للفارسي (٢/ ٣٩٠)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٣٩)، والكشف (١/ ٥٢٨)، والنشر (٢/ ٢٨٨)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٦)، والسبعة في القراءات (ص:٣٣٣).

(٥) الآية رقم (٢٧).

(٦) تأويل مشكل القرآن (ص:٤٩٨).

(٧) أخرجه الطبري (١٢/ ٤٠)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٣٠)، ومجاهد (ص:٣٠٣).

أخرج الإمام أحمد في كتاب الزهد[١] عن وهب بن منبه قال: «لما أُمر نوح عليه السلام أن يحمل من كل زوجين اثنين، قال: كيف أصنع بالأسد والبقر، وكيف أصنع بالعناق والذئب، وكيف أصنع بالحمام والهرّ، قال: مَن ألقى بينهم العداوة؟ قال: أنت. قال: فإني أؤلف بينهم حتى لا يتضاروا».

قوله تعالى: ﴿وأهلك﴾ معطوف على قوله: «اثنين»، أي: واحمل أهلك.

ومن الأقوال الشاذة قول بعضهم: أَنَّ «أهلك» فعل ماض مسند إلى الله تعالى، أي: أهلك الله تعالى كلهم إلا من سبق عليه القول.

والصحيح الأول.

والمعنى: إلا من سبق عليه القول أنه من أهل النار، يعني: امرأته واعلة، وابنه كنعان.

﴿ومن آمن﴾ أي: واحمل المؤمنين.

﴿وما آمن معه إلا قليل﴾ قال ابن عباس وأكثر المفسرين: كانوا ثمانين إنساناً[٢].

قال مقاتل[٣]: أربعين رجلاً وأربعين امرأة.

قال ابن عباس: ونجا معه بنوه الثلاثة وكنائنه -نساء بنيه-[٤].

---

(١) لم أقف عليه في المطبوع من الزهد.

(٢) أخرجه الطبري (١٢/ ٤٣)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٣٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٣١) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) تفسير مقاتل (٢/ ١١٨).

(٤) زاد المسير (٤/ ١٠٧).

وقال قتادة: ذُكر لنا أنه لم ينجُ في السفينة إلا نوح، [وامرأته][(١)]، وثلاث بنين له ونساؤهم، فجماعتهم ثمانية، وهذا قول [القرظي][(٢)] وابن جريج [(٣)].

﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ٤١ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٢ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ٤٣﴾

﴿وقال اركبوا فيها﴾ أي: قال نوح للذين أمر بحملهم في السفينة: اركبوا فيها.

قال ابن عباس: ركبوا لعشر مضين من رجب، وخرجوا منها يوم عاشوراء[(٤)].

قال ابن جريج: دفعت من عين وردة يوم الجمعة لعشر مضين من رجب، فأتت موضع البيت، وكان البيت قد رفع في ذلك الوقت، ورَسَتْ بباقردى على الجودي [يوم عاشوراء][(٥)].

---

(١) في الأصل: وامرأتيه. والمثبت من زاد المسير (٤/ ١٠٧).

(٢) في الأصل: القرضي. والتصويب من زاد المسير، الموضع السابق.

(٣) أخرجه الطبري (١٢/ ٤٢) عن قتادة وابن جريج، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٣١). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٣١) وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ عن ابن جريج.

(٤) الماوردي (٢/ ٤٧٣) من قول قتادة، وزاد المسير (٤/ ١٠٧).

(٥) أخرجه الطبري (١٢/ ٤٧). وأخرج نحوه ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٣٢). وانظر: الوسيط (٢/ ٥٧٥)، وزاد المسير (٤/ ١٠٧-١٠٨). وما بين المعكوفين زيادة من زاد المسير (٤/ ١٠٨).

﴿بسم الله مُجْراها ومرساها﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص: «مجراها» بفتح الميم والإمالة، وقرأ الباقون بضم الميم وبالتفخيم، إلا أبا عمرو فإنه أمال[١].

وأمال «مرساها» حمزة والكسائي، وأجمعوا على ضم الميم في «مُرساها»[٢].

قال الشيخ أبو علي ابن البناء رحمه الله: من فتح الميم أراد المصدر من قولك: جرت مجرى، ومن ضم أراد المصدر أيضاً، لكن من قولك: أجرى يجري مجرى.

قال: وذكر الزجاج[٣] الوجهين، فقال: من فتح الميم كان المعنى: بالله يكون جريها وإرساؤها. ومن ضمّ فمعناه: بالله إجراؤها وإرساؤها. يقال: أجريته مُجرى وإجراءً في معنى واحد.

وقال صاحب الكشاف[٤]: يجوز أن يكون كلاماً واحداً وكلامين، فالكلام الواحد: أن يتصل «بسم الله» بـ«اركبوا» حالاً من الواو، بمعنى: اركبوا فيها مسمّين الله، أو قائلين: باسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها؛ إما لأن المجرى والمرسى للوقت، وإما لأنهما مصدران كالإجراء والإرساء، فحذف منهما الوقت المضاف كقولهم: خفوق النجم، ومقدم الحاج.

والكلامان: أن يكون «بسم الله مجراها ومرساها» جملة مقتضية من مبتدأ وخبر، أي: بسم الله إجراؤها وإرساؤها.

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٣٩٣)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٤٠)، والكشف (١/ ٥٢٨)، والنشر (٢/ ٢٨٨-٢٨٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٦)، والسبعة في القراءات (ص:٣٣٣).

(٢) انظر: المصادر السابقة.

(٣) معاني الزجاج (٣/ ٥٢).

(٤) الكشاف (٢/ ٣٧٣).

ومعنى كونها مقتضية: أن نوحاً عليه السلام أمرهم بالركوب، ثم أخبرهم بأن مجراها ومرساها بذكر اسم الله تعالى، أو بأمره وقدرته.

قال الضحاك: كان إذا أراد أن تجري قال: بسم الله فَجَرَتْ، وإذا أراد أن ترسوا قال: بسم الله [فَرَسَتْ][١] [٢].

ويجوز أن يفخم الاسم، كقوله: ثم اسم السلام عليكما.

ويراد: بالله إجراؤها وإرساؤها، أي: بقدرته وأمره، وقد ذكرنا نحوه عن الزجاج[٣].

وقرأ الحسن وقتادة وحميد الأعرج في آخرين: «مُجْريها ومُرْسيها»[٤] على وزان: مبديها ومنشيها، جعلوه نعتاً لله تعالى.

أبنا أبو حفص عمر بن طبرزد، أبنا أبو غالب أحمد بن البناء، أبنا أبو محمد الحسن بن علي بن محمد الجوهري، أبنا أبو حفص عمر بن محمد بن علي الزيات، ثنا محمد بن صالح، حدثنا جبارة بن المغلس، ثنا يحيى بن العلاء الرازي، حدثني مروان بن سالم، عن طلحة بن عبيدالله العقيلي، عن الحسين بن علي عليهما السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا: ﴿بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم﴾، ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته

---

(١) زيادة من زاد المسير (٤/ ١٠٩).

(٢) أخرجه الطبري (١٢/ ٤٤-٤٥)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٣٣). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٣٢) وعزاه لابن جرير.

(٣) معاني الزجاج (٣/ ٥٢).

(٤) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٦).

يوم القيامة ... إلى آخر الآية﴾»[١].

أخبرنا أبو المجد الكرابيسي قال: أخبرنا الشيخان عبد الرزاق بن إسماعيل وابن عمه المطهر بن عبد الكريم قالا: أخبرنا عبدالرحمن بن حمد الدوني، أبنا القاضي أبو نصر الدينوري، أخبرنا أبو بكر أحمد بن محمد بن إسحاق السني الحافظ، أبنا أبو يعلى، ثنا جبارة بن المغلس. وأخبرنا به عالياً أبو حفص واللفظ له.

قوله تعالى: ﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال﴾ شبَّه سبحانه وتعالى كل موجة بالجبل في عظمها وارتفاعها، يشير إلى شدّة اضطراب الماء وتلاطم أمواجه، ﴿ونادى نوح ابنه﴾ كنعان، وكان كافراً ﴿وكان في معزل﴾ أي: في مكان منقطع بعيد من السفينة، أو في معزل عن دين أبيه. ومعنى العزل: التنحية والإبعاد[٢].

﴿يا بني اركب معنا﴾ روى حفص: «يا بنيَ» بفتح الياء في جميع القرآن[٣]، ووافقه أبو بكر هاهنا حسب، والأصل فيه: بنيي، بثلاث ياءات، ياء التصغير، وياء بعدها هي لام الفعل، وياء بعد لام الفعل هي [ياء][٤] الإضافة.

فمن كَسَرَ حذف ياء الإضافة وأبقى الكسرة دليلاً عليها. ومن فتَحَ أبدل من كسرة لام الفعل فتحة، استثقالاً لاجتماع الياءات في الكسر، فانقلبت ياء الإضافة ألفاً، فبقيت: بنيا، ثم حذفت الألف كما تحذف الياء في النداء وبقيت الفتحة دليلاً

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١٢/ ١٥٢ ح٦٧٨١)، والطبراني في الكبير (١٢/ ١٢٤ ح١٢٦٦١)، والأوسط (٦/ ١٨٤ ح٦١٣٦) كلاهما عن ابن عباس.

(٢) انظر: اللسان (مادة: عزل).

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٣٩٥)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٤٠)، والكشف (١/ ٥٢٩)، والنشر (٢/ ٢٨٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٦)، والسبعة في القراءات (ص:٣٣٤).

(٤) في الأصل: لام. والمثبت من زاد المسير (٤/ ١١٠).

عليها.

وإن شئت قلت: سقطت الياء والألف في القراءتين لالتقاء الساكنين؛ لأن الراء في «اركب» ساكنة.

قوله تعالى: ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾ قال الزجاج وغيره(١): هذا استثناء ليس من الأول، وموضع «مَنْ» النصب. والمعنى: لكن من رحم الله فإنه معصوم، وهذا كقوله: ﴿ما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾ [النساء:١٥٧].

وقيل: لا مانع اليوم إلا الراحم وهو الله تعالى.

وقيل: المعنى: لا عصمة إلا من رحمه الله تعالى، مثل: ﴿ماء دافق﴾ [الطارق:٦]، و﴿عيشة راضية﴾ [الحاقة:٢١].

قال الزجاج(٢): فتكون «مَنْ» -[على](٣) هذا التفسير- في موضع رفع، ويكون المعنى: لا معصوم إلا المرحوم.

﴿وحال بينهما الموج﴾ أي: بين نوح وابنه.

وقيل: بين ابن نوح وبين جبل يعصمه من الماء، ﴿فكان من المغرقين﴾.

وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك﴾ يقال: بَلِعَ الشيء يَبْلعه، والبلاع: اسم لما يبلع

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ٥٤).

(٢) معاني الزجاج (٣/ ٥٥).

(٣) زيادة من معاني الزجاج، الموضع السابق.

كالطعام، والشراب: اسم لما يطعم ويشرب. قال الزاجر:

لَقَدْ تَجَشَّأْت وَقُلْت عَاع مَا ذُقت مُذْ خَرجت مِنْ بِلاع[١]

ومثله: شرطته أشرطه، وزردته أزرده، شرطاً وشرطاناً، وزرداً وزرداناً.

والمعنى: وقيل بعد تغريقهم وإهلاكهم: يا أرض ابلعي ماءك الذي نبع منك، وأما ماء السماء فصار بحراً وأنهاراً. روي هذا المعنى عن ابن عباس[٢].

وقال غيره: المعنى: ابلعي ماءك الذي عليك مما نزل من السماء أو نبع منك.

ويروى: أن الماء ارتفع على أعلى جبل في الأرض أربعين ذراعاً.

﴿ويا سماء أقلعي﴾ أمسكي عن المطر، ﴿وغيض الماء﴾ مِنْ غَاضَهُ؛ إذا نَقَصَهُ[٣].

قال الزجاج[٤]: غاب في الأرض.

وربما اشتبهت هذه اللفظة على من لا بصيرة له بلغة العرب من القراء فظنها من الغيظ، وليس كذلك.

وفي الكتاب العزيز موضع آخر من هذا المعنى[٥]، وهو قوله تعالى: ﴿وما تغيض الأرحام﴾ [الرعد:٨]. وقد أوضحت الفرق بين الضاد والظاء وبينت ما عساه يشتبه على بعض الناس مما في ذلك من كتاب الله في تقييده تكون نحواً من

---

(١) لم أعرف قائله.

(٢) زاد المسير (٤/ ١١١).

(٣) انظر: اللسان (مادة: غيض).

(٤) معاني الزجاج (٣/ ٥٥).

(٥) أي: قريب من هذا المعنى.

ثلاثين بيتاً، سميتها: «درة القاري»، والذي يخص هذا الموضع منها قولي:

والغيظ بالظاء إلا ما تغيض غيض الماء في هود الهادي إلى السنن

﴿وقضي الأمر﴾ فُرِغ منه، فهلك من هلك، ونجا من نجا[١]، ﴿واستوت على الجوديّ﴾ أي: استقرت السفينة على الجوديّ[٢]، وهو جبل معروف مشهور بناحية الموصل.

وقال مجاهد: تشامختِ الجبال يومئذ، وتواضع الجودي فلم يغرق، فأرْست عليه[٣].

﴿وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ قال ابن عباس: بعداً من رحمة الله للقوم الكافرين[٤].

قال صاحب الكشاف[٥]: ومجيء إخباره على الفعل المبني للمفعول؛ للدلالة على الجلال والكبرياء، وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر،

---

(١) فائدة: قال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١١٣): فإن قيل: ما ذنب من أغرق من البهائم والأطفال؟

فالجواب: أن آجالهم حضرت فأميتوا بالغرق. قاله الضحاك وابن جريج.

(٢) الجوديّ: هو جبل مطلّ على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي من دجلة من أعمال الموصل (معجم البلدان ٢/ ١٧٩).

(٣) أخرجه الطبري (١٢/ ٤٨)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٣٧)، ومجاهد (ص:٣٠٤)، وأبو الشيخ في العظمة (٥/ ١٧١٩-١٧٢٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٣٧) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٧٥)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١١٢).

(٥) الكشاف (٢/ ٣٧٦).

وتكوين مكون قاهر.

ويروى: أن نوحاً عليه السلام صام يوم عاشوراء، وأمر من معه بالصيام شكراً لله تعالى على نعمة الخلاص من الأعداء، والنجاة من تلك الأهوال الشديدة.

وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى: ﴿ونادى نوح ربه﴾ أي: أراد النداء، لئلا يكون عاطفاً ﴿فقال رب﴾ بالفاء، وهو هو، ولو أريد النداء بنفسه لجاء كما في قوله: ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً * قال رب﴾ [مريم:٣-٤].

﴿وإن وعدك الحق﴾ أي: الثابت الذي لا شك فيه، وقد وعدتني أن تنجيني وأهلي، ﴿وأنت أحكم الحاكمين﴾ أعلمهم وأعدلهم(١).

﴿قال يا نوح إنه ليس من أهلك﴾ تَعَلَّقَ جماعة -منهم الحسن البصري وابن

---

(١) قال الآلوسي في تفسيره روح المعاني (١٢/ ٧١): وزعم الواحدي أن السؤال قبل الغرق ومع العلم بكفره، وذلك أن نوحاً عليه السلام لم يعلم أن سؤاله ربه نجاة والده محظور عليه مع إصراره على الكفر، حتى أعلمه الله تعالى ذلك، واعترض بأنه إذا كان عالماً بكفره مع التصريح بأن في أهله من يستحق العذاب، كان طلب النجاة منكراً من المناكير، فتدبر.

جريج والشعبي- بظاهر هذه الآية وقالوا: لم يكن ابنه، وإنما فَجَرَتْ به أمه وولدته على فراش نوح، والأكثرون على خلافه؛ لقوله: ﴿ونادى نوح ابنه﴾[1].

قال ابن عباس وابن مسعود: ما بَغَتْ امرأة نبي قط[2].

فإن قيل: ما الحكمة في جواز أن تكون امرأة النبي كافرة ولا تكون فاجرة؟

قلت: لأن فجور المرأة يُلبس زوجها ثوب عار وشنار، تنفر النفوس الأبية عن الانقياد للمشتمل به، بخلاف كفرها، والأنبياء مُنَزَّهون معصومون من الكبائر والرذائل والنقائص المنفرة.

فإن قيل: فما تصنع بقوله: ﴿إنه ليس من أهلك﴾؟

قلت: المعنى: ليس من أهلك الذي وعدتك بإنجائهم؛ لأنه إنما وعده بإنجاء من لم يسبق عليه القول، أو ليس من أهل دينك.

﴿إنه عَمَلٌ غير صالح﴾ قال ابن عباس وقتادة: المعنى: أن سؤالك فيه عملٌ

---

(١) أخرجه الطبري (١٢/ ٥٠). وانظر: الماوردي (٢/ ٤٧٥)، وزاد المسير (٤/ ١١٣).

قال الحافظ ابن كثير (٢/ ٤٤٩): وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه، وإنما كان ابن زنية.

ويحكى القول بأنه ليس بابنه وإنما كان ابن امرأته؛ عن مجاهد، والحسن، وعبيد بن عمير، وأبي جعفر الباقر، وابن جريج.

(٢) أخرجه الطبري (١٢/ ٥١). وبنحوه عند ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٤٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٣٨) وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن عساكر عن ابن عباس.

قال ابن كثير (٢/ ٤٤٩): وكذا روي عن مجاهد أيضاً وعكرمة والضحاك وميمون بن مهران وثابت بن الحجاج، وهو اختيار أبي جعفر بن جرير الطبري، وهو الصواب الذي لا شك فيه.

غير صالح[١].

وقال الزجاج[٢] وابن الأنباري[٣]: إنه ذو عمل غير صالح، كما قالت الخنساء:

تَرْتَعُ مَا رَتَعَتْ حَتَّى إِذا ادَّكَرَتْ فَإِنَّما هيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ[٤]

أي: ذات إقبال وإدبار.

وقرأ الكسائي: «إنه عَمِلَ غَيْرَ صالح»، جعله فعلاً ماضياً[٥]، «غير صالح» صفته مصدر محذوف تقديره: إن ابنك عَمِلَ عملاً غير صالح.

﴿فلا تسألني﴾ قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر: «تَسْأَلَنَّ» بفتح اللام وتشديد النون لتوكيد النهي، غير أن ابن كثير يفتح النون ويعدّي الفعل إلى مفعول واحد وهو «ما»، والآخران يكسرانها، ووَرْش يثبت الياء في الوصل كأبي عمرو، وقرأ الباقون بسكون اللام وتخفيف النون وكسرها[٦].

---

(١) أخرجه الطبري (١٢/ ٥٣)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٤٠). وانظر: الوسيط (٢/ ٥٧٦)، وزاد المسير (٤/ ١١٤). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٣٨) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) معاني الزجاج (٣/ ٥٥).

(٣) انظر: زاد المسير (٤/ ١١٤).

(٤) البيت للخنساء تصف ناقة ذهب عنها ولدها. انظر البيت في: اللسان، مادة: (قبعر، قبل، سوا)، والقرطبي (٩/ ٤٦)، وروح المعاني (١٢/ ٦٩).

(٥) الحجة للفارسي (٢/ ٣٩٩)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٤١)، والكشف (١/ ٥٣٠)، والنشر (٢/ ٢٨٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٦)، والسبعة في القراءات (ص:٣٣٤).

(٦) الحجة للفارسي (٢/ ٤٠١)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٤٣)، والكشف (١/ ٥٣٢)، والنشر (٢/ ٢٨٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٧)، والسبعة في القراءات (ص:٣٣٤).

فمن أثبت الياء فعلى الأصل، ومن حذفها اجتزأ بلكسرة الدالة عليها عنها كالياء للخفة.

قال أبو علي[١]: من كسر النون فقد عدّى السؤال إلى مفعولين؛ أحدهما: اسم المتكلم، والآخر: الاسم الموصول، وحذفت النون المتصلة بياء المتكلم لاجتماع النونات.

والمعنى: لا تلتمس مني ملتمساً لا تعلم أصواب هو أو غير صواب.

﴿إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ قال ابن عباس: يعني: من الآثمين[٢].

وقيل: من المباهلين بحقيقة ما وعدتك به من إنجاء أهلك، مستثنى مَنْ سبق عليه القول، فما بالك تسألني إنجاءه متمسكاً بوعدي غير ناظر إلى استثنائي، فكان يجب عليك حين رأيت العذاب قد أحاط به والغرق قد أَلْجَمَه، أن تراجع رشدك، لتعلم أنه ليس من أهلك الذين وعدتك إنجاءهم.

أخرج الإمام أحمد في كتاب الزهد[٣] بإسناده عن وهيب بن الورد قال: «لما عاتب الله تعالى نوحاً في ابنه فقال: ﴿إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ بكى ثلاثمائة عام، حتى صارت تحت عينيه مثل الجداول من البكاء».

﴿قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم﴾ أي: أعوذ بك إن طلبت منك ما لا علم لي بجوازه وصحته، ﴿وإلا تغفر لي﴾ ما فرط مني ﴿وترحمني﴾ بالتوبة عليّ ﴿أكن من الخاسرين﴾.

---

(١) الحجة (٢/ ٤٠٢).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٧٦).

(٣) الزهد (ص:٦٦).

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا﴾ يعني: من السفينة، «بسلام منا» أي: مسلماً محفوظاً من جهتنا.

﴿وبركات عليك﴾ خيرات نامية.

قال المفسرون: البركات عليه أن صار أبا البشر، فجميعهم من نسله[١].

﴿وعلى أمم ممن معك﴾ قال ابن الأنباري[٢]: من ذراري من معك.

قال محمد بن كعب: دخل في ذلك السلام والبركات كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة[٣].

﴿وأمم﴾: مبتدأ ﴿سنمتعهم﴾: صفة، والخبر محذوف، تقديره: وممن معك أمم سنمتعهم في الدنيا، وحذف لدلالة قوله: «ممن معك» عليه[٤].

﴿ثم يمسهم منا عذاب أليم﴾ شيء في الآخرة، «عذاب أليم» وهو عذاب النار.

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٧٦)، وزاد المسير (٤/ ١١٥).

(٢) انظر: الوسيط (٢/ ٥٧٦)، وزاد المسير (٤/ ١١٥).

(٣) أخرجه الطبري (١٢/ ٥٥)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٤١). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٤١) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٤) انظر: الدر المصون (٤/ ١٠٥).

قوله تعالى: ﴿تلك﴾: مبتدأ ﴿من أنباء الغيب﴾: خبره ﴿نوحيها إليك﴾: خبر ثان. وإن شئت كان في موضع الحال، أي: تلك كائنة من أنباء الغيب موحاة إليك. وإن شئت كان «تلك» مبتدأ، «نوحيها» الخبر، والجار من صلة «نوحيها»(١).

والمشار إليه بقوله «تلك»: قصة نوح، وقيل: آيات القرآن.

«من أنباء الغيب» أي: من بعض أخبار الغيب.

﴿ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾ إلا بإيحاء؛ لأنهم لم يكونوا أهل كتاب، ولا متشاغلين بطلب العلم.

﴿فاصبر﴾ على تبليغ رسالتي وما تَلْقَى في غضون ذلك من الأذى، كما صبر نوح، وتوقع لنفسك ولأتباعك من حسن العاقبة ولمن كفر بك من العقوبة نحو ما قصصنا عليك، ﴿إن العاقبة﴾ آخر الأمر والظفر والتمكين ﴿للمتقين﴾ لك ولأصحابك، كما كانت لنوح ولأصحابه.

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾

وما بعده سبق تفسيره إلى قوله: ﴿إن أنتم إلا مفترون﴾ أي: ما أنتم إلا كاذبون في إشراككم مع الله الأوثان.

---

(١) التبيان (١/ ١٣٤)، والدر المصون (٢/ ٩١-٩٢).

﴿يا قوم لا أسألكم عليه﴾ أي: على تبليغ الرسالة ﴿أجراً إن أجري إلا على الذي فطرني﴾ ابتدأ خلقي ﴿أفلا تعقلون﴾ إذ تردّون نصيحةَ من لا يلتمسُ أجراً إلا من الله.

﴿ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾ سبق تفسيره في أول السورة[١].

﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ سبق تفسيره في أول الأنعام[٢]، وعدهم هود عليه السلام بإرسال السماء عليهم استمالة لهم إلى الإسلام، وترغيباً لهم في الإيمان؛ لأن الغيث حُبِسَ عنهم ثلاث سنين، وكانوا أهل ضرع وزرع.

﴿ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾ بطشاً وشدة إلى ما أُتيتموه من القوة والبأس، زيادة على سائر الناس.

وروي عن ابن عباس: أن القوة: الولد وولد الولد[٣]، فإن أرحام نسائهم عقمت حين عاندوا هوداً وكذبوه، فوعدهم هود بإحياء بلادهم وزيادة أولادهم.

وروي: أن الحسن بن علي رضي الله عنهما وفد على معاوية رضي الله عنه، فلما خرج من عنده تبعه بعض حجابه، فقال له: إني رجل ذو مال ولا يولد لي، فعلمني شيئاً لعل الله يرزقني ولداً. فقال له الحسن: عليك بالاستغفار، وكان ذلك الرجل بعدُ يكثرُ الاستغفار، فولد له عشر بنين، فبلغ ذلك معاوية فقال: هلاَّ سألته مما كان ذلك؟ فوفد وفدة أخرى فسأله الرجل، فقال: ألم تسمع قول هود عليه السلام: ﴿ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى

---

(١) عند تفسير الآية رقم (٣).

(٢) عند تفسير الآية رقم (٦).

(٣) زاد المسير (٤/ ١١٧).

قوتكم﴾، وقول نوح عليه السلام: ﴿استغفروا ربكم إنه كان غفاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً * ويمددكم بأموال وبنين﴾ [نوح:١٠-١٢].

قوله تعالى: ﴿ولا تتولوا مجرمين﴾ أي: لا تُعرضوا عني، أو عما جئتكم به من الحق الواضح مُصرّين على إجرامكم وآثامكم.

قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾

﴿قالوا﴾ جحوداً وعناداً ﴿يا هود ما جئتنا ببينة﴾ بدلالة واضحة، ﴿وما نحن بتاركي آلهتنا﴾ يعنون: الأصنام ﴿عن قولك﴾ أي: بقولك، والباء و «عن» يتعاقبان.

قال الزمخشري[1]: «عن قولك» حال من الضمير في «تاركي آلهتنا»، كأنه قيل: وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك.

قوله تعالى: ﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾ «إن» حرف نفي لحق

---

(١) الكشاف (٢/ ٣٨١).

«نقول»، فنفى جميع القول إلا قولاً واحداً، وقوله: «اعتراك بعض آلهتنا بسوء» والتقدير: ما نقول قولاً إلا هذه المقالة، أي: إلا مقالتنا اعتراك بعض آلهتنا بسوء، والفعل يدل على المصدر وعلى الظرف وعلى الحال، فيجوز أن يذكر الفعل، ثم يستثنى من مدلوله ما دَلَّ عليه من المصادر والظروف والأقوال، فقوله: «اعتراك» مستثنى من المصدر الذي دل عليه «نقول»؛ كقوله عز وجل: ﴿أفما نحن بميتين * إلا موتتنا الأولى﴾ [الصافات:٥٨-٥٩] فنصب «موتتنا» على الاستثناء؛ لأنه مستثنى من ضروب الموت الذي دلّ عليه قوله: «بميتين». ومما جاء من ذلك في الظرف قوله تعالى: ﴿ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار﴾ [يونس:٤٥]، ومثله: ﴿إن لبثتم إلا يوماً﴾ [طه:١٠٤]، و ﴿إن لبثتم إلا عشراً﴾ [طه:١٠٣]. ومما جاء من ذلك في الحال قوله: ﴿ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله﴾ [آل عمران:١١٢]، والتقدير: ضربت عليهم الذلة في جميع الأحوال أينما ثقفوا إلا متمسكين بحبل من الله، وهذا أصل كبير لا بد للعالم النحرير من رعايته، فافْهمه وقِسْ عليه.

قال ابن قتيبة(١): عَرَاني كذا واعْتَرَاني؛ إذا ألَمّ بي. ومنه قيل لمن أتاك يطلب نائلك: عار. ومنه قول النابغة:

أَتَيْتُكَ عَارِياً خَلَقاً ثِيَابي عَلَى خَوْفٍ تُظَنُّ بِيَ الظُّنُون(٢)

ومعنى الكلام: ما نقول إلا أن بعض آلهتنا خَبَلَك ومسَّك بجنون لسبّك إياها وعداوتك لها، فأظهر لهم قلّة المبالاة بها وبهم،﴿قال إني أشهد الله واشهدوا أني

(١) تفسير غريب القرآن (ص:٢٠٤-٢٠٥).

(٢) البيت للنابغة. انظر: ديوانه (ص:١٢٦)، واللسان: مادة: (عرا)، وزاد المسير (٤/ ١١٨).

بريء مما تشركون﴾.

﴿من دونه فكيدوني جميعاً﴾ احتالوا على ضُرِّي أنتم وآلهتكم، ﴿ثم لا تنظرون﴾ أي: لا تُمهلون، وهذا شبيه بقول نوح عليه السلام: ﴿ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون﴾ [يونس:٧١]، وقول نبينا ﷺ: ﴿فإن كان لكم كيد فكيدون﴾ [المرسلات:٣٩].

وهذا من أعظم آيات الرسل وأعجبها أن يواجه الرجل الواحد منهم بهذا الكلام وأمثاله أمة عظيمة كثيرة العدد والعُدد، شديدة الشكيمة في عداوته، حرصاً على استئصال شأفته، وإسكان نأمته، عطاشاً إلى إراقة دمه، ما ذاك إلا لرسوخ قدمهم في التوكل والاعتماد على الله، وقلة المبالاة بحزب الشيطان، ألا ترى إلى قوله: ﴿إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها﴾ فهي في قبضته وتحت قهره وسلطانه، والعرب إذا وصفت إنساناً بالذلة والخضوع قالوا: ما ناصيته إلا بيد فلان، أي: أنه مطيع له يُصَرِّفُهُ كيف شاء؛ لأن من أخذ بناصية شخص فقد ملكه، فصار تحت قهره وفي قبضته، ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾ أي: طريق واضح من العدل.

قال الزجاج[1] وابن الأنباري[2]: المعنى: أنه وإن كان قادراً عليهم فهو لا يظلمهم، ولا يُلحقهم بقدرته عليهم إلا ما يوجب الحقُّ وقوعَه بهم.

قوله تعالى: ﴿فإن تولوا﴾ ذهب مقاتل[3] في جماعة من العلماء إلى أنه فعل

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ٥٨).

(٢) انظر: زاد المسير (٤/ ١١٩).

(٣) تفسير مقاتل (٢/ ١٢٢).

[ماض][1] المعنى: فإن أعرضوا فقل لهم قد أبلغتكم.

وقال الزجاج وأكثر المحققين[2]: هو خطاب لهم، أصله: فإن تتولوا، فحذف إحدى التائين تحقيقاً.

والمعنى: فإن تُعرضوا عما دعوتكم إليه من الإيمان وترك عبادة الأوثان لم أعاتب على تفريط في الإبلاغ، وكنتم محجوجين بأن ما أرسلتُ به إليكم قد بَلَّغْتُكُمُوه، فأبيتم إلا التكذيب والعناد والعدوان.

قوله تعالى: ﴿ويستخلف ربي قوماً غيركم﴾ هو كلام مستأنف مؤذنٌ بهلاكهم ومجيء قوم آخرين يخلفونهم في ديارهم وأموالهم.

قال ابن عباس: المعنى: ويخلق بعدكم مَنْ هو أطوعُ لله منكم[3].

﴿ولا تضرونه﴾ بتوليتكم ﴿شيئاً﴾ إنما تضرون أنفسكم ﴿إن ربي على كل شيء حفيظ﴾ فهو يحفظني منكم ويحفظ عليكم أعمالكم فيجازيكم بها.

وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

---

(١) في الأصل: ناقص. والمثبت من زاد المسير (٤/ ١١٩). وفي هامش الأصل: لعله: ماضي.

(٢) معاني الزجاج (٣/ ٥٨).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٧٨).

قوله تعالى: ﴿ولما جاء أمرنا﴾ قال ابن عباس: عذابنا[١].

وقال غيره: جاء أمرنا بهلاكهم، ﴿نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ أي: بسبب رحمة منا، وهو ما أنعم به عليهم من التوفيق للهدى والإيمان، ﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ ليس هذا على وجه التكرار للتنجية، وإنما المعنى: وكانت تلك التنجية من عذاب غليظ.

وقيل: أراد بالتنجية الثانية: التنجية من عذاب الآخرة.

﴿وتلك عاد﴾ يريد: القبيلة.

قال الزمخشري[٢]: «تلك عاد» إشارة إلى قبورهم وآثارهم، كأنه قال: سيحوا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا.

ثم استأنف وصف أحوالهم فقال: ﴿جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله﴾ وإنما وصفهم بمعصية جميع الرسل؛ لأنهم عصوا رسوله، ومعصية رسول واحد معصية لجميع الرسل؛ لأن الرسل يشهد بعضها لبعض بالصدق، ويأمر بعضها بطاعة بعض، ﴿واتبعوا أمر كل جبار عنيد﴾ أما الجبار فهو المسلَّطُ الذي يَقهر الناس على ما يريد. تقول: أَجْبَرَ يُجْبِرُ فهو مُجْبِر.

وذكر الفراء[٣] أنه سمع العرب تقول: جبرته، بمعنى: الإجبار، وعلى هذه اللغة قولهم: جَبَّار؛ لأن فَعّالاً لا يكاد يجيء إلا من الثلاثي.

وقيل: جَبَّار مِنْ أَجْبَرَ، على غير قياس، ومثله: دَرَّاك من أَدْرَكَ، وحَسَّاس من

---

(١) زاد المسير (٤/ ١٢٠).

(٢) الكشاف (٢/ ٣٨٣).

(٣) لم أقف عليه في معاني الفراء.

أَحَسَّ، وسَارَّ من أَسَارّ بمعنى، أبقى.

والعنيد من قولك: عَنَدَ يَعْنِدُ -بكسر النون- عُنُوداً، أي: خالف وَرَدَّ الحق وهو يعرفه، فهو عَنِيدٌ وعَانِدٌ، والجمع: عُنُدٌ وعُنَّدٌ(١).

﴿وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة﴾ أي: أردفوها.

فإن قيل: لم حَذَفَ الصفة في قصة موسى في هذه السورة فقال: ﴿وأتبعوا في هذه لعنة﴾؟

قلتُ: اكتفاء بالبيان الواضح في التي قبلها، حيث أسبغ القول فيها بذكر الصفة والموصوف.

﴿ألا إن عاداً كفروا ربهم﴾ أي: بربهم، فحذف الباء، كما في قول الشاعر(٢):

أمرتك الخير ....

وقد سبق(٣).

﴿ألا بُعْداً لعاد﴾ من رحمة الله ﴿قوم هود﴾ عطف بيان.

قال الزمخشري(٤): فإن قلت: «بُعْداً» دعاء بهلاك، فما معنى الدعاء به عليهم بَعْدَ هلاكهم؟

قلتُ: معناه الدلالة على أنهم كانوا مستأهلين له، ألا ترى إلى قوله:

---

(١) انظر: اللسان (مادة: عند).

(٢) البيت لعمرو بن معدي كرب، ديوانه (ص:٦٣)، وخزانة الأدب (٩/ ١٢٤)، ومغني اللبيب (ص:٣١٥)، والدر المصون (١/ ٢١٠). والبيت هو:

أَمَرْتُكَ الخَيْرَ فافْعَلْ ما أُمِرْتَ بِهِ ... فَقَدْ تَرَكْتُكَ ذا مَالٍ وذا نَشَب

(٣) في سورة الأعراف.

(٤) الكشاف (٢/ ٣٨٣-٣٨٤).

إِخْوَتي لا تَبْعُدُوا أبداً وَبَلى وَاللهِ قَدْ بَعُدُوا(١)

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هو أنشأكم من الأرض﴾ أي: خلقكم من آدم، وكان خلق آدم في قبضة قبضها من جميع الأرض.

وقيل: المعنى أنشأكم من الأرض.

﴿واستعمركم فيها﴾ أي: جعلكم عُمَّارها.

وقال مجاهد: جعلكم ساكنيها مدة أعماركم، ومنه: العُمْرى(٢).

وقال الضحاك: أطال أعماركم، وكانت أعمارهم من [ألف](٣) إلى ثلاثمائة(٤).

﴿إن ربي قريب﴾ بالرحمة إلى من ناداه ﴿مجيب﴾ لمن دعاه.

﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن

---

(١) انظر البيت في: روح المعاني (٢٩/ ١٧٨).

(٢) الماوردي (٢/ ٤٧٩)، وزاد المسير (٤/ ١٢٣).

قال الآلوسي في روح المعاني (١٢/ ٨٨): العُمْرى: بضم فسكون، مقصور، وهي -كما قال الراغب الأصفهاني في العطية-: أن تجعل له شيئاً مدة عمرك أو عمره.

(٣) في الأصل: آلاف. والتصويب من الماوردي (٢/ ٤٧٩)، وزاد المسير (٤/ ١٢٣).

(٤) الماوردي (٢/ ٤٧٩)، وزاد المسير (٤/ ١٢٣).

كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾

﴿قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا﴾ نرْجو أن تَدْخُلَ في ديننا وتوافقَنا على ما نحنُ عليه، وهذا معنى قول مقاتل[١].

وقيل: معناه كنتَ فينا مَرْجُوّاً لما يلوح فيك من مخايل الرشد ودلائل النجابة، فكنا نرجو أن تكون ردءاً لنا، مقدماً فينا، مملكاً علينا، معاذاً لنا في المعضلات إذا ادلهمَّتْ، وملاذاً لنا في العظائم إذا أَلَمَّتْ، فانقطع منك حبل رجائنا، وآل بك الخلاف إلى تضليل آبائنا، وتسفيه آرائنا. وهذا معنى قول كعب، قال: لأنه كان فيهم ذا حسب وثروة[٢].

﴿أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا﴾ استفهام في معنى التوبيخ والإنكار، ﴿وإننا﴾ وفي سورة إبراهيم[٣] ﴿وإنا﴾، وهما لغتان، وكذلك إني وإنني، وليتي وليتني، ولعلي ولعلني. قال الله تعالى: ﴿لعلي أبلغ الأسباب﴾ [غافر:٣٦]. وقال الشاعر:

أَرِيني جَواداً مَاتَ هَزْلاً لَعَلَّنِي أَرَى مَا تَرَيْنَ أَوْ بَخيلاً مُخَلَّدا[٤]

وقال تعالى: ﴿يا ليتني كنت معهم﴾ [النساء:٧٣].

وقال الشاعر:

---

(١) تفسير مقاتل (٢/ ١٢٣).

(٢) زاد المسير (٤/ ١٢٣).

(٣) الآية رقم: (٩).

(٤) البيت لدريد بن الصمة. وهو في: اللسان، مادة: (أنن، علل)، والطبري (١/ ٥٥٤) ونسبه لحطائط بن يعفر، والقرطبي (٧/ ٦٤)، وزاد المسير (٤/ ١٢٤).

كَمُنْيَةِ جَابِرٍ إِذ قَالَ لَيْتَني أُصَادِفُهُ وَأُتْلِفُ بَعْضَ مَالِي[١]

قال الفراء[٢]: من قال «إننا» أخرج الحرف عن أصله؛ لأن كناية المتكلمين «نا»، فاجتمعت ثلاث نونات: نونا «إن» والنون المضمومة إلى الألف. ومن قال: «إنّا» استثقل الجمع بين الثلاث نونات، فأسقط الثالثة وأبقى الأولين.

والمعنى: إننا ﴿لفي شك مما تدعونا إليه﴾ من التوصل ورفض آلهتنا ﴿مريب﴾ مُوقِعٌ في الريبة، وهي قلق النفس بانتفاء الطمأنينة.

فإن قيل: لم قال هنا ﴿تدعونا﴾، وفي إبراهيم: ﴿تدعوننا﴾؟

قلت: هاهنا الرسول واحد، والنون مع الألف ضمير المتكلمين، وفي «إبراهيم» الخطاب للرسل، والنون الأولى لا تسقط إلا بناصب أو جازم.

﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي﴾ أي: برهان بيّن ودليل واضح ﴿وآتاني منه رحمة﴾ وهي النبوة ﴿فمن ينصرني من الله إن عصيته﴾ أي: من يمنعني من عذابه إن عصيته بعد البينة ﴿فما تزيدونني غير تخسير﴾ لكم لا لي.

قال ابن عباس: فما تزيدونني غير بصارة في خسارتكم[٣].

وقيل: فيه إضمار، تقديره: فما تزيدونني غير تخسير إن رجعت إلى دينكم، وهذا الاستثناء بمنزلته في قوله: ﴿ما زادوكم إلا خبالاً﴾ [التوبة:٤٧]، وقد سبق تفسيره والكشف عن معناه.

---

(١) انظر البيت في: اللسان، مادة: (ليت)، وزاد المسير (٤/ ١٢٤).

(٢) لم أقف عليه في معاني الفراء. وانظر: زاد المسير (٤/ ١٢٤).

(٣) زاد المسير (٤/ ١٢٤).

وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا
تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى
دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا
صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى
دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا
بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية﴾ جائز أن يكون النصب في «آية» على التمييز، على معنى: هذه ناقة الله لكم من جملة الآيات.

وقال الزمخشري[1]: «آية» نصب على الحال، وقد عَمِلَ فيها ما دل عليه اسم الإشارة من معنى الفعل.

فإن قلت: فبِمَ يتعلق «لكم»؟

قلت: بـ«آية» حالاً منها متقدمة؛ لأنها لو تأخرت كانت صفة، فلما تقدمت انتصبت على الحال.

﴿فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء﴾ سبق تفسيره[2].

﴿فيأخذكم عذاب قريب﴾ عاجل لا يستأخر عنكم إن مسستموها بسوء إلا يسيراً، وهو ثلاثة أيام.

---

(١) الكشاف (٢/ ٣٨٥).

(٢) عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأعراف.

﴿فعقروها فقال تمتعوا﴾ أي: استمتعوا بالعيش ﴿في داركم﴾ أي: في بلدكم، وتسمى البلاد: الديار؛ لأنه يدار فيها، ومنها ديار بكر[1]، لبلادهم.

وقيل: «في داركم»: في دار الدنيا.

﴿ذلك وعد غير مكذوب﴾ أتى غير كذب، فناب مناب المصدر، كالصدوقة في معنى الصدق.

وقيل: المعنى: غير مكذوب فيه، فاتسع إلى الظرف بحذف الحرف وإجرائه مجرى المفعول به، كقولك: يوم مشهود.

﴿فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ إن قيل: لم عطف هذا بالفاء، وفي قصة لوط، وعطف في قصة هود وشعيب بالواو؟

قلتُ: لأن ما قبل الفاء في القصتين اقتضى تعليقه به وتعقيبه عليه، وهو قوله هنا: ﴿فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾ ... ﴿فلما جاء أمرنا﴾، وكذا في قصة لوط قال: ﴿إن موعدكم الصبح أليس الصبح بقريب * فلما جاء أمرنا﴾ بخلاف قصة هود فإنه لم يتقدم العطف ما يوجب اتصاله وتعلقه بما قبله، وإنما جاءت جامعة بين الخبرين، وكذلك في قصة شعيب.

فإن قيل: أليس يقول في قصة شعيب: ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ إلى قوله: ﴿وارتقبوا إني معكم رقيب﴾؟

قلتُ: لم يتوعدهم بارتقاب العذاب كما في قصتي هود ولوط، وإنما دعاهم إلى

---

(١) ديار بكر: هي بلاد واسعة تنسب إلى بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمى ابن جديلة بن سعد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان. وحدُّها ما غرب من دجلة على بلاد الجبل المطل على نصيبين إلى دجلة (معجم البلدان ٢/ ٤٩٤).

ارتقاب العذاب، فلم يكن الثاني متصلاً بالأول، ولا تحقق فيه معنى التعقيب.

قوله تعالى: ﴿ومن خزي يومِئذ﴾ قال ابن الأنباري[1]: هو معطوف على محذوف، تقديره: نجيناهم من العذاب ومن خزي يومئذ.

ويجوز أن تكون الواو دخلت لفعل مضمر، تأويله: نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من خزي يومئذ.

قرأ نافع والكسائي: «يومَئذ» بفتح الميم، ومثله في النمل، وسأل سائل؛ ووافقهما عاصم وحمزة في النمل، والباقون بكسر الميم للإضافة[2]، ومن فَتَحَ بنى «يوماً» على الفتح؛ لأن ظروف الزمان إذا أضيفت إلى الأسماء المبهمة والأفعال الماضية بنيت واكتسبت البناء من المضاف إليه، كما قال النابغة:

عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ المَشيبَ عَلى الصِّبَا ... فَقُلْتُ أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وَازِعُ؟[3]

فبنى «حين» على الفتح؛ لأنه أضاف الماضي، والمضاف يكتسي من المضاف إليه البقاء، كما يكتسى منه التعريف والتنكير والعموم وغيره، وجاء التنوين في «إذ» من قوله: «يومئذ»؛ لأن «إذ» مضاف إلى الجملة؛ كقولك: حينئذ إذ الخليفة

---

(١) انظر: الوسيط (٢/ ٥٨٠)، وزاد المسير (٤/ ١٢٣)، والبيان (٢٩).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٤٠٢)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٤٤)، والكشف (١/ ٥٣٢-٥٣٣)، والنشر (٢/ ٢٨٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٧)، والسبعة في القراءات (ص:٢٣٦).

(٣) البيت للنابغة. انظر: ديوانه (ص:٧٩)، والكتاب (٢/ ٣٣٠)، واللسان، مادة: (بهر، وزع)، وابن الشجري (١/ ٤٦)، وابن يعيش (٣/ ١٦)، والخزانة (٣/ ١٥١)، والعين (٢/ ٤٠٦)، والمنصف (١/ ٥٨)، واللمع (١/ ٢١٨)، وشرح شواهد المغني (ص:٢٩٨)، والطبري (٧/ ١٤١، ١٩/ ١٤٢، ٣٠-٩٠)، والقرطبي (٦/ ٣٨٠، ١٣/ ١٦٨)، والوسيط (٢/ ٥٨٠)، وروح المعاني (١٢/ ٩٢).

عبدالملك، فلما حذف منه المضاف إليه نوّن، ليكون التنوين دليلاً على ذلك المعنى. فلما دخله التنوين كسر الدال لالتقاء الساكنين.

وكان الأخفش يقول: من نصب «يومئذ» جعله اسماً واحداً، وجعل الإعراب في الآخر.

﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة﴾ قال ابن الأنباري[١]: محمولة على الصياح، وأنشد غيره:

يَا أَيُّهَا الرَّاكِبُ الْمُزْجِي مَطِيَّتَهُ سَائِلْ بَنِي أَسَدٍ مَا هَذِهِ الصَّوْتُ[٢]

حمله على المعنى، إذ الصوت بمعنى الصيحة.

﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾.

﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ سبق تفسيره[٣]، وذكر القصة في الأعراف.

﴿ألا إن ثموداً كفروا ربهم﴾ قرأ حمزة وحفص: ﴿ألا إن ثمودَ﴾، وفي الفرقان: ﴿وعاداً وثمودَ﴾[٤]، وفي العنكبوت: ﴿وثمودَ وقد تبين لكم﴾[٥]، وفي النجم: ﴿وثمودَ فما أبقى﴾[٦] بغير تنوين فيهن، والباقون بالتنوين[٧].

---

(١) انظر: الوسيط (٢/ ٥٨٠)، وزاد المسير (٤/ ١٢٣)، والبيان (٢/ ٢٠).

(٢) البيت لِرُوَيْشِد بن كثير الطائي. انظر البيت في: اللسان، مادة: (صوت)، والقرطبي (٢/ ٢٥٨، ٧/ ٣٤٠، ١٠/ ٢٩١).

(٣) عند تفسير الآية (٩٢) من سورة الأعراف.

(٤) الآية: ٣٨.

(٥) الآية: ٣٨.

(٦) الآية: ٥١.

(٧) الحجة للفارسي (٢/ ٤٠٦)، والحجة لابن زنجلة (ص: ٣٤٤-٣٤٥)، والكشف (١/ ٥٣٣)، =

وقرأ الكسائي وحده: «ألا بعداً لثمودٍ» بالخفض والتنوين[(١)].

فمن صرف ذهب إلى الحي أو الأب، ومن لم يصرف ذهب إلى القبيلة، فيجتمع التعريف والتأنيث، والقراءتان متكافئتان في الجودة.

وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾

قوله تعالى: ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى﴾ قال ابن عباس: جاءه جبريل وميكائيل وإسرافيل[(٢)].

وفي رواية عنه: كانوا اثني عشر مَلَكاً[(٣)].

قال السدي: كانوا على صور الغلمان الوضاء[(٤)].

= والنشر (٢/ ٢٨٩-٢٩٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٨)، والسبعة في القراءات (ص:٣٣٧).

(١) الحجة لابن زنجلة (ص:٣٤٥)، والكشف (١/ ٥٣٣)، والنشر (٢/ ٢٩٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٨)، والسبعة في القراءات (ص:٣٣٧).

(٢) ذكره الماوردي (٢/ ٤٨٢)، والواحدي في الوسيط (٢/ ٥٨١)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٢٧).

(٣) الماوردي (٢/ ٤٨٢)، وزاد المسير (٤/ ١٢٧).

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٨١)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٢٨).

والبشرى: البشارة بالولد، في قول الحسن[١] ومقاتل[٢].

أو بهلاك قوم لوط، في قول قتادة[٣].

أو بنبوته، في قول عكرمة[٤].

﴿قالوا سلاماً قال سلام﴾ نصب الأول بنفس القول، ورفع الثاني بإضمار المبتدأ، أي: أمرنا سلام، أو أمركم سلام، أو إنا ذو سلام.

وقال الفراء[٥]: أضمر «عليكم»، كما قال الشاعر:

فَقُلْنا السَّلامُ فَاتَّقَتْ مِنْ أَمِيرِها فَمَا كَانَ إلا [وَمْؤُها][٦] بالحَواجِبِ[٧]

والعرب تقول: التقينا فقلنا: سلامٌ سلام.

وقرأ حمزة والكسائي: «قال سِلْم» بكسر السين هنا وفي الذاريات[٨].

قال الفراء[٩]: هو في معنى سلام، كما قالوا: حِلّ وحَلال، وحِرْم وحَرَام، والتفسير ورد بأنهم سَلَّمُوا عليه فردَّ عليهم، وأنشد الفراء:

---

(١) الماوردي (٢/ ٤٨٢) من قول الحسن، وزاد المسير (٤/ ١٢٧). وهذا القول أقوى الأقوال؛ لدلالة سياق الآية عليه؛ لأن الله تعالى قال في سورة الصافات: ﴿وبشروه بغلام حليم﴾.

(٢) تفسير مقاتل (٢/ ١٢٥).

(٣) الماوردي (٢/ ٤٨٢)، وزاد المسير (٤/ ١٢٧).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٥٣). وانظر: الماوردي (٢/ ٤٨٢)، وزاد المسير (٤/ ١٢٧).

(٥) معاني الفراء (٢/ ٢١).

(٦) في الأصل: ماؤها. والتصويب من مصادر البيت.

(٧) البيت لم أعرف قائله. وهو في: اللسان، مادة: (ومأ، سلم)، وزاد المسير (٤/ ١٢٧).

(٨) الحجة للفارسي (٢/ ٤٠٩)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٤٦)، والكشف (١/ ٥٣٤)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٨).

(٩) معاني الفراء (٢/ ٢٠-٢١).

مَرَرْنَا فَقُلْنا إِيهِ سِلْم فَسَلَّمَتْ كَمَا اكْتَلَّ بالبَرْقِ الغَمَامُ اللَّوائِحُ[(١)]

وقيل: هو من المسالمة، على معنى: نحن سلم وصلح، لا حرب بيننا وبينكم.

﴿فما لبث أن جاء﴾ قال الزجاج[(٢)]: أي: ما أقام حتى جاء، ﴿بعجل حنيذ﴾ قيل: هو المشوي بالحجارة.

وقيل: هو المشويّ حتى يقْطُر[(٣)]. والعرب تقول: احْنِذ هذا الفرس، [أي][(٤)]: اجعل عليه الحِمْلَ حتى يقطر عَرَقاً.

وقيل: الحنيذ: المشوي فقط.

وقيل: الحنيذ: السَّمِيط[(٥)].

قال عبدالله[(٦)] بن عمير: مكث إبراهيم عليه السلام خمس عشرة ليلة لا يأتيه ضيف، فاغتمّ لذلك، فلما جاءته الملائكة رأى أضيافاً لم ير مثلهم، فجاءهم بعجل حنيذ[(٧)].

﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه﴾ أي: إلى العجل؛ لأنهم كانوا ملائكة

---

(١) البيت لم أعرف قائله. وهو في: اللسان، مادة: (كلل، طلح)، ومعاني الفراء (٢/ ٢١)، والطبري (١٢/ ٦٩)، والبحر المحيط (٥/ ٢٤٢)، والدر المصون (٤/ ١١٢)، والماوردي (٢/ ٤٨٢)، وروح المعاني (١٢/ ٩٤).

(٢) معاني الزجاج (٣/ ٦١).

(٣) أي: يسيل منه الدهن.

(٤) زيادة من معاني الزجاج، الموضع السابق.

(٥) السميط: الذي نُتِفَ عنه الصوف ونُظِّفَ من الشعر بالماء الحار للشوي (اللسان، مادة: سمط).

(٦) في الوسيط: عبيد بن عمير.

(٧) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٨١).

﴿نكرهم﴾ وأنكرهم واستنكرهم واحد. قال الأعشى:

وأَنْكَرَتْني وَمَا كَانَ الذي نَكِرَتْ مِنَ الحَوادِثَ إلاَّ الشَّيْبَ والصَّلَعَا[(١)]

﴿وأوجس منهم خيفة﴾ أي: أضمر في نفسه خوفاً منهم؛ لأنه لم يأمن أن يكون مجيئهم لبلاء أو شرّ، حيث لم يتحرموا بطعامه.

قال بعض أهل العلم: الظاهر أنه أحسَّ بأنهم ملائكة ونكِرهُم؛ لأنه تَخَوَّفَ أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله تعالى عليه، أو لتعذيب قومه، ألا ترى إلى قولهم: ﴿لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط﴾، وإنما يُقال هذا لمن عرفهم ولم يعرف فيم أرسلوا، وإنما قالوا له: "لا تخف"؛ لأنهم رأوا أثر الخوف والتغيير في وجهه، أو عرفوه بتعريف الله: "إنا أرسلنا"[(٢)] أي: بالعذاب "إلى قوم لوط".

﴿وامرأته﴾ أي: وامرأة إبراهيم، وهي سارة عليها السلام ﴿قائمة﴾ من وراء الستر تسمع تحاورهم. وقيل: قائمة على رؤوسهم تخدمهم.

وقال ابن إسحاق: قائمة تصلي[(٣)].

﴿فضحكت﴾ قال قتادة: ضحكت تعجباً من غفلة قوم لوط مع قرب العذاب منهم[(٤)].

---

(١) البيت للأعشى. انظر: ديوانه (ص:١٣٧)، والمحتسب (٢/ ٢٩٨)، والخصائص (٣/ ٣١٠)، واللسان، مادة: (نكر)، وتهذيب اللغة (١٠/ ١٩١)، ومجاز القرآن (١/ ٢٩٣)، والطبري (١٢/ ٧١، ٢٩/ ٢٣٦)، والقرطبي (٩/ ٦٦، ١٧/ ٤٥، ١٩/ ١٦٠)، والماوردي (٢/ ٤٨٣)، وزاد المسير (٤/ ١٢٩، ٨/ ٤٤٩)، والبحر المحيط (٥/ ٢٤٢)، والدر المصون (٤/ ١١٣).

(٢) في الأصل زيادة قوله: إلى قوم.

(٣) الماوردي (٢/ ٤٨٤)، وزاد المسير (٤/ ١٢٩).

(٤) أخرجه الطبري (١٢/ ٧٢)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٥٤). وذكره السيوطي في الدر المنثور =

وقال مقاتل[(١)]: ضحكت من شدة خوف إبراهيم من أضيافه مع كونه في مَنَعَةٍ من أهله وغلمانه. وهو مروي عن ابن عباس[(٢)].

وقال السدي: ضحكتْ تعجباً من إمساك الأضياف عن الأكل، وقالت: عجباً لهؤلاء، نخدمهم بأنفسنا وهم لا يأكلون طعامنا[(٣)].

وقيل: ضحكت سروراً بالأمن؛ لأنها كانت خافت كما خاف إبراهيم.

وقيل: ضحكت سروراً بموافقتها الصواب، فإنها كانت أشارت على إبراهيم أن يضم إليه لوطاً، وقالت: إن العذاب سينزل بقومه.

وقيل: ضحكت سروراً بالبشارة بالولد. وهذا مروي عن ابن عباس ووهب بن منبه[(٤)].

فعلى هذا: في الآية تقديم وتأخير، والتقدير: وامرأته قائمة فبشرناها بإسحاق فضحكت. اختاره ابن قتيبة.

وقال مجاهد وعكرمة: «ضحكت» بمعنى: حاضت[(٥)]. تقول العرب:

= (٤/ ٤٥١) وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ. وهذا القول هو الذي رجّحه الطبري.

(١) تفسير مقاتل (٢/ ١٢٥).

(٢) زاد المسير (٤/ ١٣٠).

(٣) أخرجه الطبري (١٢/ ٧٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٥٠-٤٥١) وعزاه لابن جرير.

(٤) أخرج نحوه الطبري (١٢/ ٧٣). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٣٠).

(٥) أخرجه الطبري (١٢/ ٧٣) عن مجاهد، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٥٥) عن ابن عباس. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٥١-٤٥٢) وعزاه لابن جرير عن مجاهد. ومن طريق آخر عن عكرمة، وعزاه لأبي الشيخ.

ضَحِكَت الأرنبُ؛ إذا حاضت[١].

وأنشد ابن الأنباري:

تَضْحَكُ الضَّبعُ لِقَتْلَى هُذَيْلٍ وَتَرى الذِّئْبَ لَهَا يَسْتَهِلُّ[٢]

فعلى هذا: يكون حيضها حينئذ تأكيداً للبشارة بالولد؛ لأن من لا تحيض لا تحمل.

قال ابن الأنباري[٣]: أنكر الفراء[٤] وأبو عبيدة[٥] وأبو عبيد: أن يكون «ضحكت» بمعنى حاضت.

وعرّفه غيرهم، وأنشد:

تضحك الضبع ....

ثم قال بعض أهل اللغة: معناه: تحيض.

قلت: قد ذكر المرزوقي في «شرح الحماسة» هذا المعنى فأنكره وقال: قول من قال: تضحك الضبع: تحيض، ليس بشيء.

قوله تعالى: ﴿فبشرناها بإسحاق﴾ قال أهل التفسير: كان إبراهيم عليه السلام قد ولد له من هاجر إسماعيل، فكبر وشَبَّ، وتمنَّت سارة أن يكون لها ابن، وأَيِسَتْ من ذلك لكبر سنها، فبشرت بولد يكون نبياً ويلد نبياً[٦].

---

(١) انظر: اللسان (مادة: ضحك).

(٢) البيت لتأبط شراً. وهو في: زاد المسير (٤/ ١٣٠).

(٣) انظر: زاد المسير (٤/ ١٣٠).

(٤) معاني الفراء (٢/ ٢٢).

(٥) لم أقف عليه في مجاز القرآن.

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٨١-٥٨٢).

قال الزجاج[(١)]: بشروها بأنها تلد إسحاق، وأنها تعيش إلى أن ترى ولد ولده. قال جبريل لسارة: أبشري أيتها الضاحكة بولد اسمه إسحاق[(٢)].

﴿ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ أي: ومن بعد إسحاق يعقوب، هذا هو الأظهر، وعليه الأكثر.

ورُوي عن ابن عباس والشعبي أن «الوراء»: وَلَدُ الوَلَد[(٣)]. واختاره أبو عبيدة.

ويرد عليه أن يقال: يعقوب ولد إسحاق لصلبه، فكيف يكون وراءه بالمعنى المذكور؟

وأجاب ابن الأنباري عنه فقال[(٤)]: المعنى: ومن وراء المنسوب إلى إسحاق يعقوب؛ لأنه قد كان الوراء لإبراهيم من جهة إسحاق. فلو قال: «من وراء يعقوب» لم يعلم أهذا الوراء منسوب إلى إسحاق أم إلى إسماعيل. فأضيف إلى

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ٦٢).

(٢) فائدة: قال الماوردي (٢/ ٤٨٥-٤٥٦): فإن قيل: فلم خُصَّت سارة بالبشرى من دون إبراهيم؟

قيل: عن هذا ثلاثة أجوبة:

أحدها: أنها لما اختصت بالضحك اختصت بالبشرى.

الثاني: أنهم كافأوها بالبشرى مقابلة على استعظام خدمتها

الثالث: لأن النساء في البشرى بالولد أعظم سروراً وأكثر فرحاً.

قال ابن عباس: سمي إسحاق؛ لأن سارة سحقت بالضحك حين بشّرت به.

(٣) أخرجه الطبري (١٢/ ٧٤)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٥٦). وانظر: الماوردي (٢/ ٤٨٥)، وزاد المسير (٤/ ١٣١). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٥٢) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس. ومن طريق آخر عن الشعبي، وعزاه لابن الأنباري.

(٤) انظر: زاد المسير (٤/ ١٣٠-١٣١).

إسحاق لينكشف المعنى ويزول اللبس.

ويجوز أن ينسب ولد إبراهيم من غير إسحاق إلى سارة على جهة المجاز، فكان تأويل الآية: من الوراء المنسوب إلى سارة وإلى إبراهيم من جهة إسحاق يعقوب.

واختلف القراء السبعة في «يعقوب»: فقرأ ابن عامر وحمزة وحفص بنصب الباء، وقرأه الباقون بالرفع[١].

فمن نصب حمله على المعنى، كأنه قال: وهبنا لها إسحاق، ووهبنا لها يعقوب.

ويجوز أن يكون معطوفاً على موضع قوله: «بإسحاق»؛ لأن موضع الجار والمجرور نصب، كما تقول: مررت بزيد وعمراً، وَخَشَّنْتُ[٢] بصدره وصدر زيد.

ويجوز أن يكون قوله: «يعقوب» جرّاً، عطفاً على قوله: «إسحاق»، أي: بشرناها بإسحاق ويعقوب من وراء إسحاق، كقول الأعشى:

يَوْماً تَراها كَشِبْهِ أَرْدِيَةِ العَصْبِ ... وَيَوْماً أَدِيمُها نغِلا[٣]

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٤١٢)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٤٧)، والكشف (١/ ٥٣٤)، والنشر (٢/ ٢٩٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٨)، والسبعة في القراءات (ص:٣٣٨).

(٢) خَشَّنْتُ صدره تخشيناً: أَوْغَرْتُ (اللسان، مادة: خشن).

(٣) البيت للأعشى يذكر نبات الأرض. انظر: ديوانه (ص:٢٨٣)، واللسان، مادة: (نغل، أدم)، والحجة للفارسي (٢/ ٤١٣)، وشرح شواهد الإيضاح (ص:١٢٤)، وتاج العروس (١٦/ ٢٥)، والخصائص (٢/ ٣٩٥)، وشرح عمدة الحافظ (ص:٦٣٦).

ونَغِلَ الأديم: فسد في الدباغ. ونغل الأديم: إذا عفن وتهرّى في الدباغ فيفسد ويهلك. واستشهد الأزهري في تهذيب اللغة (٨/ ١٣٤) بهذا البيت على قوله: نغل وجه الأرض؛ إذا تهشّم من الجدوبة (اللسان، مادة: نغل).

والعَصْبُ: ضَرْبٌ من برود اليمن، سُمِّي عَصْباً؛ لأن غزلهُ يُعْصَب، أي يُدرج، ثم يُصبغُ، ثم يُحاك، وليس من برود الرَّقم، ولا يُجمع (اللسان، مادة: عصب).

أي: وأديمها يوماً، ففصل بالظرف بين الجار والمجرور، وهذا الوجه ضعيف.

قال الزجاج[(١)]: من زعم أن «يعقوب» في موضع خفض، فخطأ زعمه ذلك؛ لأن الجار لا يفصل بينه وبين المجرور، ولا بينه وبين الواو العاطفة، لا يجوز: مررت بزيد في الدار والبيت عمرو، ولا في البيت عمرو، حتى تقول: وعمرو في البيت.

ومن رفع فعلى الابتداء، والعطف المقدم خبره، كما تقول: في الدار زيد.

قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾

﴿قالت يا ويلتى﴾ الأصل فيها: «وَيْلَتِي» بالياء، وهي قراءة الحسن[(٢)]، فأبدلوا من ياء الإضافة ألفاً؛ لأنها أخف من الياء والكسرة، وكذلك «يا لهفا» و «يا عجبا». وهي كلمة تقال عند الإيذان بورود الأمر العظيم عند التفجع والحسر.

﴿أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً﴾ تقول: شيخٌ بَيِّنُ الشَّيْخُوخَة، والشيخوخة والشيخ والتشييخ، كل ذلك مصدر للشيخ. فأما الشيخ والشيخوخة فمبنيان على مصدر، وهو شَاخَ يَشيخُ، ويجمع شيخ على شيوخ وأشياخ وشِيْخَة، مثل: عود وعودة، وثور وثورة، ويجمع على مَشْيَخَة. فأما المشايخ فليس بجمع شيخ، ويصلح أن يكون جمع الجميع.

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ٦٢-٦٣).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٢٤٤).

قال قتادة: كان لكل واحد منهما تسعون سنة[١].

وقال مجاهد: كان إبراهيم ابن مائة سنة، وكانت هي بنت تسع وتسعين سنة[٢].

وقيل: كان إبراهيم ابن مائة وعشرين سنة[٣].

وقوله: «هذا» مبتدأ، خبره «بعلي شيخاً»، ونصب على الحال، والعامل فيه: معنى الإشارة التي دلت عليها «ذا»، أو معنى التنبيه الذي دلت عليه «ها»[٤].

وقرئ شاذاً: «شيخٌ» بالرفع خبر بعد خبر[٥]، أو بدل من «بعلي»، أو يكون «بعلي» بدلاً، و «شيخ» خبر «هذا»، أو يكون «شيخ» خبر ابتداء آخر، على تقدير: وهذا بعلي وهذا شيخ.

ذكر هذه الوجوه الأربعة سيبويه في الكتاب[٦]، وروى القراءة عن ابن مسعود، ثم إنه استشهد ببيت الراعي وهو قوله:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٥٦) وفيه: أنها كانت يومئذ بنت سبعين. وانظر: الماوردي (٢/ ٤٨٦)، وزاد المسير (٤/ ١٣٣). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٥٣) وعزاه لابن الأنباري وأبي الشيخ، وفيه أنها كانت بنت سبعين.

(٢) أخرجه الطبري (١٢/ ٧٣). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٥١) وعزاه لابن جرير.

(٣) وهو قول عبيد بن عمير وابن إسحاق. أخرجه الطبري (١٢/ ٧٦)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٥٦). وانظر: الوسيط (٢/ ٥٨٢)، والماوردي (٢/ ٤٨٦)، وزاد المسير (٤/ ١٣٣).

(٤) التبيان (٢/ ٤٢)، والدر المصون (٤/ ١١٥).

(٥) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٩).

(٦) الكتاب (٢/ ٨٣) وما بعدها.

مَـنْ يَـكُ ذا بَـتٍّ [فَهَـذا][1] بَتِّـي   مُقَـيِّظٌ مُـصَيِّفٌ مُـشَتِّي
تَخِذْتُـهُ مِـنَ النِّعَـاجِ الـسِّتّ   سُودٌ جِعادٌ مِـنْ نِعـاجِ الدَّشْـتِ[2]

والبَتُّ: الكساء.

وقوله: «اتخذته من النعاج الست» أي: من صوف ست نعجات، والدَّشْت: الصَّحراء[3]، وهو مُعَرَّب. ومثل [هـذا][4] قولـه: ﴿ذلـك جـزاؤهم جهـنم﴾ [الكهف:١٠٦] فيه [الوجوه][5] الأربعة المذكورة في قوله: «وهذا بعلي شيخاً».

﴿إن هذا﴾ يعني الذي تذكرونه من وجود مولود بين شيخ وعجوز[6] هرمين ﴿لشيء عجيب﴾ مُسْتَبْعَدٌ في العادة.

﴿قالوا﴾ يعني: الملائكة لسارة حين ازدهتها البشارة، فاستبعدت الولادة من حيث العادة، ﴿أتعجبين من أمر الله﴾ أي: من قضائه وقـدره وخرقـه للعـادات، وأنت حليلة الخليل تشاهدين معجزاته وتعاينين آياته، ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾، جائز أن يكون دعاء لهم، وجائز أن يكون إخباراً عن ثبـوت ذلـك لهم، ومن آثار تلك البركات كون الأنبياء من نسلها.

﴿إنه حميد مجيد﴾ أي: محمود يستوجب الحمد من عباده مجيد.

---

(١) في الأصل: فهذ. والتصويب من مصادر البيت.

(٢) البيتان للراعي. انظر: الكتاب (٢/ ٨٣ وما بعدها)، واللسان، مادة: (قيظ، بتت).

(٣) انظر: اللسان، مادة: (دشت).

(٤) في الأصل: هذاه.

(٥) في الأصل: الوجه.

(٦) في الأصل زيادة قوله: همين.

قال ابن قتيبة[١]: مجيد بمعنى: ماجد، وهو الشريف.

وقال الخطابي[٢]: هو الواسع الكرم. يقال: رَجُلٌ مَاجِدٌ؛ إذا كان سَخِيّاً واسع العطاء.

وفي بعض الأمثال: «في كُلِّ شَجَرٍ نارٌ، [واسْتَمْجَدَ المَرْخُ وَالعَفَارْ]»[٣]، أي: استكثرا منها.

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروع﴾ وهو ما أوجس في نفسه حين نكر أضيافه، ﴿وجاءته البشرى﴾ فامتلأ سروراً بها بدل الخوف، وجوابُ «لَمَّا» محذوف تقديره: أخذ أو أقبل.

وقوله: ﴿يجادلنا﴾[٤] في موضع الحال من الضمير في أخذ أو أقبل[٥].

وفيه وجه آخر: وهو أن قوله: «يجادلنا» جواب «لما». وكأن حَقَّ الكلام «جادلنا»، كما تقول: لما قمت قمت، وأنت لا تقول: لما قمت أقوم، ولكن جاء

(١) انظر قول ابن قتيبة في: زاد المسير (٤/ ١٣٣).
(٢) شأن الدعاء (ص:٧٤-٧٥).
(٣) في الأصل: واستجمد المرج والعقار. والتصويب من شأن الدعاء، الموضع السابق.
(٤) في الأصل: يجادلنا وقوله.
(٥) التبيان (٢/ ٤٣)، والدر المصون (٤/ ١١٦).

«يجادلنا» على لفظ المضارع؛ لأنه حكاية الحال[١].

والمعنى: يجادل رسلنا ﴿في قوم لوط﴾ حين قالوا له: ﴿إنا مهلكوا أهل هذه القرية﴾ [العنكبوت:٣١]، فقال: أرأيتم لو كان فيها خمسون مؤمناً أتهلكونها؟ قالوا: لا، قال: فأربعون؟ قالوا: لا، فما زال ينقص حتى قال: فواحد؟ قالوا: لا. فحينئذ قال: ﴿إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله﴾ [العنكبوت:٣١].

قوله تعالى: ﴿إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾ تنبيه على أن هذه الأوصاف هي التي حملته على المجادلة في قوم لوط، وهي التي حملته على الاستغفار لأبيه في موضعه[٢]، وقد سبق تفسير «الحليم» في البقرة، و «الأوّاه» في براءة[٣].

﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا﴾ الجدال ﴿إنه قد جاء أمر ربك﴾ عذابه، أو أمره بإهلاكهم، ﴿وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾ عنهم بجدال ولا سؤال. و «عذاب» مرتفع باسم الفاعل وهو قوله: «آتيهم».

قوله تعالى: ﴿ولما جاءت رسلنا لوطاً﴾ قال المفسرون: خرجت الملائكة من عند إبراهيم فأتوا قرية لوط عليه السلام عشاء[٤].

وقال السدي: أتوها نصف النهار، فلما بلغوا نهر سدوم لقوا بنت لوط تستقي الماء لأهلها، فقالوا لها: يا جارية! هل من منزل؟ قالت: نعم، مكانكم، لا تدخلوا حتى آتيكم، فَرَقاً عليهم من قومها، فأتت أباها فقالت: يا أبتاه! أدرك فتياناً على

(١) التبيان (٢/ ٤٣)، والدر المصون (٤/ ١١٦).

(٢) سورة التوبة الآية: (١١٤).

(٣) عند تفسير الآية: (١١٤).

(٤) زاد المسير (٤/ ١٣٥).

باب المدينة ما رأيت أحسن من وجوههم، لا يأخذهم قومك فيفضحوهم، وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلاً، فجاء بهم ولم يعلم بهم أحداً إلا أهل بيت لوط، فأخبرت امرأته قومها، فجاؤوا يهرعون إليه[١].

وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾

قوله تعالى: ﴿سيء بهم﴾ أصله سوئ، فعل من السوء، إلا أن الواو أسكنت وأنقلت[٢] كسرتها إلى السين فقلبت ياء. والمعنى: ساءه مجيئهم خوفاً عليهم من قومه، وأن يعجز عن المدافعة عنهم.

﴿وضاق بهم ذرعاً﴾ قال الزجاج[٣]: يقال: ضاق فلان بأمره ذَرْعاً؛ إذا لم يجد

---

(١) أخرجه الطبري (١٢/ ٨١-٨٢)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٦٠). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٣٥).

(٢) في زاد المسير: ونقلت.

(٣) معاني الزجاج (٣/ ٦٦).

من المكروه في ذلك الأمر مَخْلَصاً.

قال صاحب الصحاح[١]: يقال: ضِقْتُ بالأَمْرِ ذَرْعاً؛ إذا لم [تُطِقْهُ][٢] ولَمْ تَقْوَ عَليه. وأَصْلُ الذَّرْعِ إنما هو بَسْطُ اليد، فكأنك تريد: مددتُ يدي إليه فلم تَنَلْه، وربما قالوا: ضِقْتُ به ذِراعاً.

و «ذرعاً» نصب على التمييز[٣].

﴿وقال هذا يوم عصيب﴾ أي: شديد، وأنشدوا:

فَإِنَّكَ إِلاَّ تَرْضَ بَكْرَ بن وائل يَكُنْ لَكَ يَوْمٌ بالعِراقِ عَصِيبُ[٤]

ويقال: يوم عَصِيبٌ وعَصَبْصَب، واعْصَوْصَبَ اليوم: اشْتَدَّ[٥].

قال أبو عبيدة[٦]: العصيب: الشديد الذي يعصب الناس بالشر.

قوله تعالى: ﴿وجاءه قومه يهرعون إليه﴾ قال أبو عبيدة[٧]: يستحثون. كأنه يحث بعضهم بعضاً. وقيل: يسرعون، يقال: أهرع الرجل، على ما لم يسم فاعله، كما يقال: أرعد وأولع، وسهى الرجل من السهو.

---

(١) الصحاح للجوهري (٣/ ١٢١٠).

(٢) في الأصل: يطقه. والتصويب من الصحاح، الموضع السابق.

(٣) التبيان (٢/ ٤٣)، والدر المصون (٤/ ١١٧).

(٤) انظر البيت في: الطبري (١٢/ ٨٢)، والقرطبي (٩/ ٧٤)، والماوردي (٢/ ٤٨٨)، ومجاز القرآن (١/ ٢٩٤).

(٥) انظر: اللسان (مادة: عصب).

(٦) مجاز القرآن (١/ ٢٩٣).

(٧) مجاز القرآن (١/ ٢٩٤).

قال ابن الأنباري(١): كل واحد من هذه الأفاعيل خرج الاسم معه مقدراً تقدير المفعول، وهو صاحب الفعل لا يعرف له فاعل غيره.

قال: وقال بعض النحويين: تأويل أولع زيد أولعه: طبعه، وأرعد [الرجل](٢) أرعده: غضبه، وسهى [عمرو](٣) جعله ساهياً ماله أو جهله، وأهرع معناه: أهرعه خوفه ورعبه، فلهذه العلة خرج هؤلاء الأسماء مخرج المفعول به.

قوله تعالى: ﴿ومن قبل كانوا يعملون السيئات﴾ أي: ومن قبل مجيئهم إلى لوط، أي: ومن قبل ذلك الوقت كانوا يعملون السيئات من إتيان الذكور وغيرها من أنواع الفواحش مجاهرة، حتى صارت لهم دَيْدناً وعادة، لا يردعهم حياء، ولا يزجرهم زاجر، وكذلك جاؤوا يهرعون مجاهرين.

﴿قال﴾ لوط عليه السلام: ﴿يا قوم هؤلاء بناتي﴾ المعنى: فتزوجوهن، وأراد ابنتيه -في قول ابن عباس(٤)- فأوقع الجمع على الاثنين، كما في قوله: ﴿وكنا لحكمهم شاهدين﴾ [الأنبياء:٧٨]، أراد ابنتيه منضمتين إلى نساء أمته، -وهو قول أكثر المفسرين(٥)-، إذ كل نبي أبو أُمَّتِه.

قال الحسن: كان تزويج المسلمات من الكفار جائز(٦).

---

(١) انظر: زاد المسير (٤/ ١٣٧).

(٢) زيادة من زاد المسير، الموضع السابق.

(٣) مثل السابق.

(٤) الماوردي (٢/ ٤٨٨)، وزاد المسير (٤/ ١٣٧).

(٥) مثل السابق.

(٦) الماوردي (٢/ ٤٨٨)، وزاد المسير (٤/ ١٣٨).

قال الزمخشري[١]: وقد زَوَّجَ النبي ﷺ قبل الوحي ابنتيه من أبي العاص بن وائل وعتبة بن أبي لهب.

وهذا خطأ فاحش؛ لأن ابن وائل هو العاص، وزوج بنت رسول الله ﷺ إنما هو أبو العاص بن الربيع.

وقال الزجاج[٢]: عرض ذلك عليهم بشرط إسلامهم.

﴿هن أطهر لكم﴾ قال مقاتل[٣]: أحل لكم من إتيان الرجال.

وقوله: «هؤلاء» مبتدأ، و «بناتي» عطف بيان، «وهن» فصل، و «أطهر» خبر للمبتدأ[٤].

ولم يجز النصب في «أطهر»، وقد قرأ به محمد بن مروان وعيسى بن عمر[٥].

وقال الزجاج[٦]: لا يجيز هذا أحد من البصريين، ويجيزه غيرهم.

وقال غيره في توجيه هذه القراءة: «هؤلاء» مبتدأ، و «بناتي» ابتداء ثان، «وهن» خبره. والجملة خبر المبتدأ الأول، و «أطهر» نصب على الحال، والعامل في الحال معنى الإشارة[٧]، كما تقول: هذا زيد قائماً.

﴿فاتقوا الله﴾ بإيثارهن عليهم ﴿ولا تُخْزُونِ﴾ أي: تفضحوني، ولا تفعلوا فعلاً

---

(١) الكشاف (٢/ ٣٩٠).

(٢) معاني الزجاج (٣/ ٦٧).

(٣) تفسير مقاتل (٢/ ١٢٦).

(٤) التبيان (٢/ ٤٣)، والدر المصون (٤/ ١١٧).

(٥) البحر المحيط (٥/ ٢٤٧).

(٦) معاني الزجاج (٣/ ٦٧).

(٧) الدر المصون (٤/ ١١٨).

أستحيي منه، والعرب تقول: قد خَزِيَ الرّجل يَخْزى خِزَايـة؛ إذا اسـتحيى، فهـو خَزْيان، وامرأة خَزْيا[١]، ومنه الحديث: «غير خزايا»[٢]. ونقلتُ تصريف اللغة في «الخزي» في البقرة، والجمع: خزايا. قال الشاعر:

مِنَ البيض لا تخزي إذا الريح ألصقت ... بها مرطها أو زايل الحلي جيدها[٣]

﴿في ضيفي﴾ أي: في حق ضيفي، وهو اسم يقع على الواحد والجمع، تقول: رجل ضيف، ورجلان ضيف، وقوم ضيف، وكذلك المؤنث، ويقال أيضاً في الجمع: أضياف، وضيوف، وضيفان، والأول أصح. قال الشاعر:

إِذا جَاءَ ضَيْفٌ جَاءَ لِلضَّيفِ ضَيْفَنٌ ... فَأَوْدَى بِمَا يُقْرِى الضُّيُوفُ الضَّيَافِنُ[٤]

الضَّيْفَن: ضَيْفُ الضَّيْف.

﴿أليس منكم رجل رشيد﴾ في نفسه يهتدي إلى فعل الجميل وترك القبيح، أو رشيد يهديكم ويأمركم بالمعروف وينهاكم عن المنكر.

﴿قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق﴾ قال ابن عباس: من حاجة[٥].

وقال ابن إسحاق وابن قتيبة[٦]: المعنى: لسن لنا بأزواج فنستحقَّهن[٧].

---

(١) انظر: اللسان (مادة: خزا).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١/ ٢٤٣) من حديث طويل.

(٣) انظر البيت في: القرطبي (٩/ ٧٧)، وزاد المسير (٤/ ١٣٩).

(٤) انظر البيت في: اللسان، مادة: (ضيف، ضفن).

(٥) الماوردي (٢/ ٤٨٩) من قول الكلبي، وزاد المسير (٤/ ١٣٧).

(٦) تفسير غريب القرآن (ص:٢٠٧).

(٧) أخرج نحوه الطبري (١٢/ ٨٦)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٦٣). وانظر: الوسيط (٢/ ٥٨٣)، والماوردي (٢/ ٤٨٩)، وزاد المسير (٤/ ١٣٩).

وقيل: لما اتخذوا إتيان الذكور مذهباً وتوطؤا عليه، كان عندهم هو الحق، ونكاح الإناث هو الباطل، فلذلك قالوا: «ما لنا في بناتك من حق». أو يكون ذلك منهم على مذهب الخلاعة، ألا ترى إلى قولهم: ﴿وإنك لتعلم ما نريد﴾ إشارة إلى عملهم الخبيث.

﴿قال لو أن لي بكم قوة﴾ جوابه محذوف، تقديره: لو أن لي بكم قوة بنفسي أو بجماعة ينصرونني ﴿أو آوي إلى ركن شديد﴾ عشيرة عزيزة منيعة لحُلْتُ بينكم وبين ما اجترأتم عليه من الجرائم.

قال قتادة: ذكر لنا أنه لم يبعث الله تعالى نبياً قط بعد لوط إلا في عزّ من قومه[١].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ((رحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد))[٢].

وفي رواية للبخاري: ((يغفر الله تعالى للوط))[٣].

ويروى أن الملائكة قالت له: إن ربك لشديد، فافتح الباب ودعنا وإياهم.

قال ابن عباس: كان لوط عليه السلام قد أغلق بابه وقومه يعالجونه،

---

(١) أخرجه الطبري (١٢/ ٨٨) عن قتادة. وأخرجه البخاري في الأدب (٦/ ٢١٢)، والترمذي (٥/ ٢٩٣)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٦٤)، والحاكم (٢/ ٦١١) كلهم عن أبي هريرة. وأخرجه سعيد بن منصور في سننه (٥/ ٣٥٧) عن ابن عباس. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٥٩) وعزاه لابن جرير عن قتادة. ومن طريق آخر عن ابن عباس، وعزاه لسعيد بن منصور وأبي الشيخ. ومن طريق آخر عن أبي هريرة، وعزاه للبخاري في الأدب والترمذي وحسّنه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه.

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١٧٣١ ح٤٤١٧)، ومسلم (١/ ١٣٣ ح١٥١).

(٣) أخرجه البخاري (٣/ ١٢٣٥ ح٣١٩٥).

ويتسوّرون عليه الجدار، ولوط يجادلهم ويعظهم، فلما رأت الملائكة ما يلقى من الكرب ﴿قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك﴾، فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب فدخلوا، فاستأذن جبريل عليه السلام ربه في عقوبتهم، فأذن له، فضرب بجناحه وجوههم فأعماهم، وذلك قوله: ﴿ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم﴾ [القمر:٣٧]، فانصرفوا يقولون: النجاء النجاء، فإن في بيت لوط أسحر قوم في الأرض، وجعلوا يقولون: يا لوط كما أنت حتى نصبح، وجعلوا يهددونه ويتوعدونه، فقال لهم لوط: متى موعد هلاكهم، قالوا: الصبح، قال: لو أهلكتموهم الآن. قالوا: أليس الصبح بقريب[1]؟.

قوله تعالى: ﴿فأسر بأهلك﴾ قرأ الحرميان: «فَاسْرِ» بوصل الهمزة حيث وقع، من سرى.

قال الشاعر:

سَرَيْتُ بِهِمْ حَتَّى تَكِلَّ مَطِيُّهُم ... وَحَتَّى الجِيادُ مَا يُقَدْنَ بِأَرْسَانِ[2]

وقرأ الباقون بقطع الهمزة، مِنْ أَسْرى[3].

قال النابغة:

---

(١) زاد المسير (٤/ ١٤٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٦١) وعزاه لابن أبي الدنيا في كتاب العقوبات.

(٢) البيت لامرئ القيس. انظر: ديوانه (ص:٩٣)، واللسان، مادة: (غزا، مطا)، والطبري (٢/ ٣٤٢)، وزاد المسير (٤/ ١٤١)، وروح المعاني (٤/ ٢٠٥).

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٤١٣)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٤٧)، والكشف (١/ ٥٣٥)، والنشر (٢/ ٢٩٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٩)، والسبعة في القراءات (ص:٣٣٨).

أَسْرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الجَوْزَاءِ سَارِيَةٌ [تُزْجِي][1] الشَّمالُ عَلَيْهِ جَامِدَ البَرَدِ[2]

قال أبو مالك[3]: لم يُؤْمِنْ بلوط إلا ابنتاه[4].

﴿بقطع من الليل﴾ أي: بطائفة منه.

قال ابن الأنباري[5]: ذِكْرُ القِطَع بمعنى القطعة مختص بالليل، لا يقال: عندي قِطَع من الثوب بمعنى قطعة.

﴿ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «امرأتُك» بالرفع، وقرأ الباقون بالنصب[6].

فمن نَصَبَ فعلى معنى: فأسر بأهلك إلا امرأتك. ويؤيده تفسير ابن عباس، فإنه قال: المعنى: لا يتخلف منكم أحد[7].

---

(١) في الأصل: ترخي. والتصويب من مصادر البيت.

(٢) البيت للنابغة. انظر: ديوانه (ص:٣١)، واللسان، مادة: (زجا، سرا)، ومجمل اللغة (٣/ ٤٧٩)، والحجة للفارسي (٢/ ٤١٣)، والتمهيد لابن عبد البر (٦/ ٣٩٠)، والقرطبي (٩/ ٧٩، ١٠/ ٢٠٥، ١٢/ ٢٨٨)، وزاد المسير (٤/ ١٤١).

والسارية: السحابة التي تسري ليلاً، وجمعها: السواري.

وزجى الشيء وأزجاه: ساقه ودفعه.

والجوزاء: أحد بروج السماء.

(٣) في الوسيط: ابن مالك.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٨٤).

(٥) انظر: زاد المسير (٤/ ١٤٢).

(٦) الحجة للفارسي (٢/ ٤١٤)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٤٧-٣٤٨)، والكشف (١/ ٥٣٦)، والنشر (٢/ ٢٩٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٩)، والسبعة في القراءات (ص:٣٣٨).

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٦٥). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٤٢)، والسيوطي في

وهو قول جماعة من أهل العلم، فإنهم قالوا: لم تخرج معه، أو يكون على أصل الباب في الاستثناء.

ومن رَفَعَ فعلى البدل مِنْ «أَحَد».

وقال ابن الأنباري[1]: يكون الاستثناء على قراءة من رفع منقطعاً، معناه: لكن امرأتك فإنها تلتفت، فيصيبها ما أصابهم.

قال مجاهد ومقاتل[2]: هو الالتفات المعروف[3].

قال قتادة: ذُكِرَ لنا أنها كانت مع لوط حين خرج من القرية، فلما سمعت هَدَّةَ العذاب الْتَفَتَتْ، فقالت: وا قوماه! فأصابها حَجَرٌ فأهلكها، وهو قوله: ﴿إنه مصيبها ما أصابهم﴾[4].

فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى: ﴿جعلنا عاليها سافلها﴾ يعني: المؤتفكات قرى قوم لوط، وكانت من خمس قرى، أعظمها: سدوم.

قال ابن عباس وغيره: أمر جبريلُ لوطاً بالخروج، فقال: اخرج وأخرج

= الدر المنثور (٢/ ٢٦٢) وعزاه لابن أبي حاتم.

(١) انظر: زاد المسير (٤/ ١٤٢).

(٢) تفسير مقاتل (٢/ ١٢٧).

(٣) زاد المسير (٤/ ١٤٢).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٦٦). وانظر: الوسيط (٢/ ٥٨٤)، وزاد المسير (٤/ ١٤٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٦٢) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

غنمك وبقرك، فقال: كيف لي بذلك وقد أُغْلِقَتْ أبوابُ المدينة، فبسط جناحه فحمله وبنتيه وما لهم من شيء فأخرجهم من المدينة، وسأل جبريل ربه أن يولّيه إهلاكهم، فولاّه ذلك، فلما بدا الصبح غدا عليهم جبريل فاقتلع أرضهم من سبع أرضين، فاحتملها حتى بلغ بها السماء الدنيا، حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة، ثم قَلَبَها عليهم، وجعل يتبعُ مسافرتهم ومن تحول عن قراهم، فرماهم بالحجارة(١).

قوله تعالى: ﴿وأمطرنا عليها حجارة من سجيل﴾ قال الضحاك: يعني الآجر(٢).

قال ابن عباس: هي معرّبة من (سَنْك) و(كِلْ). السَّنْك: الحجر، والكِلْ: الطين. وهذا قول أكثر العلماء(٣).

وقال عكرمة: «سِجِّيل»: بحر معلق في الهواء(٤). مِنْ أَسْجَلْته؛ إذا أَرْسَلْته، وكأنها مُرْسَلَة عليهم(٥).

---

(١) أخرجه الطبري مجزءاً (١٢/ ٩٧-٩٨). وكذلك عند ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٦٦-٢٠٦٧). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٤٣)، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٦٢-٤٦٣).

(٢) زاد المسير (٤/ ١٤٤).

(٣) أخرجه الطبري (١٢/ ٩٤)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٦٨)، وابن أبي شيبة (٦/ ١٢٢). وانظر: الوسيط (٢/ ٥٨٤)، وزاد المسير (٤/ ١٤٤). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٦٣-٤٦٤) وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) زاد المسير (٤/ ١٤٤).

(٥) انظر: اللسان (مادة: سجل).

وقال بعضهم: مِنْ أَسْجَلْت؛ إذا أَعْطَيت، وجعله من السَّجْل، وهو الدَّلْو[١]، وأنشد بيت الفضل بن العباس:

مَنْ يُسَاجِلْني يُسَاجِلْ مَاجِداً يَمْلأُ الدَّلْوَ إلى عَقْدِ الكَرَبِ[٢]

وقيل: «من سجيل»: أي: من سِجِلّ، بما كُتِبَ لهم[٣]، وهذا القول إذا فُسِّر فهو أثبتها[٤]؛ لأن في كتاب الله دليلاً عليه. قال الله تعالى: ﴿كلا إن كتاب الفجار لفي سجين﴾[٥] [المطففين:٧].

قال الزجاج[٦]: وسجيل في معنى سجين، وهذا أحسن ما مَرَّ فيها عندي.

وقال ابن عباس وغيره في قوله: ﴿منضود﴾: يَتْبَعُ بعضُها بعضاً كالمطر[٧].

﴿مسوّمة﴾ أي: مُعَلَّمَة بعلامة تُعرف بها أنها ليست من حجارة الدنيا.

قال ابن عباس في رواية أبي صالح: كانت مخططة بالسواد والحمرة[٨].

قال قتادة: كان بها نضحٌ من حمرة فيها خطوط حمر على هيأة الجزع[٩].

---

(١) انظر: اللسان (مادة: سجل).

(٢) البيت للفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب. وهو في: اللسان، مادة: (سجل)، والطبري (١٢/ ٩٤)، والقرطبي (٩/ ٨٢، ١١/ ٣٤٧)، وفتح القدير (٢/ ٥١٦).

(٣) في اللسان: من سجيل: كقولك: من سِجِلٍّ، أي: ما كتب لهم.

(٤) في اللسان: أبينها.

(٥) انظر: اللسان، (مادة: سجل).

(٦) معاني الزجاج (٣/ ٧٢).

(٧) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٨٤)، وزاد المسير (٤/ ١٤٥).

(٨) زاد المسير (٤/ ١٤٥).

(٩) أخرجه الطبري (١٢/ ٩٦)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٦٩). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٦٤) وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وأبي الشيخ.

قال الربيع بن أنس: كان على كل حجر منها اسم صاحبه[١].

وحكي عن بعض من رآها قال: كانت مثل رأس الإبل، ومثل مبارك الإبل، ومثل قبضة الرجل.

قوله تعالى: ﴿عند ربك﴾ أي: في خزائنه التي لا يُتصرف فيها إلا بإذنه.

﴿وما هي﴾ يعني: الحجارة ﴿من الظالمين ببعيد﴾ قال قتادة: والله ما أجار الله تعالى منها ظالماً بعد قوم لوط[٢].

وفي هذا تهديد وتخويف لكفار قريش وغيرهم.

وقيل: الضمير في قوله: «هي» لقرى قوم لوط. أي: وما القرى من ظالمي أهل مكة بمكان أو بشيء بعيد، فإنهم يمرون عليها في أسفارهم وينظرون إلى آثارهم.

﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ولا تنقصوا المكيال والميزان﴾ كان من شأنهم التطفيف في الكيل والبخس في الميزان، فنهاهم شعيب عليه السلام عن ذلك مذكراً لهم بنعم الله

---

(١) زاد المسير (٤/ ١٤٦).

(٢) أخرجه الطبري (١٢/ ٩٦)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٧٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٦٥) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

عليهم ومخوفاً لهم من عقابه فقال: ﴿إني أراكم بخير﴾ يريد كثرة الأموال وسعة الأرزاق. والمعنى: فأي ضرورة بكم إلى التطفيف والبخس.

﴿وإني أخاف عليكم﴾ إن أصررتم على ذلك ﴿عذاب يوم محيط﴾ أي: مهلك. من قوله تعالى: ﴿وأحيط بثمره﴾ [الكهف:٤٢] وأصله من إحاطة العدو.

قال ابن عباس ومجاهد: المراد بالعذاب: القحط وغلاء الأسعار[١].

وقال مقاتل[٢]: المراد به: اليوم الذي أصابهم فيه العذاب.

وقيل: يوم القيامة.

﴿ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط﴾ أتموها بالعدل.

قال صاحب الكشاف[٣]: إن قلت: النهي عن النقصان أمر بالإيفاء، فما فائدة قوله: «أوفوا»؟

قلت: نهوا أولاً عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان؛ لأن في التصريح بالقبيح نعياً على المنهي وتعييراً له، ثم ورد الأمر [بالإيفاء][٤] الذي هو حسن في العقول مصرحاً بلفظه، لزيادة ترغيب فيه وبعث عليه، وجيء به مقيداً بالقسط، أي: ليكن [الإيفاء][٥] على وجه العدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان.

---

(١) أخرجه الطبري (١٢/ ٩٨). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٦٦) وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ.

(٢) تفسير مقاتل (٢/ ١٢٨).

(٣) الكشاف (٢/ ٣٩٤).

(٤) في الأصل: بالأفاء. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

(٥) في الأصل: الإفاء. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ بنقص المكيال والميزان. وقد سبق ذكر «العُثُو» في البقرة.

وهذا إشارة إلى أن نقص المكيال والميزان والبخس من العثو في الأرض، وهو شدة الفساد. والتقدير: لا تتمادوا في الفساد في حال فسادكم.

قوله تعالى: ﴿بقيت الله خير لكم﴾ قال ابن عباس: يعني: ما أبقى الله تعالى لكم من الحلال بعد تمام الكيل والوزن خير من البخس والتطفيف(١).

وقال مجاهد: «بقيّت الله»: طاعة الله خير لكم(٢)، وهذا كقوله: ﴿والباقيات الصالحات﴾ [الكهف:٤٦].

وقرأ الحسن: «تقية الله» بالتاء المعجمة من فوق بنقطتين(٣).

قوله تعالى: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ إعلام بأن الطاعة -على قول مجاهد-، والتقوى -على قراءة الحسن- لا تنفع ولا تجدي خيراً إلا بشرط الإيمان.

فإن قيل: فما معنى اشتراطه -على قول ابن عباس- مع العلم أن الحلال خير لهم، ولو كانوا كفاراً؛ لما يستلزم من خلاصهم من إثم الحرام؟

قلت: شرط الإيمان في كونه خيراً لهم؛ لأنهم به يَعرفون كونه خيراً لهم، أو لأن بالإيمان تمام الخير، وهو الفوز بالجنة، والنجاة من النار.

ويجوز أن يكون المعنى: إن كنتم مصدقين بما أقول لكم.

---

(١) الطبري (١٢/ ١٠٠)، والوسيط (٢/ ٥٨٦)، وزاد المسير (٤/ ١٤٨).

(٢) أخرجه الطبري (١٢/ ١٠٠)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٧٢)، ومجاهد (ص:٣٠٨). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٦٦) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٩).

﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ أحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم عليها، وإنما بعثت مبلغاً ومنذراً لا مكرهاً مجبراً.

قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾

﴿قالوا يا شعيب أصلواتك﴾ وقرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر: «أصلاتك» على التوحيد[١].

﴿تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا﴾ قال عطاء: يريد: أدينك يأمرك[٢]، فَكَنَّى عن الدين بالصلوات؛ لاشتماله عليها، وكونها أعظم شعائره وأظهر أعلامه، وكان شعيب عليه السلام كثير الصلاة.

قال صاحب الكشاف[٣]: ساقوا الكلام مساق الطَّنْز[٤]، وجعلوا الصلاة آمرة على سبيل التهكم بصلاته، وأرادوا أن هذا الذي تأمر به من ترك عبادة الأوثان باطل لا وجه لصحته.

والمعنى: تأمرك بتكليف أن [نترك][٥] ما يعبد آباؤنا، فحذف المضاف الذي هو التكليف؛ لأن الإنسان لا يؤمر بفعل غيره.

﴿أو أن نفعل﴾ عطف على ما بعد التعذيب أن نترك عبادة آباءنا وفعل ما نشاء

---

(١) الحجة لابن زنجلة (ص:٣٤٨)، والنشر (٢/ ٢٩٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٥٩).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٨٦)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٤٩).

(٣) الكشاف (٢/ ٣٩٥-٣٩٦).

(٤) الطَّنْز: السخرية (اللسان، مادة: طنز).

(٥) في الأصل: تترك.

﴿في أموالنا﴾ من البخس والتطفيف والتصرف في الدراهم بالكسر.

ولأن قوله: «أو أن نفعل» معطوفاً على «أن نترك»؛ لأنه لو كان معطوفاً عليه لكان المعنى: أصلواتك تأمرك بأخذ هذين، وليس هو وجه الكلام، وإنما وجهه ومعناه: أصلواتك تأمرك بتركنا هذين. و «أو» هاهنا بمنزلتها في قوله: ﴿إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما﴾ [النساء:١٣٥] ولم يقل: به، كما قال: ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً﴾ [النساء:١١٢] وقال: ﴿وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت﴾ [النساء:١٢] ولم يقل: ولهما.

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي وابن أبي عبلة والضحاك: «أو أن تفعل في أموالنا ما تشاء» بتاء الخطاب فيهما[(١)].

وقرأ الضحاك بن قيس الفهري: «نفعل» بالنون «تشاء» بالتاء[(٢)].

قال سفيان الثوري في تفسير هذه القراءة: أمرهم بالزكاة فامتنعوا[(٣)].

﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ قال الزمخشري[(٤)]: نسبوه إلى غاية السفه والغي، فعكسوا ليتهكموا به، كما يُتهكم بالشحيح الذي لا يبض حجره، فيقال له: لو أبصرك حاتم لسجد لك. وإلى هذا المعنى ذهب ابن عباس وجمهور المفسرين وأرباب المعاني.

وقال ابن كيسان: هو على الصحة، أي: يا شعيب إنك فينا حليم رشيد، فليس

---

(١) زاد المسير (٤/ ١٥٠).

(٢) مثل السابق.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٧٣). وانظر: الماوردي (٢/ ٤٩٦)، وزاد المسير (٤/ ١٥٠).

(٤) الكشاف (٢/ ٣٩٦).

يجمل بك شقك عصا قومك ولا مخالفتهم، كقول ثمود: ﴿يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا﴾[١].

قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي﴾ سبق تفسيره[٢].

﴿ورزقني منه﴾ أي: من عنده، ﴿رزقاً حسناً﴾ وهو الحكم والنبوة.

وقال ابن عباس وجمهور المفسرين: هو كثرة المال من الوجه الحلال[٣]. وجوابه محذوف لدلالة الكلام عليه.

المعنى: أخبروني إن كنتُ على حجة واضحة من ربي وكنت نبياً؛ أيصح ألاَّ آمركم بترك عبادة الأوثان والكف عما لا يجوز؟ والأنبياء إنما يبعثوا لذلك.

﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ من التطفيف وغيره، فأستبدُّ به وأنفردُ بنيل لذّته. تقول: خَالَفْتُ فلاناً إلى كذا؛ إذا قَصَدْته وهو مُعْرِضٌ عنه، وخَالَفْتُهُ عن كذا؛ إذا أَعْرَضْتَ عنه وهو قاصِده.

﴿إن أريد إلا الإصلاح﴾ ما أريد بما أمرتكم به ونهيتكم عنه إلا إصلاحكم.

---

(١) زاد المسير (٤/ ١٥٠).

(٢) عند تفسير الآية رقم (٢٨).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٧٣) عن الضحاك. وانظر: الوسيط (٢/ ٥٨٦)، وزاد المسير (٤/ ١٥١). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٦٧) وعزاه لابن أبي حاتم عن الضحاك.

قوله تعالى: ﴿ما استطعت﴾ ظرف، أي: في مدة استطاعتي لإصلاحكم، أو بدل من الإصلاح. أي: المقدار الذي استطعته منه. ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف على معنى: إن أريد إلا الإصلاح إصلاح ما استطعت.

﴿وما توفيقي إلا بالله﴾ أي: ما توفيقي في إصابة الحق وإرادة الإصلاح إلا بالله، أي: بعونه وتأييده.

﴿عليه توكلت﴾ في دفع أذاكم وما توعدوني به من قولكم: «لنخرجنك يا شعيب»، ﴿وإليه أنيب﴾ أرجع يوم المعاد.

ويجوز عندي أن يكون المعنى: وإليه أنيب في أموري كلها، واتقاء بنصرته وتدبيره، راضياً بقضائه وتقديره.

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾﴾

﴿ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي .. الآية﴾ قال الزجاج[١]: لا تكسبنَّكُم عداوتكم إيَّايَ، ﴿أن يصيبكم﴾ عذاب العاجلة ﴿مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح﴾.

قال الزمخشري[٢]: وقرأ ابن كثير: «يُجرمنكم» بضم الياء، مِنْ أجرمته ذنباً؛ إذا

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ٧٤).

(٢) الكشاف (٢/ ٣٩٨).

جعلته جارماً له، أي: كاسباً، وكما لا فرق بين كسبته [مالاً][١] وأكسبته إياه، فكذلك لا فرق بين جرمته ذنباً وأجرمته إياه، والقراءتان مستويتان في المعنى، إلا أن [المشهورة][٢] أفصح لفظاً، كما أن: كسبته مالاً أفصح مِنْ أكسبته.

والمراد بالفصاحة: أنه على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم أَدْوَر، وهم له أكثر استعمالاً.

﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ أي: بمكان أو بشيء أو زمان بعيد.

قال الزجاج[٣]: كان إهلاك قوم لوط أقرب الإهلاكات التي عرفوها، فكأنه قال لهم: العظةُ في قوم لوط قريبةٌ منكم.

قال صاحب الكشاف[٤]: ويجوز أن يسوى في بعيد وقريب، وقليل وكثير، بين المذكر والمؤنث؛ لورودها على زنة المصادر التي هي الصهيل والنهيق ونحوهما.

﴿إن ربي رحيم﴾ بمن تاب وأناب إليه، ﴿ودود﴾ من قولك: وددت فلاناً أوده وداً، بضم الواو وفتحها وكسرها، وِداداً بكسر الواو وفتحها، ووَدادة بفتح الواو.

وقال الخطابي[٥]: هو اسم مأخوذ من الوُدّ، وفيه وجهان:

أحدهما: أن يكون فَعُولاً في محلّ مَفْعُول، كما قيل: رَجُلٌ هَيُوبٌ، بمعنى:

---

(١) زيادة من الكشاف (٢/ ٣٩٨).

(٢) في الأصل: المشهور. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

(٣) معاني الزجاج (٣/ ٧٤).

(٤) الكشاف (٢/ ٣٩٨).

(٥) شأن الدعاء (ص:٧٤).

مَهِيْب، وفَرَسٌ رَكُوبٌ، بمعنى: مَرْكُوب. فالله تعالى مَوْدُودٌ في قلوب أوليائه، لما يَتَعَرَّفُونَهُ من إحسانه إليهم.

والوجه الثاني: أن يكون بمعنى: الوادّ، أي: أنه يَوَدُّ عباده الصالحين، بمعنى: أنه يرضى عنهم ويتقبل أعمالهم. ويكون معناه: أنه سبحانه وتعالى يُودِّدُهُم إلى خلقه، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿سيجعل لهم الرحمن وُدّاً﴾ [مريم:٩٦].

قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾

﴿قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول﴾ جائز أن يكون هذا على ظاهره، وأنهم لا يفقهون كثيراً من قوله؛ لنفرتهم عنه ومباينتهم له، فأعاروه آذاناً صماً، وقلوباً عمياً قد طبع الله تعالى عليها، ومنع من وصول الخير إليها، فلم تفقه صحة قوله.

وجائز أن يكون فهموه، لكنهم نفوا الفهم لإعراضهم عنه، فكأنهم لذلك لم يفهموه، وقالوا له ذلك على وجه الاستهانة به، كما يقول الرجل لمن يخاطبه وهو لا يريد خطابه ولا يعبأ به: ما أدري ما تقول.

وجائز أن يكون ذلك منهم على وجه النكت له بالتخليط في كلامه، والإيذان بأنه هذيان لا يفهم، كما يقول الرجل اللوذعي الألمعي ذو القلب الأصمعي للبليد البعيد الفهم إذا حدثه بشيء: أنا لا أفهم هذا.

﴿وإنا لنراك فينا ضعيفاً﴾ قال ابن عباس وقتادة: كان أعمى[١].

وقال الزجاج[٢]: ويقال: إن حِمْير تُسمي المكفوف ضعيفاً.

وقال الحسن: «ضعيفاً»: مهيناً ذليلاً[٣].

وهذا هو التفسير الذي تشهد بلاغة القرآن بصحته؛ لأنهم لو أرادوا نعيه بالعمى ورميه به، لم يقل: «فينا»؛ لأن الأعمى أعمى فيهم وفي غيرهم[٤].

قال الزمخشري[٥]: ولذلك قللوا قومه فقالوا: ﴿ولولا رهطك﴾ أي: عشيرتك. والرَّهْطُ: من الثلاثة إلى العشرة. وقيل: إلى السبعة. وإنما قالوا: لولاهم احتراماً لهم واعتداداً بهم؛ لأنهم كانوا على ملتهم، لا خوفاً من شوكتهم وعزتهم، ﴿لرجمناك﴾ أي: لقتلناك بالحجارة شر قتلة.

وذكر بعضهم: أن المعنى: لشتمناك وآذيناك.

---

(١) أخرجه الطبري (١٢/ ١٠٦)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٧٦) كلاهما عن سعيد بن جبير.
وأخرجه ابن أبي حاتم أيضاً من طريق آخر عن ابن عباس بلفظ: "كان ضرير البصر".
وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٢٠) عن ابن عباس. وانظر: الوسيط (٢/ ٥٨٧)، وزاد المسير (٤/ ١٥٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٧٠) وعزاه لأبي الشيخ وابن عساكر من طريق سعيد بن جبير. ومن طريق آخر عن ابن عباس، وعزاه لابن أبي حاتم والحاكم وصححه والخطيب وابن عساكر.

(٢) معاني الزجاج (٣/ ٧٤).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٧٦). وانظر: الماوردي (٢/ ٤٩٩)، وزاد المسير (٤/ ١٥٢).

(٤) الأصل سلامة الأنبياء من العيوب التي تقلل من عملهم في أداء الرسالة، ولا شك أن العمى من تلك العيوب، ورجح المؤلف رواية الحسن البصري لأن ذلك التفسير تشهد بلاغة القرآن الكريم بصحته، وهو مقتضى كمال رسل الله صلوات الله عليهم خلقاً وخلقاً.

(٥) الكشاف (٢/ ٣٩٩).

والأول أظهر وأشهر.

﴿وما أنت علينا بعزيز﴾ أي: بممتنع علينا.

وقيل: ما أنت علينا بكريم فنُعِزّ فعلك ونحترمك عن أن نرجمك، وإنما يعز علينا رهطك.

﴿قال يا قوم أرهطي أعزّ عليكم من الله﴾ المعنى: أتراعون رهطي إكراماً[١] لهم واحتراماً، ولا تراعون الله تعالى في رسوله المبعوث إليكم بأمره ونهيه[٢].

﴿واتخذتموه وراءكم ظهرياً﴾ قال الفراء[٣]: المعنى: رميتم بأمر الله وراء ظهوركم.

قال الزجاج[٤]: والعرب تقول لكلّ من لا يعبأ بأمرٍ: قد جعل فلانٌ هذا الأمر [بظهره][٥].

[قال الشاعر:

---

(١) في الأصل زيادة قوله: أكرماً.

(٢) فائدة: قال الإمام الشوكاني في فتح القدير (٢/ ٥٢٠): إنما قال «أعز عليكم من الله» ولم يقل: أعز عليكم مني؛ لأن نفي العزة عنه وإثباتها لقومه كما يدل عليه إيلاء الضمير حرف النفي استهانة به، والاستهانة بأنبياء الله استهانة بالله عز وجل، فقد تضمن كلامهم أن رهطه أعزّ عليه من الله، فاستنكر ذلك عليهم وتعجب منه، وألزمهم ما لا مخلص لهم عنه ولا مخرج لهم منه بصورة الاستفهام. وفي هذا من قوة المحاجة، ووضوح المجادلة، وإلقام الخصم الحجر، ما لا يخفى، ولأمر ما سمى شعيب خطيب الأنبياء.

(٣) معاني الفراء (٢/ ٢٦).

(٤) معاني الزجاج (٣/ ٧٥).

(٥) في الأصل وزاد المسير: بظهر. والتصويب من معاني الزجاج، الموضع السابق.

تميمَ ابن قيس لا تكُونَنَّ حَاجَتي بظَهْرٍ][1] فلا يَعْيَا عَلَيَّ جَوابُها[2]

قال ابن عباس: ألقيتموه خلف ظهوركم وامتنعتم من قتلي مخافة قومي والله أعز وأكبر من جميع خلقه[3].

وما بعده سبق تفسيره إلى قوله تعالى: ﴿سوف تعلمون﴾.

إن قيل: لم أسقط الفاء هاهنا وأثبتها في موضع آخر؟

قلت: قال ابن الأنباري وغيره[4]: كلا الأمرين حسن عند العرب، إن أدخلوا الفاء دلوا على اتصال ما بعد الكلام بما قبله، وإن أسقطوها بنوا الكلام الأول على أنه قد تم، وما بعده مستأنف، كقوله: ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزءاً﴾ [البقرة:٦٧] والمعنى: فقالوا، فحذفت الفاء لتمام ما قبلها. قال امرؤ القيس:

فقالت يمين الله ما لكَ حيلةٌ وما إن أرى عنك الغواية تنجلي

خرجتُ بها أمشي تجرُّ وراءنا على إثرنا أذيال مرْطٍ مُرَحَّل[5]

أراد: فخرجت، فأسقط الفاء لتمام ما قبلها.

ويروى: فقمت بها أمشي.

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من معاني الزجاج (٣/ ٧٥).

(٢) البيت للفرزدق. وهو في: اللسان، مادة: (حوب)، والكامل للمبرد (١/ ٢٩١)، وذيل الأمالي (ص:٧٧)، وزاد المسير (١/ ٥٢١، ٤/ ١٥٣)، وروح المعاني (١/ ٣٣٧).

(٣) أخرج نحوه الطبري (١٢/ ١٠٦)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٧٧). وانظر: الوسيط (٢/ ٥٨٧).

(٤) انظر: زاد المسير (٤/ ١٥٣-١٥٤).

(٥) البيتان لامرئ القيس. انظر ديوانه (ص:١٤)، وزاد المسير (٤/ ١٥٤). وانظر البيت الثاني في: تأويل مختلف الحديث (١/ ١٧٧)، وتنوير الحوالك (١/ ١٨)، وروح المعاني (٢/ ٩٨).
ومَرْطٌ مُرَحَّل: إزار خز فيه عَلَم، سمي مُرَحّلاً؛ لأن عليه تصاوير الرّحال (اللسان، مادة: رحل).

وكشف صاحب الكشاف النقاب عن وجه المعنى ببراعته قرطين في البلاغة بسهم إصابته، فقال[١]: إدخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل، ونزعها وصل خفي تقديري بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدر، كأنهم قالوا: فماذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت، فقال: [سوف][٢] تعلمون، فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف، للتفنن في البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف، وهو باب من أبواب علم البيان تتكاثر محاسنه.

﴿وارتقبوا﴾ انتظروا ما أعول لكم، ﴿إني معكم رقيب﴾ منتظر نزول العذاب المخزي بكم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ارتقبوا العذاب، إني مرتقب من الله الرحمة والثواب[٣].

وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

قوله تعالى: ﴿وأخذت الذين ظلموا الصيحة﴾ قال محمد بن كعب: عذب أهل مدين بثلاثة أصناف من العذاب؛ أخذتهم رجفة في ديارهم حتى خافوا أن

---

(١) الكشاف (٢/ ٤٠٠).

(٢) في الأصل: فسوف. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٨٧)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٥٤).

تسقط عليهم، فخرجوا منها فأصابهم حرّ شديد، فبعث الله تعالى الظلّة [فتنادوا](١): هلمّوا إلى الظلّ، فدخلوا جميعاً إلى الظلّة، فَصِيحَ بهم صيحة واحدة فماتوا كلهم(٢).

فإن قيل: لم جاء هاهنا ﴿وأخذت الذين ظلموا الصيحة﴾ وجاء في الأخرى قبلها: ﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة﴾؟

قلت: قد سبق في مواضع أن الفعل إذا حَصَلَ فجائز التذكير والتأنيث، والتذكير عندهم أحسن طلباً للخفة، غير أنك إذا تدبرت هذا الجائز لا تراه منفكاً عن مطابقة ومشاكلة تزيده حسناً ومذهباً مقصوداً في باب البلاغة والفصاحة، فقال سبحانه وتعالى هاهنا: ﴿وأخذت﴾؛ لأن بعدها ﴿كما بعدت ثمود﴾. وقال: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾ [الحج:٤٦] ولم يقل: فيكون، لقوله: «بها». وقوله: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ [الحج:٤٦] فكل ذلك مؤنث، فلذلك كان التأنيث في قوله: «فتكون» أحسن. وقال تعالى: ﴿وتغشى وجوههم النار﴾ [إبراهيم:٥٠] فجاء بالتاء مع الفعل لقوله: ﴿يوم تبدل الأرض﴾ [إبراهيم:٤٨]، فاعتبرْ بهذا التقدير ما يرد عليك في كتاب الله تعالى من هذا النوع، فإنه كثير الوقوع، وتدبرْه على الوجه المذكور من طلب المطابقة والمشاكلة، تجده إن شاء الله على ما بيّنته وذكرته.

وقيل: إنما اختير في قصة شعيب التأنيث؛ لأن الله تعالى أخبر عن هلاك قوم شعيب بثلاثة ألفاظ منها: «الرجفة» في قوله تعالى في قصته في الأعراف:

---

(١) في الأصل: فنادوا. والتصويب من زاد المسير (٤/ ١٥٤).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٧٩). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٥٤).

﴿فأخذتهم الرجفة﴾ [٧٨]، ومنها «الصيحة» هاهنا، ومنها «الظلّة» في الشعراء: ﴿فأخذهم عذاب يوم الظلة﴾ [١٨٩].

وجاء في التفسير أن الثلاث جمعت لهم، بدأت بهم الرجفة فأضجروا، فنالهم حرّ الشمس فرأوا الظلّة فبادروا إليها، فجاءتهم الصيحة فَهَمَدوا. فلهذا المعنى اختير التأنيث في قصته دون قصة صالح.

وما لم أفسّره هاهنا فهو مفسّر فيما سبق.

قوله تعالى: ﴿كما بعدت ثمود﴾ يقال: بَعِدَ يَبْعَدُ مثل: عَهِدَ يَعْهَدُ، وبَعُدَ يَبْعُدُ بضم العين فيهما، وبها قرأ أبو عبدالرحمن السلمي(١)، والمعنى واحد.

وقال ابن الأنباري(٢): العرب تقول: بَعُدَ الطريق يَبْعُدُ، وبَعِدَ الميت يَبْعَدُ؛ إذا هَلَكَ، والمصدر فيهما: البُعد.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

قوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾ أي: بعلاماتنا الشاهدة بنبُوَّته ﴿وسلطان مبين﴾ حجة ظاهرة، وهي العصا، وكانت أظهرَ حجة وأبهرها، وأوضحَ معجزاته وأشهرها.

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٢٥٧).

(٢) انظر: الوسيط (٢/ ٥٨٧).

﴿فاتبعوا أمر فرعون﴾ حين دعاهم إلى اتخاذه إلهاً، ﴿وما أمر فرعون برشيد﴾ بل هو ضلال مكشوف ظاهر لمن له أدنى مُسْكَة من عقل، فهذا تجهيل للذين شايعوه وتابعوه على أمره مع وضوح بطلانه، وبعدما شاهدوا تلك الآيات وذلك السلطان المبين.

﴿يقدم قومه يوم القيامة﴾ أي: يمشي أمامهم إذا سيقوا إلى جهنم، كما كان يَقْدُمهم في الضلال. يقال: قَدَمَه يَقْدُمُهُ قداماً وقُدُوماً؛ إذا تَقَدَّمَهُ[(١)].

﴿فأوردهم النار﴾ جاء به على نظم الماضي للقطع بكونه، كأنه قيل: فيوردهم النار لا محالة، ﴿وبئس الورد المورود﴾ الموضع أو الشيء الذي ترده.

قال ابن الأنباري: تلخيصه: بئس الشيء الذي يورد النار.

وقال الزمخشري[(٢)]: «الوِرْد»: المورود، و[«المورود»][(٣)]: الذي وردوه، [شبه][(٤)] بالفارط الذي يتقدم الواردة إلى الماء، وشبه أتباعه بالواردة، ثم قيل: بئس الورد الذي يردونه النار؛ لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد، والنار ضده.

﴿وأتبعوا في هذه لعنة﴾ أي: في هذه الدنيا لعنة، وهي الغرق ﴿ويوم القيامة﴾ عذاب النار. هذا قول ابن السائب ومقاتل[(٥)].

---

(١) انظر: اللسان (مادة: قدم).

(٢) الكشاف (٢/ ٤٠٢).

(٣) في الأصل: المورد. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

(٤) في الأصل: وشبه. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

(٥) تفسير مقاتل (٢/ ١٣١). وانظر: الوسيط (٢/ ٥٨٩)، والماوردي (٢/ ٥٠٢)، وزاد المسير (٤/ ١٥٦).

وقيل: هي لعنة المؤمنين لهم في الدنيا، ولعنة الملائكة لهم في الآخرة[(١)].

﴿بئس الرفد المرفود﴾ أي: بئس العون المعان، أو بئس العطاء المعطى.

قال ابن قتيبة[(٢)]: الرِّفْد: العطية. يقال: رَفَدْتُهُ أَرْفِدُهُ؛ إذا أَعْطَيْتُهُ وَأَعَنْتُهُ. والمرفود: المعطى.

قال قتادة: ترادفت عليهم لعنتان؛ لعنة الدنيا، ولعنة الآخرة[(٣)].

وقال مجاهد: [رفدوا][(٤)] يوم القيامة بلعنة أخرى زيدوها، فتانك لعنتان[(٥)].

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۝١٠٠ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝١٠١﴾

قوله تعالى: ﴿ذلك من أنباء القرى﴾ «ذلك» مبتدأ، «من أنباء القرى» خبره ﴿نقصه عليك﴾ خبر ثان[(٦)]، على معنى: ذلك النبأ بعض أنباء القرى المهلكة مقصوص عليك ﴿منها﴾ أي: من القرى ﴿قائم﴾ أي: ما هو باق على ساق ترى جدره، ﴿وحصيد﴾ أي: ومنها ما هو حصيد مُنْدَرِسٌ قد انمحى وعفا أثره،

---

(١) الماوردي (٢/ ٥٠٢)، وزاد المسير (٤/ ١٥٦).

(٢) تفسير غريب القرآن (ص:٢٠٩).

(٣) أخرجه الطبري (١٢/ ١١١)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٨١). وانظر: الوسيط (٢/ ٥٨٩).

(٤) في الأصل: وفدوا. والتصويب من الوسيط (٢/ ٥٨٩).

(٥) أخرجه الطبري (١٢/ ١١٠-١١١)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٨١)، ومجاهد (ص:٣٠٨). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٧٢) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٦) التبيان (٢/ ٤٥)، والدر المصون (٤/ ١٢٩).

كالزرع الذي حُصد بعضُه وبقي بعضُه قائماً على ساقه لم يحصد.

﴿وما ظلمناهم﴾ بالعذاب ﴿ولكن ظلموا أنفسهم﴾ بارتكاب ما أوجبه من الكفر والمعاصي، ﴿فما أغنت﴾ أي: ما نفعتهم ولا دفعت ﴿عنهم آلهتهم التي يدعون﴾ أي: يعبدون، وهي حكاية حال ماضية، ﴿من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك﴾ بالهلاك والعذاب، و «لما» منصوب بـ«ما أَغْنَتْ»، ﴿وما زادوهم غير تتبيب﴾ أي: تخسير. يقال: تَبَّ؛ إذا خَسِرَ، وتبَّبَه غيره؛ أوقعه في الخُسران[1].

فإن قيل: «آلهتهم» جماد، فكيف نسب الزيادة إليها؟

قلت: المعنى: وما زادتهم عبادتهم لها. أو ما زادوهم يوم القيامة حين ينطقها الله الذي لا يعجزه شيء للبراءة منهم غير تتبيب.

وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾

قوله تعالى: ﴿وكذلك﴾ الكاف في محل الرفع، أي: ومثل ذلك الأخذ ﴿أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة﴾ الواو للحال من «القرى»، وصف القرى بالظلم، والمراد: أهلها.

﴿إن أخذه أليم﴾ وجيع ﴿شديد﴾ صعب على المأخوذ. وفي ذلك تخويف

---

(١) انظر: اللسان (مادة: تبب).

لكفار مكة، وتهديدٌ لكل ظالم.

أخبرنا الشيخان أبو القاسم أحمد بن عبدالله بن عبدالصمد العطار، وأبو الحسن علي بن أبي بكر بن روزبة الصوفي البغداديان قالا: أخبرنا عبد الأول بن عيسى، أبنا عبدالرحمن بن محمد، أبنا عبدالله بن أحمد، أبنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل البخاري، ثنا صدقة بن الفضل، أبنا أبو معاوية، ثنا [بريد][1] بن أبي بردة، عن أبي بردة، عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يُمْلي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْهُ. ثم قرأ: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾»[2].

وأخرجه مسلم أيضاً عن محمد بن عبدالله بن نمير، عن أبي معاوية.

قوله تعالى: ﴿إن في ذلك﴾ إشارة إلى ما قص الله تعالى من قصص الأمم الهالكة وأخذهم ﴿لآية﴾ لعبرة وعظة ﴿لمن خاف عذاب الآخرة﴾ لأنه ينظر إلى الأخذ الشديد الذي أخذهم الله تعالى به، فيستدل بعظمه على عظم ما توعدهم به من العذاب في الآخرة، فيكون له عبرة وتذكرة، وباعثاً على خشية الله، ونحوه: ﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾ [النازعات:٢٦].

قوله تعالى: ﴿ذلك﴾ إشارة إلى يوم القيامة، المدلول عليه بقوله: ﴿عذاب الآخرة﴾.

﴿يوم مجموعٌ له الناس﴾ رفع «الناس» باسم المفعول الذي هو «مجموع» برفع

---

(١) في الأصل: سفيان. والمثبت من الصحيحين. وانظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٥١-٢٥٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١٧٢٦ ح٤٤٠٩)، ومسلم (٤/ ١٩٩٧ ح٢٥٨٣).

فعله، إذا قلت: يجمع له الناس.

قال الزمخشري[(١)]: فإن قلت: لأي فائدة [أوثر][(٢)] اسم المفعول على فعله؟

قلت: لما في اسم المفعول من الدلالة على ثبات معنى الجمع [لليوم][(٣)]، وأنه يوم لا بد من أن يكون ميعاداً مضروباً يجمع له الناس، وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة. ونظيره قولك لمن تُهَدِّده: إنك لمنهوب مالك، محروب قومك، ففيه من تمكن الوصف [وثباته][(٤)] ما ليس في الفعل، وإن شئت فوازن بينه وبين قوله: ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾ [التغابن:٩] تعثر على صحة ما قلت لك.

والمعنى: مجموع فيه المؤمن والكافر، والبر والفاجر، وأهل السماء وأهل الأرض.

﴿وذلك يوم مشهود﴾ يشهد فيه الخلائق الموقف للفصل والقضاء والجزاء.

قال صاحب الكشاف[(٥)]: التقدير: مشهود فيه، فاتّسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به. [والمراد][(٦)] بالمشهود: الذي كثر شاهدوه. ومنه قولهم: لفلان مجلس مشهود، وطعام محضور. قال:

.... في مَحْفَلٍ مِنْ نَوَاصِي الخيلِ مَشْهُودُ[(٧)]

---

(١) الكشاف (٢/ ٤٠٣).

(٢) في الأصل: أثر. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

(٣) في الأصل: ليوم. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

(٤) في الأصل: في ثباته. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

(٥) الكشاف (٢/ ٤٠٣).

(٦) في الأصل: أو المراد. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

(٧) عجز بيت لأم قيس الضَّبيّة، وصدره: (وَمَشْهَدٍ قَدْ كَفَيْتُ الغائِبينَ بِهِ). انظر: اللسان، مادة: (نصا)، =

﴿وما نؤخره﴾ وقرأتُ ليعقوب من رواية زيد عنه: «يُؤَخِّرُهُ»[١].

﴿إلا لأجل معدود﴾ أي: لانقضاء مدة معلومة تفردْنا بعلمها، ولم نُطْلِعْ عليها مَلَكاً مُقَرّباً، ولا نبياً مُرْسَلاً.

﴿يوم يأت﴾ قرأ نافع وأبو عمرو والكسائي: «يأتي» بإثبات الياء في الوصل فقط، وقرأ ابن كثير بإثباتها في الحالين[٢].

قال الزجاج[٣]: الذي يختاره النحويون: إثبات الياء، والذي في المصحف وعليه القرّاء[٤]: «يَأْتِ» بكسر التاء.

وقد حكى سيبويه والخليل: أن العرب تقول: لا أدْرِ، فتحذف الياء وتجتزئ بالكسرة، إلا أنهم يزعمون أن ذلك لكثرة الاستعمال. والأجود في النحو: إثبات الياء، والذي أرى اتباع المصحف مع إجماع القرّاء؛ لأن القراءة سُنَّة، فقد جاء مثله في كلام العرب.

وقال الفراء[٥]: كل ياء ساكنة وما قبلها مكسور، أو واو ساكنة وما قبلها مضموم، فإن العرب تحذفها، وتجتزئ بالكسرة من الياء، وبالضمة من الواو. وأنشد لي بعضهم:

= وروح المعاني (١٢/ ١٣٨).

(١) زاد المسير (٤/ ١٥٧).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٤١٦)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٤٨-٣٤٩)، والكشف (١/ ٥٤٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٠)، والسبعة في القراءات (ص:٣٣٨-٣٣٩).

(٣) معاني القرآن للزجاج (٣/ ٧٧).

(٤) في زاد المسير: وعليه أكثر القراءات.

(٥) معاني الفراء (٢/ ٢٧).

كَفَّاكَ كَفٌّ مَا تُلِيقُ دِرْهما   جُوداً وَأُخْرى تُعْطِ بالسَّيْفِ الدَّمَا[١]

قال الزمخشري[٢]: فإن قلت: فاعل «يأتي» ما هو؟

قلت: الله عز وجل، كقوله تعالى: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله﴾ [البقرة:٢١٠]، ﴿أو يأتي ربك﴾ [الأنعام:١٥٨]، ﴿وجاء ربك﴾ [الفجر:٢٢]. ويعضده قراءة من قرأ: «وما يؤخره» بالياء، وقوله: ﴿بإذنه﴾، ويجوز أن يكون الفاعل ضمير «اليوم»، كقوله: ﴿أو تأتيهم الساعة﴾ [يوسف:١٠٧].

فإن قلت: بم انتصب الظرف؟

قلتُ: إما أن يكون ينتصب بـ«لا تكلم»، [وإما بإضمار «اذكر»، وإما بالانتهاء المحذوف في قوله: ﴿إلا لأجل معدود﴾، أي ينتهي الأجل][٣] يوم يأتي.

فإن قلت: فإذا جعلت الفاعل ضمير اليوم، فقد جعلت اليوم وقتاً لإتيان اليوم، وحددت الشيء بنفسه؟

قلت: المراد إتيان هوله وشدائده.

﴿لا تكلم﴾ لا تتكلم، وهو نظير قوله: ﴿لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن﴾ [النبأ:٣٨].

فإن قلت: كيف الجمع بين هذا وبين قوله: ﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن

(١) البيت لم أعرف قائله. وهو في: اللسان، مادة: (ليق)، ومعاني الفراء (٢/ ٢٧)، والخصائص (٣/ ٩٠)، والمنصف (٢/ ٧٢)، وأمالي ابن الشجري (٢/ ٧٢)، والطبري (١٢/ ١١٦)، والقرطبي (٢٠/ ٤٢)، وزاد المسير (٤/ ١٥٨)، وتاريخ بغداد (١٤/ ٩)، والبحر المحيط (٥/ ٢٦٢)، والدر المصون (٤/ ١٣٠)، وروح المعاني (١٢/ ١٣٩).

(٢) الكشاف (٢/ ٤٠٤).

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من الكشاف، الموضع السابق.

نفسها﴾ [النحل:١١١]، وقوله: ﴿هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ [المرسلات:٣٥-٣٦]؟

قلت: ذلك يوم طويل له مواقف [ومواطن][(١)]، ففي بعضها يجادلون عن أنفسهم، وفي بعضها يُكَفُّون عن الكلام فلا يؤذن لهم، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون، وفي بعضها يُختم على أفواههم وتَكَلَّمُ أيديهم وتشهد أرجلهم.

﴿فمنهم﴾ الضمير لأهل الموقف، ولم [يذكروا][(٢)]؛ لأن ذلك معلوم، ولأن قوله: «لا تكلم نفس» يدل عليه.

﴿شقي وسعيد﴾ قال ابن عباس: منهم من كتبت عليه الشقاوة، ومنهم من كتبت له السعادة[(٣)].

قرأتُ على أبي بكر بن بهروز، أخبركم أبو الوقت فَأَقَرَّ به، أبنا أبو الحسن الداودي، أبنا ابن حمويه السرخسي، [أبنا إبراهيم بن خريم الشاشي][(٤)]، ثنا عبد بن حميد، ثنا عبد الملك بن عمرو العقدي، ثنا سليمان بن سفيان، ثنا عبدالله بن دينار، عن ابن عمر، عن عمر رضي الله عنه قال: « لما نزلت: ﴿فمنهم شقي وسعيد﴾ سألت النبي ﷺ فقلت: يا نبي الله، ما نعمل على شيء قد فرغ منه، أم على شيء لم يفرغ منه؟ قال: بل على شيء قد فرغ منه يا عمر، وجرت به الأقلام، ولكن كل

---

(١) في الأصل: وموطن. والتصويب من الكشاف (٢/ ٤٠٤).

(٢) في الأصل: يذكر. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٩٠)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٥٨).

(٤) زيادة على الأصل. وقد سبق هذا السند مراراً بهذه الزيادة.

يعمل لما خلق له ››[1].

ويروى عن إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف قال: ‹‹ أغمي على عبد الرحمن بن عوف، ثم أفاق، فقال: إنه أتاني مَلَكان فَظَّان غليظان، فقالا: انطلق بنا نحاكمك إلى العزيز الأمين، قال: فلقيهما مَلَك، وقال: إلى أين تذهبان؟ فقالا: نحاكمه إلى العزيز الأمين. قال: خليا عنه، فإنه ممن سبقت له السعادة وهو في بطن أمه ››[2].

أخبرنا الشيخان أبو القاسم السلمي، وأبو الحسن علي بن أبي بكر الصوفي قالا: أخبرنا أبو الوقت، أبنا الداودي، أبنا ابن حمويه، أبنا الفربري، ثنا البخاري، حدثنا سليمان بن حرب، ثنا حماد، عن عبيد الله بن أبي بكر، عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ‹‹وكّل الله عز وجل [بالرَّحم][3] مَلَكاً فيقول: أي ربّ نطفة، أي رب عَلَقة، أي رب مضغة. وإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال: يا رب! أذكر أم أنثى، شقي أم سعيد، فما الرزق، فما الأجل، فيكتب ذلك وهو في بطن أمه››[4]. هذا حديث متفق على صحته. أخرجه مسلم من حديث أبي كامل الجحدري، عن حماد بن زيد.

وأخبرنا أبو المجد محمد بن الحسين بقراءتي عليه قال: أبنا الإمام أبو منصور الطوسي محمد بن أسعد، حدثنا الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، أبنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أبنا أبو محمد عبدالرحمن بن أحمد المعروف بابن أبي

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٨٩ ح٣١١١)، وعبد بن حميد في مسنده (١/ ٣٦ ح٢٠).

(٢) ذكره اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٤/ ٦٦٨-٦٦٩)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (١/ ٨٩).

(٣) زيادة من الصحيحين.

(٤) أخرجه البخاري (٦/ ٢٤٣٣ ح٦٢٢٢)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٨ ح٢٦٤٦).

شريح الأنصاري، أبنا أبو القاسم عبدالله بن محمد البغوي، ثنا علي بن الجعد، أبنا أبو خيثمة زهير بن معاوية، عن الأعمش، عن زيد بن وهب قال: سمعت عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه المَلَك -أو قال: يبعث إليه المَلَك- بأربع كلمات، فيكتب رزقه وعمله وأجله، وشقي أو سعيد. قال: وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينها وبينه غير ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»(١). هذا حديث متفق على صحته، أخرجه البخاري عن أبي الوليد هشام بن عبد الملك. وأخرجه مسلم عن عبيد الله بن معاذ، عن أبيه، كلاهما عن شعبة [بن](٢) الحجاج، عن الأعمش.

قال الأعمش: حدثني خيثمة قال: قال عبد الله: إن النطفة إذا وقعت في الرحم فأراد الله أن يخلق منها بشراً طارت في بشر المرأة تحت كل ظفر وشعرة، ثم تمكث أربعين ليلة، ثم تنزل دماً في الرحم، فذلك جَمْعُها(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٢٤٣٣ ح٦٢٢١)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٦ ح٢٦٤٣).

(٢) في الأصل: عن. والتصويب من مسلم (٤/ ٢٠٣٦). وانظر ترجمته في: تهذيب التهذيب (٤/ ٢٩٧-٣٠٢).

(٣) ذكره القرطبي في تفسيره (١١/ ٤٨٠، ١٢/ ٧)، وابن حجر في الفتح (١١/ ٤٨٠)، والمناوي في فيض القدير (٢/ ٤١٤). وذكر السيوطي نحوه (٦/ ٩١) وعزاه لابن أبي حاتم.

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق﴾ قال الزجاج(١): هما من [أصوات](٢) المكروبين المحزونين.

وزعم أهل اللغة من البصريين والكوفيين: أن الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمار في النهيق، والشهيق بمنزلة آخر صوته في النهيق.

قال ابن فارس(٣): الزَّفير ضد الشَّهيق؛ لأن الزَّفير إخراج النَّفَس، والشَّهيق رَدُّ النَّفَس.

﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾ أي: سماوات الآخرة وأرضها، وهي دائمة مخلوقة للأبد. والدليل على أن لها سماوات وأرضاً قوله تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾ [إبراهيم:٤٨]، وقوله تعالى: ﴿وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء﴾ [الزمر:٧٤].

ولأنه لا بد لأهل الآخرة مما يقلّهم ويظلّهم. هذا قول صاحب الكشاف(٤).

وهو معنى قول الضحاك: ما دامت سماوات الجنة والنار وأرضهما(٥).

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ٧٩). وانظر: الوسيط (٢/ ٥٩١)، وزاد المسير (٤/ ١٥٩).

(٢) في الأصل: الأصوات. والتصويب من الوسيط (٢/ ٥٩١)، وزاد المسير (٤/ ١٥٩).

(٣) معجم مقاييس اللغة (٣/ ٢٢٢-٢٢٣).

(٤) الكشاف (٢/ ٤٠٥).

(٥) ذكره الماوردي (٢/ ٥٠٥)، والواحدي في الوسيط (٢/ ٥٩١)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٦٠).

والأكثرون على أنها السموات المعروفة والأرض المعهودة، وأن ذلك عبارة عن التأبيد ونفي الانقطاع؛ كقول العرب: ما أقام ثبير وما لاح كوكب.

قال ابن الأنباري وابن قتيبة[١]: للعرب في معنى الأبد ألفاظ، تقول: لا أفعل ذلك ما اختلف الليل والنهار، وما دامت السماوات والأرض، وما [اختلفت][٢] الجِرَّةُ [والدِّرَّةُ][٣]، وما أَطَّت الإبل[٤]، في أشباه كثيرة لهذا، ظناً منهم أن هذه الأشياء لا تتغير، فخاطبهم الله بما يستعملون في كلامهم.

قوله تعالى: ﴿إلا ما شاء ربك﴾ اختلفوا في هذا الاستثناء؛ فقال ابن عباس: هذا الاستثناء في حَقِّ الموحِّدين الذين يخرجون بالشفاعة[٥].

وفي رواية عنه قال: قد شاء أن يخلدوا فيها[٦]. وهذا معنى قول الفراء[٧]:

---

(١) تأويل مشكل القرآن (ص:٧٦). وانظر قول ابن الأنباري وابن قتيبة في: الوسيط (٢/ ٥٩١)، وزاد المسير (٤/ ١٥٩).

(٢) في الأصل: اختلف. والتصويب من الوسيط (٢/ ٥٩١)، وزاد المسير (٤/ ١٥٩)، واللسان، مادة: (درر).

(٣) في الأصل: والذرة. والتصويب من الوسيط (٢/ ٥٩١)، وزاد المسير (٤/ ١٥٩).

(٤) الجِرَّة: ما يخرجه كل ذي كرش. قال ابن سيده: والجِرَّة: ما يُفِيضُ به البعير من كَرِشِه فيأكله ثانية، وقد اجْتَرَّت الناقة والشاة وأَجَرَّتْ (اللسان، مادة: جرر).

والدِّرَّة: كثرة اللبن وسيلانه (اللسان، مادة: درر).

وأطَّت الإبل: أَنَّتْ تعباً أو حنيناً (اللسان، مادة: أطط).

(٥) أخرج نحوه ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٨٦). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٦٠)، وبنحوه السيوطي في الدر (٤/ ٤٧٥-٤٧٦) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه.

(٦) زاد المسير (٤/ ١٦٠).

(٧) معاني الفراء (٢/ ٢٨).

[استثناء][(١)] استثناه الله ولا يفعله، كقولك: والله لأضربنّك إلا أن أرى غير ذلك، وعزيمتُك على ضربه.

قال الزجاج[(٢)]: ففائدة هذا أنه لو شاء [أن][(٣)] يرحمهم لرحمهم، ولكنه أعلمنا أنهم خالدون أبداً.

وقال ابن كيسان: الاستثناء يعود إلى مكثهم في الدنيا والبرزخ [والوقوف][(٤)] للحساب[(٥)].

وذكر الزجاج أيضاً[(٦)]: أن الاستثناء من الزفير والشهيق. والمعنى: إلا ما شاء ربك من أنواع العذاب التي لم تُذكر.

﴿إن ربك فعال لما يريد﴾ قال ابن عباس: يعني: من إخراج أهل التوحيد من النار[(٧)].

۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٨﴾

---

(١) زيادة من معاني الفراء (٢/ ٢٨).

(٢) معاني الزجاج (٣/ ٧٩). وانظر: زاد المسير (٤/ ١٦٠).

(٣) زيادة من زاد المسير، الموضع السابق.

(٤) في الأصل: والموقف. والتصويب من الوسيط (٢/ ٥٩١)، وزاد المسير (٤/ ١٦٠).

(٥) الوسيط (٢/ ٥٩١)، وزاد المسير (٤/ ١٦٠).

(٦) معاني الزجاج (٣/ ٨٠).

(٧) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٩١).

قوله تعالى: ﴿وأما الذين سَعدوا﴾ قرأ أهل [الكوفة][(١)] إلا أبا بكر: «سُعِدُوا» بضم السين، وقرأ الباقون بفتحها[(٢)]؛ وهو أوجَه؛ لأن «سعد» فعل لا يتعدى إلى مفعول، فلا ترد إلى ما لم يُسَمَّ فاعله، إذ لا مفعول في الكلام يقوم مقام الفاعل. ومن ضم السين حمله على لغةٍ حُكِيَتْ عن العرب خارجة عن القياس: سعده الله بمعنى أسعده. ويدل عليه قولهم: مسعود.

قال الفراء[(٣)]: كلام العرب: سعد الرجل وأسعده الله، إلا هذيلاً فإنهم يقولون: سُعد الرجل -بالضم-، وبذلك قرأ أصحاب عبدالله[(٤)].

قال الكسائي: سعد وأسعد لغتان[(٥)].

والقول في ﴿ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك﴾ نحو التي قبلها.

قال ابن عباس: يرجع الاستثناء إلى لبث من لبث في النار من الموحدين ثم أدخل الجنة[(٦)].

---

(١) زيادة من الوسيط (٢/ ٥٩١).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٤١٩)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٤٩)، والكشف (١/ ٥٣٦)، والنشر (٢/ ٢٩٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٠)، والسبعة في القراءات (ص:٣٣٩).

(٣) لم أقف عليه في معاني الفراء. وانظر: الوسيط (٢/ ٥٩١).

(٤) ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: الحجة للفارسي (٢/ ٤١٩)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٤٩)، والنشر (٢/ ٢٩٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٠)، والسبعة في القراءات (ص:٣٣٩).

(٥) الوسيط (٢/ ٥٩١)، وتهذيب اللغة (٢/ ٧٠).

(٦) أخرج نحوه الطبري (١٢/ ٢٠)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٨٨) كلاهما عن الضحاك. وانظر: الماوردي (٢/ ٥٠٥)، وزاد المسير (٤/ ١٦١). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٧٦-٤٧٧) وعزاه لابن جرير.

وقول الفراء وابن كيسان هاهنا في الاستثناء على حسب ما تقدم.

فصل

قال الزمخشري(١): هو استثناء من الخلود في عذاب النار، ومن الخلود في نعيم الجنة، وذلك أن أهل النار لا يخلدون في عذاب النار وحده، بل يعذبون بالزمهرير وبأنواع من العذاب سوى عذاب النار، وبما هو أغلظ منها، وهو سخط الله عليهم وإهانته لهم، وكذلك أهل الجنة لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وأجلّ موقعاً [منهم](٢)، وهو رضوان الله تعالى، كما قال: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ [التوبة:٧٢]، ولهم ما يتفضل الله به عليهم سوى ثواب الجنة، فهو المراد بالاستثناء ... إلى أن قال: فتأمله، فإن القرآن يُصَدِّقُ بعضه بعضاً. ولا يخدعنك قول الجبرية: أن المراد بالاستثناء: خروج أهل [الكبائر](٣) من النار بالشفاعة، فإن الاستثناء الثاني ينادي على تكذيبهم، ويسجل بافترائهم. وما ظنك بقوم نبذوا كتاب الله؛ لما روي لهم [بعض الثوابت](٤).

عن عبد الله بن عمرو بن العاص: «ليأتين على جهنم يوم تصطفق فيه أبوابها ليس فيها أحد، وذلك بعدما يلبثون فيها أحقاباً».

ثم قال(٥): ما كان لابن عمرو في سيفه ومقاتلته علي بن أبي طالب ما يشغله

---

(١) الكشاف (٢/ ٤٠٥-٤٠٦).

(٢) في الأصل: منها. والتصويب من الكشاف (٢/ ٤٠٥).

(٣) في الأصل: النار. والمثبت من الكشاف، الموضع السابق.

(٤) زيادة من الكشاف، الموضع السابق.

(٥) أي: الزمخشري.

عن تسيير هذا الحديث.

قلتُ[1]: لولا خوف اغترار من لا بصيرة له بالعلم، لأعرضت حكاية عن مثل هذا ونزهت كتابي منه، لكني أشير إلى فساده، وفاء بما أخذه الله تعالى على العلماء من البيان، إرشاداً للناس، وكشفاً لغمة الالتباس، فأقول:

أما ما ذكره على الاستثناء: فهو كلام محتمل، إلا أنه لا يثبت على محكّ التحقيق؛ لأن الدار هي الدار المعدة لتعذيب الكفرة والفجرة في الآخرة، والجنة هي الدار المعدة لنعيم المؤمنين في الآخرة، [فجميع][2] ما يعذب به أهل النار على اختلاف أنواعه منسوب إليها، وجميع ما ينعّم به أهل الجنة على اختلاف أصنافه مضاف إليها.

وأما قوله: «لا يخدعنك قول المجبرة: أن المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر من النار بالشفاعة»: فهو قول حبر الأمة وابن عمّ رسول الله ﷺ عبدالله بن العباس وجمهور المفسرين من التابعين فمن بعدهم، وعليه إجماع أئمة الإسلام، ولم يخالف في إثبات منصب الشفاعة يوم القيامة لسيد الرسل محمد ﷺ إلا هذه الطائفة الزائغة المنبوذة بالاعتزال، ولو شرعتُ في إيراد ما جاء في ذلك من الدلائل لطال الفصل، وقد أشرت إلى شيء من ذلك فيما مضى.

وأما قوله: «بأن الاستثناء الثاني ينادي بتكذيبهم»: فهذيانٌ محض، وقد أشرنا إلى معناه وتفسيره آنفاً.

وأما قوله: «نبذوا كتاب الله»: فدعوى هو مقابل بمثلها، وهذا الوصف بهم

---

(١) أي: المصنف رحمه الله.

(٢) في الأصل: فجمع.

أليق، وبطائفتهم أعبق.

وأما الأثر الذي ذكره ونسبه إلى عبدالله بن عمرو؛ فغير ثابت عند أهل العلم بالحديث، ولا احتجّ علماء السنة به على إخراج المذنبين من أهل التوحيد من النار، ونسبته ذلك إلينا فرية بلا مرية، وإنما احتجوا بكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ الصريحة الواردة على ألسنة الثقاة الأثبات، وإجماع الأمة قبل انخزال طواغيتهم في الاعتزال عن مجلس الحسن البصري.

وأما ما زعمه [عن](١) صاحب رسول الله ﷺ ومن له القدم الراسخ في العلم والدين، عبدالله بن عمرو، فنفثَةُ مصدور، تدل على خُبث طويته، وسوء عقيدته، في أصحاب رسول الله ﷺ الذين اصطفاهم الله تعالى من عباده لصحبة نبيه ﷺ.

أخبرنا أبو العباس الخضر بن كامل بن سالم قراءة عليه وأنا أسمع سنة ست وستمائة بظاهر دمشق، أبنا أبو الدر ياقوت بن عبدالله مولى ابن البخاري التاجر، أبنا أبو محمد عبدالله بن محمد [الصريفيني](٢)، أبنا أبو طاهر محمد بن عبدالرحمن المخلص، أبنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد، ثنا عبدالله بن عمران العابدي المخزومي، ثنا إبراهيم بن سعد، عن عبيدة بن أبي رائطة، عن عبدالرحمن بن عبدالله(٣)، عن عبدالله بن [مغفل](٤) قال: قال رسول الله ﷺ: «الله الله في أصحابي

(١) زيادة على الأصل.

(٢) في الأصل: الريفيني. وهو خطأ. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١٨/ ٣٣٠).

(٣) وقيل: عبد الرحمن بن زياد. انظر ترجمته في: ميزان الاعتدال (٤/ ٢٨٢)، وتهذيب التهذيب (٦/ ١٦٠).

(٤) في الأصل: عقيل. والمثبت من الترمذي (٥/ ٦٩٦). وانظر ترجمته في: الإصابة (٤/ ٢٤٢)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٤٨٣-٤٨٥)، وتهذيب التهذيب (٦/ ٣٨).

لا تتخذوهم غرضاً من بعدي. فمن أحبهم فقد أحبني، ومن بغضهم فقد بغضني، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه»[١]. قال الترمذي: هذا حديث حسن.

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»[٢].

وأما قوله: «ما كان لابن عمرو في سيفه ومقاتلته علي بن أبي طالب ما يشغله عن تسيير هذا الحديث»: فكذب وافتراء، وبهت صراح، لا والله ما سلّ سيفاً في وجه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ولا قاتله.

أخرج الإمام أحمد في المسند من حديث حنظلة بن خويلد قال: «بينما أنا عند معاوية إذ جاءه رجلان يختصمان في رأس عمار، يقول كل واحد منهم: أنا قتلته. فقال عبد الله بن عمرو: ليطب به أحدكما نفساً لصاحبه، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: تقتله الفئة الباغية. قال معاوية: فما بالك معنا؟ قال: إن أبي شكاني إلى رسول الله ﷺ فقال: أطع أباك ما دام حياً ولا تعصه، فأنا معكم ولست أقاتل»[٣].

وذكر الحافظ ابن عبد البر في كتاب الاستيعاب[٤] بإسناده: أن ابن عمرو كان يقول: « ما لي ولصفّين!! أما والله ما ضربتُ فيها بسيف، ولا طعنتُ فيها برمح،

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٦٩٦ ح٣٨٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ١٣٤٣ ح٣٤٧٠)، ومسلم (٤/ ١٩٦٧ ح٢٥٤١).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٤ ح٦٥٣٨).

(٤) الاستيعاب (٣/ ٩٥٨).

ولا رميتُ بسهم، ولوددت أني لم أحضر شيئاً [منها][١]، وأستغفر الله من ذلك وأتوب إليه)).

قوله تعالى: ﴿عطاء﴾ انتصب بما دل عليه الكلام، كأنه قيل: أعطاهم عطاء، ﴿غير مجذوذ﴾ أي: غير مقطوع.

والجذّ -بالذال المعجمة والدال المهملة-: القطع.

قال النابغة:

تَجُذُّ السَّلُوقِيَّ المُضاعَفَ نَسْجُهُ يُوقِدْنَ بالصُّفَّاحِ نَارَ الحُبَاحِبِ[٢]

يصف السيوف أنها تقطع الدروع.

والسَّلُوقي: درع منسوب إلى سَلُوق؛ موضع باليمن، والصُّفَّاح: الحَجَر العريض، وحُباحِب: رجل كان لا ينتفع بناره؛ لبخله، فنسب إليه كل نار لا ينتفع بها، فقيل: نارُ الحُباحِب، لما يَقْدَحُه الفَرس بحافره، والسيف وغيرهما.

وقال الآخر في اللغة الأخرى:

أبى حُبِّي سُلَيْمَى أَنْ يَبِيدا وَأَمْسَى [حَبْلُها][٣] خَلْقاً جَدِيدَا[٤]

---

(١) زيادة من الاستيعاب (٣/ ٩٥٨).

(٢) البيت للنابغة يصف السيوف. انظر: ديوانه (ص:١١)، واللسان، مادة: (حبحب، سلق) وفيهما: «تقدّ» بدل: «تجذّ»، والشعر والشعراء (١/ ١٢٢)، وتهذيب اللغة (٤/ ٢٥٧، ٨/ ٤٠٤)، والجمهرة (١/ ١٢٥، ٣/ ٤١)، والطبري (١٢/ ١٢١)، والقرطبي (٩/ ١٠٣، ١٧١، ٢٠/ ١٥٨)، والبحر المحيط (٥/ ٢٥٢).

(٣) في الأصل: حبها. والتصويب من مصادر البيت.

(٤) انظر البيت في: اللسان، مادة: (جدد)، ومختار الصحاح (١/ ٤٠).

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾

قوله تعالى: ﴿فلا تك في مرية﴾ أي: لا تك في شك ﴿مما يعبد هؤلاء﴾ أنه [ضلال][(١)] وباطل. وقد سبق القول في مثل هذا المعنى.

﴿ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل﴾ أي: هم على مثل طريقهم وباطلهم في تقليد أسلافهم، وقد بلغك ما نزل بآبائهم فاستان بهم منتظراً سنتي في مُكـذّبي رسلي، و «ما» في قوله: «مما»، وفي قوله: «كما» يجوز أن تكون مصدرية، ويجوز أن تكون موصولة، أي: من عبادتهم وكعبادتهم، أو مما يعبدون من الأوثان، ومثل ما يعبدون منها.

﴿وإنا لموفوهم نصيبهم﴾ قال ابن زيد وغيره: حظهم من العذاب، كما وفينا آباءهم[(٢)].

وقال ابن عباس: يريد: نوفيهم ما وعدوا به من خير وشر[(٣)].

---

(١) في الأصل: ظلال.

(٢) أخرجه الطبري (١٢/ ١٢٢)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٨٩). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٦٢)، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٧٩) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) أخرجه الطبري (١٢/ ١٢٢)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٨٩). وذكره السيوطي في الدر المنثور =

وقال أبو العالية: يعني: من الرزق[١].

﴿غير منقوص﴾ يريد: نوفيهم نصيبهم تاماً كاملاً.

قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه﴾ هذا تعزية للنبي ﷺ، وإعلام له أن كتاب موسى آمن به قوم وكفر به آخرون، واختلفوا فيه كما اختلفوا في هذا الكتاب.

﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ قال ابن جرير[٢]: سبقت من ربك أنه لا يعجل على خلقه بالعذاب، لقضي بين المصدِّق منهم والمكذِّب بإهلاك المكذِّب وإنجاء المصدِّق.

والضمير في قوله: ﴿بينهم﴾ يعود إلى قوم موسى. وقيل: إلى هذه الأمة.

قال ابن عباس: يريد: أني أخّرت أمتك إلى يوم القيامة، ولولا ذلك لعجلتُ عقاب من كذّبك[٣].

﴿وإنهم لفي شك منه﴾ أي: من القرآن. وإن كان الضمير في قوله: «وإنهم» عائد إلى قوم موسى، فيكون الضمير في «منه» عائداً إلى كتاب موسى، ويكون ذلك حكاية حال ماضية.

ومعنى ﴿مريب﴾: موقع للريبة.

= (٤/ ٤٧٩) وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٨٩). وانظر: الوسيط (٢/ ٥٩٢)، والماوردي (٢/ ٥٠٧)، وزاد المسير (٤/ ١٦٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٧٩) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) تفسير ابن جرير الطبري (١٢/ ١٢٣).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٩٢)، وزاد المسير (٤/ ١٦٢).

قوله تعالى: ﴿وإنَّ كلاً لمَا﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر: «وإنْ» بالتخفيف. وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة «لَمَّا» بالتشديد[1].

فَمَنْ شَدَّدَ «إِنَّ» فعلى الأصل، ومن خَفَّفَها أَعْمَلَها عَمَل الثَّقيلة.

قال سيبويه[2]: حدثنا من نثق به أنه سمع من العرب: إِنْ عَمْراً لمنطلق، فيخفّفون ويُعْمِلُونها، وأنشد:

وَوَجْه حَسَنُ النَّحْرِ كَأَنْ ثدْيَيْهِ حُقَّانِ[3]

والتنوين في «كلاًّ» عوض من المضاف إليه، التقدير: وإن كل الحق من قصصنا ومن لم نقصص. فَمَن شَدَّدَ «إِنَّ» وخَفَّفَ «لمَّا» جعل «ما» زائدة، واصلة بين لام «إن» ولام «ليوفينهم»، ولو لم يأت بها لكان «ليوفينهم» جواب قسم محذوف، واللام في «لما» موطئة للقسم و «ما» مؤيدة. والمعنى: وإن جميعهم والله ليوفينهم ربك أعمالهم من حسن وقبيح، وإيمان وجحود.

ومن خَفَّفَ «إن» و «لما» قال: هي مخففة من الثقيلة على الوجه المذكور. فأما من شَدَّدَ «لما» فهو مشكل عندهم.

قال بعضهم: ليس يراد بـ«لمَّا» هاهنا معنى الحين، ولا معنى «إلاَّ»، ولا معنى «لِمَ»، وأحسن ما تصرف إليه أنه أراد: «لمَّا»، من قوله: «كلا لمَّا»، ثم وقف فصار

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٤٢٠)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٥٠)، والكشف (١/ ٥٣٦-٥٣٧)، والنشر (٢/ ٢٩٠-٢٩١)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٠)، والسبعة في القراءات (ص:٣٣٩-٣٤٠).

(٢) الكتاب (٢/ ١٤٠).

(٣) تقدم في بداية الجزء.

«لمَّا»، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف.

ويجوز أن تكون «لما» مثل الدعوى والثروى، وهو المثل، وما فيه ألف التأنيث من المصادر فلم يصرف. وتمحَّل لها بعض من النحويين لها وجهاً فقال: الأصل في «لمَّا» «لِمَنْ مَا» أدغم النون في الميم، فاجتمع ثلاث ميمات، حذفت الوسطى لاجتماع الأمثال.

قال الزجاج(١): وهذا ليس بشيء؛ لأن «مَنْ» لا يجوز حذفها؛ لأنها اسم على حرفين، وأخذ ما قيل فيه.

[واختار](٢) الزجاج(٣) وغيره: أن «لمَّا» في معنى «إلاَّ»(٤)، كما تقول: سَأَلْتُكَ لمَّا فَعَلْتَ كذا وإلاَّ فَعَلْتَ كذا، ومثله ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لمَّا عليها حافظ﴾ [الطارق:٤] معناه: إلا عليها حافظ.

وفي قراءة أُبيّ: «وإِنْ كُلٌّ» بالرفع، أَنَّ «إِنْ» نافية، و «لمَّا» بمعنى «إلاَّ»، كما ذكرناه(٥)، وقراءة ابن مسعود مفسرة لها: «وإِنْ كُلٌّ لما ليوفينهم».

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ٨١).

(٢) في الأصل: واختاره.

(٣) معاني الزجاج (٣/ ٨١).

(٤) وأنكر الفراء وأبو عبيد مجيء «لمَّا» بمعنى «إلاَّ». قال الفراء (٢/ ٢٩): أما من جعل «لمَّا» بمعنى «إلاَّ»، فإنه وجه لا نعرفه.

وقال أبو عبيد: لم نجد هذا في كلام العرب.

قال أبو حيان في البحر (٥/ ٢٦٨): ولا التفات إلى قول أبي عبيد والفراء من إنكارهما أن «لمَّا» تكون بمعنى «إلاَّ».

(٥) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٠).

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فاستقم كما أمرت﴾ أي: استقم على العمل بأمر ربك والدعاء إليه. وهو معنى قول عائشة رضي الله عنها: استقم على القرآن كما أمرت[(١)].

﴿ومن تاب معك﴾ عطف على المستكنّ في «استقم»، وتقديره: استقم أنت ومن تاب، وجاز ذلك لقيام الفاصل مقام «أنت».

ويجوز أن يكون «وَمَنْ» في موضع نصب على أنه مفعول معه، والمعنى: استقم يا محمد أنت والتائبون أو مع التائبين معك من الشرك والشك.

قال ابن عباس: ما نزلت على رسول الله ﷺ آية كانت أشد ولا أشق عليه من هذه الآية: ﴿فاستقم كما أمرت﴾، وباعتبار هذه الآية وأمثالها قال ﷺ: «شيبتني هود وأخواتها»[(٢)].

﴿ولا تطغوا﴾ لا تخرجوا عن حدود الله.

قال ابن عباس: لا تطغوا في القرآن فَتُحَلِّلوا وتُحَرِّموا ما لم آمركم به[(٣)].

أخبرنا الشيخ أبو الحسن المؤيد بن محمد بن علي المقرئ في كتابه، أبنا عبدالجبار

---

(١) أخرجه الطبري (١٢/ ١٢٦) عن سفيان بن عيينة. وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٦٤) من قول سفيان أيضاً. والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٨٠) وعزاه لأبي الشيخ عن سفيان.

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٠٢ ح٣٢٩٧)، والحاكم (٢/ ٣٧٤ ح٣٣١٤).

(٣) زاد المسير (٤/ ١٦٤).

بن أحمد الخواري البيهقي، أبنا علي بن أحمد النيسابوري، أبنا أبو الفتح محمد بن علي الكوفي، أبنا محمد بن إسحاق بن يحيى الحافظ، أبنا عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن الرازي، ثنا محمد بن فارس البلخي، حدثنا حاتم الأصم، عن شقيق، عن إبراهيم بن أدهم، عن مالك بن دينار، عن أبي مسلم الخولاني، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو صَلَّيْتُم حتى تكونوا كالحنايا، وصُمْتُم حتى تكونوا كالأوتار، ثم كان الاثنان أحب إليكم من الواحد لم تبلغوا حد الاستقامة»[(١)].

قال علي بن أحمد: هذا حديث عزيز[(٢)] شريف، قد اجتمع في إسناده زهّاد الأمة، حدث به الشيخ أبو عبدالرحمن السلمي عن شيخ له عن أبي عبدالله محمد بن إسحاق.

قوله تعالى: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾ قرأ الأكثرون: «تَرْكَنُوا» بفتح الكاف، مِنْ رَكِنَ -بكسر الكاف- يَرْكَنُ.

وقرأتُ لأبي عمرو من رواية عبد الوارث عنه بضم الكاف، مِنْ رَكَنَ -بفتح الكاف- يَرْكُنُ، وهي قراءة قتادة.

وروى هارون عن أبي عمرو: بفتح التاء وكسر الكاف.

---

(١) حديث باطل، أورده ابن عراق في تنزيه الشريعة (٢/ ٣١١) وقال: رواه ابن منده عن محمد بن فارس البلخي. وذكره الديلمي في الفردوس (٣/ ٣٧٠)، والقزويني في التدوين (٢/ ١٦١).

(٢) الحديث العزيز: هو ما انفرد بروايته اثنان أو ثلاثة، ولو رواه بعد ذلك عن هذين الاثنين أو الثلاثة مائة، فقد يكون الحديث عزيزاً مشهوراً، وينفرد عن الغريب بكونه لا يرويه أقل من اثنين عن اثنين، بخلاف الغريب. سُمِّي عزيزاً؛ لقلة وجوده، أو لكونه قوي بمجيئه من طريق أخرى (انظر: التقييد والإيضاح ص:٢٢٩).

وروى محبوب عنه بالعكس من ذلك.

وقرأ ابن أبي عبلة: بضم التاء وفتح الكاف، على ما لم يُسَمَّ فاعله[١].

قال ابن عباس: لا تميلوا إلى المشركين[٢].

وقال قتادة: لا تلحقوا بالمشركين[٣].

وقال أبو العالية: لا ترضوا أعمالهم[٤].

وقال السدي: لا تداهنوا الظلمة[٥].

قال سفيان الثوري: في جهنم واد لا يسكنه إلا القرّاء الزائرون الملوك[٦].

وقال بعض السلف: الذباب على العذرة أحسن من قارئ على باب هؤلاء[٧].

وكتب سلمة بن دينار أبو حازم الأعرج رحمه الله إلى الزهري حين خالط

---

(١) انظر هذه القراءات في: زاد المسير (٤/ ١٦٥).

(٢) أخرجه الطبري (١٢/ ١٢٧)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٩٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٨٠) وعزاه لابن جرير وابن المنذر.

(٣) أخرجه الطبري (١٢/ ١٢٧)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٩٠). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٦٥).

(٤) أخرجه الطبري (١٢/ ١٢٧)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٩٠). وذكره الماوردي (٢/ ٥٠٨)، والواحدي في الوسيط (٢/ ٥٩٣)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٦٥). والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٨٠) وعزاه لأبي الشيخ.

(٥) أخرج نحوه الطبري (١٢/ ١٢٧)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٩٠) كلاهما عن ابن زيد. وذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٩٣)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٦٥).

(٦) ذكره ابن رجب في التخويف من النار (١/ ٨٨)، وأبو حيان في البحر المحيط (٥/ ٢٦٩).

(٧) ذكره الآلوسي في تفسيره روح المعاني (١٢/ ١٥٥)، والذهبي في ميزان الاعتدال (٦/ ١٩٠)، والخطيب في تاريخ بغداد (٥/ ٣٧٠).

الخلفاء: عافانا الله وإياك من الفتن، فقد أصبحتَ بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله [ويرحمك][1] أصبحت شيخاً كبيراً وقد أثقلتك نعم الله بما فهّمك من كتابه، وعلّمك من سنة نبيه ﷺ، وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء. قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾ [آل عمران:١٨٧]، واعلمْ أن أيسر ما ارتكبت، وأخف ما احتملت، أنك آنست وحشة الظالم، وسهّلت سبيل الغي بدنوّك ممن لم يؤد حقاً، ولم يترك باطلاً حين أدناك، اتخذوك قطباً تدور عليك رحى باطلهم، وجسراً يعبرون عليك إلى بلائهم، وسُلَّماً يصعدون فيك إلى ضلالهم، فما أيسر ما عَمَّروا لك في جنب ما خربوا عليك، [فَدَاوِ][2] دينك فقد دخله سقم، وهيِّء زادك فقد حضر السفر البعيد، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء، والسلام[3].

قوله تعالى: ﴿فتمسكم النار﴾ أي: فتصبكم لفحها بركونكم إليهم. وهذه الآية من أشد الآيات النازلة في زجر الظلمة وردعهم.

وقد روي أن الموفق[4] صلّى خلف إمام فقرأ بها، فخرّ الموفق مغشياً عليه، فلما أفاق قال: هذا بمن رَكَنَ إلى من ظَلَم، فكيف بالظالم[5]؟.

---

(١) في الأصل: يرحمك إذا أصبحت. والتصويب من الكشاف (٢/ ٤٠٩)، وروح المعاني (١٢/ ١٥٥).

(٢) في الأصل: فدو. والمثبت من فيض القدير (٢/ ٤٠٧).

(٣) انظر هذا الكتاب في: فيض القدير (٢/ ٤٠٧)، والكشاف (٢/ ٤٠٩)، وروح المعاني (١٢/ ١٥٤-١٥٥)، وحلية الأولياء (٣/ ٢٤٦-٢٤٩)، وصفة الصفوة (٢/ ١٦٠-١٦٣).

(٤) يعني: ابن قدامة المقدسي، صاحب المغني.

(٥) انظر: الكشاف (٢/ ٤٠٨)، وروح المعاني (١٢/ ١٥٥).

قوله تعالى: ﴿وما لكم من دون الله من أولياء﴾ في محل الحال من «تمسكم النار»، ﴿ثم لا تنصرون﴾ أي: لا تمتنعون من عذابه.

وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل﴾ قرأتُ لأبي جعفر ولأبي عمرو من بعض طرقه: «وزلُفاً» بضم اللام(١).

والسبب في نزولها: ما أخرج في الصحيحين من حديث ابن مسعود: ((أن رجلاً أصاب من امرأة قُبْلَة، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فنزلت: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار... الآية﴾ فقال الرجل: يا رسول الله: ألي هذه؟ قال: لمن عمل بها من أمتي))(٢).

وفي لفظ لمسلم: ((قال: يا رسول الله أصبت منها ما دون أن أمسها))(٣).

قال الخطيب أبو بكر بن ثابت: واسم الرجل: أبو اليسر الأنصاري(٤).

وقال مقاتل(٥): أبو مقبل عامر بن قيس الأنصاري.

والأول أثبت.

قرأتُ على أبي جعفر السدي محمد بن عبدالكريم، أخبركم عبد الحق بن عبد

---

(١) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦١).

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١٧٢٧ ح٤٤١٠)، ومسلم (٤/ ٢١١٥ ح٢٧٦٣).

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢١١٦ ح٢٧٦٣).

(٤) الماوردي (٢/ ٥١٠)، وزاد المسير (٤/ ١٦٧).

(٥) تفسير مقاتل (٢/ ١٣٤).

الخالق والحسن بن أحمد المعمر فأقرَّ به قالا: أبنا أبو القاسم علي بن أحمد بن [محمد بن بيان][(١)]، أبنا أبو القاسم طلحة بن علي بن الصقر، أخبرنا أحمد بن عثمان، ثنا عباس الدوري، ثنا أحمد بن جميل المروزي، ثنا [ابن][(٢)] المبارك، أبنا شريك، ثنا عثمان بن [موهب][(٣)]، عن موسى بن طلحة، عن أبي اليسر بن عمرو قال: «أتتني امرأة بدرهم، وزوجها بعثه النبي ﷺ في بعث، فقالت: بِعْني بدرهم تمراً. قال: وأعجبتني، فقلت لها: إن في بيتي تمراً هو أطيب من هذا فالحقيني، فغمزتها وقبّلتها، فأتيت أبا بكر الصديق رضي الله عنه فقلت: هلكت، فقال: ما شأنك؟ فقصصت عليه الأمر، فقلت: هل لي من توبة؟ قال: نعم، تُبْ ولا تَعُدْ، ولا تخبرن به أحداً، فأتيت النبي ﷺ فقصصت عليه الأمر، فقال: خلفت رجلاً في سبيل الله عز وجل في أهله بهذا؟! قال: فأطرق عني، فظننت أني من أهل النار، وأن الله لا يغفر لي أبداً، فأنزل الله عز وجل: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾ قال: فأرسل إليّ النبي ﷺ فتلاهن عليّ»[(٤)].

وقد أخرج الترمذي عن أبي اليسر قال: «أتتني امرأة تبتاع تمراً، فقلت: إن في البيت تمراً أطيب منه، فدخلتْ معي إلى البيت، فأهويت إليها فقبّلتها ... ثم ساق

(١) في الأصل: مسهر بن سنان. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١٩/ ٢٥٧-٢٥٨).

(٢) زيادة على الأصل. انظر ترجمته في: تهذيب التهذيب (٥/ ٣٣٤).

(٣) في الأصل: وهب. والتصويب من مصادر تخريج الحديث. وانظر ترجمته في: تهذيب التهذيب (٧/ ١٢١).

(٤) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٩٢ ح٣١١٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٦ ح١١٢٤٨)، والطبراني في الكبير (١٩/ ١٦٥ ح٣٧١).

الحديث)).

وأراد بالصلاة: المكتوبات الخمس عند عامة أهل العلم. وصلاة طرفي النهار: الفجر والظهر والعصر. وزُلَف الليل: ساعاته القريبة من آخر النهار، واحدها: زُلْفَة، مثل: ظُلْمَة وظُلَم، من أَزْلَفَهُ فَازْدَلَفَ، أي: قَرَّبَهُ فقرب إليه، وصلاة الزُّلَف من الليل: المغرب والعشاء.

ومن قرأ: «زلُف» بضم اللام؛ فقال الزجاج[(١)]: هو واحد، مثل: حُلُم. وجائز أن يكون جمْعاً على زَليف من الليل، فيكون مثل: القريب والقُرُب، ولكن الزُّلَف [أجود][(٢)] في الجمع، وما علمت أن زَليفاً يستعملُ في الليل.

وقال المبرد: من ضَمَّ فله وجهان: أحدهما: أن يكون واحداً، وجائز أن يكون جمع زَليف وهو مستعمل، فيكون مثل: [قُضُب][(٣)] وقَضِيب، وكُثُب [وكَثِيب][(٤)].

﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ قال ابن عباس وعامة المفسرين: يريد: أن الصلوات الخمس يكفّرن ما بينها من الذنوب[(٥)].

قرأتُ على محمد بن الحسين بن أحمد، المكنى بالقاضي أبي المجد، أخبركم أبو

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ٨٢).

(٢) في الأصل: أوجد. والتصويب من معاني الزجاج، الموضع السابق.

(٣) في الأصل: قضيب. والصواب ما أثبتناه.

(٤) في الأصل: وكثب. والصواب ما أثبتناه.

(٥) أخرجه الطبري (١٢/ ١٣٢)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٩٢)، وابن أبي شيبة (٧/ ١٣٦). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٨١) وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وابن أبي شيبة ومحمد بن نصر وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

منصور محمد بن أسعد العطاري، ثنا الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، أبنا أبو عبدالله الخرقي، أبنا أبو الحسن الطيسفوني، أبنا عبدالله بن عمر الجوهري، أبنا أحمد بن علي الكشميهني، ثنا العلاء بن عبدالرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن ما لم تُغْشَ الكبائر»[١]. هذا حديث صحيح انفرد بإخراجه مسلم، فرواه عن علي بن حجر وغيره، عن إسماعيل بن جعفر. وزاد إسحاق مولى زائدة عن أبي هريرة: «ورمضان إلى رمضان».

أخبرنا الشيخ خضر بن كامل المعبر الخاتوني قراءة عليه وأنا أسمع بجبل الصالحين بظاهر دمشق في سنة ست وستمائة، أخبرنا أبو الدر ياقوت مولى ابن البخاري التاجر، أبنا أبو محمد عبدالله بن محمد بن عبدالله بن هزارمرد الصريفيني، ثنا أبو طاهر محمد بن عبدالرحمن المخلص إملاءً، ثنا أبو محمد يحيى بن محمد بن محمد بن صاعد، ثنا [جميل][٢] بن الحسن الجهضمي، ثنا أبو همام محمد بن الزبرقان[٣]، ثنا يونس بن يزيد، عن علي بن زيد، عن أبي عثمان قال: «صلى بنا سلمان صلاة، ثم قام إلى غصن شجرة يابسة فَحَرَّكَها فحاتّ ورقها، ثم قال: أتدرون لم فعلت هذا؟ قالوا: لا؟ قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة، ثم قام إلى

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٢٠٩ ح٢٣٣).

(٢) في الأصل: حميد. وهو خطأ. انظر ترجمته في: تهذيب التهذيب (٢/ ٩٧)، وتهذيب الكمال (٥/ ١٢٨).

(٣) محمد بن الزبرقان، أبو همام الأهوازي، ثقة صالح صدوق، (تهذيب التهذيب ٩/ ١٤٦، والتقريب ص:٤٧٨).

غصن شجرة يابسة فحرّكها، فتحاتّ ورقها، فقال: إن العبد إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم صلى فأحسن الصلاة، تحاتّ عنه ذنوبه كما تتحاتّ ورق هذه الشجرة»[(١)]. هذا حديث حسن أخرجه الإمام أحمد بن محمد بن حنبل في مسنده، عن عفان، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، وزاد وقال: ﴿أقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل ... الآية﴾.

قرأت على ابن بهروز، أبنا أبو الوقت، أبنا أبو الحسن الداودي، أبنا ابن حمويه، أبنا أبو إسحاق إبراهيم بن خريم الشاشي، أبنا عبد بن حميد، أبنا [عبيد الله][(٢)] بن موسى، عن إسرائيل[(٣)]، عن عثمان بن [موهب][(٤)] قال: قال حُمران بن أبان[(٥)]: «كنت مع عثمان إذ أتاه مؤذنه يؤذنه بالصلاة، فقال: كنا عند النبي ﷺ فجاءه بلال يؤذنه بالصلاة، ثم قال نبي الله ﷺ: لقد أردت أن أحدثكم أمراً، ثم بدا لي أن أسكت. فقلنا: يا رسول الله حدثنا، فإن يك خيراً سارعنا فيه، وإن يك غير ذلك

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٣٧ ح٢٣٧٥٨).

(٢) في الأصل: عبد الله. والتصويب من مسند عبد بن حميد (١/ ٥٠). وانظر ترجمته في: تهذيب التهذيب (٧/ ٤٦)، والتقريب (ص:٣٧٥).

(٣) إسرائيل بن يونس بن أبي إسحاق السبيعي الهمداني، أبو يوسف الكوفي، ثقة تكلم فيه، مات سنة ستين (تهذيب التهذيب ١/ ٢٢٩-٢٣٠، والتقريب ص:١٠٤).

(٤) في الأصل: موهوب. والتصويب من مسند عبد بن حميد (١/ ٥٠). وانظر ترجمته في: تهذيب التهذيب (٧/ ١٢١)، والتقريب (ص:٣٨٥).

(٥) حمران بن أبان، مولى عثمان بن عفان، ثقة من تابعي أهل المدينة، كان من النمر بن قاسط، سبي بعين التمر فابتاعه عثمان من المسيب بن نجبة فأعتقه، مات سنة خمس وسبعين (تهذيب التهذيب ٣/ ٢١، والتقريب ص:١٧٩).

نتتهي عنه، فقال: ما من رجل مسلم يتوضأ كما أمره الله ثم يصلي كما أمره الله يتم الركوع والسجود إلا كفرت ما قبلها من ذنب»[١].

قوله تعالى: ﴿ذلك﴾ يريد: القرآن، في قول أكثر المفسرين. وقيل: الصلاة. وقيل: ما تقدم ذكره من قوله: ﴿فاستقم﴾ فما بعده، والمعنى: ذلك عظة، ﴿للذاكرين﴾ المتعظين.

قوله: ﴿واصبر﴾ يعني: عن الصلاة، كما قال: ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾ [طه:١٣٢]. وقيل: اصبر على الاستقامة والعمل بما أمرت به ونهيت عنه، ﴿فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ في أعمالهم.

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

قوله تعالى: ﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض﴾ ذهب عامة المفسرين إلى أن «لولا» هاهنا نفي.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما كان[٢].

قال الفراء[٣]: المعنى: لم يكن منهم أحد.

---

(١) أخرجه عبد بن حميد في مسنده (١/ ٥٠ ح٦١).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٩٧)، وزاد المسير (٤/ ١٧٠).

(٣) معاني الفراء (٢/ ٣٠).

وقال ابن قتيبة والزمخشري[١]: «لولا» بمعنى: هلاَّ كان. وتكون الفائدة على هذا القول في مخاطبة هؤلاء بتوبيخ القرون الماضية، زجرهم عن ارتكاب ما به استوجبوا التوبيخ.

قال ابن عباس: «أولو بقية»: أولو دين[٢].

وقال الزجاج[٣]: أولو طاعة.

قال ابن قتيبة[٤]: يقال: قوم لهم بقية وفيهم بقية؛ إذا كانت فيهم مُسْكَةٌ وخير.

وقال الزجاج[٥]: معنى البقية: إذا قلت: في فلان بقية، فمعناه: فيه فَضْلٌ فيما يُمْدَحُ به.

قال صاحب الكشاف[٦]: سُمِّيَ الفضل والجودة بَقِيَّة؛ لأن الرجل يستبقي مما يخرجه أجوده وأفضله، فصار مثلاً في الجودة والفضل. ويقال: فلان مِنْ بَقِيَّة القوم، أي: مِنْ خِيارهم، وبه فُسِّر بيت الحماسة:

إِنْ تُذْنِبُوا ثُمَّ تَأْتيني بَقِيَّتُكُمْ ....[٧]

ومنه قوله: في الزوايا خبايا، وفي الرجالِ بقايا.

---

(١) تفسير غريب القرآن (ص:٢١٠)، والكشاف (٢/ ٤١١).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٩٧)، وزاد المسير (٤/ ١٧٠).

(٣) معاني الزجاج (٣/ ٨٣).

(٤) تفسير غريب القرآن (ص:٢١٠).

(٥) معاني الزجاج (٣/ ٨٣).

(٦) الكشاف (٢/ ٤١١-٤١٢).

(٧) صدر بيت، وعجزه: (فَمَا عَلَيَّ بِذَنْبٍ مِنكُمُ فَوْتُ). وهو في: اللسان، مادة: (بقي)، والدر المصون (٤/ ١٤٦)، وروح المعاني (١٢/ ١٦١).

ويجوز أن تكون البقية بمعنى: البَقْوى.

المعنى: فهلاَّ كان منهم ذووا بقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله عز وجل وعقابه.

وقرئ: «أولوا بَقْيَة» بوزن لَقْيَة[(١)]، مِنْ بَقَاهُ يُبْقِيه؛ إذا راقبه وانتظره، ومنه: «بَقَيْنا رسول الله ﷺ».

والمعنى: فلولا كان منهم أولوا مراقبة وخشية من انتقام الله عز وجل، كأنهم ينتظرون إيقاعه بهم لإشفاقهم.

قوله تعالى: ﴿إلا قليلا ممن أنجينا منهم﴾ استثناء منقطع، معناه: لكن قليلاً ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد. و «مِنْ» في قوله: ﴿ممن أنجينا﴾ للبيان لا للتبعيض؛ لأن الذين نهوا نجوا من العذاب، بدليل قوله: ﴿أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا﴾ [الأعراف:١٦٥].

قوله تعالى: ﴿واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه﴾ قال ابن فارس[(٢)]: التَّرْفَة: النِّعْمَة.

قال الفراء[(٣)]: تقول: اتبعوا في دنياهم ما عُوِّدوا من النعيم وإيثار اللذّات على أمر الآخرة.

وقرأ أبو عمرو في رواية عنه: «وأُتْبِعَ» بضم الهمزة وسكون التاء وكسر

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٢٧١).

(٢) معجم مقاييس اللغة (١/ ٣٤٥).

(٣) معاني الفراء (٢/ ٣١).

الباء[1]، على معنى: اتبعوا جزاء ما أترفوا فيه.

قال الزمخشري[2]: ويجوز أن يكون المعنى في القراءة المشهورة: اتبعوا جزاء إترافهم. وهذا معنى قوي لتقدم الإنجاء، كأنه قيل: إلا قليلاً ممن أنجيناهم وهلك السائر.

فإن قلت: عَلامَ عَطَف قوله: ﴿واتبع الذين ظلموا﴾؟

قلت: إن كان معناه: واتبعوا الشهوات، كان معطوفاً على مضمر؛ لأن المعنى: إلا قليلاً ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد، واتبع الذين ظلموا شهواتهم، فهو عطف على «نهوا». وإن كان معناه[3]: واتبعوا الإتراف، فالواو للحال، كأنه قال: أنجينا القليل، وقد اتبع الذين ظلموا جزاءهم.

فإن قلت: فقوله: ﴿وكانوا مجرمين﴾؟

قلت: على «أترفوا» أي: اتبعوا الإتراف وكونهم مجرمين؛ لأن تابع الشهوات مغمور بالآثام. وأريد بالإجرام: إغفالهم للشكر.

أو على «اتبعوا»، أي: اتبعوا شهواتهم وكانوا مجرمين بذلك. ويجوز أن يكون اعتراضاً وحكماً عليهم بأنهم قوم مجرمون.

قوله تعالى: ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾ اللام في «ليهلك» لتوكيد النفي.

قال عبد القاهر الجرجاني: هذه اللام تسمى لام الجحود، وهي تخالف لام كي

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٢٧١-٢٧٢).

(٢) الكشاف (٢/ ٤١٢-٤١٣).

(٣) في الأصل زيادة قوله: وإنه. انظر: الكشاف (٢/ ٤١٣).

بأشياء:

منها: أن لام كي يصح إظهار «أَنْ» بعدها، تقول: جئت لتكرمني، وجئت لأَنْ تكرمني، وهذه لا يصح إظهار «أَنْ» معها، لا تقول: ما كنت لأَنْ أفعل.

ومنها: أن المصدر الواقع موقعه أو مع الفعل يصح اللفظ به، تقول: جئت للإكرام.

ومنها: أن اللام يصح حذفها والإتيان بـ«أَنْ» مكانها، تقول: جئت أَنْ تكرمني، ولا يجوز ذلك في لام الجحود.

والواو في: «وأهلها» حالية[1].

والمعنى: ما كان ربك ليهلك أهل القرى ظالماً لهم وأهلها قوم مصلحون مؤمنون مطيعون. وهذا معنى قول ابن عباس[2].

وقيل: الظلم: [الشرك][3]. فالمعنى: ما كان ليهلكها بسبب الشرك وأهلها مصلحون يتناصفون ويتعاطون الحق فيما بينهم، ولا يضمون إلى شركهم العتو والتمرد والعثو كما فعل قوم لوط. وهذا معنى قول ابن جرير وأبي سليمان الدمشقي[4].

---

(١) الدر المصون (٤/ ١٤٨).

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (٩/ ١١٤).

(٣) في الأصل: والشرك. والصواب ما أثبتناه.

(٤) انظر: تفسير ابن جرير الطبري (١٢/ ١٤٠)، والوسيط (٢/ ٥٩٧)، وزاد المسير (٤/ ١٧١).

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١١٩﴾

قوله تعالى: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ لاضطرهم إلى الإيمان، ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ ما بين يهودي ونصراني، ومجوسي ووثني، وسني وبدعي.

﴿إلا من رحم ربك﴾ أي: إلا أناساً رحمهم ربك فهداهم إلى الحق ووفّقهم لسلوك سبيله وجمْع كلمتهم عليه، وهم المتمسكون بالعروة الوثقى المتمسكون بشرائع المرسلين، والمشار إليه بقوله: ﴿ولذلك خلقهم﴾ الرحمة، أو الاختلاف، أو كلاهما.

والأول قول مجاهد وقتادة وابن عباس في رواية عكرمة(١).

والثاني قول الحسن(٢).

والثالث اختيار الفراء والزجاج(٣) وابن عباس في رواية عطاء(٤).

---

(١) أخرجه الطبري (١٢/ ١٤٣-١٤٤)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٩٥). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٩١-٤٩٢) وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن عباس. ومن طريق آخر عن مجاهد، وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ. ومن طريق آخر عن قتادة، وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه الطبري (١٢/ ١٤٣)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٩٦). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٩١) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) معاني الفراء (٢/ ٣١)، ومعاني الزجاج (٣/ ٨٣).

(٤) أخرج نحوه الطبري (١٢/ ١٤٣)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٩٥). وانظر: الوسيط (٢/ ٥٩٧)، وزاد المسير (٤/ ١٧٢). وذكر نحوه السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٩٢) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

﴿وتمت كلمة ربك﴾ وهي قوله للملائكة: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ يريد: كفار الفريقين.

وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وكلاً نَقُصُّ﴾ التنوين عِوَض من المضاف إليه، تقديره: وكل نبأ نَقُصُّ، ﴿عليك من أنباء الرسل﴾ بيان لـ«كُلاًّ».

و﴿ما نثبت به فؤادك﴾ بدل من «كُلاًّ»، و «كُلاًّ» منصوب بـ«نَقُصُّ»، والتقدير: نَقُصُّ عليك ما نثبت.

قال ابن عباس: لنزيدك يقيناً ويقوي قلبك[1]، وذلك أن النبي ﷺ إذا سمعها كان تقوية لقلبه على الصبر على أذى قومه بسبب تعاضد الدلائل والتأسي بإخوانه المرسلين.

﴿وجاءك في هذه﴾ السورة[2]. وقيل: في هذه الأقاصيص المذكورة[3]. وقيل:

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٩٨).

(٢) أخرجه الطبري (١٢/ ١٤٥-١٤٧)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٩٦). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٩٣) وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس. ومن طريق آخر عن أبي موسى الأشعري، وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ وابن مردويه. ومن طريق آخر عن سعيد بن جبير، وعزاه لأبي الشيخ وابن جرير.

(٣) الماوردي (٢/ ٥١٢)، وزاد المسير (٤/ ١٧٣).

في هذه الدنيا[1]. والأول قول ابن عباس والأكثرون من المفسرين.

فعلى هذا المعنى: جاءك في هذه السورة البيان الواضح بما اشتملت عليه من أخبار الأمم الخالية.

وعلى القول الثاني: المراد بالحق: الصدق في القصص والأنباء.

وعلى القول الثالث: يكون المعنى: وجاءك في هذه الدنيا النبوة.

وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم﴾ وعيد وتهديد.

وقول من قال أنها منسوخة ليس بصحيح[2]؛ لما ذكرناه من قبل.

﴿وانتظروا﴾ مواعيد الشيطان ﴿إنا منتظرون﴾ ما وعدنا ربنا من ظهور الإيمان واستفحال أمر الإسلام.

وقيل: المعنى: وانتظروا الدوائر بنا، إنا منتظرون أن يفعل بكم نحو ما فعل بأشياعكم وأشباهكم في الكفر من الدين، اقتص الله تعالى أخبارهم وأراكم

---

(١) وهو قول الحسن وقتادة. أخرجه الطبري (١٢/ ١٤٧)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٩٦). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٩٣) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن قتادة. ومن طريق آخر عن الحسن، وعزاه لأبي الشيخ.

(٢) الناسخ والمنسوخ لابن سلامة (ص:١٠٦)، والناسخ والمنسوخ لابن حزم (ص:٤١)، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (ص:٣٧٦).

آثارهم.

وزعم بعضهم أن هذا أيضاً منسوخ بآية السيف[1].

والصحيح: أنه تهديد، فلا نسخ.

قوله تعالى: ﴿ولله غيب السموات والأرض﴾ أي: علم ما غاب عن العباد فيهما. وقيل: المعنى: لا يخفى عليه ما جرى فيهما، وهو مطلع على أعمالكم، ﴿وإليه يَرجِع الأمر كله﴾ وقرأ نافع وحفص: «يُرجَع» بضم الياء وفتح الجيم[2]، وقد سبق الكلام على معناه في البقرة.

﴿فاعبده﴾ وَحِّدْهُ، ﴿وتوكل عليه﴾ ثِقْ به وَفَوِّضْ أمرك إليه، فهو ينتقم لك من أعدائك.

﴿وما ربك بغافل عما يَعْمَلُون﴾ قرأ نافع وابن عامر وحفص: «تَعْمَلُون» بالتاء، على معنى: أنت وهم، على تغليب المخاطبة. وقرأ الباقون بالياء[3]، وكذلك اختلافهم في آخر سورة النمل.

والحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد ﷺ.

---

(١) انظر: المصادر السابقة.

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٤٢٥)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٥٣)، والكشف (١/ ٥٣٨)، والنشر (٢/ ٢٠٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦١)، والسبعة في القراءات (ص:٣٤٠).

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٤٢٥)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٥٣)، والكشف (١/ ٥٣٨)، والنشر (٢/ ٢٦٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦١)، والسبعة في القراءات (ص:٣٤٠).

سورة يوسف عليه السلام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وهي مائة وإحدى عشرة آية مكية.

وكان السبب في نزولها: ما روي عن سعد بن أبي وقاص قال: «أنزل القرآن على رسول الله ﷺ، فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله! لو قصصتَ علينا، فأنزل الله تعالى: ﴿ألر -إلى قوله-: نحن نقص عليك أحسن القصص﴾»[1].

وقال ابن عباس: سألتِ اليهودُ رسولَ الله ﷺ عن أمر يعقوب وولده وشأن يوسف، فأنزل الله تعالى: ﴿ألر﴾[2].

الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾

وقد سبق في أول البقرة وأول يونس تفسير: ﴿ألر﴾.

﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ قال ابن الأنباري[3]: لما لحق أصحابَ رسول الله

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٧٦)، والطبري (١٢/ ١٥٠)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٠٩٩-٢١٠٠). وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص:٢٧٥)، والسيوطي في الدر (٤/ ٤٩٦) وعزاه لإسحاق بن راهويه والبزار وأبي يعلى وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان وأبي الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه.

(٢) زاد المسير (٤/ ١٧٧).

(٣) انظر: زاد المسير (٤/ ١٧٧).

ﷺ مللٌ وسآمة، قالوا: حدثنا ما يُزيل عنا هذا الملل، فقال: ﴿تلك آيات الكتاب﴾، أي: تلك الأحاديث التي تقدرون الانتفاع [بها][(١)] وزوال الملل هي آيات الكتاب.

ومعنى ﴿المبين﴾: المظهرُ للحق من الباطل، والحلالِ من الحرام. هذا قول ابن عباس ومجاهد[(٢)].

وقال معاذ بن جبل: المبين للحروف التي تسقط عن ألسن الأعاجم[(٣)].

وقيل: المبينُ لِمَا سألتْ عنه اليهودُ من قصة يوسف ويعقوب وأولاده وانتقالهم إلى مصر.

قوله تعالى: ﴿إنا أنزلناه﴾ يعني: الكتاب المشتمل على قصة يوسف، ﴿قرآناً عربياً﴾ حالان من الضمير المنصوب في أنزلناه[(٤)].

قال أبو عبيدة[(٥)]: من زعم أن في القرآن لساناً سوى العربية فقد أعظم على الله تعالى القول.

وروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة في آخرين: أن فيه من غير لسان العرب، مثل: سجِّيل، والمشكاة، واليمّ، والطور، وأباريق، وإستبرق، وغير ذلك[(٦)].

---

(١) قوله: «بها» ذُكرت بعد قوله: الملل. وانظر: زاد المسير (٤/ ١٧٧).

(٢) أخرجه الطبري (١٢/ ١٤٩) عن مجاهد. وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٧٧)، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٩٥) وعزاه لابن جرير.

(٣) أخرجه الطبري (١٢/ ١٤٩). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٧٧).

(٤) التبيان (٢/ ٤٨)، والدر المصون (٤/ ١٥٠).

(٥) مجاز القرآن (١/ ١٧).

(٦) زاد المسير (٤/ ١٧٨).

قال أبو عبيد(١): وهؤلاء أعلم من أبي عبيدة، وجمع بين المذهبين فقال: هذه الحروف بغير لسان العرب في الأصل، فقال: أولئك على الأصل، ثم لفظت به العرب [بألسنتها](٢)، فعرّبته فصار عربياً بتعريبها إياه، فهي عربية في هذه الحال، أعجمية في الأصل.

﴿لعلكم تعقلون﴾ أراد أن تفهموه.

وقال ابن عباس: لكي تفهموا(٣).

قوله: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ قال الزجاج(٤): المعنى: نحن نبين لك أحسن البيان.

قال صاحب الكشاف(٥): والقصص: مصدر، بمعنى: الاقتصاص. تقول: قَصَّ الحديث يقُصُّه قَصَصاً، مثل: شلَّهُ يشُلُّهُ شَللاً.

ويجوز أن يكون فعلاً بمعنى مفعول؛ كالحسب، ونحوه الخبر في معنى المخبر به.

ويجوز أن يكون من تسمية المفعول بالمصدر؛ كالخلق والصيد.

فإن أريد المصدر؛ فمعناه: نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص بإيحائنا إليك هذا القرآن، على أن يكون «أحسن» منصوباً نصب المصدر؛ لإضافته إليه، ويكون

---

(١) انظر: زاد المسير (٤/ ١٧٨).

(٢) زيادة من زاد المسير، الموضع السابق.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٩٩).

(٤) معاني الزجاج (٣/ ٨٨).

(٥) الكشاف (٢/ ٤١٥-٤١٦).

المقصوص محذوفاً؛ لأن قوله: ﴿بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾ مغن عنه.

وإن أريد بالقصص: المقصوص؛ فمعناه: نحن نقصّ عليك أحسن ما نقصّ من الأحاديث، وإنما كان أحسنه لما يتضمن من العبر والحكم والعجائب.

والظاهر: أنه أحسن ما نقصّ في بابه، كما يقال في الرجل: هو أعلم الناس وأفضلهم. يراد: في فنّه.

فإن قلت: مما اشتق القصص؟

قلت: من قَصَّ أَثَرَهُ؛ إذا اتبعه؛ لأن الذي [يقص][1] الحديث يتبع ما حفظ منه شيئاً فشيئاً، كما يقال: تلا القرآن؛ إذا قرأه، لأنه يتلو، أي: يتبع ما حفظ منه آية بعد آية.

﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ هذه: إنْ المخففة من الثقيلة، واللام هي التي تفرق بينها وبين النافية. والضمير في «قبله» راجع إلى قوله: ﴿بما أوحينا إليك﴾.

والمعنى: وإن الشأن والحديث كنتَ من قبل إيحائنا إليك من الغافلين عنه، أي: من الجاهلين به، ما كنت تعلمه ولا طَرَقَ سمعك.

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿إذ قال يوسف لأبيه﴾ بدل من «أحسن القصص» وهو من بدل

(١) في الأصل: يقتص. والتصويب من الكشاف (٢/ ٤١٦).

الاشتمال؛ لأن الوقت مشتمل على القصص وهو المقصوص[١]، فإذا قصّ وقته فقد قصّه، أو بإضمار «اذكر».

«يوسف» اسم عبراني. وقيل: عربي. وليس بصحيح؛ لأنه لو كان عربياً لانصرف؛ لخلوه عن سبب آخر سوى التعريف.

فإن قلت: فما تقول فيمن قرأ: «يوسِف» بكسر السين، أو «يوسَف» بفتحها، هل يجوز على قراءته أن يقال: هو عربي؛ لأنه على وزن المضارع المبني للفاعل والمفعول من آسف، وإنما منع الصرف من التعريف ووزن الفعل؟

قلت: لا؛ لأن القراءة المشهورة قامت بالشهادة على أن الكلمة أعجمية، فلا تكون عربية تارة وأعجمية أخرى، ونحو يوسف: يونس، رويت فيه اللغات الثلاث، ولا يقال: هو عربي؛ لأنه في لغتين منها بوزن المضارع من آنِس وأونس.

﴿يا أبت﴾ قرأ ابن عامر: «يا أبتَ» بفتح التاء في جميع القرآن ووقف بالهاء، ووافقه ابن كثير في الوقف. وقرأ الباقون بكسر التاء في جميع القرآن، ولم يبدلوها في الوقف هاء[٢].

والتقدير: يا أبتي، فاجتزأ بالكسرة عن الياء، وهذه التاء تاء التأنيث، وهي عِوَض عن ياء الإضافة، إذ لا يقال: يا أبتي، وإنما يقال: يا أبي أو يا أبت، وساغ بعوضها منها؛ لأنهما يتناسبان في كون كل واحد منهما زيادة مضمومة إلى الاسم في آخره.

---

(١) الدر المصون (٤/ ١٥١).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٤٢٦)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٥٣-٣٥٤)، والكشف (٢/ ٣)، والنشر (٢/ ٢٩٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٢)، والسبعة في القراءات (ص:٣٤٤).

ومن قال: «يا أبتَ» بفتح التاء؛ فلأن أبا عثمان حمله على أن أصله «يا أبتي» فأبدلت من الكسرة فتحة، ومن الياء ألف، فصار «يا أبتا»، ثم حذفت الألف فصار «يا أبتَ».

وقال الفراء[(١)]: التاء في «يا أبت» هاء، أصل دخولها للسكت، وهو قولهم: «يا أباه»، ثم سقطت الألف لدلالة فتحة الباء عليها، [وانصرفت][(٢)] الهاء إلى لفظ التاء؛ لكثرة الاستعمال، تشبيهاً بتاء التأنيث، وكسرت تقديراً أن بعدها ياء الإضافة، ولم تستعمل في غير النداء؛ لأن هاء السكت مع الألف لا يدخلان إلا في النداء والاختيار، كسر التاء على معنى: «يا أبتي»، ثم حذفت الياء لأن ياء الإضافة تحذف في النداء. ومن فتح التاء أبدل [الياء بالألف][(٣)]، فقال: «يا أبتا» ثم حذف الألف وأبقى الفتحة دليلاً عليها، كقول الأعشى:

يا أبتا لم تَرِمْ عندنـــا ... فَإنَّا بخيرٍ إذا لم تُــرَمْ[(٤)]

وقيل: فتحت التاء كما أقحموا تيماً في قوله:

يا تَيْمُ تَيْمَ عَديٍّ لا أبا لكُمُ ... لا يلقينَّكُم في سوْأةٍ عُمَرُ[(٥)]

---

(١) انظر: معاني الفراء (٢/ ٣٢)، والوسيط (٢/ ٦٠٠).

(٢) في الأصل: وانصرف. والتصويب من الوسيط، الموضع السابق.

(٣) في الأصل: التاء الألف. والتصويب من الوسيط، الموضع السابق.

(٤) البيت للأعشى. انظر: ديوانه (ص:٧٧)، والوسيط (٢/ ٦٠٠)، والدر المصون (٤/ ١٥١)، والحجة للفارسي (٢/ ٤٢٧). ورواية الديوان والمصادر:

ويا أبتا لا تَزَل عندنا ... فإنا نخافُ بأن تُخْتَرم

(٥) البيت لجرير وهو في: اللسان، مادة: (أبي).

وقرأ ابن أبي عبلة: «يا أبتُ» بضم التاء[١]. ومثله ما قرأته على شيخنا أبي البقاء: «يا قومُ» بضم الميم حيث وقع، وهي لغة يضم فيها الحرف الأخير بعد حذف ياء المتكلم.

قال بعض حذاق النحاة: أعضل مثل هذا العلماء بهذه الصناعة كما يعضل المريض الأطباء بعلته.

وقال الزجاج[٢]: لا يجوز الرفع إلا على ضعف؛ لأن الهاء جُعلت بدلاً من ياء الإضافة.

وقال الزمخشري[٣]: أما من ضم؛ فقد رأى اسماً في آخره تاء تأنيث، فأجراه مجرى الأسماء المؤنثة، فقال: «يا أبتُ»، كما يقال: «يا ثبة» من غير اعتبار بكونها عوضاً من ياء الإضافة.

قوله تعالى: ﴿إني رأيت أحد عشر كوكباً﴾ قرأ جمهور القراء: «أحد عَشر» بفتح العين، وقرأتُ لأبي جعفر بسكون العين[٤]، ومثله: تِسْعَةَ عَشَر، ويجوز في بقية العدد من أحد عشر إلى تسعة عشر تسكين العين.

قال أبو الفتح ابن جني[٥]: إلا اثنا عشر واثني عشر؛ لسكون ما قبلها.

وقد قرأتُ على شيخنا أبي البقاء لأبي جعفر يزيد بن القعقاع: «اثنا عشر شهراً»

---

(١) انظر: الدر المصون (٤/ ١٥٢).

(٢) معاني الزجاج (٣/ ٩٠).

(٣) الكشاف (٢/ ٤١٧).

(٤) النشر (٢/ ٢٧٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٢، ٢٦٢).

(٥) المحتسب (١/ ٣٣٢).

بسكون العين[1].

وقرأتُ له من طريق النهرواني: «اثنعشر» بحذف الألف، تحرزاً من التقاء الساكنين. والعلة في ذلك كله: طلب الخفة لتوالي الحركات فيما هو في حكم اسم واحد.

«كوكباً» نصب على التمييز.

﴿والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾ قال بعضهم: كرر «رأيتهم» لطول الكلام.

وقال بعض المحققين: «رأيتهم لي ساجدين» كلام مستأنف، وقع جواباً لسؤال مُقدَّر، كأن يعقوب قال له: كيف رأيتها؟ فقال: رأيتهم لي ساجدين.

وإنما كَنّى عن الكواكب والشمس والقمر بما يكني به عن العقلاء، وجمعها جمعهم بقوله: «ساجدين»؛ لأنه لما وصفها بالسجود -والسجود من أفعال العقلاء- استجاز الكناية عنها بكناية العقلاء.

فإن قيل: لم عَدَلَ عن الأصل؟

قلتُ: ليوافق الفواصل، وهو أسلوب مرعي في اللغة القدمى واللسان الفصيح.

قال المفسرون: كانت الكواكب في عبارة الرؤيا: إخوته، والشمس: أمه - وقيل: خالته، وهو قول من قال أن أمه كانت ماتت- والقمر: أباه[2].

---

(١) النشر (٢/ ٢٧٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٢).

(٢) أخرجه الطبري (١٢/ ١٥٢)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٠١). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٩٩) وعزاه لابن المنذر عن ابن عباس. ومن طريق آخر عن قتادة، وعزاه لعبد الرزاق وابن =

وقال السدي: الشمس: أبوه، والقمر: خالته[١].

واختلفوا في [مقدار][٢] سِنِّه يوم رآها؛ فقال وهب بن منبه: كان ابن سبع سنين[٣].

وقيل: اثنا عشر سنة. وقيل: سبع عشرة.

قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾

﴿قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك﴾ قرأ أبو جعفر: «روياك» والرويا ويائه بتخفيف الهمز وإدغام الواو في الياء، فتصير ياء مشددة. وخفف الهمزة من غير إدغام وَرْش وأبو عمرو في حال ترك الهمز، وأماله وما تصرف منه حيث كان الكسائي[٤].

وإنما نهاه عن قصص رؤياه على إخوته؛ لأنه عليه السلام عرف ما دلّت عليه الرؤيا من شرف يوسف وعلوّ مكانه وعظيم شأنه، وعرف أن إخوته من ذوي المهارة في العبارة، فخاف عليه أن يحملهم الحسد على اغتياله، فنهاه عن إعلامهم برؤياه، محذراً له من كيدهم، وهو قوله: ﴿فيكيدوا لك كيداً﴾ أي: فيحتالوا في

=

جرير وأبي الشيخ.

(١) زاد المسير (٤/ ١٨٠).

(٢) في الأصل: مقار.

(٣) زاد المسير (٤/ ١٨٠).

(٤) الحجة للفارسي (٢/ ٤٣١)، والنشر (١/ ٣٩١)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٢)، والسبعة في القراءات (ص:٣٤٤).

هلاكك ويبغوك الغوائل.

﴿إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾ فتحمله عداوته على إهلاكهم وإهلاكك، فيحتالوا لك في كل شر فيهلكوك، ويتورطوا في معصية الله، وقطع الرحم، وعقوق الوالد.

وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

قوله تعالى: ﴿وكذلك يجتبيك ربك﴾ أي: ومثل ذلك الاجتباء، يعني: كما اجتباك ربك لمثل هذه الرؤيا الدالة على ارتفاع مكانك وكبرياء شأنك، كذلك يجتبيك ويصطفيك لأمور عظام.

﴿ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾ قال ابن عباس: تعبير الرؤيا(١).

والرؤيا إما أن تكون حديث النفس، أو الملك، أو الشيطان. وتأويلها: تفسيرها وعبارتها.

وقيل: معاني كتب الله وحكم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

﴿ويتم نعمته عليك﴾ بالنبوة، واستحكام الملك في الدنيا، وارتفاع المنازل في الجنة.

﴿وعلى آل يعقوب﴾ أولاده وأهله المختصين بالنبوة، ﴿كما أتمها على أبويك من

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ١٨٣)، والطبري (١٢/ ١٥٣)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٠٣) كلهم من طريق مجاهد. وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٤٩٩) وعزاه لأبي الشيخ عن مجاهد.

قبل إبراهيم﴾ بالنبوة والخلة والإنجاء من النار ﴿وإسحاق﴾ بالنبوة أيضاً، وبأن جعل الأنبياء من نسله، ﴿إن ربك عليم﴾ بمن يصلح للنبوة والاصطفاء ﴿حكيم﴾ في تصاريف الأشياء.

۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى: ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾ قرأ ابن كثير: «آية». وقرأ الباقون «آيات» على الجمع (١).

والمعنى: لقد كان في خبر يوسف وإخوته عبرٌ وعجائب للسائلين عن قصتهم، فقُصَّها عليهم أحسن القصص من غير قراءة كتاب ولا سابقة اشتغال بعلم.

﴿إذ قالوا﴾ يعني: الإخوة فيما بينهم ﴿ليوسف﴾ هذه لام الابتداء، وهي متضمنة معنى التوكيد، ﴿وأخوه﴾ بنيامين، وكان أخاه من أبويه، والباقون لأبيه، ﴿أحب إلى أبينا منا﴾ وذلك أن يعقوب ﷺ كان يؤثره بزيادة المحبة، لصغره وفرط حسنه، وما يظهر عنه ويلوح من المخايل الدالة على نجابته واصطفائه، وتأهله

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٤٣٠)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٥٥)، والكشف (٢/ ٥)، والنشر (٢/ ٢٩٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٢).

لمنصبي الرسالة والسياسة، ﴿ونحن عصبة﴾ هذه واو الحال.

قال الفراء[١]: العُصْبة: عشرة فما زاد.

قال قتادة: ما بين العشرة إلى الأربعين[٢].

وقال الزجاج[٣] وابن قتيبة: هم الجماعة الذين أمرهم واحد، يتعصب بعضهم لبعض.

والمعنى: ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا، وهما اثنان صغيران لا يقومان بأمره، ونحن جماعة رجال كفاة، نقوم بمرافقه وننهض بأعبائه، فنحن أحق بزيادة المحبة منهما.

﴿إن أبانا لفي ضلال﴾ أي: ذهاب عن الصواب، ووجوب التعديل بيننا في المحبة ﴿مبين﴾ ظاهر.

قال الزجاج[٤]: لو أرادوا لفي ضلال في الدين لكانوا كفاراً.

وقرئ شاذاً: «ونحن عصبةً» بالنصب على المدح والافتخار.

قال:

أنا شيخُ العشيرةِ فاعرفوني ... حَميداً قد تذرَّيْتُ السَّنَاما[٥]

﴿اقتلوا يوسف﴾ قيل: إنهم أطبقوا على ذلك إلا الذي نهاهم. وقيل: قائل

---

(١) معاني الفراء (٢/ ٣٦).

(٢) زاد المسير (٤/ ١٨٣).

(٣) معاني الزجاج (٣/ ٩٣).

(٤) معاني الزجاج (٣/ ٩٣).

(٥) انظر: اللسان، مادة: (أنن)، والقرطبي (٣/ ٢٨٧)، والطبري (١٥/ ٢٤٧)، وزاد المسير (٥/ ١٤٤).

ذلك: شمعون، ورضي الباقون به، فنسب إليهم.

﴿أو اطرحوه أرضاً﴾ يريد: أرضاً مجهولة بعيدة من العمارة.

قال الزمخشري[١]: وهو معنى [تنكيرها][٢] وإخلائها من الوصف، ولإبهامها من هذا الوجه [نُصبت][٣] نَصب الظروف المبهمة.

وقال الزجاج[٤]: «أرضاً» منصوبة على إسقاط «في»، وإفضاء الفعل إليها؛ لأن «أرضاً» ليست من الظروف المبهمة.

﴿يخل لكم وجه أبيكم﴾ يتفرغ لكم ويُقبل بكُلِّيَتِه عليكم، فلا يلتفت إلى غيركم.

﴿وتكونوا من بعده﴾ أي: من بعد كفايته بالقتل أو التغريب. أو يرجع الضمير إلى مصدر «اقتلوا» أو «اطرحوا».

﴿قوماً صالحين﴾ تائبين إلى الله تعالى من جنايتكم. هذا معنى قول ابن عباس[٥].

وقال مقاتل[٦]: يصلح حالكم عند أبيكم.

---

(١) الكشاف (٢/ ٤٢١).

(٢) في الأصل: تنكرها. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

(٣) في الأصل: نصب. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

(٤) معاني الزجاج (٣/ ٩٣).

(٥) أخرج نحوه الطبري (١٢/ ١٥٥)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٠٥) كلاهما من طريق السدي. وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٨٤).

(٦) تفسير مقاتل (٢/ ١٣٩).

﴿قال قائل منهم﴾ وهو يهوذا في قول ابن عباس[١]. وشمعون في قول مجاهد[٢]، وروبيل في قول قتادة[٣].

﴿لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابت الجب﴾ قرأ نافع: «غيابات» على الجمع، وقرأ الباقون: «غيابة»[٤].

والجُبّ: الرَّكيَّة التي لم تُطْوَ بعد، فإذا طُويت فهي بئر، وسُمّي بذلك؛ لأنه يوجب جباً، أي: يقطع، وغَيابته: غوره وما غاب منه فأظلم من أسفله.

قال الحسن: في قعره[٥].

ومن قرأ على الجمع، جعل كل ناحية من نواحيه غيابة.

قال الزجاج[٦]: الغيابة: كل ما غاب عنك أو غَيَّب شيئاً عنك. قال المنخل:

فإن [أنا][٧] يوماً غيَّبَتْنِي غَيَابتي ... فَسِيروا بسَيْري في العشيرة والأهْل[٨]

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٠٦) عن السدي. وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٨٤).

(٢) أخرجه الطبري (١٢/ ١٥٦)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٠٦).

(٣) انظر: المصادر السابقة.

(٤) الحجة للفارسي (٢/ ٤٣١)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٥٥)، والكشف (٢/ ٥)، والنشر (٢/ ٢٩٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٢)، والسبعة في القراءات (ص:٣٤٥).

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٠٢).

(٦) معاني الزجاج (٣/ ٩٣-٩٤).

(٧) في الأصل: أتا. والتصويب من المصادر التالية.

(٨) البيت للمنخل، وهو: ابن سُبيع بن معاوية، روى له الآمدي في (المؤتلف) أبياتاً قالها في أخويه حين هاجرا من حلّته. (انظر: المؤتلف ص:٢٧١-٢٧٢). وانظر البيت في: مجاز القرآن (١/ ٣٠٢)، والقرطبي (٩/ ١٣٢)، وزاد المسير (٤/ ١٨٥)، والبحر المحيط (٥/ ٢٨٥).

واختلفوا في موضع الجبّ؛ فقال وهب: هو بأرض الأردن[١].

وقال قتادة: ببيت المقدس[٢].

وقال [مقاتل][٣]: هو ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام[٤].

﴿يلتقطه بعض السيارة﴾ يعني: المارَّة.

وقرأ الحسن: «تلتقطه» بالتاء، حملاً على المعنى[٥]؛ لأن بعض السَيَّارة سَيَّارة، وأنشدوا:

وتَشْرَقُ بالقول الذي قد أذعْتَه كما شَرِقَت صَدْرُ القناةِ من الدَّم[٦]

﴿إن كنتم فاعلين﴾ ما يحصل به غرضكم، فهذا هو الرأي.

قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾

ثم أخذوا في الاحتيال لذلك فقالوا ليوسف: أما تشتاق إلى الخروج معنا فنلعب ونتصيد؟ قال: بلى، قالوا: فسلْ أباك أن يرسلك معنا، فقال: أفعلُ. فدخلوا

---

(١) زاد المسير (٤/ ١٨٥).

(٢) أخرجه الطبري (١٢/ ١٥٦)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٠٧). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٠٩) وعزاه لعبدالرزاق وأبي الشيخ.

(٣) في الأصل: قتادة. والمثبت من زاد المسير (٤/ ١٨٥). وانظر: تفسير مقاتل (٢/ ١٤٠).

(٤) زاد المسير (٤/ ١٨٥).

(٥) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٢).

(٦) البيت للأعشى. وهو في: اللسان (مادة: شرق)، والقرطبي (٩/ ١٣٣)، والطبري (٢١/ ٧١)، وزاد المسير (٤/ ١٨٦).

بجماعتهم على يعقوب، فقالوا: يا أبانا إن يوسف قد أحبَّ أن يخرج معنا، فقال: ما تقول يا بُني؟ قال: نعم يا أبة، قد أرى من إخوتي اللين والعطف، فأنا أحب أن تأذن لي وأن ترسلني معهم، فحينئذ ﴿قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف﴾ أصلها: تأمننا، وبه قرأ ابن مقسم[١]، فأدغمت النون الأولى في الثانية، وبقي الإشمام بعد الإدغام دليلاً على ضم النون الأولى.

والإِشْمَامُ هو: ضَمّك شفتيك من غير صوت يسمع.

وقرأت لأبي جعفر: «تأمَنَّا» بفتح النون والإدغام من غير إشمام[٢].

وقرأ الحسن البصري بضم الميم والإدغام من غير إشمام[٣].

﴿وإنا له لناصحون﴾ استنزل لأبيه عن رأيه في رعايته [بعضهم][٤] وحفظه عنهم بما أظهروا له من آثار مصلحته والشفقة عليه والمحبة له.

المعنى: لِمَ تخافنا عليه ونحن نؤثر مصلحته وننصح له.

﴿أرسله معنا غداً﴾ إلى الصحراء ﴿نرتع ونلعب﴾ اختلف القراء في هذا الحرف، فقرأ ابن عامر وأبو عمرو بالنون فيهما، ومثله ابن كثير إلا أنه كسر العين من «نرتع»، وزادها ياء في الوصل والوقف ابن شنبوذ ونظيف عن قُنْبُل عنه. وقرأ الباقون: «يرتعْ ويلعبْ» بالياء فيهما، إلا أن نافعاً كسر العين من «يرتع»[٥].

---

(١) انظر: زاد المسير (٤/ ١٨٦).

(٢) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٢).

(٣) انظر: زاد المسير (٤/ ١٨٦).

(٤) في الأصل: بضهم. وفي الكشاف: استنزاله عن رأيه وعادته في حفظه منهم.

(٥) الحجة للفارسي (٢/ ٤٣٣)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٥٥-٣٥٦)، والكشف (٢/ ٥-٦)، والنشر (٢/ ٢٩٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٢-٢٦٣)، والسبعة في القراءات =

وقرأتُ ليعقوب الحضرمي من رواية زيد عنه: «نرتع» بالنون، «ويلعب» بالياء[١].

فمن قرأ: «نرتعْ» بسكون العين، فمعناه: يلْهُو وينْعَم ويتسع في أكل الفواكه وغيرها، من رَتَعَ البعير يرْتَعُ؛ إذا أَكَلَ ورَعَى كيف شاء[٢]. قال النابغة:

وكلَّفتْني ذنْبَ امرئ وتركْتَهُ كذي العُرِّ يُكْوَى غيرُه وهو راتِعُ[٣]

وهذا من جهل العرب، يزعمون أن الإبل إذا أصابها العُرّ، وهو الجَرَبُ، فكَووا الصحيح بَرَأَ السقيم.

قال المبرد: وكذلك الإنسان في الطعام، وأنشدوا:

وَحَبيبٌ لي إِذا لاقَيتُهُ وَإِذا يَخْلُو لَهُ لَحْمِي رَتَعْ[٤]

ومن قرأ «يرتِع» بالكسر، فهو يفتعل من الرعي، على معنى: يرتعي ماشيتنا، أو على معنى: نرعى ويحرس بعضنا بعضاً، من الرعاية، وهي الحفظ، على قراءة ابن كثير.

والجزم على جواب الأمر، وهو حذف حركة العين، أو حذف الياء على القراءة الأخرى، فإن أصلها: ترتعي. وحجة من قرأ وأثبت الياء: أن من العرب من يجري الفعل المعتل مجرى الصحيح، فتقول: لم يأتي زيد، وأنشدوا:

= (ص:٣٤٥-٣٤٦).

(١) انظر: البحر المحيط (٥/ ٢٨٦).

(٢) انظر: اللسان، مادة: رتع.

(٣) البيت للنابغة. وهو في: ديوانه (ص:٨١)، واللسان، مادة: (عرر).

(٤) انظر البيت في: زاد المسير (٤/ ١٨٧)، واللسان، مادة: (رتع).

أَلَمْ يَأْتِيكَ وَالأَنْبَاءُ تَنْمِي بِمَا لاَقَتْ لَبُونُ بَنِي زِيَادِ[(١)]

قال ابن مقسم العطار في كتاب المختار: هي لغة لبعض العرب، لا يحذفون لام الفعل إذا كانت واواً ساكنة أو ياء ساكنة، ذهاباً إلى أن الجزم تسكين الحرف، فإذا كان ساكناً في نفسه تركوه بحاله.

ومنهم من قال: أُشبعتْ كسرةُ العين فصارت منها الياء، كما قال:

أقولُ إن خَرَّتْ على الكَلْكَالِ يا ناقتي ما جُلْتِ من مَجَالِ[(٢)]

وقرأ أبو رجاء: «يُرتع» بياء مضمومة على حذف المفعول[(٣)]، كما في قوله في القصص: ﴿ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي﴾ [القصص:٢٣]. والمعنى: يُرتِع ماشيته.

وقرئ شاذاً: «يرتِع» بكسر العين، «ويلعبُ» بالرفع على الاستئناف[(٤)].

فإن قيل: كيف استجاز لهم يعقوب اللعب وأقرَّهم عليه؟

---

(١) البيت لقيس بن زهير من قصيدة يقولها فيما كان قد شجر بينه وبين الربيع بن زياد العبسي من أجل درع أخذها الربيع من قيس، فأغار قيس على إبل الربيع وباعها في مكة. انظر البيت في: الكتاب (٣/ ٣١٦)، واللسان، مادة: (قدر، أتى، رضي، شظي)، وابن يعيش (٨/ ٢٤)، والخصائص (١/ ٣٣٣)، والمحتسب (١/ ٦٧)، وشرح القصائد العشر للتبريزي (ص:١٠٢)، والبحر المحيط (٥/ ٢٨٦)، والدر المصون (٤/ ١٦٠، ٢١٢)، والحجة للفارسي (٣/ ١٤٨)، ومعاني الفراء (١/ ١٦١، ٢/ ١٨٨).

(٢) انظر البيت في: الطبري (١/ ٩١)، واللسان، مادة: (كلل).

والكَلْكَال: هو ما بين الترقوتين (اللسان، مادة: كلل).

(٣) البحر المحيط (٥/ ٢٨٦).

(٤) مثل السابق.

قلت: ليس المراد هاهنا اللعب المكروه الصادّ عن ذكر الله تعالى؛ لأنهم لو أرادوا ذلك لبادر ﷺ إلى إنكاره عليهم، وإنما أرادوا اللعب المباح من المسابقة على الأقدام والمناضلة بالسهام والمفاوضة فيما يشرع من ملح الكلام.

وقد روي [عن][(١)] أبي عمرو ابن العلاء أنه قال في جواب هذا: لم يكونوا إذا ذاك أنبياء. وليس بشيء، لأن الإشكال في إقرار يعقوب لهم على ذلك، وهذا لا يدفعه، وقراءة يعقوب فيما رواه زيد عنه حسنة، على معنى: نرتع ماشيتنا ويلعب هو، وحَسُن إضافة اللعب إليه؛ لصغر سنه.

﴿وإنا له لحافظون﴾ مما تخافه عليه.

قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

﴿قال إني ليحزنني أن تذهبوا به﴾ شوقاً إليه وخوفاً عليه. ثم قال في جهة الاعتذار عن حبسه عنهم: ﴿وأخاف أن يأكله الذئب﴾ فلقنهم العلة، ونبههم على ما يصلح أن يعتذر به، كما قيل: «البلاء موكل بالمنطق»[(٢)].

قرأ وَرْش والكسائي: «الذيب» بغير همز، وهَمَزَه الباقون في المواضع الثلاثة

---

(١) زيادة على الأصل.

(٢) أخرجه القضاعي في مسنده (١/ ١٦١ ح٢٢٧) من حديث حذيفة، وأيضاً (١/ ١٦٢ ح٢٢٨) من حديث علي. وأخرجه البيهقي في الشعب (٤/ ٢٤٤ ح٤٩٤٨) بلفظ: «البلاء موكل بالقول» من حديث أنس بن مالك. وكذلك ابن أبي شيبة (٥/ ٢٣١ ح٢٥٥٤٧) كلفظ البيهقي من حديث ابن مسعود.

على الأصل[١].

أخبرنا الإمام أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي[٢] قراءة عليه وأنا أسمع، أبنا أبو منصور عبد الرحمن بن محمد القزاز، أبنا الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب، أبنا محمد بن علي الصوري[٣]، أبنا أبو الحسن عبيد الله بن القاسم القاضي، ثنا علي بن محمد الحراني، ثنا أبو بكر محمد بن يحيى المروزي[٤]، قال: سألت خلف بن هشام: لم سُمِّيَ الكسائي كسائياً؟ فقال: دخل الكسائي الكوفة، فتقدم الكسائي مع أذان الفجر فجلس وهو ملتف بكساء، فرمقه القوم بأبصارهم، فقالوا: إن كان حائكاً فسيقرأ سورة يوسف، وإن كان ملاحاً فسيقرأ سورة طه،

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٤٣٧)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٥٧)، والكشف (١/ ٨٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٣)، والسبعة في القراءات (ص:٣٤٦).

(٢) زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد بن عصمة بن حمير سنان، أبو اليمن البغدادي. ولد في شعبان سنة عشرين وخمسمائة، وحفظ القرآن وهو صغير، وأجاز له عدد كثير، وتردد إلى البلاد وإلى مصر والشام يتّجر، ثم استوطن دمشق ورأى عزاً وجاهاً، وكثرت أمواله، وازدحم عليه الفضلاء، وعمّر دهراً، وكان حنبلياً فانتقل حنفياً، وبرع في الفقه وفي النحو، وأفتى ودرّس وصنّف، وله النظم والنثر، وكان صحيح السماع ثقة في نقله، ظريفاً كيّساً ذا دعابة وانطباع، توفي يوم الاثنين سادس شوال سنة ثلاث عشرة وستمائة (سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٤-٤١).

(٣) محمد بن علي بن عبد الله بن محمد بن رحيم الشامي الساحلي، أبو عبد الله الصوري. ولد سنة ست أو سبع وسبعين وثلاثمائة، كان من أحرص الناس على الحديث وأكثرهم كتباً له وأحسنهم معرفة به، صحيح النقل، صدوقاً، مات في جمادى الآخرة سنة إحدى وأربعين وأربعمائة (سير أعلام النبلاء ١٧/ ٦٢٧-٦٣١).

(٤) محمد بن يحيى بن سليمان، أبو بكر المروزي البغدادي، صدوق، مات في شوال سنة ثمان وتسعين ومائتين (سير أعلام النبلاء ١٤/ ٤٨-٤٩).

فسمعهم، فابتدأ بسورة يوسف، فلما بلغ إلى قصة الذئب قرأ: «فأكله الذيب» بغير همز. قال له حمزة: الذئب بالهمز، فقال له الكسائي: وكذلك أهمز الحوت في «فالتقمه الحؤت» قال: لا. قال: فلم همزت الذئب ولم تهمز الحوت؟ فرفع حمزة بصره إلى خلاد وكان [أجمل][(1)] غلمانه، فتقدم إليه في جماعة [من][(2)] أهل المجلس فناظروه، فلم يصنعوا شيئاً. فقالوا: أفدنا يرحمك الله! فقال لهم الكسائي: تفهموا عن الحائك. تقول: إذا نسبت الرجل إلى الذئب: قد استذأب الرجل، فلو قلت: قد استذاب بغير همز، لكنت إنما نسبته إلى الهزال، تقول: قد استذأب الرجل؛ إذا استذاب شحمه، بغير همز، وإذا نسبته إلى الحوت قلت: قد استحات الرجل، أي: كثر أكله؛ لأن الحوت يأكل كثيراً، لا يجوز فيه الهمز، فلتلك العلة همز الذئب ولم يهمز الحوت. وفيه معنى آخر: لا يسقط الهمز من مفرده ولا من مجموعه. وأنشدهم:

أيها الذئب وابنه وأبوه   أنت عندي من أذأب ضاريات

فسمي الكسائي من ذلك اليوم[(3)].

فإن قيل: ما الحكمة في تخصيصه الذئب من بين سائر المخاوف؟

قلت: قد روي عن ابن عباس: أن يعقوب عليه السلام كان رأى في منامه أن ذئباً شدَّ على يوسف، فكان يَحْذَرُه[(4)].

---

(١) في الأصل: أحمد. والتصويب من تاريخ بغداد (١١/ ٤٠٥).

(٢) زيادة من تاريخ بغداد، الموضع السابق.

(٣) انظر هذه القصة في: تاريخ بغداد (١١/ ٤٠٥).

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٠٢)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٨٨).

وقال مقاتل[(١)]: كانت أرضهم كثيرة الذئاب.

وقال الماوردي[(٢)]: خافهم عليه فكنى بذكر الذئب. ويَرُدُّ قولَه تمامُ الآية وهو قوله: ﴿وأنتم عنه غافلون﴾ أي: برعيكم ولعبكم.

﴿قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة﴾ القسم محذوف، واللام في «لئن أكله» موطئة للقسم. وقوله: ﴿إنا إذاً لخاسرون﴾ يسُدّ مسَدّ جواب القسم وجواب الشرط. والواو في «ونحن عصبة» واو الحال.

قال ابن الأنباري[(٣)]: ومن قرأ «عصبةً» فعلى معنى: ونحن نجتمع عصبة.

والمعنى: إنا إذاً لهالكون ضعفاً وعجزاً إن أكل أخانا الذئب ونحن معه.

قال صاحب الكشاف[(٤)]: إن قلت: قد اعْتَذَرَ إليهم بعذرين، قوله: ﴿ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب﴾ فلم أجابوا عن أحدهما دون الآخر؟

قلت: هو الذي كان يغيظهم ويذيقهم الأمرَّين، فأعاروه [آذاناً][(٥)] صماً ولم يعبأوا به.

فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿فلما ذهبوا به﴾ فيه إضمار تقديره: فأرسَلَهُ معهم، فلما ذهبوا به،

---

(١) تفسير مقاتل (٢/ ١٤٠).

(٢) تفسير الماوردي (٣/ ١٣).

(٣) انظر: زاد المسير (٤/ ١٨٨).

(٤) الكشاف (٢/ ٤٢٣).

(٥) في الأصل: أذناً. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

﴿وأجمعوا﴾ أي: عزموا على أن يجعلوه في غيابة الجُبّ.

قال أهل التفسير: خرجوا بيوسف فلما أصحروا به أظهروا له ما في أنفسهم من العداوة، فجعل يلجأ إلى هذا فيضربه وإلى هذا فيؤذيه، فلما فطن لما قد أجمعوا عليه جعل ينادي: يا أبتاه يا يعقوب، لو تعلم ما يُصنع بابنك وما قد نزل به من إخوته لأحزنك ذلك يا أبتاه، ما أعجل ما نسوا عهدك وضيعوا وصيتك، وجعل يبكي بكاءاً شديداً(١).

قال ابن عباس: فأخذه روبيل فجلد به الأرض، ثم جثم على صدره وأراد قتله، فقال له يوسف: مهلاً يا أخي لا تقتلني، فقال: يا ابن راحيل يا صاحب الأحلام، قل لرؤياك تخلصك من أيدينا، ولوى عنقه لكسرها، فنادى يوسف: يا يهوذا، اتق الله وخلّ بيني وبين من يريد قتلي. فقال يهوذا -وأدركته له رحمة-: يا إخوتي! ألا أدلكم على أمر هو خير لكم وأرفق به؟ [قالوا: وما ذاك؟ قال](٢): تلقونه في هذا الجب فتلتقطه بعض السيارة. قالوا: نفعل. فانطلقوا به إلى الجب، فلما أرادوا تدليته تعلق بثياب بعضهم، فنزعوها من يديه، فجعل يتشبث بحائط الجب، فربطوا يديه ونزعوا قميصه ليحتالوا به على يعقوب، فقال: يا إخوتاه، ردّوا عليّ قميصي أستتر به، فلم يفعلوا ودلّوه في الجب.

قال السدي: فلما بلغ نصفه ألقوه إرادة أن يموت، وكان في البئر ماء فسقط، ثم أوى إلى صخرة فيه فقام عليها وهو يبكي، فنادوه، فظنّ أنها رحمة أدركتهم،

---

(١) أخرج نحوه الطبري (١٢/ ١٦٠)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٠٨-٢١٠٩) كلاهما من حديث السدي. وذكر نحوه السيوطي في الدر (٤/ ٥٠١) وعزاه لهما.

(٢) زيادة من زاد المسير (٤/ ١٨٩).

فأجابهم، فأرادوا أن يرضخوه بصخرة ليقتلوه، فمنعهم يهوذا. وقالوا له: ادعُ الشمس والقمر والكواكب لتؤنسك. قال: وكان يهوذا يأتيه بالطعام(١).

وقال كعب: جمعوا يديه إلى عنقه، ونزعوا قميصه، فبعث الله [إليه](٢) مَلَكاً فحلّ عنه. وكان يعقوب قد أدرج قميصَ إبراهيم الذي كساه الله يوم أُلقي في النار في قصبة، وجعلها في عنق يوسف، فألبسه إياه المَلَكُ حينئذ، فأضاء له الجُبّ(٣).

قال الحسن: أُلقي في الجبّ فَعَذُبَ ماؤه، فكان يغنيه عن الطعام والشراب، ودخل عليه جبريل فأنس به، فلما أمسى نهض جبريل عليه السلام ليذهب، فقال له يوسف: إنك إذا خرجت عني استوحشت، فقال: إذا هِبْتَ شيئاً فقل: يا صريخ المستصرخين! ويا غوث المستغيثين! ويا مفرج كرب المكروبين! قد ترى مكاني وتعلم حالي، ولا يخفى عليك شيء من أمري. فلما قالها حفّته الملائكة، فاستأنس في الجبّ، ومكث فيه ثلاثة أيام، وكان إخوته يرعون حول الجب(٤).

قال الحسن: أُلقي في الجب وهو ابن أربع عشرة سنة(٥).

وقال محمد بن مسلم الطائفي: لما أُلقي يوسف في الجب قال: يا شاهداً غير غائب! ويا قريباً غير بعيد! ويا غالباً غير مغلوب! اجعل لي فرجاً مما أنا فيه. قال:

---

(١) أخرجه الطبري (١٢/ ١٦٠)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٠٩). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٠١) وعزاه لهما.

(٢) زيادة من زاد المسير (٤/ ١٩٠).

(٣) زاد المسير (٤/ ١٩٠).

(٤) مثل السابق.

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٠٣)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٩١). وفيهما: أنه ابن اثنتا عشرة سنة.

فما بات به[١].

قوله تعالى: ﴿وأوحينا إليه﴾ قيل: إنه وحي إلهام، وهو مروي عن ابن عباس[٢].

وقيل: إنه على حقيقته، وأن الله تعالى أوحى إليه صغيراً كما أوحى إلى يحيى وعيسى.

قال المفسرون: أوحى الله تعالى إليه لتخبرن إخوتك بأمرهم وبما صنعوا بك، وأنت عالٍ عليهم[٣].

والمعنى: ﴿وهم لا يشعرون﴾ أنك يوسف؛ لعظمة شأنك وعز سلطانك، وبُعد هيئتك عن أوهامهم الكاذبة وظنونهم الباطلة.

وقيل: وهم لا يشعرون بالوحي. وهو قول مجاهد وقتادة[٤].

فعلى هذا القول الأول يكون قوله: «وهم لا يشعرون» متعلقاً بقوله: «لتنبئنهم».

وعلى الثاني بقوله: «وأوحينا إليه». والأول أصح، وهو قول ابن عباس.

قال حميد: قلت للحسن: أيَحسد المؤمن المؤمن؟ فقال: لا أبا لك! ما نسّاك بني يعقوب[٥].

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٠٣)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٩٠).

(٢) زاد المسير (٤/ ١٩١).

(٣) أخرج نحوه الطبري (١٢/ ١٦٢) عن ابن عباس. وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٩١).

(٤) أخرجه الطبري (١٢/ ١٦١-١٦٢)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٠٩).

(٥) زاد المسير (٤/ ١٩١).

وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا
يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا
صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ
أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وجاؤوا أباهم عشاءً يبكون﴾ «عشاءً» نصب على الظرف[١].

وقرئ شاذاً: «عُشَيّاً» على تصغير عشي[٢].

وذكر أبو الفتح ابن جني في كتاب المحتسب[٣]: أن الحسن قرأ: «عُشًا» بضم العين والقصر[٤]، أي: عُشْواً من البكاء[٥].

وطريق ذلك: أنه أراد جمع عَاشٍ، وكان قياسه عُشَاةً، كَماشٍ ومُشَاة، إلا أنه حذف الهاء تخفيفاً وهو يريدها، كقوله:

أَبْلِغِ [النعمان][٦] عني مَأْلُكاً ... أنه قد طَالَ حَبْسِي وانتظاري[٧]

---

(١) انظر: التبيان (٢/ ٥٠)، والدر المصون (٤/ ١٦٢).

(٢) انظر: البحر المحيط (٥/ ٢٨٨).

(٣) المحتسب (١/ ٣٣٥).

(٤) انظر: إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٣).

(٥) أي: صار كل واحد منهم أعشى، والأعشى: هو الذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل (انظر: اللسان، مادة: عشا).

(٦) في الأصل: العثمان. والتصويب من مصادر التخريج.

(٧) البيت لعدي بن زيد. انظر: اللسان، مادة: (ألك)، وزاد المسير (١/ ٥٩)، والمنصف (٢/ ١٠٤)، وفصل المقال في شرح كتاب الأمثال (ص:٢٦٦).

أراد: مألُكَة، فحذف الهاء.

ثم قال[١]: وفيه بُعد، هذا ضعيف؛ لأن القوم ما بَكَوا في ذلك اليوم قدر ما يعشو الإنسان منه.

قال ابن عباس: ذبحوا سخلة وجعلوا دمها على قميص يوسف[٢].

﴿وجاؤوا أباهم عشاءً يبكون﴾ قال المفسرون: جاؤوا وقت العتمة ليكونوا في الظُّلمة أجرأ على الاعتذار بالكذب[٣].

قال بعضهم: لا تطلب الحاجة بالليل، فإن الحياء في العينين، ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتلجلج في الاعتذار، فلا تقدر على إتمامه[٤].

وقيل: أخَّروا المجيء إلى وقت العشاء ليدلّسوا على أبيهم بتأخيرهم عن وقت العادة.

قال السدي: فلما سمع أصواتهم فزع، فقال: ما لكم! أين يوسف؟ ﴿قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق﴾ قال ابن عباس: نَنْتَضِل[٥].

وقال السدي: نشْتَدّ على الأقدام[٦].

وقال مقاتل[٧]: نستبق إلى الصيد.

---

(١) أي: ابن جني في المحتسب (١/ ٣٣٥).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٠٣).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٠٣)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٩١).

(٤) القرطبي (٩/ ١٤٤)، والبحر المحيط (٥/ ٢٨٨-٢٨٩).

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٠٣)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٩١).

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٠٣) عن مقاتل، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٩٢).

(٧) تفسير مقاتل (٢/ ١٤٢).

﴿وتركنا يوسف عند متاعنا﴾ أي: ثيابنا ﴿فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا﴾ أي: بمصدق لنا، ﴿ولو كنا صادقين﴾.

قال الزجاج(١): ليس يريدون أن يعقوب ﷺ لا يُصَدِّقُ من يعلم أنه صادق، هذا مُحال، لا يوصف الأنبياء صلوات الله عليهم بذلك، ولكن المعنى: لو كنا عندك من أهل الثقة والصدق لاتَّهمتَنا بيوسف لمحبتك إياه، وظننت أنا قد كذبْناك.

﴿وجاؤا على قميصه بدم كذب﴾ أي: بدم ذي كذب، والمعنى: بدم مكذوب فيه.

قال اللغويون(٢): العرب تجعل المصدر في كثير من الكلام مفعولاً، فيقولون: للعقل معقول، وللكذب مكذوب. قال الشاعر:

حتى إذا لم يترُكُوا لعظامه ... لحماً ولا لفؤادهِ معْقُولا(٣)

ويقولون: هذا ماء سكب، وشراب صب، وماء غور، أي: مسكوب ومصبوب وغائر.

وقيل: وُصف بالمصدر مبالغةً، كأنه نفسُ الكذب وعينُه، كما يقال للكذّاب: هو الكذب بعينه، والزور بذاته، ونحوه: فهُنَّ به جُودٌ وأنتَ به بُخل.

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ٩٦).

(٢) انظر: معاني الفراء (٢/ ٣٨).

(٣) البيت: للراعي. وهو في: الطبري (١٢/ ١٦٥)، والقرطبي (١٨/ ٢٢٩)، وزاد المسير (٤/ ١٩٢)، ومعاني الفراء (٢/ ٣٨).

وقرأ ابن أبي عبلة: «كذباً» بالنصب على الحال[١]، بمعنى: جاؤوا به كاذبين، أو مفعول له.

وقرأتْ عائشة وابن عباس والحسن وأبو العالية: «كَدِبٍ» بالدال المهملة[٢]، أي: طري.

قال ابن فارس[٣]: وفيه نظر.

وقال الزمخشري[٤]: هو الكدر.

وقال أبو الفتح عثمان ابن جني في كتاب المحتسب[٥]: أصل هذا من [الكَدَب][٦]. وهو الفُوفُ[٧]: أعني: البياض الذي يخرج على أظفار الأحداث، فكأنه دم قد أثَّرَ في قميصه.

وقد روي: أن يعقوب عليه السلام لما سمع بخبر يوسف صاح بأعلى صوته: أروني قميصه، فوضعه على وجهه وبكى، ثم قال: كذبتم، لو أكله الذئب لخرق القميص!.

---

(١) انظر: زاد المسير (٤/ ١٩٣).

(٢) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٣).

(٣) معجم مقاييس اللغة (٥/ ١٦٨).

(٤) الكشاف (٢/ ٤٢٥).

(٥) المحتسب (١/ ٣٣٥).

(٦) في الأصل: الكذب. والمثبت من المحتسب، الموضع السابق.

(٧) الفُوف: البياض الذي يكون في أظفار الأحداث، وكذلك الفَوْفُ، واحدته: فُوفَة، يعني بواحده، الطائفة منه. ومنه قيل: بُرْدٌ مُفَوَّفٌ. وقال الجوهري: الفُوف: الحبة البيضاء في باطن النواة التي تنبت منها النخلة (اللسان، مادة: فوف).

﴿قال بل سوّلت لكم﴾ أي: بل زيَّنَتْ لكم ﴿أنفسكم أمراً﴾ غير ما تقولون ﴿فصبر جميل﴾ وهو الذي لا جزع فيه ولا شكوى.

قال الخليل: تقديره: فشأني صبر جميل، فحذف المبتدأ.

وقال قطرب: المعنى: فصبري صبر جميل.

وقدّره قوم: فصبر جميل أمثل وأحسن، على حذف الخبر.

وقرأ ابن مسعود وأُبيّ بن كعب: «فصبراً جميلاً» بالنصب على المصدر[1].

﴿والله المستعان على ما تصفون﴾ أي: على احتمال ما تصفون من هلاك يوسف، والصبر على الرزية.

أخبرنا أبو القاسم علي بن أبي منصور الموصلي، أبنا ابن بَوْش قراءة عليه، أبنا أبو العز بن كادش، أبنا أبو علي الجازري، أبنا المعافى بن زكريا الجريري، ثنا أحمد بن جعفر بن محمد بن المنادي، ثنا محمد بن إسماعيل بن يونس إملاءً، ثنا أبو صالح سهل بن خاقان -وكان من خيار المسلمين- قال: سمعت أبا المورِّع يقول: أول من قال بيت شعر: يعقوب النبي عليه الصلاة والسلام لما جاؤوا فأخبروه عن يوسف بالذي أخبروه به، فقال:

فَصَبْرٌ جَمِيلٌ بالذي جِئْتُمُوا بِهِ وَحَسْبي إِلهي في المُهِمّات كَافِيَا[2]

---

(١) انظر: زاد المسير (٤/ ١٩٣).

(٢) ذكره البيهقي في الشعب (٢/ ٢٤٧). والمعروف: أن يعقوب عليه السلام إنما كان يتكلم اللغة العبرية، ولم يؤثر عنه أنه تكلم العربية.

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وجاءت سيارة﴾ أي رُفقة تسير من قبل مدين إلى مصر، فأخطؤوا الطريق، فنزلوا قريباً من الجبّ، ﴿فأرسلوا واردهم﴾ وهو الذي يَرِدُ الماء ليستقي للقوم.

قال ابن عباس: واسمه: مالك بن ذعر بن [يؤيب بن عيفا][1] بن مدين بن إبراهيم[2]. ﴿فأدلى دلوه﴾ أرسلها ليملأها. قال الزجاج[3]: يقال: أدْلَيْتَ الدَّلْوَ؛ إذا أرسلتها لتملأها، ودَلَوْتها؛ إذا أخرجْتَها[4].

قال ابن السكيت[5]: الدَّلْو: الغالب عليها التأنيث، وتصغيرها: دُلَيَّة وقد [تذكَّر][6].

قال عدي:

---

(١) في الأصل: عيفا بن يؤيب. والتصويب من زاد المسير (٤/ ١٩٤). وانظر: الطبري (١٢/ ١٧٥) وفيه: ثويب بن عنقاء.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٠٤)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٩٤).

(٣) معاني الزجاج (٣/ ٩٧).

(٤) انظر: اللسان (مادة: دلا).

(٥) إصلاح المنطق (ص:٣٥٩).

(٦) في الأصل: ذكر. والتصويب من إصلاح المنطق، الموضع السابق.

فَهِيَ كَالدَّلْوِ بكَفِّ المُسْتَقِي خَذَلَتْ مِنْها العَرَاقي فَانْجَذَمْ[(١)]

وقال أبو عبيدة وأبو زيد: أدليت ودلوت بمعنى واحد، إذا أرسلتها. واحتجا بقول الشاعر:

يَكْشِفُ عن جَمَّاتِهِ دَلْوُ الدَّال ....[(٢)]

وذلك أنَّ من أرسل الدلو فإنه يُخرجها، فلهذا قيم أحدهما مقام الآخر.

﴿قال يا بشراي﴾ قرأ أهل الكوفة «بُشْرى» غير مضاف، وأماله حمزة والكسائي، وقرأ الباقون «بُشْرَاي» على الإضافة، ووَرْش يُسَكِّن الياء[(٣)]، وفيه بُعْد؛ لما فيه من التقاء الساكنين، ومن أجازه فلحيلولة المَدَّة بينهما، وأماله بين اللفظين ورش من طريق المصريين.

وقرأ جماعة منهم الجحدري والحسن: «بُشْرَيَّ» بتشديد الياء وفتحها من غير ألف[(٤)].

قال الجحدري: بنوا [فزارة][(٥)] وقوم من قيس يقولون: بُشْرَيَّ، وهذه عَصَيّ، وهذا قَفَيّ، إذا أضافوا إلى أنفسهم؛ لخفاء الألف، فيبدلون منها ياء ويدغمونها في ياء الإضافة، ومن تابعهم كثير.

---

(١) البيت لعدي بن زيد يصف فرساً. انظر البيت في: اللسان، مادة: (عرق، خذل).
والعَرَاقي: هما الخشبتان المعترضتان على الدلو كالصليب (اللسان، مادة: عرق).

(٢) صدر بيت للعجاج، وعجزه: (غَباءةً غَبْراء من أجْنٍ طال). انظر: اللسان (مادة: دلا).

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٤٣٨)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٥٧)، والكشف (٢/ ٧)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٣)، والسبعة في القراءات (ص:٣٤٧).

(٤) انظر: زاد المسير (٤/ ١٩٤).

(٥) في الأصل: فزاة.

وقال ابن جني[(١)]: هي لغة فاشية فيهم، منها ما رويناه عن قطرب من قول الشاعر:

يُطَوِّفُ بي [عِكَبٌّ][(٢)] في مَعَدٍّ وَيَطْعُنُ بالصُّمُلَّةِ في قَفَيَّا
فَإِنْ لم [تَثْأَرا][(٣)] لي مِنْ عِكَبّ فلا [أَرَوَيْتُما][(٤)] أبداً صَدَيَّا[(٥)]

قال الزمخشري[(٦)]: هي لغة للعرب مشهورة. سمعتُ أهل السروات يقولون: يا سيديَّ ومولِيَّ.

ومن قرأ: «بشرايَ» أضاف البشرى إلى نفسه، كقوله: يا سروري ويا فرحي، على الاستيثار لما رأى.

ومن قرأ: «يا بشرى» بغير إضافة، أمكن أن يكون أراد: يا أيتها البشرى، أو: يا مَنْ حضر هذه البشرى.

---

(١) المحتسب (١/ ٣٣٦).

(٢) في الأصل: كعب. وكذا وردت في الموضع التالي. والتصويب من المحتسب، الموضع السابق.

(٣) في الأصل: تثأروا. والتصويب من المحتسب، الموضع السابق.

(٤) في الأصل: رويتما. والتصويب من المحتسب، الموضع السابق.

(٥) البيتان للمنخل اليشكري، وهما في: اللسان، مادة: (عكب، حرر)، ومعاني الفراء (٢/ ٣٩)، والخصائص (١/ ١٧٧)، وشرح الحماسة للتبريزي (٢/ ٤٨).

وسبب هذا الشعر: أن المتجردة امرأة النعمان كانت تهوى المنخل اليشكري، وكان يأتيها إذا ركب النعمان، فلاعبته يوماً بقيد جعلته في رجله ورجلها، فدخل عليهما النعمان وهما على تلك الحال، فأخذ المنخل ودفعه إلى عِكَب اللخمي صاحب سجنه، فتسلمه فجعل يطعن في قفاه بالصُّمُلَّة، وهي حربة كانت في يده (اللسان مادة: حرر).

(٦) الكشاف (٢/ ٤٢٦).

قال الزجاج[1]: معنى النداء في هذه الأشياء التي لا تجيب ولا تعقل؛ إنما هو على تنبيه المخاطبين، وتوكيد القصة. إذا قلت: يا [عجباه][2]، فكأنك قلت: اعجبوا، [ويا][3] أيها العجبُ هذا من حِينِكَ. وكذلك إذا قال: يا بشرايَ، فكأنه قال: أبشروا، وكأنه قال: يا أيها البشرى هذا من إبَّانِكِ وزمانِكِ.

وذكر السدي: أنه نادى بذلك صاحبه، وكان اسمه: بُشْرى[4].

وقال ابن الأنباري[5]: يجوز أن يكون اسم امرأة.

والأول هو وجه الكلام. وقول السدي وابن الأنباري في غاية البُعد؛ لأن طريق ثبوته النقل، ولا سبيل لهما إليه.

قال ابن عباس وغيره: لما أدلى دَلْوه تَعَلَّقَ يوسف بالحَبْل، فأخرجه مالك[6]، فلما نظر إليه رأى غلاماً أحسن ما يكون من الغلمان، فقال لأصحابه: البشرى؟ قالوا: ما [وراءك][7]؟ قال: هذا غلام في البئر، فأقبلوا يسألونه الشركة فيه.

وقال بعضهم لبعض: اكتموه عن أصحابكم لئلا يسألونكم الشركة فيه. فإن قالوا: ما هذا؟ فقولوا: استبضعناه أهلَ الماء لنبيعه لهم بمصر، فجاء إخوة يوسف،

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ٩٧).

(٢) في الأصل: عجباً. والتصويب من معاني الزجاج، الموضع السابق.

(٣) في الأصل: يا. والتصويب من معاني الزجاج، الموضع السابق.

(٤) أخرجه الطبري (١٢/ ١٦٧)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١١٣). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥١٥) وعزاه لابن المنذر وأبي الشيخ.

(٥) انظر: زاد المسير (٤/ ١٩٤).

(٦) هو: مالك بن ذعر، وسيأتي ذكره في نهاية الأثر.

(٧) في الأصل: رآك. والتصويب من زاد المسير (٤/ ١٩٤).

فقالوا لهم: هذا غلام أَبَقَ منا. فقال مالك بـن ذعـر: أنـا أشـتريه مـنكم، فبـاعوه بعشرين درهماً وحلّة ونعلين، فسكت يوسف مخافة أن يقتلوه[١].

قال أبو علي الجرجاني في شرح الفصيح: تقول غلام بين الغُلُومِيَّة والغُلُومَة. والغُلام: الصغير إلى حدّ الالْتِحَاء.

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في بعض أراجيزه:

أنا الغلام الهاشمي المكي

قال بعضهم: يستحق هذا الاسم إذا ترعرع وبلغ الاحتلام واشتهى النكاح، وتسميته قبل ذلك غلاماً للتفاؤل، وبعد ذلك تسميته غلاماً بطريق المجاز، ويقال للجارية: غلامة. وجمع الغلام: غِلْمَة، للقليل، وغِلْمان للكثير؛ كعِقَاب وعِقْبـان، وتصغير غِلْمان: أُغَيْلِمَة، ومثله مما تزاد الألف في تصغيره: أَصْبِيَة في تصغير: صِبْيَة، وأَبْنون في تصغير: بَنِين قال:

زَعَمَتْ تُمَاضِرُ أَنَّني إِمّا أَمُتْ يَسْدُدْ بُنَيُّوها الأصاغِرُ خَلَّتي[٢]

وفي الحديث: «كان النبي ﷺ يلْطَحُ أُغَيْلِمَة بنـي عبـد المطلـب ليلـة المزدلفـة ويقول: أبيني لا ترموا جمرة العقبة حتى تطلع الشمس»[٣].

اللَّطْحُ: الضرب الخفيف بالكف[٤].

---

(١) زاد المسير (٤/ ١٩٤-١٩٥).

(٢) البيت لسلمى بنت ربيعة. انظر: اللسان، مادة: (خلل).

(٣) أخرجه أبو داود (٢/ ١٩٤ ح١٩٤٠)، وابن ماجه (٢/ ١٠٠٧ ح٣٠٢٥).

(٤) انظر: اللسان، مادة: (لطح).

وإنما قلت في تصغير غِلْمان أُغَيْلَمة؛ لأنـك[١] نقلتـه إلى العـدد اليـسير، لأن التصغير يفيد التحقير، والكثير يخالف ذلـك. وتقـول في تـصغير حمـيّر: أحمـيّرة، صغَّرت أحْمِرة، وفي تصغير فُلُـوس: أفـيْلِس، صـغَّرت أفْلُـس، ويقـال للغـلام: وصِيف، وللجارية: وصيفة، ويقال: أوْصَفَ الغلام وأوْصَفَتِ الجارية.

قوله تعالى: ﴿وأسرّوه بضاعة﴾ قـال الزجـاج[٢]: «بـضاعةً» منـصوب عـلى الحال، كأنه قال: وأسرُّوه جاعِلِيهِ بضاعة.

وقال غيره: البضاعة: ما بُضِعَ من مال التجارة، أي: قُطِعَ، وضمير الفاعل في قوله: «وَأَسَرُّوهُ» عن باقي أصحابهم، على ما حكيناه عن ابن عباس.

وقيل: يعود الضمير إلى إخوة يوسف[٣]، والقولان عن ابن عباس.

والأول أظهر.

﴿والله عليم بما يعملون﴾ من سوء الصنيع بأبيهم وأخيهم.

﴿وشَروْه﴾ هو من الأضداد، بمعنى البيع وبمعنى الشراء. فـإن أريـد الأول -وهو الأظهر في التفسير- فضمير الفاعل يعود إلى إخوة يوسف.

وإن أريد الثاني؛ فالضمير للوارد ولأصحابه.

﴿بثمن بخس﴾ مبخوس عن القيمة نقصاناً ظاهراً.

قال أبو سليمان: كانت عشرين في العدد، وهي ناقصة في الميزان[٤].

---

(١) في الأصل زيادة قوله: "لا".

(٢) معاني الزجاج (٣/ ٩٨).

(٣) أخرج هذا القول: الطبري (١٢/ ١٦٩). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥١٥) وعزاه له.

(٤) زاد المسير (٤/ ١٩٦).

وقال ابن عباس: «بخس»: حرام[(١)].

﴿دراهم معدودة﴾ لا توزن لِقلَّتها.

قال ابن عباس: كانوا في ذلك الزمان لا يَزِنُون أقل من أربعين درهماً[(٢)].

وقد ذكرنا عددها عن ابن عباس.

وفي رواية عنه: كانت اثنين وعشرين درهماً[(٣)].

وقال عكرمة: أربعين درهماً[(٤)].

وقيل: ثلاثين.

قال بعض أرباب الإشارات: والله ما يوسف -وإن باعه أعداؤه- بأعجب منك في بيع نفسك بشهوة ساعة من معاصيك[(٥)].

قوله تعالى: ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾ قال بعضهم: «فيه» ليست من صلة «الزاهدين»؛ لأن الصلة لا يتقدم على الموصول، ألا تراك لا تقول: كانوا زيداً من الضاربين؛ لأن زيداً من صلة الضاربين.

---

(١) أخرجه الطبري (١٢/ ١٧١-١٧٢)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١١٥) كلاهما من طريق الضحاك. وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥١٥) وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ عن الضحاك.

(٢) انظر: الطبري (١٢/ ١٧٢)، وزاد المسير (٤/ ١٩٦).

(٣) أخرجه الطبري (١٢/ ١٧٣)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١١٦)، ومجاهد (ص:٣١٣) كلهم عن مجاهد. وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥١٦) وعزاه لابن المنذر وأبي الشيخ عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري (١٢/ ١٧٣)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١١٦). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥١٦) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٥) انظر: زاد المسير (٤/ ١٩٧).

وقال الزجاج[١]: هذا في الظروف جائز، فأما المفعولات فلا.

قال الزمخشري[٢]: هو بيان، كأنه قيل: في أي شيء زهدوا؟ فقال: زهدوا فيه.

والضمير في «كانوا» يعود إلى الإخوة، في قول ابن عباس[٣]، وإلى مالك بن ذعر ورفقته، في قول غيره.

فإن أريد الأول؛ والضمير في «فيه» يعود إلى يوسف، في قول الضحاك[٤]، وإلى «الثمن» في قول غيره، على معنى: لم يكن قصدهم الثمن ولا كانوا راغبين فيه، إنما كان قصدهم بُعده عن أبيه؛ لما اشتملوا عليه من الحقد والحسد.

وإن أريد الثاني؛ فالعلة في زهدهم في يوسف: ما خامرهم من الريبة في أمره بسبب قلّة ثمنه وزهد بائعيه فيه.

وقيل: زهدوا فيه لما نُبِزَ[٥] به من الإبَاق[٦] والخيانة، وذاك أن إخوته قالوا للسيارة: استوثقوا منه، فإنه أبّاق سرّاق كذّاب، وقد برئنا إليكم من عيوبه، فحملوه على ناقة، وكان طريقهم على قبر أمه، فلما حاذاه أسقط نفسه على القبر

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ٩٨).

(٢) الكشاف (٢/ ٤٢٧).

(٣) أخرجه الطبري (١٢/ ١٧٤)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١١٧) كلاهما عن الضحاك. وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥١٧) وعزاه لابن المنذر وأبي الشيخ عن الضحاك.

(٤) أخرجه الطبري (١٢/ ١٧٤)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١١٧). ومن طريق آخر أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي. وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥١٧) وعزاه لابن المنذر وأبي الشيخ.

(٥) النَّبَزُ: بالتحريك: اللَّقَبُ (اللسان، مادة: نبز).

(٦) الإباق: هَرَبُ العبيد وذهابهم من غير خوف ولا كدِّ عمل (اللسان، مادة: أبق).

يبكي، ويقول: يا أماه! لو رأيت ضعفي وذلّي لرحمتِني، يا [أماه][(١)] لو رأيتني وقد نزعوا قميصي وشدوني، وفي الجب ألقوني، وعلى خدّ وجهي لطموني. فحملوه وذهبوا به إلى مصر وعرضوه للبيع.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

قال وهب: فاشتراه قطفير خازن فرعون، وكان مؤمناً، واسم فرعون: الوليد بن الريان بن الوليد، من العمالقة.

وقيل: فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف، اشتراه بوزنه مسكاً، وبوزنه ورقاً، وبوزنه حريراً[(٢)]، وقال لامرأته أزليخا بنت تمليخا -وقيل: راعيل بنت رعائيل-: ﴿أكرمي مثواه﴾ أحسني إليه ما دام ثاوياً فينا، ﴿عسى أن ينفعنا﴾ إما بالربح في ثمنه، أو بقيامه بأمورنا إذا حنكته التجارب واضطلع بالأثقال، ﴿أو نتخذه ولداً﴾ نقيمه مقام الولد، وكان لا يولد له.

قال ابن مسعود: أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرَّس في يوسف فقال لامرأته: ﴿أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا﴾، وابنة شعيب حين قالت: ﴿يا أبت

---

(١) في الأصل: أما.

(٢) الطبري (١٢/ ١٧٥)، وزاد المسير (٤/ ١٩٨).

استأجره﴾ [القصص:٢٦]، وأبو بكر حين استخلف عمر رضي الله عنهما[(١)].

قوله تعالى: ﴿وكذلك﴾ أي: ومثلُ ذلك الذي وصفناه وتقدم ذكره من إنجاء يوسف [و][(٢)] عطف العزيز عليه ﴿مكنا ليوسف في الأرض﴾ أرض مصر فجعلناه ملكاً متصرفاً تنفعل الأمور عن أمره ونهيه، ﴿ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾ كان ذلك الإنجاء والتمكين، ﴿والله غالب على أمره﴾ أي: على أمر يوسف، لا يكلُه إلى غيره حتى يُبَلِّغه ما أراده له من الملك والحكمة والاجتباء والانتظام في سلك آبائه الكرام الأنبياء.

وقال ابن عباس وغيره: ﴿والله غالب على أمره﴾ أي: على ما أراده سبحانه من تصاريف القضاء، لا ينازَع ولا يمانَع[(٣)].

﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ما في تصاريف القدر من الحِكم والعبِر.

﴿ولما بلغ أشده﴾ يعني: استحكام قوة الشباب. وقد سبق في أواخر سورة الأنعام[(٤)].

قال ابن عباس: ثلاث وثلاثون[(٥)].

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٧٦، ٣/ ٩٦)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٦٧)، وسعيد بن منصور (٥/ ٣٧٩)، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٣٥)، والطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ٢٧٣)، والطبري (١٢/ ١٧٥-١٧٦)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١١٨). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥١٧) وعزاه لابن المنذر وأبي الشيخ.

(٢) زيادة على الأصل.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٠٦)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٩٩).

(٤) عند تفسير الآية رقم: (١٥٢).

(٥) أخرجه الطبري (١٢/ ١٧٧)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١١٨)، والطبراني في الأوسط (٧/ ٥٣).
=

وقال الحسن: أربعون[(١)].

﴿آتيناه حُكْماً﴾ وهو النبوة. وقيل: العلم والعمل. وقيل: حُكْماً بين الناس، ﴿وعلماً﴾ بعبارة الرؤيا.

قال اللغويون: الحُكم عند العرب: ما يَصرفُ عن الجهل والخطأ ويمنع منهما، ويَرُدُّ النفس عما يَشينها ويعود عليها.

﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ تنبيه على أن يوسف ما زال متصفاً بالإحسان، وإعلام أن [الله][(٢)] مع المحسنين بنصره وإعانته وتخليصه من الشدائد.

قال الحسن البصري رحمه الله: من أَحْسَنَ [عبادة الله][(٣)] في شبيبته آتاه الله الحكمة في اكتهاله[(٤)].

فإن قيل: لأي معنى زاد في شبيهتها في القصص في قصة موسى ﷺ: ﴿ولما بلغ أشده واستوى﴾ [القصص:١٤]؟.

قلتُ: لأن موسى عليه السلام لم يُؤْتَ شيئاً من الحكم والعلم والنبوة حتى بلغ أشده واستوى وتكامل، وذلك بعد تزويجه بابنة شعيب، وبعد أن قضى الأجل سار بأهله، بخلاف يوسف؛ فإن الله تعالى أوحى إليه وهو في سنّ البلوغ لتنبيههم

= وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٥١٨) وعزاه لسعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في كتاب الأضداد والطبراني في الأوسط وابن مردويه.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٧/ ٢١١٨).

(٢) زيادة على الأصل.

(٣) زيادة من مصادر التخريج.

(٤) أخرجه الخطيب البغدادي في موضح أوهام الجمع (٢/ ٢٨١). وذكره أبو حيان في البحر المحيط (٥/ ٢٩٣).

بأمرهم هذا.

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه﴾ أي: خادعته إلى مواقعتها محتالة عليه بأنواع الحيل، وأصله: من رَادَ يَرُودُ؛ إذا جَاءَ وَذَهَب[١].

﴿وغلّقت الأبواب﴾ يقال: أغلقت الباب وغلّقت الأبواب -بالتشديد-، وغلقتُها.

قال: ما زلت أفتح أبواباً وأغلقها.

والعامة تقول: غلقْتُ الباب، وهي لغة رذيلة.

قيل: كانت سبعة أبواب.

﴿وقالت هيت لك﴾ قرأ نافع وابن عامر: «هِيْتَ لك» بكسر الهاء وفتح التاء، غير أن هشاماً همز. وقرأ الباقون بفتح الهاء والتاء من غير همز، إلا ابن كثير فإنه ضم التاء[٢]، وروي عن ابن عباس إلا أنه كسر الهاء، ومثله أبو العالية.

وقرأ أبو الدرداء بكسر الهاء وهمز الياء وضم التاء[٣].

---

(١) اللسان (مادة: رود).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٤٤٢)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٥٧)، والكشف (٢/ ٨)، والنشر (٢/ ٢٩٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٣)، والسبعة في القراءات (ص:٣٤٧).

(٣) زاد المسير (٤/ ٢٠١-٢٠٢).

وقرأ ابن مسعود: «هُيِّئتُ لك» بضم الهاء والتاء وياء مشددة مكسورة بعدها همزة ساكنة على صيغة الفعل الصريح، على معنى: أُصلحت وصُنعت لك[(١)].

وقرأ أبي بن كعب: «ها أنا لك»[(٢)]، وهذه وقراءة ابن مسعود ظاهرتان. وقراءة أبي الدرداء في معنى قراءة ابن مسعود.

قال الزجاج[(٣)]: هو من الهَيْئةِ، كأنها قالت: تَهَيَّأْتُ لك. وقرأ الباقون بمعنى.

قال أهل اللغة والتفسير: معنى «هيْتَ لك»: هَلُمَّ.

قال الفراء وابن الأنباري[(٤)]: لا مصدر له ولا تصرف ولا تثنية ولا جمع ولا تأنيث.

قال ابن جني[(٥)]: كلها أسماء [سمي][(٦)] بها الفعل، بمنزلة: صَهْ ومَهْ وإيهْ. ومعنى: هيتَ وبقية أخواتها: أسرع وبادر.

قال الزجاج[(٧)]: أجود اللغات وأكثرها: «هَيْتَ» بفتح التاء والهاء. قال الشاعر:

---

(١) زاد المسير (٤/ ٢٠٢).

(٢) مثل السابق.

(٣) معاني الزجاج (٣/ ١٠٠).

(٤) انظر: البيان (٢/ ٣٧)، والوسيط (٢/ ٦٠٧).

(٥) المحتسب (١/ ٣٣٧-٣٣٨).

(٦) في الأصل: مسمى. والمثبت من المحتسب (١/ ٣٣٨).

(٧) معاني الزجاج (٣/ ١٠٠).

أبلــغْ أمــيرَ المــؤمنينَ   أخَــا العِــراقِ إذا أتَيْتَــا
أنَّ العِـــراقَ وأهلَــــهُ   عُنُقٌ إليكَ فهيْتَ هَيْتَـا[١]

أي: أقبل وتعال.

وحكى قطرب: أنه أنشده بعض أهل الحجاز لطرفة بن العبد[٢]:

لَيْسَ قَوْمِي بالأَبْعَدين إذا ما   قال داعٍ من العشيرة: هَيْتُ

قال أبو الفتح ابن جني[٣]: الحركات في آخرها لالتقاء الساكنين.

واختلفوا في أصل هذه اللغة؛ فقال الحسن: هي بالسريانية[٤].

وقال مجاهد: هي عربية[٥].

وقال الفراء[٦]: يقال: إنها لغة لأهل حَوْران، سَقَطَتْ إلى أهل مكة فتكلموا بها.

---

(١) مما وجه إلى سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه استحثاثاً له أن يسرع نحو العراق، ولم يعين قائله. وعنق إليك: مائلون إليك ومنتظروك. انظر البيتان في: الخصائص (١/ ٢٧٦)، والقرطبي (٩/ ١٦٤)،، ومعاني الفراء (٢/ ٤٠)، وتاريخ الطبري (٣/ ٧٢)، ومجاز القرآن (٢/ ٣٠٥)، والطبري (١٢/ ١٧٩)، وزاد المسير (٤/ ٢٠٢).

(٢) البيت لطرفة بن العبد، وهو ليس في ديوانه. انظر: المحتسب (١/ ٣٣٧)، والقرطبي (٩/ ١٦٣- ١٦٤)، والطبري (١٢/ ١٨١).

(٣) المحتسب (١/ ٣٣٧).

(٤) أخرجه الطبري (١٢/ ١٨٠).

(٥) أخرجه الطبري (١٢/ ١٨٠)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٢١)، ومجاهد (ص:٣١٣). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٢٠) وعزاه لأبي الشيخ.

(٦) معاني الفراء (٢/ ٤٠).

وقال ابن الأنباري(١): قد قيل إنها من كلام قريش، إلا أنها مما دُرِسَ وقلّ في أفواههم آخراً.

﴿قال معاذ الله﴾ قال الزجاج(٢): هو مصدر. المعنى: أعوذ بالله أن أفعل هذا، تقول: عُذْتُ عِياذاً ومَعَاذاً ومعاذة.

﴿إنه ربي﴾ أي: إن العزيز صاحبي الذي يربني ﴿أحسن مثواي﴾. وقيل: الضمير لله تعالى، وقيل: ضمير الشأن، أي: أن الشأن والحديث ربي العزيز أو ربي الله تعالى، على اختلاف القولين، ﴿أحسن مثواي﴾ أي: أكرمني ووصَّاك عَلَيّ، فما جزاؤه أن أخلفه بسوء في أهله، ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ الذي يجازون عن الحسن الجميل السيء القبيح.

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿ولقد همّت به وهمّ بها﴾ الهَمُّ بالشيء: العزم عليه والقصد إليه. قال الشاعر(٣):

(١) انظر: زاد المسير (٤/ ٢٠٢-٢٠٣).

(٢) معاني الزجاج (٣/ ١٠١).

(٣) البيت لضابئ بن الحارث البرجمي، من شعر قاله حين اعتقله عثمان بن عفان وحبسه لفرية افتراها، وذلك أنه استعار كلباً من بعض بني نهشل يقال له: قرحان، فطال مكثه عنده، وطلبوه فامتنع عليهم فعرَضُوا له وأخذوه منه، فغضب فرمى أمهم بالكلب، فاعتقله عثمان في حبسه إلى أن مات عثمان، وكان همَّ بعثمان لما أمر بحبسه.

وانظر البيت في: اللسان، مادة: (قير)، والإصابة (٣/ ٤٩٨) في ترجمته، وتاريخ الطبري =

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي   تَرَكْتُ عَلَى عُثْمَانَ تَبْكِي حَلائِلُهْ

قال ابن عباس والحسن وجمهور المفسرين: كان هَمُّهُ من جنس هَمِّها[١].

قال ابن قتيبة: لا يجوز هممت بفلان وهمّ بي، وأنت تريد اختلاف الهمّين.

قال الزجاج[٢]: الذي عليه المفسرون: أنه همَّ بها، وأنه جلس منها مجلس الرجل من المرأة، إلا أن الله تعالى تفضل بأن أراه البرهان، ألا تراه قال: ﴿وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء﴾[٣].

وقال ابن الأنباري[٤]: الذي نذهب إليه في هذا ما روي عن [الصحابة][٥] والتابعين من إثبات الهم ليوسف غير عائبين له، بل نقول: إن انصرافه بعد إثبات الهمّ، ونهيه نفسه عن هواها تعظيماً لله تعالى، ومعرفةً لحقه أدلُّ على وفور الثواب وتكامل الأجر. والذين أثبتوا الهمّ ليوسف من علي وابن عباس ووهب وغيرهم كانوا أعرفَ بحقوق الأنبياء وارتفاع منازلهم عند الله تعالى من الذين نفوا الهمّ عنه. وقد قال الحسن: إن الله تعالى لم يقصص عليكم ذنوب الأنبياء تعييراً [لهم][٦] ولكنه قصّها عليكم لئلا تقنطوا من رحمته[٧].

= (٣/ ٥٤٩)، والقرطبي (٩/ ١٦٦، ١١/ ١٨٣)، وزاد المسير (٥/ ٢٧٦).

(١) زاد المسير (٤/ ٢٠٣).

(٢) معاني الزجاج (٣/ ١٠١).

(٣) وهو قول باطل منافي للعصمة.

(٤) انظر: الوسيط (٢/ ٦٠٨).

(٥) في الأصل: الضحاك. والتصويب من الوسيط، الموضع السابق.

(٦) زيادة من الوسيط، الموضع السابق.

(٧) وقول الحسن هو قول باطل؛ لأن سيدنا يوسف عليه السلام لم يصدر منه ذنب. وقد ذكر هذا الأثر =

قال أبو عبيد: يذهب الحسن إلى أن الحجة من الله تعالى على أنبيائه أوكد، وهي لهم ألزم، فإذا كان يقبل التوبة منهم كان قبولها منكم أسرع[١].

وذهب أكثر المتأخرين إلى افتراق الهمّين، وأن همّها كان من جهة العزم والاضطرار، وهمّ يوسف من جهة دواعي الشهوة وحديث النفس؛ تنزيهاً للأنبياء عن العزم على المعصية.

واحتج القاضي أبو يعلى رحمه الله بقوله: ﴿معاذ الله إنه ربي﴾ وقوله: ﴿لنصرف عنه السوء والفحشاء﴾، فكل ذلك إخبارٌ ببراءة ساحته من العزيمة على المعصية.

وقال صاحب الكشاف[٢]: لو كان همّه كهمّها عن عزيمة لما مدحه الله تعالى بأنه من عباده المخلصين.

وقد سلكوا في تأويله أيضاً طرقاً لا تصح، منها: ما رووه عن ابن عباس أنه قال: ﴿وهمّ بها﴾ أي: تمناها أن تكون زوجته[٣].

وذكر ابن الأنباري عن بعضهم[٤]: همّ بها أن يضربها ويدفعها عن نفسه.

وحكى الثعلبي[٥]: همّ بالفرار منها.

وتمام الآية يفسد هذه التأويلات ويعكس عليها بالإبطال.

وذهب قطرب إلى أن في الكلام تقديماً وتأخيراً، تقديره: ولقد همّت به ولو لا

= ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٠٧).

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٠٨)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٠٧).

(٢) الكشاف (٢/ ٤٣٠).

(٣) زاد المسير (٤/ ٢٠٥).

(٤) انظر: زاد المسير (٤/ ٢٠٦).

(٥) تفسير الثعلبي (٥/ ٢١٠).

أن رأى برهان ربه لهمّ بها، فقدم الجواب. وأنشدوا:

فلا يدعني قومي صريحاً لحرة لئن كنت مقتولاً وتسلم عامر[(١)]

ورد هذا القول ابن الأنباري وغيره؛ لأن لولا في حكم الشرط، والشرط له صدر الكلام، وهو وما في حَيِّزه من الجملتين مثل كلمة واحدة، ولا يجوز تقديم بعض الكلمة على بعض، وما أنشدوه فمن ضرورة الشعر، فلا يحمل عليه كلام الله النازل بالفصاحة[(٢)].

قوله تعالى: ﴿لولا أن رأى برهان ربه﴾ فيه إضمار، تقديره: لفعل ما هَمَّ به.

قال ابن عباس وجمهور المفسرين: رأى جبريلَ في صورة يعقوب عاضّاً على أصبعه، يقول: أتعمل عمل الفجار وأنت مكتوب في الأنبياء، فاستحيا منه[(٣)].

وقال علي بن أبي طالب وعلي بن الحسين عليهما السلام: قامت إلى صنم لها في البيت فسترته بثوب، فقال لها يوسف: أي شيء تصنعين؟ قالت: أستحي من إلهي أن يراني على هذه السوأة. فقال: أتستحين من صنم لا يعقل ولا يسمع ولا أستحي من إلهي القائم على كل نفس بما كسبت، فهو البرهان الذي رأى[(٤)].

والذي عليه جمهور أهل المعاني والنظر الصحيح: أن البرهان الذي رآه زواجر العقل والدين والحجج المأخوذة على المكلفين من اجتناب المحارم. وقد نقلوا في

---

(١) انظر البيت في: خزانة الأدب، الشاهد الثالث والثلاثون بعد التسعمائة، وزاد المسير (٤/ ٢٠٦).

(٢) زاد المسير (٤/ ٢٠٥-٢٠٦).

(٣) أخرج هذا القول: الطبري (١٢/ ١٨٩)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٢٤) كلاهما عن قتادة. وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٢٢) وعزاه لأبي الشيخ عن قتادة.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ١٨١). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٠٨)، والسيوطي في الدر (٤/ ٥٢١) وعزاه لأبي نعيم في الحلية.

تفسير البرهان أقوالاً يقطع العقل بفسادها:

منها: أنه بدت بينهما كفٌّ ليس لها عضد ولا معصم، وفيها مكتوب: ﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا﴾ [الإسراء:٣٢]، فقام هارباً وقامت، فلما ذهب عنهما الروع عادا، فلما قعدا إذا بكفٍّ قد بدت فيما بينهما فيها مكتوب: ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ... الآية﴾ [البقرة:٢٨١] فقاما ثم عادا، فقال الله تعالى لجبريل: أدرك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة، فانحطّ جبريل عاضاً على كفه أو أصبعه يقول: أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب عند الله في الأنبياء(١).

ورووا عن وهب أنه قال: ظهرت تلك الكف وعليها مكتوب بالعبرانية: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ [الرعد:٣٣]، فانصرفا، ثم عادا فظهرت وعليها مكتوب: ﴿وإن عليكم لحافظين * كراماً كاتبين﴾ [الإنفطار: ١١-١٢] فانصرفا، ثم عادا وظهر عليها مكتوب: ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾ [البقرة:٢٨١].

وهذه الوجوه وأمثالها لا تثبت على محك النقل ولا عند حاكم العقل، وإنما هي مما يروج بها القصَّاص مجالسهم ويجتلبون بها عقول العامة، وليست من الصحة والتحقيق في شيء.

والذي يصحح ما ذكرناه ويفسد قولهم: قول امرأة العزيز حين أفصحت بسرها: ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ وهذا النبأ موضوع للمبالغة، ومثله: استمسك، واستفحل الخطب، واستوسع الفتق.

---

(١) وقد جزم المؤلف رحمه الله بفساد هذه الأقوال؛ لعدم صحتها نقلاً وعقلاً.

قال بعض العلماء: لو أن أوقح الزناة وأشطرهم وأحدَّهم حدقة وأصلبَهم وجهاً لقي بأدنى من هذا، لم يبق له عرق ينبض، ولا عضو يتحرك، خوفاً وفرقاً، فكيف بنبي الله تعالى ابن نبي الله ابن نبي الله تعالى، فيا لَهُ من قول ما أَفْحَشَه، وضلالٍ ما أَبْيَنَه.

﴿كذلك﴾ الكاف في محل النصب، تقديره: ثَبَّتناه مثل ذلك التثبيت، ﴿لنصرف عنه السوء﴾ من خيانة صاحبه ﴿والفحشاء﴾ من الزنا ﴿إنه من عبادنا المخلِصين﴾ قرأ نافع وأهل الكوفة: «المخلَصين» بفتح اللام حيث وقع، والباقون بكسرها[1].

فمن كسرها فعلى معنى: أخلصوا دينهم[2] لله تعالى. ومن فتحها أراد: من الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته، واجتباهم لرسالته، وحباهم بكرامته.

وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٤٤٤)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٥٨-٣٥٩)، والكشف (٢/ ٩)، والنشر (٢/ ٢٩٥)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٤)، والسبعة في القراءات (ص:٣٤٨).

(٢) قوله: "دينهم" مكررة في الأصل.

قوله تعالى: ﴿واستبقا الباب﴾ أي: تبادرا إليه، وهو على قصد الفرار بدينه، والخلاص من حبائل الفتنة التي نصبتها لهم، وهي على قصد [الحيلولة][(١)] بينه وبين الباب لتمنعه من الخروج. والمراد: الباب الذي منه المخرج والمخلص من الدار.

وقد روي عن كعب أنه قال: لما هرب يوسف عليه السلام جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج من الأبواب[(٢)].

﴿وقدت قميصه من دبر﴾ فيه إضمار، تقديره: فأدركته فجذبت قميصه فَقَدَّتْهُ من خلفه، أي: قطعتْه.

قرأ ابن يعمر ونوح القارئ وأبو رجاء: «دُبُرُ»[(٣)]، بثلاث ضمات من غير تنوين[(٤)].

قال أبو الفتح ابن جني[(٥)]: [ينبغي][(٦)] أن يكونا غايتين، كقول الله تعالى: ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾ [الروم:٤]، كأنه يريد: قَدَّتْ قميصه من دُبُره، وإن كان قميصه قُدَّ من قُبُلِه، فلما حذف المضاف إليه -أعني الهاء وهي مرادة- صار المضاف غاية نفسه بعدما كان المضاف إليه غاية له، وهذا حديث مفهوم في قوله: ﴿من قبل ومن بعد﴾، فبُني هنا كما بُني هناك على الضم، ووَكَّد البناء أن «قبل» و «بعد»

(١) في الأصل: الحلولة.
(٢) ذكره أبو السعود في تفسيره (٤/ ٢٦٧)، وأبو حيان في البحر (٥/ ٢٩٦).
(٣) في الأصل زيادة: وقيل.
(٤) البحر المحيط (٥/ ٢٩٧)، والدر المصون (٤/ ١٧١).
(٥) المحتسب (١/ ٣٣٨).
(٦) في الأصل: ينفي. والتصويب من المحتسب، الموضع السابق.

يكونان ظرفين، ألا ترى إلى قول الفرزدق:

يُطَاعِنُ قُبْلَ الخَيْلِ وهو أَمامَها ... وَيطعنُ عَنْ أَدْبَارِها إِنْ تَوَلَّتِ[١]

وقال تعالى: ﴿ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم﴾ [الطور:٤٩] فنصبه على الظرف، وهو جمع دُبُر.

﴿وألفيا سيدها﴾ أي: صادفا بعلها قطفير عند الباب يريد الدخول، فاستقبلته ودهته بكيد جمعت فيه بين أغراضها، وهي براءتها من الريبة، وتهييج زوجها على يوسف، حيث لم يواقعها، وتخويفه من مخالفتها في تأتّي الحال، فقالت: ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً﴾ تريد: الزنى، ﴿إلا أن يسجن﴾ أي: ما جزاؤه إلا السجن. وقيل: إن «ما» استفهامية، على معنى: أيُّ شيء جزاؤه إلا السجن.

والعذاب الأليم: الضرب بالسياط، في قول عامة المفسرين[٢].

فلما أغرت زوجها بيوسف وعرضته للعذاب، قرّعه بسياط التوبيخ والتعنيف، فقال له: يا يوسف، أَخُنتني وغدرت بي، وغررتني بصلاحك؟ فقال مبرئاً لنفسه الشريفة من وصمة الفاحشة، دافعاً عنها عار الخيانة، ومنزهاً لها عن التلوث بما رَمَتْهُ به من الإساءة إلى من أَحْسَنَ إليه وأوصى به خيراً: ﴿هي راودتني عن نفسي﴾، ولولا ذلك لزجرتْه طباعُه الكريمة وأغراضه المستقيمة وأعراقه الزكية عن إظهار سرّها وهتك سترها، ولكن تُلجئ الضرورات في الأمور إلى سلوك ما لا يليق بالأدب.

فإن قيل: هل تضمن هذا الاعتذار حكمة وفائدة غير عائدة إلى يوسف بالمعنى

---

(١) البيت للفرزدق، وهو ليس في ديوانه. وانظر: المحتسب (١/ ٣٣٨).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٠٩)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢١١).

الذي أشرت إليه؟

قلتُ: نعم، تضمن حِكَماً؛ منها: أنه عَلِمَ منها أن محبته قد أخذتْ بمجامع قلبها، وخاف أن يُطمعها بإخفاء أمرها وكتمان سرها، فَرَامَ قطع طمعها بإطلاع حليلها على حالها، فأذاعه رجاء أن يقذعها، ويردّ عليها الخوف من بعلها والحياء من الناس.

الحكمة الثانية: أنه عليه السلام كان من سِنْخ[1] إبراهيم وسلالة النبوة وبيت الرسالة، وكانت دلائل النبوة لائحة على صفحات وجهه الكريم، وكان في مظنة أن يرسله الله تعالى إليهم، فنزّه منصب الرسالة وبيت النبوة عن أن يزنّ بمثل هذه الفاحشة الشنعاء التي تنفر الناس عن المتابعة، وتمنعهم من المشايعة. وهذه سُنَّة الله تعالى فيمن اختصهم لرسالته وجعلهم دعاة إلى طاعته، أن يطهّرهم من الكبائر الموبقة، والرذائل المنفِّرة، والنقائص الشائنة للحق والخلق.

الثالثة: أن العزيز أوصى زوجته بأن تُكرم مثواه رجاء أن ينفعه، ولا شبهة في أن في إفساد فراشه عليه ضرراً وعاراً، فلو أغضى عن هذه القضية وأعاره في زوجته أذناً صمّاء وعيناء عمياء، لخيّب فيه أمله الذي ارتجاه، فكشف له عن خلقها الذميم؛ ليحترز عليها ولا يركن إليها؛ حفظاً لعرضه فيما يستقبل من الزمان.

الرابعة: أنه عليه السلام علم أن مرض المحبة قد تمكن من قلبها، فلو أحسن إليها بالسكوت عنها لتضاعف مرضها بسبب انضمام إحسانه إلى حسنه، فداواها بالأذى رجاء نفعها، كما قيل:

---

(١) السِّنْخ: الأصل من كل شيء (اللسان، مادة: سنخ).

فإني رأيت الحب في الصدر والأذى إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

قوله تعالى: ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ إنما كان من أهلها؛ ليكون ألزم للحجة عليها، وآكد لبراءة يوسف عليه السلام.

قال ابن عباس في رواية أبي صالح عنه: كان ابن عمها، وكان رجلاً حكيماً، فقال: قد سمعنا الاشتداد والجلبة من وراء الباب، فإن كان شقُّ القميص من قدّامه فأنت صادقة وهو كاذب، وإن كان من خلفه فهو صادق وأنت كاذبة[(١)].

وذهب أكثر المفسرين: أن الشاهد كان صبياً في المهد، وهو قول ابن عباس في رواية عكرمة[(٢)].

وإنما سمي هذا القول شهادة وليس بلفظ الشهادة؛ لقيامه مقامها في إثبات قول يوسف وإبطال قولها.

قوله تعالى: ﴿إن كان قميصُه﴾ تقديره: يشهد، فقال: إن كان قميصه، ويقال: بأن الشهادة من القول، فلذلك ساغت حكاية الجملة الشرطية بعد فعلها ﴿قُدَّ من قُبُل﴾ أي: شُقَّ من قُدَّامه، ﴿فصدقت﴾ لأن ذلك من آثار مُمَانَعَتها له ودفْعِها إياه، ﴿وإن كان قميصُه قُدَّ من دُبُر﴾ أي: شُقَّ مِنْ خلفه ﴿فكذبت﴾ لأن ذلك يدلُّ دلالة ظاهرة على هربه منها وطلبها له، ﴿وهو من الصادقين﴾.

﴿فلما رأى﴾ يعني: سيدها قطفير، وقيل: الشاهد ﴿قميصَه قد من دُبر﴾ تبين له الحق واتضحت له براءة يوسف ﴿قال إنه﴾ أي: إن قولك: «ما جزاء من أراد

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٠٩) من قول الكلبي، وزاد المسير (٤/ ٢١١).

(٢) أخرجه الطبري (١٢/ ١٩٤)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٢٨). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٢٥) وعزاه لأبي الشيخ.

بأهلك سوءاً» أو أن هذا الأمر.

وقيل: إن السوء.

وقال مقاتل[١]: إن شق القميص.

﴿من كيدكنَّ﴾ الخطاب لها ولجماعة النساء، ﴿إن كيدكن عظيم﴾ قال ابن عباس: يخلطن البريء والسقيم[٢].

قال صاحب الكشاف[٣]: إنما استعظم كيد النساء وإن كان في الرجال؛ لأن النساء ألطف كيداً وأنفذ حيلة، ولهن في ذلك نيقة ورفق، وبذلك يغلبن الرجال.

قال بعضهم: أنا أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾ [النساء:٧٦]، وقال للنساء: ﴿إن كيدكن عظيم﴾[٤].

قوله تعالى: ﴿يوسف أعرض عن هذا﴾ حذف حرف النداء؛ لأنه منادى قريب فَطِن.

والمنادي: الشاهد، في قول ابن عباس[٥]، وسيدها قطفير، في قول غيره.

والمعنى: أعرض عن هذا الأمر فلا تذكره ولا تُحدث به أحداً.

وقرأت على الشيخين أبي البقاء عبدالله بن الحسين اللغوي وأبي عمرو عثمان

---

(١) تفسير مقاتل (٢/ ١٤٦).

(٢) زاد المسير (٤/ ٢١٣).

(٣) الكشاف (٢/ ٤٣٥).

(٤) ذكره أبو السعود في تفسيره (٤/ ٢٧٠).

(٥) الطبري (١٢/ ١٩٧)، وزاد المسير (٤/ ٢١٣).

بن مقبل الياسري لأبي عمرو من رواية عبد الوارث عنه: «أعْرَضَ عن هذا» على صيغة الخبر[(١)].

﴿واستغفري لذنبك﴾ قال ابن عباس: استعفي زوجك لئلا يعاقبك[(٢)].

وقيل: توبي من ذنبك فقد أثمت.

﴿إنك كنت من الخاطئين﴾ أي: من جملة المتعمدين للذنب، يقال منه: خَطِئَ يَخْطَأُ خِطْأً [وخِطْأَةً][(٣)] على فِعْلة، فهو خاطئ، والاسم: الخطيئة، ويقال: أخْطَأَ فلان ويُخْطِئُ خَطَأً وخِطْئاً فهو مُخْطِئ؛ إذا أراد الصواب فصار إلى غيره[(٤)].

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

ثم ظهر الحديث واشتهر وشاع في مصر، وذاع حتى تحدثت بذلك النساء وخُضْنَ فيه، وهو قوله تعالى: ﴿وقال نسوة في المدينة﴾ وهُنَّ: امرأة ساقي الملك،

---

(١) زاد المسير (٤/ ٢١٣).

(٢) الطبري (١٢/ ١٩٧)، وزاد المسير (٤/ ٢١٣).

(٣) في الأصل: وخطاء. وانظر: اللسان (مادة: خطأ).

(٤) انظر: اللسان (مادة: خطأ).

وامرأة خازنه، وامرأة صاحب دواته، وامرأة سجّانه، وامرأة حاجبه.

وأراد بالنسوة: الجمع، وكذلك ذَكَّرَ فعلهن حملاً على المعنى، وإذا أنّث حمل على اللفظ.

﴿امرأة العزيز تراود فتاها﴾ غلامها ﴿عن نفسه قد شغفها حباً﴾ أي: خرق حبه شَغَافَ قلبها، حتى وصل إلى فؤادها.

والشُّغَاف: حجاب القلب(١).

وحكى الزجاج(٢): أنه سُوَيْداؤُه. وقيل: هو داء يكون في الجوف في الشَّرَاسِيف(٣). وأنشدوا في معنى ذلك:

وقد حال هَمٌّ دون ذلك داخلٌ دُخولَ الشُّغَافِ تبتغيهِ الأصابع(٤)

وقال الأصمعي: الشُّغَاف عند العرب: داء يكون تحت الشَّراسيف في الجانب الأيمن من البطن، والشراسيف: مَقَاطٌّ رؤوس الأضلاع(٥).

وقرأ جماعة، منهم: علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعلي بن الحسين ومحمد

---

(١) انظر: اللسان (مادة: شغف).

(٢) معاني الزجاج (٣/ ١٠٥).

(٣) الشراسيف: جمع شُرسُوف؛ كعصفور: غُضْروف مُعلَّق بكل ضِلْع، أو الطرف المشرف على البطن (اللسان، مادة: شرسف).

(٤) البيت للنابغة من قصيدته: عفا ذو حسا من فرتني فالفوارع.
والقصيدة في الديوان (ص:٧٩)، ومن مشهور الشعر. وانظر البيت في: اللسان، مادة: (شغف)، والدر المصون (٤/ ١٧٣) وفيها: «والج» بدل «داخل»، و «مكان» بدل «دخول»، وزاد المسير (٤/ ٢١٤)، والقرطبي (٩/ ١٧٦)، والطبري (١٢/ ١٩٨).

(٥) انظر: اللسان (مادة: شرسف).

بن علي وجعفر بن محمد عليهم السلام والحسن وقتادة وثابت البناني والأعرج في آخرين: «قد شَعَفَها» بالعين المهملة[١].

قال الفراء[٢]: كأنه ذَهَب بها كل مَذهب. والشَعَف: رؤوس الجبال[٣].

قال الزجاج[٤]: هو مشتق من شَعَفَاتِ الجبال، أي: رؤوس الجبال، فإذا قلت: فلان مَشعوفٌ بكذا، فمعناه: أنه ذَهَبَ به الحُبُّ أقصى المذاهب.

وقال ابن جني[٥] والزمخشري[٦]: هو مأخوذ من شَعَفَ البعير؛ إذا هنأه [فأحرقه][٧] بالقطران. قال:

.... كَمَا شَعَفَ المَهْنُوءَةَ الرَّجُلُ الطَّالِي[٨]

فالمعنى: أن حبه وصل إلى قلبها فأحرقه.

ويجوز عندي -والله تعالى أعلم- أن يكون معنى هذه القراءة: مِنْ قولهم:

---

(١) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٤).

(٢) معاني الفراء (٢/ ٤٢).

(٣) انظر: اللسان (مادة: شعف).

(٤) معاني الزجاج (٣/ ١٠٥).

(٥) المحتسب (١/ ٣٣٩).

(٦) الكشاف (٢/ ٤٣٦).

(٧) زيادة من الكشاف، الموضع السابق.

(٨) عجز بيت لامرئ القيس، وصدره: (أَيَقْتُلُني وَقَدْ شَعَفْتُ فُؤادَها). انظر: ديوانه (ص:٣٣)، والمحتسب (١/ ٣٣٩)، والدر المصون (٤/ ١٧٣)، وشرح ديوان الحماسة (٤/ ١٦٢٤)، والطبري (١٢/ ٢٠٠)، والقرطبي (٩/ ١٧٧).

والمهنوءة: من هنأت الناقة؛ إذا طليتها بالقطران، وهي تستلذه حتى تكاد يغشى عليها.

شَعَفَهُ الحُبّ، كأنه غشى قلبه، وشَعَفَةُ القلب: رأسه عند مُعَلَّقِ النِّياط[١]، فيكون ذلك إشارة إلى تمكن حبه من قلبها [وسلطته][٢] عليه.

و «حباً» نصب على التمييز.

﴿إنا لنراها في ضلال مبين﴾ أي: ذهاب عن طريق الصواب ظاهر.

﴿فلما سمعت بمكرهن﴾ وهو ما لَمْزنها به من نسبتها إلى ما دَهَاها من حُبّ فتاها، ومراودتها إياه استرسالاً مع هواها.

وسُمِّي الاغتياب مكْراً؛ لأنه يكون في خِفْية.

وقيل: أنها أفشت إليهنّ سِرَّها، واشتكت إليهنَّ ما خامرها من داء المحبة، واستكْتَمتْهُنَّ ذلك، فمَكَرْنَ بها وتحدَّثْنَ به، ﴿أرسلت إليهن﴾ دعت أربعين امرأة، منهن اللواتي قلن: «امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه»، ﴿وأعتدت لهن متكئاً﴾ أي: أعَدَّتْ وهَيَّأتْ لهن مجلساً يتكئن عليه من النَّمارق[٣] والفرش كعادة المترفين. هذا قول ابن عباس والأكثرين[٤].

وقال الحسن ومجاهد: المُتَّكأ: الطعام[٥].

---

(١) انظر: اللسان (مادة: شعف). والنياط: ككتاب: الفؤاد، ومُعلَّق كل شيء، أو عرف غليظ ينيط به القلب (القاموس المحيط، مادة: نيط).

(٢) في الأصل: وسلطه.

(٣) النمارق: واحدها: نُمْرُقة، والنُّمْرُق والنُّمْرُوقة: الوسادة (اللسان، مادة: نمرق).

(٤) أخرجه الطبري (١٢/ ٢٠١-٢٠٢)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٣٢). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٢٩) وعزاه لابن المنذر وأبي الشيخ.

(٥) أخرجه الطبري (١٢/ ٢٠٣)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٣٣)، ومجاهد (ص: ٣١٤).

قال ابن قتيبة[١]: يقال: اتَّكَأْنا عند فلان؛ إذا طَعِمْنا.

والأصل في هذا: أن من دعوته ليطعَم أعددت له التُّكَأَة للمُقام والطمأنينة، فَسُمِّيَ الطعام مُتَّكأً على الاستعارة.

وقرأت لأبي جعفر: «مُتَّكَا» بغير همز[٢]، وهي قراءة جماعة منهم الزهري وهي ضعيفة عندهم.

وقرأ ابن عباس وابن عمر والجحدري وقتادة ومجاهد في آخرين: «متكاً» بإسكان التاء وتخفيفها غير مهموز، وقالوا: هو الأُتْرُجُّ[٣]، ومنه قول الشاعر:

.... وترى المتك بيننا مستعارا[٤]

وقال الآخر:

فَأَهْدَتْ مُتْكَةً لِبَنِي أَبِيها تَخُبُّ بها العَثَمْثَمَةُ الوِقاحُ[٥]

والعثمثمة من النوق: الشديدة، والوِقَاح: الصلبة.

وكانت أهدت أترجة عظيمة على ناقة.

---

(١) تأويل مشكل القرآن (ص:١٨٠-١٨١).

(٢) النشر في القراءات العشر (١/ ٣٩٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٤).

(٣) أخرجه مجاهد (ص:٣١٤).

والأترج: واحدته تُرُنْجَة وأُتْرُجَّة. ويسمى تفاح ميديا، أو تفاح فارس، من الفصيلة الساذابية التي تضم الحمضيات (انظر: اللسان، مادة: ترج، والموسوعة العربية الميسرة ص:٤٩).

(٤) عجز بيت، وصدره: (نشرب الإثم بالصواع جهاراً). وهو في: البحر المحيط (٥/ ٣٠٠)، والدر المصون (٤/ ١٧٤).

(٥) البيت من شواهد الكشاف (٢/ ٤٣٨)، والدر المصون (٤/ ١٧٤).

وقال [وهب][(١)]: أعتدتْ لهن أترجاً وموزاً وبطيخاً[(٢)].

قال ابن جريج وأبو زيد الأنصاري: المُتْك: الأترج، وكل ما يُحَزُّ بالسكاكين[(٣)].

﴿وآتت كل واحدة منهن سكيناً﴾ ليُعالِجْنَ بالسكاكين ما قَدَّمَتْهُ لَهُنَّ من المُتْك. ومقصودها الأصلي: إقامة عذرها عندهنّ، وإظهار فضيحتهنّ بما عساه يحدث منهنّ ويصدر عنهنّ؛ من تجريح أيديهنّ عند دهشتهنّ بمشاهدتهنّ ذلك الجمال الفائق والحسن الرائق.

﴿وقالت اخرج عليهن﴾ فإن قيل: كيف استجاز الخروج على النسوة اللاتي من طبعهن الافتتان برؤية مثله على تلك الهيئة المخصوصة؟

قلتُ: يجوز أن تكون خدعته، وأمرته بالخروج غير مُعْلِمَة له بمكان النسوة، لكن الله تعالى أخبر بما أضمرته في نفسها.

ويجوز أن يكون ذلك مباحاً في شريعة آبائه عليهم السلام.

ويجوز أن يكون مُكْرَهاً؛ لكونه تحت قهر العبودية.

﴿فلما رأينه أكبرنه﴾ قال ابن عباس في رواية أبي صالح: أعظمنه[(٤)]. وهو قول

---

(١) في الأصل: وهوب. والصواب ما أثبتناه.

(٢) روح المعاني (١٢/ ٢٢٨).

(٣) أخرجه الطبري (١٢/ ٢٠٣-٢٠٤)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٣٣) كلاهما من طريق الضحاك. ونحوه أيضاً عند ابن أبي حاتم من طريق عكرمة. وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٣٠) وعزاه لابن أبي حاتم عن عكرمة.

(٤) تفسير ابن عباس (ص:٢٩٢).

قتادة وابن زيد[(١)].

قال أبو العالية: هَالَهُنَّ أمره وبُهِتْنَ[(٢)].

قال ابن عباس في رواية الضحاك: «أكبرنه» أي: حِضْنَ[(٣)].

أخبرنا المؤيد بن محمد بن علي الطوسي في كتابه، أبنا جدي لأمي أبو محمد العباس بن محمد بن العباس المعروف بعباسة[(٤)]، أبنا أبو سعيد محمد بن سعيد بن فرخزاذ، أبنا الأستاذ أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم، أخبرني ابن فنجويه، ثنا هارون بن محمد بن هارون القطان، ثنا عبدالله بن محمد بن سنان، ثنا العلاء بن الفضل، ثنا عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن العباس، عن أبيه، عن ابن عباس رضي الله عنه «في قوله تعالى: ﴿فلما رأينه أكبرنه﴾ قال: حِضْنَ مِنَ الفرح»[(٥)]. ثم قال:

يَأتي النساءَ لَدَى أطهارِهِنَّ ولا ... يأتي النساء إذا أكبرنَ إكبارا[(٦)]

---

(١) أخرجه الطبري (١٢/ ٢٠٥)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٣٥). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٣١) وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر وأبي الشيخ عن مجاهد.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦١٠) بلا نسبة، والبغوي (٢/ ٤٢٣).

(٣) أخرجه الطبري (١٢/ ٢٠٥)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٣٥) كلاهما من طريق عبدالصمد بن علي بن عبدالله بن عباس عن أبيه عن جده. وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٣١) وعزاه لابن المنذر.

(٤) العباس بن محمد ابن أبي منصور ابن أبي القاسم الطابراني الطوسي العصاري، أبو محمد، راوي الكشف والبيان في التفسير للثعلبي، كان شيخاً صالحاً، سكن نيسابور، وكان يعظ في بعض الأوقات، ولد سنة ستين وأربعمائة بطوس، وهلك في دخول الغز نيسابور سنة تسع وأربعين وخمسمائة (سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٨٨-٢٨٩، والتحبير في المعجم الكبير ص:٦٠٢-٦٠٤).

(٥) أخرجه الطبري (١٢/ ٢٠٥)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٣٥).

(٦) البيت لم أعرف قائله. وهو في: تهذيب اللغة (١٠/ ٢١١)، واللسان مادة: (كبر)، والبحر =

قال الثعلبي[١]: فعلى هذا التأويل يكون «أكبرنه» بمعنى: أكبرن لأجله من جماله. ومثله قول عنترة:

وَلَقَدْ أَبِيتُ على الطَّوى وَأَظَلُّه حتى أَبِيتُ على كَرِيم المطْعَمِ[٢]

أرادوا: أظَلُّ عليه.

قال الأصمعي: أُنشد هذا البيت بين يدي النبي ﷺ فقال: «ما من شاعر جاهلي أحببت أن أراه دون عنترة لهذا البيت»[٣].

وهذا القول اختيار ابن الأنباري.

وأنكر ذلك أبو عبيدة وقال[٤]: ليس في كلام العرب «أكبرن» بمعنى: حِضْن، ولكن عسى أن يَكُنَّ من شدّة ما أعظمْنَه حِضْن.

وقال الزمخشري[٥]: قيل: «أكبرن» بمعنى: حضن، والهاء للسكت، يقال: أكبرت المرأة؛ إذا حاضت. وحقيقته دخلت في الكِبر؛ لأنها بالحيض تخرج من حد الصغر إلى حد الكبر، وكأن أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله[٦]:

= (٥/ ٣٠٣)، والدر المصون (٤/ ١٧٥)، والقرطبي (٩/ ١٨٠)، والطبري (١٢/ ٢٠٥)، وزاد المسير (٤/ ٢١٨).

(١) تفسير الثعلبي (٥/ ٢١٨).

(٢) البيت لعنترة. وهو في: اللسان، مادة: ظلل. والطوى: الجوع (اللسان، مادة: طوى).

(٣) اختيارات الأعلم الشنتمري، من أشعار الشعراء الستة (ص:٤٦١)، ولم يسنده.

(٤) مجاز القرآن (١/ ٣٠٩).

(٥) الكشاف (٢/ ٤٣٨).

(٦) البيت لأبي الطيب المتنبي. انظر: ديوانه (٢/ ٣٤٩)، والبحر المحيط (٥/ ٣٠٣)، والدر المصون (٤/ ١٧٥)، والكشاف (٢/ ٤٣٨).

خَفِ اللهَ واسْتُرْ ذا الجَمَالَ بِبُرْقُعٍ فَإِنْ لُحْتَ حَاضَتْ فِي الخُدُورِ العَوَاتِقُ

﴿وقطعن أيديهن﴾ قال وهب: كَلَمْنَ الأكُفَّ وأَبَنَّ الأنامل [١].

قال قتادة: أبَنَّ أيديهن [٢].

قال مجاهد: لم يحسسن إلا بالدم، لم يجدن الألم لشغل قلوبهن بيوسف [٣].

قال ابن عباس: كُنَّ يحسبن أنهن يقطعن طعاماً [٤].

﴿وقلن حاش لله﴾ اتفقوا على حذف الألف من حاشا إلا أبا عمرو فإنه أثبتها في الوصل على الأصل [٥]، وهي كلمة تفيد معنى: التنزيه من السوء. واشتقاقها من قولك: كنت في حشا فلان، أي: في ناحيته [٦]. وأنشدوا في معنى ذلك:

.... بِأَيِّ الحَشَا أَمْسَى الخَلِيطُ المُبَاينُ [٧]

أي: بأي النواحي.

فالمعنى على هذا: هو في ناحية مما قَرَفَتْه [٨] به امرأة العزيز، أو هو في ناحية من

---

(١) زاد المسير (٤/ ٢١٨).

(٢) أخرج نحوه الطبري (١٢/ ٢٠٧). وانظر: الوسيط (٢/ ٦١٠).

(٣) الطبري (١٢/ ٢٠٧). وانظر: الوسيط (٢/ ٦١٠).

(٤) أخرجه الطبري (١٢/ ٢٠٦)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٣٦).

(٥) الحجة للفارسي (٢/ ٤٤٥)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٥٩)، والكشف (٢/ ١٠)، والنشر (٢/ ٢٩٥)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٤).

(٦) انظر: اللسان (مادة: حشا).

(٧) عجز بيت للمعطل الهذلي، وصدره: (يقول الذي أمسى إلى الحَزْن أهله). وهو في: اللسان (مادة: حشا).

(٨) أي: رَمَتْه، يقال: قَرَفْتُ الرجلَ بالذنب قَرْفاً؛ إذا رَمَيْتَه (اللسان، مادة: قرف).

من مشابهة البشر. ألا ترى إلى قوله: ﴿ما هذا بشراً﴾.

قال الزجاج[١]: إذا قلت: حاشا لزيد، معناه: قد تنحى زيد من هذا وتباعد عنه، كما أنك تقول: قد تنحَّى، من الناحية، كذلك قد تحاشا من هذا الفعل.

وقال بعض المحققين من أهل العربية: «حاشى لله» بحذف الألف وإثباتها، والأصل إثباتها؛ لأنه فعل، بدليل قوله:

وَلا أرَى فَاعِلاً فِي النَّاسِ يُشْبِهُهُ   وَلاَ أُحَاشِي مِنَ الأَقْوَامِ مِنْ أَحَدِ[٢]

وحذفُ الألف للتخفيف، كحذف النون في قوله: «لم يك»، والياء في قوله: «ولا أدر».

وحاشا هاهنا فعل فاعله مضمر، وهو ضمير «يوسف»، أي: حاشا يوسف لله، أي: لخوف الله، فحذف المضاف. ولا يجوز أن يكون «حاشا» هاهنا حرفاً، كقوله:

حَاشَى أَبِي ثَوْبَانَ إِنَّ أَبَا   ثَوْبَانَ لَيْسَ بِبُكْمَةٍ فَدْمِ

عَمْرو بْنُ عَبْدِالله إِنَّ بِهِ   ضَناً عَلَى الْمَلْحَاةِ وَالشَّتْمْ[٣]

لأنه يصير «حاشا» داخلاً على لام الجر، وحرفا جر لا يجتمعان.

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ١٠٧).

(٢) البيت للنابغة. انظر: ديوانه (ص:٣٣)، واللسان (مادة: حشا)، وابن يعيش (٢/ ٨٥)، والأشموني (٢/ ١٦٧)، والهمع (١/ ٢٣٣)، وشواهد المغني (ص:١٢٧)، والخزانة (٣/ ٤٠٣)، والدر المصون (٤/ ١٧٧)، وروح المعاني (١٢/ ٢٣١).

(٣) البيتان للجميح الأسدي. انظر: اللسان، مادة: (حشا) ونسبه لسَبْرة بن عمرو الأسدي، والمحتسب (١/ ٣٤١)، والمفضليات (ص:٣٦٧)، ومجاز القرآن (١/ ٣١٠)، والبحر المحيط (٥/ ٣٠٠)، والدر المصون (٤/ ١٧٦).

وقال الزمخشري[١]: هي حرف من حروف الجر، وضعت موضع التنزيه والبراءة. فمعنى «حاشا [الله][٢]»: براءة الله وتنزيه الله، وهي قراءة ابن مسعود[٣]، على إضافة حاشا إلى الله إضافة البراءة. ومن قرأ «حاشاً لله»، فنحو قولك: سَقْياً لك؛ كأنه قال: براءة، ثم قال: لله؛ لبيان من يبرأ.

والدليل على تنزيل «حاشا» منزلة المصدر: قراءة أبي [السَّمَّال][٤]: «حاشاً لله» بالتنوين[٥].

فإن قلت: لم جاز في «حاشا لله» أن لا ينوّن بعد إجرائه مجرى «براءة الله»؟

قلتُ: مراعاة للأصل الذي هو الحرفية، ألا ترى إلى قولهم: جلست مِنْ عَنْ يمينه، كيف تركوا «عن» غير معرب على أصله؟ [وعلى قوله: غدت من عليه، فتقلب الألف إلى الياء مع الضمير][٦] والمعنى: ننزه الله من صفات العجز، والتعجب من قدرته على خلق [جميل][٧] مثله.

وقوله: مِنْ [عَنْ يمينه][٨]، وقوله: غدت من عليه، «عن وعلى» اسمان، فلا

---

(١) الكشاف (٢/ ٤٣٩).

(٢) في الأصل: لله. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

(٣) البحر (٥/ ٣٠٣)، والدر المصون (٤/ ١٧٨).

(٤) في الأصل: السماك. وهو خطأ. وأبو السمال هو: قعنب بن أبي قعنب العدوي البصري (المقتنى في سرد الكنى ١/ ٢٩٣، والإكمال لابن ماكولا ٤/ ٣٥٤).

(٥) البحر المحيط (٥/ ٣٠٣).

(٦) زيادة من الكشاف (٢/ ٤٣٩).

(٧) مثل السابق.

(٨) في الأصل: غير يمين. وقد سبقت على الصواب كما أثبتناها.

يلزمان.

وأما قوله: ﴿حاشَ لله ما علمنا عليه من سوء﴾ فالتعجبُ من قدرته على خَلْقِ عفيفٍ مثلِه.

قوله تعالى: ﴿ما هذا بشراً﴾ قال الزجاج وسيبويه(١) والخليل وجميع النحويين القدماء: يزعمون أن «بشراً» منصوب خبر «ما»، ويجعلونه بمنزلة «ليس»، و «ما» معناها معنى ليس [في النفي](٢)، وهذه لغة أهل الحجاز، وهي اللغة القُدْمَى الجيدة.

وزعم بعضهم: أن الرفع في قولك: «ما هذا بشرٌ» أقوى الوجهين. وهذا غلط؛ لأن كتاب الله ولغة رسول الله ﷺ أقوى اللغات.

ولغة تميم: «ما هذا بشرٌ»، ولا تجوز القراءة بها ولا قرأ بها أحد؛ لأنها خلاف المصحف. والدليل على ذلك: إجماعهم على ﴿ما هن أمهاتِهم﴾ [المجادلة:٢]. هذا كله كلام الزجاج.

وقد قرأ «بشرٌ» بالرفع جماعة منهم: أبو المتوكل وأبو نهيك وعكرمة ومعاذ القارئ(٣).

قال جمهور المفسرين: نَفَيْنَ عنه البشريةَ وأثبتن له المَلَكية؛ لِمَا رأيْنَ من غرابة جماله(٤).

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ١٠٧-١٠٨). وانظر: الكتاب (١/ ٥٩).

(٢) في الأصل: بالنفي. والتصويب من معاني الزجاج (٣/ ١٠٨).

(٣) زاد المسير (٤/ ٢١٩).

(٤) ذكره أبو السعود في تفسيره (٤/ ٢٧٢).

فإن قيل: من أين عَلِمْنَ حُسْنَ الملائكة حتى قُلْنَ: ﴿إن هذا إلا مَلَكٌ كريم﴾؟

قلتُ: حُسْن الملائكة أمرٌ مستقرٌ في النفوس، مركوز في الطباع، كما أن قبح الشيطان مستقر في النفوس، وضُرب بهما المثل في الحسن والقبح.

والذي يظهر في نظري: أن قولهن: «ما هذا بشراً» ليس على وجه السلب لنوع الإنسانية عن يوسف وإثبات الملكية له، وإنما هو على مذهب الاستعظام؛ لما خُصَّ به من النضارة والجمال من بين ولد آدم.

وقرأتُ لأبي عمرو من رواية عبد الوارث عنه: «ما هذا بِشِرىً» بكسر الباء والشين، «إن هذا إلا مَلِك» بكسر اللام، وهي قراءة أبي بن كعب(١).

وفي قراءة ابن مسعود: «ما هذا بشراء» بالمد والهمز، على معنى: ما هذا بعبد مملوك.

﴿إن هذا إلا ملك كريم﴾ تقول: هذا بشرى، أي: حاصل بشرى، وبمعنى: هذا مشترى، على وضع المصدر موضع المفعول، كقوله: ﴿هذا خلق الله﴾ [لقمان:١١]، وقوله: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ [الروم:٢٧].

روي: أن يوسف عليه السلام كان يشبه آدم عليه السلام يوم خَلَقَهُ ربُّه، وكان إذا سار في أزقة مصر يُرى تلألؤ وجهه على الجدران، كما يُرى نور الشمس.

وفي حديث أنس أن النبي ﷺ قال: ((أعطي يوسف شطر الحسن))(٢).

وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: ((سمعت رسول الله ﷺ وهو يصف يوسف حين رآه في السماء الثانية: رأيتُ رجلاً صورته صورة القمر ليلة البدر،

---

(١) زاد المسير (٤/ ٢١٩).

(٢) أخرجه مسلم (١/ ١٤٥-١٤٦ ح١٦٢)، وأحمد (٣/ ٢٨٦ ح١٤٠٨٢).

قلت: يا جبريل من هذا؟ قال: هذا أخوك يوسف»[١].

﴿قالت فذلكن الذي لمتنّني فيه﴾ إن كان فارقهن في ذلك الوقت؛ فالكلام على وجهه، وإلا فالتقدير: هذا ذلكن الذي لمتنني في حبه.

فلما ظهر أمرها ولاح عذرها، أطارت عن وجهها رداء المداجاة والحياء، واعترفت أنها الفاعلة لما اقترفت ورَمَتْه به، فقالت: ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ أبى وامتنع. ثم هَدَّدَتْهُ بقولها: ﴿ولئن لم يفعل ما آمره﴾ «ما» موصولة، والتقدير: الذي آمره به، فحذف الجارّ، كقوله:

أمرتك الخير ....[٢]

فعلى هذا؛ الضمير في «آمره» يرجع إلى الموصول لا إلى يوسف. أو هي مصدرية، فيرجع الضمير في «آمره» إلى يوسف، على معنى: لئن لم يفعل أمري، أي: موجب أمري ﴿ليسجنن وليكوناً﴾ وقرئ شاذاً: «وليكونن» بالتشديد[٣].

والقراءة الأولى أولى؛ لأن جمهور القراء عليها.

ولأن النون مكتوبة في المصحف ألفاً على حكم الوقف؛ لأن النون الخفيفة تبدل منها في الوقف الألف، تقول: اضربن زيداً، فإذا وقفت قلت: اضربا، وعليه حمل قول أبي الطيب[٤]:

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٦٢٣ ح٤٠٨٧).

(٢) تقدم.

(٣) زاد المسير (٤/ ٢٢٠).

(٤) البيت لأبي الطيب المتنبي، وتكملة البيت: (وبُكاكَ إن لم يجر دمعكَ أوْ جَرَى)، انظر: زهر الآداب وثمر الألباب، باب جملة من ألفاظ أهل العصر في صفة الكتب...، ومعجز أحمد للمعري، العميديات، وشرح ديوان المتنبي للواحدي.

باد هواكَ صبرتَ أم لم تصبرا ....

ومثل هذا قوله: ﴿لنسفعاً بالناصية﴾ [العلق:١٥].

وفي هذا القصص أقوى شاهد على صحة ما نقل في التفسير: أن العزيز قطفير كان قليل الغَيْرة.

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قال رب السِّجن أحبُّ إليّ﴾ أي: نزول السجن.

وقرأت ليعقوب: «السَّجن» بفتح السين، على المصدر[(١)].

والمعنى: السجن وإن استلزم الشدائد والمشاق العظيمة أحبُّ إليّ وآثر عندي من ارتكاب ما يدعونني إليه، هي بالاقتضاء، وصواحبها بالتزيين والإغواء.

ثم عاذ ولاذ بقوة الله وعصمته معترفاً بضعفه عن مقاومة سلطان الشيطان، فقال: ﴿وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين﴾ الذين لا يعملون بما يعلمون. وقيل: من السفهاء.

وقال ابن عباس: يريد: من المذنبين الآثمين[(٢)].

فإن قيل: أين الدعاء حتى قال: ﴿فاستجاب له ربه﴾ ؟

قلتُ: تضمنه قوله: ﴿وإلا تصرف﴾، فإنه طلبٌ وسؤالٌ لصرف كيدهنَّ عنه،

---

(١) النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٩٥)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٤).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦١٢).

بألطف أسلوب من أساليب الدعاء.

والمعنى: أجابه ربه إلى ما التمسه منه من العصمة.

﴿إنه هو السميع﴾ لسؤاله ﴿العليم﴾ بحاله.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿ثم بدا لهم... الآية﴾ قال وهب والسدي: إن امرأة العزيز قالت لزوجها: إن هذا العبد العبراني فضحني في الناس، يخبرهم أني راودته عن نفسه ولست أقدر [أن أعتذر][1] بعذري، فإما أن تأذن لي فأخرج فأعتذر، وإما أن تحبسه كما حبستني. فظهر للعزيز وأصحابه من الرأي حبس يوسف. فذلك قوله: ﴿ثم بدا لهم﴾[2].

«بدا» فعلٌ، وفاعلُه مصدر مضمر، على تقدير: ثم بدا لهم بَدَاءٌ.

ولا يكون قوله: «ليسجننه» في موضع الفاعل؛ لأن الجمل نكرات، ولا تكون فاعلات. هذا قول المبرد.

وقال سيبويه[3]: فاعله ما دَلَّ عليه «ليسجننه» وقام مقامه.

وقيل: فاعله محذوف، تقديره: ثم بدا لهم رأي.

﴿من بعد ما رأوا الآيات﴾ وهي الشواهد الدَّالَّة على براءته ونزاهته؛ من شَقّ القميص، وقضاء الشاهد.

---

(١) زيادة من المصادر التالية.

(٢) أخرجه الطبري (١٢/ ٢١٣)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٣٩). وانظر: الدر المنثور (٤/ ٥٠٣).

(٣) انظر: الكتاب (٣/ ١١٠).

﴿ليسجننه﴾ قَطْعاً لِقَالة الناس، وإيهاماً لإغمارهم أنها بريئة مما نسبها إليه من المُراودة، ﴿حتى حين﴾ أي: زمان يخمد فيه نار العار والشنار.

قال بعض العلماء: طلبتْ سجنَه حنقاً عليه حين آيسها من نفسه، ورجاء استنزاله مما نعتها، بتذليل السجن له.

وفي قراءة ابن مسعود: «عتى حين»، وهي لغة هذيل[(١)].

ويروى: أن عمر رضي الله عنه سمع رجلاً يقرأ: «عتى حين» فقال: من أقرأك؟ قال: ابن مسعود، فكتب إليه: إن الله تعالى أنزل هذا القرآن فجعله عربياً، فأنزله بلغة قريش، فلا تُقرئهم بلغة هذيل، والسلام[(٢)].

قال أبو الفتح عثمان ابن جني[(٣)]: العرب تُبْدل أحد هذين الحرفين من صاحبه؛ لتقاربهما في المخرج، [كقولهم][(٤)]: بُحْثِرَ ما في القبور، أي: بُعْثِرَ، وضَبَعَت الخيل وضَبَحَت[(٥)].

---

(١) انظر: البحر المحيط (٥/ ٣٠٧).

(٢) ذكره ابن عبدالبر في التمهيد (٨/ ٢٧٨)، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٥٣٥) وعزاه لابن الأنباري في كتاب الوقف والابتداء، والخطيب في تاريخه عن عبدالرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه.

(٣) المحتسب (١/ ٣٤٣).

(٤) في الأصل: كنقلهم. والمثبت من المحتسب، الموضع السابق.

(٥) ضَبَحَت الخيل في عَدْوها تَضْبَحُ ضَبْحاً: أَسْمَعَتْ من أفواهها صوتاً ليس بصهيل ولا حمحمة، وهو عَدْوٌ دون التقريب (اللسان، مادة: ضبح).

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦﴾

قال السدي: ثم إن الملك غضب على خبازه، وبلغه أنه يريد أن يسمّه بسُمّ، وأن صاحب شرابه قد مالأه على ذلك، فحبسهما جميعاً، فذلك قوله: ﴿ودخل معه السجن فتيان﴾[1]. أي: دخلا مصاحبين له، وهما: الساقي والخباز، وكانا مملوكين للملك، والعرب تسمي المملوك: فتى، شاباً كان أو شيخاً، وكان يوسف قال لهما حين تفاوضوا الحديث: أنا أُعبِّر الأحلام، فقال أحدهما -وهو الساقي-: ﴿إني أراني﴾ يعني: في المنام، وهي حكاية حال ماضية ﴿أعصر خمراً﴾ يعني: عنباً، فسماه بما يؤول إليه.

قال ابن جني[2]: هو كقول الآخر:

إِذا مَا مَاتَ مَيْتٌ مِنْ تَمِيم ... فَسَرَّكَ أَن يَعيش فَجِئْ بزاد[3]

أي: إذا مات حيّ فصار مَيْتاً كان كذا.

وقال الزجاج[4] وابن الأنباري: العرب تسمي الشيء باسم ما يؤول إليه إذا انكشف المعنى، يقولون: فلان يطبخ الآجر، ويعمل الدبس، وإنما يطبخ اللبن

---

(١) أخرجه الطبري (١٢/ ٢١٤)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٤٢). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٠٣).

(٢) المحتسب (١/ ٣٤٤).

(٣) البيت لأبي المهوش الأسدي. وينسب أيضاً ليزيد بن عمرو بن الصعق. انظر: سمط اللآلئ (ص:٨٦٣)، والخزانة (٣/ ١٤٢)، والمحتسب (١/ ٣٤٤).

(٤) معاني الزجاج (٣/ ١٠٩).

والعصير.

وقيل: إن أهل عُمان يسمون العنب خمراً. أو يكون التقدير: أعصر عنب خمر، فحذف المضاف.

﴿وقال الآخر﴾ يعني: الخبّاز ﴿إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً﴾ قال ابن عباس: رآهما يوسف عليه السلام ذات يوم مهمومين، فقال: ما شأنكما؟ فقالا: رأينا رؤيا، فقال: قُصَّاها عَلَيَّ، فقال الساقي: إني رأيت كأني دخلت كَرْماً فجنيت ثلاث عناقيد عنب فعصرتهن في الكأس، ثم أتيت به الملك فشَرِبَه. وقال الخبّاز: رأيت كأني خرجت من مطبخ الملك أحمل فوق رأسي ثلاث سلال من خبز، فوقع طير على أعلاهن فأكل منها[١].

قال ابن مسعود: كانا كاذبين، وإنما قصدا تجربته[٢].

وقال مجاهد: كانا صادقين[٣].

وقال أبو مجلز: كان الذي صُلِبَ منهما كاذباً[٤].

﴿نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين﴾ قال ابن عباس: كان يعود المرضى ويداويهم، ويعزّي الحزين[٥].

---

(١) أخرج نحوه الطبري (١٢/ ٢١٥) عن عكرمة. وانظر: الوسيط (٢/ ٦١٣)، وزاد المسير (٤/ ٢٢٣).

(٢) أخرجه الطبري (١٢/ ٢١٤). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٢٢).

(٣) زاد المسير (٤/ ٢٢٣).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٤٣). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٢٣).

(٥) أخرجه الطبري (١٢/ ٢١٦)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٤٣) عن قتادة. وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٣٧).

وقال الضحاك: كان إذا ضاق على رجل مكانه وسع عليه، وإن احتاج جمع له، وإن مرض قام عليه[١].

وقيل: كان يعين المظلوم وينصر الضعيف.

وقال الفراء[٢]: «من المحسنين» أي: ممن يحسن التأويل.

فإن قيل: كيف ينتظم قوله: «نبئنا بتأويله» بقوله: «إنا نراك من المحسنين» على الأقوال الأولة؟

قلت: المعنى أنك من المحسنين إلى أهل السجن، فأحسن إلينا بعبارة الرؤيا، فلما وصفاه بالإحسان ورأى منهما ميلاً إليه ووثاقاً به، أخذ في استدراجهما في التوحيد الذي هو المقصود الكلي من أصل التخليق، قبل الشروع في عبارة الرؤيا.

قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور (٥/ ٣٩٣)، والبيهقي في شعبه (٧/ ٨٨)، والطبري (١٢/ ٢١٥-٢١٦)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٤٣). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٣٧) وعزاه لابن المنذر وأبي الشيخ.

(٢) قلتُ: هذا قول الزجاج وليس قول الفراء. وانظر: معاني الزجاج (٣/ ١١٠).
وقول الفراء في تفسير هذه الآية: من العالِمين (معاني الفراء ٢/ ٤٥).

وأوضح أمره وبرهن على صدقه بما ادعاه من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله أو من ارتضاه من رسول فـ﴿قال لا يأتيكما طعام ترزقانه﴾ يعني: في اليقظة ﴿إلا نبأتكما﴾ ببيان كميته وكيفيته وعاقبة أمره ﴿قبل أن يأتيكما﴾ وكان هذا من جنس ما أعطي عيسى بن مريم، وهذا قول الحسن(١).

وقال السدي: المعنى: لا يأتيكما طعام ترزقانه في المنام إلا نبأتكما بتأويله في اليقظة قبل أن يأتيكما التأويل(٢).

قال ابن عباس: فقالا له: كيف تعلم ذلك ولست بساحر ولا عرّاف ولا صاحب نجوم؟ فقال: ﴿ذلكما مما علمني ربي﴾(٣)، إشارة إلى إخباره بالمغيبات، أو إلى العلم بالتأويل وعبارة الرؤيا، على قول السدي(٤).

﴿إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله﴾ يعرّض بأهل مصر وبالفتيين، ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ تكرير «هم» للتوكيد أو للاستعار باختصاص الكفر والإيمان بغيرهم ممن كان على منهاج إبراهيم المبعوث بالملة الحنيفية.

ثم عرفهما إياه وأعلمهما أنه من سلالة النبوة، بعد أن أخبرهما بما خصه الله تعالى به وأكرمه من العلم والوحي؛ لتقوى رغبتهما في اتباعه واستماع قوله، قال: ﴿واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا﴾ أي: ما صح لنا معشر الأنبياء وأهل الرسالة ﴿أن نشرك بالله من شيء ذلك﴾ الاتباع التوحيد ﴿من فضل

---

(١) زاد المسير (٤/ ٢٢٤).

(٢) مثل السابق.

(٣) مثل السابق.

(٤) مثل السابق.

الله علينا وعلى الناس﴾ حيث اجتبانا لرسالته ومَنَّ عليهم بالهدى الذي بعثنا به، ﴿ولكن أكثر الناس﴾ من أهل مصر وغيرهم ممن لم يهتد بنا ﴿لا يشكرون﴾ فضل الله عليهم باتباع ما أرسلنا به إليهم.

يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

ثم أخذ في الدلالة على أنهما على الضلالة، فقال: ﴿يا صاحبي السجن﴾ أي: يا ساكني السجن. وقال صاحب الكشاف[1]: أراد يا صاحبيّ في السجن، فأضافهما إلى السجن، كما تقول: يا سارق الليلة، فكما أن الليلة مسروق فيها غير مسروقة، فكذلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب، وإنما المصحوب غيره، وهو يوسف عليه السلام، ونحوه قولك لصاحبيك: يا صاحبي الصدق، فتضيفهما إلى الصدق، ولا تريد أنهما [صحبا][2] الصدق، ولكن كما تقول: رجلا صدق،

---

(١) الكشاف (٢/ ٤٤٤).

(٢) في الأصل: صاحبا. والمثبت من الكشاف، الموضع السابق.

وسميتهما صاحبين لأنهما صحباك.

﴿أأرباب متفرقون﴾ يعني: الأصنام متفرقون في العدد والصغير والكبير ﴿خير﴾ لكما في الاستعباد والتذلل والانقياد لكل واحد منهم، أم يكون لكما رب واحد وهو الواحد القهار، الذي قهر[١] الجبابرة بعز سلطانه، وعَنَتِ الوجوه لعظمة شأنه.

وقيل: «خير» أعظم وأبلغ في المدح أم الله.

﴿ما تعبدون من دونه﴾ خطاب لهما ولمن هو على مثل حالهما ﴿إلا أسماء﴾ فارغة لا معنى تحتها، وهي أسماء آلهتهم، ﴿سميتموها أنتم وآباؤكم﴾ آلهة، وعبدتموها ﴿ما أنزل الله بها﴾ أي: بتسميتها ﴿من سلطان﴾ أي: حجة، ﴿إن الحكم﴾ في أمر العباد والدين ﴿إلا لله﴾ لا للأصنام، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ القيم ولا يفرقون بين الحق والباطل.

وقد نبهنا على الحكمة في اعتراض هذا الكلام من السؤال والجواب.

وقال قتادة: لما علم أن أحدهما مقتول دعاه إلى نصيبه من الآخرة[٢].

وقال ابن جريج: عدل عن الجواب لما فيه من المكروه لأحدهما[٣].

وقيل: ظنهما كاذبين في رؤياهما، فعدل عن جوابهما، فلما ألحّا أجابهما؛ فقال: ﴿أما أحدكما﴾ وهو الساقي ﴿فيسقي ربه﴾ سيده الملك ﴿خمراً﴾ قال ابن عباس:

---

(١) قوله: "قهر" مكررة في الأصل.

(٢) أخرجه الطبري (١٢/ ٢١٩)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٤٦). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٣٩) وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ.

(٣) زاد المسير (٤/ ٢٢٥).

قال للساقي: ما أحسن ما رأيت! أما الأغصان الثلاثة فثلاثة أيام يبعث إليك الملك عند انقضائها فيردّك إلى عملك، فتعود كأحسن ما كنت. وقال للخباز: بئس ما رأيت، أما السلال فثلاثة أيام، ثم يبعث الملك إليك فيقتلك ويصلبك، وتأكل الطير من رأسك. فقالا: ما رأينا شيئاً؟ فقال: ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ أي: فُرغ منه، وسيقع بكما ما أخبرتكما به، صدقتما أو كذبتما[1].

وفي قوله: ﴿قضي الأمر﴾ دليل على أن ما قضى به عليهما كان بطريق الوحي.

وقيل: لم يكن وحْياً، بدليل قوله: ﴿وقال للذي ظن أنه ناج منهما﴾.

وأجيب عنه: بأن الظن هاهنا بمعنى: العلم، وهو قول ابن عباس[2]، أو يكون على أصله، والظان هو الساقي لا يوسف عليه السلام.

﴿اذكرني عند ربك﴾ أي: عند صاحبك الذي يربّك، وهو الملك الأكبر، وقل له: إن في الحبس غلاماً مظلوماً وقُصَّ عليه قِصَّتي، ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾ أي: أنسى الشيطان الساقي أن يذكر يوسف لربه المَلِك.

وقال مجاهد ومقاتل[3]: الضمير يعود إلى يوسف، المعنى: فأنسى الشيطان يوسف ذكر ربه حين وكل أمره إلى غيره[4]. وهذا اختيار الزجاج[5].

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦١٣-٦١٤)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٢٦) كلاهما من قول ابن السائب الكلبي.

(٢) زاد المسير (٤/ ٢٢٧).

(٣) تفسير مقاتل (٢/ ١٥٠). وانظر: تفسير مجاهد (ص:٣١٦).

(٤) أخرج نحوه ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٤٩)، وبنحوه في الطبري (١٢/ ٢٢٢) وما بعدها. وانظر: الوسيط (٢/ ٦١٤)، وزاد المسير (٤/ ٢٢٧).

(٥) معاني الزجاج (٣/ ١١٢).

﴿فلبث في السجن﴾ عقوبة له على ذلك ﴿بضع سنين﴾ قال مالك بن دينار: لما قال يوسف للساقي: «اذكرني عند ربك» قيل له: يا يوسف، اتخذتَ من دوني وكيلاً؟ لأطيلنَّ حبسك. فبكى وقال: يا رب! أنسى قلبي كثرة البلوى، فقلتُ كلمة، فويل لإخوتي(١).

وروى الحسن أن رسول الله ﷺ قال: ((رحم الله يوسف، لولا كلمته ما لبث في السجن طول ما لبث)). قال: ثم يبكي الحسن، ويقول: نحنُ إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس(٢).

ويروى: ((أن جبريل دخل على يوسف، فلما رآه عرفه، فقال: يا أخا المنذِرين، ما لي أراك بين الخاطئين؟ فقال له جبريل: يا طاهر الطاهرين، يقرأ عليك السلام رب العالمين ويقول لك: أما استحييت مني إذ استشفعت بالآدميين؟ فَوَعِزَّتي لألبثنّك في السجن بضع سنين. قال يوسف: وهو في ذلك عني راض؟ قال: نعم. قال: إذاً لا أبالي))(٣).

(١) أخرجه الطبري (١٢/ ٢٢٣)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٤٩) عن مالك بن دينار عن الحسن. وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٤٢) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن الحسن.

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (ص:١٠٣)، والطبري (١٢/ ٢٢٣)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٤٨). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٤١) وعزاه لأحمد في الزهد وابن جرير ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) ذكره القرطبي (٩/ ١٩٥-١٩٦)، والواحدي في الوسيط (٢/ ٦١٤-٦١٥).

وأما «البضع» بكسر الباء وفتحها، فقد روي عن رسول الله ﷺ: ((أنه ما بين [الثلاث][١] إلى التسع))[٢].

قال الفراء[٣]: هو ما دون العشرة.

وقال الأخفش: هو من واحد إلى عشرة.

وقال الأصمعي: ما بين الثلاث إلى التسع. قال الزجاج[٤]: هو الصحيح.

واشتقاق البَضْع والبَضْعة؛ مِنْ قَطَعْتُ الشي، فمعناه: القطعة من العدد[٥].

وجمهور المفسرين على أن المراد بالبضع هاهنا: سبع سنين[٦].

وروي عن ابن عباس: أنه لبث فيه اثنتي عشرة سنة[٧].

والجمع بين القولين ممكن. المعنى: لبث في السجن بعد قوله: ﴿اذكرني عند ربك﴾ سبع سنين.

قال ابن السائب: هذه السبع سوى الخمس التي كانت قبل ذلك[٨].

---

(١) في الأصل: السبع. والتصويب من جامع الترمذي (٥/ ٣٤٢).

(٢) أخرج الترمذي في جامعه عن ابن عباس مرفوعاً: ((... ألا احتطت يا أبا بكر فإن البضع ما بين الثلاث إلى التسع)) (٥/ ٣٤٢ ح٣١٩١).

(٣) معاني الفراء (٢/ ٤٦).

(٤) معاني الزجاج (٣/ ١١٢).

(٥) انظر: اللسان (مادة: بضع).

(٦) أخرجه الطبري (١٢/ ٢٢٤) عن قتادة. وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٤٢) وعزاه لعبدالرزاق وابن جرير وابن المنذر وأبي الشيخ.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٥٠). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٤٢) وعزاه لابن أبي حاتم.

(٨) ذكره البغوي في تفسيره (٢/ ٤٢٨).

فإن قيل[١]: معاطاة الأسباب لا تنافي التوكل على المسبب، فإن سيد ولد آدم ﷺ خرج إلى الطائف مستجيراً بعبد ياليل بن عبد كلال فلم يُجره، ورجع إلى مكة في جوار المطعم بن عدي.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث جابر «أن النبي ﷺ مكث بمكة عشر سنين يَتْبَعُ الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة وفي المواسم، يقول: من يؤويني ومن ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة»[٢].

وصح عنه أنه قال: «ألا رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشاً منعتني أن أبلغ كلام ربي»[٣].

وقال للأنصار حين قالوا له: «اشترط لربك ولنفسك. فقال: أشترط لنفسي أن تنصروني وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم»[٤]. فما وجه الإنكار على يوسف عليه السلام؟

قلت: تعاطي الأسباب لا بأس به، بشرط اعتماد القلب على الله تعالى، وتوجه العتاب على يوسف عليه السلام ما كان -والله تعالى أعلم- إلا عن غفلة عرضت له حين قال: ﴿اذكرني عند ربك﴾، ألا ترى إلى قوله: ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾، وقول يوسف: أنسى قلبي كثرة البلوى.

---

(١) في الأصل زيادة: ما.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٢٢ ح١٤٤٩٦).

(٣) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٣٤ ح٤٧٣٤)، والترمذي (٥/ ١٨٤ ح٢٩٢٥)، وابن ماجه (١/ ٧٣ ح٢٠١).

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٣٢٢ ح١٤٤٩٦).

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾

قال وهب بن منبه: لما انقضت المدة التي وَقَّتها الله تعالى ليوسف في حبسه، دخل عليه جبريل السجن، فبشّره بالخروج ومُلْك مصر ولقاء أبيه، فلما أمسى الملك ليلتئذ رأى في منامه سبع بقرات سِمان خرجن [من][1] البحر في آثارهن سبع عجاف، [فأقبلت][2] العجاف على السِّمان، فأخذن بأذنابهن [فأكلنهن][3] إلى القرنين ولم يزد في العجاف شيء، ورأى سبع سنبلات خضر قد أقبل عليهن سبع سنبلات يابسات، فأكلنهنّ حتى أتين عليهن، ولم يزد في اليابسات شيء، فدعى أشرافَ قومه، فقصّها عليهم، فقالوا: أضغاث أحلام[4]، فذلك قوله: ﴿وقال الملك﴾ وهو الملك الأكبر ﴿إني أرى﴾ حكاية حال ماضية في المنام ﴿سبع بقرات سمان﴾ جمع سمين وسمينة، مثل: رجال ونسوة كِرام.

وعِجاف: جمع، واحده: أعْجَف وعَجْفَاء. ولما كان نقيض سِمان حُمل على لفظه وسُلِكَ به في الجمع غير قياسه، فإنهم لا يجمعون أفعل وفعلاء على فعال،

---

(١) زيادة من زاد المسير (٤/ ٢٢٩).

(٢) في الأصل: فأقبلن. والتصويب من زاد المسير، الموضع السابق.

(٣) في الأصل: فأكلهن. والمثبت من زاد المسير، الموضع السابق.

(٤) زاد المسير (٤/ ٢٢٩).

ويراعون حمل النظير على النظير والنقيض على النقيض.

قال الزجاج[1]: والعِجاف: اللاتي قد بلغت في الهُزال الغاية والنهاية.

﴿وأخر يابسات﴾ أي: وسبعاً أخر يابسات قد استحصدن يأكلن الخضر، فحذف اكتفاء بدلالة الأول عليه.

﴿يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾ قال الخليل بن أحمد: لا تُجمع الرؤيا؛ لأنها مصدر، كالرجعى والذكرى.

وقال غيره: جمع الرؤيا: الرُّؤَى، مثل: الكُبرى والكُبَر، والصُّغرى والصُغَر.

ومعنى «تَعْبُرون»: تُفَسِّرون، تقول: عَبَرْت الرؤيا -بالتخفيف- أَعْبُرها عَبْراً وعِبارة وعَبَّرتها -بالتشديد- تَعْبيراً. وقد أنكرها قوم.

قال الزمخشري[2]: وقد عثرت على بيت أنشده المبرد في الكامل[3] لبعض الأعراب:

رَأَيْتُ رُؤْيا ثُمَّ عَبَّرْتُها   وَكُنْتُ للأَحْلامِ عَبَّارا[4]

وحقيقة عبَرت الرؤيا: ذكرت عاقبتها وآخر أمرها، كما تقول: عبرتُ النهر.

فإن قيل: ما هذه اللام؟

قلت: هي اللام التي تزاد في المفعول به إذا تقدم على الفعل، تقويةً له وجَبْراً، حيث قدّم عليه معموله. تقول: عبَرت الرؤيا وللرؤيا عبَرت، ومثله: ﴿للذين هم

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ١١٢).

(٢) الكشاف (٢/ ٤٤٧).

(٣) الكامل (٢/ ٤٨).

(٤) انظر البيت في: البحر (٥/ ٣١١)، والكشاف (٢/ ٤٤٧)، والدر المصون (٤/ ١٨٧).

لربهم يرهبون﴾ [الأعراف:١٥٤]، وقد جاء في المفعول وليس بمقدم، كقوله: ﴿ردف لكم﴾ [النمل:٧٢].

وقال الزمخشري[١]: اللام إما أن تكون للبيان، كقوله: ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾، وإما أن تدخل؛ لأن العامل إذا تقدم عليه معموله لم يكن في قوته على العمل فيه مثله إذا تأخر عنه؛ فعضد بها كما يعضد بها اسم الفاعل، إذا قلت: هو عابر للرؤيا؛ لانحطاطه عن الفعل في القوة. ويجوز أن يكون للرؤيا خبر كان، كما تقول: كان فلان لهذا الأمر؛ إذا كان مستقلاً به [متمكناً][٢] [منه][٣].

و «تعبرون» خبر آخر أو حال، وأن يُضَمَّنَ «تعبرون» معنى فعل يتعدى باللام، كأنه قيل: إن كنتم [تنتدبون][٤] لعبارة الرؤيا.

﴿قالوا أضغاث أحلام﴾ واحد الأضْغَاث: ضِغْث، وهو ما جمع من أخلاط النبات[٥].

وواحد الأحلام: حُلْم، صحيحاً كان أو باطلاً، والجمع هاهنا بمنزلة قولهم: فلان يركب الخيل، ويلبس العمائم، لمن لا يركب إلا فرساً، ولا يلبس إلا عمامة واحدة. فالمعنى: هذه أخاليط لا تأويل لها.

﴿وما نحن بتأويل الأحلام﴾ التي هذا شأنها ﴿بعالمين﴾ هذا قول عامة

---

(١) الكشاف (٢/ ٤٤٧).

(٢) في الأصل: ممكناً. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

(٣) زيادة من الكشاف، الموضع السابق.

(٤) في الأصل: تنتبهون. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

(٥) انظر: اللسان (مادة: ضغث).

المفسرين[١].

ويجوز أن يكونوا نفوا عن أنفسهم العلم بتأويل الرؤيا على الإطلاق. وهذا هو الأظهر عندي؛ لأن الأخاليط لا تأويل لها، فتُعلم، ولأنهم لم يكونوا من أولي المهارة في العبارة ولا معروفين بالعلم بالتأويل، ولهذا قال: ﴿إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾.

﴿وقال الذي نجا منهما﴾ من الفتيين، وهو الساقي ﴿وادّكر﴾ أصلها: «اذتكر» فأبدلوا من التاء دالاً وأدغموا فيها الذال. والمعنى: قال وقد تذكر شأن يوسف وما وصّاه به ﴿بعد أمّة﴾ أي: بعد مُدَّة طويلة. وقد بيّنا معنى الأُمَّة.

وقرأ أبو الأشهب العقيلي: «بعد إِمّة» بكسر الهمزة، أي: بعد نعمة الله عليه بالإنجاء[٢]. ومنه قول عدي بن زيد[٣]:

ثُمَّ بَعْدَ الفَلاَحِ والمُلْكِ والإمَّـ ـةِ وَارَتْهُمْ هُنَاكَ القُبُورُ

وقرأ ابن عباس والحسن وعكرمة والضحاك: «بعد أَمَهٍ»[٤]، أي: نسيان. يقال: أَمِهَ يَأْمَهُ أَمهاً؛ إذا نَسِيَ[٥]. قال الشاعر:

---

(١) الوسيط (٢/ ٦١٥)، وزاد المسير (٤/ ٢٣٠).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٣١٣).

(٣) البيت لعدي بن زيد. انظر: ديوانه (ص:٨٩)، واللسان، مادة: (أمم، فلح)، وتهذيب اللغة (٥/ ٦٣٤)، والطبري (٢٥/ ٦٠)، والقرطبي (١٦/ ٧٤)، والكشاف (٢/ ٤٨٨)، والدر المصون (٤/ ١٨٨).

(٤) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٥).

(٥) انظر: اللسان (مادة: أمه).

أَمِهْتُ وَكُنْتُ لا أَنْسَى حَدِيثاً كَذاكَ الدَّهْرُ يُودِي بِالعُقُولِ[1]

قال الكلبي: لما سأل الملك عن رؤياه، جثا الساقي بين يديه بعد انقضاء جواب الملأ، فقال للمَلِك: إني قصصتُ أنا والخبّاز على رجل في السجن منامين، فخبرنا بتأويلهما، فصدق في جميع ما وصف، ولم يسقط من تأويله شيء، فإن أذنتَ مضيتُ إليه وأتيتك من قِبَلِه بتفسير هذه الرؤيا، فأذن له[2].

والمعنى: ﴿أنا أنبئكم بتأويله﴾ من قبل يوسف ﴿فأرسلون﴾ إليه.

يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

قال ابن عباس: لم يكن السجن بالمدينة، فلما أتاه قال له: ﴿يوسف أيها الصديق﴾ أي: الكثير الصدق، وقصّ عليه رؤيا الملك إلى آخرها[3].

ثم قال: ﴿لعلي أرجع إلى الناس﴾ الملك والملأ الذين جمعهم لعبارة رؤياه

(١) انظر البيت في: اللسان (مادة: أمه)، والقرطبي (٩/ ٢٠١).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦١٥).

(٣) أخرجه الطبري (١٢/ ٢٢٩-٢٣٠)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٥٢)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٥٠٤).

﴿لعلهم يعلمون﴾ عبارة هذه الرؤيا، أو لعلهم يعلمون فضلك ومكانتك من العلم، فيخلصون من معرة اللبس ومضرة الحبس.

و «لعل» في موضعين بمعنى: كي، أو على أصلها، إذ ليس هو على يقين من الرجوع إلى الناس، ولا على ثقة من علمهم.

﴿قال تزرعون سبع سنين دأباً﴾ قال صاحب الكشاف[1]: هو خبر في معنى الأمر. والدليل قوله: ﴿فذروه في سنبله﴾.

وهو تأويل محتمل، إلا أن اللفظ لا يُصرف عن حقيقته إلى مجازه إلا بدليل يوجب صرفه.

وما ذكره لا دلالة فيه لأنه أخبرهم بتأويل الرؤيا، وأمرهم في غضون ذلك بأن يذروه في سنبله هادياً لهم إلى المصلحة.

وقرأ حفص: «دَأَباً» بفتح الهمزة[2]، وهما مصدران.

قال الزجاج[3]: المعنى: تَدْأَبُون دَأَباً، ودل على تدأَبُون «تزرعون»، والدَّأْبُ: الملازمة للشيء.

قال أبو علي[4]: الأكثر في «دَأْبٍ» الإسكان، ولعل الفتح لغة.

﴿فما حصدتم فذروه في سنبله﴾ لئلا يُسَوِّسَ ﴿إلا قليلاً مما تأكلون﴾.

---

(١) الكشاف (٢/ ٤٤٩).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٤٤٧)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٥٩)، والكشف (٢/ ١١)، والنشر (٢/ ٢٩٥)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٥)، والسبعة في القراءات (ص:٣٤٩).

(٣) معاني الزجاج (٣/ ١١٤).

(٤) الحجة (٢/ ٤٤٧).

﴿ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد﴾ صِعَابٌ مجدبات، ﴿يأكلن ما قدمتم لهن﴾ يُذهبنه ويُفنينه، ومنه: أَكَلَتْهُمُ الضَّبُع، وهي السَّنَة الشديدة. قال خفاف بن ندبة:

أبا خُراشَةَ أمَّا كُنْتَ ذا نفرٍ فَإِنَّ قَوْمِي لَمْ تَأْكُلْهُمُ الضَّبُعُ[1]

وقيل: هو من الإسناد المجازي، جعل أكل أهلهن مُسْنَداً إليهن.

﴿إلا قليلا مما تحصنون﴾ تُحرزون وتَدَّخرون.

﴿ثم يأتي من بعد ذلك﴾ الجدب ﴿عام فيه يغاث الناس﴾ يأتيهم الغيث أو الغوث. والأول قول ابن عباس[2].

﴿وفيه يعصرون﴾ وقرأ حمزة والكسائي: «تَعْصِرون» بالتاء على الخطاب[3].

والمعنى: يَعْصِرون العنب والزيتون والسمسم. هذا قول ابن عباس والأكثرين[4].

وروي عنه: يعصرون، بمعنى: يحلبون، وأنشدوا:

فَمَا عِصْمَةُ الأعرابِ إِن لم يَكُن لَهُمْ طُعَامٌ وَلا درّ مِنَ المَالِ يُعْصَرُ[5]

أي: يحلب.

---

(١) انظر البيت في اللسان (مادة: خرش)، والإصابة (٢/ ٣٣٦) ونسباه للعباس بن مرداس.

(٢) أخرجه الطبري (١٢/ ٢٣٢)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٥٤). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٤٦) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٤٤٧)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٥٩)، والكشف (٢/ ١١)، والنشر (٢/ ٢٩٥)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٥)، والسبعة في القراءات (ص:٣٤٩).

(٤) أخرجه الطبري (١٢/ ٢٣٢)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٥٥). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٤٦) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٥) انظر البيت في: زاد المسير (٤/ ٢٣٤).

قال الزجاج[١]: من قرأ: «تعصرون» يعني: بالتاء على المخاطبة، فإن شاء على تأويل يعصرون، وإن شاء على تأويل ينجون من البلاء، وتعتصمون بالخصب. قال عدي بن زيد[٢]:

لو بغَيرِ المَاءِ حَلْقِي شَرِقٌ   كُنْتُ كَالغَصَّانِ بالمَاءِ اعْتِصَارِي[٣]

ويقال: فلان في عَصَرٍ وفي عُصْرةٍ؛ إذا كان [في][٤] حصن لا يُقْدَر عليه.

وقرأ سعيد بن جبير وجعفر بن محمد: «يُعصَرون» بفتح الصاد وبياء مضمومة[٥].

قال قطرب والزجاج[٦]: «يُعصَرون» أي: يُمْطَرُون، من قوله: ﴿وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً﴾ [النبأ:١٤].

وقال أبو الفتح ابن جني[٧]: إن شئت أخذته من العصرة وهي

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ١١٤).

(٢) هو عدي بن زيد العبادي، من شعراء الحيرة، خالط نصاراهم من صغره، فكان متألهاً، وهو شاعر غير مكثر، قالوا إنه كسهيل من النجوم يجري معها ولا يعارضها. كان النعمان بن المنذر قد حبسه فكتب له عدي عدة قصائد يستعطفه بها، وسُجن طويلاً لديه ثم قتل. وهذا البيت من إحدى القصائد التي وجهها إليه. وأخبار عدي بالأغاني (٢/ ١١٤).

(٣) البيت لعدي بن زيد، انظر: ديوانه (ص:٩٣)، والكتاب (٣/ ١٢١)، وتهذيب اللغة (٢/ ١٥)، واللسان (مادة: عصر)، والهمع (٢/ ٦٦)، والتصريح (٢/ ٢٥٩)، والخزانة (٨/ ٥٠٨)، والأشموني (٤/ ٤٠)، والبحر المحيط (٥/ ٣١٥)، والدر المصون (٤/ ١٩١).

(٤) زيادة من معاني الزجاج (٣/ ١١٤).

(٥) زاد المسير (٤/ ٢٣٥)، والبحر (٥/ ٣١٥).

(٦) معاني الزجاج (٣/ ١١٤).

(٧) المحتسب (١/ ٣٤٥).

النجاة(١)، وإن شئت أخذته من عَصَرَتِ السحابُ ماءَها عليهم.

[وعليه](٢) قراءة الجماعة: «وَفِيهِ يَعْصِرُون» [فهذا من النجاة.

وروينا عن ابن عباس: أي يعصرون من](٣) الكرْم والأدهان(٤)، فهذا تفسير النَجاة، كيف يقع بهم وإليهم؟

قال أبو زُبيد:

صَادِياً يَسْتَغِيثُ غَيرَ مُغَاثٍ ... وَلَقَدْ كَانَ عُصْرَةَ المنجُودِ(٥)

قال قتادة: زاده الله تعالى علم عَامٍ لم يسألوه عنه(٦).

فإن قيل: معلوم أن السبع الشداد إذا انتهت كان انتهاؤها بالخصب، فلم قال قتادة: أن علم ذلك بالوحي؟

قلتُ: يجوز أن يكون انتهاؤها باستئصال شأفتهم وإهلاكهم، أو بتقليل الشدة عليهم.

---

(١) في المحتسب: من العُصْرة والعَصَر لِلْمَنْجَاةِ.

(٢) في الأصل: وعلة. والتصويب من المحتسب (١/ ٣٤٥).

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من المحتسب، الموضع السابق.

(٤) تفسير ابن عباس (ص:٢٩٣) وفيه قال: قوله: ﴿يعصرون﴾: الأعناب والدهن.
والأدهان: جمع دهن، مما يعصرون من الزيتون والسمسم.

(٥) البيت لأبي زبيد الطائي يقوله في رثاء ابن أخته، وكان مات عطشان في طريق مكة. وقيل: بل في عثمان رضي الله عنه. والمنجود: المكروب. انظر البيت في: مجاز القرآن (١/ ٣١٣)، واللسان، مادة: (عصر، نجد)، والطبري (١٢/ ٢٣٣)، والقرطبي (٩/ ٢٠٥، ١٩/ ١٧٤)، وزاد المسير (٤/ ٢٣٥)، والبحر المحيط (٥/ ٣١٤)، وروح المعاني (١٢/ ٢٥٦).

(٦) أخرجه الطبري (١٢/ ٢٣٢)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٥٥). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٤٦) وعزاه لأبي الشيخ.

وأما العلم بالغوث والاعتصار وانقلاب الشدة إلى الرخاء على الوجه الـذي قاله لهم فلا يكون إلا بطريق الوحي.

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى: ﴿وقال الملك ائتوني به﴾ لما علم بمكانه من العلم بالتأويل، وسمع من عبارة الرؤيا ما يدل على براعته ومهارته في ذلك أحبّ رؤيته، فقال: «ائتوني به»، ﴿فلما جاءه الرسول﴾ قال: أجب الملك. فأبى أن يخرج معه حتى يتبرأ مما قُذف به؛ ليُنظر إليه بعين الإجلال والإكرام، ولا يُنظر إليه مَرْمِيّاً بفاحشة، مُتَّهَماً بخيانة، فقال: ﴿ارجع إلى ربك﴾ أي قال [للرسول][1]: ارجع إلى صاحبك الملك ﴿فاسأله ما بال النسوة﴾، وقرأتُ لعاصم من طريق الشموني والبرجمي: «النُّسوة» بضم النون[2].

قال الزجاج[3]: يقال: نِسوة ونُسوة، والكسر أكثر. والمعنى: ما حال النسوة.

(١) في الأصل: الرسول.

(٢) زاد المسير (٤/ ٢٣٦)، والبحر (٥/ ٣١٦).

(٣) معاني الزجاج (٣/ ١٠٤).

﴿اللاتي قَطَّعْنَ أيديهنَّ﴾ وهذا من أدبه وحسن عشرته وكرم أخلاقه، فإنه صان امرأة العزيز عن التصريح بذكرها، وتَعَلَّقَ بما يستلزم حصولَ مقصوده.

قال صاحب [الكشاف](١): إنما قال: سل الملك عن شأن النسوة، ولم يقل: سله أن يفتش عن شأنهن؛ لأن السؤال مما يهيج الإنسان ويحركه للبحث عما سُئل عنه، فأراد أن يورد عليه السؤال ليجدّ في التفتيش عن حقيقة القصة.

وفي تثبته ﷺ مع اشتداد البلاء عليه وامتداد زمان مكثه في السجن؛ دليلٌ ظاهر على حسن ثباته وحزمه وقوة عزمه وكمال صبره. ولقد عجب سيد ولد آدم محمد ﷺ معترفاً بالعجز عن مثل حاله، فقال: «ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي»(٢).

﴿إن ربي بكيدهن عليم﴾ أي: إن الله.

وقال ابن جرير(٣): المعنى: إن سيدي العزيز بكيدهن عليم.

والأول أظهر. ومراده: أنه كيد عظيم لا يعلمه إلا الله لبُعْدِ غَوْرِه.

وفي ضمن هذا القول تحريضٌ للملك على البحث عن حاله، غير ضجر ولا مُغْتَرٍّ بما عساه يسنح له أو يزين له حاسد أو ناصر لامرأة العزيز محتجاً بتطاول أيامه في السجن، وأن ذلك في جاري العادة لا يكون إلا بجرم عظيم، فآثر عليه السلام إظهار براءته للملك، واستعظم ما كيد به بتفويض علمه إلى الله، ليجمع الملك همّه ويبذل وسعه في الوقوف على حقيقة الأمر وجليّة الحال.

---

(١) زيادة على الأصل. وانظر: الكشاف (٢/ ٤٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٢٥٦٧ ح٦٥٩١)، ومسلم (١/ ١٣٣ ح١٥١).

(٣) تفسير الطبري (١٢/ ٢٣٦).

ويجوز أن يكون المراد: إن ربي بكيدهن عليم وعليه مُجاز.

قال المفسرون: فجمعهن الملك وفيهن إزليخا فقال: ﴿ما خطبكن﴾ أي: ما شأنكن ﴿إذ راودتن يوسف عن نفسه﴾[1].

إن قيل: المراوِدة واحدة، فلم جمعهنّ في السؤال؟

قلتُ: قال ابن الأنباري[2]: جمعهن ليعلم عين المراوِدة.

وليس هذا بشيء؛ لأنه من المستحيل في العادة أن تكون مثل هذه القصة خفيت على الملك مع اشتهارِها، وسجن يوسف لأجلها هذا الزمان الطويل.

وإنما الجواب الصحيح في نظري: هو أن يقال: كلهن مراودات، هي راودته لنفسها، وهُنَّ راودنه لأجلها؛ بتحسين ذلك له وتسهيله عليه، وكذلك جمعهن يوسف في قوله: ﴿إن ربي بكيدهن عليم﴾.

﴿قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء﴾ فضاق على أزليخا حينئذ الخناق عند اعتراف النسوة بنزاهته، وعلمتْ أنها لا وزر لها إلا الصدق، فقالت: ﴿الآن حصحص الحق﴾ أي: ثبت واستقر، من قولك: حصحصَ البعير؛ إذا ألقى ثَفِنَاتِه[3] للإناخَة[4]، ﴿أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾ في قوله، فقال يوسف حينئذ: ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب﴾.

---

(١) الطبري (١٢/ ٢٣٦)، والوسيط (٢/ ٦١٧)، وزاد المسير (٤/ ٢٣٦-٢٣٧).

(٢) انظر: الوسيط (٢/ ٦١٧)، وزاد المسير (٤/ ٢٣٧).

(٣) الثَّفِنَة من البعير والناقة: ما يقع على الأرض من أعضائه إذا استناخ وغَلُظ؛ كالركبتين وغيرهما (اللسان، مادة: ثفن).

(٤) انظر: اللسان (مادة: حصص).

إن قيل: من أين عُلِمَ أن هذا من كلام يوسف؟

قلتُ: لوضوح المعنى فيه، وهو أسلوب غامض من أساليب الخطاب؛ أن تحكي عن شخص كلاماً ثم تصله بالحكاية عن آخر من غير فصل. ونظيره: ﴿قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم﴾ [الأعراف:١٠٩-١١٠] هذا قول الملأ، وقوله: ﴿فماذا تأمرون﴾ من قول فرعون.

ومثله: ﴿من بعثنا من مرقدنا﴾ [يس:٥٢] هو من قول الكفار، ﴿هذا ما وعد الرحمن﴾ من قول الملائكة.

والمعنى: ذلك التثبت وردّي الرسول حين قال: أجب الملك، ليعلم العزيز أني لم أخنه في زوجته. هذا قول ابن عباس في رواية أبي صالح عنه ومجاهد وقتادة والجمهور(١).

وقيل: المعنى: ذلك ليعلم الله أني لم أخنه بالمعصية. قاله مجاهد(٢).

قال ابن الأنباري(٣): نسب العلم إلى الله في الظاهر، وهو في المعنى للمخلوقين، كقوله: ﴿حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين﴾ [محمد:٣١].

وقيل: ليعلم المَلِك أني لم أَخُنْهُ في أزليخا.

قال أبو سليمان الدمشقي: كانت بنت أخت الملك(٤).

(١) أخرجه الطبري (١٢/ ٢٣٨)، وابن ابي حاتم (٧/ ٢١٥٧). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٤٩) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وأبي الشيخ عن أبي صالح. ومن طريق آخر عن مجاهد، وعزاه لأبي عبيد وابن جرير وابن المنذر.

(٢) زاد المسير (٤/ ٢٤٠).

(٣) انظر: زاد المسير (٤/ ٢٤٠).

(٤) زاد المسير (٤/ ٢٣٩).

أو جعله خيانة له؛ [لكونها][1] زوجة وزيره ومدبر أمر مملكته وقطب رحى دولته.

فإن قيل -على هذا القول-: لم جاء بلفظ الغيبة في قوله: «ليعلم» ؟

قلتُ: قد روي عن ابن عباس: أنه قال هذا وهو في السجن حين بُشِّرَ باعتراف امرأة العزيز قبل وصوله إلى المَلِك[2].

وروي عنه: أنه قال في مجلس الملك[3]. فإن كان الثاني فهو على مذهب التوقير والتعظيم.

ويجوز أن يكون المعنى: ذلك ليعلم الملك أني لم أخن العزيز بالغيب، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً[4].

قوله تعالى: ﴿بالغيب﴾ في محل الحال، إما من المفعول، أي: لم أخنه وهو غائب. وإما من الفاعل، على معنى: لم أخنه وأنا غائب عنه[5].

ويجوز أن يكون ظرفاً[6]، أي: لم أخنه بمكان الغيب وراء سبعة أقفال، ﴿وأن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ أي: لا يرشده ولا يسدده. وفيه تعريض بخيانتها لبعلها في فعلها، وبخيانة العزيز أمانة الله في حقه، حيث سجنه ظالماً له بعد أن نارت براهين براءته وصدقه.

---

(١) في الأصل: لكونه.

(٢) زاد المسير (٤/ ٢٤٠).

(٣) مثل السابق.

(٤) زاد المسير (٤/ ٢٣٩).

(٥) الدر المصون (٤/ ١٩٢).

(٦) انظر: الدر المصون، الموضع السابق.

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾

قال ابن عباس وجمهور العلماء: غمزه جبريل حين قال: ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب﴾ فقال له: ولا حين هممت فقال: ﴿وما أبرئ نفسي﴾[(١)].

وقد حكى الماوردي[(٢)]: أن القائل «ذلك ليعلم»: العزيز[(٣)].

والمعنى: ذلك الذي قلته وأقررت به على نفسي ليعلم يوسف أني لم أخنه بالكذب عليه بالغيب، وما أبرئ نفسي مع ذلك من الخيانة فإني راودته وآذيته.

والمعنى: ما أبعد نفسي من التقصير، من قولك: بَرِئْتُ من الرَّجُل والدِّين بَرَاءَةً وبَرَّأْتُهُ وأَبْرَأْتُهُ، بمعنى واحد. تقول: بَرِئْتُ من المرض، وبَرَأْتُ أيضاً بَرَاء وبُرُوءاً وبَرْءاً، والمستقبل منهما: يبرأ، وبَرَيْتُ القلم والسَّهم، والبُرَة غير مهموز، وهذه اللغة الفصيحة، والباري الذي يبري، والجمع: البُراة والبارون. قال الشاعر:

يَا بَارِيَ القوس بَرْياً لَيْسَ يُحْسِنُهُ ... لا تُفسدنها، وأَعْطِ القَوْسَ بَارِيها[(٤)]

---

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ١)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٥٨)، والبيهقي في الشعب (٥/ ٤٦١). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٤٨) وعزاه للفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والبيهقي في الشعب.

(٢) تفسير الماوردي (٣/ ٤٧).

(٣) قال الشوكاني في فتح القدير (٣/ ٥٠) عنه: وهو بعيد جداً.

(٤) انظر البيت في: روح المعاني (١٧/ ١٥٦).

أراد: بارينها، فحذف النون للإضافة، والبُراية: ما سقط من البَرْي، كالنُّحاتَة؛ اسم لما سقط من النحت.

قوله تعالى: ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾ أي: بالقبيح الذي تسوء عاقبته وظهوره.

قوله: ﴿إلا ما رحم ربي﴾ أي: إلا البعض الذي رحمه ربي بالعصمة.

وقيل: «ما» هاهنا بمعنى «مَنْ»؛ كقوله: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾ [النساء:٣].

وقيل: يجوز أن يكون «ما رحم» في معنى الزمان، أي: إلا وقت رحمة ربي، أي: إنها أمّارة بالسوء في كل وقت إلا وقت العصمة.

ويجوز أن يكون استثناء منقطعاً، أي: ولكن رحمة ربي هي التي تصرف السوء.

قوله تعالى: ﴿وقال الملك ائتوني به﴾ يروى: أنه لما جاءه الرسول في هذه المرة خرج وكتب على باب السجن: هذه منازل البلوى، وقبور الأحياء، وشماتة الأعداء، وتجربة الأصدقاء. ودعا للمسجونين فقال: اللهم عَطِّفْ عليهم قلوب الأخيار، ولا تُعْمِ عليهم الأخبار، فهم أعلم الناس بالأخبار، ثم اغتسل وتنظف ولبس ثياباً جدداً.

قال وهب: لما دخل يوسف على الملك -وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً- جعل لا يكلمه بلسان إلا أجابه بذلك اللسان، فعجب منه، وكان يوسف يومئذ ابن ثلاثين سنة، فقال له: إني أحب أن أسمع تأويل رؤياي منك شفاهاً،

[فذكرها][(١)] له. قال: فما ترى أيها الصِّدِّيق؟ قال: أرى أن تزرع كثيراً في هذه السنين المخصبة، وتجمع الطعام فيأتيك الناس، فيمتارُون[(٢)]، وتجتمع عندك من الكنوز ما لا يجتمع لأحد، فقال الملك: ومن لي بهذا؟ فقال يوسف: ﴿اجعلني على خزائن الأرض﴾[(٣)].

قال ابن عباس: ومعنى قوله: «مكين»: أمين ممكن في ملكي مؤتمن عليه[(٤)].

وقيل: «مكين»: ذو مكانة ومنزلة رفيعة.

والمراد «خزائن الأرض»: مصر.

عَلِمَ صلوات الله عليه أن غيره لا يقوم مقامه في السياسة وانتظام مصالح العالم، فطلب ذلك ابتغاء وجه الله، وسعياً في إعلاء كلمة الإيمان، وإعدام الكفر عند تمكن سلطانه في الأرض.

وقوله ترغيب للملك في ولايته.

والمعنى: ﴿حفيظ﴾ لما يستحفظني، ﴿عليم﴾ بوجوه التصرف، وهذان الوصفان هما طِلْبَةُ الملوك فيمن يُولّونه، وهذا معنى قول قتادة.

وقال السدي: إني حفيظ للحساب، عليمٌ بالألْسُن[(٥)].

---

(١) في الأصل: فذكر. والتصويب من زاد المسير (٤/ ٢٤٢).

(٢) الميرة: هي الطعام ونحوه مما يجلب للبيع (اللسان، مادة: مير).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦١٨)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٤٣).

(٤) مثل السابق.

(٥) أخرجه الطبري (١٣/ ٥) عن الأشجعي، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٦٠) عن سفيان. وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٥٢) وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ من طريق الأشجعي، ومن طريق آخر عن سفيان وعزاه لابن أبي حاتم.

فصل

وفي هذا دليل على جواز وصف الإنسان نفسه بالأوصاف الجميلة؛ إما على وجه التحدث بنعمة الله، أو لتحصيل خير، أو لدفع ضرر، إنما المذموم من ذلك ما كان على مذهب التكبّر وتعظيم النفس، فإذا خلص من هذا فلا بأس به، فقد قال علي عليه السلام: «ما من آية إلا وأنا أعلم بليل نزلت أم بنهار»[١].

وقال ابن مسعود: «لو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لأتيته»[٢].

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وكذلك﴾ أي: ومثل ذلك التمكين الظاهر ﴿مكنا ليوسف في الأرض﴾ [يريد][٣]: أرض مصر.

قال وهب: سَلَّمَ الملكُ الأمرَ إليه من وقته[٤].

وقال مجاهد: أسلم الملك على يده فأقام في بيته سنة، فلما انصرمت دعاه الملك فتوجه، ورداه بسيفه، وأمر له بسرير من ذهب، وضرب عليه كِلَّة[٥] من إستبرق،

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في تالي تلخيص المتشابه (١/ ٦٢ ح١٢). وذكره ابن حجر في فتح الباري (٨/ ٥٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١٩١٢ ح٤٧١٦)، ومسلم (٤/ ١٩١٣ ح٢٤٦٣).

(٣) في الأصل: يرد.

(٤) زاد المسير (٤/ ٢٤٤).

(٥) الكِلَّة والكِلّ: الستر الرقيق (اللسان، مادة: كلل).

فجلس على السرير كالقمر، ودانت له الملوك، ولزم الملك بيته وفوض إليه أمره، وعزل العزيز قطفير، وجعل يوسف مكانه. ثم إن العزيز هلك في تلك الليالي، فزوّج الملك يوسف بامرأة العزيز، فلما دخل بها، قال: أليس هذا خيراً مما تريدين؟ قالت: أيها الصديق لا تَلُمني، فإني كنت امرأة حسناء في ملك ودنيا، وكان صاحبي لا يأتي النساء، فغلبتني نفسي. فلما بنى بها يوسف وجدها عذراء، فولدت له ابنين إفراييم وميشا، ووُلد لإفراييم نون ورحمة امرأة أيوب، وولد لنون يوشع فتى موسى بن عمران، واستوسق[١] ليوسف ملك مصر[٢].

وجمهور المفسرين ذهبوا إلى قول مجاهد وأن ملكه بعد سنة[٣]. وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: ((رحم الله أخي يوسف، لو لم يقل: اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته، ولكنه أخّر ذلك سنة))[٤].

قوله تعالى: ﴿يتبوأ منها حيث يشاء﴾ إشارةٌ إلى استفحال سلطانه واستحكام قربه، بحيث ينزل من أرض مصر حيث يشاء، آمناً لا ينازع ولا يمانع.

وقرأ ابن كثير: «نشاء»[٥].

﴿نصيب برحمتنا من نشاء﴾ أي: نتفضل على من نشاء بنعمتنا من النبوة والملك، ﴿ولا نضيع﴾ في الدنيا ولا في الآخرة ﴿أجر المحسنين﴾ الصابرين.

(١) استوسق: أي: استقر له الملك (اللسان، مادة: وسق).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦١٩)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٤٤).

(٣) زاد المسير (٤/ ٢٤٣).

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦١٨)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٤٣).

(٥) الحجة للفارسي (٢/ ٤٤٨)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٦٠)، والكشف (٢/ ١١)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٩٥)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٦)، والسبعة في القراءات (ص:٣٤٩).

قال سفيان بن عيينة: المؤمن يُثاب على حسناته في الدنيا والآخرة، والفاجر يُعجَّل له الخير في الدنيا، وما له في الآخرة من خلاق، وتلا هذه الآية[(١)].

وفي هذا إشارةٌ إلى أن يوسف أعطي هذا في الدنيا بإحسانه وصبره على ما ابتلي به من أمر إخوته، وإلقائه في الجبّ، والسجن، وما عاناه مع امرأة العزيز، وصبره على الرق، ولقد أجاد البحتري في قوله:

أَمَا في رَسُولِ الله يُوسُفَ أُسْوَة لِمِثْلِكَ مَحبُوساً عَلى الظُّلْمِ وَالإِفْكِ
أَقَامَ جَمِيلَ الصَّبْرِ في الحَبْسِ بُرْهَةً فَآلَ بِهِ الصَّبْرُ الجَمِيلُ إِلى المُلْكِ[(٢)]

قوله تعالى: ﴿ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ أي: ما يعطيهم في الآخرة من الثواب الجزيل خير مما أعطاهم في الدنيا.

أخرج الحافظ أبو موسى في كتاب الترغيب والترهيب بإسناده عن عكرمة قال: كان رجل فقير صالح وله جار غني، فإذا خرج الفقير من بيته فسلّم عليه لم يُجبه الغني، ثم إنه كان من أمر الفقير أنه خرج بدرهم يشتري لعياله شيئاً، فإذا هو باثنين قد لزم أحدهما صاحبه بدرهم عليه ويشكو الحاجة، والمطلوب يشكو الحاجة، فأعطاه الدرهم، فقال له: فرج الله عنك، ثم بقي ساعة لا يدري ما يصنع، فألهمه الله تعالى أن يأخذ نحو البحر، فإذا هو بصائد قد جاء بحيتان له إلى الساحل، فباع منه وأطعم من حضره من الفقراء، والفقير قائم لا يذهب إليه حتى فرغ الصائد وأقبل يريد البيت ومعه حوتان، فمرَّ بالفقير، فقال له الصائد: يا عبد الله، ما منعك أن تأتينا؟ قال: استحييت، فأعطاه الصائد أحد الحوتين، وذهب بالحوت

---

(١) البحر (٥/ ٣١٨)، وروح المعاني (١٣/ ٧).

(٢) انظر البيتان في: القرطبي (٩/ ٢٢٠).

إلى أهله، فقال لأهله: كلوا هذا الحوت، فإن الله عز وجل سيأتيكم بخير منه، ثم أوى إلى فراشه ووضع رأسه، وفرغت المرأة من حاجتها، ثم أخذت الحوت فشقت بطنه فرأت لؤلؤة، فألقت السكين من يدها وذهبت باللؤلؤة إلى زوجها، فَخَرَّ ساجداً. ثم أخذ اللؤلؤة وخرج، فمرَّ بجاره الغني فَسَلَّمَ عليه فلم يُجِبْهُ وعنده جماعة، ثم قال له الفقير: إني جئتك في حاجة، ولي عليك حق، وقد احتجت تسلفني ثلاثمائة درهم. قال الغني لمن عنده: ألا تعجبون من هذا! إنه يمرّ بي ويسلم عليّ ولا أجيبه، وهو يستسلفني ولا يجد ما يأكل، فأخرج الفقير اللؤلؤة فوضعها في كفه، ثم دنا منه ففتح كفه، فأضاءت اللؤلؤة المجلس، فأقبل إليه الغني فقال: حباك الله، عافاك الله، والله إني لمسيء في أمرك، وإن حقك لعظيم، وإن الذي كان مني لمن الشيطان، ولكني أزوجك ابنتي، فزوجه ابنته، ثم إنه ذهب باللؤلؤة إلى ملك أعظم منه شأناً، فقال: اشتر مني هذه اللؤلؤة، فأعطاه بها مالاً كثيراً، فقال: ما لهذه اللؤلؤة ثمن إلا ما أعطيتني، فقال: لو خرجت من جميع ما أملك ما أعطيت إذاً ثمنها، ولكن أزوّجك ابنتي -أو قال: أختي- فزوجه. فلما كان في الليل أبصر في النوم: أنك تصدقت بدرهم، والدرهم أربعة وعشرون قيراطاً، فجزاك الله تعالى بقيراط منها هذه اللؤلؤة، وذخر لك ثلاثة وعشرين قيراطاً في الآخرة.

قال أهل العلم بالتفسير والسير(1): لما اطمأن يوسف في ملكه، وخلت السنون الخصبة، ودخلت السنون المجدبة، جاءت بهول شديد لم يعهد الناس مثله، وأصاب الناس الجوع، باعهم يوسف أول سنة بالنقود، حتى لم يبق لأهل مصر

(١) تفسير القرطبي (٩/ ٢١٩)، والبغوي (٤/ ٢٥٣).

دينار ولا درهم إلا في خزائن يوسف، وباعهم في السنة الثانية بالحلي والجواهر، وفي السنة الثالثة بالمواشي والدواب، وفي السنة الرابعة بالعبيد والإماء، وفي السنة الخامسة بالضياع والعقار، وفي السنة السادسة بالأولاد، وفي السنة السابعة [برقابهم](١)، فقال يوسف للملك: كيف رأيت صنع ربي، فما ترى أن تصنع؟ فقال له الملك: إنما الرأي رأيك ونحن لك تبع. فقال يوسف: إني أشهد الله أني قد أعتقت أهل مصر عن آخرهم، ورددت عليهم أملاكهم وأموالهم، فكان يوسف لا يشبع في تلك [الأيام](٢)، فقيل له في ذلك، فقال: أخاف أن أنسى الجائع.

وأمر يوسفُ طباخي الملك أن يجعلوا غداءه نصف النهار، أراد بذلك أن يذوق الملك [طعم](٣) الجوع فلا ينسى الجائعين ويحسن إلى المحتاجين، ففعل الطهاة ذلك.

وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾

---

(١) في الأصل: بأرقابهم. والتصويب من القرطبي (٩/ ٢١٩)، والبغوي (٤/ ٢٥٣).

(٢) في الأصل: أيام. والتصويب من القرطبي والبغوي، الموضعان السابقان.

(٣) في الأصل: طع. والتصويب من القرطبي والبغوي، الموضعان السابقان.

وأصاب أرضَ كنعان وبلاد الشام من القحط والشدة ما أصاب مصر، ونزل بيعقوب ما نزل بالناس، فقال لبنيه: يا بني، إن بمصر ملكاً صالحاً، فانطلقوا إليه وأبلغوه مني السلام، وانتسبوا له، لعله يعرفكم، وامْتَارُوا لنا، فأرسل بنيه إلى مصر للميرة، وأمسك بنيامين عنده، فلما دخلوا عليه عرفهم يوسف عليه السلام وأنكروه، فذلك قوله تعالى: ﴿وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم﴾ حين رآهم[١].

وقال الحسن: لم يعرفهم حتى تعرفوا إليه[٢].

قال ابن عباس: كان بين أن قذفوه في الجب وبين أن دخلوا عليه أربعون سنة[٣]. فقال لهم: من أين أقبلتم؟ قالوا: من أرض كنعان، ولنا شيخ يقال له: يعقوب، وهو يقرئك السلام، فبكى وعصر عينيه، وقال: لعلكم جواسيس، فقالوا: لا والله، ولكنا من كنعان، أصابنا الجَهْد، فأَمَرَنا أبونا أن نأتيك، فإنه قد بلغه عنك خير، قال: فكم أنتم؟ قالوا: أحد عشر أخاً، وكنا اثني عشر أخاً لأب، فأكل أحدَنا الذئبُ وكان أحبنا إلى أبينا، فقال يوسف: فإلى من سَكَنَ بعده؟ قالوا: إلى أخ لنا أصغر منا، تركناه عنده يتسلى به، وهو أخو الهالك لأمّه، فقال: إن كنتم صادقين فخلفوا عندي بعضكم رهناً وأتوني بأخيكم، فحبس عنده شمعون[٤].

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦١٩)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٤٥-٢٤٦).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٦٣). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٤٧)، والسيوطي في الدر (٤/ ٥٥٤) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٢٠).

(٤) أخرجه الطبري (١٣/ ٧)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٦٣-٢١٦٤) كلاهما عن السدي. وذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٢٠) عن السدي، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٤٦-٢٤٧).

قوله: ﴿وهم له منكرون﴾ هذه واو الحال، وإنما أنكروه لما بين حاليه يوم ألقوه وحين لقوه من المغايرة.

قال ابن عباس وغيره: كان عليه ثياب حرير، وعلى رأسه التاج، وفي عنقه طوق من ذهب[١].

وقيل: إنهم وقفوا منه موقف طلاب الحوائج، فلم يعرفوه لبعد المسافة.

وقيل: كان بينهم وبينه سرير.

﴿ولما جهزهم بجهازهم﴾ أي: هيأ لهم متاع السفر وما يحتاجون إليه، وحمل لكل واحد منهم بعيراً. ﴿قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم﴾ يعني: بنيامين يحمل إليّ رسالة أبيكم ويظهر به صدقكم عندي وبراءتكم من التجسس، ﴿ألا ترون أني أوفي الكيل﴾ أتمه ولا أبخسه ﴿وأنا خير المنزلين﴾ يعني: المضيفين، وكان أحسن ضيافتهم.

﴿فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي﴾ بعد هذه المرة ﴿ولا تقربون﴾ جائز أن يكون نهياً، وجائز أن يكون داخلاً في حكم الجزاء مجزوماً عطفاً على محل قوله: «فلا كيل لكم»، كأنه قيل: فإن لم تأتوني به تُحرموا ولا تقربون.

﴿قالوا سنراود عنه أباه﴾ أي: سنخادعه ونحتال عليه حتى نأتيك به ﴿وإنا لفاعلون﴾ ما أمرتنا به.

وقال الزجاج[٢]: هو توكيد.

فعلى قوله يكون المعنى: وإنا لفاعلون ما ضمناه لك من المراودة لأبيه.

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٢٠)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٤٧).

(٢) معاني الزجاج (٣/ ١١٧).

والظاهر: أن يوسف عليه السلام ما اجترأ على ما يسلتزم طلبه لأخيه من حزن أبيه إلا بطريق الوحي.

وقيل: قَصَدَ تنبيه يعقوب عليه السلام بطلبه بنيامين.

قوله تعالى: ﴿وقال لِفتْيَتِهِ﴾ وقرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر: «لفتيانه»[١] وهما جمع فتى، إلا أن «الفتية» جمع القلّة، و «فتيان» جمع الكثرة، ونظيره: إخْوَة وإخْوان، وغِلْمَة وغِلْمان، وصِبْيَة وصِبْيَان.

قال الزجاج[٢]: الفِتْيَة والفِتْيان في هذا الوضع: المماليك.

﴿اجعلوا بضاعتهم في رحالهم﴾ البضاعة: جمعها بضائع، سُمِّيت بذلك؛ لأنها قُطعت من مال، ومنه: بَضعة لحم[٣].

والمعنى: اجعلوا بضاعتهم التي امتاروا بها.

قال عطاء: يريد: الدراهم والدنانير[٤].

وقيل: كانت بضاعتهم النعال والأدم.

﴿في رحالهم﴾ في أوعيتهم، ﴿لعلهم يعرفونها﴾ أي: يعرفون أعيانها.

وقيل: يعرفون حق التكرم بها.

﴿إذا انقلبوا إلى أهلهم﴾ وشاهدوا عندهم فتح أوعيتهم بضاعتهم ﴿لعلهم

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٤٥٠)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٦١)، والكشف (٢/ ١٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٩٥)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٦)، والسبعة في القراءات (ص:٣٤٩).

(٢) معاني الزجاج (٣/ ١١٧).

(٣) انظر: اللسان (مادة: بضع).

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٢٠).

يرجعون﴾.

وقد ذكروا في رَدّ بضاعتهم حِكَماً:

الأولى: ما روي عن ابن عباس: أنه خاف أن لا يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به[١].

الثانية: ما روي عن أبي صالح قال: عَلِمَ أنهم إذا عرفوها لم يستحلوا إمساكها حتى يردوها[٢].

الثالثة: قال ابن جرير[٣]: استقبح أَخْذَ الثمن من والده وإخوته مع حاجتهم إليه، فرده إليهم من حيث لا يعلمون [سبب][٤] ردّه؛ تكرّماً وتفضّلاً[٥].

الرابعة: أنه ردّها عليهم لئلا يتوهّموا أن مقصوده بطلب رجوعهم التجارة عليهم وتحصيل ما لهم[٦].

الخامسة: ليرغبهم في الرجوع إليه بما أظهر لهم من الكرامة والكرم[٧].

ويحتمل عندي، أن يكون مقصوده: تنبيه أبيه على حاله ومكانه، تارةً بطلب أخيه، وتارةً بالسؤال عنه وعن أحوالهم، وتارةً بردّ البضاعة وتوفية الكيل، إلى غير

---

(١) الطبري (١٣/ ٩)، والوسيط (٢/ ٦٢٠) من قول الكلبي، وزاد المسير (٤/ ٢٤٩).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٢٠) من قول الفراء، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٥٠) من قول الضحاك.

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ٩).

(٤) زيادة من الطبري، الموضع السابق.

(٥) زاد المسير (٤/ ٢٥٠).

(٦) مثل السابق.

(٧) مثل السابق.

ذلك من اللوائح الدالّة على أمره.

فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾

﴿فلما رجعوا إلى أبيهم﴾ شكروا إحسان يوسف، وقالوا: يا أبانا قدمنا على رجل لو كان من أولاد يعقوب ما أكرمنا كرامته.

﴿قالوا يا أبانا مُنع منا الكيل﴾ أي: حُكم علينا بمنعه، وهو قول يوسف: ﴿فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون﴾.

﴿فأرسل معنا أخانا نكتل﴾ وقرأ حمزة والكسائي «يكتل» بالياء[(1)]. والمعنى: أرسل معنا أخانا يرفع المانع من الكيل، ونكتل من الطعام ما نحتاج إليه.

وعلى قراءة حمزة والكسائي يكون المعنى: يكتل أخونا، فينضم اكتياله إلى اكتيالنا، أو يكون سبباً للاكتيال، فإن امتناعه بسببه، ﴿وإنا له لحافظون﴾.

﴿قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل﴾ قال الزجاج[(2)]: أي: كذلك قلتم لي في يوسف: ﴿أرسله معنا غداً نرتع ونلعب وإنا له لحافظون﴾، فقد ضمنتم لي حفظ يوسف، فكذلك ضمانكم هذا عندي.

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٤٥١)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٦١)، والكشف (٢/ ١٢)، والنشر (٢/ ٢٩٥)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٦)، والسبعة في القراءات (ص:٣٥٠).

(٢) معاني الزجاج (٣/ ١١٨).

قال الواحدي[١]: يقول: لا آمنكم على بنيامين إلا كأمني على يوسف. يريد أنه لم ينفعه ذلك الأمن وأنهم خانوه، فهو وإن أمنهم في هذا خائف من خيانتهم أيضاً.

ثم قال: ﴿فالله خير حِفْظاً﴾ وقرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر: «حافظاً»[٢]، والنصب فيهما على التمييز[٣].

ويجوز أن يكون النصب في حافظاً على الحال[٤].

ومقصوده بهذا الكلام: الإلتجاء إلى الله تعالى والوثوق بحفظه لا بحفظهم.

﴿وهو أرحم الراحمين﴾ فهو أرحم لي منكم، فأرجو من رحمة الله أن ينعم عليّ بحفظه ويرحم ضعفي، فلا يجمع عليّ مصيبتين.

قرأتُ على ابن الطيب المارستاني يعرف بابن بهروز، أخبركم أبو [الوقت][٥] فأقرَّ به، أبنا أبو الحسن الداودي، ثنا أبو محمد عبدالله بن أحمد بن حمويه السرخسي، ثنا إبراهيم بن خريم الشاشي، ثنا عبد بن حميد، ثنا قبيصة، ثنا سفيان، عن نهشل الضبي[٦]، عن أبي غالب[٧]، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) الوسيط (٢/ ٦٢١).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٤٥٥)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٦٢-٣٦٣)، والكشف (٢/ ١٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٩٥-٢٩٦)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٦)، والسبعة في القراءات (ص:٣٥٠).

(٣) التبيان (٢/ ٥٥)، والدر المصون (٤/ ١٩٤).

(٤) مثل السابق.

(٥) في الأصل: أبو قت. وهو خطأ. انظر ترجمته في: التقييد (١/ ٣٨٦-٣٨٧).

(٦) نهشل بن مجمع الضبي الكوفي، ثقة صدوق، (تهذيب التهذيب ١٠/ ٤٢٨، والتقريب ص:٥٦٦).

(٧) أبو غالب، يروي عن ابن عمر في الوداع، وعنه ضرار بن مرة ونهشل الضبي. قال ابن معين: لا =

«إن لقمان الحكيم كان يقول: إن الله عز وجل إذا استُودع شيئاً حفظه»[١].

وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾

﴿ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما تبغي﴾ يجوز أن تكون «ما» نافية، ويجوز أن تكون استفهامية. فإن كانت استفهامية -وهو الأظهر في التفسير- كان المعنى: أي شيء نبغيه ونطلبه وراء هذا الإحسان. ويؤيده قراءة ابن مسعود: «تبغي» بالتاء على الخطاب ليعقوب[٢].

وإن كانت نافية؛ كان المعنى: ما نطلب منك شيئاً نرجع به إلى مصر، أو يكون المعنى: ما نبغي في القول ولا نتزيد فيه[٣].

فعلى هذا يكون قولهم: ﴿هـذه بـضاعتنا رُدت إلينـا﴾ خارجـاً مخـرج البيـان لصدقهم.

وقرأ علقمة: «رِدت» بكسر الراء، على أن كسرة الدال المدغمة نقلت إلى الراء،

=

أعرفه (تهذيب التهذيب ١٢/ ٢١٦، والتقريب ص: ٦٦٤).

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٨٧ ح٥٦٠٥)، وعبد بن حميد في مسنده (١/ ٢٧٠ ح٨٥٥).

(٢) زاد المسير (٤/ ٢٥٢).

(٣) التبيان (٢/ ٥٥)، والدر المصون (٤/ ١٩٥).

كما في «قِيَل» و «بِيَع»[١].

وحكى قطرب وغيره: ضِرب زيد وقِتل عمرو، على نقل كسرة العين إذا سكنت إلى الفاء.

قوله تعالى: ﴿ونمير أهلنا﴾ أي: نجلب لهم الطعام، ﴿ونحفظ أخانا﴾ بنيامين، وقيل: شمعون. والأول أكثر وأظهر ﴿ونزداد كيل بعير﴾. وفي المشار إليه بقوله: ﴿ذلك كيل يسير﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه كيل بعير، فالمعنى: ذلك كيل يسير سهل على الملك الذي نقصده لسخائه. قاله الزجاج[٢].

الثاني: أن المشار إليه ما جاؤوا به، فالمعنى: ذلك الذي جئناك به كيل يسير لا يكفينا.

الثالث: أن معناه: ذلك كيل يسير سريع لا حبس فيه إذا كان أخونا معنا؛ كأنهم يستنزلون أباهم ويسهلون عليه إرسال أخيهم بسرعة الأَوْبَة[٣]. وهذا معنى قول مقاتل[٤].

﴿قال لن أرسله معكم حتى تؤتون﴾ أي: حتى تعطوني ﴿موثقاً من الله﴾ أي: عهداً أتوثق به من عند الله ﴿لتأتنني به﴾ قال ابن الأنباري[٥]: هذه اللام في «لتأتنني

---

(١) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٦).

(٢) معاني الزجاج (٣/ ١١٩).

(٣) الأَوْبة: الرجوع (اللسان، مادة: أوب).

(٤) تفسير مقاتل (٢/ ١٥٦). وانظر: زاد المسير (٤/ ٢٥٣).

(٥) انظر: زاد المسير (٤/ ٢٥٣).

به» جواب المضمر، تلخيصه: [وتقولوا][(١)] والله لتأتنني به.

﴿إلا أن يحاط بكم﴾ يُحال بينكم وبينه بموت أو غيره.

قال مجاهد: إلا أن تموتوا كلكم[(٢)].

قال ابن إسحاق: إلا أن يصيبكم أمر يذهب بكم جميعاً، فيكون ذلك عذراً لكم عندي[(٣)].

﴿فلما آتوه موثقهم﴾ حلفوا له.

قال ابن عباس: حلفوا بحق محمد ﷺ ومنزلته من ربه[(٤)].

وقال السدي: حلفوا بالله[(٥)].

﴿قال الله على ما نقول وكيل﴾ أي: شهيد ورقيب ومطلع.

وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

(١) زيادة من زاد المسير (٤/ ٢٥٣).

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ١٢)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٦٧). وفي تفسير مجاهد (ص:٣١٧): إلا أن تهلكوا جميعاً.

(٣) أخرجه الطبري (١٣/ ١٣)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٦٧). وانظر: الوسيط (٢/ ٦٢١).

(٤) زاد المسير (٤/ ٢٥٣).

(٥) مثل السابق.

فلما أزمعوا[١] على المسير وتجهزوا للخروج، قال لبنيه: ﴿لا تدخلوا﴾ يعني: مصر ﴿من باب واحد﴾ قال ابن عباس والأكثرون: خاف عليهم العين[٢]؛ لأنهم كانوا أحد عشر رجلاً إخوة شباناً وساماً، ذوي شارة حسنة وبهاء رائع، وكانوا بذلك مظنة لطموح الأبصار إليهم، مع انضمام اهتمام الملك بهم من بين الواردين إليه والوافدين عليه، واشتهار حالهم بمصر، ولفوات هذا المعنى في السفرة الأولى لم يأمرهم بذلك.

وقال وهب: نهاهم عن الدخول من باب واحد خوفاً عليهم أن يُغتالوا؛ لما اتهموا به من التجسس[٣].

وفي قوله: ﴿وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله﴾ اعتراف بأن الحذر لا يدفع القدر، وأنه لا فاعل على الحقيقة إلا الله، وإن أضيفت الأشياء إلى أسبابها فبطريق المجاز.

﴿عليه توكلت﴾ لا على السبب المذكور، وفيه إشعار بأن تعاطي الأسباب المأذون فيها لا يقدح في صحة التوكل.

قوله تعالى: ﴿ولما دخلوا من حيث أمرهم﴾ من أبواب متفرقة، ما كان ذلك الدخول أو ما كان أمر يعقوب ورأيه يغني عنهم من الله من شيء قضاه عليهم،

(١) أزمعوا: أجمعوا (اللسان، مادة: زمع).

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ١٣)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٦٨). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٥٥٧) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس. ومن طريق آخر عن محمد بن كعب، وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر. ومن طريق آخر عن الضحاك، وعزاه لابن جرير. ومن طريق آخر عن مجاهد، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٣) زاد المسير (٤/ ٢٥٤).

وهذا موافق لقول يعقوب: ﴿وما أغني عنكم من الله من شيء﴾.

﴿إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها﴾ استثناء منقطع، على معنى: ولكن حاجة في نفس يعقوب قضاها، وهي دخولهم متفرقين شفقةً عليهم، وحذراً من العين.

ثم مدحه الله تعالى وأثنى عليه بالعلم، حيث فوّض الأمر إليه واعتمد عليه، فقال: ﴿وإنه لذو علم لما علمناه﴾ قال الفراء والزجاج[(١)]: لتعليمنا إياه.

وقيل: اللام في «لما علمناه» كاللام في ﴿للرؤيا تعبرون﴾، أي: يعلم ما علمناه فيعمل به؛ لأن من علم شيئاً ولا يعمل به كان كمن لا يعلم.

﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ علم يعقوب من جواز مراعاة الأسباب وإيجاب التفويض إلى المسبب وغير ذلك.

قال ابن عباس: لا يعلم المشركون ما ألهم الله تعالى أولياءه[(٢)].

وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى: ﴿ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه﴾ قال ابن قتيبة[(٣)]: تقول: آويتُ فلاناً إليّ -بمد الألف-؛ إذا ضممتَه إليك، وأَوَيْتُ إلى بني فلان -بقصر الألف-؛ إذا التجأت إليهم[(٤)].

---

(١) معاني الفراء (٢/ ٥٠)، ومعاني الزجاج (٣/ ١١٩).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٢٢).

(٣) تفسير غريب القرآن (ص:٢١٩).

(٤) انظر: اللسان (مادة: أوا).

قال أهل التفسير: لما قدموا عليه قالوا له: قد امتثلنا أيها الملك أمرك، وأتيناك بأخينا الذي أحببت حضوره فأكرمهم وأحسن نُزُلَهم، وأجلس كل اثنين على مائدة، فبقي بنيامين وحيداً، فقال: لو كان يوسف حياً لأجلسني معه. فقال يوسف: قد بقي أخوكم هذا وحيداً، فضمه إليه وأجلسه على مائدته، فجعل يؤاكله، وقال: أنتم عشرة، فلينزل كل اثنين منكم بيتاً، وهذا لا ثاني له فيكون معي.

فلما خلا به ضَمَّهُ إليه وشَمَّ ريحه، وقال له: ما اسمك؟ قال: بنيامين. قال: وما اسم أمك؟ قال: راحيل. قال: هل لك من أخ من أمك؟ قال: كان لي أخ من أمي فهلك. فقال: أتحب أن أكون أخاك بدله؟ فقال: أيها الملك! ومن يجد أخاً مثلك، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف وقام إليه فاعتنقه، وقال: ﴿إني أنا أخوك فلا تبتئس﴾ أي: لا تحزن.

قال ابن الأنباري[1]: هو تفتعل مِنَ البؤس، وهو الضرّ والشدة.

﴿بما كانوا يعملون﴾ بنا فيما مضى، فإن الله تعالى قد أحسن إلينا ولا تعلمهم بما أعلمتك[2].

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾

ثم إن يوسف عليه السلام أخذ في الاحتيال على انقطاع أخيه منهم على وجه

---

(١) انظر: زاد المسير (٤/ ٢٥٦).

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ١٥)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٧٠-٢١٧١).

يُعذر فيه عند إخوته وأبيه، فجهزهم وجعل السقاية؛ وهي الصاع الذي كان يشرب به [الملك في رحل أخيه][١].

قال ابن عباس: كان قدحاً من زبرجد[٢].

وقال عكرمة: كان شربة من فضة مرصعة بالجوهر[٣]، جعلها يوسف مكيالاً لئلا يكال بغيرها.

وقال ابن زيد: كان كأساً من ذهب[٤].

فَدَسَّهُ في رحل أخيه.

قال المفسرون: أوفى لهم الكيل، وحمل لبنيامين بعيراً باسمه، وجعل السقاية في رحله، ثم ارتحلوا فأمعنوا، فأمر بهم يوسف فأُدركوا وحُبسوا[٥].

﴿ثم أذّن مؤذن﴾ قال الزجاج[٦]: أعْلَمَ معلم، يقال: آذنته بالشيء فهو مُؤْذَنٌ به، أي: أعلمته، وآذنت: أكثرت الإعلام بالشيء.

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٢٣). وما بين المعكوفين زيادة منه.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٢٣)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٥٨).

(٣) أخرج نحوه الطبري (١٣/ ١٩)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٧١). وذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٢٣)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٥٨)، وبنحوه السيوطي في الدر (٤/ ٥٥٩) وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ.

(٤) أخرجه الطبري (١٣/ ١٧)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٧١). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٥٩) وعزاه لابن أبي حاتم عن عكرمة.

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٢٣)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٥٧).

(٦) معاني الزجاج (٣/ ١٢٠).

والمعنى: نادى مناد: ﴿أيتها العير إنكم لسارقون﴾ قال الزجاج[١]: معناه: يا أصحاب العير.

وكلُّ ما امْتِير عليه من الإبل والحمير والبغال فهو عير.

قال بعضهم: سُمِّيت عيراً؛ لأنها تعير، أي: تذهب وتجيء.

قال الفراء[٢]: لا يقال عير إلا لأصحاب الإبل.

وقال أبو عبيدة[٣]: العير: الإبل المرحولة المركوبة.

وقال ابن قتيبة[٤]: العير: القومُ على الإبل.

إن قيل: لم يسرقوا، فكيف نسب السرقة إليهم؟

قلت: إن كان قول المؤذن: «إنكم لسارقون» صدر عن أمر يوسف، فالمعنى: والله يعلم إنكم لسارقون فيما يظهر لمن لم يعرف حقيقة الحال.

وقيل: المعنى: إنكم لسارقون، سرقتم يوسف حين اقتطعتموه عن أبيه وطرحتموه في الجب.

﴿قالوا﴾ يعني: أصحاب العير ﴿وأقبلوا عليهم﴾ الواو للحال بإضمار «قد» ﴿ماذا تفقدون﴾.

وقيل: الضمير في «وأقبلوا» يعود إلى المؤذن وأصحابه.

﴿قالوا نفقد صواع الملك﴾ قرئ: «صَوْعَ الملك»، و «صَاعَ» و «صِيَاع»

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ١٢٠).

(٢) لم أقف عليه في المطبوع من معاني الفراء. وانظر: زاد المسير (٤/ ٢٥٧).

(٣) لم أقف عليه في مجاز القرآن. وانظر: زاد المسير (٤/ ٢٥٧).

(٤) تفسير غريب القرآن (ص:٢١٩).

و«صوْع» بفتح الصاد وضمها[١]، وكلها لغات في المكيال، ويُذكّر ويُؤنّث.

وقرأ يحيى بن يعمر: «صَوغ» بفتح الصاد والغين المعجمة[٢].

قال ابن جني[٣]: هو مصدر وُضع موضع اسم المفعول، يراد به المَصُوغُ، [كالخلق][٤] في معنى المخلوق، والصيد في معنى المَصِيد.

﴿ولمن جاء به﴾ أي: بالصواع ﴿حمل بعير﴾ من الطعام، يقول المؤذن: ﴿وأنا به زعيم﴾ أي أنا بالحمل كفيل.

قال ابن السكيت: الكَفيل والقَبيل والضَّمِين والزَّعِيم بمعنىً. قال الله تعالى: ﴿وأنا به زعيم﴾ وأنشدوا:

تُعَاتِبُني في الرِّزْقِ عرسي وإنما ... على الله أرزاقُ العباد كما زَعَم[٥]

أي: كما كفل وضمن.

قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ

(١) زاد المسير (٤/ ٢٥٨).

(٢) مثل السابق.

(٣) المحتسب (١/ ٣٤٦).

(٤) في الأصل: كالحق. والتصويب من المحتسب، الموضع السابق.

(٥) انظر البيت في: اللسان، مادة: (زعم)، وروح المعاني (٧/ ٢٢٥) وهو فيهما:

تقول هلكنا إن هلكت وإنما ... على الله أرزاق العباد كما زعم

لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

﴿قالوا تالله﴾ قَسَمٌ يتضمن معنى التعجب ﴿لقد علمتم﴾ بما شاهدتم من القرائن الدالة على أمانتنا وديننا من ردنا البضاعة، وكَعْمِنا[1] أفواه إبلنا وحميرنا كراهة أن ترعى زرعاً أو تأكل طعاماً تَمُرُّ به في السوق: ﴿ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين﴾.

﴿قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين﴾ قال الأخفش[2]: إن شئت رددت الكناية إلى السارق، وإن شئت إلى المسروق.

وقال صاحب الكشاف[3]: الضمير للصواع.

أي: فما جزاء سرقته، قالوا: يعني إخوة يوسف: ﴿جزاؤه من وُجد في رحله فهو﴾ يعني: [السرق][4] السارق ﴿جزاؤه﴾ أي: يؤخذ رقيقاً جزاء له على سرقته، وهذه كانت سُنّة آل يعقوب أن يسترق المسروق منه [السارق][5] سنة.

قوله: «مَنْ» نكرة، وهو مبتدأ ثاني، ويكون قوله: «وُجِدَ في رحله» في موضع الرفع صفة لـ«مَنْ». وقوله: «فهو جزاؤه» خبر «مَنْ»[6]. والجملة خبر قوله: جزاؤه

---

(١) كَعَمَ البعير يَكْعَمُه كَعْماً: شَدَّ فاه في هياجه لئلا يعضّ أو يأكل (اللسان، مادة: كعم).

(٢) انظر: زاد المسير (٤/ ٢٦٠).

(٣) الكشاف (٢/ ٤٦٢).

(٤) في الأصل: السارق. والتصويب من الوسيط (٢/ ٦٢٤).

(٥) زيادة على الأصل.

(٦) التبيان (٢/ ٥٦)، والدر المصون (٤/ ٢٠٠).

إنسان وجد في رحله الصاع فهو هو، وإنما قلنا فهو هو ليعود إلى المبتدأ ذكر من الجملة التي هي خبر، إلا أنه وضع الظاهر موضع المضمر، كما تقول: جزاء السارق القطع فهو جزاؤه.

قال: وليس في التنزيل من نكرة إلا في هذا الموضع.

وقال الزمخشري[1]: يجوز أن يكون «جزاؤه» مبتدأ، والجملة الشرطية كما هي خبره، على إقامة الظاهر فيها مقام المضمر، والأصل: جزاؤه من وجد في رحله فهو هو، فوضع الجزاء موضع هو، كما تقول لصاحبك: من أخو زيد؟ فيقول: أخوه من يقعد إلى جنبه فهو هو، [يرجع][2] الضمير الأول إلى «مَنْ»، والثاني إلى الأخ، ثم تقول: «فهو أخوه» مقيماً للمظهر مقام المضمر.

وقال الزجاج[3]: يكون «جزاؤه» مبتدأ، ويكون «مَنْ وجد في رحله» الخبر. ويكون المعنى: جزاء السَّرَق الإنسان الموجود في رحله المسروق، ويكون قوله: ﴿فهو جزاؤه﴾ زيادة في الإبانة، كما تقول: جزاء السارق القطع فهو جزاؤه.

﴿كذلك﴾ أي: مثل ما ذكرنا من الجزاء ﴿نجزي الظالمين﴾. فقال لهم المؤذن: لا بد من تفتيش أوعيتكم، وانصرف بهم إلى يوسف ﴿فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه﴾ دفعاً للتهمة، فلما وصل إلى وعاء أخيه قال: ما أظن هذا أخذ شيئاً، قالوا: والله لا نبرح حتى تنظر في رحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا، فلما فتحوا متاعه استخرجوا الصواع منه، فالتفت إليه إخوته، وقالوا: ماذا صنعت؟ فضحتنا

---

(١) الكشاف (٢/ ٤٦٢-٤٦٣).

(٢) في الأصل: يرفع. والتصويب من الكشاف (٢/ ٤٦٣).

(٣) معاني الزجاج (٣/ ١٢١).

وسوَّدت وجوهنا، وأزريت بأبيك الصدّيق؟ فقال: وَضَعَ الصاع في رحلي الذي وَضَعَ الدراهم في رحالكم.

والكناية في قوله: ﴿ثم استخرجها﴾ تعود إلى السقاية أو إلى الصواع، فإنه -كما سبق- تُذكّر وتُؤنّث، أو إلى السرقة.

﴿كذلك﴾ أي: مثل ذلك الكيد العظيم ﴿كِدْنا ليوسف﴾ علّمناه إما بطريق الإلهام أو بطريق الوحي ليتوصل إلى مقصوده بألطف حيلة.

وقوله: ﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾ تفسير الكيد وبيانٌ لأنه كان في دين الملك، وحكمه: أن يضرب السارق ويغرم ضعفي ما سرق، فأجرى الله على ألسنة إخوته ما يُجزى به السارق في حكمهم وقضائهم، لطفاً منه بيوسف، ليتوصل إلى مراده من اجتماعه بأخيه.

﴿إلا أن يشاء الله﴾ قال الزجاج[1]: موضع «أنْ» نصب، لما سقطت الباء أفضى إلى الفعل فنصب. المعنى: ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا بمشيئة الله.

﴿نرفع درجات من نشاء﴾ بالعلم والحلم وقهر الهوى والتوفيق للهدى كما فعلنا بيوسف، وقرأت ليعقوب: «يرفع درجات من يشاء» بالياء فيهما[2]، عائداً إلى اسم الله تعالى.

﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ حتى ينتهي العلم إلى الله تعالى.

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ١٢٢).

(٢) النشر لابن الجزري (٢/ ٢٩٦)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٦).

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قالوا﴾ يعني: إخوة يوسف: ﴿إن يسرق﴾ بنيامين ﴿فقد سرق أخٌ له من قبل﴾ يعنون: يوسف.

قال الحسن: كذبوا عليه فيما نسبوه إليه[1].

قال ابن عباس: كان يسرق الطعام من مائدة أبيه في زمن المجاعة ويطعمه المساكين[2].

وقال سعيد بن جبير وقتادة: سَرَقَ صنماً كان يعبده أبو أمه، فكسره وألقاه في الطريق[3].

وقال مجاهد: كانت عمة يوسف أكبر أولاد إسحاق تحب يوسف حباً شديداً، وكانت تحضنه، فلما ترعرع طلبه يعقوب فقالت: ما [أقدر][4] أن يغيب عني، فقال: لست بتاركه، فعمدت إلى مِنطقة إسحاق فربطتها على يوسف تحت ثيابه، ثم قالت: لقد فقدت منطقة إسحاق، [فانظروا من أخذها][5] فوجدوها مع يوسف، فأخبرت يعقوب بذلك وقالت: والله إنه لي أصنع به ما أشاء، فقال: أنت وذاك، فما

---

(١) زاد المسير (٤/ ٢٦٤).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٢٤)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٦٣).

(٣) أخرجه الطبري (١٣/ ٢٨-٢٩)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٧٧). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٦٤) وعزاه لابن مردويه عن ابن عباس، ومن طريق آخر عن قتادة وعزاه لابن جرير.

(٤) زيادة من زاد المسير (٤/ ٢٦٣).

(٥) زيادة من زاد المسير، الموضع السابق.

قدر عليه يعقوب حتى ماتت، فذلك الذي عيّره [به][1] إخوته[2].

﴿فَأَسَرَّها﴾ إضمار على شريطة التفسير، تفسيره: أنتم شر مكاناً. وإنما أنث لأنها جملة أو كلمة.

وقيل: المعنى: فأسرّ كلمتهم وقولهم ﴿سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه﴾. [القولان][3] عن ابن عباس[4].

وقال ابن الأنباري[5]: المعنى: فأسرّ الحجة عليهم في [ادّعائهم][6] عليه السرقة في نفسه.

﴿ولم يُبْدِها لهم﴾ أي: لم يظهرها لهم، ﴿قال أنتم شر مكاناً﴾ أي: منزلة في السرقة، لأنكم سرقتم أخاكم من أبيكم.

وقيل: صنعاً أقدمتم عليه من العقوق والفسق.

﴿والله أعلم بما تصفون﴾ أي: أعلم بحقيقة ما تقولون وجلّيته.

قَالُوا يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا

---

(١) زيادة من زاد المسير (٤/ ٢٦٣).

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ٢٩)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٧٨). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٦٣)، والسيوطي في الدر (٤/ ٥٦٣) وعزاه لابن إسحاق.

(٣) في الأصل: الوقولان. والصواب ما أثبتناه.

(٤) زاد المسير (٤/ ٢٦٤).

(٥) انظر: زاد المسير (٤/ ٢٦٤).

(٦) في الأصل: الدعائهم. والتصويب من زاد المسير، الموضع السابق.

عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾

﴿قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً﴾ في سِنِّه، وقيل: كبيراً في قدره. والأول أشبه؛ لأن مقصودهم استعطافه وترقيقه.

﴿فخذ أحدنا مكانه﴾ في الاستعباد، ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ من عادته الإحسان، وقد أحسنت إلينا فأتمم إحسانك.

﴿قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده﴾ فكيف نأخذ البريء بالسقيم ﴿إنا إذاً لظالمون﴾ إن فعلنا ذلك.

فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾

﴿فلما استيئسوا منه﴾ أي: أيسوا، وزيادة السين والتاء للمبالغة، كما سبق في: «استعصم»، ﴿خلصوا نجياً﴾ اعتزلوا خالصين ليس معهم أحد، متناجين يدبرون ما يصنعون.

قال الزمخشري[1]: والنَّجِي: بمعنيين؛ يكون بمعنى: المناجي، كالعشير

(١) الكشاف (٢/ ٤٦٥-٤٦٦).

والسمير بمعنى: المعاشر[١] والمسامر، ومنه: ﴿وقربناه نجياً﴾ [مريم:٥٢]. وبمعنى المصدر الذي هو التناجي، كقوله: النجوى بمعناه. ومنه قيل: قوم نَجِيّ، كما قيل: ﴿وإذ هم نجوى﴾ تنزيلاً للمصدر منزلة الأوصاف، ويجوز أن يقال: هم نجى، كما يقال: هم صديق؛ لأنه بزنة المصادر وجمع أَنْجِيَة. قال:

إني إذا ما القومُ كانوا أنجيَه[٢]

والمعنى: كانوا ذوي نجوى، أو فوجاً نجياً، أي: مناجياً لمناجاة بعضهم بعضاً.

﴿قال كبيرهم﴾ إن أريد كبيرهم في السن: فهو روبيل، وإليه ذهب قتادة وكعب والسدي[٣].

---

(١) في الأصل زيادة: والمعاشر. وانظر: الكشاف (٢/ ٤٦٥).

(٢) البيت من الرجز، وهو لسحيم بن وثيل اليربوعي، انظر: النوادر لأبي زيد (ص:١١)، وأمالي ابن الشجري (٢/ ٢٥)، وتهذيب اللغة (١١/ ١٩٩)، واللسان (مادة: روي، نجا)، والقرطبي (٩/ ٢٤١)، وزاد المسير (٤/ ٢٦٦)، والبحر المحيط (٥/ ٣٣١)، والدر المصون (٤/ ٢٠٥)، وروح المعاني (١٣/ ٣٥).

(٣) أخرجه الطبري (١٣/ ٣٤)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٨١). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٦٥) وعزاه لأبي الشيخ.

وهذا القول هو اختيار ابن جرير قال: وأولى الأقوال في ذلك بالصحة قول من قال عنى بقوله: ﴿قال كبيرهم﴾ روبيل لإجماع جميعهم على أنه كان أكبرهم سناً، ولا تفهم العرب في المخاطبة إذا قيل لهم: فلان كبير القوم مطلقاً بغير وصل إلا أحد معنيين إما في الرياسة عليهم والسؤدد وإما في السن. فأما في العقل فإنهم إذا أرادوا ذلك وصلوه فقالوا: هو كبيرهم في العقل، فأما إذا أطلق بغير صلته بذلك فلا يفهم إلا ما ذكرت. وقد قال أهل التأويل: لم يكن لشمعون وإن كان قد كان من العلم والعقل بالمكان الذي جعله الله به على إخوته رياسة وسؤدد فيعلم بذلك أنه عنى بقوله: ﴿قال كبيرهم﴾ فإذا كان ذلك كذلك فلم يبق إلا الوجه الآخر وهو الكبر في السن، وقد قال الذين =

وإلا فالمراد كبيرهم في العقل والرأي والعلم، وهو يهوذا، في قول ابن عباس[(١)].

أو شمعون، في قول مجاهد[(٢)].

أو لاوي، في قول [ابن][(٣)] إسحاق[(٤)].

﴿ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله﴾ في حفظ أخيكم ورده إلى أبيكم، ﴿ومن قبل ما فرطتم في يوسف﴾ «ما» صلة أو مصدرية أو موصولة.

فإن كانت صلة؛ فالمعنى: ومن قبل هذا فرطتم وتصرفتم في شأن يوسف ولم تحفظوا عهد أبيكم فيه.

وإن كانت مصدرية ففيه وجهان:

أحدهما: أن يكون محل المصدر الرفع على الابتداء، وخبره الظرف، وهو «من قبل»، ومعناه: ووقع من قبل تفريطكم في يوسف.

وإن كانت موصولة؛ فالمعنى: ومن قبل هذا ما فرطتموه، أي: قدمتوه في حق يوسف من الخيانة العظيمة. ومحلّه الرفع أو النصب على الوجهين.

﴿فلن أبرح الأرض﴾ أي: لن أفارق أرض مصر ﴿حتى يأذن لي أبي﴾ في الانصراف إليه، ﴿أو يحكم الله لي﴾ بالانصراف والانتصار على من أخذ أخي، أو =

ذكرنا جميعاً روبيل كان أكبر القوم سناً فصح بذلك القول الذي اخترناه.

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٢٥)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٦٦).

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ٣٣-٣٤)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٨١)، ومجاهد (ص:٣١٩). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٦٥) وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر وأبي الشيخ.

(٣) زيادة من القرطبي (٩/ ٢٤١).

(٤) القرطبي (٩/ ٢٤١)، وروح المعاني (١٣/ ٣٥).

يحكم الله لي، أي: يقضي في أمري ما شاء.

قال الزجاج[١]: «أو يحكم الله لي» نسق على «[حتى][٢] يأذن»، ويجوز أن يكون «أو يحكم» على جواب [لن][٣]، المعنى: لن أبرح الأرض إلا أن يحكم الله لي.

﴿وهو خير الحاكمين﴾ أي: أعدلهم وأفضلهم.

﴿ارجعوا﴾ أنتم ﴿إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك﴾ بنيامين ﴿سرق﴾ صواع الملك.

وقرأتُ على شيخنا أبي البقاء من طريق ابن أبي سريج عن الكسائي: «سُرِّق» بضم السين وتشديد الراء وكسرها، على معنى: نُسب إلى السرقة، وهي قراءة ابن عباس والضحاك[٤].

﴿وما شهدنا إلا بما علمنا﴾ لأنا رأينا المسروق في رحله، ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾ يحتمل وجوهاً من التأويل:

أحدها: أن المعنى: كنا نحفظه في حضره، فإذا غاب عنا لا ندري ما يصنع، ولا نقدر على حفظه. وهذا معنى قول ابن عباس[٥].

الثاني: ما كنا نشعر أن ابنك سيسرق ويصير الأمر إلى هذا، ولو علمنا ذلك ما

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ١٢٥).

(٢) زيادة من معاني الزجاج، الموضع السابق.

(٣) في الأصل: أن. والتصويب من معاني الزجاج، الموضع السابق.

(٤) الطبري (١٣/ ٣٥)، وزاد المسير (٤/ ٢٦٧).

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٢٦)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٦٨).

ذهبنا به ولا أعطيناك العهد والميثاق على أن نأتيك به. وهـذا معنـى قـول مجاهـد والحسن وقتادة[١].

الثالث: أن المعنى: قد رأينا الصواع.

الرابع: أن المعنى: لو نعلم أنك تصاب بهـذه المـصيبة، وتفقـده كـما فقـدت يوسف، ما ذهبنا به. قاله ابن كيسان[٢].

ومن قرأ: «سُرِّق» فالمعنى: ما شهدنا إلا بقدر ما علمنا وتحققنا من التسريق، وما كنا للغيب وهو الأمر المخفي من كونه ظلم بالسرق، أو ظلم بالتسريق بريئـاً حافظين.

﴿واسأل القرية التي كنا فيها﴾ أي: قولوا لأبيكم إن شك في قـولكم: اسـأل أهل مصر، فإن هذه القصة اشتهرت فيهم وانتشرت بينهم، ﴿والعير التـي أقبلنـا فيها﴾ أي: واسأل أهل العير التي أقبلنا فيها، وكانوا قوماً من كنعـان مـن جـيران يعقوب عليه السلام.

وقال ابن الأنباري[٣]: يجوز أن يكون المعنى: واسأل القرية والعير، فإنها تعقل عنك [لأنك][٤] نبي، والأنبياء تخاطبهم الأحجار والبهائم.

والأول أصح.

---

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ٣٦)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٨٣). وذكره السيوطي في الـدر (٤/ ٥٦٦) وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد. ومن طريق آخر عن قتـادة، وعـزاه لعبـد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) زاد المسير (٤/ ٢٦٨).

(٣) انظر: زاد المسير (٤/ ٢٦٨).

(٤) في الأصل: أنك. والتصويب من زاد المسير، الموضع السابق.

﴿وإنا لصادقون﴾ فيما قلناه.

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

﴿قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً﴾ قال ابن الأنباري[1]: يعني: خروجهم بأخيهم بنيامين إلى مصر رجاء منفعة، فعاد من ذلك شر وضرر.

وقال غيره: «سوّلت»: خيلت لكم أنفسكم أنه سرق وما سرق[2].

وقيل: ارتاب فيهم.

قال وهب: ظن أن الذي تخلّف منهم إنما تخلّف حيلة ومكراً [ليُصدِّقهم][3].

قال صاحب الكشاف[4]: المعنى: سوّلت لكم أنفسكم أمراً أردتموه، وإلا فما أدرى الرجل أن السارق يُؤخذُ بسرقته لولا فتواكم وتعليمكم.

﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً﴾ يوسف، وبنيامين. والقائل: ﴿فلن أبرح الأرض﴾، ﴿إنه هو العليم﴾ بحالي وشدة حزني، ﴿الحكيم﴾ فيما ابتلاني به من

---

(١) انظر: الوسيط (٢/ ٦٢٦)، وزاد المسير (٤/ ٢٦٩).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٢٦)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٦٩).

(٣) زاد المسير (٤/ ٢٦٩). وما بين المعكوفين في الأصل: لصدقهم. والتصويب منه.

(٤) الكشاف (٢/ ٤٦٧).

المصيبة بابنٍ بعد ابن.

﴿وتولى عنهم﴾ أعرض عنهم وعن مخاطبتهم، ﴿وقال﴾ -وقد هاج ذلك وجده بيوسف-: ﴿يا أسفى على يوسف﴾ قال ابن قتيبة[١]: الأسفُ: أشدُّ الحسرة.

قال ابن عباس: يا طول حزني على يوسف[٢].

وأصله: يا أسفي، فأبدلوا من الكسرة فتحة، ومن الياء ألفاً، ونداءُ مضاف منصوب.

وقوله: «على يوسف» من صلة المصدر.

﴿وابيضّت عيناه من الحزن﴾ أي: انقلبت إلى حال البياض، وذلك لفرط بكائه من شدة حزنه.

قال مجاهد: ذهب بصره[٣].

وقال مقاتل[٤]: لم يبصر بعينيه ست سنين حتى كشفه الله تعالى بقميص يوسف.

وقد قيل: إنه كان يدرك إدراكاً ضعيفاً.

قال ثابت البناني: دخل جبريل عليه السلام على يوسف فقال: أيها الملك! الطيب ريحه، الطاهر ثيابه، الكريم على ربه، هل لك علم بيعقوب؟ قال: نعم. قال:

---

(١) تفسير غريب القرآن (ص:٢٢١).

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ٣٨)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٨٥). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٦٧) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) زاد المسير (٤/ ٢٧٠).

(٤) تفسير مقاتل (٢/ ١٦١).

ما فعل؟ قال: ابيضت عيناه. قال: ما بلغ من حزنه؟ قال: حُزْن سبعين ثكلى. قال: فهل له على ذلك من أجر؟ قال: أجر مائة شهيد عند الله[١].

قال الحسن: ما فارق يعقوب الحزن ثمانين سنة، وما جفت عينه وما أحد يومئذ أكرم على الله تعالى منه [حين ذهب بصره][٢].

قوله تعالى: ﴿فهو كظيم﴾ فعيل بمعنى فاعل أو مفعول، كما في قوله: ﴿وهو مكظوم﴾ [القلم:٤٨] وقد سبق بيانه في آل عمران عند قوله: ﴿والكاظمين الغيظ﴾ [١٣٤].

﴿قالوا تالله تفتأ﴾ أراد: لا تَفْتَأ، فحذف حرف النفي، كقول امرئ القيس:

فَقُلْتُ يَمِينَ الله أَبْرَحُ قَاعِداً ... وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكِ وَأَوْصَالِي[٣]

وقول الخنساء:

فأقسمت آسى على هالك ... أو اسأل نائحة ما لها[٤]

---

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ٤٦-٤٧)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٨٦) كلاهما عن ليث بن أبي سليم. وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٦٩) وعزاه لابن جرير. ومن طريق آخر عن ليث بن أبي سليم، وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ٤٨)، وانظر: الوسيط (٢/ ٦٢٧)، وزاد المسير (٤/ ٢٧١). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٦٨) وعزاه لعبدالله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير وأبي الشيخ. وما بين المعكوفين زيادة من الوسيط وزاد المسير، الموضعان السابقان.

(٣) البيت لامرئ القيس، انظر ديوانه (ص:٣٢)، واللسان (مادة: يمن)، والطبري (٢/ ٤٠٣، ١٣/ ٤٢)، والقرطبي (٩/ ٢٤٩)، وزاد المسير (٢/ ٣٣٦، ٤/ ٢٧٢)، وروح المعاني (١٣/ ٤١).

(٤) البيت للخنساء. وهو في: زاد المسير (٤/ ٢٧٢).

قال ابن عباس ومجاهد والحسن: المعنى: لا تزال[(١)].

﴿تذكر يوسف حتى تكون حرضاً﴾ مشفياً على الهلاك. من قولهم: أَحْرَضَه المرض والحب؛ إذا أذابه[(٢)]. وأنشدوا:

إِنِّي امْرُؤٌ لَجَّ بي حُبٌّ فَأَحْرَضَنِي ... حَتَّى بَلِيتُ وَحَتَّى شَفَّنِي السَّقَمُ[(٣)]

قال الفراء[(٤)]: يقال: رجل حَرَض وحَارِض، وهو الفاسد في جسمه وعقله.

قال الضحاك: حتى تكون كالشَّنّ البالي[(٥)].

﴿أو تكون من الهالكين﴾ الموتى.

﴿قال إنما أشكوا بثي﴾ وهو أشد الحزن، سُمّي بذلك؛ لأن صاحبه لا يقدر على كتمانه فيبثه ويظهره.

وقد روى الحاكم في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «كان ليعقوب أخ مؤاخ، فقال له ذات يوم: يا يعقوب! ما الذي

---

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ٤١)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٨٧)، ومجاهد (ص: ٣٢٠). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٧١) وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن ابن عباس. ومن طريق آخر عن مجاهد، وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) انظر: اللسان (مادة: حرض).

(٣) البيت للعرجي. وهو في: اللسان (مادة: حرض)، وتاريخ بغداد (٥/ ٣٩٦)، والدر المصون (٤/ ٢٠٩)، والطبري (١٣/ ٤٢)، والقرطبي (٩/ ٢٥٠)، وزاد المسير (٤/ ٢٧٣)، وروح المعاني (١٣/ ٤٣).

(٤) معاني الفراء (٢/ ٥٤).

(٥) أخرجه الطبري (١٣/ ٤٣)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٨٨). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٧١) وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
والشَّنُّ: الخَلَقُ من كل آنية صنعت من جلد (اللسان، مادة: شنن).

أذهب بصرك؟ وما الذي قوّس ظهرك؟ قال: أما الذي أذهب بصري فالبكاء على يوسف. وأما الذي قوّس ظهري فالحزن على بنيامين. فأتاه جبريل فقال: يا يعقوب! إن الله تعالى يقرئك السلام، ويقول لك: أما تستحيي أن تشكوا إلى غيري؟ فقال يعقوب: إنما أشكوا بثي وحزني إلى الله. فقال جبريل: الله أعلم بما تشكوا يا يعقوب. ثم قال يعقوب: أي رب: أما ترحم الشيخ الكبير؟ أذهبتَ بصري وقوّستَ ظهري، فاردد عليّ ريحانتي، أشمه شمةً قبل الموت، ثم اصنع بي يا رب ما شئت، فأتاه جبريل فقال: يا يعقوب! إن الله تعالى يقرئك السلام ويقول: أبشر [وليفرح](١) قلبك، فوعزتي وجلالي لو كانا ميتين لنشرتهما لك، اصنع طعاماً للمساكين، فإن أحبّ عبادي إليّ المساكين، تدري لم أذهبت بصرك وقوّست ظهرك، وصنع إخوة يوسف [به](٢) ما صنعوا؟ لأنكم ذبحتم شاة، فأتاكم فلان المسكين وهو صائم فلم تطعموه منها. فكان يعقوب بعد ذلك إذا أراد الغداء أمر منادياً ينادي: ألا من أراد الغداء من المساكين فليتغدّ مع يعقوب، وإذا كان صائماً أمر منادياً فنادى: من كان صائماً [من المساكين](٣) فليفطر مع يعقوب»(٤).

وقال وهب بن منبه: أوحى الله تعالى إلى يعقوب: أتدري لم عاقبتك وحبست عنك يوسف ثمانين سنة؟ قال: لا. قال: لأنك شويت عَنَاقاً وقتّرت(٥) على جارك

(١) في الأصل: ولفرح. والتصويب من المستدرك (٢/ ٣٧٨).

(٢) زيادة من المستدرك، الموضع السابق.

(٣) مثل السابق.

(٤) أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ٣٧٨ ح٣٣٢٨). وذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٨٩) نقلاً عن ابن أبي حاتم وقال: هذا حديث غريب فيه نكارة.

(٥) العَنَاق: الأنثى من المعز (اللسان، مادة: عنق).

=

وأكلت ولم تطعمه[١].

وذكر بعضهم: أن السبب في ذلك: أن يعقوب ذبح عجل بقرة بين يديها وهي تخور فلم يرحمها[٢].

وفي مسند الإمام أحمد من حديث قرة المزني: ((أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا رسول الله إني لأذبح الشاة وأنا أرحمها، فقال النبي ﷺ: إن رحمتَها رحمك الله))[٣].

وقيل: اشترى جاريةً وولدها فباعه دونها، فبكيت عليه حتى عَمِيت، فجوزي بذلك.

وقال وهب بن منبه: لما جمع الله تعالى بين يوسف ويعقوب، قال له: يا بني! بيني وبينك هذه المسافة القريبة ولم تكتب إليّ تعرفني، فقال: إن جبريل أمرني أن لا أعرفك، فقال له: سل جبريل، فسأله فقال: إن الله تعالى أمرني بذلك، فقال: سل ربك، فسأله، فقال: قل ليعقوب خفتَ عليه الذئب ولم تأمنّي[٤].

وقال ذو النون المصري رحمة الله عليه: أوحى الله تعالى إلى يعقوب: يا يعقوب تَمَلَّقْني، قال: وكيف أتملقك يا رب؟ قال: قل: يا قديم الإحسان، يا دائم المعروف، يا كثير الخير، فقالها، فأوحى الله إليه: يا يعقوب، لو كان يوسف ميتاً لأحييته لك.

قوله تعالى: ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ قال ابن عباس: عَلِمَ يعقوب أن

ومعنى قترت: أي: خرجت ريح القِدْر، وقد يكون من الشواء والعظم المحرق وريح اللحم المشوي (اللسان، مادة: قتر).

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٢٩)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٧٤-٢٧٥).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٢٩)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٧٥).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٦).

(٤) زاد المسير (٤/ ٢٤٩).

رؤيا يوسف صادقة، وأنهم سيسجدون له[١].

قال عطاء: وأعلم من الله وقدرته ما لا تعلمون[٢].

وقيل: المعنى: أعلم من صنعه ورحمته وحسن ظني به ما لا تعلمون، وأنه يأتيني بالفرج من حيث لا أحتسب.

وقد روي: أن مَلَك الموت أتى يعقوب عليه السلام، فقال له: هل قبضت روح ابني يوسف؟ قال: لا يا نبي الله، فاستبشر حينئذ، وقال:

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ٨٨﴾

﴿يا بني اذهبوا فتحسّسوا من يوسف وأخيه﴾ أي: تعرفوا من أخبارهما وتطلبوا ذلك من مظانّه.

وقرئ شاذاً: «فتجَسَّسُوا» بالجيم، تفعّلٌ من الجس، وهو الطلب[٣]، ومعناهما متقارب.

وقد قيل: التحسُّس بالحاء المهملة في الخير، وبالجيم في الشر.

---

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ٤٥)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٨٩). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٧٣) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٢٩)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٧٥).

(٣) تفسير أبي السعود (٤/ ٣٠٢)، والبحر المحيط (٥/ ٣٣٤).

﴿ولا تيأسوا من رَوْح الله﴾ من فرجه وتنجيته.

قال الأصمعي: الرَّوْح: الاستراحة من غمّ القلب[(١)].

وقرأ الحسن وقتادة وعمر بن عبد العزيز: «رُوح» بضم الراء[(٢)]، أي: من رحمته التي يجيء بها عباده.

﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ لإنكارهم الرسالة التي هي منشأ العلم بالله وبصفاته وسعة رحمته وروحه، أو يراد يأسهم من روح الله في الدار الآخرة.

قال ابن عباس: يريد: أن المؤمن [من الله][(٣)] على خير، يرجوه في الشدائد ويشكره ويحمده في الرخاء، وأن الكافر ليس كذلك[(٤)].

فلما أمرهم بالذهاب ليتحسسوا من يوسف وأخيه خرجوا إلى مصر.

﴿فلما دخلوا عليه﴾ أي: على يوسف ﴿قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر﴾ الفقر والحاجة، ﴿وجئنا ببضاعة مزجاة﴾ حقيرة كاسدة، واشتقاقه مِنْ قولك: أزْجَيْتُه؛ إذا دفَعْتُه[(٥)]، كأنها لحقارتها وكسادها تتدافعها أيدي التجار رغبة عنها.

قال ابن عباس: كانت متاعاً رثّاً كالحبل والغرارة، ودراهم زيوفاً لا تؤخذ إلا بوضعة[(٦)].

---

(١) انظر: تهذيب اللغة (٥/ ٢١٦).

(٢) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٧).

(٣) في الأصل: لله. والتصويب والزيادة من الوسيط (٢/ ٦٢٩).

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٢٩)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٧٦).

(٥) انظر: اللسان (مادة: زجا).

(٦) أخرج الجزء الأول منه سعيد بن منصور (٥/ ٤٠٧)، والطبري (١٣/ ٥٠)، وابن أبي حاتم =

وقال الضحاك: كانت نعالاً[1].

وقال الحسن: كانت أقطاً[2].

وقال أبو صالح: الصنوبر وحبة الخضراء[3].

﴿فأوف لنا الكيل﴾ أتمه لنا ولا تنقصه لرداءة بضاعتنا، ﴿وتصدق علينا﴾ بالإعفاء عن رداءة البضاعة، فكأنهم سألوه المسامحة لا حقيقة الصدقة.

وقال سفيان بن عيينة: كانت الصدقة حلالاً للأنبياء عليهم السلام، وتلا هذه الآية[4].

قال صاحب الكشاف[5]: الظاهر أنهم تَمَسْكَنُوا له، وطلبوا إليه أن يتصدق عليهم، ومن ثم رَقَّ لهم.

والذي يظهر في نظري: المعنى الأول، وهو قول الأكثرين؛ لأن شرف النبوة ومنصب الرسالة ينافي ذل سؤال الصدقة التي هي أوساخ الناس، لا سيما وهم

= (٧/ ٢١٩١) مجزءاً. وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٧٥) وعزا الجزء الأول منه لعبدالرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ. وعزا الجزء الثاني منه لأبي عبيد وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(١) زاد المسير (٤/ ٢٧٧)، والقرطبي (٩/ ٢٥٣).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٣٠)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٧٧).

(٣) أخرجه الطبري (١٣/ ٥١)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٩١). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٧٦) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
وحبة الخضراء: هي الفُسْتُق.

(٤) أخرجه الطبري (١٣/ ٥٣-٥٤). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٧٦) وعزاه لابن جرير.

(٥) الكشاف (٢/ ٤٧١).

حَفَدة إبراهيم الخليل وفروع دوحته، وما زالت النفوس الشريفة الأبية التي تتقاصر عن منزلة شرف النبوة تستنكف من ذلّ السؤال، حتى قال بعضهم:

وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنّا يَعِشْ بحُسَامِهِ وَمَنْ يفْتَقِرْ من سَائِرِ الناسِ يَسْأَلِ

وفي وصية قيس بن عاصم المنقري لبنيه: وإياكم والسؤال، فإنه آخر الكسب.

وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: مكسبة فيها بعض الريبة، خير من صدقات الناس[١].

قال المفسرون: لم يتمالك يوسف عليه السلام حين قالوا: ﴿مسنا وأهلنا الضر﴾ عرّفهم نفسه، فقال معرّضاً بذلك: ﴿هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه﴾[٢].

وقيل: كان السبب في تعريفهم نفسه: أن يعقوب عليه السلام كتب إليه كتاباً يقول: من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر، أما بعد:

فإنا أهلُ بيت موكلٌ بنا البلاء، أما جدي فشُدّت يداه ورجلاه وألقيَ في النار ليُحْرَقَ فأنجاه الله، وجعلت النار عليه برداً وسلاماً. وأما أبي فوضع السكين على قفاه ليُقتل ففداه الله[٣]. وأما أنا فكان لي ابن وكان أحبَّ أولادي إليَّ، فذهب به إخوته إلى البرية، ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم، وقالوا: قد أكله الذئب، فذهبت عيناي من بكائي عليه، ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمه وكنتُ أتسلى به، فذهبوا

---

(١) ذكره ابن عبدالبر في التمهيد (١٨/ ٣٢٩).

(٢) أخرج نحوه الطبري (١٣/ ٥٤)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٩٣).

(٣) قلت: هذا على القول بأن الذبيح هو إسحاق، والصحيح أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام.

به، ثم رجعوا وقالوا: إنه سرق وإنك حبسته لذلك، وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً، فإن رددته عليّ [وإلا][1] دعوتُ عليك دعوة تُدرك السابع من ولدك، والسلام.

فلما قرأ بكى، وكتب إليه: اصبر كما صبروا، تظفر كما ظفروا[2]. ثم قال لهم ذلك.

قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾

وقد روي عن ابن عباس: أن يوسف عليه السلام أخرج لهم نسخة الكتاب الذي كتبوه على أنفسهم ببيعه من مالك بن ذعر، وفي آخره: (وكتب يهوذا). فلما قرؤوا الكتاب اعترفوا بصحته وقالوا: هذا كتاب كتبناه [على][3] أنفسنا عند بيع عبد كان لنا، فقال يوسف عند ذلك: إنكم لتستحقون العقوبة، وأمر بهم ليُقْتَلُوا، فقالوا: إن كنتَ فاعلاً فاذهب بأمتعتنا إلى يعقوب، ثم أقبل يهوذا على بعض

---

(١) في الأصل: إلا. والتصويب من الوسيط (٢/ ٦٢٧)، وتفسير أبي السعود (٤/ ٣٠٤).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٢٦-٦٢٧)، وأبي السعود في تفسيره (٤/ ٣٠٣-٣٠٤).

قال الحافظ ابن كثير (٢/ ٤٨٩): لا يصح.

(٣) زيادة من زاد المسير (٤/ ٢٧٩).

إخوته، فقال: قد كان أبونا متّصلَ الحزن لفقد واحد من ولده، فكيف به إذا أُخبر بهلكنا أجمعين، فَرَقَّ يوسف عند ذلك وكشف لهم عن أمره، وقال لهم: ﴿هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه﴾[١].

وهذا استفهام يتضمن معنى التوبيخ والتقريع بعظيم ما فعلوا بيوسف وأخيه من أنواع الأذى.

فإن قيل: الذي فعلوه بيوسف معلوم، فما الذي فعلوه بأخيه؟

قلتُ: فعلوا به ضروباً من الأذى، منها: إدخال الغم عليه بإفراده عنه، وحزنُه لفراقه وجزعه عليه، وما واجهوه به يوم الصُّواع وإخرجه من رحله من الكلام السيء، إلى غير ذلك من أنواع الأذى، ذهاباً مع الحسد لهما بسبب ميل أبيهما إليهما.

فإن قيل: الذي فعلوه بالأب ﷺ أعظم، فلم لم يوبّخهم بذكره؟

قلت: قد أجاب عنه الواحدي فقال[٢]: لم يذكر أباه تعظيماً ورَفْعاً من قدره، وعلماً أن ذلك كان بلاء له من الله ليزيد في درجته عنده.

ويحتمل عندي وجهاً آخر: وهو أن يقال: وبّخهم على ما كان مقصوداً لهم، وهو أذى يوسف وأذى أخيه، بسبب ما اشتملوا عليه من الحسد لهما، وأذى أبيهما لم يكن مقصوداً لهم، وإنما وقع ضمناً وتبعاً، وفي ضمن هذا التوبيخ الاعتداد عليهم بما آل أمرهما إليه من الرفعة والسناء والمُلك، ألا ترى إلى قوله عقيب ذلك: ﴿قد منّ الله علينا ... الآية﴾.

﴿إذ أنتم جاهلون﴾ بقبح معصية الله، وقطيعة الرحم، وعقوق الوالد.

---

(١) زاد المسير (٤/ ٢٧٩).

(٢) الوسيط (٢/ ٦٣٠).

وقال ابن عباس: «إذ أنتم جاهلون»: صبيان[١].

وقال الحسن: شَبَاب، يريدان جهالة الصبي[٢].

وقال مقاتل[٣]: مذنبون.

﴿قالوا أئنك لأنت يوسف﴾ هذه لام الابتداء، و «أنت» مبتدأ، و «يوسف» خبره، والجملة: خبر إنَّ[٤].

قرأ ابن كثير: «إنك» بهمزة واحدة على الخبر، وقرأ الباقون بهمزتين على الاستفهام، غير أن وَرْشاً يلين الهمزة الثانية ولا يمد، وقالون وأبو عمرو مثله، إلا أنهما فصلا بألف، والباقون بتحقيق الهمزتين، وفصل بينهما بالألف الحلواني عن هشام[٥].

قال الضحاك: لما قال لهم: ﴿هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه﴾ تبسم، فلما أبصروا ثناياه وكانت كاللؤلؤ المنظوم شبهوه بيوسف، فقالوا: ﴿أئنك لأنت يوسف﴾[٦].

والصحيح: أنهم حققوه معرفة قبل قولهم: ﴿أئنك لأنت يوسف﴾، والاستفهام للتقرير؛ بدليل قراءة ابن كثير، والتوكيد في «لأنت يوسف» بلام

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٣٠)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٨٠).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٣٠).

(٣) تفسير مقاتل (٢/ ١٦٢).

(٤) الدر المصون (٤/ ٢١١).

(٥) الحجة للفارسي (٢/ ٤٥٩)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٦٣)، والكشف (٢/ ١٤)، والنشر لابن الجزري (١/ ٣٧٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٧)، والسبعة في القراءات (ص:٣٥١).

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٣٠)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٨١).

الابتداء.

قال ابن عباس: كانت له علامة كالشامة في قرنه، وكان ليعقوب مثلها، ولإسحاق [مثلها][(١)]، ولسارة مثلها، فلما وَضَعَ التاج عن رأسه عرفوه بها[(٢)].

وقال ابن إسحاق: كشفَ الحجابَ فعرفوه[(٣)].

وقال صاحب الكشاف[(٤)]: [رأوا][(٥)] في شمائله وروائه حين كلمهم بذلك ما شعروا به أنه هو، مع علمهم بأن ما خاطبهم به لا يصدر مثله إلا عن حنيف مسلم من سِنْخ[(٦)] إبراهيم.

﴿قال أنا يوسف﴾ قال ابن الأنباري[(٧)]: إنما لم يقل: أنا هو؛ تعظيماً لما وقع به من ظلم إخوته له، فكأنه قال: أنا المظلوم المستحَلُّ منه، المرادُ قتله، فكفى ظهورُ الاسم من هذه المعاني، ولهذا قال: ﴿وهذا أخي﴾ وهم يعرفونه، وإنما قصد: وهذا المظلوم كظُلمي.

﴿قد منَّ الله علينا﴾ بالسلامة والكرامة، والاجتماع بعد اليأس، والامتياز برئاسة الملك وسياسة الناس.

---

(١) زيادة من زاد المسير (٤/ ٢٨١).

(٢) زاد المسير (٤/ ٢٨١).

(٣) أخرجه الطبري (١٣/ ٥٥)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٩٤). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٨١).

(٤) الكشاف (٢/ ٤٧٣).

(٥) في الأصل: رأوه. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

(٦) السِّنْخ: الأصل من كل شيء (اللسان، مادة: سنخ).

(٧) انظر: الوسيط (٢/ ٦٣١)، وزاد المسير (٤/ ٢٨١).

﴿إنه من يتّق ويصبر﴾ أي: يتق الله ويصبر على طاعته وعن معاصيه، وعلى تصاريف قدره فيه، ﴿فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ أي: لا يضيع أجرهم، فوضع المحسنين موضع الضمير؛ لاشتماله على المتقين الصابرين.

فإن قيل: هل قوله: ﴿إنه من يتّق ويصبر﴾ من تمام كلام يوسف أو ابتداء كلام من الله تعالى؟

قلت: كلاهما جائز. والذي يظهر لي: أنه من تمام كلام يوسف ومحاورته لإخوته، ألا ترى إلى قولهم: ﴿وإن كنا لخاطئين﴾ فقابلوا ما ذكر من التقوى والصبر بما اشتملوا عليه من الخطأ والإثم.

والمعنى: ﴿لقد آثرك الله علينا﴾ وفَضَّلَكَ بما امْتَنَّ به عليك بالتقوى والصبر، ﴿وإن كنا لخاطئين﴾ آثمين في أمرك لم نتق ولم نصبر، لا جرم أن الله تعالى أَعَزَّكَ بِالْمُلْكِ وَأَذَلَّنا بالتَّمَسْكُنِ بين يديك.

﴿قال لا تثريب عليكم اليوم﴾ أي: لا تعيير ولا توبيخ.

قال ثعلب[1]: قد ثَرَّبَ فلان على فلان؛ إذا عَدَّدَ عليه ذنوبه[2].

وقال ابن قتيبة[3]: أصل التَّثْريب: الإفساد. يقال: ثَرَّب علينا؛ إذا أفسد[4].

وقال الزمخشري[5]: أصل التَّثْريب من الثَّرْبُ؛ وهو الشَّحْم الذي هو غاشية

(١) انظر: الوسيط (٢/ ٦٣١)، وزاد المسير (٤/ ٢٨٢-٢٨٣).

(٢) انظر: اللسان (مادة: ثرب).

(٣) تفسير غريب القرآن (ص:٢٢٢).

(٤) انظر: اللسان (مادة: ثرب).

(٥) الكشاف (٢/ ٤٧٣-٤٧٤).

الكَرِش. ومعناه: إزالة الثرب، كما أن التجليد والتقريع إزالة الجلد والقرع؛ لأنه إذا ذهب كان ذلك غاية الهزال والعَجَف الذي ليس بعده، فضرب مثلاً للتقريع الذي يمزق الأعراض ويذهب ماء الوجوه.

فإن قلت: [بم](١) تعلق «اليومَ»؟

قلت: بالتثريب، أو بالمقدر في «عليكم» من معنى الاستقرار، أو بـ«يغفر»(٢).

قلت: والأول أظهر، وعليه عامة المفسرين. وأراد: لا تثريب عليكم أبداً، لكنه خَصَّ ذلك اليوم؛ لأنه الوقتُ الذي ينفث فيه المصدور، والمقام الذي تحمى في مثله الصدور، فإذا نفى عنهم التثريب فيه فهو له عنهم في غيره أبقى. فلله حكم يوسف ما أرزنه، ولله عقله ما أرصنه.

ولقد روي أن إخوته قالوا له: إنك [لتدعونا](٣) إلى طعامك بكرة وعشياً،

---

(١) في الأصل: بما. والتصويب من الكشاف (٢/ ٤٧٣).

(٢) قال أبو حيان في البحر المحيط (٥/ ٣٣٨): أما قوله: إن «اليوم» يتعلق بالتثريب، فهذا لا يجوز؛ لأن التثريب مصدر، وقد فصل بينه وبين معموله بقوله: «عليكم»، و «عليكم» إما أن يكون خبراً، أو صفة لـ«تثريب»، ولا يجوز الفصل بينهما؛ لأن معمول المصدر من تمامه. وأيضاً لو كان «اليوم» متعلقاً بـ«تثريب» لم يجز بناؤه، وكان يكون من قبيل المشبه بالمضاف، وهو الذي يسمى المطول ويسمى الممطول، فكان يكون معرباً منوناً.

وأما تقديره الثاني فتقدير حسن، ولذلك وقف على قوله «اليوم» أكثر القراء، وابتدؤوا بـ«يغفر الله لكم» على جهة الدعاء، وهو تأويل ابن إسحاق والطبري.

وأما تقديره الثالث: وهو أن يكون «اليوم» متعلقاً بـ«يغفر» فمقبول، وقد وقف بعض القراء على «عليكم» وابتدأ «اليوم يغفر الله لكم»، قال ابن عطية: والوقف على «اليوم» أرجح في المعنى، لأن الآخر فيه حكم على مغفرة الله، اللهم إلا أن يكون ذلك بوحي.

(٣) في الأصل: لتدعوا. والتصويب من تفسير أبي السعود (٤/ ٣٠٥).

ونحن نستحيي منك لما فرط منا فيك. فقال يوسف: إن أهل مصر وإن ملكتُ فيهم فإنهم ينظرون إليّ بالعين الأولى، ويقولون: سبحان من بلغ عبداً بيع بعشرين درهماً ما بلغ، ولقد شَرُفْتُ الآن بكم، وعظمتُ في العيون؛ حيث علم الناس أنكم إخوتي وأنّي من حَفَدة إبراهيم ﷺ[١].

ثم دعا لهم بالمغفرة ليُتمّ النعمة عليهم فقال: ﴿يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾.

قال ابن عباس: جعلهم في حِلّ، وسأل الله لهم المغفرة[٢]، وأخبر أن الله تعالى أرحم بأوليائه من الوالدين بولدهما.

ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾

قال السدي: فلما عَرَّفهم نفسَه سألهم عن أبيه، فقالوا: ذهبت عيناه، فأعطاهم قميصه، وقال: ﴿اذهبوا بقميصي هذا﴾[٣]، وهو قميص إبراهيم الذي جيء به إليه من الجنة، وقد ذكرناه فيما مضى من هذه السورة[٤].

---

(١) ذكره أبو السعود في تفسيره (٤/ ٣٠٥).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٣١)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٨٣).

(٣) أخرج نحوه الطبري (١٣/ ٥٧)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٩٦). وذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٣١)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٨٣)، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٥٠٧).

(٤) تقدم عند قوله تعالى: ﴿فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيبت الجب﴾.

﴿فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً﴾ قال مجاهد: أمره جبريل أن أرْسِلْ إليه قميصك، فإن فيه ريح الجنة، لا يقع على مُبْتَلٍ ولا سقيم إلا صحّ وعوفي[١].

وقال الحسن: لولا أن الله تعالى أعلمه لم يَدْرِ أنه يرجع إليه بصره[٢].

فقوله: «يأت» بمعنى: يصير، مِنْ قولهم: جاء إلينا، بمعنى: صار، ويشهد له: ﴿فارتدّ بصيراً﴾، أو يأت إليّ بصيراً، بدليل قوله: ﴿وائتوني بأهلكم أجمعين﴾ قال ابن السائب: كانوا نحواً من سبعين إنساناً[٣].

قوله تعالى: ﴿ولما فصلت العير﴾ أي: خرجت من مصر متوجهة إلى كنعان. يقال: فَصَلَ فلان من عند فلان؛ إذا خرج من عنده، فُصولاً[٤]. وكان الذي حمل القميص يهوذا، فإنه قال لهم: يا إخوتي! أنا الذي حملتُ القميص إلى يعقوب بدمٍ كذب فأحزنته، فدعوني أحمل قميص يوسف لأسرّه.

وقال الضحاك: شمعون[٥].

والأول أكثر عند أهل العلم بالتفسير.

قال ابن عباس: فخرج حافياً حاسراً يعدو، معه سبعة أرغفة لم يستوف أكلها[٦].

﴿قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف﴾ أي: لأشمّ ريحه. ومنه قول الشاعر:

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٣٢).

(٢) مثل السابق.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٣٢)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٨٣).

(٤) انظر: اللسان (مادة: فصل).

(٥) زاد المسير (٤/ ٢٨٦).

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٣٤)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٨٣).

وليس صرير النعش ما تسمعونه ولكنها أصلاب قوم تقصف
وليس فتيق المسك ما تجدونه[١] ولكنه ذاك الثناء المخلف[٢]

قال مجاهد: هبت ريح فصفقت القميص، ففاحت روائح الجنة في الدنيا واتصلت بيعقوب ﷺ، فعُلِمَ أنه ليس في الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص، فمن ثَمَّ قال: ﴿إني لأجد ريح يوسف﴾[٣].

وقيل: إن ريح الصبا استأذنت ربها في أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل البشير، فأذن لها، فلذلك يستريح كل محزون إلى ريح الصبا، وهي ريح لينة تأتي من ناحية المشرق.

قال أبو صخر الهذلي[٤]:

---

(١) في سير أعلام النبلاء: نسيم الملك ريح حنوطه.

(٢) البيتان في رثاء ابن أبي دؤاد (عدو الإمام أحمد بن حنبل)، وكان داعية إلى خَلْق القرآن. انظر البيتين في: سير أعلام النبلاء في ترجمة ابن أبي دؤاد (١١/ ١٧٠) وأيضاً (١٣/ ٤٩٨) ولكنه من قول ابن المعتز في عبيدالله بن سليمان وزير المعتضد، وتاريخ بغداد (٤/ ١٥١) في ابن أبي دؤاد، وزاد المسير (٤/ ٢٨٤).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٣٢)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٨٤).

(٤) أبو صخر الهذلي عبدالله بن سلمة السهمي من بني هذيل بن مدركة، شاعر من الفصحاء، كان في العصر الموي موالياً لبني مروان متعصباً لهم، وله في عبدالملك وأخيه عبدالعزيز مدائح. وكان قد حبسه عبدالله بن الزبير عاماً وأطلقه بشفاعة رجال من قريش، وهو صاحب الأبيات المشهورة التي أولها:

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

انظر: الأعلام (٤/ ٩٠-٩١).

إِذَا قُلْتُ هَذا حِينَ أَسْلُو يُهَيِّجُنِي ... نَسِيمُ الصَّبا مِنْ حَيْثُ يَطْلَعُ الفَجْرُ(١)

وقال يحيى بن سعيد الأموي: تزوج رجل من أهل تهامة امرأة من أهل نجد، فأخرجها إلى تهامة، فلما أصابها حرّها قالت: ما فعلت ريحٌ كانت تأتينا وتجيء بنجد يقال لها: الصَّبا، فقيل لها: يحبُسها هذان الجبلان، فقالت:

أَيَا جَبَلَيْ نَعْمَانَ بِاللهِ خَلِّيَا ... نَسِيمَ الصَّبَا يَخْلُصُ إِلَيَّ نَسِيمُهَا

أجد بردها أو تشفِ مني حرارة ... على [كبدي](٢) لم يبق إلا صميمها

فَإِنَّ الصَّبَا رِيحٌ إذا مَا تَنَفَّسَتْ ... عَلَى نَفَس مَهْمُوم تَوَلَّتْ هُمُومُهَا

ويا ريح ترى بالدّبار فخبري ... أيأتيه أم قد تعفّت رسومها(٣)

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما هبّت الصَّبا إلا وأنا أجد منها ريح زيد، يعني: أخاه زيد بن الخطاب رضي الله عنه، وكان قُتل باليمامة شهيداً، فَوَجَدَ عليه عمر رضي الله عنه وَجْداً شديداً، وكان عمر يقول: رحم الله أخي، سبقني إلى الحُسْنَيَيْن، أَسْلَمَ قبلي واستشهد قبلي(٤).

فإن قيل: ما باله وَجَدَ ريح القميص من مسيرة ثماني ليالي مسيرة ثمانين فرسخاً، ولم يجده وهو في الجب فرسخاً منه؟

---

(١) انظر البيت في: الوسيط (٢/ ٦٣٣)، وأشعار الهذليين (٢/ ٩٥٧)، وزاد المسير (٤/ ٢٨٤).

(٢) في الأصل: لبدي.

(٣) انظر: الوسيط (٢/ ٦٣٣) ونسب الأبيات فيه إلى قيس بن الملوح. انظر: ديوانه (ص:٨٢)، روح المعاني (١٣/ ٨٢، ٢٧/ ٢٥).

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٢٩٨، والاستيعاب (٢/ ٥٥٠)، وتهذيب الأسماء (١/ ٢٠٠) كلهم في ترجمة زيد بن الخطاب.

قلتُ: ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، وهو ما وجد من الابتلاء والامتحان في حق يعقوب ويوسف، وما أفضت إليه الحال على ما جاءت به قصتهم.

ولأنه كان مُدْرجاً في قَصَبَة من فضة، فلما نشره فَاحَتْ رائحته.

وفي قوله: ﴿لولا أن تفنّدون﴾ إضمار، تقديره: أي لأخبرتكم أنه حي.

وقيل: المعنى: لولا تفنيدكم إياي لصدقتموني، والتفنيد: النسبة إلى الفَنَد، وهو الخَرَف. يقال: شيخ مُفَنَّد[1]. وإلى هذا المعنى تؤول أقوال المفسرين.

قال ابن عباس: لولا أن تقولوا ذهب عقلك[2].

وقال في رواية: لولا أن تُجَهِّلُون[3].

وقال الحسن: لولا أن تُهَرِّمُون[4].

﴿قالوا﴾ يعني: أولاد بنيه ﴿تالله إنك لفي ضلالك القديم﴾ أي: لفي ضلالك عن الصواب من إفراطك في حبّ يوسف ولهجك بذكره، وكانوا يعتقدون موت يوسف.

---

(١) انظر: اللسان (مادة: فند).

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ٦٠) عن مجاهد، ونحوه في ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٩٨) عن ابن زيد. وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٨٥)، والسيوطي في الدر (٤/ ٥٨١) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن مجاهد.

(٣) أخرجه الطبري (١٣/ ٥٩). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٨١) وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ.

(٤) أخرجه الطبري (١٣/ ٦١)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٩٨) عن مجاهد. وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٨١) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن مجاهد.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾

﴿فلما أن جاء البشير﴾ يهوذا ﴿ألقاه﴾ يعني: القميص، ﴿على وجهه﴾ أبيه يعقوب ﴿فارتدّ بصيراً﴾ أي: رجع بصيراً ﴿قال ألم أقل لكم﴾ أي: أقل لكم إني أجد ريح يوسف، أو قوله: «ولا تيأسوا من روح الله».

وقوله: «إني أعلم» كلام مبتدأ لا تعلق له بالقول. ويجوز أن يكون متعلقاً به، فيكون إشارة إلى قوله: و﴿أعلم من الله ما لا تعلمون﴾.

قال سفيان: لما جاء البشير إلى يعقوب عليه السلام قال: على أيّ دين تركت يوسف؟ قال: على الإسلام. قال: الآن تمت النعمة[(١)].

﴿قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين﴾ آثمين بما أتينا إليك من إدخال الحزن عليك.

﴿قال سوف أستغفر لكم ربي﴾ أخرّهم إلى وقت هو مظنة الإجابة.

روى أبو صالح عن ابن عباس: أنه أخّرهم إلى السحر من ليلة الجمعة[(٢)].

وقال أكثر المفسرين: أخّرهم إلى السحر[(٣)].

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٢/ ٢٤٧)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٩٩) عن الحسن. وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٨٣) وعزاه لابن أبي حاتم عن الحسن.

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ٦٥). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٨٧)، والسيوطي في الدر (٤/ ٥٨٤) وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ.

(٣) أخرجه الطبري (١٣/ ٦٤)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٠٠). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير =

قال محارب بن دثار: كان عم لي يأتي المسجد، قال: فمررتُ بدار عبد الله بن مسعود، فسمعته يقول: اللهم إنك قد دعوتني فأجبت، وأمرتني فأطعت، وهذا سحرٌ فاغفر لي، فسألته عن ذلك فقال: إن يعقوب أخَّر بنيه إلى السحر بقوله: ﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾[١].

قال وهب بن منبه: كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة، نيفاً وعشرين سنة[٢].

قال أنس بن مالك: قالوا يا أبانا إن عفا الله عنا، وإلا فلا قرة عين لنا في الدنيا، فدعا يعقوب وأمّن يوسف، فلم يُجَبْ فيهم عشرين سنة، ثم جاء جبريل، فقال: إن الله تعالى قد أجاب دعوتك في ولدك، وعفا عما صنعوا، واعتقد من بعد مواثيقهم[٣] على النبوة[٤].

فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

=

(٤/ ٢٨٧).

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ٦٤)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٠٠).

(٢) زاد المسير (٤/ ٢٨٧).

(٣) في زاد المسير: مواثيقهم من بعدهم، وفي الطبري: مواثيقهم من بعدك.

(٤) أخرج نحوه الطبري (١٣/ ٧٤). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٨٧-٢٨٨).

قوله تعالى: ﴿فلما دخلوا على يوسف﴾ قال المفسرون: كان يوسف عليه السلام قد بعث إلى أبيه جهازاً ومائتي راحلة، ليتجهز إليه بمن معه من أهله، فلما دنوا من أرض مصر استأذن يوسف الملك الذي فوقه في تلقي يعقوب فأذن له، وأمر الملأ من أصحابه بالركوب معه، فركبوا في أربعة آلاف، وخرج معهم أهل مصر -وقيل: إن الملك خرج أيضاً- فلما أقبلت الخيل قال يعقوب -وكان في ذلك الوقت ماشياً [يتوكأ](١) على يهوذا-: يا بني! هذا فرعون مصر، قالوا: لا، هذا ابنك، فلما دنا كلُّ واحد منهما من صاحبه بكيا، فقال يعقوب: السلام عليكم يا مُذهبَ الأحزان(٢).

قال ابن عباس: أقبل عليه يوسف فقال: يا أبت حزنتَ عليّ حتى انحنيت؟ قال: نعم، قال: بكيتَ عليّ حتى ذهب بصرك؟ قال: نعم، قال: أما علمتَ أن القيامة تجمعني وإياك؟ قال: أي بني! إني خشيتُ أن تُسلب دينك، فلا نجتمع(٣).

(١) في الأصل: يتواكأ. والتصويب من الطبري (١٣/ ٦٦).

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ٦٦). وانظر: الوسيط (٢/ ٦٣٤)، وزاد المسير (٤/ ٢٨٨).

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (٢/ ٢٤٧) عن سفيان الثوري بنحوه. وذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٣٥)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٨٨)، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٥٩٠) وعزاه لأبي الشيخ عن سفيان الثوري.

والحديث موضوع، وآفته علي بن أحمد بن يوسف بن جعفر، ومحمد بن يزيد المستملي، والأول هو الهكاري روى عن أبي عبدالله بن نظيف، قال أبو القاسم بن عساكر: لم يكن موثقاً، وقال ابن النجار: متهم بوضع الحديث وتركيب الأسانيد. قاله في ترجمة عبدالسلام بن محمد (انظر: ميزان الاعتدال ٥/ ١٣٨).

وأما محمد بن يزيد المستملي أبو بكر الطرسوسي لا النيسابوري، قال ابن عدي: يسرق الحديث ويزيد فيه ويضع (انظر: ميزان الاعتدال ٦/ ٣٦٨).

والمعنى: فلما دخلوا على يوسف أرض مصر، ﴿آوى إليه﴾ ضم إليه ﴿أبويه﴾ أباه وخالته، فإن أمه كانت قد ماتت في نفاسها ببنيامين، إلا ما حكي عن الحسن أنه كانت تحيى، وهو قول ابن إسحاق(١).

والأول أكثر، قد سبق ذلك.

﴿وقال ادخلوا مصر﴾ قيل: إن الدخول الأول دخول أرض مصر، كما ذكرناه.

قال الزمخشري(٢): كأنه حين استقبلهم نزل لهم في مضرب أو بيت [ثَمَّ، فدخلوا عليه](٣)، وضمّ إليه أبويه، ثم قال لهم: ادخلوا مصر.

ويجوز أن يكون [قد](٤) خرج في قبة من قباب [الملوك](٥) التي تُحمل على البغال، فأمر أن يُرفع إليه أبواه، فدخلا عليه القبة، فآواهما إليه بالضم والاعتناق وقربهما منه. وقال بعد ذلك:

﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾، المشيئة متعلقة بالدخول موصوفاً بالأمن، مُكَيّفاً به؛ لأنهم كانوا فيما خلا من الزمان يخافون ملوك مصر ولا يدخلون إلا بجوارهم.

قال ابن عباس: دخلوا وهم نيف وسبعون من ذكر وأنثى(٦).

---

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ٦٧). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٨٨).

(٢) الكشاف (٢/ ٤٧٦).

(٣) زيادة من الكشاف، الموضع السابق.

(٤) مثل السابق.

(٥) في الأصل: الملك. والمثبت من الكشاف، الموضع السابق.

(٦) زاد المسير (٤/ ٢٨٩).

قال ابن مسعود: [دخلوا وهم ثلاثة وتسعون، و][(١)] خرجوا مع موسى وهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً[(٢)].

قوله تعالى: ﴿ورفع أبويه على العرش﴾ أي: أجلسهما على سرير الملك، ﴿وخرّوا له سجداً﴾ يعني: أبويه وإخوته.

قال الحسن: أمرهم الله تعالى بالسجود له لتأويل الرؤيا[(٣)].

قال ابن عباس: كان سجودهم كهيئة الركوع كما يفعل الأعاجم[(٤)].

قال ابن الأنباري[(٥)]: سجدوا له على جهة التحية، لا على جهة العبادة، وكان أهل ذلك الدهر يحيّي بعضهم بعضاً بالسجود والانحناء، فحظره رسول الله ﷺ.

روى أنس بن مالك قال: قال رجل: «يا رسول الله! أحدنا يلقى صديقه أينحني له؟ قال: لا»[(٦)].

وقال صاحب الكشاف[(٧)]: إن قلت: كيف جاز لهم أن يسجدوا لغير الله؟

قلت: كانت السجدة عندهم جارية مجرى التحية والتكرمة، كالقيام، والمصافحة، وتقبيل اليد، ونحوها مما جرت عليه عادة الناس، من أفعال اشتهرت

---

(١) زيادة من زاد المسير (٤/ ٢٨٩).

(٢) زاد المسير (٤/ ٢٨٩). وأخرجه الحاكم (٢/ ٦٢٥) وفيه: وكان أهله حين أرسل إليهم وهم بمصر ثلاثمائة وتسعين إنساناً.

(٣) زاد المسير (٤/ ٢٨٩).

(٤) مثل السابق.

(٥) انظر: زاد المسير (٤/ ٢٨٩).

(٦) أخرجه الترمذي (٥/ ٧٥ ح٢٧٢٨)، وأحمد (٣/ ١٩٨).

(٧) الكشاف (٢/ ٤٧٧).

في التعظيم والتوقير.

وقيل: ما كانت إلا انحناء دون تعفير الجباه. وخُرورهم سُجَّداً يأباه.

وقيل: معناه: وخرّوا لأجل يوسف سُجَّداً لله شكراً. وهذا أيضاً فيه نَبْوَة[1].

قلت: وقد روي عن ابن عباس أن الضمير في: «له» يرجع إلى الله تعالى، أي: خرّوا لله سجداً شكراً له على نعمة الاجتماع[2].

ويُبطلُ هذا التأويل قوله: ﴿وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل﴾، وهي الرؤيا التي قصها على أبيه، فقال له: ﴿لا تقصص رؤياك على إخوتك﴾.

واختلفوا في مقدار الزمن الكائن بين الرؤيا والتأويل، فقال سلمان الفارسي: أربعون سنة[3].

وروي عن ابن عباس: اثنان وعشرون سنة[4].

وقال الحسن: ثمانون سنة[5]، كما سبق. وقيل غير ذلك، والله تعالى أعلم.

---

(١) أي: بُعد.

(٢) زاد المسير (٤/ ٢٩٠).

(٣) أخرجه الطبري (١٣/ ٦٩)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٠٢)، وابن أبي شيبة (٦/ ١٨٣)، والحاكم (٤/ ٤٣٨)، والبيهقي في الشعب (٤/ ١٩٤). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٨٨) وعزاه للفريابي وابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا في كتاب العقوبات وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والحاكم والبيهقي في الشعب.

(٤) زاد المسير (٤/ ٢٩٠).

(٥) أخرجه الطبري (١٣/ ٧٠)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٠٢)، وابن أبي شيبة (٦/ ٣٤٦). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٨٩) وعزاه لعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد. ومن رواية أخرى عن الحسن عزاه لابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وابن عبد الحكم في فتوح مصر وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والحاكم وابن مردويه.

قوله تعالى: ﴿وقد أحسن بي﴾ يقال: أحسن إليه وأحسن به، وكذلك أساءا إليه وآساءا به. قال كثيّر:

أَسِيئِي بنَا أَوْ أَحْسِنِي لاَ مَلُومَةٌ   لَدَيْنَا ولا مَقْلِيَّةٌ إِنْ تَقَلَّتِ[١]

﴿إذ أخرجني من السجن﴾ وقد ذكرنا مدة لبثه فيه، ﴿وجاء بكم من البدو﴾ البادية. قال ابن عباس: كانوا أهل عمود وماشية[٢].

وإنما اقتصر على ذكر السجن دون الجب؛ تكرّماً وحسن عشرة مع إخوته، كراهة أن يواجههم [ويذكّرهم][٣] بقبيح صنعهم به وفاء لهم بما وعدهم به في قوله: ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾.

﴿من بعد أن نزغ الشيطان﴾ أي: أفسد ﴿بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء﴾ سبق تفسير «اللطيف» في الأنعام[٤].

وقال المفسرون: معناه: إن ربي عالم بدقائق الأمور[٥].

﴿إنه هو العليم الحكيم﴾ قال العلماء بالسير: أقام يعقوب عليه السلام بعد قدومه مصر أربعاً وعشرين سنة، ثم مات، وأوصى أن يدفن بالشام إلى جانب أبيه إسحاق عليه السلام، وكان عمره يوم مات مائة وسبعاً وأربعين سنة[٦].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) زاد المسير (٤/ ٢٩١).

(٣) في الأصل: وذكرهم. والصواب ما أثبتناه.

(٤) آية رقم: ١٠٢.

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٣٦)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٩١).

(٦) انظر: تهذيب الأسماء للنووي (٢/ ٤٦٠)، والوسيط للواحدي (٢/ ٦٣٦)، وزاد المسير لابن الجوزي (٤/ ٢٩١-٢٩٢).

قال سعيد بن جبير: نُقل يعقوب في تابوت [من][(١)] ساج إلى بيت المقـدس، فمن ثم تَنقلُ اليهود موتاهم إلى بيت المقدس، مِنْ فعل ذلك منهم[(٢)].

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾

فلما تم أمره واستفحل ملكه وقرّت عينه وجمع شمله، طمحت نفسه الأبيـة وهمته الشريفة النبوية إلى النعمة الدائمة والملك الذي لا يبلى، فتمنى الموت، فقال: ﴿رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث﴾ وقد سبق تفسيرها.

و «من» فيها للتبعيض.

﴿فاطر السموات والأرض أنت وليي﴾ الذي يتـولاني في الـدارين بنعمتـه، وتُوصلُ المُلك الفاني بالمُلك الباقي ﴿توفني مسلماً﴾ قال ابن عباس: لم يتمنَّ الموت نبي قبله[(٣)].

وقال ابن عقيل: لم يتمنَّ الموت، وإنما سأل الله أن يموت على صفة[(٤)].

فالمعنى: توفني إذا توفيتني مسلماً[(٥)]، وهذا هـو مـدلول الآيـة، اللهـم إلا أن

---

(١) زيادة من المصدرين التاليين.

(٢) ذكره البغوي (٢/ ٤٥١)، والقرطبي (٩/ ٢٦٨).

(٣) أخرجه الطبري (١٣/ ٧٣)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٠٤). وذكره السيوطي في الـدر (٤/ ٥٩١) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٤) زاد المسير (٤/ ٢٩٢).

(٥) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٩٢): قال الشيخ: وهذا الصحيح.

يكون ما قاله ابن عباس وغيره مقولاً مستنبطاً من الآية.

﴿وألحقني بالصالحين﴾ من آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فتوفاه الله تعالى طيباً طاهراً فتخاصم أهل مصر [وتشاحّوا][(١)] في دفنه، حتى هموا بأن يقتتلوا، كل يحبّ أن يدفن في [محلته][(٢)] رجاء بركته، فأجمعوا على دفنه في النيل ليمر عليه الماء فتصل بركته إلى الجميع، فجعلوه في صندوق مَرْمَرٍ ودفنوه في النيل؛ ليكونوا فيه شَرْعاً واحداً[(٣)]، فلم يبرح في موضعه حتى أخرجه موسى ﷺ حين خرج ببني إسرائيل من مصر، فدفنه عند آبائه بأرض كنعان[(٤)].

قال الحسن: مات وهو ابن مائة وعشرين سنة[(٥)]، ويقال: في التوراة: وهو ابن مائة وستين.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذلك﴾ مبتدأ، خبره ﴿من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾[(٦)]، أي:

---

(١) في الأصل: وتشاحنوا. وانظر: الوسيط (٢/ ٦٣٦)، وزاد المسير (٤/ ٢٩٢).

وتشاحوا: أي: تنازعوا. انظر: اللسان مادة: (شحح).

(٢) في الأصل: مجلسه. والتصويب من الوسيط وزاد المسير، الموضعان السابقان.

(٣) أي: سواء ومتساوون لا فضل لأحدهم فيه على الآخر (انظر: اللسان، مادة: شرع).

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٣٦)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٩٢).

(٥) زاد المسير (٤/ ٢٩٢).

(٦) الدر المصون (٤/ ٢١٧).

ذلك الذي قصصنا عليك يا محمد من أنباء الغيب الذي لا يعلمه إلا بالوحي، ألا تراه يقول: ﴿وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم﴾ عزموا عليه، ﴿وهم يمكرون﴾ بيوسف ويبغونه الغوائل.

﴿وما أكثر الناس﴾ يريد: العموم. وقيل: أهل مكة ﴿ولو حرصت بمؤمنين﴾.

﴿وما تسألهم عليه من أجر﴾ أي: على القرآن. وقيل: على ما نذكره لهم ونحدثهم به.

والمعنى: ما تسألهم جزاء على التبليغ والتذكير فيتّهموك.

﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ أي: ما هو إلا تذكرة وعظة لهم.

وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾

قوله تعالى: ﴿وكأين﴾ سبق القول عليه في آل عمران[١].

قرأ عكرمة وعمرو بن فائد: «والأرضُ» بالرفع، وقرئ: «الأرضَ» بالنصب[٢]، وقراءة السبعة والأكثرين: ﴿والأرضِ﴾ بالجر. فمن رفع أو نصب وَقَفَ على «السموات». فأما الرفع فعلى الابتداء، والجملة بعدها الخبر.

وأما النصب فبفعل مضمر تفسيره ما بعده، تقديره: يطؤون أو يدوسون الأرض.

---

(١) الآية رقم: ١٤٦.

(٢) البحر المحيط (٥/ ٣٤٤).

وأما الجر فظاهر، والمعنى: وكم من آية في السموات والأرض دالة على وحدانية الله وقدرته ﴿يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾ لا يتدبرون ولا يتفكرون في عظمة خالقها وقدرته وسلطانه فينزهوه عن مشاركة الأصنام.

ويلوح لي: أن في هذا تسليةٌ للرسول ﷺ، حيث أعرضوا عنه ونفروا منه مع وضوح آياته ودلائل صدقه، وقَصَصِه عليهم أحاديث الأمم قبله.

المعنى: كم لي من آية في ملكي شاهدة بوحدانيتي يرونها فلا يعتبرون ولا يتدبرون، فلا تعجبْ أنت يا محمد من إعراضهم عن التفكر في دلائل صدقك وبراهين نبوتك.

قوله تعالى: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله﴾ أي: ما يصدق أكثرهم فيقولون: الله خالقنا ورازقنا ﴿إلا وهم مشركون﴾ بعبادة الأوثان واعتقادهم إلهية عيسى.

قال ابن عباس: نزلت في تلبية مشركي العرب: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك(١).

وقال الحسن: نزلت في المنافقين(٢).

ثم خَوَّفهم فقال: ﴿أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله﴾ أي: ما يَغُمُّهم ويجللهم من العذاب ﴿وهم لا يشعرون﴾ بإتيانها.

---

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ٧٨) عن الضحاك. وانظر: ابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٠٨)، وزاد المسير (٤/ ٢٩٤). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٩٣) وعزاه لابن جرير وابن المنذر عن الضحاك.

(٢) أخرج نحوه ابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٠٧-٢٢٠٨). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٩٤)، والسيوطي في الدر (٤/ ٥٩٣) وعزاه لأبي الشيخ.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

﴿قل هذه سبيلي﴾ أي: هذه الطريق التي أنا عليها والشريعة التي أدعو إليها سنتي ومنهاجي، ﴿أدعوا إلى الله على بصيرة﴾ أي: على يقين وأمر واضح.

وقوله: ﴿أنا﴾ توكيد للمُسْتكِنّ في «أدعو» ﴿ومن اتبعني﴾ عطف عليه، وكل متبع للنبي ﷺ لا يخلو من الدعاء إلى الله.

ويجوز أن يكون الكلام تاماً عند قوله: ﴿أدعوا إلى الله﴾، ثم ابتدأ فقال: ﴿على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾. وهذا قول ابن عباس(١).

يعني: أصحاب محمد ﷺ كانوا على أحسن طريقة.

فقوله [«أنا»](٢) مبتدأ، «على بصيرة» خبره، «ومن اتبعني» عطف على المبتدأ(٣).

﴿وسبحان الله﴾ أي: وقل سبحان الله تنزيهاً له عما أشركوا، ﴿وما أنا من المشركين﴾ الذين اتخذوا مع الله نِداً وكفؤاً وولداً.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٦٣٧)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٩٥).

(٢) في الأصل: أما. وهو خطأ. والتصويب من الدر المصون (٤/ ٢١٧).

(٣) الدر المصون (٤/ ٢١٧)، والتبيان (٢/ ٥٩).

﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً﴾ إن قيل: قد تكرر هذا في مواضع من القرآن، وجاء في موضعين بغير «مِنْ» وهما في الأنبياء: ﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً﴾ [٧]، وفي الفرقان: ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين﴾ [٢٠] فهل بين إثبات «مِنْ» وحذفها فَرْق؟

قلت: «مِنْ» لابتداء الغاية، وذلك الزمان الذي تقدم زمانك، فإذا قال: «مِنْ قبلك» فكأنه قال مِن ابتداء الزمان الذي تقدم زمانك، فيشمله بِحَدَّيْه، ويتناول طرفيه، وإذا حذفت «مِنْ» فهو في الاستيعاب كالأول، إلا أن الأول أوكد لضبطه بذكر الطرفين، وإنما حذفت من «الأنبياء» بناء على ما تقدم من قوله: ﴿ما آمنت قبلهم من قرية﴾ [٦]، وحذفت في «الفرقان» ولم تؤكد بـ«مَنْ»؛ لأن المعتمد إنما هو حال المرسلين وأنهم يأكلون الطعام وليسوا بملائكة، وهذا رد لقولهم: ﴿لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾ [فصلت:١٤].

والمعنى: ما بعثنا في الأمم الخالية إلا رجالاً كانوا على مثل حالك، فما وجه تعجبهم من إرسالك؟

﴿يوحي إليهم﴾ وقرأ حفص: «نوحي إليهم» بالنون هنا وفي النحل(١). ﴿من أهل القرى﴾ قال ابن عباس: يريد أهل المدائن؛ لأن الله تعالى لم يبعث نبياً من أهل البادية ولا من الجن ولا من النساء(٢).

والسرّ فيه: أن أهل البادية يغلب عليهم القسوة والجفاء، وأهل المدن أعلم

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٤٥٥)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٦٥)، والكشف (٢/ ١٤-١٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٩٦)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٨)، والسبعة في القراءات (ص:٣٥١).

(٢) وهو قول الحسن أيضاً. انظر: الوسيط (٢/ ٦٣٨)، وزاد المسير (٤/ ٢٩٥) من قول الحسن.

وأحلم.

ثم خوّف المكذبين فقال: ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾ ببصائرهم وأبصارهم، وهو استفهام في معنى التقرير والتوبيخ لهم، بمعنى أنهم قد ساروا في آثارهم ونظروا عاقبة أمرهم وما جُوزوا به على جناية كفرهم وتكذيبهم، فهلاّ اعتبروا وازدجروا.

﴿ولدار الآخرة خير﴾ أي: ولدار الساعة الآخرة.

وقال الفراء[1]: أضيفت «الدار» إلى «الآخرة»؛ لأن العرب تُضيف الشيء إلى نفسه إذا اختلف لفظه، كقوله تعالى: ﴿لهُوَ حق اليقين﴾ [الواقعة:٩٦].

﴿أفلا يعقلون﴾ قرئ بالياء والتاء على المخاطبة والغيبة.

حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾

قوله تعالى: ﴿حتى إذا استيأس الرسل﴾ «حتى» متعلقة بمحذوف دلّ عليه الكلام، كأنه قال: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً فتراخى نصرهم وتطاولت عليهم المدة، حتى استشعروا القنوط وتوهموا أنهم لا ينصرون، فجاءهم نصرنا فجأة.

قال ابن عباس: استيأسوا من إيمان قومهم[2].

---

(١) معاني الفراء (٢/ ٥٥-٥٦).

(٢) قال ابن عباس في تفسيره (ص:٢٩٥): يعني: أيس الرسل من أن يتبعهم قومهم... وقد أخرج نحوه النسائي في الكبرى (٦/ ٣٧٠)، والطبري (١٣/ ٨٤)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢١٢)، وسعيد

وقال مجاهد: أيسوا من تعذيبهم[١].

قوله تعالى: ﴿وظنوا أنهم قد كُذِّبُوا﴾ قرأ أهل الكوفة: «كُذِبُوا» بالتخفيف[٢]، إذا قلت له الكذب. قال لبيد:

وَأَكْذِبِ النَّفْسَ إِذا حَدَّثْتَها ... إِنَّ صِدْقَ النَّفْسِ يُزْرِي بِالأَمَلْ[٣]

وهي قراءة صحيحة ثابتة عن النبي ﷺ، وبها قرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأهل بيته عليهم السلام، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وكثير من التابعين منهم: سعيد بن جبير، وأبو عبدالرحمن السلمي، في خلق يطول ذكرهم.

وقد روي: أن عائشة رضي الله عنها أنكرت هذه القراءة، وقالت: معاذ الله لم يكن الرسل لتظن ذلك بربها. ولهذه القراءة تأويلان[٤]:

أحدهما: أَنْ يكون الضمير في قوله: «وظنوا» يعود إلى المرسل إليهم، فإن ذكر «الرسل» يدل عليهم، والضمير في «أنهم» للمرسل إليهم أيضاً، فيكون المعنى: فظن المرسل إليهم أنهم قد كذبوا، أي: أن الرسل قد كذبوهم فيما توعدوهم به من نزول العذاب بهم والنصر عليهم، وهذا تأويل جماعة؛ منهم: سعيد بن جبير، ولقد

=

ابن منصور (٥/ ٤١٢). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٩٦) وعزاه لأبي عبيد وسعيد بن منصور والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه.

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ٨٨). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٩٧) وعزاه لابن جرير.

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٤٥٦)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٦٦)، والكشف (٢/ ١٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٩٦)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٨)، والسبعة في القراءات (ص:٣٥٢).

(٣) انظر البيت في: اللسان، مادة: (خزا)، والإصابة (٥/ ٦٧٩)، وروح المعاني (٢٦/ ١٧٨).

(٤) ذكر لهذه القراءة ثلاث تأويلات.

قال له الضحاك حين سمعه منه: لو رحلتُ في هذه إلى اليمن كان قليلاً[(١)].

التأويل الثاني: كذلك، إلا أَنَّ الضمير في «أنهم» للرسل، على معنى: ظن المرسل إليهم أن الرسل قد لبس عليهم وكذبوا فيما قيل لهم.

الثالث: أن يكون الضمير في قوله: «وظنوا» للرسل، وهو مروي عن ابن عباس[(٢)].

قال في رواية ابن أبي مليكة: كانوا بشراً فضعفوا ويئسوا وظنوا أنهم أُخْلِفوا، ثم تلا قوله عز وجل: ﴿حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾[(٣)] [البقرة:٢١٤].

وهذا التأويل مزلة الأقدام ومدحضة الأفهام، وفيه سر لا يفهمه إلا غوّاصٌ على المعاني، بحّاثٌ عنها، فإنه لا يجوز أن يُظَنَّ بابن عباس أنه أراد بتأويله تطريق الشك الذي هو تغليب أحد الجانبين على الآخر أو تساويهما على رُسُلِ الله المعصومين عن مثل ذلك، بل أراد ما يَرِدُ على القلب ويهْجِسُ[(٤)] فيه من حديث

---

(١) قول الضحاك هذا أخرجه الطبري (١٣/ ٨٤).

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ٨٦) وقال: هذا تأويل، وقول غيره من أهل التأويل أولى عندي بالصواب وخلافه من القول أشبه بصفات الأنبياء والرسل إن جاز أن يرتابوا بوعد الله إياهم ويشكوا في حقيقة خبره مع معاينتهم من حجج الله وأدلته ما لا يعاينه المرسل إليهم، فيعذروا في ذلك أن المرسل إليهم أولى في ذلك منهم بالعذر، وذلك قول إن قاله قائل لا يخفى أمره، وقد ذكر هذا التأويل الذي ذكرناه أخيراً عن ابن عباس لعائشة فأنكرته أشد النكرة فيما ذكر لنا.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ١٢٤)، والطبري (١٣/ ٨٦). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٩٦) وعزاه لابن جرير وابن المنذر والطبراني وأبي الشيخ وابن مردويه.

(٤) الهَجْسُ: ما وقع في خَلَدك، والهاجِسُ: الخاطر (اللسان، مادة: هجس).

النفس وعوارض الوساوس، الذي لا يسلم منه أحد من البشر، فتفهمْ ذلك.

وقرأ مجاهد: كَذَبوا فيما حدثوا به قومهم من النصرة[١]، على ما تأولناه من قول ابن عباس، أو على معنى: أن قومهم إذا لم يروا لموعدهم أثراً قاله لهم إنكم قد كذبتمونا، فيكونون كاذبين عند قومهم، أو ظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والأكثرون: «كُذِّبوا» بالتشديد مع ضم الكاف[٢]، فيكون الظن بمعنى: اليقين.

المعنى: وتيقنوا أن قومهم كذبوهم.

﴿جاءهم نصرنا فَنُنْجِي من نشاء﴾ وقرأ ابن عامر وعاصم: «فَنُجِّيَ» بنون واحدة وتشديد الجيم وفتح الياء، جعلاه فعلاً ماضياً[٣]، واختار هذه القراءة أبو عبيد، ولعله راعى مضي القصة ومطابقة ما عطفه عليه، وهو قوله: ﴿ولا يرد بأسنا﴾، فجاء بالمعطوف والمعطوف عليه على ما لم يسم فاعله.

والمراد بـ«من نشاء»: المؤمنون؛ لأنهم أهل النجاة، ويدل عليه قوله: ﴿ولا يرد

---

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ٨٨). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٩٧) وعزاه لابن جرير.
قال الطبري (١٣/ ٨٩): وهذه القراءة لا أستجيز القراءة بها؛ لإجماع الحجة من قراء الأمصار على خلافها، ولو جازت القراءة بذلك لاحتمل وجهاً من التأويل، وهو أحسن مما تأوله مجاهد، وهو حتى إذا استيأس الرسل من عذاب الله قومها المكذبة بها وظنت الرسل أن قومها قد كذبوا وافتروا على الله بكفرهم بها، ويكون الظن موجهاً حينئذ إلى معنى العلم على ما تأوله الحسن وقتادة.

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٤٥٦)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٦٦)، والكشف (٢/ ١٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٩٦)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٨)، والسبعة في القراءات (ص:٣٥١).

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٤٥٨)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٦٧)، والكشف (٢/ ١٧)، والنشر وإتحاف فضلاء البشر، الموضعان السابقان، والسبعة في القراءات (ص:٣٥٢).

بأسنا عن القوم المجرمين﴾.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لقد كان في قَصصهم﴾ أي: في قصص يعقوب وأولاده. وقيل: في قصص الرسل. ويؤيده قراءة من قرأ: «قِصَصِهم» بكسر القاف، وهي قراءة قتادة وأبي الجوزاء، وقرأتُ بها لأبي عمرو من رواية عبد الوارث عنه[1].

﴿عبرة لأولي الألباب﴾ أي: عِظَة لأصحاب العقول، ودلالة لهم على قدرة الله تعالى وحكمته في تصاريف قضائه وقدره، وبرهان على رسالة محمد ﷺ، حيث قص عليهم قصة يوسف وإخوته على الوجه الذي تشهد له التوراة والكتب القديمة بصحته، مع كونه أُمِّيّاً من أمّة أمّيّة، بعيداً من علماء أهل الكتاب.

﴿ما كان﴾ القصص الذي جاء به ﴿حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه﴾ من الكتب المتقدمة، ﴿وتفصيل كل شيء﴾ يحتاج إليه من أمر الدين ﴿وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ يصدقون بما جاء به محمد ﷺ وجميع ما بعد، لكن عطف على خبر كان.

وقرئ شاذاً: «تصديقُ وتفصيلُ ورحمةُ» بالرفع فيهن، على معنى: هو تصديق[2]. والله تعالى أعلم.

---

(١) زاد المسير (٤/ ٢٩٧).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٣٤٩).

سورة الرعد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهي أربع وأربعون آية في المدني، وثلاث في الكوفي، وهي مكية في قول الأكثرين. واستثنى القائلون بأنها مدنية آيتين وهما: ﴿ولو أن قرآناً ... إلى آخرهما﴾[1].

﴿الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١﴾

قوله تعالى: ﴿المر﴾ قال ابن عباس في رواية أبي الضحى: معناه: أنا [الله][2] أعلم وأرى[3].

وقال في رواية عطاء: أنا الله الملك الرحمن[4].

﴿تلك آيات الكتاب﴾ مفسر في أول يونس.

---

(١) أخرج أبو الشيخ عن قتادة قال: سورة الرعد مدنية، إلا آية قوله: ﴿ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة﴾، وعلى القول بأنها مكية؛ يستثنى قوله: ﴿الله يعلم ...﴾ إلى قوله: ﴿شديد المحال﴾ (الإتقان ١/ ٤٩).

(٢) زيادة من المصادر التالية.

(٣) أخرجه الطبري (١٣/ ٩١). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٩٩) وعزاه لأبي الشيخ.

(٤) تقدم تخريجه في أول سورة يونس.

وقوله: «تلك»: مبتدأ، و «آيات الكتاب»: خبره[١].

وقولـه: ﴿والـذي أنـزل إليـك﴾ يجـوز أن يكـون في موضـع الجـر وصـفاً للكتاب[٢]، وإن كانت الواو دخلت فيه؛ لأن الواو يجوز دخولها في الصفة، تقول: مررتُ بزيد وصاحبك، فيكون الصاحب هو زيـد، [والتقـدير][٣]: تلـك آيـات الكتاب المنزل إليك من ربك.

فعلى هذا: «الحق» مرتفع بإضمار هو، أو يكـون خـبراً بعـد خـبر، أو يكـون «تلك»: مبتدأ، «آيات الكتاب»: نعتاً لـ«تلك».

«والذي أنزل» في موضع رفع عطفاً على «آيات»، أو في موضع جر عطفاً على «الكتاب»، والمراد بالكتاب: السورة، أي: تلك آيات السورة والذي أنزل إليـك، وهو القرآن كله.

فعلى هذا: خبر المبتدأ: «الحق»[٤].

وقال الفراء[٥]: «الذي»: رفع بالاستئناف، خبره: «الحق»، وهذا هو المشهور في التفسير.

ﭐللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِى لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم

---

(١) التبيان (٢/ ٦٠)، والدر المصون (٤/ ٢٢٢)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٣٤٩).

(٢) انظر: المصادر السابقة.

(٣) في الأصل: والتقدر. والصواب ما أثبتناه.

(٤) التبيان (٢/ ٦٠)، والدر المصون (٤/ ٢٢٣)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٣٤٩).

(٥) معاني الفراء (٢/ ٥٧).

بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها﴾ إن جعلت الباء من صلة «ترونها» لم تقف على «عَمَد»، وإن جعلتها من صلة «رَفَعَ» وقفت على «عَمَد».

فعلى الأول هاء الكناية ترجع إلى «عمد» و «ترونها» صفة لها، التقدير: بغير عمد مرأية.

ويعضده قراءة أُبيّ: «تَرَوْنَه»(١)، وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء والضحاك، قال: لها عمد على قاف ولكنكم لا ترون العمد. وهذا قول مجاهد وعكرمة وعلي(٢).

الثاني: «ترونها» كلام مستأنف، استشهاد برؤيتهم لها كذلك، وهاء الكناية ترجع إلى «السموات»، وهذا قول ابن عباس في رواية أبي صالح، وبه قال الحسن

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٣٥٣)، والدر المصون (٤/ ٢٢٤).

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ٩٣-٩٤)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢١٦)، ومجاهد (ص:٣٢٣). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٠٠-٦٠١) وعزاه لابن المنذر عن ابن عباس، ومن طريق آخر عن مجاهد.

وقتادة وجمهور العلماء[١]. وهو الصحيح؛ لأنها لو احتاجت إلى عمد لافتقر العمد إلى دعامة أيضاً وتسلسل إلى ما لا نهاية له.

قال الضحاك: ليس من دونها دعامة، ولا فوقها علاقة[٢].

وقال إياس بن معاوية: السماء مُقبّبة على الأرض مثل القُبّة[٣].

والعَمَد: الأساطين، جمع [عماد][٤].

وقد روي شاذاً: «عُمُد» بضمتين، وهو القياس[٥].

قال أبو عبيدة[٦]: كل كلمة هجاؤها أربعة أحرف والثالث منها ألف أو ياء أو واو، فجميعه مضموم الحروف؛ نحو: رسول ورُسُل، وحمار وحُمُر. غير أنه قد جاءت أسامي استعملوها جميعاً بالحركة والفتحة، نحو: عمود وأديم وإهاب، قالوا: عَمَد وأَدَم وأَهَب.

﴿ثم استوى على العرش﴾ قال الثعلبي[٧]: علا عليه. وقد أسلفتُ القول على هذا في سورة الأعراف.

﴿وسخر الشمس والقمر﴾ ذلَّلَهُما لما يراد منهما ﴿كل يجري لأجل مسمى﴾ إلى وقت معلوم، وهو فناء الدنيا.

---

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ٩٤). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٠١).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ٣).

(٣) أخرجه الطبري (١٣/ ٩٤). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٠١) وعزاه للطبري.

(٤) في الأصل: عامد. وهو خطأ. انظر: اللسان (مادة: عمد).

(٥) زاد المسير (٤/ ٣٠١)، والدر المصون (٤/ ٢٢٣-٢٢٤).

(٦) مجاز القرآن (١/ ٣٢٠).

(٧) تفسير الثعلبي (٥/ ٢٦٩).

وقيل: لوقت معلوم على ما يقتضيه الحساب والمنازل.

﴿يدبّر الأمر﴾ أي: يُصَرِّفُ أمر مملكته بحكمته، ﴿يفصل الآيات﴾ يبين الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته على البعث وغيره ﴿لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾ قال ابن عباس: كي توقنون بالبعث، وتعلمون أنه لا إله غيري[١].

فإن قيل: ما محل الذي رفع من الإعراب؟

قلت: الرفع خبر المبتدأ، أو صفة.

فإن قيل: إذا جعلته صفة، فأين الخبر؟

قلت: «يدبر الأمر»، وقوله: «يفصل الآيات» خبر بعد خبر.

والأول أظهر؛ لقوله: ﴿وهو الذي مدّ الأرض﴾ قال ابن عباس: بسطها على الماء[٢]، ﴿وجعل فيها رواسي وأنهاراً﴾ قال: أوْتَدها بالجبال. والرواسي: الجبال، سمّيت بذلك؛ لثباتها. يقال: رَسَا الشَّيْء يرْسُوا رُسُوّاً؛ إذا ثَبَت[٣].

﴿ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين﴾ ثم تكاثرت بعد ذلك.

قال المفسرون: يعني بالزوجين: الحلو والحامض، والعذب والملح، والأبيض والأسود[٤]. وقد سبق معنى الزوجين.

ومعنى: ﴿يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ تفكّراً يفضي بهم إلى معرفة الله تعالى وقدرته ووحدانيته.

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ٤).

(٢) زاد المسير (٤/ ٣٠٢).

(٣) انظر: اللسان (مادة: رسا).

(٤) زاد المسير (٤/ ٣٠٢).

قوله تعالى: ﴿وفي الأرض قطع متجاورات﴾ أي: بقاع متدانية متقاربة، وهي مع [انتظامها][(١)] في جنس الأرضية، وكونها متجاورة متلاصقة؛ مختلفة الطباع، هذه سبخة لا تنبت، وهذه طيبة صالحة للأشجار، وصلبة إلى جنب رخوة، ما ذاك إلا بقدرة قادر، وحكمة صانع حكيم.

﴿وجنات من أعناب﴾ وقرئ شاذاً: «وجناتٍ» إما بالنصب عطفاً على «زوجين» وإما بالجر عطفاً على «كل الثمرات»[(٢)].

﴿وزرعٍ ونخيلٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص بالرفع، عطفاً على «قِطَعٌ»، وقرأ الباقون بالجر عطفاً على «أعنابٍ»[(٣)]، وكذلك اختلافهم في ﴿صنوان وغير﴾، ومنهم من يقول: «وزرع» مجرور بالمجاورة.

وقرأ أبو رزين وأبو عبد الرحمن السلمي وقتادة: «صُنوان» بضم الصاد، وهي لغةٌ لتميم[(٤)]. والصِّنْوان: جمع صِنْو، ومعنى الصنوان: النخلات يجمعها أصل واحد[(٥)]. ومنه قوله: «عَمُّ الرجلِ صِنْوُ أبيه»[(٦)]، وهذا قول جميع أهل التفسير واللغة.

قال ابن عباس: «صنوان» ما كان من نخلتين أو ثلاث أو أكثر، وأصل واحد،

---

(١) في الأصل: انتضامها.

(٢) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٩).

(٣) الحجة للفارسي (٣/ ٣)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٦٩)، والكشف (٢/ ١٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٩٧)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٩)، والسبعة في القراءات (ص:٣٥٦).

(٤) زاد المسير (٤/ ٣٠٣).

(٥) انظر: اللسان (مادة: صنا).

(٦) أخرجه مسلم (٢/ ٦٧٦ ح٩٨٣).

«وغير صنوان» يريد: المتفرق الذي لا يجمعه أصل واحد[١].

قال الزجاج[٢]: ويجوز في [جمع صنو: أَصْنَاء][٣]، مثل: عِدْل وأعْدَال، وقنو وأقناء، وكذلك صنو، فإذا كثرت فهي الصُّنيُّ والصِّنيِّ.

قال غيره: ولا فرق بين التثنية والجمع إلا في الإعراب، فإن نون التثنية مكسورة أبداً، ونون الجمع فيه منونة تجري بجريان الإعراب، ومنه: قِنْو وقِنْوان.

﴿تُسقى بماء واحد﴾ قرأ ابن عامر وعاصم: «يسقى بماء واحد» بالياء[٤]، أي: يسقى هذا المذكور. وقرأ الباقون بالتاء حملاً على تأنيث الأشياء المذكورة، ألا تراه يقول: ﴿ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾، وقرأ حمزة والكسائي: «ويُفَضِّل» بالياء[٥]، على معنى: ويفضل الله.

وقرأتُ لأبي عمرو من رواية عبد الوارث عنه من طريق الحلبي؛ بالياء وفتح الضاد.

«بعضُها» بالرفع، وقرأ نافع وابن كثير: «في الأكْل» بتسكين الكاف، وقرأ

---

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ٩٩-١٠٠)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٢٠) وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٠٤) وعزاه لابن المنذر.

(٢) معاني الزجاج (٣/ ١٣٨).

(٣) في الأصل: الجمع صنو وأصناء. والتصويب من معاني الزجاج، الموضع السابق.

(٤) الحجة للفارسي (٣/ ٦)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٦٩)، والكشف (٢/ ١٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٩٧)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٩)، والسبعة في القراءات (ص:٣٥٧).

(٥) الحجة للفارسي (٣/ ٦)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٧٠)، والكشف (٢/ ١٩)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٩٧)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٩)، والسبعة في القراءات (ص:٣٥٧).

الباقون بضم الكاف[١].

والمعنى: يفضل بعضها على بعض في الطَّعْم، هذا حلو، وهذا حامض، وهذا بينهما، وفي هذا دلالة على بطلان قول الطَّبائعيين[٢]؛ لأنه لو كان انفعال هذه الأشياء بطبع الهواء والأرض والماء لوجب أن تتفق الاتفاق الموجِب، فلما وقع الافتراق مع اتفاق الموجب دلَّ على مدبّر قادر حكيم.

﴿إن في ذلك لآيات﴾ لعلاماتٍ ودلالات على قدرة الله ووحدانيته وحكمته ﴿لقوم يعقلون﴾ قدّم التفكّر في الآية التي قبل هذه على العقل؛ لأن التفكر في الرتبة الأولى، ثم ختم هذه بالعقل؛ لأنه إذا تفكّر استثمر من تفكّره العقل وطمأنينة النفس وسكونها إلى ما دلَّت عليه الآيات.

۞ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿وإن تعجب فعجب قولهم﴾ أي: إن تعجب من تكذيبهم وعبادتهم الأوثان بعدما رأوا وعلموا من عجائب قدرة الله، فتعجب إنكارهم البعث.

وقيل: وإن تعجب من قولهم في إنكار البعث، فقولهم عجب حقيق بأن تعجب منه؛ لأن من قدر على إيجاد الأشياء العجيبة واختراعها فكيف يعجز عن

(١) النشر لابن الجزري (٢/ ٢١٦)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٩).

(٢) أهل الطبيعة.

إعادتها بعد إبادتها.

وقوله: ﴿أإذا كنا تراباً﴾ وما بعده في محل الرفع بدلاً من «قولهم»، أو في محل النصب بالقول[١].

قرأ ابن عامر: «إذا» بهمزة واحدة على الخبر، الباقون بهمزتين على الاستفهام، وحققهما أهل الكوفة. وليَّن الثانية مع الفصل بألف أبو عمرو وقالون، وبغير فَصْل ابن كثير ووَرْش[٢].

وقرأ نافع والكسائي: ﴿إنا لفي﴾ بهمزة واحدة على الخبر، الباقون بهمزتين، وحققهما ابن عامر وعاصم وحمزة، إلا أن هشاماً يفصل بألف، وليّن الثانية ابن كثير بغير فصل وأبو عمرو مع الفصل[٣]، وكذلك خلفهم في الموضعين من: «سبحان»[٤]، و «قد أفلح»[٥]، و «تنزيل» السجدة[٦]، والثاني من الصافات[٧]؛ ستة مواضع، وما في قصة لوط من الاستفهامين نذكره في موضعه إن شاء الله

(١) التبيان (٢/ ٦١)، والدر المصون (٤/ ٢٢٧).

(٢) الحجة للفارسي (٣/ ٦)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٧٠)، والكشف (٢/ ٢٠)، والنشر لابن الجزري (١/ ٣٧٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٩-٢٧٠)، والسبعة في القراءات (ص:٣٥٧).

(٣) الحجة للفارسي (٣/ ٦)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٧٠-٣٧١)، والكشف (٢/ ٢٠)، والنشر لابن الجزري (١/ ٣٧٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٦٩-٢٧٠)، والسبعة في القراءات (ص:٣٥٧-٣٥٨).

(٤) الإسراء الآيتان (٤٩ و ٩٨).

(٥) المؤمنون الآية (٨٢).

(٦) السجدة الآية (١٠).

(٧) الصافات الآيتان (١٦ و ٥٣).

تعالى.

"إذاً" هاهنا نصب بفعل مضمر، دل عليه قوله: ﴿لفي خلق جديد﴾ على تقدير: أإذا كنا تراباً نبعث، وأضمر نبعث لأن قوله: «لفي خلق جديد» يدل عليه، ولا يجوز أن يعمل ما بعد «إن» فيما قبله، فلهذا لم يجز أن يعمل «جديد» في «إذاً»، ومن جمع بين الاستفهامين فللحرص على البيان وشدة العناية بالكلام، ومن اكتفى بأحد الاستفهامين فقرأ: «أإذا» «إنا»، أو قرأ: «إذا» «أئنا»، فإن فيما بقي دليلاً على النفي.

قوله تعالى: ﴿أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم﴾؛ لأنهم أنكروا البعث بعد بيانه ووضوح برهانه، والأغلال: جمع غُل، وهو طوق تقيد به اليد إلى العنق[1]، بدليل قوله: ﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون * في الحميم﴾ [غافر:٧١-٧٢].

قال الزجاج[2]: وقيل: ﴿أولئك الأغلال في أعناقهم﴾، أي: الأغلال التي هي [الأعمال][3]، وهي مؤدية إلى كون الأغلال في أعناقهم يوم القيامة؛ لأن قولك للرجل: هذا غُلٌّ في عنقك للعمل السيء، معناه: أنه لازم لك وأنت مجازى عليه بالعذاب.

---

(١) انظر: اللسان (مادة: غلل).

(٢) معاني الزجاج (٣/ ١٣٩).

(٣) في الأصل: أغلال . والتصويب من معاني الزجاج، الموضع السابق.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة﴾ أي: بالعقوبة قبل العافية، وهم الذين كانوا يسألون رسول الله ﷺ استعجال العذاب تكذيباً واستهزاء، كقول النضر: ﴿فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ [الأنفال:٣٢].

﴿وقد خلت من قبلهم المثلات﴾ جمع مَثُلَة، مثل: صَدُقَة وصَدُقات.

وقرأتُ على شيخنا أبي البقاء رحمه الله: «المُثُلات» بضم الميم والثاء، وهي قراءة الحسن وقتادة[١]. وهو جمع مُثْلَة، نحو: غُرْفَة وغُرُفات، وعلّتها إتباع الفاء العين، بسكون الثاء مع ضم الميم للتخفيف ومع فتح الميم.

قال ابن عباس وقتادة: هي العقوبات، وما مثل الله تعالى بالمكذبين قبلهم[٢].

قال ابن الأنباري[٣]: المَثُلَة العقوبة التي تُبقي في المعاقب شَيْناً[٤] بتغيير بعض خَلْقه، من قولهم: مَثَّلَ فلان بفلان؛ إذا شان خَلْقَه بقطع أنفه أو أذنه[٥].

وقال الزمخشري[٦]: المَثُلات: عقوبات أمثالهم من المكذبين.

---

(١) زاد المسير (٤/ ٣٠٥).

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ١٠٥) عن قتادة. وانظر: الوسيط (٣/ ٦)، وزاد المسير (٤/ ٣٠٥)، والدر المنثور (٤/ ٦٠٧).

(٣) انظر: الوسيط (٣/ ٦)، وزاد المسير (٤/ ٣٠٦).

(٤) الشَّيْن: العيب (اللسان، مادة: شين).

(٥) انظر: اللسان (مادة: مثل).

(٦) الكشاف (٢/ ٤٨٤).

وقال مجاهد وأبو عبيدة[١]: المَثُلات: الأمثال التي ضربها الله تعالى لهم.

﴿وإن ربك لشديد العقاب﴾ للمُصرّين على الشرك.

ويروى أن النبي ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «لولا عفو الله تعالى وتجاوزه ما هنأ أحد العيش، ولولا وعيد الله تعالى وعقابه لاتّكل كل أحد»[٢].

وقوله: ﴿على ظلمهم﴾ في محل الحال[٣].

وقال الزمخشري[٤]: يريد بالمغفرة: الستر والإمهال.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿ويقول الذين كفروا لولا﴾ أي: هَلاّ ﴿أنزل عليه آية من ربه﴾ خارقة، كعصا موسى ويده، وناقة صالح، وإحياء الموتى.

﴿إنما أنت منذر﴾ رسولٌ مخوفٌ من عذاب الله الكفرة والفجرة، وليست الآيات إليك، ولا لهم أن يقترحوا عليك.

﴿ولكل قوم هاد﴾ يهديهم إليه بما يجري من المعجِز على يديه. هذا معنى قول

---

(١) مجاز القرآن (١/ ٣٢٣). وأخرجه ابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٢٣). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٠٦)، والسيوطي في الدر (٤/ ٦٠٧) وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٢٤) عن سعيد بن المسيب. وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٠٧) وعزاه لابن جرير عن ابن عباس. ولم أقف عليه عند ابن جرير.

(٣) التبيان (٢/ ٦١)، والدر المصون (٤/ ٢٢٩).

(٤) الكشاف (٢/ ٤٨٤).

ابن عباس وجمهور المفسرين[١].

وروي عنه: أن الهادي هو الله تعالى[٢].

والمعنى: إنما أنت منذر لا تُكَلَّفُ سوى الإنذار، ولكل قوم هاد قادر على هدايته وتنوير قلوبهم، وهو الله تعالى، فهو يهدي من يشاء منهم. وهذا معنى قول سعيد بن جبير وعطية[٣].

وقال الثعلبي[٤]: وروى عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: ((لما نزلت هذه الآية وضع رسول الله ﷺ يده على صدره، فقال: أنا المنذر، وأومأ بيده إلى منكب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال: أنت الهادي يا علي، يهتدي بك المهتدون من بعدي))[٥].

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾

(١) أخرج نحوه الطبري (١٣/ ١٠٧-١٠٨)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٢٥) عن مجاهد قال: ﴿ولكل قوم هاد﴾: نبي، ومن طريق آخر أخرجه الطبري عن قتادة، قال: نبي يدعوهم إلى الله. وذكر نحوه السيوطي في الدر (٤/ ٦٠٧) وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر وأبي الشيخ عن مجاهد، ومن طريق آخر عن قتادة.

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ١٠٧)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٢٥). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٠٧) وعزاه لابن المنذر.

(٣) انظر: المصادر السابقة.

(٤) تفسير الثعلبي (٥/ ٢٧٢).

(٥) أخرجه الطبري (١٣/ ١٠٨).

قوله تعالى: ﴿يعلم ما تحمل كل أنثى﴾ كلام مستأنف. ويجوز أن يكون مرتبطاً بما قبله، على معنى: ولكل قوم هاد، فسَّره فقال: ﴿الله﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿يعلم ما تحمل كل أنثى﴾ من علقة أو مضغة، ذكر أو أنثى، تام أو ناقص، حسن أو قبيح، إلى غير ذلك من أحوال الحمل.

﴿وما تغيض الأرحام﴾ تقول: غَاضَ الماء وغِضْتُه أنا[1]، ومنه: ﴿وغيض الماء﴾ [هود:٤٤] ولا ثالث لهما في القرآن.

فعلى هذا: يجوز أن يكون الفعل متعدياً.

والمعنى: وما تغيضه الأرحام، أي: تنقصه، ﴿وما تزداد﴾ـهُ من عدد الولد، فإن الأرحام تشتمل على واحد، وتشتمل على اثنين وثلاثة وأربعة.

قال الزمخشري[2]: روي أن شريكاً كان رابع أربعة في بطن أمه.

قلت: وقد رأيت بالموصل شاباً تام الخلقة رابع أربعة في بطن أمه، وكان أبوه رجلاً مشهوراً في الموصل بعلم الأدب [يقال][3] له: عمر العنسيفي، رأيته أيضاً ولم أجالسه.

وذكر الماوردي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب رحمه الله في فرائض كتابه[4] قال: أخبرني رجلٌ وَرَدَ عَلَيَّ من اليمن طالباً للعلم -وكان من أهل الدين والفضل-: أن امرأة باليمن وضعتْ حَمْلاً كالكرش، فظُنَّ أن لا ولد فيه، فألقي

---

(١) انظر: اللسان (مادة: غيض).

(٢) الكشاف (٢/ ٤٨٥).

(٣) في الأصل: يقا. والصواب ما أثبتناه.

(٤) الحاوي الكبير للماوردي (٨/ ٤٧٢-٤٧٣).

على قارعة الطريق، فلما طلعت عليه الشمس وحمي بها تحرّك، فأُخذ وشُقَّ، فخرج منه سبعة أولاد ذكور، عاشوا جميعاً، وكانوا خَلْقاً سوياً، إلا أنه كان في أعضادهم قِصَر. قال: وصارعني رجل منهم فصرعني، فكنت أُعَيَّر فيُقال لي: صرعك سُبُعُ رجل.

ومنه جسد الولد، فإنه يكون تاماً ومخدجاً[(١)] وزائداً.

ولقد شاهدت برأس عين[(٢)] وهي مولدي [ومنشئي][(٣)] جارية ولدتها يهودية في سنة تسع عشرة وستمائة، ولها وجهان في رأس واحد، وأربعة أيْدٍ، وأربعة أرجُل، وأربعة آذان، وردفان، وفرجان، كأنهما جاريتان ألصق ظهر إحداهما بظهر الأخرى.

وكذا زمن الحمل ينقص عن تسعة أشهر، فإن عبد الملك بن مروان ولد لستة أشهر.

ويزداد إلى أن يبلغ سنتين في قول أبي حنيفة، وأربعاً في قول الشافعي. وعن الإمام أحمد رحمه الله كالمذهبين.

---

(١) الخِداج: النقصان، وأصل ذلك من خِداج الناقة إذا ولدت ولداً ناقص الخَلْق أو لغير تمام (اللسان، مادة: خدج).

(٢) رأس عين: مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودنيسر، بينها وبين نصيبين خمسة عشر فرسخاً، وقريب من ذلك بينها وبين حران، وهي إلى دنيسر أقرب، بينهما نحو عشرة فراسخ، وفيها عيون كثيرة عجيبة تجتمع كلها في موضع فتصير نهر الخابور (معجم البلدان ٣/ ١٣-١٤).

(٣) في الأصل: منشئي. والصواب ما أثبتناه.

قال الضحاك: ولدتُ لسنتين وقد نبتت ثناياي[(١)].

وقال حماد بن سلمة: إنما سمي هرم بن حيان هرماً؛ لأنه بقي في بطن أمه أربع سنين[(٢)]، ويقال: إن أم مالك بن أنس حملت به ثلاث سنين[(٣)].

وكذلك الدم، فإن الأرحام تغيضه فيقِلّ، وتزداد فيكثُر.

ويجوز أن يراد غيوض ما في الأرحام وزيادته، فأسند الفعل إلى الأرحام، وهي لما اشتملت عليه، فيكون الفعل لازماً.

ويجوز أن [تكون «ما»][(٤)] مصدرية، على معنى: يعلم حملها وغيضها وازديادها[(٥)].

﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾ أي: بقدْرٍ وحدٍّ لا يجوزه.

قال ابن عباس: عَلِمَ كُلَّ شيء فقدَّره تقديراً، مما يكون قبل أن يكون، وكل ما هو كائن إلى يوم القيامة[(٦)].

﴿عالم الغيب والشهادة﴾ مفسرٌ في الأنعام[(٧)]. ﴿الكبير﴾ العظيم الشأن. وقيل: الذي كبر عن مشابهة المخلوقين. ﴿المتعال﴾ المستعلي على كل شيء بعظمته وقدرته.

---

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ١١١)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٢٦). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٠٩).

(٢) البغوي (٣/ ٨)، والقرطبي (٩/ ٢٨٨).

(٣) انظر: القرطبي (٩/ ٢٨٨).

(٤) في الأصل: يكون الما. والمثبت من الدر المصون (٤/ ٢٢٩). وانظر: البحر (٥/ ٣٦٢).

(٥) الدر المصون (٤/ ٢٢٩).

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ٧)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٠٨).

(٧) عند آية رقم: ٦.

وقال الحسن: المتعال عما يقوله المشركون[١].

قرأ ابن كثير: «المتعالي» بياء في الحالين على الأصل، وحذفها الباقون على اختلاف بينهم في الوصل والوقف[٢].

قال سيبويه: من العرب من يحذف هذا في الوقف، شَبَّهوه بما ليس فيه ألف ولام، إذ كانت تذهب الياء في الوصل مع التنوين لو لم تكن ألف ولام، ومن حذفها في الوصل فلمراعاة الفواصل.

﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿سواء منكم﴾ أي: مستوٍ منكم في علم الله ﴿من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مُسْتَخْفٍ بالليل﴾ أي: مستتر مُتَوَارٍ، ﴿وسارب بالنهار﴾ ظاهر باد. يقال: سَرِبت الإبلُ تَسْرُبُ سُرُوباً إذا مضت في الأرض ظاهرة[٣]. ومنه يقال: اذْهَب فلا أَنْدَهُ سَرْبَكَ، أي: لا [أردُّ][٤] إبلك [حتى][٥] تذهب حيث شاءت.

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ٧)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٠٩).

(٢) الحجة للفارسي (٣/ ٧)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٧٢)، والكشف (٢/ ٢٤)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٧٠)، والسبعة في القراءات (ص:٣٥٨).

(٣) انظر: اللسان (مادة: سرب).

(٤) في الأصل: أرود. والتصويب من اللسان، الموضع السابق.

(٥) زيادة من اللسان (مادة: سرب).

ويقولون في الطلاق: اذهَبي فلا أَنْدَهُ سَرْبَكِ[١].

قال الزجاج[٢]: معنى الآية: الجاهرُ بنطْقِه، والمضمِر في نفسه، والظاهر في الطرقات، والمستخفي في الظلمات، علم الله تعالى فيهم جميعاً سواء.

[والضمير][٣] في: ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه﴾ يعود إلى «مِنْ» كأنه قيل: لمنْ أَسَرَّ وجَهَرَ معقبات من الملائكة يتعاقبون لحفظه.

قال أكثر المفسرين: هم الحَفَظَة؛ اثنان بالنهار واثنان بالليل، إذا مضى فريق خلفه فريق[٤].

﴿يحفظونه من أمر الله﴾ أي: بأمْر الله، وكذلك هي في قراءة علي وابن عباس[٥].

وقيل: المعنى: يحفظونه من أجل أمر الله لهم بذلك.

وقيل: المعنى: له معقبات من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، وهو قول أبي صالح والفراء[٦].

فعلى هذا القول: «من أمر الله» في موضع رفع؛ لأنها صفة المرفوع الذي هو «معقبات».

---

(١) انظر: اللسان (مادة: سرب).

(٢) معاني الزجاج (٣/ ١٤٢).

(٣) في الأصل: والطمير. والصواب ما أثبتناه.

(٤) أخرجه الطبري (١٣/ ١١٥) وما بعدها، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٣٠). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣١٠-٣١١)، والسيوطي في الدر (٤/ ٦١٢) وما بعدها.

(٥) البحر (٥/ ٣٦٤)، والدر المصون (٤/ ٢٣٣).

(٦) معاني القرآن للفراء (٢/ ٦٠).

وقال مجاهد والنخعي: يحفظونه من الجن[١].

فعلى هذا: «من أمر الله» في موضع نصب.

قال كعب الأحبار: لولا أن الله تعالى وكّل بكم ملائكة يذبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم إذاً لتخطفتكم الجن[٢].

وقال مجاهد: ما من عبد إلا وملك موكل به يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فإذا أراده شيء قال: وراءك وراءك إلا شيئاً قد قضي له أن يصيبه[٣].

وقال أبو مجلز: جاء رجل من مراد إلى علي عليه السلام فقال: احترس فإن ناساً من مراد يريدون قتلك. فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يُقدّر، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، وإن الأجل جنة حصينة[٤].

قال ابن جريج: المعنى: يحفظون عليه الحسنات والسيئات[٥].

ويروى عن ابن عباس: أن المعنى: للملك من ملوك الدنيا معقبات[٦]، أي: حُرَّاس يتعاقبون حراسته وحفظه من أمر الله، ولا يقدرون على ذلك إلا بإرادته.

---

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ١١٩). وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٣٢). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦١٣) وعزاه لأبي الشيخ.

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ١١٩). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦١٤) وعزاه للطبري.

(٣) انظر التخريج السابق.

(٤) أخرجه الطبري (١٣/ ١١٩). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦١٤) وعزاه للطبري.

(٥) أخرجه الطبري (١٣/ ١١٩). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣١٢).

(٦) أخرجه الطبري (١٣/ ١١٦-١١٧)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٢٩-٢٢٣٠). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦١٣) وعزاه لابن المنذر وأبي الشيخ.

ويروى عن ابن عباس: أن الضمير في قوله: «معقبات» لرسول الله ﷺ[(١)].

قال عبدالرحمن بن زيد: نزلت هذه الآية في عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة[(٢)].

قال الأستاذ أبو إسحاق: وكان من قصتهما على ما رواه السائب، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: «أقبل عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة العامريان يريدان رسول الله ﷺ، فقال عامر: يا محمد! ما لي إن أسلمت؟ قال: لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم. قال: تجعل لي الأمر بعدك؟ قال: ليس ذلك لي، إنما ذلك إلى الله تعالى يجعله حيث شاء. قال: أفتجعلني على الوبر وأنت على المدر؟ قال: لا. قال: فماذا تجعل لي؟ قال: أجعل لك أعنّة الخيل تغزو عليها. قال: أو ليس ذلك إليّ اليوم؟ ثم قال: قم يا محمد معي أكلمك، فقام معه رسول الله ﷺ، وكان أومأ إلى أربد إذا رأيتني أكلمه فدر من خلفه فاضربه بالسيف، فجعل يخاصم رسول الله ﷺ ويراجعه، فدار أربد من خلف رسول الله ﷺ ليضربه بالسيف فاخترط من سيفه شبراً، ثم منعه الله تعالى فلم يقدر على سَلِّه، وجعل عامر يومئ إليه، فالتفت رسول الله ﷺ فرأى أربد وما يصنع بسيفه، فقال: اللهم اكفنيهما بما شئت، فأرسل الله على أربد صاعقة فأحرقته، وولى عامر هارباً يقول: والله يا محمد لأملأنها عليك خيلاً جرداً وفتياناً مرداً. فقال رسول الله ﷺ: يمنعك الله وأبناء قيلة

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٢٩). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣١٠)، والسيوطي في الدر (٤/ ٦١٢) وعزاه لابن المنذر والطبراني وأبي الشيخ وابن مردويه.

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ١١٩) وما بعدها، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٢٩). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣١١).

-يعني: الأوس والخزرج- فنزل عامر بيت امرأة سلُولية، فلما أصبح ضم عليه سلاحه وقد تغيّر لونه، فجعل يركض في الصحراء يقول: أبرز يا ملك الموت، واللات والعزى إن أصحرا لي محمد وصاحبه -يعني: ملك الموت- لأنفذتهما برمحي، فبعث الله تعالى إليه ملكاً فلَطَمَه بجناحه فأرداهُ في التراب، وخرجت على ركبته غُدَّة عظيمة، فعاد إلى بيت السلولية وهو يقول: أغُدَّة كغُدَّةِ البعير[1] وموتاً في بيت السلولية، ثم ركب فرسه وأجراه حتى مات على ظهره»[2].

فقتل الله تعالى عامراً وأربد بدعوة النبي ﷺ، وفي ذلك يقول لبيد بن ربيعة في أخيه أربد:

أيا أربد الخير الكريم جدوده ... أفردتني أمشي بقرن أعضب
إن الرزية [لا رزية][3] مثلها ... فقدان كل أخ كضوء الكوكب[4]

وفيه يقول:

أخشى على أربد الحُتُوفَ ولا ... أرهَبُ نوءَ السِّماك والأسد
فجَّعَنِي الرعدُ والصواعقُ بالفَا ... رس يوم الكريهة النَّجِد[5]

---

(١) الغدة: طاعون يأخذ في المَراقّ، أي: في أسفل البطن، وهو طاعون الإبل (اللسان، مادة: غدد).

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ١٢٦) عن ابن جريج، وأخرجه أيضاً (١٣/ ١١٩-١٢٠) عن ابن زيد، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٣٠-٢٢٣١) عن ابن زيد. وذكره الهيثمي في مجمعه (٧/ ٤١-٤٢).

(٣) زيادة من تفسير القرطبي (٩/ ٢٩٨).

(٤) انظر البيتين في: القرطبي (٩/ ٢٩٨).

(٥) انظر البيتين في: الطبري (١٣/ ١٢٠، ١٢٦)، والقرطبي (٩/ ٢٩٧)، والبحر (٥/ ٣٦٧)، وروح المعاني (١٣/ ١٢١).

ويقال: كان أربد أخا ربيعة لأمه فقط.

قوله: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ أي: لا يسلبهم عوائده الجميلة ونعمه الجزيلة، حتى يغيروا ما بأنفسهم من طاعته ويوغلوا في العمل بمعصيته. وقد سبق تفسيره في الأنفال.

﴿وإذا أراد الله بقوم سوءاً﴾ أي: عذاباً أو بلاءً، ﴿فلا مردّ له﴾ أي: لا يدفع عنه معقبات ولا غيرها، ﴿وما لهم من دونه من وال﴾ يلي أمورهم فيدفع عنهم السوء.

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾ قال الزمخشري[(١)]: «خوفاً وطمعاً» لا يصح أن يكونا مفعولاً لهما؛ لأنهما ليسا بفعل فاعل الفعل المعلل إلا على تقدير حذف المضاف، أي: إرادة خوف وطمع، أو على معنى إخافة وإطماعاً. ويجوز أن يكونا منتصبين على الحال من «البرق»، كأنه في نفسه خوف وطمع. أو على معنى: ذا خوف وذا طمع. أو من المخاطبين، أي: خائفين وطامعين.

ومعنى الخوف والطمع: أن وقوع الصواعق يخاف عند لمع البرق، ويطمع في الغيث. قال أبو الطيب[(٢)]:

---

(١) الكشاف (٢/ ٤٨٧-٤٨٨).

(٢) انظر: ديوانه (ص:٦٩)، والعمدة (١/ ٣٨)، والبحر (٥/ ٣٦٦)، والكشاف (٢/ ٤٨٨)، والدر المصون (٤/ ٣٣٤).

فتًى كالسحاب الجوْنِ يُخشى ويُرتجى ... يُرجَّى الحيا منها وتُخشى الصَّواعق

قال ابن عباس وقتادة: خوفاً للمسافر وطمعاً للمقيم[١].

وقيل: «خوفاً» لمن يتأذى بالمطر؛ كالمسافر، ومن له بيت يكف، ومن آوى تمره أو زبيبه إلى جرينه[٢] ومن لا نفع له فيه، إذ ليس كل البقاع ولا في كل وقت تحتاج إليه وأمثال ذلك، فـ«طمعاً»: يطمع فيه من له نفع.

والمعنى الأول الذي حكيته عن الزمخشري هو معنى ما رواه عطاء عن ابن عباس، وهو قول الحسن[٣].

﴿وينشئ السحاب الثقال﴾ قال الفراء[٤]: السحاب وإن كان لفظه واحداً فإنه جمع، واحدته: سحابة، جعل نعته على الجمع، كما قال: ﴿متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان﴾ [الرحمن:٧٦]، ولم يقل: أخضرٍ ولا حسنٍ.

وقال الزمخشري[٥]: السحاب اسم الجنس، والواحد سحابة. والثقال: جمع ثقيلة؛ لأنك تقول: سَحابة ثقيلة، وسحاب ثقال، كما تقول: امرأة كريمة، ونساء كِرَام، وهي الثقال بالماء.

﴿ويسبح الرعد بحمده﴾ أي: ينزّه الله تعالى بالثناء عليه. وقد سبق ذكر الرعد في أوائل البقرة، وأنه صوت ملك يزْجُر السحاب.

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ١٢٣، ٢١/ ٣٢). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦١٨) وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) الجَرين: موضع التمر الذي يُجفّف فيه، والجمع أجْرِنة وجُرُن (اللسان، مادة: جرن).

(٣) زاد المسير (٤/ ٣١٣).

(٤) معاني الفراء (٢/ ٦٠).

(٥) الكشاف (٢/ ٤٨٨).

وقد روي عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «أنه ملك موكّل بالسحاب»[(١)].

وروى الضحاك عن ابن عباس: أن الرعد مَلَكٌ يسوق السحاب، وإن بخر الماء لفي نقرة إبهامه، وأنه يسبح الله تعالى، فإذا سبح الرعد لا يبق مَلَكٌ في السماء إلا رفع صوته بالتسبيح، فعندها ينزل المطر[(٢)].

فإن كان مَلَكاً فلا إشكال في إضافة التسبيح إليه.

قال الزجاج[(٣)]: جائز أن يكون صوت الرعد تسبيحه.

وإن كان الرعد اسماً لصوت المَلَك، فقال ابن الأنباري[(٤)]: إخباره عن الصوت بالتسبيح مجاز، كما يقول القائل: قد غَمَّنِي كلامك.

وإن كان الرعد صوت اصطكاك أجرام السحاب أو الريح التي تخنق -كما سبق في البقرة-؛ فقال الزمخشري[(٥)]: المعنى: ويسبح سامعوا الرعد من العباد الراجين المطر حامدين له، أي: يضجّون بسبحان الله والحمد لله.

والأول هو التفسير الصحيح الذي أطبق عليه أهل العلم بالمنقولات.

وكان ابن عباس رضي الله عنهما إذا سمع صوت الرعد قال: سبحان الذي سبّحت له[(٦)].

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير (٥/ ٢٩٤ ح٣١١٧) وقال: حسن غريب.

(٢) القرطبي (٩/ ٢٩٦)، والبغوي (٣/ ١١).

(٣) معاني الزجاج (٣/ ١٤٣).

(٤) انظر: زاد المسير (٤/ ٣١٤).

(٥) الكشاف (٢/ ٤٨٨).

(٦) أخرجه الطبري (١/ ١٥١، ١٣/ ١٢٤). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٢١) وعزاه للبخاري في الأدب المفرد وابن أبي الدنيا في المطر.

ويروى عن النبي ﷺ «أنه كان إذا سمع صوت الرعد قال: سبحان مَن يسبح الرعد بحمده»[١].

وقال ابن عباس: من سمع صوت الرعد فقال: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير، فإن أصابته صاعقة فعليّ ديته[٢].

ومعنى قوله: ﴿والملائكة من خيفته﴾ من هيبة الله تعالى وعظمته. قال ابن عباس: يخافون الله تعالى لا يعرف أحدهم من على يمينه ومن على يساره، ولا يشغله عن عبادة الله تعالى شيء[٣].

وذكر الماوردي[٤]: أن الضمير في: «خيفته» يرجع إلى الرعد.

وليس بشيء.

﴿ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء﴾ كما أصاب أربد بن ربيعة.

قال ابن عباس وأكثر المفسرين: وفيه نزلت هذه الآية[٥].

---

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ١٢٤) عن أبي هريرة. وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٢٣) وعزاه لابن مردويه.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٥/ ٤٣٢). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٢٤) وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ١٠)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣١٤).

(٤) تفسير الماوردي (٣/ ١٠١).

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ١٠)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣١٤). وقد سبق قبل قليل قصة نزولها.

وقال علي عليه السلام: نزلت في رجل جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: حدثني يا محمد عن إلاهك، أياقوت هو أو ذهب؟ فنزلت عليه صاعقة فأحرقته[١].

قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: الصواعق تصيب المسلم وغير المسلم، ولا تصيب ذاكراً[٢].

وفي حديث ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «إذا سمعتم الرعد فـاذكروا الله فإنه لا يصيب ذاكراً»[٣].

﴿وهم يجادلون في الله﴾ يعني: الكفار يجادلون في الله شكّاً في وحدانيته وجهلاً بعظمته.

﴿وهو شديد المحال﴾ قال علي عليه السلام: شديد الأخذ[٤].

وقال ابن عباس: شديد العقوبة[٥].

قال أبو عبيدة[٦]: شديد العقوبة والمكر والنكال.

وأنشد الأعشى:

---

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ١٢٥). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٢٦) وعزاه للطبري.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٥/ ٤٣٠).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ١٦٤). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٢٤) وعزاه لابن مردويه وأبي الشيخ.

(٤) أخرجه الطبري (١٣/ ١٢٧). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٢٧) وعزاه للطبري.

(٥) زاد المسير (٤/ ٣١٦).

(٦) مجاز القرآن (١/ ٣٢٥).

فَرْعُ نبْع يهتزُّ في غُصن المجـ ـد غزيرُ النَّدَى شديدُ المِحَال
إنْ يُعاقبْ يكن غَراماً وإن يُعطِ جزيلاً فإنه لا يُبالي[١]

وقال مجاهد: شديد القوة[٢].

قال الزجاج[٣]: يقال: ماحَلْتُه مِحَالاً؛ إذا قاويتُه، حتى يتبين [له][٤] أيكما أشد[٥]، والمَحْل: الشدة.

وقرأ الأعرج: «المَحال» بفتح الميم[٦].

قال ابن جني[٧]: هو مَفْعَل من الحِيلة.

قال أبو زيد: يقال: ما له حيلة ولا محالة، فيكون تقديره: شديد الحيلة عليهم، تفسيره قوله: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ [الأعراف:١٨٢]، وقوله تعالى: ﴿ومكروا ومكر الله﴾ [آل عمران:٥٤].

---

(١) انظر البيت الأول في: ديوانه (ص:١٤١) واللسان، (مادة: محل)، والدر المصون (٤/ ٢٣٤)، والطبري (١٣/ ١٢٧)، والبحر (٥/ ٣٥٢)، والبيت الثاني في: الطبري (٢٧/ ٢٠٠)، وروح المعاني (٢٧/ ١٤٩)، واللسان (مادة: غرم). وانظر: البيتين في : زاد المسير (٤/ ٣١٦).

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ١٢٧). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٢٧) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن ابن عباس.

(٣) معاني الزجاج (٣/ ١٤٣).

(٤) زيادة من معاني الزجاج، الموضع السابق.

(٥) انظر: اللسان (مادة: محل).

(٦) البحر (٥/ ٣٦٧)، والدر المصون (٤/ ٢٣٥).

(٧) المحتسب (١/ ٣٥٦).

﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ١٤﴾

قوله تعالى: ﴿له دعوة الحق﴾ قال علي عليه السلام: له كلمة التوحيد، وهي لا إله إلا الله[١].

قال الزمخشري[٢]: أضاف الدعوة إلى الحق الذي هو نقيض الباطل، كما تضاف الكلمة إليه في قولك: كلمة الحق، للدلالة على أن الدعوة ملابسة للحق مختصة به، وأنها بمعزل من الباطل.

وقال الحسن: الحق هو الله تعالى، وكل دعاء إليه دعوة الحق[٣].

﴿والذين يدعون من دونه﴾ أي: والأصنام الذين يدعونهم من دون الله ﴿لا يستجيبون لهم بشيء﴾ من طلباتهم ﴿إلا كباسط كفّيه إلى الماء﴾ أي: إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه، أي: كاستجابة الماء من يبسط كفيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه، والماء لا يستجيب ولا يعقل ولا يشعر بشيء، كذلك آلهتهم جماد لا تحسّ بدعائهم ولا تشعر بعبادتهم.

قال علي عليه السلام وعطاء: هو الرجل العطشان الذي يجلس على شفير بئر

---

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ١٢٨). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٢٨) وعزاه لأبي الشيخ.

(٢) الكشاف (٢/ ٤٩٠).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ١١)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣١٧).

يَمُدُّ يديه إلى البئر فلا تبلغ قعر البئر، والماء لا يرتفع إلى يده[(١)].

وقيل: شبّهوا في عدم نفعهم بدعائهم آلهتهم بشخص يريد أن يقبض الماء ناشراً أصابعه ليوصله إلى فيه.

والعرب تقول لمن خاب مسعاه ولم ينل ما رجاه: هو كالقابض على الماء، وأنشدوا:

فأصبحتُ مما كان بيني وبينَها   من الوُدِّ مثلَ القابضِ الماءَ باليدِ[(٢)]

وهذا قول أبي عبيدة وابن قتيبة[(٣)].

فإن قيل: اللام من «ليبلغ» بما يتعلق؟

قلت: بـ«باسط كفيه».

﴿وما هو ببالغه﴾ أي: ما الماء ببالغ فاه.

وقيل: وما فوه ببالغ الماء.

فإن قيل: هل يجوز أن يكون التقدير: وما فوهُ ببالغِه الماء، فيكون فاعل «بالغِه» ضمير «الماء»؟

قلت: لا يجوز؛ لأن اسم الفاعل إذا جرى على غير من هو له ظهر فيه ما يتضمنه من الضمير. فإذا قلت: «وما هو ببالغه» ويكون «هو» ضمير «فيه»،

---

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ١٢٩) عن علي رضي الله عنه. وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٢٨-٦٢٩) وعزاه للطبري. ومن طريق آخر عن عطاء.

(٢) البيت لضابئ بن الحارث البرجمي. وانظر البيت في: البحر (٥/ ٣٦٨)، وروح المعاني (١٣/ ١٢٥)، والقرطبي (٩/ ٣٠٠)، والطبري (١٣/ ١٢٩).

(٣) مجاز القرآن (١/ ٣٢٧)، وتفسير غريب القرآن (ص:٢٢٦).

ويكون «ببالغه»، أي: ببالغ إياه الماء، كان حق الكلام وما هو ببالغه هو، فيظهر «هو» كما ظهر «أنتَ» في قولك: يا ذا الجارية الواطئها أنتَ، بجر الواطئ، ولا يجوز: يا ذا الجارية الواطئها، بالجر بغير إظهار أنت.

قوله تعالى: ﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ أي: في ضياع؛ لأنهم إن دعوا الله لم يجبهم؛ لهوانهم عليه، وإن دعوا أصنامهم لم يستطع إجابتهم، فدعاؤهم لا يزال ضائعاً.

قال ابن عباس: أصواتهم محجوبة عن الله[1].

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ۩ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً﴾ يعني: الملائكة والمؤمنين، ﴿وكرهاً﴾ يعني: من أكره على السجود من الكافرين والمنافقين. هذا قول المفسرين[2].

وأما أهل المعاني فإنهم يقولون: سجود الكاره لله: خضوعه وانقياده لما يريده الله تعالى به من عافية ومرض، وغنى وفقر، وعز وذل، وقوة وضعف، إلى غير ذلك، قَبِلَ ذلك أم أبى[3].

---

(١) زاد المسير (٤/ ٣١٨).

(٢) أخرج نحوه الطبري (١٣/ ١٣١) عن قتادة. وانظر: الوسيط (٣/ ١١). وذكر نحوه السيوطي في الدر (٤/ ٦٣٠) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن قتادة.

(٣) الوسيط (٣/ ١١)، وزاد المسير (٤/ ٣١٩).

﴿وظلالهم﴾ أي: وتسجد ظلالهم لله.

قال مجاهد: ظل المؤمن يسجد طوعاً وهو طائع، وظل الكافر يسجد وهو كاره[١].

وقال أهل المعاني: سجودها: تمايلها من جانب إلى جانب، وانقيادها للتسخير بالطُّول والقِصَر[٢].

قال اللغويون: الظل: ما كان بالغدوات قبل انقباض الشمس، والفيء ما كان بعد انصرافها. سمي فيئاً؛ لرجوعه إلى الحال التي كان عليها[٣].

وأنشدوا لحُمَيد بن ثور:

فلا الظلُّ من برْدِ الضُّحَى تستطيعُه ... ولا الفيءُ من بَرْد العشيِّ تذُوق[٤]

وقال آخر:

أيا أثلات القاع من بطْن تُوضِح ... حَنيني إلى أظلالِكُن طويـــل[٥]

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ١٣١). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٣٠) وعزاه لابن المنذر.

(٢) الوسيط (٣/ ١١)، وزاد المسير (٤/ ٣١٩).

(٣) انظر: اللسان (مادة: ظلل، فيأ).

(٤) البيت لحميد بن ثور يصف سَرْحة (دوحة) وكنى بها عن امرأة. وانظر البيت في: اللسان (مادة: فيأ)، والقرطبي (١٣/ ٣٧)، والطبري (٣/ ٢٦٢)، وزاد المسير (٤/ ٣١٩)، وروح المعاني (١٤/ ١٥٣).

(٥) البيت ليحيى بن طالب الحنفي. وانظر البيت في: زاد المسير (٤/ ٣١٩)، ومعجم البلدان (٢/ ٥٩).

وأثلات: جمع، واحدته: أثلة، والأَثْل: شجر يشبه الطَّرْفاء، إلا إنه أعظم منه وأكرم وأجود عوداً تسوّى به الأقداح الصُّفْر الجياد، ومنه اتُّخِذَ منبر سيدنا محمد ﷺ (اللسان، مادة: أثل).

وتوضح: من قرى قرقرى باليمامة، وهي زروع ليس لها نخل (معجم البلدان ٢/ ٥٩).

وقد سبق ذكر الغدو والآصال في آخر الأعراف.

وقرأ أبو مجلز: «والإيصال» جعله مصدر آصلْنا[١]، أي: دخلنا في وقت الأصيل ونحن مؤْصِلُون[٢].

قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾

ثم إن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه بمجادلة الكافر، وعلّمه كيفية مجادلتهم فقال: ﴿قل من رب السموات والأرض﴾ كانوا لا ينكرون أنه الله تعالى، بدليل قوله في موضع آخر: ﴿قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون الله﴾ [المؤمنون:٨٦-٨٧].

ولما كان الجواب متفقاً عليه أمر نبيه بالمبادرة إليه فقال: ﴿قل الله﴾.

وقيل: هو حكاية لقولهم تقريراً لهم عليه واستيثاقاً منهم.

ويجوز أن يكون المعنى: قل لهم من رب السموات والأرض، فإن توقفوا عن الجواب خيفة من مضايق الإلزام، فلقّنهم مقرراً لهم بما لا يجدون بُداً من الاعتراف به، وقل لهم: الله رب السموات والأرض، فإذا قالوا ذلك فقل لهم: ﴿أفاتخذتم من دونه أولياء﴾ يعني: الأصنام توليتموها وعبدتموها واتخذتموها آلهة من دونه، مع

---

(١) البحر (٥/ ٣٦٩-٣٧٠)، والدر المصون (٤/ ٢٣٦).

(٢) انظر: اللسان (مادة: أصل).

إقراركم أن الله تعالى هو رب السموات والأرض.

وقوله: ﴿لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً﴾ في موضع نصب. المعنى: فاتخذتم أولياء عجزة لا يقدرون أن ينفعوا أنفسهم ولا يدفعوا عنها ضراً.

فإن قيل: لم قَدَّمَ النفع على الضرّ، وأخَّرَه في الفرقان فقال: ﴿لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً﴾ [الفرقان:٣]؟

قلت: قَدَّمَ هنا الأفضل على الأنقص، فإن اجتلاب النفع أشرف وأفضل من رفع الضرر وهو رتبة فوقه، فالكلام على رتبته، وفي الفرقان بناه على ما قبله من قوله: ﴿لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون﴾ [الفرقان:٣]، فقوله: «لا يخلقون» نفي، «وهم يخلقون» إثبات، فقدَّم الضر لأنه نفى المفاسد على النفع؛ لأنه إثبات المصالح حملاً على ما قبله من تقديم النفي على الإثبات.

ثم ضرب الله تعالى مثلاً للمؤمنين في الإيمان والكفر فقال: ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور﴾ سبق تفسيره.

وقرأ أهل الكوفة إلا حفصاً: «يستوي الظلمات» بالياء، وقرأ الباقون بالتاء(١). فمن قرأ بالتاء؛ فلأنه فعل مؤنث لم يفصل بينه وبين فاعله شيء. ومن قرأ بالياء؛ فلأنه تأنيث غير حقيقي، والفعل مقدم فالتذكير سائغ.

﴿أم جعلوا لله شركاء﴾ بل أجعلوا لله شركاء(٢)، الاستفهام للإنكار،

---

(١) الحجة للفارسي (٣/ ٨)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٧٢-٣٧٣)، والكشف (٢/ ١٩-٢٠)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٩٧)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٧٠)، والسبعة في القراءات (ص:٣٥٨).

(٢) في الأصل زيادة: من.

و ﴿خلقوا﴾ في محل النصب صفة لـ«شركاء»[(١)].

يعني: لم يتخذوا شركاء خالقين قد خلقوا مثل خلق الله، فتشابه خلق الله وخلق الشركاء عليهم؛ لكونهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه المخلوق، فضلاً عن الخالق.

﴿قل الله خالق كل شيء﴾ أي: كل شيء يصح أن يكون مخلوقاً لا خالق سواه، ﴿وهو الواحد﴾ المتفرد بالربوبية ﴿القهار﴾ وغيره المقهور.

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿أنزل من السماء ماء﴾ يعني: المطر ﴿فسالت أودية بقدرها﴾ هذا من مجاز الكلام؛ لأن الأودية لا تسيل، وإنما تسيل مياهها.

والمعنى: سالت أودية بقدرها على حسب مجاريها، إن صغر الوادي قلَّ الماء، وإن اتَّسع كَثُرَ الماء. هذا قول أكثر المفسرين[(٢)].

وقال صاحب الكشاف[(٣)]: المعنى: فسالت أودية بقدرها الذي عرف الله تعالى أنه نافع للمُمْطَر عليهم غير ضار لهم، ألا ترى إلى قوله: ﴿وأما ما ينفع

(١) الدر المصون (٤/ ٢٣٧).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ١٢)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٢١).

(٣) الكشاف (٢/ ٤٩٣).

الناس﴾ لأنه ضرب [المطر][١] مثلاً للحق، فوجب أن يكون مطراً خالصاً للنفع، ولا يكون كبعض الأمطار والسيول الجواحف.

وقرأت ليعقوب من رواية أبي حاتم عنه: «بقدْرها» بسكون الدال، وهي قراءة الحسن وأبي العالية وسعيد بن جبير في آخرين[٢].

﴿فاحتمل السيل زبداً رابياً﴾ عالياً طافياً على وجه الماء. وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى أيضاً للحق وأهله، والباطل وحزبه، فمثلُ الحق هو القرآن وغيره من أسباب الهدى بالماء النازل من السماء، ومثّل قلوب الناس بالأودية، فكلُّ قلب يحمل بقدر ما فيه من اليقين والعقل، والشك والجهل.

قال ابن عباس: الزبد الرابي: هو الشك والكفر[٣].

ثم ضرب كذلك مثلاً آخر فقال: ﴿ومما توقدون عليه في النار﴾ قرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر: «يوقدون» بالياء على الغيبة، حملاً على قوله: «أم جعلوا»، وقرأ الباقون بالتاء، حملاً على قوله: «أفاتخذتم»[٤].

وقوله: ﴿في النار﴾ متعلق بمحذوف في موضع الحال من الضمير المجرور بقوله: «على»، أي ما توقدون عليه ثابتاً في النار[٥]، ﴿ابتغاء حلية﴾ أي: مبتغين

---

(١) في الأصل: للمطر. والتصويب من الكشاف (٢/ ٤٩٣).

(٢) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٧٠).

(٣) قال ابن عباس في تفسيره (ص:٢٩٨): وهو الشك. وانظر: الوسيط (٣/ ١٢).

(٤) الحجة للفارسي (٣/ ٩)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٧٣)، والكشف (٢/ ٢٢)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٩٨)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٧٠)، والسبعة في القراءات (ص:٣٥٨-٣٥٩).

(٥) التبيان (٢/ ٦٣)، والدر المصون (٤/ ٢٣٨).

حلية، فهو مصدر في موضع الحال من الضمير في «توقدون». ولا يجوز أن يكون «في النار» من صلة «توقدون»؛ لأن المعنى ليس على ذلك، ليس المعنى: أنهم يوقدون في النار، وإنما المعنى: أنهم يوقدون على الذهب في حال كونه ثابتاً في النار. وهذا التدقيق والتحقيق مأخوذ عن أبي علي الفارسي[1]، وقد قيل: أنه لم يسبق إليه.

والمعنى: ومما توقدون عليه من الذهب والفضة وأنواع الفِلِزّ[2] الذي يذاب مثله في النار ابتغاء حلية صوغ حلية من النقدين، ﴿أو متاع﴾ أي: وابتغاء متاع باتخاذ الأواني والآلات المختلفة من الحديد والصُّفْر[3] والرصاص ﴿زبد مثله﴾ أي: مثل زبد الماء.

وقوله: «زبد» مبتدأ مثله نعت، والظرف الذي هو قوله: «ومما توقدون» خبر له.

و «من» في «مما توقدون» لابتداء الغاية أو للتبعيض، وتقديره الأول: ومنه ينشأ زبد مثله، وتقدير الثاني: وبعضه زبد مثل زبد الماء.

﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل﴾ قال أبو عبيدة[4]: يمثِّل الله الحق والباطل.

﴿فأما الزبد﴾ مِنَ السيل والفِلِز المضروب مثلاً للباطل وحزبه ﴿فيذهب جفاء﴾ لا ينتفع به.

---

(١) الحجة للفارسي (٣/ ٩).

(٢) الفلز: النحاس الأبيض تُجعل منه القدور العِظَام المفرَغَة والهاوُنات (اللسان، مادة: فلز).

(٣) الصُّفْر: النحاس الأصفر (اللسان، مادة: صفر).

(٤) مجاز القرآن (١/ ٣٢٨).

قال ابن الأنباري[1]: «جفاء»: بالياً متفرقاً.

قال الزجاج[2]: الجفاء: ما جفاه الوادي، أي: رمى به.

وقال ابن فارس[3]: الجُفَاء: ما نفاه السيل، ومنه اشتقاق الجفَاء.

وقال غيره: هو ما رمى به الوادي إلى جنباته، ومنه: أَجْفَأَتِ القِدْر بزبدها، إذا ألقته عنها[4].

﴿وأما ما ينفع الناس﴾ من الماء وجوهر الفلز الذي ذهب عنه خبثه وزبده، وهو المضروب مثلاً للحق وأهله ﴿فيمكث في الأرض﴾ يستقر فيها لنفع الناس.

لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿للذين استجابوا لربهم الحسنى﴾ كلام مستأنف. «الحسنى» مبتدأ، والظرف الذي هو «للذين» الخبر[5].

والحسنى: الجنة وكل خير.

---

(١) انظر: زاد المسير (٤/ ٣٢٢).

(٢) معاني الزجاج (٣/ ١٤٥).

(٣) معجم مقاييس اللغة (١/ ٤٦٦).

(٤) انظر: اللسان (مادة: جفأ).

(٥) التبيان (٢/ ٦٣)، والدر المصون (٤/ ٢٣٨).

﴿والذين لم يستجيبوا له﴾ مبتدأ، خبره: «لو» مع ما في حيزه[(١)]، وهذا المعنى هو المشهور في التفسير.

ويجوز أن يتعلق اللام مِنْ «للذين استجابوا» بما قبلها، وهو يضرب على معنى: يضرب الله الأمثال للمؤمنين المستجيبين والكافرين الذين لم يستجيبوا.

و «الحسنى» على هذا: صفة مصدر محذوف، تقديره: الاستجابة والحسنى.

وقوله: ﴿لو أن لهم﴾ كلام مبتدأ مبين لما أعد الله لغير المستجيبين، وهو مع ما في حيزه مفسر في المائدة.

﴿أولئك لهم سوء الحساب﴾ قال ابن عباس: المناقشة بالأعمال[(٢)].

وقال النخعي: هو أن يحاسب الرجل بذنبه كله ولا يغفر له منه شيء[(٣)].

وقيل: هو أن لا تقبل منهم حسنة ولا يتجاوز لهم عن سيئة.

قوله تعالى: ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى﴾ قال ابن عباس وجمهور المفسرين: نزلت في حمزة وأبي جهل[(٤)].

﴿إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ أي: إنما يتفكر ويتدبر في هذه الحكم المنوطة بالأمثال المضروبة أرباب العقول.

---

(١) الدر المصون (٤/ ٢٣٨).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٢٣٨)، والطبري (١٣/ ١٤٠) كلاهما من طريق أبي الجوزاء. وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٣٥) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) أخرجه سعيد بن منصور (٥/ ٤٣٣) من طريق فرقد السبخي، والطبري (١٣/ ١٣٨). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٣٥) وعزاه لأبي الشيخ.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ١٣)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٢٣).

ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ
بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ
ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ
يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ
عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾

قال الواحدي(١): ثم وصفهم فقال: ﴿الذين يوفون بعهد الله﴾، وتقديره على قوله: إنما يتذكر العقلاء الموفون.

وقال غيره: «الذين يوفون بعهد الله» مبتدأ، خبره: ﴿أولئك لهم عقبى الدار﴾(٢)، وهو أجود.

وقوله: «والذين يصلون» «والذين [صبروا]»(٣) عطف على المبتدأ أو الصفة على اختلاف الوجهين. وعهد الله تعالى: ما أخذه على ذرية آدم حين استخرجهم من صُلْبه بعرفة، فقال: ﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾ [الأعراف:١٧٢] هو ما أخذه عليهم مما أمرهم به ونهاهم عنه على ألسنة رسله صلوات الله عليهم أجمعين.

﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾ قال ابن عباس: الإيمان بجميع

---

(١) الوسيط (٣/ ١٣).
(٢) الدر المصون (٤/ ٢٣٩).
(٣) في الأصل: صبر.

الرسل(١).

فالمعنى: يصلون بينهم بالإيمان، كما قال: ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ [البقرة:٢٨٥].

وجمهور المفسرين على أن المراد: صلة الرحم(٢).

ويدخل في عموم قوله: «ما أمر الله به أن يوصل» وصل قرابة رسول الله ﷺ وقرابة المؤمنين الثابتة بقوله: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ [الحجرات:١٠]. والمراد بصلتهم: العطف عليهم، والإحسان إليهم، والذبّ عنهم بالحق، وإفشاء السلام عليهم، وزيارتهم، والنصيحة لهم. وقد ذكرنا فيما مضى من كتابنا نبذة من الأحاديث المتعلقة بصلة الأرحام.

وقد أخبرنا الإمام أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي النحوي رحمه الله قراءة عليه وأنا أسمع، أبنا أبو منصور عبدالرحمن بن محمد القزاز، أبنا أحمد بن علي بن ثابت قال: حدثني عبد العزيز بن علي الوراق، ثنا أبو موسى هارون الخطيب، ثنا إبراهيم بن عبد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم الإمام، وكان يجلس لولده وولده(٣) في كل يوم خميس يعظهم ويحدثهم قال: أرسل إليّ المنصور بكرة واستعجلني الرسول، فدخلنا فإذا الربيع واقف عند الستر، وإذا المهدي ولي العهد

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ١٣)، والسيوطي في الدر (٤/ ٦٣٦-٦٣٧) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن سعيد بن جبير.

(٢) أخرجه الطبري (١/ ١٨٥) عن قتادة. وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥٧)، والسيوطي في الدر (١/ ١٠٥) وعزاه لعبد بن حميد عن قتادة.

(٣) في تاريخ بغداد: لولده وولد ولده.

في الدهليز جالس، وإذا عبد الصمد بن علي، وداود بن علي، وإسماعيل بن علي، [وسليمان][(١)] بن علي، وجعفر بن محمد بن علي بن الحسين، وعبدالله بن حسن بن حسن، والعباس بن محمد، فقال الربيع: اجلسوا مع بني عمكم، فجلسنا، ثم دخل الربيع وخرج، وقال للمهدي: أدخل أصلحك الله، ثم خرج فقال: ادخلوا جميعاً، فدخلنا فسلمنا وأخذنا مجالسنا. فقال للربيع: هات دوياً[(٢)] وما يكتبون فيه، فوضع بين يدي كل واحد منا دواة وورقاً، ثم التفت إلى عبد الصمد وقال: يا عم حدث ولدك وإخوتك وبني أخيك بحديث البر والصلة، فقال عبد الصمد: حدثني أبي عن جدي عبد الله بن العباس[(٣)] عن النبي ﷺ أنه قال: ((إن البر والصلة ليطيلان الأعمار، ويعمّران الديار، ويثريان الأموال، ولو كان القوم فجاراً)).

ثم قال: يا عمّ، الحديث الآخر، فقال عبد الصمد: حدثني أبي عن جدي عبد الله بن العباس قال: قال النبي ﷺ: ((إن البر والصلة ليخففان سوء الحساب يوم القيامة، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب﴾)) فقال المنصور: يا عم، الحديث الآخر، فقال عبد الصمد: حدثني أبي عن جدي ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: ((كان في بني إسرائيل ملكان أخوان على مدينتين، وكان أحدهما بارٌ[(٤)] برحمه، عادلاً على رعيته، وكان الآخر عاقاً لرحمه، جائراً على رعيته، وكان في عصرهما نبي، فأوحى الله تعالى

---

(١) في الأصل: وسلمان. والتصويب من تاريخ بغداد (١/ ٣٨٥).

(٢) في تاريخ بغداد: دوي.

(٣) قوله: «بن العباس» كرر في الأصل.

(٤) في تاريخ بغداد (١/ ٣٨٦): براً.

إلى ذلك النبي أنه قد بقي من عمر البارّ ثلاث سنين، وبقي من عمر العاقّ ثلاثون سنة. قال: فأخبر النبي رعية هذا ورعية هذا، فأحزن ذلك رعية العادل، وأحزن ذلك رعية الجائر. قال: ففرقوا بين الأطفال والأمهات، وتركوا الطعام والشراب، وخرجوا الى الصحراء يدعون الله عز وجل أن يمتعهم بالعادل، ويزيل عنهم أمر الجائر، فأقاموا ثلاثاً، فأوحى الله تعالى إلى ذلك النبي أن أخبر عبادي أني قد رحمتهم وأجبت دعاءهم، فجعلت ما بقي من عمر هذا البارّ لذلك الجائر، وما بقي من عمر الجائر لهذا البارّ. قال: فرجعوا إلى بيوتهم، ومات العاقّ لتمام ثلاث سنين، وبقي العادل فيهم ثلاثين سنة، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾ [فاطر:١١]».

ثم التفت المنصور إلى جعفر بن محمد فقال: يا أبا عبد الله! حدث إخوتك وبني عمك بحديث أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في البر، فقال جعفر بن محمد: حدثني أبي [عن جدي][(١)] عن أبيه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ملكٍ يصل رحمه وذا قرابته ويعدل على رعيته إلا شدّ الله [له][(٢)] ملكه وأجزل له ثوابه، وأكرم مآبه، وخفف حسابه»[(٣)].

قوله تعالى: ﴿ويخشون ربهم﴾ يخافون وعيده، ﴿ويخافون سوء الحساب﴾ خوفاً يحملهم على الطاعة ويزحزحهم عن المعصية.

قوله تعالى: ﴿والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم﴾ أي: صبروا على طاعة ربهم

---

(١) زيادة من تاريخ بغداد (١/ ٣٨٧).

(٢) زيادة من تاريخ بغداد، الموضع السابق.

(٣) تاريخ بغداد (١/ ٣٨٥-٣٨٧).

وطاعة رسولهم.

وقيل: صبروا على المصائب في الأنفس والأولاد والأموال ابتغاء وجه ربهم طلباً [لمرضاته][(١)] وثوابه، لا ليقال: ما أصبره، وما أحمله وأكمله وأجمله، ولا لئلا يشمت به حساده وأعداؤه، كما قال أبو ذؤيب الهذلي:

وتجلُّدِي للشامِتِينَ أُريهمُ أَنّي لريْبِ الدهرِ لا أتضَعْضَعُ[(٢)]

بل يصبروا لوجه الله تعالى، فإن الصبر حينئذ يكون عبادةً وقربةً إلى الله تعالى، فيثيبه عليه.

﴿وأقاموا الصلاة﴾ على الوجه المأمور به، ﴿وأنفقوا مما رزقناهم﴾ من الأموال المكتسبة من الوجه الحلال، ﴿سراً وعلانية﴾، قال ابن عباس: يريد: الصلوات الخمس والزكاة[(٣)].

والأظهر في نظري: القول بالعموم في نفل الإنفاق وفرضه، فقوله: «سراً» يتقيد بالنفل، فإنه أفضل، وقوله: «علانية» يتقيد بالفرض لشرعية إظهاره؛ نفياً للتهمة.

﴿ويدرؤون بالحسنة السيئة﴾ قال ابن عباس: يدفعون بالعمل الصالح السيءَ من العمل[(٤)]؛ كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل: «إذا عملت سيئة فاعمل بجنبها

---

(١) في الأصل: لمرضاتهم. والصواب ما أثبتناه.

(٢) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، من عينيته المشهورة في رثاء أبنائه، انظر البيت في: البحر (٥/ ٣٧٧)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ١٦١)، وفيض القدير (٤/ ٢٣٣)، والاستيعاب (٤/ ١٦٥٢)، والإصابة (٧/ ١٣٢).

(٣) أخرجه الطبري (١٣/ ١٤٠). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٢٤).

(٤) أخرجه الطبري (١٣/ ١٤١) عن ابن زيد. وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٣٨) وعزاه له.

حسنة تمحها»[١].

وقال ابن كيسان: كلما أذنبوا تابوا، ليدفعوا بالتوبة معرّة الذنب[٢].

وقال جويبر: يدفعون بالعفو الظلم[٣].

وقال ابن قتيبة[٤]: يدفعون بالحِلم السَّفَه.

قال الحسن: إذا حرموا أعطوا، وإذا ظُلموا عفوا، وإذا قُطعوا وصلوا[٥].

﴿أولئك لهم عقبى الدار﴾ أي: عاقبة الدنيا وهي الجنة.

وقال ابن عباس: يريد: عقباهم الجنة[٦]، أي: تصير الجنة آخر أمرهم.

قوله تعالى: ﴿جنات عدن﴾ بدل من «عقبى الدار»[٧]، و«عقبى الدار» مرتفعة بالظرف، وهو قوله: «لهم» أي: أولئك ثابتة لهم عقبى الدار.

قوله تعالى: ﴿ومن صلح من آبائهم﴾ يجوز أن يكون رفعاً بالعطف على الضمير في «يدخلونها» أي: يدخلونها هم ومن صلح، ويجوز أن يكون نصباً على [أنه][٨] مفعول [معه][٩].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٠/ ١٧٥).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ١٦).

(٣) زاد المسير (٤/ ٣٢٤).

(٤) تفسير غريب القرآن (ص:٢٢٧).

(٥) تفسير أبي السعود (٥/ ١٧).

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ١٤)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٢٥).

(٧) التبيان (٢/ ٦٣)، والدر المصون (٤/ ٢٣٩).

(٨) في الأصل: أنهم. والصواب ما أثبتناه.

(٩) في الأصل: معهم. وانظر: التبيان (٢/ ٦٣-٦٤)، والدر المصون (٤/ ٢٣٩).

فإن قيل: هل يجوز أن يكون: «ومن صلح» في موضع جر عطفاً على المجرور من قوله: «لهم»؟

قلت: لا يجوز؛ لأنه لم يُعد اللام.

والمعنى: ومن آمن من آبائهم.

﴿وأزواجهم وذرياتهم﴾ جمع الله تعالى بينهم ليتضاعف لهم السرور بمرافقة آبائهم وأزواجهم وأولادهم في الجنة.

﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب﴾ قال ابن عباس: يدخلون عليهم بالتحية من الله تعالى والتحفة والهدايا(١).

﴿سلام عليكم﴾ فيه إضمار تقديره: قائلين سلام عليكم، أكرمهم الله عز وجل بهذه التحية على ألسنة الملائكة الكرام. جاز الابتداء بالنكرة؛ لأن المعنى: سلّم الله عليكم، وهذا من وقوع الاسم موقع الفعل، ونحوه: ليت شعري، خبر ليت محذوف، تقديره: ليت شعري واقع، وجاز حذفه؛ لأن معنى الكلام: ليتني أشعر، فقد حصل معنى الخبر من لفظ الاسم.

والمعنى: سلمكم الله من أهوال القيامة وشدائدها وشرها بصبركم في الدنيا على طاعته.

وقوله: ﴿بما صبرتم﴾ يتعلق بالثواب والنعيم الذي هم فيه، أي: هذا الذي أنتم فيه بما صبرتم.

ويجوز أن يتعلق بـ«سلام عليكم»، أي: هذا السلام بما صبرتم.

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ١٤)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٢٥).

﴿فنِعْم عقبى الدار﴾ وقرأ يحيى بن وثاب: «فنَعْم» بفتح النون وسكون العين[١]، أصلها نَعِمَ، وكل ما كان على فَعِل، وثانيه حرف من حروف الحلق مثل: فَخِذ، فلهم فيه أربع لغات، فتح الأول وكسر الثاني وهو الأصل، وفتح الأول وإسكان الثاني، وكسر الأول وإسكان الثاني نقلوا كسرة الثاني إلى الأول، وكسرهما جميعاً.

وكذلك الفعل مثل: ضحك، إن شئت قلت: ضحْك بإسكان الحاء مع فتح الضاد وكسرها، وكسرهما جميعاً. ومثله: نعم الرجل.

وقرأتُ على ابن بهروز، أخبركم عبد الأول، أبنا عبد الرحمن الداودي، أبنا عبدالله بن أحمد، أبنا إبراهيم بن خريم، ثنا [عبد][٢] بن حميد، ثنا عبدالله بن يزيد، ثنا سعيد بن أبي أيوب[٣]، حدثني معروف بن سويد الجذامي[٤]، عن أبي عُشَّانة المعافري[٥]، عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أول من يدخل الجنة من خلق الله عز وجل؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: أول من يدخل الجنة من خلق الله فقراء المهاجرين، الذين تُسَدُّ بهم الثغور، وتُتَّقى بهم المكاره، ويموت

---

(١) الدر المصون (٤/ ٢٤٠).

(٢) في الأصل: عبد الله. وقد سبقت ترجمته.

(٣) سعيد بن أبي أيوب واسمه مقلاص الخزاعي مولاهم، أبو يحيى المصري، ثقة ثبت، ولد سنة مائة، ومات سنة إحدى وستين ومائة (تهذيب التهذيب ٤/ ٧، والتقريب ص:٢٣٣).

(٤) معروف بن سويد الجذامي، أبو سلمة المصري، توفي قبل الخمسين ومائة (تهذيب التهذيب ١٠/ ٢٠٨، والتقريب ص:٥٤٠).

(٥) هو حَيّ بن يُؤمِن بن حجيل بن جريج، أبو عُشَّانة المعافري المصري، ثقة، مشهور بكنيته، مات سنة ثماني عشرة ومائة (تهذيب التهذيب ٣/ ٦٣، والتقريب ص:١٨٥).

أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله عز وجل لمن شاء من ملائكته: ائتوهم فحيوهم، فتقول الملائكة: ربنا نحن سكانُ سمائك وخيرتك من خلقك، فتأمرنا أن نأتي هؤلاء فنسلم عليهم! قال: إنهم كانوا عباداً لي، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً، وتُسدُّ بهم الثغور، وتُتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء. قال: فتأتيهم الملائكة عند ذلك، فيدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»[1].

وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ سبق تفسيره في أوائل البقرة[2].

﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ وقد ذكرته. وسيأتي إن شاء الله في سورة محمد ﷺ بعض ما صح عن النبي ﷺ في إثم قطيعة الرحم.

وقوله تعالى: ﴿أولئك لهم اللعنة﴾ قال المفسرون: أي: عليهم اللعنة.

وعندي: أن هذا مثل قوله:

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٨ ح٦٥٧٠).

(٢) البقرة آية رقم:٢٧.

أَخَافُ زِياداً أَنْ يَكُونَ عَطَاؤُهُ أَدَاهِمَ سُوداً أَوْ مُحْدْرَجَةً سُمْرا

وقد سبق إنشاده في الأنفال[١].

قوله تعالى: ﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء﴾ أي: يوسعه لمن يشاء ﴿ويقدر﴾ أي: يضيق على من يشاء، على ما تقتضيه حكمته وعلمه في خلقه جلّت عظمته، ﴿وفرحوا بالحياة الدنيا﴾ قال ابن عباس: يريد: مشركي مكة فرحوا بما نالوا من الدنيا، فطَغَوْا وكذبوا الرسل[٢].

﴿وما الحياة الدنيا في الآخرة﴾ أي: بالنسبة إليها ﴿إلا متاع﴾ أي: قليل ذاهب؛ كالشيء الذي يتمتع به ثم ينقضي.

وقد سبق الكلام عليه في آخر آل عمران[٣].

قوله تعالى: ﴿ويقول الذين كفروا﴾ وهم الذين كانوا يقترحون الآيات على رسول الله ﷺ تعنتاً وعناداً، مع أنهم قد شاهدوا من سَمْته وهديه وأخباره بما كان ويكون، فكان انشقاق القمر له، وكفى بالقرآن آية باهرة، ومعجزة ظاهرة على صدقه.

﴿لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء﴾ وهم الذين غلبت عليهم الشقوة وكانوا ضلالاً في علم الله.

﴿ويهدي إليه من أناب﴾ أي: رجع إلى الحق ولم يعاند، فليس منشأ الضلال فواتُ الآيات، ولا موجَبُ الهدى الإتيانُ بالمقترحات.

---

(١) ص:٤٢٦.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ١٤)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٢٦).

(٣) عند قوله تعالى: ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ [١٨٥].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ۝٢٩﴾

﴿الذين آمنوا﴾ في محل النصب بدلاً مِن «مَن أناب»[١]، ﴿وتطمئن قلوبهم﴾ أي: تسكن ﴿بذكر الله﴾ قال مقاتل[٢]: هو القرآن.

وقيل: هو عام في ذكر الله تعالى.

وقيل: تطمئن قلوبهم بذكر وعد الله ورحمته.

﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ يعني: قلوب المؤمنين.

﴿الذين آمنوا﴾ مبتدأ، خبره ﴿طوبى لهم﴾، أو هو بدل من «القلوب»، على حذف المضاف، تقديره: تطمئن القلوب الذين آمنوا وعملوا الصالحات[٣].

﴿طوبى لهم﴾ قال الزمخشري[٤]: هو مصدر مِنْ طَاب، كبُشْرى وزُلْفى.

ومعنى: طوبى لك: أصبت خيراً وطيباً، ومحلها النصب أو الرفع[٥]، كقولك: طيباً لك، وطيب لك، وسلاماً لك، وسلام لك.

والقراءة في قوله: ﴿وحسن مآب﴾ بالرفع والنصب يدلك على محلَّيْها، والواو في طوبى منقلبةٌ عن ياء لضمه ما قبلها، كمُوقِن ومُوسِر.

---

(١) التبيان (٢/ ٦٤)، والدر المصون (٤/ ٢٤١).

(٢) تفسير مقاتل (٢/ ١٧٥).

(٣) التبيان (٢/ ٦٤)، والدر المصون (٤/ ٢٤١).

(٤) الكشاف (٢/ ٤٩٧).

(٥) التبيان (٢/ ٦٤)، والدر المصون (٤/ ٢٤١).

قال أبو عبيدة والزجاج وكثير من أهل اللغة[١]: طوبى فُعْلَى من الطِّيب.

قال ابن الأنباري[٢]: تأويلها: الحال المستطابة.

قلت: إلى هذا المعنى ترجع أقوال المفسرين.

قال ابن عباس: «طوبى لهم» أي: فرحٌ وقرة عين[٣].

وقال الحسن: حسنى لهم[٤].

وقال سعيد بن جبير: غبطة لهم[٥].

وقال النخعي: خير لهم[٦].

وقيل: «طوبى» اسم الجنة بالحبشية[٧].

والذي عليه جمهور المفسرين: أن «طوبى» شجرة في الجنة[٨].

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ١٤٨).

(٢) انظر: الوسيط (٣/ ١٦)، وزاد المسير (٤/ ٣٢٨).

(٣) أخرجه الطبري (١٣/ ١٤٦). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٤٢) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٤) أخرجه الطبري (١٣/ ١٤٦) عن قتادة. وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٤٣) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٥) أخرجه الطبري (١٣/ ١٤٦) عن الضحاك. وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٤٢) وعزاه لأبي الشيخ.

(٦) أخرجه الطبري (١٣/ ١٤٦). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٤٣) وعزاه لأبي الشيخ.

(٧) أخرجه الطبري (١٣/ ١٤٦) عن ابن عباس. وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٤٣) وعزاه لابن أبي حاتم.

(٨) أخرجه الطبري (١٣/ ١٤٧). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٤٣) وعزاه لابن المنذر وأبي الشيخ عن ابن عباس.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري «أن رجلاً قال: يا رسول الله طوبى لمن رآك وآمن بك، فقال: طوبى لمن رآني وآمن بي، ثم طوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني. قال له رجل: وما طوبى؟ قال: شجرة في الجنة مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»(١).

وقال أبو هريرة: «طوبى شجرة في الجنة، يقول الله: تفتقي لعبدي عما شاء، فتتفتق له عن الخيل بسروجها ولجمها، وعن الإبل بأزمتها، وعما شاء من الكسوة»(٢).

وقرأتُ على أبي المجد محمد بن الحسين القزويني رحمه الله، أخبركم أبو منصور محمد بن أسعد الطوسي، [أخبركم](٣) الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، أبنا أبو حامد أحمد بن عبدالله الصالحي، أبنا أبو بكر(٤) أحمد بن [الحسن](٥) الحيري، أبنا حاجب بن أحمد الطوسي، ثنا محمد بن يحيى، ثنا يزيد بن هارون، أبنا محمد بن [عمرو](٦)، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله عز وجل: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٧١ ح١١٦٩١).

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ١٤٧).

(٣) في الأصل: حدكم. والصواب ما أثبتناه.

(٤) في الأصل زيادة: "بن"، وهو خطأ. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١٧/ ٣٥٦)، وشذرات الذهب (٣/ ٢١٧).

(٥) في الأصل: الحسين. والصواب ما أثبتناه. انظر ترجمته في المصادر السابقة.

(٦) في الأصل: عمر. وانظر ترجمته في: تهذيب التهذيب (٩/ ٣٣٣)، وتهذيب الكمال (٢٦/ ٢١٢-٢١٧).

سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر، اقرؤوا إن شئتم: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ »[1] [السجدة:١٧]. و «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، واقرؤوا إن شئتم: ﴿وظل ممدود﴾»[2] [الواقعة:٣٠]. هذا حديث صحيح.

كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿كذلك أرسلناك﴾ أي: مثل ذلك الإرسال أرسلناك، يعني: أرسلناك إرسالاً له شأن عظيم ونبأ جليل.

ثم بينه فقال: ﴿في أمة قد خلت من قبلها أمم﴾ أي: تقدمتها أمم كثيرة ﴿لتتلوا عليهم الذي أوحينا إليك﴾ أي: لتقرأ عليهم القرآن العظيم الذي أوحينا إليك.

﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾ بالبليغ الرحمة، الذي وسعت رحمته كل شيء.

وقد روي عن ابن عباس قال: «نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي ﷺ: اسجدوا للرحمن، قالوا: وما الرحمن؟ فنزلت: ﴿وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي﴾»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ١١٨٥ ح٣٠٧٢)، ومسلم (٤/ ٢١٧٤ ح٢٨٢٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ١١٨٧ ح٣٠٨٠)، ومسلم (٤/ ٢١٧٥ ح٢٨٢٦).

(٣) زاد المسير (٤/ ٣٢٩)، وأسباب نزول القرآن للواحدي (ص:٢٧٩).

وقال قتادة ومقاتل[١]: لما أرادوا كتاب الصلح يوم الحديبية كتب عليٌّ عليه السلام: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل بن عمرو: ما نعرف الرحمن إلا مسيلمة، فنزلت هذه الآية[٢].

وقيل: «كان رسول الله ﷺ يوماً في الحِجْر يدعو، وأبو جهل يسمع، وهو يقول: يا الله يا رحمن! فولى مدبراً إلى المشركين، فقال: إن محمداً كان ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهين، فنزلت هذه الآية»[٣].

﴿قل هو ربي لا إله إلا هو﴾ أي: قل لهم يا محمد: إن الرحمن الذي كفرتم به وأنكرتموه هو ربي لا إله إلا هو.

﴿عليه توكلت﴾ في نصرتي عليكم ﴿وإليه متاب﴾ مرجعي.

قال أبو عبيدة[٤]: هو مصدر تبتُ إليه.

وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

---

(١) تفسير مقاتل (٢/ ١٧٦).

(٢) أخرج نحوه النسائي (٦/ ٤٦٤)، وأحمد (٤/ ٨٦)، والطبري (٢٦/ ٩٣) كلهم عن عبدالله بن مغفل. وذكره الواحدي في أسباب نزول القرآن (ص:٢٧٩)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٢٩).

(٣) زاد المسير (٤/ ٣٢٩).

(٤) مجاز القرآن (١/ ٣٣٠).

قوله تعالى: ﴿ولو أن قرآناً سُيِّرت به الجبال﴾ قال الزبير بن العوام رضي الله عنه: قال مشركوا مكة للنبي ﷺ: ادع الله عز وجل أن يزيل عنا هذه الجبال ويفجر لنا الأرض أنهاراً فنزرع، أو يحيي لنا موتانا فنكلمهم، أو تصير لنا هذه الصخرة ذهباً فتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف، فقد كان للأنبياء آيات، فنزلت هذه الآية(١).

والمعنى: لو أن قرآناً سُيِّرت به الجبال عن مواضعها.

﴿أو قطعت به الأرض﴾ أي: شُقِّقَتْ فجُعلت أنهاراً وعيوناً، ﴿أو كلم به الموتى﴾ فتسمع وتجيب.

وهذه الجملة -أعني: سيرت وقطعت وكلم- في موضع النصب، وصفاً للقرآن.

واختُلف في جواب «لو» فقال الأكثرون: هو مضمر، تقديره: لكان هذا القرآن لعظمته وكرامته.

أو يكون المعنى: لو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض حتى تتصدع وتتزايل قطعاً، لكان هذا القرآن؛ لما يشتمل عليه من الإنذار والتهديد والتخويف.

وقيل: التقدير: لو أن قرآناً كان بهذه المثابة لما آمنوا به؛ كقوله تعالى: ﴿ولو أننا

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٢/ ٤٠). وانظر: زاد المسير (٤/ ٣٣٠)، وأسباب نزول القرآن للواحدي (ص:٢٨٠). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٥٢) وعزاه لأبي نعيم في الدلائل وابن مردويه.

نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا﴾ [الأنعام:١١١].

وذكر الفراء[١]: أن جواب «لو» مقدّم، تقديره: وهم يكفرون بالرحمن ولو أننا نزلنا عليهم ما سألوه.

﴿بل لله الأمر جميعاً﴾ فلو شاء لهداهم اختياراً واضطراراً.

ثم أكد ذلك بقوله: ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾ قال ابن عباس: أفلم يتبين[٢]، وكذا كان يقرأها علي وابن مسعود في آخرين، وهو قول مجاهد[٣].

وروي عن ابن عباس أنه قال: أظن الكاتب كتبها وهو ناعس[٤].

قال بعض العلماء: هذا ونحوه مما لا يُصَدَّقُ في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكيف يخفى مثل هذا حتى يبقى ثابتاً بين دفتي الإمام، وكان متغلباً في أيدي أولئك الأعلام المحتاطين في دين الله المهيمنين عليه، هذه والله فرية ما فيها مرية.

وقال في رواية ابن أبي طلحة: أفلم يعلم[٥]. وبه قال قتادة والحسن.

---

(١) معاني الفراء (٢/ ٦٣).

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ١٥٤). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٥٣) وعزاه لابن الأنباري في المصاحف عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري (١٣/ ١٥٥).

(٤) أخرجه الطبري (١٣/ ١٥٤). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٥٣) وعزاه لابن الأنباري في المصاحف.

(٥) أخرجه الطبري (١٣/ ١٥٤). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٥٣) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم.

وقال ابن قتيبة[(١)]: يقال: هي لغة للنَّخْع. قال سحيم بن وثيل[(٢)]:

أقولُ لهم بالشِّعْب إذ ييْسِرُونَني ... ألم تَيْأسُوا أني ابنُ فارِسِ زَهْدَم

وقال آخر:

ألم يَيأسِ الأقوامُ أني أنا ابنُه ... وإن كنتُ عن أرضِ العشيرة نائيا[(٣)]

ومعنى القولين واحد.

وإنما وقع اليأس موقع العلم؛ لأن في علمك الشيء وتيقنك به يأسك من غيره، كما استعمل الرجاء في معنى الخوف، والنسيان في معنى الترك لتضمن ذلك.

وقال صاحب الكشاف[(٤)]: ويجوز أن يتعلق «أن لو يشاء» بـ«آمنوا» على أو لم يقنط عن إيمان هؤلاء الكفرة الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ولهداهم.

﴿ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا﴾ من الكفر والمعاصي ﴿قارعة﴾ داهية تقرعهم ونازلة شديدة تنزل بهم. قال ابن عباس: عذاب من السماء[(٥)].

---

(١) تفسير غريب القرآن (ص:٢٢٧-٢٢٨).

(٢) البيت لسحيم بن وثيل اليربوعي، ونسب لابنه جابر أيضاً بدليل قوله فيه: ... أني ابن فارس زهدم، وزهدم فرس سحيم. وانظر: مجاز القرآن (١/ ٣٣٢)، والطبري (١٣/ ١٥٣)، و اللسان، (مادة: يأس)، والبحر (٥/ ٣٨٢)، والدر المصون (٤/ ٢٤٣)، وتهذيب اللغة (١٣/ ٦٠، ١٤٢).

(٣) البيت لرباح بن عدي. وانظر: المحتسب (١/ ٣٥٧)، والبحر (٥/ ٣٨٢)، والدر المصون (٤/ ٢٤٣)، والطبري (١٣/ ١٥٣)، والقرطبي (٩/ ٣٢٠)، وروح المعاني (١٣/ ١٥٦).

(٤) الكشاف (٢/ ٤٩٩).

(٥) أخرجه الطبري (١٣/ ١٥٦). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٥٥) وعزاه لابن جرير وابن مردويه.

﴿أو تحلّ﴾ القارعة ﴿قريباً من دارهم﴾ فتقلقلهم وتزعجهم، ويتطاير إليهم شررها، ويتعدى إليهم ضررها، ﴿حتى يأتي وعد الله﴾ وهو فتح مكة، وهذا قول [أبي][(١)] سعيد الخدري[(٢)].

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ولقد استهزئ برسل من قبلك﴾ هذه تعزية للنبي ﷺ عن اقتراحهم الآيات تكذيباً واستهزاء، ﴿فأمليت للذين كفروا﴾ أطَلْتُ لهم المدة بتأخير العذاب عنهم ﴿ثم أخذتهم﴾ بالعقوبة ﴿فكيف كان عقاب﴾ قال ابن عباس: يريد كيف رأيت ما صنعتُ بهم، كذلك أصنع بمشركي قومك[(٣)].

قوله تعالى: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ هذا احتجاج على كفار قريش وغيرهم من الذين اتخذوا مع الله تعالى آلهة.

والمعنى: أفمن هو قائم على كل نفس صالحة وطالحة بما كسبت من خير وشر ومجاز لها عليه. التقدير: كمن ليس كذلك من الأصنام التي اتخذتموها آلهة. ودلّ

---

(١) زيادة على الأصل.

(٢) زاد المسير (٤/ ٣٣٢).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ١٧).

على المحذوف قوله: ﴿وجعلوا لله شركاء قل سموهم﴾ وانظروا بشرط تحكيم العقل وعزل الهوى: هل تصدق الأسماء عليهم أو تصح إضافة مدلولاتها إليهم.

﴿أم تنبئونه﴾ تخبرونه ﴿بما لا يعلم في الأرض﴾ فإنه لا يعلم لنفسه شريكاً ولا إلهاً في الأرض، وإذا لم يعلمه لم يكن شيئاً، لاستحالة موجود لا يتعلق به علم الله تعالى.

﴿أم بظاهر من القول﴾ أي: بل أتسمونهم شركاء بقول ظاهر لا باطن له ولا حقيقة، وإنما هو كلام فارغ لا معنى تحته، وهذا شبيه بقوله: ﴿ذلك قولهم بأفواههم﴾ [التوبة:٣٠]، وقوله: ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء﴾ [يوسف:٤٠] وهذا من الاحتجاج البديع الذي يقرطس في إصابته، والكلام البليغ الذي يأنس به الأسماع مع غرابته.

﴿بل زين للذين كفروا مكرهم﴾ أي: دع ذكر ما كنا فيه، زُين للذين كفروا كيدهم للإسلام وأهله.

﴿وصدوا عن السبيل﴾ قرأ أهل الكوفة: «وصُدوا»، وفي المؤمن ﴿وصُدَّ عن السبيل﴾ [غافر:٣٧] بضم الصاد فيهما، وقرأ الباقون بالفتح(١).

فمن ضَمَّ بنى الفعل على المفعول به، فإن فاعل الصد غواتهم وقادتهم، أو هو الله تعالى بالطبع على قلوبهم، أو هو الشيطان بالتزيين.

ومن فتح أسند الفعل إلى الفاعل، على معنى: منعوا الناس عن اتباع محمد ﷺ، واعتبره بنظائره في كتاب الله تعالى كقوله: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله﴾

---

(١) الحجة للفارسي (٣/ ١٠)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٧٣-٣٧٤)، والكشف (٢/ ٢٢)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٩٨)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٧٠)، والسبعة في القراءات (ص:٣٥٩).

[محمد:١]، وقوله: ﴿إن الذين كفروا ويصدون﴾ [الحج:٢٥]، وقوله: ﴿هم الذين كفروا وصدوكم﴾ [الفتح:٢٥].

﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ يقدر على هدايته، كما قال: ﴿فمن يهديه من بعد الله﴾ [الجاثية:٢٣].

لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿لهم عذاب في الحياة الدنيا﴾ وهو ما نالهم من القتل والأسر، والمصائب في الأنفس والأولاد والأموال، فإنها عذاب عليهم؛ لأنهم لا يرجون أن تجلب لهم ثواباً، ولا أن تدفع عنهم عقاباً.

﴿ولعذاب الآخرة أشق﴾ أشد وأغلظ وأبقى ﴿وما لهم من الله من واق﴾ يقيهم ويحفظهم من عقابه.

قوله تعالى: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ قال ابن قتيبة[1]: المَثَل: الشَّبَه، في أصل اللغة، ثم قد يصير بمعنى صورة الشيء وصفته، تقول: مَثَّلْتُ لك كذا، أي: صوَّرْته ووصَفْته، ورفعه على الابتداء.

قال ثعلب[2]: خبره مضمر قبله. المعنى: فيما نقُصّه عليكم مثل الجنة.

قال غيره: الخبر: ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾، وأفسد بعضهم هذا الوجه؛ لما فيه

---

(١) تأويل مشكل القرآن (ص:٤٩٦).

(٢) انظر: زاد المسير (٤/ ٣٣٤).

من إلغاء المضاف والإخبار عن المضاف إليه، وإن جُعل المثل بمعنى الصفة -كما قال ابن قتيبة[١]- زال هذا الإشكال، إلا أن أبا علي الفارسي أنكره إنكاراً شديداً.

وقال الزجاج[٢]: المعنى: مثل الجنة جنةٌ تجري من تحتها الأنهار، على حذف الموصوف، تمثيلاً لما غاب عنا عما نشاهد.

﴿أكلها دائم﴾ قال الحسن: يريد: أن ثمارها لا تنقطع [كثمار الدنيا][٣]، وظلها دائم لا تنسخه الشمس كظل الدنيا[٤].

﴿تلك عقبى الذين اتقوا﴾ الشرك، بدليل قوله: ﴿وعقبى الكافرين النار﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿والذين آتيناهم الكتاب﴾ وهم الذين أنعم الله عليهم بالإسلام من اليهود والنصارى.

قال مقاتل[٥]: هم عبد الله بن سلام وأصحابه.

---

(١) تأويل مشكل القرآن (ص:٤٩٦).

(٢) معاني الزجاج (٣/ ١٥٠).

(٣) زيادة من زاد المسير (٤/ ٣٣٤).

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ١٨)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٣٤).

(٥) تفسير مقاتل (٢/ ١٧٩).

وقال قتادة: هم أصحاب محمد ﷺ[(١)].

فيكون المراد بالكتاب: القرآن.

﴿يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب﴾ الذين بالغوا في عنادهم وكفرهم حتى تحزبوا على رسول الله ﷺ؛ كعب بن الأشرف من اليهود، والسيد والعاقب من أساقفة نصارى نجران، وصناديد قريش كأبي جهل وأحزابه.

﴿من ينكر بعضه﴾ فأهل الكتاب أنكروا ما في الكتابين من نعت الإسلام ووصف النبي ﷺ، وصناديد قريش أنكروا إنكاراً شديداً ذكر الرحمن في القرآن.

وروي: أن عبد الله بن سلام وأصحابه ساءهم قلة ذكر الرحمن في القرآن لما كانوا ألفوا من كثرة ذكره في التوراة، فلما نزل ذكره في مواضع متعددة فرحوا وكفر المشركون به، فنزلت هذه الآية[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وكذلك أنزلناه﴾ أي: ومثل ذلك أنزلنا القرآن ﴿حكماً عربياً﴾ أي: حكمة مترجمة بلسان العرب. وانتصابه على الحال.

﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ يعني: ضلالاتهم ﴿بعد ما جاءك من العلم﴾ وهو البيان الواضح، ﴿ما لك من الله﴾ أي: من عذابه ﴿ولي﴾ نافع ﴿ولا واق﴾ دافع.

قال الزمخشري[(٣)]: وهذا من باب الإلهاب والتهييج والبعث للسامعين على

---

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ١٦٤). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٣٥)، والبغوي (٣/ ٢١)، والسيوطي في الدر (٤/ ٦٥٨) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ١٨)، والبغوي في تفسيره (٣/ ٢٢)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٣٥)، والقرطبي في تفسيره (٩/ ٣٢٦).

(٣) الكشاف (٢/ ٥٠٢).

الثبات في الدين [والتصلب][١] فيه، وأن لا يزلّ زالٌّ عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة، وإلا [فكان][٢] رسول الله ﷺ من شدة الشكيمة بمكان.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية﴾ نساءً وأولاداً.

قال ابن عباس: عيرت اليهود رسول الله ﷺ فقالوا: ما نرى لهذا الرجل همةً إلا النساء والنكاح، ولو كان نبياً لشغلته النبوّة عن التزويج بالنساء، فأنزل الله هذه الآية[٣].

قوله تعالى: ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله﴾ لا بما يقترح عليه، ﴿لكل أجل﴾ قدَّره الله وقضاه ﴿كتاب﴾ مثبت عند الله تعالى، فلا تكون آية ولا غيرها إلا بأجل قد قضاه الله في كتاب. هذا قول ابن جرير[٤].

وقال الحسن: لكل أجل من آجال الخلق كتاب عند الله[٥].

---

(١) في الأصل: بالتصلب. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

(٢) في الأصل: فكأنّ. والصواب ما أثبتناه.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ١٩)، والواحدي في أسباب النزول (ص: ٢٨٠)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٣٦).

(٤) تفسير الطبري (١٣/ ١٦٥).

(٥) زاد المسير (٤/ ٣٣٦).

قوله تعالى: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ ذهب جماعة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم إلى القول بعمومها في كل شيء، حتى في الرزق، والأجل، والسعادة والشقاوة، حتى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول: اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني فيها، وإن كنت كتبت عليّ الذنب والشقاوة فامحني، وأثبتني في أهل السعادة والمغفرة، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب(١).

وروي نحوه عن ابن مسعود(٢).

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس: أنها على عمومها، إلا في الشقاوة والسعادة والحياة والموت(٣).

قرأت على القاضي أبي محمد عبد المجير بن محمد بن عشائر الموصلي بحلب، أخبركم الخطيب أبو الفضل عبدالله بن أحمد بن محمد الطوسي فأقر به، ثنا أبو الخطاب نصر بن أحمد بن [البطر](٤)، ثنا عمر بن محمد بن عبد الواحد الزاهد، ثنا أحمد بن عبدالله، ثنا [عبيدالله](٥) بن موسى، ثنا ابن أبي ليلى(٦)، عن المنهال بن

---

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ١٦٨). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٦١) وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ١٦٨). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٦٤) وعزاه لابن المنذر والطبراني.

(٣) أخرجه الطبري (١٣/ ١٦٦). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٦٥) وعزاه له.

(٤) في الأصل: النطر. وانظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١٩/ ٤٦).

(٥) في الأصل: عبدالله. وانظر ترجمته في: تهذيب التهذيب (٧/ ٤٦-٤٧)، والتقريب (ص:٣٧٥).

(٦) محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى الأنصاري، أبو عبد الرحمن الكوفي، قاضي الكوفة، كان فقيهاً صدوقاً، عالماً بالقرآن، مات سنة ثمان وأربعين ومائة (تهذيب التهذيب ٩/ ٢٦٨-٢٦٩، والتقريب =

عمرو[١]، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ قال: ينزل ربنا تبارك وتعالى السماء الدنيا في شهر رمضان فيدبر أمر السماء فيمحو ما يشاء، غير الشقاء والسعادة والموت والحياة[٢].

ويدل على صحته ما روى مسلم في صحيحه من حديث حذيفة بن أسيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إذا مضت على النطفة خمس وأربعون ليلة يقول الملك الموكل: أذكر أم أنثى؟ فيقضي الله ويكتب الملك، فيقول: أشقي أم سعيد فيقضي الله ويكتب الملك، [فيقول][٣]: عمله وأجله فيقضي الله ويكتب الملك، ثم تطوى الصحيفة فلا يزاد فيها ولا ينقص منها »[٤].

وقال سعيد بن جبير وقتادة وابن عباس في رواية ابن أبي طلحة: «يمحو الله ما يشاء» وهو المنسوخ[٥]. وهذا اختيار جماعة من أهل المعاني.

قال أبو علي الفارسي[٦]: هذا والله أعلم فيما يحتمل النَّسخ والتبديل من

= ص:٤٩٣).

(١) المنهال بن عمرو الأسدي مولاهم الكوفي، ثقة صدوق (تهذيب التهذيب ١٠/ ٢٨٣، والتقريب ص:٥٤٧).

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ١٦٦)، والبيهقي في الشعب (٣/ ٣٢٢). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٥٩) وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب.

(٣) زيادة على الأصل. وانظر: صحيح مسلم.

(٤) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٣٧ ح٢٦٤٤).

(٥) الوسيط (٣/ ٢٠)، وزاد المسير (٤/ ٣٣٧).

(٦) الحجة (٣/ ١١-١٢).

الشرائع الموقوفة على المصالح على حسب الأوقات.

وقال الحسن: يمحو من جاء أجله ويُثبت من لم يجيء أجله(١).

وقال الضحاك: يمحو من ديوان الحفظة ما يشاء مما ليس فيه ثواب ولا عقاب؛ كقوله: أكلت، شربت، خرجت، ولجت، وأمثال ذلك إذا كان صادقاً، ويثبت ما فيه ثواب وعقاب(٢).

وقيل: يمحو الله ما يشاء من ذنوب عباده فيغفرها، ويثبت ما يشاء فلا يغفرها(٣).

﴿وعنده أمّ الكتاب﴾ أي: أصل كتاب الله، وهو اللوح المحفوظ؛ لأن كل كائن مكتوب فيه.

قال ابن عباس: هما كتابان؛ كتاب سوى أم الكتاب يمحو فيه ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب لا يغير منه شيء(٤).

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾

---

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ١٦٩). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٦٤) وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) زاد المسير (٤/ ٣٣٨).

(٣) مثل السابق.

(٤) أخرجه الطبري (١٣/ ١٦٧)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٨٠). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٦٠) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم.

قوله تعالى: ﴿وإما نرينك بعض الذي نعدهم﴾ أي: من العذاب فتراه وأنت حي ﴿أو نتوفينك﴾ قبل ذلك، ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ أي: بلاغ ما أرسلت به فحسب. ثم فرض عليه بعد ذلك القتال.

ومن قال: المعنى: ليس عليك أن تُدخِل الإيمان في قلوبهم، فهي محكمة.

﴿وعلينا الحساب﴾ الجزاء، فلا يهمنك إعراضهم ولا تستعجل بعذابهم.

قال الزجاج[1]: «إن» إذا دخلت عليها «ما» لتوكيد الشرط، دخلت النون مؤكدة للفعل.

وقوله: «أو نتوفينك» عطف على «نرينك»، وجواب الجزاء: «فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب».

قوله تعالى: ﴿أولم يروا﴾ يعني: الكفار ﴿أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ بما نفتح على المسلمين بلادهم، ونمنح المؤمنين من أزواجهم وأولادهم.

﴿والله يحكم﴾ لك بغلبتك واستغلابك، واستيلائك على أعدائك ﴿لا معقّب لحكمه﴾ أي: لا ناقض لما أمضاه، ولا رادّ لما قضاه، للعقب الذي يكرّ على الشيء ويتبعه.

وقوله: «لا معقب لحكمه» في محل الحال، كأنه قيل: والله تعالى يحكم نافذاً حكمه.

﴿وهو سريع الحساب﴾ مفسر في البقرة[2].

وقد روي عن ابن عباس: أن المراد بنقص الأرض: ذهاب الأخيار والعلماء،

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ١٥٠).

(٢) آية رقم: ٢٠٢.

وموت الأحبار والفقهاء[١].

قال ابن مسعود: موت العالم ثلمة في الإسلام، لا يسدها شيء ما اختلف الليل والنهار[٢].

وقيل لسعيد بن جبير: ما علامة هلاك الناس؟ قال: هلاك علمائهم[٣].

قال سفيان بن عيينة: أي عقوبة أشد على أهل الجهل من أن يذهب أهلُ العلم.

أخبرنا الشيخان أبو القاسم أحمد بن عبدالله بن عبد الصمد بن عبدالرزاق السلمي العطار وأبو الحسن علي بن أبي بكر بن روزبة الصوفي البغداديان قالا: أبنا عبد الأول بن عيسى، أبنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن مظفر الداودي، أبنا أبو محمد عبدالله بن أحمد بن حمويه السرخسي، أبنا محمد بن يوسف الفربري، أبنا محمد بن إسماعيل البخاري، ثنا إسماعيل بن أبي [أويس][٤]، حدثني مالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسُئلوا، فأفتوا بغير

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٨١)، والطبري (١٣/ ١٧٤)، ونعيم بن حماد في الفتن (١/ ٢٤٣). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٦٥) وعزاه لعبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٢/ ٢٦٨)، والدارمي (١/ ١٠٦) عن الحسن.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٤٥٨)، والبيهقي في شعبه (٢/ ٢٥٣)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٧٦).

(٤) في الأصل: أنيس. والتصويب من صحيح البخاري (١/ ٥٠). وانظر: ترجمته في: تهذيب التهذيب (١/ ٢٧١-٢٧٣)، والتقريب (ص:١٠٨).

علم، فضَلُّوا وأضَلُّوا»[١]. هذا حديث متفق على صحته، وأخرجه مسلم عن قتيبة عن جرير عن هشام.

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وقد مكرَ الذين من قبلهم﴾ يعني: كفار الأمم الخالية مكروا بأنبيائهم كما مكرتْ قريش بك يا محمد.

ثم أخبر أن المكر كله لله سبحانه وتعالى، فقال: ﴿فلله المكر جميعاً﴾ فلا يقدر أحد على شيء منه إلا بإرادته وإقداره عليه.

ثم فسر فقال: ﴿يعلم ما تكسب كل نفس﴾ من خير وشر، ونفع وضر، ومن عَلِمَ ذلك فله المكر كله.

﴿وسيعلم الكافر﴾ قال الزجاج[٢]: هو اسم جنس.

وعن ابن عباس: أنه أبو جهل[٣].

وقرأ أهل الكوفة وابن عامر: «وسيعلم الكفار» على الجمع[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٥٠ ح١٠٠)، ومسلم (٤/ ٢٠٥٨ ح٢٦٧٣).

(٢) معاني الزجاج (٣/ ١٥١).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ٢١)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٤١).

(٤) الحجة للفارسي (٣/ ١٢)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٧٥)، والكشف (٢/ ٢٣)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٩٨)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٧٠)، والسبعة في القراءات (ص:٣٥٩).

قال ابن جرير الطبري (١٣/ ١٧٥): والصواب من القراءة في ذلك القراءة على الجمع، لأن الخبر =

﴿لمن عقبى الدار﴾ أي: لمن آخر الأمر ولمن الجنة.

قوله تعالى: ﴿ويقول الذين كفروا﴾ وهم اليهود والنصارى، في قول أكثر المفسرين[(١)].

وقيل: كفار قريش.

﴿لست مرسلاً﴾ إلينا بالنبوة. ﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾ بما أنار من دلالاتي وأبان من آياتي.

﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ «مَنْ» [في][(٢)] موضع جر عطفاً على اسم الله.

ويجوز أن يكون في موضع رفع عطفاً على موضع الجار والمجرور[(٣)]، كقراءة من قرأ في: ﴿هل من خالق غير الله﴾ [فاطر:٣]، وقراءة من قرأ: ﴿ما لكم من إله غيره﴾ [الأعراف:٥٩].

وقوله: «عِلْمُ الكتاب» مرتفع بالظرف على المذهبين؛ لأن الظرف جرى صلة لَمنْ[(٤)]، «ومَنْ» هاهنا بمعنى الذي.

والتقدير: من ثبت عنده علم الكتاب.

قال جمهور المفسرين: الذي عنده علم الكتاب؛ عبد الله بن سلام[(٥)].

جرى قبل ذلك عن جماعتهم وأتبع بعده الخبر عنهم، وذلك قوله: ﴿وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك﴾ وبعده قوله: ﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلا﴾.

(١) زاد المسير (٤/ ٣٤١).

(٢) زيادة على الأصل.

(٣) التبيان (٢/ ٦٥)، والدر المصون (٤/ ٢٤٨).

(٤) التبيان (٢/ ٦٥)، والدر المصون (٤/ ٢٤٨).

(٥) أخرجه الطبري (١٣/ ١٧٦-١٧٧)، ومجاهد (ص:٣٣١). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٦٨) =

قال قتادة: عبد الله بن سلام، وسلمان، وتميم الداري[١]. وهذا يجيء على القول الأول أن المراد بالذين كفروا: أهل الكتاب.

وقال الحسن ومجاهد: الذي عنده علم الكتاب؛ هو الله عز وجل[٢].

واختاره الزجاج[٣] معللاً أن الله تعالى لا يَستشهد على خلقه غيرَه.

وهو تعليل فاسد. قال الله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ [النساء:٤١]. وقال تعالى: ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم ... الآية﴾ [النور:٢٤]، وفي القرآن والحديث من هذا كثير، فيكون المراد بالكتاب على هذا القول: اللوح المحفوظ.

وقال سعيد بن جبير: هو جبريل عليه السلام[٤].

وقال ابن الحنفية: هو علي عليه السلام[٥].

وقيل: المعنى من عنده علم القرآن، وهم الراسخون في العلم المدركون في بلاغة القرآن وفصاحته وافتنان أساليب خطابه.

وقرأتُ للكسائي من رواية ابن أبي سريج: «ومِن عندِه» بكسر الميم والدال.

= وعزاه لابن سعد وابن أبي شيبة وابن المنذر عن مجاهد.

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ١٧٧). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٦٨) وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ١٧٧). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٦٩) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) معاني الزجاج (٣/ ١٥٢).

(٤) زاد المسير (٤/ ٣٤٢). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٦٩) وعزاه لابن أبي حاتم.

(٥) زاد المسير (٤/ ٣٤٢).

«عُلِمَ» على البناء للمفعول. «الكتاب» بالرفع، وهي قراءة ابن السميفع وابن أبي عبلة[١].

وقرأ الحسن: «ومِن عندِه»[٢]، كابن أبي سريج «علم الكتاب» كالباقين، يجعلها جملة مستأنفة لا ارتباط لها بما قبلها.

(١) زاد المسير (٤/ ٣٤٢)، والدر المصون (٤/ ٢٤٨).

(٢) إتحاف فضلاء البشر (ص: ٢٧٠).

سورة إبراهيم عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي أربع وخمسون آية في المدني، واثنتان في الكوفي، وهي مكية.

واستثنى ابن عباس: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً﴾ والتي [بعدها][1].

الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ﴿٢﴾

قوله تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك﴾ «كتاب» خبر مبتدأ مضمر، أي: هذا كتاب، والجملة التي هي أنزلناه في موضع الرفع صفة للنكرة[2].

﴿لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾ قال ابن عباس: من الشرك إلى الإيمان[3].

﴿بإذن ربهم﴾ بلطفه وتوفيقه إياهم. وقال الزجاج[4]: بما أذن لك من تعليمهم.

---

(١) في الأصل: قبلها. والمثبت من زاد المسير (٤/ ٣٤٣).

(٢) التبيان (٢/ ٦٥)، والدر المصون (٤/ ٢٤٩)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٣٦٣).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ٢٢)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٤٣).

(٤) معاني الزجاج (٣/ ١٥٣).

﴿إلى صراط العزيز الحميد﴾ بدل من «النور» بتكرير العامل[١]، كقوله: ﴿للذين استضعفوا لمن آمن منهم﴾ [الأعراف:٧٥].

وقال الزجاج[٢]: ثم بيّن ما النور فقال: ﴿إلى صراط العزيز الحميد﴾.

قال ابن الأنباري[٣]: وهذا مثل قول العرب: جلست إلى زيد إلى العاقل الفاضل. وإنما تعاد «إلى» لمعنى التعظيم للأمر. قال الشاعر[٤]:

إذا خدرتْ رجلي تذكرتُ من لها فناديتُ لبنى باسمها ودعوت

دعوت التي لو أن نفسي تُطيعني لألقيتها في حبها وقضيتُ

فأعاد «دعوت» لتفخيم الأمر.

قوله تعالى: ﴿الله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾ قرأ نافع وابن عامر: «اللهُ» بالرفع، وقرأتُ به لأبي عمرو من رواية عبد الوارث، ولعاصم من رواية أبان، ورواية المفضل. وقرأ الباقون: «اللهِ» بالجر[٥]. فمن رفع فعلى الابتداء وما بعده الخبر، أو على معنى: هو الله. ومن جَر جعله عطف بيان للـ«عزيز الحميد»؛ لأن اسم الله تعالى جرى مجرى أسماء الأعلام لغلبته واختصاصه بالمعبود، كما غلب للنجم الثريا أو هو بدل[٦].

---

(١) التبيان (٢/ ٦٥)، والدر المصون (٤/ ٢٤٩).

(٢) معاني الزجاج (٣/ ١٥٣).

(٣) انظر: زاد المسير (٤/ ٣٤٤).

(٤) البيتان لقيس بن ذريح، وهما في: الأغاني (٩/ ٢٢٥)، وزاد المسير (٤/ ٣٤٤).

(٥) الحجة للفارسي (٢/ ١٤)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٧٦)، والكشف (٢/ ٢٥)، والنشر (٢/ ٢٩٨)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٧١)، والسبعة في القراءات (ص:٣٦٢).

(٦) التبيان (٢/ ٦٥)، والدر المصون (٤/ ٢٥٠)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٣٦٣).

﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ۝٣ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة﴾ مبتدأ، خبره: ﴿أولئك في ضلال بعيد﴾[١].

ويجوز أن يكون في موضع الجر وصفاً للكافرين[٢].

ومعنى «يستحبون»: يحبون ويؤثرون، يقال: أَحَبَّ واستَحَبَّ، مثل: أجاب واستجاب، وأوقد واستوقد.

قال ابن عباس: يأخذون ما تعجل لهم منها تهاوناً بأمر الآخرة واستبعاداً لها، كقوله: ﴿إن هؤلاء يحبون العاجلة﴾[٣] [الإنسان:٢٧].

وما بعده سبق تفسيره إلى قوله: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ أي: بلغتهم ﴿ليبين لهم﴾ فيفقهوا عنه ما بُعث به، فإذا ظهر واشتهر وقويت شوكته بهم بث دعاته يترجمون للأمم بألسنتهم.

وقد روي عن الضحاك: أن الضمير في «قومه» لمحمد ﷺ، وأن الكتب كلها نزلت بالعربية، ثم أداها كل نبي بلسان قومه. وليس هذا شيء، لأن قوله: ﴿ليبين

---

(١) الدر المصون (٤/ ٢٥١).

(٢) التبيان (٢/ ٦٦)، والدر المصون (٤/ ٢٥١).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ٢٣)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٤٥).

لهم﴾ يفسده.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

وما بعده سبق تفسيره إلى قوله: ﴿أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور﴾.

قال الزجاج[١]: المعنى: أرسلناه بأن يخرج قومه.

ويجوز أن تكون مفسرة. المعنى: أرسلنا موسى بآياتنا أي أخرج، كأن المعنى قلنا له: أخرج قومك، ومثله: ﴿أن امشوا﴾ [ص:٦] أي: قالوا لهم امشوا واصبروا على آلهتكم.

﴿وذكرهم بأيام الله﴾ قال مجاهد وقتادة وابن قتيبة[٢]: بنعم الله[٣]. يشيرون إلى ما خصّهم به من التظليل بالغمام، وإنزال المن والسلوى عليهم، وإهلاك عدوهم، وفَلْق البحر لهم.

أخبرنا المؤيد بن محمد بن علي في كتابه، أبنا عبد الجبار بن محمد الخواري، أبنا علي بن أحمد النيسابوري، ثنا عبد القاهر بن طاهر، أبنا محمد بن الحسن بن أحمد السراج، أبنا محمد بن عبدالله الحضرمي، ثنا عبد الحميد بن صالح، ثنا محمد بن أبان، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ في قوله:

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ١٥٥).

(٢) تفسير غريب القرآن (ص:٢٣٠).

(٣) أخرجه الطبري (١٣/ ١٨٣-١٨٤)، ومجاهد (ص:٣٣٣). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٦) وعزاه للطبري عن مجاهد.

﴿وذكرهم بأيام الله﴾ قال: ((أيامه: نِعَمه))[١].

فإن صح الحديث فهو التفسير لا غير.

ومحمد بن أبان ضعيف عند أهل النقل. قال ابن معين: ضعيف الحديث لا يكتب حديثه[٢].

وقال البخاري: محمد بن أبان يتكلمون في حفظه، حديثه ليس بالقوي[٣].

وقال جماعة؛ منهم ابن زيد وابن السائب ومقاتل[٤]: «ذكرهم بأيام الله»: بوقائعه في الأمم[٥].

وقال الزجاج[٦]: ذكرهم بأيام الله التي [انتقم][٧] فيها من قوم نوح وعاد وثمود. أي: ذكِّرْهُم بالأيام التي سلفت لمن كفر وما نزل بهم فيها، وذكرهم بنعم الله.

وهذا قول شديد؛ لأن المراد: ذكّرهم مُرَغِّباً ومُرَهِّباً بما كان في أيام الله من النِّعم

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٢٢)، والطبري (١٣/ ١٨٤)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٣٥). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٦) وعزاه للنسائي وعبدالله بن أحمد في زوائد المسند وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الشعب.

(٢) الجرح والتعديل (٧/ ١٩٩).

(٣) ميزان الاعتدال (٦/ ٤١).

(٤) تفسير مقاتل (٢/ ١٨٣).

(٥) أخرجه الطبري (١٣/ ١٨٤) عن ابن زيد. وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٤٦)، والسيوطي في الدر (٥/ ٦) وعزاه لابن أبي حاتم عن الربيع.

(٦) معاني الزجاج (٣/ ١٥٥).

(٧) في الأصل: أنقذهم. والتصويب من معاني الزجاج، الموضع السابق.

والنِّقم، فاجتزأ عنها بذكر الأيام؛ لاشتمالها عليها، ومبادرةِ الأفهام إليها.

﴿إن في ذلك﴾ التذكير ﴿لآيات﴾ لعبراً ودلالات ﴿لكل صبَّار﴾ على البلاء ﴿شكور﴾ للنعماء.

وإنما خص الصَّبَّارَ الشَّكُورَ بالذِّكْر؛ لموضع انتفاعه بالتذكير، وتنبيهه على ما يجب عليه من الصبر والشكر، وإلا ففيه آيات لكل فاهم شكور أو كفور جزوع أو صبور.

وقيل: أراد لكل مؤمن؛ لأن الصبر والشكر من سجايا المؤمنين.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾

وما بعده مفسر في البقرة والأعراف إلى قوله: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾.

فإن قيل: ما موضع قوله: ﴿وإذ تأذن ربكم﴾ من الإعراب؟

قلت: هو من جملة ما قاله موسى لقومه، بدليل قوله فيما بعده: ﴿وقال موسى﴾ فإذا ثبت ذلك فموضعه النصب عطفاً على قوله: ﴿نعمة الله عليكم﴾.

واذكروا حين تأذن ربكم فقال: لئن شكرتم لأزيدنكم، وأجرى «تأذن» مجرى قال؛ لأنه ضربٌ من القول.

وفي قراءة ابن مسعود: «وإذ قال ربكم»(١).

والمعنى: لئن شكرتم يا بني إسرائيل ما خولت لكم من نعمة الإنجاء وغيرها بالتوحيد والطاعة لأزيدنكم من النعم.

وقال سفيان بن عيينة: لأزيدنكم من طاعتي التي تقود إلى جنتي(٢).

وفي هذا إيذان أن الشكر والحمد مثبت لدوام النعمة وزيادتها.

قرأتُ على ابن بهروز، أخبركم أبو الوقت، أبنا أبو الحسن الداودي، أبنا ابن حمويه، أبنا أبو إسحاق إبراهيم بن خريم الشاشي، أبنا عبد بن حميد، أبنا محمد بن الفضل، أبنا حماد بن سلمة، عن عمرو بن دينار قهرمان آل الزبير، عن سالم بن عبدالله [بن](٣) عمر عن أبيه عن جدّه عن النبي ﷺ قال: « من رأى عبداً به بلاء فقال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً، لم يصبه ذلك البلاء كائناً ما كان »(٤).

﴿ولئن كفرتم﴾ عصيتم نعمتي وجحدتموها بالكفر والمعصية، ﴿إن عذابي لشديد﴾ لمن كفر نعمتي.

﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني﴾ عن طاعتكم لم يأمركم بها لحاجة به إليها، فإنه مُنزّه عن النفع والضر، وإنما نفع الطاعة

(١) البحر المحيط (٥/ ٣٩٦).

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ١٨٦). وانظر: الوسيط (٣/ ٢٤) من قول ابن عباس، وزاد المسير (٤/ ٣٤٧) من قول الحسن.

(٣) في الأصل: عن. والتصويب من مسند عبد بن حميد (١/ ٤٣).

(٤) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٩٣ ح٣٤٣١)، وابن ماجه (٢/ ١٢٨١ ح٣٨٩٢)، ومسند عبد بن حميد (١/ ٤٣ ح٣٨).

راجع إليكم، ووبال المعصية عائد إليكم، ﴿حميد﴾ مستوجب للحمد؛ لكثرة خيره وإحسانه إلى خلقه.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله﴾ اعتراض، والمعنى: أنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله.

وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال: كذب النسّابون[(١)].

وقال ابن الأنباري[(٢)]: إن الله تعالى أهلك أمماً من العرب وغيرها، فانقطعت أخبارهم وعفت آثارهم، فليس يعرفهم أحد إلا الله تعالى.

قال ابن عباس: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون[(٣)].

﴿جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم﴾ قال ابن مسعود: عضّوا أصابعهم غيظاً وحنقاً على الرسل[(٤)].

---

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ١٨٧)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٣٦). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٩) وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) انظر: الوسيط (٣/ ٢٤)، وزاد المسير (٤/ ٣٤٨).

(٣) ذكره السيوطي في الدر (٥/ ١٠) وعزاه لأبي عبيد وابن المنذر. وذكره المناوي في فيض القدير (٣/ ٣٧)، وأبو السعود في تفسيره (٥/ ٣٦).

(٤) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٨١)، والطبراني في الكبير (٩/ ٢٢٩)، والطبري (١٣/ ١٨٨)، وابن أبي

وقال الحسن: وضعوا أيديهم على أفواه الرسل رداً لقولهم وتسكيتاً لهم[١].

وقيل: «ردوا أيديهم في أفواههم»: أومأوا [إليهم][٢] بأن اسكتوا. وهذا مروي عن ابن عباس وغيره[٣].

﴿وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به﴾ أي: على زعمكم؛ لأنهم لم يكونوا يُقرّون برسالاتهم.

﴿وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب﴾ الريب: الشك، تقول: رَابَني هذا الأمر؛ إذا أدخل عليك شكّاً وخوفاً، وأَرَابَ الرجُل: صار ذا ريبة، وأرابه غيره: أوقعه في الريبة[٤]. فقوله: «مريب» يجوز أن يكون معناه: موقع للريبة، ويجوز أن يكون معناه: ذي ريبة.

۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ =

حاتم (٧/ ٢٢٣٧). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ١٠) وعزاه لعبدالرزاق والفريابي وأبي عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(١) الطبري (١٣/ ١٨٩) بلا نسبة، وزاد المسير (٤/ ٣٤٩).

(٢) في الأصل: إلي. والصواب ما أثبتناه.

(٣) زاد المسير (٤/ ٣٤٨).

(٤) انظر: اللسان (مادة: ريب).

وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

﴿قالت رسلهم أفي الله شك﴾ استفهام في معنى الإنكار. والمعنى: أفي وحدانية الله الواضحة والدلائل شكّ؟.

﴿فاطر السموات والأرض﴾ بيان لوحدانيته، ﴿يدعوكم ليغفر لكم﴾ أي: يدعوكم إلى الإيمان ليغفر لكم ﴿من ذنوبكم﴾ قال أبو عبيدة[(١)]: «مِنْ» زائدة؛ كقوله: ﴿فما منكم منْ أحد عنه حاجزين﴾ [الحاقة:٤٧] قال أبو [ذؤيب][(٢)]:

جَزيتُكِ ضِعْفَ الحبّ لما شكوتُه وما إنْ جزاكِ الضِّعفَ من أحدٍ قبْلي[(٣)]

وقال الزمخشري[(٤)]: إن قلت: ما معنى التبعيض في قوله: ﴿من ذنوبكم﴾؟

قلت: ما علمتُه جاء هكذا إلا في خطاب الكافرين، كقوله: ﴿واتقوه وأطيعون * يغفر لكم من ذنوبكم﴾ [نوح:٣-٤]، ﴿يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم﴾ [الأحقاف:٣١]. وقال في خطاب المؤمنين: ﴿هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾ إلى قوله: ﴿يغفر لكم ذنوبكم﴾ [الصف:١٠-١٢] وغير ذلك مما يقفك عليه الاستقراء وكان ذلك بين الخطابين، ولئلا يسوّي بين

---

(١) مجاز القرآن (١/ ٣٣٦).

(٢) في الأصل: ذئب. والتصويب من مجاز القرآن، الموضع السابق.

(٣) انظر البيت في: زاد المسير (٤/ ٣٥٠)، وروح المعاني (٨/ ١١٦)، واللسان (مادة: ضعف، وفيه «الود» بدل: «الحب»، و «استبنته» بدل «شكوته»).

(٤) الكشاف (٢/ ٥١٠).

الفريقين في الميعاد.

﴿ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾ إلى وقت قد سمّاه وبيّن مقداره، وهو الموت. والمعنى: يدعوكم ليغفر لكم ويمتعَكم بالحياة، آمنين من العذاب إلى وقت انقضاء أجلكم بالموت، ﴿قالوا إن أنتم﴾ أي: ما أنتم ﴿إلا بشر مثلنا﴾ لا فضل لكم علينا [فلماذا][1] خصكم بالنبوة دوننا؟.

﴿تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين﴾ مفسر فيما مضى.

ولعمري إن الله تعالى لم يبعث رسولاً إلا مؤيَّداً بسلطان دالّ على رسالته، ولكن سألوهم الإتيان بآيات اقترحوها تعنتاً عليهم ولجاجاً في كفرهم، فاعترفت لهم رسلهم بمساواتهم إياهم في وصف البشرية، فقالوا: ﴿إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمنّ على من يشاء من عباده﴾ بالنبوة من غير اكتساب ولا سعي.

أخبرنا أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد الكندي، أخبرنا أبو منصور عبد الرحمن بن محمد القزاز، أبنا الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب، وثنا عبد الوهاب بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد بن الليث بن سليمان بن الأسود بن سفيان بن يزيد بن أكينة بن عبد الله التميمي[2] قال: سمعت أبي يقول: سمعت أبي

---

(١) في الأصل: فماذا. والصواب ما أثبتناه.

(٢) عبد الوهاب بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد، أبو الفرج التميمي، كان له في جامع المنصور حلقة للوعظ والفتوى على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ولد في سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، ومات في ليلة الثلاثاء الرابع من شهر ربيع الأول سنة خمس وعشرين وأربعمائة عند قبر الإمام أحمد بن حنبل (تاريخ بغداد ١١/ ٣٢).

يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام وقد سئل عن الحنان المنان فقال: « الحنان الذي يُقبِل على من أعرض عنه، والمنان الذي يبدأ بالنوال قبل السؤال »[١].

قال الخطيب[٢]: بين أبي الفرج عبد الوهاب وبين علي تسعة آباء آخرهم أكينة، وهو السامع علياً عليه السلام.

﴿وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان﴾ أي: بحجة من الحجج اللواتي يقترحون علينا الإتيان بها ﴿إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أمر من الرسل للمؤمنين كافة بالتوكل على الله.

﴿وما لنا ألا نتوكل على الله﴾ أي: أيّ عذر لنا في أن لا نتوكل على الله، ﴿وقد هدانا سبلنا﴾ أي: بيّن لنا طريق الوصول إليه ومذهب التوكل عليه.

وفي قولهم: ﴿لنصبرن على ما آذيتمونا﴾ إيذان بانتظار الفرج من الله، فإن النصر مع الصبر.

﴿وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾ قال صاحب الكشاف[٣]: الأمر الأول لاستحداث التوكل. وقوله: «فليتوكل المتوكلون» معناه: فليثبت المتوكلون على ما استحدثوا من توكلهم.

قال المفسرون: وإنما قصّ الله تعالى هذا وأمثاله على رسول الله ﷺ ليقتدي بهم

---

(١) ذكره القرطبي (١٦/ ٩٣-٩٤)، والخطيب في تاريخ بغداد (١١/ ٣٢).

(٢) تاريخ بغداد (١١/ ٣٢).

(٣) الكشاف (٢/ ٥١١).

في الصبر على الأذى ويهتدي بهم[١].

قرأتُ على القاضي أبي الفرج يحيى بن سعد الله بن أبي تمام التكريتي بها في سنة عشر وستمائة، أخبركم أبو المكارم بن محمد بن معمر البادرائي[٢] فأقرَّ به.

وقرأتُ على أبي محمد عبدالرحمن بن إبراهيم بن أحمد الفقيه الحنبلي بدمشق، أخبرتكم شهدة بنت أحمد بن الفرج الكاتبة فأقرَّ به قالا: أخبرنا أبو الخطاب نصر بن البطر، أبنا أبو الحسين علي بن بشران المعدل، ثنا أبو علي الحسين بن صفوان، ثنا ابن أبي الدنيا، ثنا محمد بن إدريس، ثنا موسى بن أيوب، ثنا بقية، عن زرعة بن عبدالله بن كريز قال: كتب عامل إفريقية إلى عمر بن عبد العزيز يشكو الهوامّ والعقارب، فكتب إليه: وما على أحدكم إذا أمسى وأصبح أن يقول: ﴿وما لنا ألا نتوكل على الله... الآية﴾[٣].

قال زرعة: وهي [تنفع][٤] من البراغيث.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾

(١) زاد المسير (٤/ ٣٥٠).

(٢) المبارك بن محمد بن المعمر، أبو المكارم البادرائي، توفي في تاسع عشر جمادى الآخرة، ودفن يوم الخميس من سنة سبع وستين وخمسمائة (تكملة الإكمال ١/ ٣٤٤).

(٣) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٤٧٣).

(٤) في الأصل: تنفرع. وانظر: كشف الخفاء، الموضع السابق.

يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

وما بعده سبق تفسيره في قصة شعيب في الأعراف إلى قوله تعالى: ﴿فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين﴾ أو لأن في الإيحاء معنى القول.

﴿ولنسكننكم الأرض﴾ يعني: أرض الظالمين ﴿من بعدهم﴾ أي: من بعد هلاكهم ﴿ذلك﴾ إشارة إلى إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ﴿لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾ قال ابن عباس: خاف مقامه بين يديّ[1]، وهذا من باب إضافة المصدر إلى المفعول.

قال الفراء[2]: العرب قد تضيف أفعالها إلى أنفسها وإلى ما أُوقعت عليه، فيقولون: قد ندمت على ضربي إياك، وندمت على ضربك، فهذا من ذاك، ومثله: ﴿وتجعلون رزقكم﴾ [الواقعة:٨٢] أي: رزقي إياكم.

وقال بعضهم: «خاف مقامي» أي: موقفي، وهو موقف الحساب.

وقيل: خاف قيامي عليه وحفظي لأعماله.

﴿وخاف وعيد﴾ بالعذاب، وأثبت الياء في الحالين يعقوب، تابعه وَرْش في الوصل، وحذفها الباقون[3]. وقد نبّهنا على علّة ذلك فيما مضى.

قوله تعالى: ﴿واستفتحوا﴾ يعني: الرسل عليهم الصلاة والسلام، استنصروا

---

(١) الطبري (١٣/ ١٩٢)، والوسيط (٣/ ٢٦)، وزاد المسير (٤/ ٣٥٠).

(٢) معاني الفراء (٢/ ٧١).

(٣) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٧١).

الله على أعدائهم.

وقيل: «استفتحوا»: استحكموا الله تعالى وسألوه القضاء بينهم؛ كقوله: ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾ [الأعراف:٨٩].

وقد ذكرنا فيما مضى أن أهل عُمان يسمون القاضي فاتحاً وفتاحاً. وأنشدني بعض الفضلاء من أهل العربية:

خوفني اليمين فارتعت منها   عند باب الفتاح أيّ ارتياع
ثم أرسلتها كما انحدر السيل   تهادى من المكان اليَفَاع[1]

وقيل: الضمير في قوله: «واستفتحوا» يعود إلى الكفار، كقولهم: ﴿إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ [الأنفال:٣٢]، وقولهم: ﴿ربنا عجل لنا قطّنا﴾ [ص:١٦] أي: نصيبنا من العذاب.

وقوله: ﴿وخاب كل جبار عنيد﴾ أي: خسر حظه من الآخرة.

وقد سبق معنى الجبار والعنيد في هود[2].

قرأت على الشيخ أبي بكر بن مسعود، أخبركم عبد الأول فأقرّ به، أخبرنا عبدالرحمن، أبنا عبدالله، أبنا إبراهيم، ثنا عبد بن حميد، ثنا عبيد الله بن موسى، أبنا ابن أبي ليلى، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج عنقٌ من النار يوم القيامة فيقول: إني وُكلْتُ اليوم بكل جبار عنيد، [ومن][3] جعل مع الله إلهاً آخر. قال: فينطوي عليهم فيطرحهم في غمرات

---

(١) اليَفَاع: ما ارتفع من الأرض (اللسان، مادة: يفع).

(٢) ص: ١٧٧.

(٣) في الأصل: من. والتصويب من مسند عبد بن حميد (١/ ٢٨٢).

جهنم))[١].

قوله تعالى: ﴿من ورائه جهنم﴾ قال ابن عباس والمفسرون: يريد: أمامه جهنم[٢].

وقال أبو عبيدة[٣]: تقول: الموت وراءك، أي: قدّامك. وأنشدوا:

عسى الهمّ الذي أمسيتَ فيه ... يكون وراءه فَرَجٌ قريب[٤]

وأصرح من هذا في الدلالة قول ابن أبي عروبة[٥]:

إني وإن كان ابن عمي غائباً ... لمزاحم من خلفه وورائه

ومفيده نصري وإن كان امرءاً ... متزحزحاً في أرضه وسمائه

وقيل: «من ورائه جهنم» أي: من بعده جهنم.

قال الزجاج[٦]: الوراء يكون بمعنى الخَلْف والقُدَّام؛ لأن ما بين يديك وما [قدامك][٧] إذا توارى عنك فقد صار وراءك. قال الشاعر:

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٠ ح١١٣٧٢)، وابن أبي شيبة (٧/ ٥١ ح٣٤١٤١)، وعبد بن حميد في مسنده (١/ ٢٨٢ ح٨٩٦).

(٢) الطبري (١٣/ ١٩٥)، والوسيط (٣/ ٢٦)، وزاد المسير (٤/ ٣٥١).

(٣) مجاز القرآن (١/ ٣٣٧).

(٤) البيت لهدبة بن الخشرم راوية الحطيئة. انظر البيت في: الكتاب (٣/ ١٥٩)، والمقتضب (٣/ ٧٠)، وأمالي القالي (١/ ٧١، ٧٢)، وابن يعيش (٧/ ١١٧، ٢١٢)، وأوضح المسالك (١/ ١٤٣)، والدر المصون (٤/ ٢٥٧).

(٥) انظر البيتان في: الأغاني (١٦/ ٢٢٨).

(٦) معاني الزجاج (٣/ ١٥٦). وانظر: زاد المسير (٤/ ٣٥٢).

(٧) في الأصل: خلفك. والمثبت من زاد المسير، الموضع السابق.

أَليسَ ورائي إن تراختْ مَنيَّتي لزومُ العصا تُحنَى عليها الأصابع[١]

قال[٢]: وليس الوراء من الأضداد، كما يقول بعض أهل اللغة.

وقال علي بن عيسى: يجوز في الأجسام التي لا وجه لها؛ كحجرين متقابلين، كل واحد وراء الآخر، ولا يجوز في غيرها[٣].

قوله تعالى: ﴿ويسقى﴾ عطف على محذوف، تقديره: من ورائه جهنم يُلقى فيها ويُسقى[٤] ﴿من ماء صديد﴾ و «صديد» عطف بيان لـ«ماء»[٥].

قال الزمخشري[٦]: قال: «من ماء» فأبهم إبهاماً، ثم بينه بقوله: «ماء صديد».

قال المفسرون: يريد: صديد القيْح والدم الذي يخرج من فروج الزناة[٧].

وقال مجاهد وعكرمة واللغويون: الصديد: القيح والدم[٨].

وقرأتُ على أبي المجد القزويني، أخبركم أبو منصور الطوسي فأقرَّ به قال: سمعت أبا محمد الحسين بن مسعود يقول: أبنا أبو بكر بن أبي توبة، أبنا أبو طاهر

(١) البيت للبيد بن ربيعة العامري. انظر: ديوانه (ص:٨٩)، وتهذيب اللغة (١٥/ ٣٠٤)، والدر المصون (٤/ ٢٥٧)، والبحر (٥/ ٤٠٢)، وزاد المسير (٤/ ٣٥٢).

(٢) معاني الزجاج (٣/ ١٥٧).

(٣) تفسير القرطبي (١١/ ٣٦).

(٤) الدر المصون (٤/ ٢٥٧).

(٥) انظر: المصدر السابق.

(٦) الكشاف (٢/ ٥١٣).

(٧) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ٢٦)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٥٣).

(٨) أخرجه الطبري (١٣/ ١٩٥)، ومجاهد (ص:٣٣٤)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٣٩). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ١٥) وعزاه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة، ومن طريق آخر عن مجاهد، وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في البعث والنشور.

الحارثي، أبنا محمد بن يعقوب الكسائي، أبنا عبدالله بن محمود، أبنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالله الخلال، ثنا عبدالله بن المبارك، عن صفوان [بن][1] عمرو، عن عبيد الله بن بسر عن أبي أمامة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ويسقى من ماء صديد * يتجرعه﴾ قال: «يُقَرَّبُ إليه فيكرهه، فإذا أدني منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره، يقول الله تعالى: ﴿وسقوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءهم﴾، ويقول: ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب﴾ »[2]. أخرجه الإمام أحمد في المسند عن علي بن إسحاق عن ابن المبارك.

قال الترمذي: هذا حديث غريب، لا يعرف عبيد الله بن بسر إلا في هذا الحديث، وقد روى صفوان بن عمرو عن عبيد الله بن بسر صاحب النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿يتجرّعه﴾ أي: يتحسّاه بتكلف ومشقة جرعة جرعة، ﴿ولا يكاد يسيغه﴾ لشدة كراهيته وفرط مرارته وحرارته إلا بعد عناء وإبطاء، تقول: جَرعتُ الماء أجْرعه جَرْعاً وجَرّعْته؛ إذا [احتسيته][3]، وتجرَّع الغُصَص. والجَرْعَة: اسم لما يجرع مرة واحدة، وجمعه: جُرَع.

قال صاحب الكشاف[4]: دخل «كاد» للمبالغة. يعني: ولا يقارب أن يسيغه،

---

(١) في الأصل: عن. والتصويب من مصادر التخريج. وانظر ترجمته في: تهذيب التهذيب (٤/ ٣٧٦)، والتقريب ص:٢٧٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ٧٠٥ ح٢٥٨٣)، وأحمد (٥/ ٢٦٥).

(٣) في الأصل: امتسيته. والصواب ما أثبتناه.

(٤) الكشاف (٢/ ٥١٣).

فكيف تكون الإساغة، كقوله تعالى: ﴿لم يكد يراها﴾ [النور: ٤٠] أي: لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها.

﴿ويأتيه الموت﴾ أي: أسبابه وآلامه ﴿من كل مكان﴾ قال ابن عباس: من كل شعرة في جسده[(١)].

وقال في رواية عنه: من جميع جهاته، من فوقه وتحته، وعن يمينه وشماله، وخلفه وقدّامه[(٢)].

وقال سفيان الثوري: من كل عرق في جسده[(٣)].

﴿وما هو بميت﴾ موتاً يقطع الحياة. قال ابن جريج: تَعْلَقُ نفسُه عند حنجرته، فلا تخرج من فيه فيموت، ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة[(٤)].

﴿ومن ورائه﴾ أي: ومن بعد هذا العذاب، أو من بعد الصديد، أو من بين يديه ﴿عذاب غليظ﴾ متصل الآلام.

قال إبراهيم التيمي: يعني: الخلود في النار[(٥)].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ١٦٠)، والطبري (١٣/ ١٩٦)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٣٩) كلهم عن إبراهيم التيمي. وذكره السيوطي في الدر (٥/ ١٦) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم عن إبراهيم التيمي.

(٢) الطبري (١٣/ ١٩٦)، وزاد المسير (٤/ ٣٥٤).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ٢٧)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٥٣).

(٤) أخرجه الطبري (١٣/ ١٩٦) من طريق ابن جريج عن مجاهد. وذكره السيوطي في الدر (٥/ ١٦) وعزاه للطبري عن مجاهد.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٣٩).

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ۝١٨﴾

قوله تعالى: ﴿مثل الذين كفروا بربهم﴾ أي: فيما يتلى عليكم مثل الذي كفروا بربهم، فأضمر الخبر.

والفراء يزعم أن «مثلا» ملغى، وجاء الخبر بقوله: ﴿أعمالهم كرماد اشتدت﴾ عن المضاف إليه.

قال الزجاج(١): وجائز أن يكون والله تعالى أعلم المعنى: صفة الذين كفروا بربهم أعمالهم، كما تقول: صفة زيد أسمر، أي: زيد أسمر.

وقال غيره: المثل مستعار للصفة التي فيها [غرابة](٢).

وقوله: «أعمالهم كرماد» جملة مستأنفة على تقدير سؤال السائل، تقول: كيف مَثَلُهم؟ فقيل: أعمالهم كرماد.

ويجوز أن يكون «مثل أعمال الذين كفروا بربهم» أو هذه الجملة خبر للمبتدأ، أي: صفة الذين كفروا أعمالهم كرماد؛ كقولك: صفةُ زيدٍ عِرْضُه مَصُونٌ، ومالُه مبذولٌ. أو يكون «أعمالهم» بدلاً من «مثل الذين كفروا» على تقدير: مثل أعمالهم، «كرماد» الخبر(٣).

﴿اشتدت به الريح في يومٍ عاصف﴾ جعل العصف لليوم، والمراد: ما اشتمل

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ١٥٧).

(٢) في الأصل: عذابه. وانظر: الدر المصون (٤/ ٢٥٨).

(٣) التبيان (٢/ ٦٧)، والدر المصون (٤/ ٢٥٧-٢٥٨).

اليوم عليه من الريح.

وقرأ النخعي والجحدري: «في يومِ» بغير تنوين[١]، على إضافته إلى «عاصف»، وهو على حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه، أي: في يوم ريح عاصف.

﴿لا يقدرون مما كسبوا على شيء﴾ أي: لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا على شيء في الدنيا من الأعمال الصالحة؛ كالصدقة، والنفقة، وإغاثة الملهوف، وبذل المعروف، وعتق الرقاب، وفكّ الأسراء، لا يقدرون من ثوابه على شيء ولا يرون له أثراً [لكفرهم][٢]، بل يذهب كذهاب الرماد في اليوم الرايح، ﴿ذلك هو الضلال البعيد﴾ عن طريق الحق أو عن الثواب.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق﴾ أي: بالحكمة، لم يخلقهما عبثاً ولا باطلاً.

---

(١) زاد المسير (٤/ ٣٥٥).

(٢) في الأصل: كفرهم. والصواب ما أثبتناه.

وقرأ حمزة والكسائي: «خالق السموات والأرض» على الإضافة[1]، واسم الفاعل بمعنى المضيّ، الإضافة محضة، بخلافها في قوله تعالى: ﴿بالغ الكعبة﴾ [المائدة:٩٥]، و﴿ثاني عطفه﴾ [الحج:٩].

﴿إن يشأ يذهبكم﴾ يميتكم يا معشر الكفار، ﴿ويأت بخلق جديد﴾ أطوع له منكم، ﴿وما ذلك على الله﴾ القادر على إيجاد المعدوم وإعدام الموجود ﴿بعزيز﴾ متعذر عليه.

قوله تعالى: ﴿وبرزوا لله جميعاً﴾ أي: يبرزون لله، وجاء بصيغة الماضي لتحقق كونه، ومثله: ﴿ونادى أصحاب الأعراف﴾ [الأعراف:٤٨] وأمثاله.

فإن قيل: الله لا يخفى عليه خافية، فكيف قال: ﴿وبرزوا لله﴾؟

قلت: كانوا يتسترون في الدنيا من فضائحهم. ومنهم من يظن أنه يخفى على الله ما يستره، منه قول أحد ذينك الرجلين لصاحبه: أترى الله يسمع ما نقول؟ فقال الآخر: يسمع إذا جهرنا ولا يسمع إذا أخفينا. فإذا ظهرتْ فضائحُهم وشهدت عليهم جوارحُهم يوم القيامة علموا حينئذ وتيقنوا أنهم برزوا لله جميعاً، وأنه لا يخفى شيء من أعمالهم وأحوالهم.

وقيل: إذا خرجوا من قبورهم برزوا لموقف الحساب.

﴿فقال الضعفاء﴾ وهم الأتباع ﴿للذين استكبروا﴾ للمتبوعين الذين أنِفُوا عن الخضوع لعظمة الله والاعتراف بوحدانيته والاستسلام لرسله: ﴿إنا كنا لكم تبعاً﴾

---

(١) الحجة للفارسي (٣/ ١٦)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٧٦)، والكشف (٢/ ٢٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٩٨)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٧٢)، والسبعة في القراءات (ص:٣٦٢).

قال الزجاج[١]: هو جمع تابع، مثل غائب وغَيَبٌ.

وقال غيره: يجوز أن يكون مصدراً، أي: ذوي تبع.

﴿فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء﴾ كلامٌ يلوح منه لوم القوم، حيث كانوا السبب في استهوائهم واستغوائهم، وليس كما يزعمه المفسرون من أنهم سألوهم الدفع عنهم؛ لأنهم قد علموا أنهم لا يقدرون على نصر أنفسهم ولا على الدفع عنها، فكيف يدفعون عن غيرهم، فوبخوهم وبكتوهم [بقولهم][٢]: هل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء.

ويحقق هذا المعنى قولهم في الجواب: ﴿لو هدانا الله لهديناكم﴾.

و «مِنْ» في قوله: ﴿من عذاب الله﴾ للتبيين، وفي قوله: ﴿من شيء﴾ للتبعيض. ولا يجوز أن يكونا للتبعيض.

فإن قيل: كيف انتظم قولهم: ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا﴾ بما قبله؟

قلت: كأنّ المتبوعين علموا أن الحامل للتابعين على توبيخهم الهلع والجزع، فأعلموهم أنه لا يجدي لهم نفعاً ولا يدفع عنهم ضرراً، ونظموهم في سلكهم لاشتراكهم في الضلال، فقالوا: ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص﴾ من مهرب ومنجى من العذاب.

قال ابن زيد: إن أهل النار قال بعضهم لبعض: تعالوا نبكي ونتضرع، فإنما أدرك أهل الجنةِ الجنةَ ببكائهم وتضرعهم، فبكوا وتضرعوا، فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا: تعالوا نصبر، فإنما أدرك أهل الجنةِ الجنةَ بالصبر، فصبروا صبراً لم يُر

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ١٥٨).

(٢) في الأصل: بقلهم. والصواب ما أثبتناه.

مثله قط، فلم ينفعهم ذلك، فعندها قالوا: ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا... الآية﴾[١].

وروى مالك بن أنس عن زيد بن أسلم قال: جزعوا مائة سنة، وصبروا مائة سنة[٢].

وقوله: «سواء» رفع بالابتداء، «أجزعنا» في موضع الخبر[٣].

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر﴾ أي: قال إبليس لما فرغ من الأمر واستقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار.

قال مقاتل[٤]: يوضع له منبر من نار في النار فيرقاه، ويجتمع الكفار عليه

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ١٩٩). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ١٧) وعزاه للطبري.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٤٠). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ١٧) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) التبيان (١/ ١٤).

(٤) تفسير مقاتل (٢/ ١٨٨).

باللائمة، فيقول: ﴿إن الله وعدكم وعد الحق﴾ فوفى لكم به ﴿ووعدتكم فأخلفتكم﴾ موعدي[١].

﴿وما كان لي عليكم من سلطان﴾ أي: حجة ظاهرة توجب استجابتكم.

وقيل: ما كان لي عليكم من تسلط ولاية أقهركم بها وأجبركم على ما أريد بسببها.

﴿إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾ استثناء منقطع، فإن الدعاء ليس من جنس السلطان، ولكنه كقولك: ما تحيتكم إلا الضرب.

﴿فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾ حيث استجبتم لي من غير برهان ولا سلطان، ﴿ما أنا بمصرخكم﴾ أي: بمغيثكم ﴿وما أنتم بمصرخيَّ﴾ قرأ جمهور القرّاء: «بمصرخيَّ» بفتح الياء، وقرأ حمزة: «بمصرخيِّ» بكسر الياء[٢].

قال الزجاج[٣]: هي عند جميع البصريين رديئة لا وجه لها إلا [وجه][٤] ضعيف، وهو ما أجازه الفراء[٥] من الكسر على أصل التقاء الساكنين.

---

(١) أخرج نحوه الطبري (١٣/ ٢٠١)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٤١) كلاهما عن الحسن. وانظر: البغوي (٣/ ٣١)، والقرطبي (٩/ ٣٥٦) عن الحسن. وذكره السيوطي في الدر (٥/ ١٩) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن.

(٢) الحجة للفارسي (٣/ ١٦)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٧٧)، والكشف (٢/ ٢٦)، والنشر (٢/ ٢٩٨)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٧٢)، والسبعة في القراءات (ص:٣٦٢).

(٣) معاني الزجاج (٣/ ١٥٩).

(٤) في الأصل: وجيه. والتصويب من معاني الزجاج، الموضع السابق.

(٥) معاني الفراء (٢/ ٧٦).

قال الزمخشري[١]: هو غير صحيح؛ لأن ياء الإضافة لا تكون إلا مفتوحة حيث قبلها ألف، نحو: [عصاي، فما بالها][٢] وقبلها ياء.

فإن قلت: جرت الياء الأولى مجرى الحرف [الصحيح][٣] لأجل الإدغام، فكأنها ياء وقعت ساكنة بعد حرف صحيح ساكن، فحركت بالكسر على الأصل.

قلت: هذا قياس حسن، ولكن الاستعمال المستفيض الذي هو بمنزلة الخبر المتواتر تتضاءل إليه القياسات.

وقال أبو علي[٤]: لما أدغم الياء التي على الجمع في ياء المتكلم حرك ياء المتكلم؛ لئلا يلتقي ساكنان، وحركها بالفتح لأن الفتحة هي حركتها التي تستحقها في الأصل، نحو: غلامي، كما أن الكاف في غلامك كذلك، فلما احتيج إلى تحريك ياء الإضافة حركت بحركتها التي كانت لها في الأصل، ومثل ذلك: هداي، ومثواي، حركت الياء فيه بالفتح لالتقاء الساكنين؛ لما ذكرنا.

وأما من قرأ بكسر الياء؛ فإن الفراء قال في كتابه في التصريف[٥]: هو قراءة الأعمش ويحيى بن وثاب.

وزعم قطرب أنه لغة في بني يربوع، يزيدون على ياء الإضافة ياء[٦]، وأنشد:

---

(١) الكشاف (٢/ ٥١٧).

(٢) في الأصل: عصاً مما بالهاء. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

(٣) زيادة من الكشاف، الموضع السابق.

(٤) الحجة (٣/ ١٦-١٧).

(٥) انظر: معاني الفراء (٢/ ٧٥).

(٦) قال أبو حيان في البحر المحيط (٥/ ٤٠٨): طعن كثير من النحاة في هذه القراءة، قال الفراء: لعلها من وهم القراء، فإنه قلّ من سلم منهم من الوهم. ولعله ظن أن الباء في «بمصرخي» خافضة للفظ =

ماضٍ إذا ما همَّ بالمُضِيِّ قال [لها][(١)] هلْ لكِ يا تافِيِّ[(٢)]

ووجه ذلك من القياس: أن الياء ليست تخلو من أن تكون في موضع نصب أو جر، فالياء في النصب والجر كالهاء فيهما، وكالكاف في: أكرمتُك، وهذا لك، فكما أن الهاء قد لحقتها الزيادة في: هذا لَهُو وضَرَبَهو، [ولحقت][(٣)] الكاف أيضاً في قول من قال: أعطيتُكاه وأعطيتُكه، فيما حكاه سيبويه[(٤)]، وهما أختا الياء، [كذلك][(٥)] ألحقوا الياء الزيادة من المد، فقالوا: فِيَّي، ثم حُذفت الياء الزائدة على الياء، كما حُذفت الزيادة من الهاء في قول من قال:

.... له أرْقَان[(٦)]

=

كله، والياء للمتكلم خارجة من ذلك.

وقال أبو عبيد: نراهم غلطوا، ظنوا أن الياء تكسر لما بعدها.

وقال الأخفش: ما سمعت هذا من أحد من العرب ولا من النحويين.

وقال ابن البناء في إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٧٢): هي متواترة صحيحة، والطاعن فيها غالط قاصر، ونفي النافي لسماعها لا يدل على عدمها، فمن سمعها مقدم عليه إذ هو مثبت.

(١) زيادة من مصادر تخريج البيت.

(٢) البيت للأغلب العجلي. انظر: إبراز المعاني (ص:٥٥٠)، ومعاني الفراء (٢/ ٧٦)، والدر المصون (٤/ ٢٦٢)، والحجة (٣/ ١٦).

(٣) في الأصل: وحلقت. والتصويب من الحجة (٣/ ١٧).

(٤) انظر: الكتاب (٢/ ٣٦٤).

(٥) في الأصل: كقولك. والتصويب من الحجة (٣/ ١٧).

(٦) البيت ليعلى بن الأحول الأزدي. انظر: خزانة الأدب (٥/ ٢٦٩، ٢٧٥)، واللسان، مادة: (مطا)، والخصائص (١/ ١٢٨، ٣٧٠)، ورصف المباني (ص:١٦)، والمحتسب (١/ ٢٤٤)، والمقتضب (١/ ٣٩، ٢٦٧)، ومعاني الأخفش (ص:٣٠).

وكما حذفت من الكاف أيضاً، فقالوا: أعطيتكه [وأعطيتُكِيه][(١)]، فلما حذفوا الزيادة من الياء والكاف كذلك حذفت الياء اللاحقة للياء، كما حذفت من أختيها، وأُقِرَّت الكسرة التي كانت تلي الياء المحذوفة، فبقيت الياء على ما كانت عليه من الكسرة، وكذلك ألحقت التاء الزائدة أيضاً في نحو قول الشاعر:

رميْتِيه فأصْمَيْتِ فما أخطأتِ الرَّمْيَه[(٢)]

فإذا كانت الكسرة في ياء «مصرخي» على هذه اللغة، وإن كان غيرها أفشى منها، وعضده من القياس ما ذكرنا؛ لم يجز لقائل أن يقول: إن القراءة بذلك لحنٌ؛ لاستفاضة ذلك في السماع والقياس، وما كان كذلك لا يكون لحناً.

وقال غيره: ليس قراءة حمزة برديئة؛ لأنه كسر الياء لتكون طبقاً لكسرة همزة قوله: «إني كفرت» لأنه أراد الوصل دون الوقف، والابتداء بقوله: «إني»؛ لأن الابتداء بـ«إني كفرت» محال، فلما أراد هذا المعنى كان كسر الياء أدلّ على هذا من فتحها.

وذكر ابن البناء في كتاب الحجة: قال ابن مقسم: قد وافق حمزة جماعة؛ السلمي، ويحيى بن وثاب، وابن أبي ليلى، وإبراهيم النخعي، والقاسم بن معن، وحمران بن أعين، والأعمش.

قال خلف: سمعت حسين الجعفي يروي عن أبي عمرو بن العلاء قال: إنها

---

(١) زيادة من الحجة (٣/ ١٧).

(٢) انظر: البيت في: الخزانة (٥/ ٢٦٨)، وإبراز المعاني (ص:٥٥١)، والدر المصون (٤/ ٢٦٣)، والحجة (٣/ ١٧).

بالخفض لحسنة(١).

ويروى عن حمزة أنه لما قيل له: قد لحَنْتَ أهل العربية في ذلك؟ فقال: ما يدْرون ما هذا، قرأت على ابن أبي ليلى أربع مرات بالكسر، وإسناده إلى علي بن أبي طالب وغيره.

وفي لفظ آخر: ذكر جميع الإسناد ثم قال: من أين لهم هذا؟ غلب الزيّاتون.

قال صاحب الكشاف(٢): و «ما» في قوله: «بما أشركتموني» مصدرية، و ﴿من قبل﴾ متعلق بما أشركتموني، يعني: كفرت اليوم بإشراككم إياي من قبل هذا اليوم، أي: في الدنيا كقوله: ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ [فاطر:١٤]، ومعنى كفره بإشراكهم إياه: تبرؤه منه واستنكاره له، كقوله: ﴿إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم﴾ [الممتحنة:٤].

وقيل: «من قبل» متعلق بـ«كفرت»، وما موصولة. أي: كفرتُ من قبل حين أبيتُ السجود لآدم عليه السلام بالذي أشركتمونيه، وهو الله عز وجل.

ومعنى إشراكهم الشيطان بالله عز وجل: طاعتهم له فيما يزينه لهم من عبادة الأوثان وغيرها.

قوله: ﴿إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾ كلام مستأنف من الله تعالى، ويحتمل أن يكون من تمام الحكاية عن قول إبليس.

---

(١) وقد أنكر أبو حاتم على أبي عمرو تحسينها ولا التفات لإنكاره. قال أبو حيان في البحر المحيط (٥/ ٤٠٩): ولا التفات إلى إنكار أبي حاتم على أبي عمرو تحسينها؛ فأبو عمرو إمام لغة، وإمام نحو، وإمام قراءة، وعربي صريح، وقد أجازها وحسنها.

(٢) الكشاف (٢/ ٥١٧-٥١٨).

وما بعده سبق تفسيره.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ألم تر﴾ قرأ السلمي: «ألم ترْ» ساكنة الراء(١)، وفيها ضعف؛ لأنه إذا حذف الألف للجزم وجب إبقاء الحركة فيها دليلاً عليها، لا سيما وهي خفيفة، إلا أنه شبه الفتحة بالكسرة المحذوفة في نحو هذا استخفافاً، أنشد أبو زيد:

قالت [سُلَيمى](٢) اشْتَرْ لنا دقيقا(٣)

﴿كيف ضرب الله مثلاً﴾ أي: بين شبهاً ﴿كلمة طيبة﴾ قال ابن عباس [وعامة](٤) المفسرين: الكلمة الطيبة: لا إله إلا الله(٥).

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٤٠٦)، والدر المصون (٤/ ٢٥٩).

(٢) في الأصل: سلمى. وانظر: مصادر تخريج البيت.

(٣) الرجز للعذافر الكندي، وهو في شرح المفصل (١١/ ١٩٤): (قالت سليمى اشتر لنا دقيقا وهات خبز البُرّ أو سَويقا). وانظر: شرح شواهد الإيضاح (ص:٢٥٨)، وشرح شواهد الشافية (ص:٢٠٤، ٢٠٥)، وملحق نوادر أبي زيد (ص:٣٠٩)، وتاج العروس (١٥/ ٤٣٨)، والحجة للفارسي (١/ ٦٣، ٢٥٢)، وبلا نسبة في: الأشباه والنظائر (١/ ٦٦)، وجمهرة اللغة (ص:١٣٢٧)، والخصائص (٢/ ٢٤٠، ٣/ ٩٦)، والمحتسب (١/ ٣٦١).

(٤) في الأصل: عامة. والصواب ما أثبتناه.

(٥) أخرجه الطبري (١٣/ ٢٠٣). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٢٠) وعزاه لابن جرير وابن المنذر =

قال الزمخشري[1]: نصبَ «كلمةً» بمضمر تقديره: جعل كلمة، وهو تفسير لقوله: ﴿ضرب الله مثلاً﴾ كقولك: شرّف الأمير زيداً: كساه حلة، وحمله على فرس، ونحو ذلك.

ويجوز أن ينتصب «مثلاً» و «كلمةً» بِضَرَبَ، أي: ضرب كلمةً طيبةً مثلاً، بمعنى: جعلها مثلاً، ثم قال: ﴿كشجرة طيبة﴾ على أنها خبر مبتدأ محذوف، بمعنى: هي كشجرة طيبة، وهي النخلة. والمعنى: طيبة الثمرة.

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال ذات يوم: ((إن الله ضرب مثل المؤمن بشجرة، فأخبروني ما هي؟ [فوقع][2] الناس في شجر البوادي، وكنت صبياً، فوقع في نفسي أنها النخلة، فهبت رسول الله ﷺ أن أقولها وأنا أصغر القوم))[3].

وفي رواية: ((فمنعني مكان عمر واستحييت. ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: هي النخلة. قال عبدالله بن [عمر][4]: فذكرت ذلك لعمر، فقال: لأن تكون قلت هي النخلة أحبُّ إليَّ من كذا وكذا))[5].

﴿أصلها ثابت﴾ أي أصل الشجرة ضارب بعروقه في الأرض ﴿وفرعها﴾ أعلاها ﴿في السماء﴾ أي: في جهة العلو، يشير بذلك إلى ارتفاعها في الهواء.

= وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات.

(١) الكشاف (٢/ ٥١٩).

(٢) في الأصل: قوع. وكذا وردت في الموضع التالي. والتصويب من الصحيح.

(٣) أخرجه البخاري (١/ ٣٤ ح٦٢).

(٤) زيادة على الأصل.

(٥) أخرجه البخاري (٥/ ٢٢٧٥ ح٥٧٩٢)، ومسلم (٤/ ٢١٦٤ ح٢٨١١).

﴿تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها﴾ أي: تعطي ثمرتها كل زمان.

قال علي عليه السلام: ثمانية أشهر[١].

وقال ابن عباس: ستة أشهر[٢].

وفي رواية عنه: بكرة وعشية[٣].

وفي رواية عنه: سنة[٤].

وقال سعيد بن المسيب: شهران. قال: لا يكون في النخلة أكلها إلا شهرين[٥].

قال الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي[٦]: فمن قال ثمانية أشهر، أشار إلى مدة حملها باطناً وظاهراً. ومن قال: ستة أشهر؛ فهو مدة حملها إلى حين صرامها. ومن قال: بكرةً وعشيةً؛ أشار إلى الاجتناء منها. ومن قال: سنة؛ أشار إلى أنها لا تحمل في السنة إلا مرة واحدة. ومن قال: شهران؛ فهو مدة صلاحها[٧].

---

(١) زاد المسير (٤/ ٣٥٩).

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ٢٠٨)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٤٣). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٢٤) وعزاه للطبري من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري (١٣/ ٢٠٧)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٤٣). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٢٣) وعزاه للفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٤) أخرجه الطبري (١٣/ ٢٠٩)، وابن أبي شيبة (٣/ ٩٩). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٢٤) وعزاه لأبي عبيد وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر.

(٥) أخرجه الطبري (١٣/ ٢١٠)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٤٣)، وابن أبي شيبة (٣/ ١٠٠)، والبيهقي في سننه (١٠/ ٦٢). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٢٥) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٦) زاد المسير (٤/ ٣٥٩).

(٧) قال ابن جرير الطبري (١٣/ ٢١٠): وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب؛ قول من قال: عنى بالحين في هذا الموضع: غدوة وعشية وكل ساعة؛ لأن الله تعالى ذكره ضرب ما تؤتي هذه الشجرة =

قال المفسرون: شبَّه الله تعالى الإيمان بالنخلة، لثبات الإيمان في قلب المؤمن كثبات النخلة في الهواء، وشبَّه ما يكتسبه المؤمن من بركة الإيمان وثوابه في كل وقت بثمرة هذه الشجرة، فإن ثمرتها يُنتفع بها رطبة ويابسة في كل حين من أحيان السنة، بإذن ربها بتيسيره وتسهيله.

قوله تعالى: ﴿ومثل كلمة خبيثة﴾ وهي الشرك ﴿كشجرة خبيثة﴾ روي عن النبي ﷺ: أنها الحنظلة[(١)].

وروي عن ابن عباس: أنها الثوم[(٢)].

﴿اجتثت من فوق الأرض﴾ استؤصلت واقتطعت.

قال ابن عباس: يريد ليس لها أصل تام، فهي فوق الأرض لم تضرب فيها بعرق[(٣)]، وهو قوله: ﴿ما لها من قرار﴾ أي: ما لها من أصل ثابت في الأرض، كذلك الشرك في خبثه ونتنه وتزلزله لكونه لا يعضده نقل ولا عقل.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾ أي: بالدلائل الواضحة

=

كل حين من الأكل لعمل المؤمن وكلامه مثلاً، ولا شك أن المؤمن يرفع له إلى الله في كل يوم صالح من العمل والقول لا في كل سنة أو في كل ستة أشهر أو في كل شهرين؛ فإذا كان ذلك كذلك فلا شك أن المثل لا يكون خلافاً للمثل به في المعنى، وإذا كان ذلك كذلك كان بيّناً صحة ما قلنا.

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٩٥ ح٣١١٩)، والطبري (١٣/ ٢١٢).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ٣٠)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٦١).

(٣) مثل السابق.

والبراهين القاطعة ﴿في الحياة الدنيا﴾ حتى يكونوا فيه أثبت من الجبال الرواسي؛ بحيث لا تقلقلهم رهبة ولا تنقلهم رغبة؛ كأصحاب الأخدود، والراهب، والغلام، وماشطة بنت فرعون، والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، ومن بعدهم من الأمة المقتدى بطرقهم والمهتدى بتحقيقهم؛ كالإمام المعظم أبي عبدالله أحمد بن حنبل رضي الله عنه وأرضاه، بما ابتلي به من الحبس والضرب وامتحن به من التهديد بالقتل، فصبر واحتسب، حتى أعلى الله تعالى كلمته وأوقع في القلوب هيبته ومحبته إلى أوليائه، ونصره بالرعب على أعدائه.

قال بشر الحافي رحمه الله: أحمد بن حنبل دخل في الكير فخرج ذهبة حمراء(١).

ولقد أخذه المعتصم بأنواع العذاب فلم يجبه، ووعده إن هو أجابه أن يشاطره ملكه ويطأ عقبه بخيله ورجله فلم يتابعه، وفي مدحه أقول من قصيدة:

فكم أرغبوه بالنضار وباللهى ... وكم أرهبوه بالسيوف القواصل

فلم يُلْفَ يوماً مذعناً [لشبههم](٢) ... ولا مكفهراً عند قرع النوازل

وكذلك أحمد بن صالح ضُربت عنقه ولم يرجع عن السُّنَّة أيام المحنة، وكان الإمام أحمد إذا ذكره ترحّم عليه، وقال: ما كان أسخاه لقد جاد بنفسه(٣).

قوله تعالى: ﴿وفي الآخرة﴾ فيثبتهم في الآخرة إذا سُئلوا عن معتقداتهم وأديانهم في القبور، وفي تلك المواطن الهائلة.

---

(١) الزهد لابن أبي عاصم (ص:١٠٤)، والمقصد الأرشد (١/ ٦٩).

(٢) في الأصل: لسيبهم. ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٣) تهذيب الكمال (١/ ٥١٠)، وتاريخ بغداد (٥/ ١٧٧)، وصفة الصفوة (٢/ ٣٦٤).

وفي الصحيحين من حديث البراء عن النبي ﷺ قال: « المؤمن إذا سُئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ »[١].

وفي رواية قال: « ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾ نزلت في عذاب القبر، يقال له: من ربك؟ فيقول: الله ربي، ونبيي محمد ﷺ »[٢].

قوله تعالى: ﴿ويضل الله الظالمين﴾ أي: الكافرين. قال الفراء[٣]: يضلهم عن هذه الكلمة.

﴿ويفعل الله ما يشاء﴾ من هداية المؤمنين وضلالة الظالمين وغير ذلك.

۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً﴾ أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: « هم والله كفار قريش »[٤].

وأخرج أيضاً عن عمر رضي الله عنه قال: « هم قريش، ومحمد ﷺ نعمة الله،

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٧٣٥ ح٤٤٢٢).

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٠١ ح٢٨٧١).

(٣) معاني الفراء (٢/ ٧٧).

(٤) أخرجه البخاري (٤/ ١٧٣٥ ح٤٤٢٣).

﴿وأحلّوا قومهم دار البوار﴾ النار يوم بدر »[(١)].

[وقيل: نزلت في الأفجرين من قريش؛ بنو المغيرة وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر][(٢)]، وأما بنو أمية فمتعوا حتى حين[(٣)].

والمعنى: ألم تر إلى الذين وضعوا الكفر موضع ما كان يجب عليهم من الشكر لنعمة الله؛ حيث أكرمهم بمحمد ﷺ وجعلهم سُكّان حرمه، وقُوّام بيته، وساسة العرب، وغرّة الحسب. ونظيره: ﴿وتجعلون رزقكم﴾ [الواقعة:٨٢] أي: شكر رزقكم ﴿أنكم تكذبون﴾ [الواقعة:٨٢].

ويجوز أن يكون التبديل لنفس النعمة، فإنهم حين أسروا وقتلوا ببدر، سلبوا النعمة، وبقي الكفر طوقاً في أعناقهم بدلاً من تلك النعمة وعوضاً منها، وأحلوا قومهم التابعين لهم على الكفر دار البوار.

ثم فسر الدار فقال: ﴿جهنم يصلونها﴾ يقاسون حرّها.

وقوله: «يصلونها» حال من «قومهم»، وإن شئت من «جهنم»، وإن شئت منهما[(٤)]، كقوله تعالى: ﴿تحمله﴾ بعد ﴿فأتت به قومها﴾، وهو حال مقدرة.

قوله تعالى: ﴿وجعلوا لله أنداداً﴾ قال ابن عباس: من الحجارة والخشب وغير ذلك[(٥)]، ﴿ليُضلوا عن سبيله﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «ليَضلوا» بفتح الياء، وقرأ

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٤٦٢ ح٣٧٥٨).

(٢) زيادة من الطبري (١٣/ ٢١٩).

(٣) أخرجه الطبري (١٣/ ٢١٩). وذكره السيوطي في الدر (٦/ ٦٤) وعزاه للبخاري في تاريخه وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عمر بن الخطاب.

(٤) التبيان (٢/ ٦٨)، والدر المصون (٤/ ٢٦٨).

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ٣١).

الباقون: «ليُضلوا» بضم الياء[١]، وكذلك اختلافهم في التي في الحج[٢] والزمر[٣] ولقمان[٤]: ﴿ليُضِلّ﴾، وهذه لام العاقبة، وقد سبق نظيرها في مواضع.

﴿قل تمتعوا﴾ وعيد شديد، أي: انتفعوا مدة حياتكم بالعيش، ﴿فإن مصيركم إلى النار﴾ قال ابن عباس: لو صار الكافر مريضاً سقيماً لا ينام ليلاً ولا نهاراً، جائعاً لا يجد ما يأكل ويشرب، لكان هذا كله نعيماً يتمتع به، بالإضافة إلى ما يصير إليه من شدة العذاب، ولو كان المؤمن في أنعم عيش لكان بؤساً عندما يصير إليه من نعيم الآخرة[٥].

قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٌ لَّا بَيۡعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾

قوله تعالى: ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة﴾ قال الزجاج رحمه الله[٦]: «يقيموا» فيه غير وجه؛ أجودها: أن يكون مبنياً؛ لأنه في موضع الأمر. وجائز أن يكون مجزوماً بمعنى اللام، إلا أنها أُسقِطَت؛ لأن الأمر قد دل على الغائب بـ«قُل»، تقول: قل لزيد ليضْربْ عمراً، وإن شئت قلت: قل لزيد يضْربْ عَمْراً، ولا يجوز:

(١) الحجة لابن زنجلة (ص:٣٧٨)، والنشر (٢/ ٢٩٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٧٢).
(٢) آية رقم: ٩.
(٣) آية رقم: ٨.
(٤) آية رقم: ٦.
(٥) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ٣٢)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٦٣).
(٦) معاني الزجاج (٣/ ١٦٢-١٦٣).

يضْربْ زيدٌ عَمْراً، بالجزم حتى تقول: ليَضْربْ زيد عَمْراً[١]؛ لأن لام الغائب ليس هاهنا عوض منها إذا حذفتها.

وفيها وجه ثالث على جواب الأمر، على معنى: قل لعبادي الذي آمنوا [أقيموا][٢] الصلاة، يقيموا الصلاة؛ لأنهم إذا آمنوا وصدّقوا، [فإن][٣] تصديقهم [بقبولهم][٤] أمر الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿سراً وعلانية﴾ قال الزمخشري[٥]: نصب على الحال، أي: ذوي سر وعلانية، بمعنى: مسرين ومعلنين، أو على الظرف، أي: وقتي سر وعلانية، أو على المصدر، أي: إنفاق سر وعلانية.

﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيعٌ فيه ولا خلال﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «لا بيعَ

---

(١) قال أبو حيان في البحر (٥/ ٤١٥): هو فاسد لوجهين: أحدهما: أن جواب الشرط يخالف الشرط، إما في الفعل، أو في الفاعل، أو فيهما. فأما إذا كان مثله في الفعل والفاعل فهو خطأ؛ كقولك: قُمْ يَقُم، والتقدير على هذا الوجه: أن يقيموا يقيموا.
والوجه الثاني: أن الأمر المقدر للمواجهة، و «يقيموا» على لفظ الغيبة، وهو خطأ إذا كان الفاعل واحداً.
ذكر السمين الحلبي قول أبي حيان؛ ثم قال: قلت: أما الإفساد الأول فقريب، وأما الثاني فليس بشيء؛ لأنه يجوز أن يقول: قل لعبدي أطعني يطعك، وإن كان للغيبة بعد المواجهة باعتبار حكاية الحال (انظر: الدر المصون ٤/ ٢٧٠).

(٢) في الأصل: يقيموا. والتصويب من معاني الزجاج (٣/ ١٦٣).

(٣) في الأصل: بأن. والتصويب من معاني الزجاج، الموضع السابق.

(٤) في الأصل: بقولهم. والتصويب من معاني الزجاج، الموضع السابق.

(٥) الكشاف (٢/ ٥٢٢).

فيه ولا خلالَ» بالفتح من غير تنوين، وقرأ الباقون بالرفع والتنوين فيهما[١]. وقد أشرنا إلى ذلك في البقرة[٢].

قال ابن قتيبة[٣]: الخلال: مصدر خالَلْتُ فلاناً خِلالاً ومُخالَّة، والاسم: الخِلَّة، وهي الصَّداقة.

وقال أبو علي الفارسي[٤]: يجوز أن يكون جمع خُلَّة، مثل: بُرْمَةٌ[٥] وبِرامٌ، وعُلْبَةٌ وعِلابٌ[٦].

قال مقاتل[٧]: ذاك يوم لا بيع فيه ولا شراء ولا مخالة ولا قرابة، إنما هي أعمال يثاب عليها قوم ويعاقب عليها آخرون.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ

---

(١) الحجة لابن زنجلة (ص:٣٧٧)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢١١)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٧٢).

(٢) عند آية: ﴿فلا خوف عليهم﴾.

(٣) تفسير غريب القرآن (ص:٢٣٣).

(٤) الحجة (١/ ٤٥٧).

(٥) البُرْمَة: قدر من حجارة، والجمع بُرَمٌ وبِرامٌ وبُرْم (لسان العرب، مادة: برم).

(٦) العلبة: قدح ضخم من جلود الإبل، وقيل: من خشب، كالقدح الضخم يحلب فيها، وقيل: إنها كهيئة القصعة من جلد، ولها طوق من خشب. والجمع عُلَب وعِلاب (لسان العرب، مادة: علب).

(٧) تفسير مقاتل (٢/ ١٩١).

ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى: ﴿الله﴾: مبتدأ، ﴿الذي خلق السموات والأرض﴾: خبره، ﴿وأنزل من السماء ماء فأخرج به﴾ أي: بالماء ﴿من الثمرات رزقاً لكم﴾ «مِنْ» بيان، «رزقاً» مفعول «أخرج»، التقدير: أخرج به رزقاً هو ثمرات. ويجوز أن يكون «من الثمرات» مفعول «أخرج»، «رزقاً» حالاً من المفعول، أو مصدراً من «أخرج»؛ لأنه في معنى رزق.

فإن قيل: لأي معنى قال في النمل: ﴿أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم﴾ [النحل:٦٠]؟

قلت: حذفها هاهنا اكتفاء بقوله عقيبها: «فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم».

قوله تعالى: ﴿وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره﴾ أي: ذلّلها لتجري في البحر لمصالحكم، بأمره، أي: بقوله: «كن»، ﴿وسخر لكم الأنهار﴾ يريد: مياهها تركبونها وتجرونها حيث شئتم.

﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾ في سيرهما واستنارتهما وإصلاحهما للأبدان والنبات وغير ذلك، ﴿وسخر لكم الليل والنهار﴾ يتعاقبان، هذا للسياحة في الطلب، وهذا للاستراحة من التعب.

﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾ «مِنْ» للتبعيض، وقيل: زائدة. فإن كانت للتبعيض؛ فالمعنى: وآتاكم بعض جميع ما سألتموه نظراً لكم لعلمه بمصالحكم. وإن كانت زائدة؛ فالمعنى: وآتاكم كل ما سألتموه مما تحتاجون إليه ويتوقف صلاحكم عليه.

وقيل: فيه إضمار، تقديره: وآتاكم من كل ما سألتموه من ذلك وما لم تسألوه، فإنهم لم يسألوه شمساً ولا قمراً ولا كثيراً من نعم الله عليهم. هذا معنى قول ابن الأنباري(١).

وقال الأخفش(٢): وآتاكم من كل شيء سألتموه شيئاً، فأضمر الشيء، كقوله تعالى: ﴿وأوتيت من كل شيء﴾ [النمل:٢٣] في زمانها.

وقيل: هذا على التكثير، كقولك: فلان يعلمُ كُلَّ شيء.

وقرأتُ لعاصم من رواية أبان عنه: «من كلٍ» بالتنوين، وبها قرأ ابن مسعود وأبي بن كعب والحسن في آخرين(٣)، فتكون «ما» نافية في محل النصب على الحال، تقديره: آتاكم من كل [ذلك](٤) غير سائليه.

قال الضحاك: صدق الله! كم من شيء أعطانا الله ما سألناه إياه، ولا خطر لنا ببال(٥). وهذا معنى قول قتادة.

وقال الزجاج(٦): من قرأ: «من كلِ ما سألتموه»، فموضع «ما» الخفض بالإضافة، والمعنى: من كل الذي سألتموه. ومن قرأ: «من كلٍ» بالتنوين، فموضع «ما» النصب، والمعنى: وآتاكم من كل الأشياء الذي سألتموه.

ويجوز أن يكون ما يُبتغى، ويكون وآتاكم من كل ما لم تسألوه، أي: آتاكم من

---

(١) انظر: الوسيط (٣/ ٣٢)، وزاد المسير (٤/ ٣٦٤-٣٦٥).

(٢) معاني الأخفش (ص:٢٣٣).

(٣) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٧٢).

(٤) زيادة على الأصل. انظر: الكشاف (٢/ ٥٢٣)، والدر المصون (٤/ ٢٧٢).

(٥) أخرجه الطبري (١٣/ ٢٢٧). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٦٥).

(٦) معاني الزجاج (٣/ ١٦٣).

كل الشيء الذي لم تسألوه.

قوله تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ أي: لا تحصروها ولا تُطيقوا عدّها لكثرتها.

﴿إن الإنسان﴾ قال الزجاج[1]: هو اسم جنس، يقصد به الكافر.

وقال ابن عباس: يريد: أبا جهل[2].

﴿لظلوم﴾ لنفسه ﴿كفّار﴾ بنعم ربه.

وقيل: ظلوم في الشدة يشكو ويجزع، كَفَّارٌ في النعمة يجمع ويمنع.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام﴾ يقال: جَنَّبَه الشرَّ -بالتشديد- وجَنَبَه -بالتخفيف- وأجْنَبَه[3]، والأولى لغة أهل الحجاز.

والمعنى: ثبّتني وبَنِيّ على اجتناب عبادة الأصنام؛ لأنه كان مجانباً لها، وأراد بنيه

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ١٦٤).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ٣٣)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٦٥).

(٣) انظر: اللسان (مادة: جنب).

لصلبه؛ لأن من ذريته من عَبَدَ الأصنام.

﴿رب إنهن أضللن كثيراً من الناس﴾ وقع الضلال بسببهن، فنُسب إليهن ﴿فمن تبعني﴾ يعني: على ديني ﴿فإنه مني﴾ من أهل ديني ومِلَّتي.

وقال صاحب الكشاف[١]: «فإنه مني» أي: بعضي؛ لفرط اختصاصه بي وملابسته لي.

﴿ومن عصاني﴾ قال مقاتل[٢]: فيما دون الشرك، ﴿فإنك غفور رحيم﴾.

وقال السدي: ومن عصاني ثم تاب فإنك غفور رحيم[٣].

قال ابن الأنباري[٤]: ويحتمل أنّ هذا كان قبل أن يعلمه الله أنه لا يغفر الشرك، كما استغفر لأبيه.

﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي﴾ أي: من بعض أولادي، وهم إسماعيل ومن ولد منه ﴿بوادٍ غير ذي زرع﴾ يعني: مكة شرفها الله تعالى وعظمها، ﴿عند بيتك المحرم﴾ أي: عند بيتك الذي كان قبل الطوفان، أو عند بيتك الكائن في سابق علمك.

وسُمِّي محرّماً؛ لأن الله تعالى حَرَّم انتهاكه والتهاون بحقه.

وقيل: لأنه حرمَ على الطوفان، أي: مُنِعَ منه.

قال مجاهد: جاء إبراهيم بابنه إسماعيل وبأمه هاجر ومعهم جبريل، حتى قدم

---

(١) الكشاف (٢/ ٥٢٤).

(٢) تفسير مقاتل (٢/ ١٩٢). وانظر: الوسيط (٣/ ٣٣)، وزاد المسير (٤/ ٣٦٥).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ٣٣)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٦٥).

(٤) انظر: الوسيط (٣/ ٣٣)، وزاد المسير (٤/ ٣٦٥).

مكة وهي إذ ذاك عِضَاه(١) من سلَم وسمُر، والبيت يومئذ [ربوة](٢) حمراء [مدرة](٣)، فقال إبراهيم لجبريل: أهاهنا أمرتُ أن أضعهما؟ قال: نعم، فعمد بهما إلى موضع الحجر فأنزلهما فيه، وأمر هاجر أم إسماعيل تتخذ فيه عريشاً(٤).

قرأتُ على أبي المحاسن فضل الله بن عبد الرزاق بن عبدالقادر الجيلي، أخبركم أبو السعادات المبارك ويدعى نصر الله بن عبدالرحمن بن رزين البزاز، حدثنا الشريف أبو الغنائم محمد ابن أحمد ابن المهتدي بالله(٥)، ثنا أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد القزويني إملاءً في شهر رمضان سنة أربعين وأربعمائة، ثنا عمر بن أحمد الآجري، ثنا أحمد بن محمد بن إسماعيل المقري، ثنا أبو العباس بن الليث بن الفرج، ثنا أبو عامر(٦)، ثنا رباح بن أبي معروف المكي(٧)، عن سعيد بن

---

(١) العضاه: كل شجر له شوك صَغُر أم كَبُر (المعجم الوسيط ص:٦٢٩).

(٢) في الأصل: ربة. والتصويب من مصادر التخريج.

(٣) في الأصل: مدورة. والتصويب من مصادر التخريج.

(٤) أخرجه الأزرقي (١/ ٩٧-٩٨)، والطبري (١/ ٥٤٨). وانظر: الوسيط (٣/ ٣٤)، وزاد المسير (٤/ ٣٦٦-٣٦٧).

(٥) محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن المهتدي بالله الهاشمي العباسي، أبو الغنائم البغدادي، من بقايا المسندين ببغداد. ولد سنة ست وثلاثين وأربعمائة، سمع أبا القاسم بن لؤلؤ، وأبا الحسن القزويني، وأبا إسحاق البرمكي، وأبا محمد الجوهري، حدّث عنه ابن ناصر، والسلفي، وذاكر بن كامل، وأبو طاهر المبارك بن المعطوش، وآخرون، وأجاز للخشوعي (سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٦٩).

(٦) عبد الملك بن عمرو القيسي، أبو عامر العقدي البصري، صدوق ثقة مأمون، مات سنة أربع ومائتين (تهذيب التهذيب ٦/ ٣٦٣، والتقريب ص:٣٦٤).

(٧) رباح بن أبي معروف بن أبي سارة المكي، صدوق له أوهام (تهذيب التهذيب ٣/ ٢٠٣، والتقريب ص:٢٠٥).

عجلان[١]، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ قال لأبي بكر وعمر: ألا أخبركما بمثلكما في الملائكة ومثلكما في الأنبياء، مثلك يا أبا بكر في الملائكة مثل ميكائيل ينزل بالرحمة والرأفة، ومثلك في الأنبياء مثل إبراهيم إذ كذبه قومه وصنعوا به ما صنعوا قال: فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم. ومثلك يا عمر في الملائكة مثل جبريل ينزل بالبأس والنقمة على أعداء الله عز وجل، ومثلك في الأنبياء مثل نوح إذا قال: رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً»[٢].

أخبرنا الشيخان أبو القاسم أحمد بن عبدالله بن عبد الصمد العطار وأبو الحسن علي بن أبي بكر بن روزبة البغداديان قالا: أخبرنا أبو الوقت عبد الأول بن عيسى بن شعيب السجزي، أبنا أبو الحسن عبدالرحمن بن محمد بن مظفر الداودي، أبنا أبو محمد عبدالله بن أحمد بن حمويه السرخسي، أبنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل البخاري، ثنا عبد الله بن محمد، ثنا عبد الرزاق، أبنا معمر، عن أيوب السختياني وكثير بن كثير بن المطلب بن أبي وداعة[٣] -يزيد أحدهما على الآخر-، عن سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس: «أول ما اتخذ النساء المِنْطَق[٤]

---

(١) سعيد بن عجلان. يروي عن سعيد بن جبير. قال الأزدي: فيه نظر. وقال ابن حبان في الثقات: يخطىء ويخالف. روى عنه رباح بن أبي معروف (لسان الميزان ٣/ ٣٨، والثقات ٦/ ٣٦٠).

(٢) ذكره الجرجاني في الكامل في ضعفاء الرجال (٣/ ١٧١)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٣٠٤)، والسيوطي في الدر (٤/ ١٠٧) وعزاه لابن مردويه عن ابن عمر.

(٣) كثير بن كثير بن المطلب بن أبي وداعة بن هبيرة بن سعيد بن سعد بن سهم القرشي السهمي المكي، كان شاعراً، قليل الحديث، ثقة (تهذيب التهذيب ٨/ ٣٨١، والتقريب ص: ٤٦٠).

(٤) المنطق: هو أن تلبس المرأة ثوبها، ثم تشدّ وسطها بشيء وترفع وسط ثوبها وترسله على الأسفل عند =

من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماءً، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفتُ إليها. فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذاً لا يضيعنا الله، ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند ثنية البيت حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع -حتى بلغ-: يشكرون﴾، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى، -أو قال: يتلبط- فالتفتت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: فلذلك سعى الناس بينهما.

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه، تريد نفسها، ثم تسمعت

= معاناة الأشغال، لئلا تعثر في ذيلها (اللسان، مادة: نطق).

أيضاً فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالمَلَك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه -أو قال: بجناحه- حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه[(١)] وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم -أو قال: لو لم تغرف من الماء- لكانت زمزم عيناً معيناً.

قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها المَلَك: لا تخافوا الضَّيْعَة، فإن هاهنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله تعالى لا يضيّع أهله، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرّت بهم رفقة من جُرْهم[(٢)] مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائِفاً[(٣)] فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جَرِيّاً[(٤)] أو جَرِيَّين فإذا هم بالماء، فقالوا: أتأذنين أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء؟ قالوا: نعم.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ : فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تُحب الأُنس، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان [بها][(٥)] أهل أبيات منهم وشبّ الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسَهم وأعجبَهم حين شبّ، فلما أدرك

---

(١) أي: تجعله حَوْضاً يجتمع فيه الماء (اللسان، مادة: حوض).

(٢) جرهم: بطن من القحطانية، جاؤوا من اليمن فنزلوا مكة واستوطنوها (معجم قبائل الحجاز ص:٨٣).

(٣) عائفاً: أي: حائماً ليجد فرصة فيشرب (اللسان، مادة: عيف).

(٤) الجَرِيُّ: الرسول (اللسان، مادة: جرا).

(٥) زيادة من صحيح البخاري (٣/ ١٢٢٨).

زوجوه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل عليهما السلام، وسأل امرأته عنه فقالت: [خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت](١): نحن بِشَرّ، [نحن](٢) في ضيق وشدة، وشكت إليه. قال: إذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغيّر عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا سألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنا في جهد وشدة. فقال: هل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول: غيّر عتبة بابك. قال: ذلك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك، فطلقها، وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم. فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله. فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. فقال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء.

قال النبي ﷺ: ولم يكن لهم يومئذ حَبّ، ولو كان لهم دعا لهم فيه. قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومريه يثبّت عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنّا بخير. قال: وأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تُثبّت عتبة بابك. قال: ذاك أبي وأنتِ العتبة، أمرني أن أمسكك.

---

(١) زيادة من صحيح البخاري (٣/ ١٢٢٩).

(٢) مثل السابق.

ثم لبث ما شاء الله تعالى أن يلبث، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الولد بالوالد والوالد بالولد. ثم قال: يا إسماعيل إن الله تعالى أمرني بأمر؟ قال: فاصنع ما أمرك ربك. قال: وتعينني؟ قال: وأعينك. قال: فإن الله تعالى أمرني أن أبني هاهنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها. قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه [له][1] فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ »[2]. هذا حديث صحيح انفرد بإخراجه البخاري.

قوله تعالى: ﴿ربنا ليقيموا الصلاة﴾ أي: أسكنتهم ليقيموا الصلاة، ويجوز أن تكون اللام متعلقة بقوله: ﴿واجنبني وبَنِيّ أن نعبد الأصنام﴾ أي: أجنبهم ليقيموا الصلاة.

﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾ الأفئدة جمع فؤاد الأفئدة كغراب وأغْرِبَة، والفؤاد: مسكن القلب.

قال ابن الأنباري[3]: إنما عبّر عن القلوب بالأفئدة؛ لقرب القلب من الفؤاد ومجاورته. قال امرؤ القيس:

---

(١) زيادة من صحيح البخاري (٣/ ١٢٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ١٢٢٧-١٢٢٩).

(٣) انظر: زاد المسير (٤/ ٣٦٧).

رمتني بسهمٍ أصابَ الفؤادَ غَداةَ الرحيلِ فلم أَنْتَصِرْ[١]

وقال الآخر:

كأن فؤادي كلما مر راكب جناح غراب رام نهضاً إلى وكر[٢]

وقال الآخر:

وإن فؤاداً قادني لصبابة إليك على طول الهوى لصبور[٣]

يعنون بالفؤاد: القلب.

«من الناس» للتبعيض، أي: من أفئدة الناس.

قال مجاهد: لو قال: «أفئدة الناس» لـزحمتكم عليـه فـارس والـروم والـترك والهند[٤].

ويجوز أن يكون «مِن» لابتداء الغاية، كقولك: القلب مني سقيم.

﴿تهوي﴾ أي: تحنّ ﴿إليهم﴾ نظير نحوهم شوقاً ونزاعاً، مَيْلاً إلى الحجّ وحُبـاً لمكة.

وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومحمد بن علي وجعفر بن محمد: «تهوَى إليهم» بفتح الواو[٥]، من هَوِيَ يَهْوَى؛ إذا [أحبّ][٦].

---

(١) البيت لامرئ القيس. انظر: ديوانه (ص:١٥٥)، وزاد المسير (١/ ٣٥٢، ٤/ ٣٦٧).

(٢) انظر البيت في: زاد المسير (٤/ ٣٦٧)، ومعجم البلدان (٤/ ٣٢٦).

(٣) انظر البيت في: القرطبي (٩/ ٣٧٣)، وزاد المسير (٤/ ٣٦٧).

(٤) أخرجه الطبري (١٣/ ٢٣٤)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٤٩). وذكره السيوطي في الـدر (٥/ ٤٧) وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم.

(٥) زاد المسير (٤/ ٣٦٨).

(٦) في الأصل: حب. وانظر: اللسان (مادة: هوا).

قال أبو الفتح ابن جني[١]: لا تقول: هَوِيت إلى فلان، ولكنك تقول: هويت فلاناً، [لأنه عليه السلام][٢] حمله على المعنى، ألا ترى أن معنى هَويت الشيء: مِلْت إليه؟ فقال: «تهوي إليهم»؛ لأنه لاحظ [معنى][٣] تميل إليهم. وهذا بابٌ من العربية ذو غَور. ومنه: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ عدّاه بإِلى، وأَنْتَ لا تقول: رَفَثْتُ إلى المرأَة، إنما تقول: رَفَثْتُ بها [أو][٤] معها، لكنه لما كان معنى الرَّفَث معنى الإفضاء، عدّاه بإِلى، [ملاحظة لمعنى][٥] ما هو مثله.

وهذا الدعاء المتقبل أحد الأسباب الموجبة لحنين المؤمنين إلى مكة.

والسبب الثاني: كونها الوطن الأول، فإن الله تعالى حين استخرج ذرية آدم عليه السلام من ظهره وكلمهم فقال: «ألست بربكم»؟ كان ذلك بنَعْمان، يعني: عرفة.

السبب الثالث: نَظَرُ الحقِّ عز وجل إلى البيت، فإنه ينظر إليه ليلة النصف من شعبان، فتحِنُّ القلوب إليه لاطلاع الحقِّ إليه.

قوله تعالى: ﴿وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ النعمة: وهي ما يرزقهم من أنواع الثمرات وهم بواد غير ذي ذرع ولا شجر، فأجاب الله تعالى دعوته؛ فجعله حراماً آمناً تجبى إليه ثمرات كل شيء.

---

(١) المحتسب (١/ ٣٦٤).

(٢) في الأصل: إلا أنه حمله. والمثبت من المحتسب (١/ ٣٦٤).

(٣) في الأصل: أن. والمثبت من المحتسب، الموضع السابق.

(٤) في الأصل: و. والتصويب من المحتسب، الموضع السابق.

(٥) في الأصل: فلاحظه بمعنى. والتصويب من المحتسب، الموضع السابق.

قوله تعالى: ﴿ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن﴾ كان هذا القول منه حين أعرض عن هاجر، وإسماعيل طفل صغير رضيع بوادٍ لا أنيس فيه ولا ماء ولا طعام، والمعنى: إنك تعلم ما نخفي من الوجد وكآبة فراق الولد، وما نعلن من البكاء والدعاء.

وقال ابن عباس: ما نخفي من الوجد بمفارقة إسماعيل، وما نعلن [من الحب له][(١)].

وقيل: «ما نعلن» وهو ما جرى بينه وبين هاجر [حين][(٢)] قالت له عند انصرافه عنهما تاركاً لهما بفلاة من الأرض: إلى من تكلنا؟ قال: إلى الله. قالت: آلله آمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يضيعنا.

وقال صاحب الكشاف[(٣)]: المعنى: أنك تعلم السر كما تعلم العلن علماً [لا تفاوت فيه، لأن غيباً من الغيوب لا يحتجب عنك. والمعنى: أنك أعلم بأحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا][(٤)] منا، وأنت أرحم بنا وأنصح لنا منا بأنفسنا [ولها][(٥)]، فلا حاجة إلى الدعاء والطلب، وإنما ندعوك إظهاراً للعبودية لك، وتخشعاً لعصمتك، وتذللاً لعزتك، وافتقاراً إلى ما عندك، واستعجالاً لنيل أياديك، وولهاً إلى رحمتك، وكما يتملق العبد بين يدي سيده، رغبة في إصابة معروفه، مع توفر

---

(١) زيادة من زاد المسير (٤/ ٣٦٨).

(٢) في الأصل: حتى. والتصويب من البحر المحيط (٥/ ٤٢٢).

(٣) الكشاف (٢/ ٥٢٥-٥٢٦).

(٤) زيادة من الكشاف (٢/ ٥٢٥).

(٥) زيادة من الكشاف، الموضع السابق.

السيد على حسن الملكة.

وعن بعضهم: أنه رفع حاجته إلى كريم فأبطأ عليه النجح، فأراد أن يذكّره، فقال: مِثْلُك لا يُذَكَّر استقصاراً، ولا توهماً للغفلة عن حوائج[١] السائلين، ولكن ذا الحاجة لا [تدعه][٢] حاجته أن لا يتكلم فيها.

وقوله: ﴿وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء﴾ جائز أن يكون ابتداء كلام من الله، تصديقاً لإبراهيم عليه السلام. وجائز أن يكون من تمام كلام إبراهيم.

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾

﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسمعيل وإسحق﴾ «على» بمعنى «مَعَ»، كقول الشاعر:

إني على ما تَرينَ من كِبَري ... أعلمُ من حيثُ تُؤكلُ الكَتِفُ[٣]

وهذا في محل الحال.

أي: وهب لي وأنا كبير إسماعيل وإسحاق.

---

(١) في الكشاف: جواب.

(٢) في الأصل: تدعوه. والتصويب من الكشاف (٢/ ٥٢٦).

(٣) البيت لقيس بن الخطيم. وهو في: الكشاف (٢/ ٥٢٦)، والبحر (٥/ ٤٢٣)، والدر المصون (٤/ ٢٧٥)، وحاشية الشهاب (٥/ ٢٧٤)، وروح المعاني (١٣/ ٢٤٢).

قال ابن عباس: ولد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة، وولد له إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة[١].

﴿إن ربي لسميع الدعاء﴾ لقائله، كقولهم: سمع الله لمن حمده. وقد سبق.

وكان إبراهيم سأل ربه عز وجل الولد فقال: ﴿رب هب لي من الصالحين﴾ [الصافات:١٠٠].

﴿رب اجعلني مقيم الصلوة ومن ذريتي﴾ قال الزمخشري[٢]: أي: وبعض ذريتي، عطفاً على المنصوب في «اجعلني». وإنما بعّض؛ لأنه عَلِمَ بإعلام الله تعالى أنه يكون في ذريته كفار، وذلك قوله: ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾ [البقرة:١٢٤].

﴿ربنا وتقبل دعائي﴾[٣]، قال ابن عباس: يريد: عبادتي[٤].

﴿ربنا اغفر لي ولوالدي﴾ قيل: أراد آدم وحواء.

والأظهر ما تتبادر إليه الأفهام، وكان ذلك منه قبل النهي عنه.

وقال ابن الأنباري[٥]: استغفر لأبويه وهما حيّان طمعاً [في][٦] أن يهديا إلى

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ٣٤)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٦٨).

(٢) الكشاف (٢/ ٥٢٧).

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وهبيرة عن حفص عن عاصم: ﴿وتقبل دعائي﴾ بياء في الوصل. وقال البزي عن ابن كثير: يصل ويقف بياء. وقال قنبل عن ابن كثير: يُشم الياء في الوصل ولا يُثبتُها، ويقف عليها بالألف. وقرأ الباقون: ﴿دعاء﴾ بغير ياء في الحالين. قال أبو علي: الوقف والوصل بياء هو القياس، والإشمام جائز لدلالة الكسرة على الياء (الحجة ٣/ ١٩).

(٤) الطبري (١٣/ ٢٣٥)، والوسيط (٣/ ٣٤).

(٥) انظر: الوسيط (٣/ ٣٤)، وزاد المسير (٤/ ٣٦٩).

(٦) زيادة من المصدرين السابقين.

الإسلام ويسعدا بالدين.

ويعضد قولَه؛ قولُه: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾ [التوبة:١١٤].

وقرأ جماعة منهم ابن مسعود وأبي بن كعب والحسين بن علي وإبراهيم النخعي والزهري: «ولولديَّ» يعني: إسماعيل وإسحاق[١].

وقرأ مجاهد وسعيد بن جبير: «[ولوالِدِي][٢]» على التوحيد[٣].

قال الحسن البصري: بلغني أن أمه كانت مسلمة على دينه[٤].

وقرأ عاصم الجحدري: «ولوُلدي» بضم الواو[٥].

وقيل: هو بمعنى الوَلَد، [كالعُدم][٦] والعَدَم.

وقيل: هو جمع وُلْد؛ كالأَسَد وأُسْد، وخشبة وخُشْب.

قال الشاعر في المعنى الأول:

فَليتَ فلاناً كان في بطْنِ أمه ... وليتَ فلاناً [كان][٧] ولد حمار[٨]

---

(١) زاد المسير (٤/ ٣٦٩).

(٢) في الأصل: ولولدي. والتصويب من زاد المسير (٤/ ٣٦٩).

(٣) زاد المسير (٤/ ٣٦٩).

(٤) زاد المسير (٦/ ١٣٠).

(٥) زاد المسير (٤/ ٣٦٩).

(٦) في الأصل: كالعدوة. وانظر: البحر المحيط (٥/ ٤٢٣)، والدر المصون (٤/ ٢٧٦).

(٧) زيادة من مصادر تخريج البيت.

(٨) البيت لم أعرف قائله. وانظره في: تهذيب اللغة (١٤/ ١٧٨)، والمحتسب (١/ ٣٦٥)، ومعاني الفراء (٢/ ١٧٣)، والمحرر الوجيز (٤/ ٥٥٨)، والبحر (٥/ ٤٢٣)، والدر المصون (٤/ ٢٧٦)، =

وقرأ يحيى بن يعمر: «ولوَلدي» بفتح الواو [وكسر الدال][(١)] على التوحيد[(٢)].

﴿يوم يقوم الحساب﴾ فقيل معناه: يوم يقوم الناس للحساب، فاكتفى بذكر الحساب عن ذكر الناس، إذ كان المعنى مفهوماً.

وقيل: «يقوم الحساب» أي: يثبت، هو مستعار من قيام القائم على الرِّجل. والدليل عليه قولهم: قامت الحربُ على ساقها، كأنها قامت على رِجْل، ومنه قولهم: ترجَّلتِ الشمس؛ إذا أشرقت وثبت ضوؤها.

ويجوز أن تسند إلى الحساب قيام أهله إسناداً مجازياً، ويكون مثل: ﴿واسأل القرية﴾ [يوسف:٨٢].

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى: ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون﴾ إن كان الخطاب لغير الرسول ﷺ يجوز أن يكون جاهلاً بالله تعالى وصفاته، ويَحْسِبُ بجهله [أنه][(٣)] تعالى يتطرق إليه السهو والغفلة في إشكال في الآية. وإن كان الخطاب للرسول ﷺ فالمراد التثبت على ما كان عليه، كقوله: ﴿وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين *

=

واللسان (مادة: ولد)، وروح المعاني (١٣/ ٢٤٤)، والقرطبي (١٦/ ١٣٠).

(١) زيادة من زاد المسير (٤/ ٣٦٩).

(٢) زاد المسير (٤/ ٣٦٩).

(٣) في الأصل: أن. والصواب ما أثبتناه.

ولا تدع مع الله إلهاً آخر﴾ [القصص:٨٧-٨٨]، وكقوله: ﴿يا أيها الذين آمَنوا آمِنوا بالله ورسوله﴾ [النساء:١٣٦].

ويجوز أن يكون: ولا تحسبن الله يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون، ولكن يعاملهم معاملة الرقيب المحاسب على النَّقير والقِطْمير(١).

قال ابن عباس: هذا وعيد للظالم، وتعزية للمظلوم(٢).

﴿إنما يؤخرهم﴾ أي: يؤخر جزاءهم ﴿ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ أي: تزل فيه أبصار الخلائق عن مقارّها من هول ما ترى، من قولك: شَخَصَ فلان مِنْ بلده، أي: انتقل منه إلى غيره، وأشْخَصَ الرامي؛ إذا جاز سهمه الغَرَضَ مِنْ أعلاه(٣)، ويقال للرجل إذا ورد عليه أمر أفاقه: شخص به.

﴿مهطعين﴾ أي: مسرعين إلى الداعي، وقيل: إلى النار، مِنْ قولك: أَهْطَعَ البعير؛ إذا أسرع(٤).

وقال ابن عباس: الإهْطاع: إطالة النظر من غير أن يطرف الناظر(٥).

---

(١) النقير: النُّكْتَة في النواة، كأنّ ذلك الموضع نُقِرَ منها (اللسان، مادة: نقر).

والقطمير: شَقُّ النواة. وفي الصحاح (٢/ ٧٩٧): القطمير: الفُوفَة التي فوق النواة، وهي القشرة الرقيقة التي على النواة بين النواة والتمر (اللسان، مادة: قطمر).

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ٢٣٦)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٥١) كلاهما عن ميمون بن مهران. وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٤٩) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والخرائطي في مساوئ الأخلاق عن ميمون بن مهران.

(٣) انظر: اللسان (مادة: شخص).

(٤) انظر: اللسان (مادة: هطع).

(٥) أخرجه الطبري (١٣/ ٢٣٧)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٥١). وذكره السيوطي في الدر المنثور =

﴿مقنعي رؤوسهم﴾ رافعيها.

قال ابن قتيبة[١]: المقنِع رأسه: الذي رفعه وأقبل بطرفه على ما بين يديه. وهذا قول جمهور المفسرين[٢]. وأنشد أبو عبيدة[٣]:

أنغض نحوي رأسه وأقْنعا كأنما أبْصر شيئاً أطمعا[٤]

قال الحسن البصري: وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء، لا ينظر أحد إلى أحد[٥].

﴿لا يرتد إليهم طرفهم﴾ أي: لا يطرقون ولا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر وشخوص البصر.

﴿وأفئدتهم هواء﴾ أي: فارغة، ومنه الهواء؛ وهو الخلاء الذي لم تشغله الأجرام ما بين السماء والأرض، والعرب تُسمِّي كل أجوف خاو: هواء. قال حسان بن ثابت[٦]:

= (٥/ ٥٠) وعزاه لابن أبي حاتم.

(١) تفسير غريب القرآن (ص:٢٣٣).

(٢) تفسير الطبري (١٣/ ٢٣٨-٢٣٩)، وزاد المسير (٤/ ٣٧٠)، والوسيط (٣/ ٣٥)، والدر المنثور (٥/ ٥٠-٥١).

(٣) مجاز القرآن (١/ ٣٤٤).

(٤) انظر البيت في: القرطبي (٩/ ٣٧٧)، والطبري (١٣/ ٢٣٨)، وزاد المسير (٤/ ٣٧٠)، وروح المعاني (١٥/ ٩٢).

(٥) أخرجه الطبري (١٣/ ٢٣٩). وانظر: الوسيط (٣/ ٣٥)، وزاد المسير (٤/ ٣٧١).

(٦) البيت لحسان بن ثابت. وهو في: مجاز القرآن (١/ ٣٤٤)، واللسان مادة: (جوف، هوا)، والدر المصون (٤/ ٢٧٨).

ألا أبلغْ أبا سفيان عني فأنت مجوَّفٌ نخبٌ هواء

والنَّخِب: الذي لا فؤاد له.

وقد ذكرنا آنفاً أن الأفئدة مساكن القلوب، وأنه يعبر بها عنها. فإن أريد الأول؛ فالمعنى: أفئدتهم فارغة من قلوبهم، فإن قلوبهم تبلغ حناجرهم من شدة الخوف وتراكم تلك الأهوال، فصارت أفئدتهم خالية منها، وهذا قول ابن عباس وقتادة[1]، ويوضحه قوله تعالى: ﴿إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين﴾ [غافر:١٨].

وإن أريد الثاني؛ فالمعنى: قلوبهم صفر من العقل لما يلامسها من الخوف[2].

وقال ابن جريج: أفئدتهم صفر من الخير خاوية[3].

وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

﴿وأنذر الناس﴾ خوّفهم ﴿يوم يأتيهم العذاب﴾ وهو يوم القيامة. ويوم مفعول الظرف.

---

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ٢٤١). وانظر: الوسيط (٣/ ٣٥)، وزاد المسير (٤/ ٣٧١).

(٢) قال ابن جرير الطبري (١٣/ ٢٤١): وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب في تأويل ذلك؛ قول من قال: معناه أنها خالية ليس فيها شيء من الخير ولا تعقل شيئاً.

(٣) البحر المحيط (٥/ ٤٢٤)، وروح المعاني (١٣/ ٢٤٧).

﴿فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب﴾ قال مقاتل[١]: سألوا الرجوع إلى الدنيا، وسألوا الإمهال إلى أمد قريب [حتى][٢] يتداركوا ما فرطوا في جنب الله.

ويجوز أن يراد باليوم: يوم نزول العذاب بهم، أو يوم موتهم ولقاء الملائكة لهم يضربون وجوههم وأدبارهم.

﴿نجب دعوتك﴾ إلى التوحيد ﴿ونتبع الرسل أو لم تكونوا﴾، فيه إضمار، تقديره: فيقال لهم أو لم تكونوا ﴿أقسمتم من قبل﴾ أي: حلفتم في الدنيا ﴿ما لكم من زوال﴾ أي: انتقال إلى دار أخرى.

﴿وسكنتم﴾ أي: نزلتم ﴿في مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾ فرأيتم أثر كفرهم وعاقبة مكرهم؛ كالحجر ومدين وقرى قوم لوط، ﴿وتبين لكم كيف فعلنا بهم﴾ فهلا زجركم ذلك عن ظلمكم وكفركم، ﴿وضربنا لكم الأمثال﴾ فيما فَعِلوا وفُعل بهم.

﴿وقد مكروا مكرهم﴾ أي: مكروا مكرهم العظيم. قيل: هو مكرهم برسول الله ﷺ حين همّوا بقتله وإخراجه.

﴿وعند الله مكرهم﴾ أي: مكتوب عنده مكرهم، وهو مجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه. هذا معنى قول الحسن[٣].

---

(١) تفسير مقاتل (٢/ ١٩٤).

(٢) زيادة على الأصل.

(٣) زاد المسير (٤/ ٣٧٤).

وقال قتادة: المعنى: وعند الله جزاء مكرهم[١].

﴿وإن كان مكرهم﴾ مع عظمه وتفاقمه، ﴿لتزول منه الجبال﴾ «وإن» هاهنا نافية، واللام مؤكدة لها، كقوله: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ [البقرة:١٤٣].

والمعنى: ما كان مكرهم وإن تعاظم وتفاقم ليزول منه أمر محمد ﷺ وأمر دين الإسلام. وضرب الجبال مثلاً للحق الذي جاء به محمد ﷺ؛ لأنه بمنزلتها في التمكن والثبات. ويؤيده قراءة ابن مسعود: «وما كان مكرهم لتزول منه الجبال»، وهذا معنى قول الحسن والزجاج[٢] وجمهور المفسرين وأهل المعاني واللغة[٣].

وقرأ الكسائي: «لَتزولُ» بفتح اللام الأولى ورفع الثانية[٤].

قال أبو علي الفارسي[٥]: من قرأ «لتزولُ» كانت «إنْ» المخففة من الثقيلة، واسمها مضمر، بمعنى: الأمر والشأن، والجملة خبر «إن»، واللام في قوله: «لتزول» هي لام التوكيد، وهذا على تعظيم أمر مكرهم خلاف القراءة الأولى، وهو تعظيم مكرهم كقوله: ﴿ومكروا مكراً كباراً﴾ [نوح:٢٢]. أي: قد كان مكرهم من عِظَمِه وكِبَرِه يكاد يزيل ما هو مثل الجبال في [الامتناع][٦] على من أراد إزالته. يعني: أمر النبي ﷺ.

---

(١) زاد المسير (٤/ ٣٧٤).

(٢) معاني الزجاج (٣/ ١٦٧-١٦٨).

(٣) زاد المسير (٤/ ٣٧٥).

(٤) الحجة للفارسي (٣/ ١٧)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٧٩)، والكشف (٢/ ٢٧)، والنشر (٢/ ٣٠٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٧٣)، والسبعة في القراءات (ص:٣٦٣).

(٥) الحجة (٣/ ١٨-١٩).

(٦) في الأصل: الاتساع. والتصويب من الحجة (٣/ ١٨).

يدل على ذلك قوله تعالى بعدُ: ﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله﴾ أي: فقد وعدك الظهور عليهم والغلبة لهم في قوله: ﴿ليظهره على الدين كله﴾ [التوبة:٣٣].

وقد استعمل لفظ الجبال في غير هذا في تعظيم الشيء وتفخيمه، قال ابن مقبل[١]:

إذا مِتُّ عن ذكْر القوافي فلن تَرى لها شاعراً مثلي أطَبَّ وأشْعَرَا

وأكثَرَ بيتاً شاعراً ضُربت به بُطونُ جِبال الشعر حتى تيسَّرا

وقرأ عمر وعلي وابن مسعود وأبي بن كعب: «وإن كاد» بالدال[٢]، «لَتزولُ» بفتح اللام الأولى ورفع الثانية.

قال ابن جني[٣]: هذه [إِنْ][٤] المخففة من الثقيلة، واللام في قوله: «لتزول» [هي التي][٥] تدخل بعد «إِنْ» هذه المخففة من الثقيلة؛ فصلاً بينها وبين «إِنْ» التي للنفي، في قوله: ﴿إنِ الكافرون إلا في غرور﴾ [الملك:٢٠]، أي: ما الكافرون إلا في غرور، فكأنه وإنه كاد مكرهم تزول منه الجبال.

قال[٦]: ودخلتُ يوماً على أبي عليّ بُعيد عوده من شيراز سنة تسع وستين، فقال لي: ألا أُحدّثك؟ فقلت: قلْ. فقال: دخل عليّ هذا الأندلسي وظننته قد تعلّم،

(١) البيتان في: الشعر والشعراء (ص:٢٩٨).

(٢) انظر: زاد المسير (٤/ ٣٧٤).

(٣) المحتسب (١/ ٣٦٦).

(٤) زيادة من المحتسب، الموضع السابق.

(٥) مثل السابق.

(٦) أي: ابن جني في المحتسب (١/ ٣٦٦).

فإذا هو يظن أَنَّ اللام التي تصحب «إِنْ» المخففة من الثقيلة هي لام الابتداء. قلت: لا تعجب، فأكثر من ترى هكذا.

وروي عن علي وغيره: أن المشار إليهم بقوله: ﴿وقد مكروا مكرهم﴾ نمرود الذي حَاجَّ إبراهيم في ربه، وكان من قصته أنه قال: إن كان ما يقول إبراهيم حقاً فلا أنتهي حتى أعلم ما في السماء، فأمر بفرخي نسر -وروي عنه أيضاً وعن ابن عباس: أربعة أفراخ- وعلفها اللحم حتى استفحلت، ثم أمر بتابوت فنحت وجعل في وسطه خشبة وجعل على رأسها لحماً، ثم جوعها وربط أرجلها إلى أوتار إلى قوائم التابوت، ودخل هو وصاحب له في التابوت، وجعل له بابين أعلا وأسفل وأغلقهما، ثم أرسلها فجعلت تريد اللحم، فصعدت ما شاء الله، ثم قال لصاحبه: افتح الباب الأعلى وانظر ماذا ترى، وهل قربنا من السماء؟ ففتح ونظر فقال: إن السماء كهيئتها، ثم قال: افتح الباب الأسفل فانظر كيف ترى الأرض؟ ففعل فقال: أرى الأرض مثل اللجة البيضاء، والجبال مثل الدخان، فقال: أغلق الباب، ثم صعد ما شاء الله، ثم قال له: افتح فانظر، ففتح فقال: أرى السماء كهيئتها، والأرض سوداء مظلمة، ونودي: أيتها الطاغية! أين تريد؟[(١)].

قال السدي عن أشياخه: ما زال يصعد حتى رأى الأرض يحيط بها بحر فكأنها فلكة في ماء، ثم صعد حتى وقع في ظلمة فلم يدر ما فوقه وما تحته[(٢)].

قال عكرمة: كان معه غلام قد حمل القوس والنشاب، فرمى بسهم، فأعادته

---

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ٢٤٤)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٥٢). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٥٤) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري.

(٢) زاد المسير (٤/ ٣٧٣).

القدرة الإلهية إليه ملطخاً بالدم فقال: كُفيتُ إله السماء. فلما هاله الارتفاع قال لصاحبه: صوب الخشبة، فصوبها فانحطت النسور، فظنت الجبال أنه أمرٌ نزل من السماء [فزالت عن مواضعها](١).

وقيل: [ظنت](٢) أنه قيام الساعة.

قال علي عليه السلام: فسمعت الجبال هدّتها، فكادت أن تزول عن مراتبها(٣).

ويروى عن مجاهد: أن هذه القصة لبختنصر(٤).

والله تعالى أعلم.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله﴾ قال ابن عباس: يريد: الفتح والنصر وإظهار الدين(٥).

---

(١) زاد المسير (٤/ ٣٧٣-٣٧٤). وما بين المعكوفين زيادة منه (٤/ ٣٧٤).

(٢) في الأصل: ضنت. والتصويب من زاد المسير (٤/ ٣٧٤).

(٣) زاد المسير (٤/ ٣٧٣).

(٤) أخرجه الطبري (١٣/ ٢٤٤). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٧٤)، والسيوطي في الدر (٥/ ٥٥) وعزاه لابن المنذر.

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ٣٦)، والبغوي في تفسيره (٣/ ٤١)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٧٥).

قال صاحب الكشاف[(١)]: إن قلت: هلا قيل: مخلف رسله وعده؟ ولم قُدِّمَ المفعول الثاني على الأول؟

قلت: قَدَّمَ الوعدَ ليعلم أنه لا يُخلف الوعدَ أصلاً؛ كقوله: ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ [آل عمران:٩]، ثم قال: «رسله» ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحداً كيف يخلفُه رسله الذين هم خيرته وصفوته[(٢)].

وقرئ شاذاً: «وعدَه» بالنصب، «رسلِه» بالجر[(٣)].

قال الزجاج[(٤)]: هي شاذة رديئة؛ لأنه لا يجوز أن يفصل بين المضاف والمضاف إليه.

﴿إن الله عزيز﴾ لا يغالب ﴿ذو انتقام﴾ لأوليائه من أعدائه.

قوله تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾ وقرأت لعاصم من رواية أبان عنه: «نُبدِّل» بالنون، و «الأرضَ» بالنصب، «والسمواتِ» بكسر التاء نصباً، عطفاً على الأرض[(٥)].

قال الزجاج[(٦)]: إن شئت نصبت «يوماً» على النعت لقوله: «يوم يقومُ

---

(١) الكشاف (٢/ ٥٣٠).

(٢) قال أبو حيان في البحر (٥/ ٤٢٧) بعد أن ذكر قول الزمخشري: وهو جواب على طريقة الاعتزال في أن وعد الله واقع لا محالة، فمن وعده بالنار من العصاة لا يجوز أن يغفر له أصلاً. ومذهب أهل السنة أن كل ما وعد من العذاب للعصاة المؤمنين هو مشروط إنفاذه بالمشيئة.

(٣) البحر (٥/ ٤٢٧)، والدر المصون (٤/ ٢٨١).

(٤) معاني الزجاج (٣/ ١٦٨).

(٥) زاد المسير (٤/ ٣٧٥).

(٦) معاني الزجاج (٣/ ١٦٩).

الحساب»، وإن شئت أن يكون منصوباً بقوله: «ذو انتقام». المعنى: إن الله عزيز ذو انتقام، أي: ينتقم. «يوم تبدل الأرضُ» مرفوعة على اسم ما لم يسم فاعله، و «غيرَ» منصوبة على مفعول ما لم يسم فاعله.

والمراد بتبديل الأرض: تغييرها بذهاب آكامها وجبالها وأشجارها ومدرها. قاله ابن عباس[(١)]. وأنشد:

وَمَا النَّاسُ بالنَّاسِ الذين عهدتَهم ولا الدارُ بالدار الذي كنتُ أعرف[(٢)]

وفي معناه قول عمران بن حِطَّان الخارجي[(٣)] يرثي أبا بلال مرداساً الخارجي[(٤)] أمير الصفريّة، قتل في أيام يزيد بن معاوية:

أنكرتُ بعدكَ ما قد كنتُ أعرفهُ ما الناسُ بعدكَ يا مرداسُ بالناسِ

وقال ابن مسعود ومجاهد وابن عباس في رواية عطاء عنه وأكثر المفسرين:

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ٥٧). وانظر: الوسيط (٣/ ٣٦)، والبغوي (٣/ ٤١)، وزاد المسير (٤/ ٣٧٥)، والقرطبي (٥/ ٢٥٤).

(٢) لم أعرف قائله. وانظره في: الكشاف (٢/ ٥٣١)، والفريد (٢/ ١٤٨)، ومجالس ثعلب (١/ ٤٩)، والبحر (٥/ ٤٢٧)، والدر المصون (٤/ ٢٨١)، وأبو السعود (٥/ ٦٠)، وروح المعاني (١٣/ ٢٥٤).

(٣) عمران بن حطّان بن ظبيان السدوسي البصري؛ من رؤوس الخوارج من القَعَدية، وهم الذين يحسنون لغيرهم الخروج على المسلمين ولا يباشرون القتال (انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء ٤/ ٢١٤-٢١٦)، والإصابة (٥/ ٣٠٢-٣٠٥).

(٤) مرداس بن حدير بن عامر بن عبيد بن كعب الربعي التميمي، أبو بلال، ويقال له: مرداس بن أدية من الشراة، شهد صفين وأنكر التحكيم، وسجنه عبيد الله بن زياد في الكوفة، قتله عباد بن علقمة المازني. انظر ترجمته في: ميزان الاعتدال (٦/ ٣٩٤)، ولسان الميزان (٦/ ١٤)، والأعلام للزركلي (٧/ ٢٠٢).

تبدل الأرض بأرض بيضاء كالفضة لم يعمل عليها خطيئة[١].

وقال علي وأنس بن مالك: تبدل بأرض من فضة[٢].

وقال أبي بن كعب: تبدل ناراً[٣].

وقال أبو هريرة: تبدل بخبزة بيضاء، فيأكل المؤمن من تحت قدميه[٤].

وأما تبديل السموات فقال علي عليه السلام: تجعل من ذهب[٥].

وقال أبي بن كعب: تصير جناناً[٦].

وقال ابن عباس: تبديلها تكور شمسها وتناثر نجومها[٧].

---

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ٢٤٩-٢٥٠)، والبزار في مسنده (٥/ ٢٤٦-٢٤٧)، والطبراني في المعجم الأوسط (٧/ ١٦٤)، والكبير (١٠/ ١٦١). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٥٦-٥٧) وعزاه لابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في البعث عن ابن مسعود، ومن نفس الطريق من رواية أخرى عزاه لعبدالرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبي الشيخ في العظمة والحاكم وصححه والبيهقي في البعث.

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ٢٥٠) عن أنس بن مالك. وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٥٧) وعزاه لابن مردويه عن علي، ومن طريق آخر عن أنس بن مالك وعزاه لابن جرير وابن مردويه.

(٣) أخرج نحوه الطبري (١٣/ ٢٥١) عن ابن مسعود. وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٧٦)، والسيوطي في الدر (٥/ ٥٨) وعزاه لابن جرير.

(٤) أخرجه الطبري (١٣/ ٢٥١-٢٥٢) عن سعيد بن جبير، ومن طريق آخر عن محمد بن كعب القرظي. وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٧٦)، والسيوطي في الدر (٥/ ٥٨) وعزاه لابن جرير.

(٥) زاد المسير (٤/ ٣٧٦).

(٦) المصدر السابق.

(٧) المصدر السابق.

وقال ابن الأنباري[(١)]: تبديلها اختلاف أحوالها، فمرةً كالمهل ومرةً كالدِّهان.

وقيل: تبديلها طَيُّها كطي السجل للكتاب[(٢)].

والذي يقوى عندي ويدل العلم: أن مثل هذا لا يصدر عن الصحابة، مع شدة احتياطهم في الدين وورعهم الشافي إلا بتوقيف سمعوه من النبي ﷺ، فيتعين حينئذ حمله أن يقال: جميع ما قالوه كائن يوم القيامة، فإنه يوم تتقلب فيه الأعيان، وتنتقل فيه من حال إلى حال. وهذا أمر يظهر باستقراء ما جاء في القرآن والأحاديث من أحوال القيامة واختلاف مواطنها.

وفي الصحيحين من حديث سهل بن [سعد][(٣)] قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء [كقُرْصَة][(٤)] نقي[(٥)]. قال سهل أو غيره: ليس فيها معلم لأحد »[(٦)].

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة، يتكفؤها الجبار كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفر، نزلاً لأهل الجنة »[(٧)].

---

(١) انظر: الوسيط (٣/ ٣٦-٣٧)، وزاد المسير (٤/ ٣٧٦).

(٢) زاد المسير (٤/ ٣٧٦).

(٣) بياض في الأصل قدر كلمة. والمثبت من الصحيحين.

(٤) في الأصل: لوصة. والتصويب من الصحيحين.

والقُرْصَة: القِطْعة (اللسان، مادة: قرص).

(٥) النَّقِيّ: الخبز الحوَّاري (اللسان، مادة: نقا).

(٦) أخرجه البخاري (٥/ ٢٣٩٠ ح٦١٥٦)، ومسلم (٤/ ٢١٥٠ ح٢٧٩٠).

(٧) أخرجه البخاري (٥/ ٢٣٨٩ ح٦١٥٥)، ومسلم (٤/ ٢١٥١ ح٢٧٩٢).

وفي صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾ قلت: أين يكون الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: على الصراط»[1].

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ «في قوله: ﴿يوم تبدل الأرض﴾ قال: يبسطها ويمدّها مد الأديم»[2].

﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

وما بعده مفسر إلى قوله: ﴿وترى المجرمين يومئذ مقرّنين في الأصفاد﴾ تقول: قَرَنْتُ الشيءَ بالشَّيء؛ إذا وصَلْتَه به[3].

قال ابن العباس: [يقرنون][4] مع الشياطين[5].

قال ابن السائب: كل كافر مع شيطان في غل[6].

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٥٠ ح٢٧٩١).

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ٢٥٢).

(٣) انظر: (اللسان، مادة: قرن).

(٤) في الأصل: يقرون. والتصويب من زاد المسير (٤/ ٣٧٧).

(٥) زاد المسير (٤/ ٣٧٧).

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ٣٧).

وقال ابن زيد: تقرن أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم[١].

وقال ابن قتيبة[٢]: [يُقرن][٣] بعضُهم إلى بعض.

والأصْفَاد: جمع صَفَد، وهو القَيْد، وقيل: الغُلّ، تقول: صَفَدْتُه وصَفَّدْتُه، والصَّفَاد والصَّفَد والصَّفْد: ما قيّدته به من أي شيء كان. وتقول: أصْفَدت الرجل؛ إذا أعطيته إصفاداً، واسم العطية: الصَّفَد.

قال عطاء: يريد: سلاسل الحديد والأغلال[٤].

﴿سرابيلهم﴾ جمع سِرْبال وهو القميص، ﴿من قَطِرَان﴾ ويقال: «قطْران» بفتح القاف وكسرها مع سكون الطاء فيهما، وهو شيء يتحلب من شجر يهنأ[٥] به الإبل الجربى، فيحرق الجرب بحدّته وحرّه، فجعلت قُمُص أهل النار منه لنَتَنِه وسواده ولَذْغِه، وشدة اشتعال النار فيه.

وروي عن ابن عباس: أن القطران: النحاس المذاب[٦].

ويؤيده: ما قرأتُ به على شيخنا أبي البقاء وشيخنا أبي عمرو الياسري ليعقوب: «من قِطْر» بكسر القاف وسكون الطاء وكسر الراء وتنوينها، «آن»: أي

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ٢٥٥). وانظر: الوسيط (٣/ ٣٧)، وزاد المسير (٤/ ٣٧٧).

(٢) تفسير غريب القرآن (ص:٢٣٤).

(٣) في الأصل: يقرون. والتصويب من زاد المسير (٤/ ٣٧٧).

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ٣٧).

(٥) في هامش الأصل: يُدهن.

وهَنَأَ الإبل: طلاها بالهِناء، وهو القَطِران (اللسان، مادة: هنأ).

(٦) أخرجه الطبري (١٣/ ٢٥٧)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٥٤). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٥٩) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

نحـاس مـذاب متنـاهي الحـرارة(١). ومنـه قولـه: ﴿آتـوني أفـرغ عليـه قِطْـرا﴾ [الكهف:٩٦].

﴿وتغشى﴾ أي: تعلو ﴿وجوههم النار﴾ لا يتّقونها بشيء، كما قال الله تعـالى: ﴿أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة﴾ [الزمر:٢٤]، وقال: ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم﴾ [القمر:٤٨].

ولما كانت عادة الإنسان أن يتّقي بيده، أخبر الله سبحانه وتعالى أن أهل النـار يُصفّدون وتُغَلّ أيديهم ليُمنعوا هذا القدر مـن الراحـة، نعـوذ بـالله مـن سـخطه وعذابه.

قوله تعالى: ﴿ليجزي الله﴾ اللام متعلقة بقوله: «وبرزوا»، والمعنى: ليجزي الله ﴿كل نفس﴾ صالحة وطالحة ﴿ما كسبت﴾ من خير وشر.

﴿إن الله سريع الحساب﴾ سبق تفسيره.

وقيل: المعنى حسابه واقع لا محالة، وكل ما هو واقع فهو سريع.

قوله تعالى: ﴿هذا بلاغ للناس﴾ يعني: القرآن، وقيل: ما أشار إليه من قولـه: «ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون» إلى قوله: «هذا بلاغ للناس».

ومعنى قوله: «بلاغ»: كفاية في التذكير والتحذير.

﴿ولينذروا به﴾ عطف على محذوف، تقديره: لِيُنْصَحُوا ولِيُنْذَرُوا به.

﴿وليعلموا﴾ أنما فيه من الحجج البالغة ﴿أنما هـو إلـه واحـد﴾ وعـلى القـول الآخر: المعنى: وليعلموا إذا أنذروا واستمروا من ذلك خوفاً يبعثهم على النظر في

---

(١) زاد المسير (٤/ ٣٧٧).

الحق والسعي في خلاص أنفسهم من العذاب بمجانبة أسبابه؛ أنما هو إله واحد.

﴿وليذكر أولوا الألباب﴾ أصحاب العقول.

سورة الحجر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وهي مائة آية إلا آية، وهي مكية بغير خلاف.

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿وقرآن مبين﴾ نكرة للتفخيم والتعظيم، والكتاب والقرآن واحد. وقيل: الكتاب: التوراة والإنجيل والقرآن كتابنا. وفيه بُعد.

وقال صاحب الكشاف[1]: ﴿تلك﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات، والكتاب والقرآن المبين: السورة.

والمعنى: تلك آيات الكتاب الكامل [في كونه كتاباً][2]، وآي كتاب مبين، كأنه قيل: الكتاب الجامع للكمال والغرابة في البيان.

قوله تعالى: ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ قرأ نافع وعاصم: «ربما» بالتخفيف، وافقهما أبو عمرو في رواية عبد الوارث عنه. وقرأت لعاصم من طريق

---

(١) الكشاف (٢/ ٥٣٣).

(٢) زيادة من الكشاف، الموضع السابق.

الشموني بضم الباء، وقرأ الباقون بالتشديد[١]، وهما لغتان مشهورتان[٢].

قال أبو كبير الهذلي:

أزهيرُ إنْ يَشِبَ القَذَالُ[٣] فإنَّني ... رُبَّ هَيْضَلٍ لَجَبٍ لَفَفْتُ بِهَيْضَلِ[٤]

والهَيْضَل: جمع هَيْضَلة، وهي الجماعة يُغْزى بهم[٥]، يقول: لففتهم بأعدائهم في القتال.

وقال الآخر في اللغة الأخرى:

رُبَّ نارٍ بتُّ أَرْمُقُها ... تَقْضِمُ الهنديَّ[٦] والغَارَا[٧]

قال الزجاج[٨]: إنما زيدت «ما» مع «رُبَّ» لِيَلِيها الفعل، تقول: رُبَّ رجلٍ جاءني، وربما جاءني رجل.

---

(١) الحجة للفارسي (٣/ ٢٠)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٨٠)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٣٠١)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٧٤)، والسبعة في القراءات (ص:٣٦٦).

(٢) قال الطبري (١٤/ ١): والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال إنهما قراءتان مشهورتان ولغتان معروفتان بمعنى واحد، قد قرأ بكل واحدة منهما أئمة من القراء، فبأيتهما قرأ القارئ فهو مصيب.

(٣) القذال: جِمَاعُ مؤخَّر الرأس من الإنسان والفرس فوق فأس القفا، والجمع أقذلة وقُذُل. اللسان (مادة: قذل).

(٤) البيت لأبي كبير الهذلي من قصيدة قالها في تأبط شراً، وكان أبو كبير قد تزوج أمه وأراد قتله، ولكنه خافه. انظر: ديوان الهذليين (ص:٨٩)، والخزانة (٤/ ١٦٥)، وشواهد المغني (ص:٨١)، ومعاني الزجاج (٣/ ١٧٢)، واللسان (مادة: هضل)، وزاد المسير (٤/ ٣٨٠).

(٥) انظر: اللسان (مادة: هضل).

(٦) يقصد: العود الطيب الذي من بلاد الهند.

(٧) البيت لعدي بن زيد بن الرِّقاع. انظر البيت في: اللسان (مادة: هند، قضم).

(٨) معاني الزجاج (٣/ ١٧٣).

وقال أبو علي [الفارسي][(١)]: رُبَّ حرف جر، و «ما» كافَّة لـ«رُبَّ» عن عملها، ألا ترى أنها دخلت على الفعل، وحرف الجر لا يدخل على الأفعال، فدخول «ما» عليها نفتها عن عملها وهيّأتها [للدخول][(٢)] على الفعل.

فمن قرأ «رُبَّما» بالتشديد؛ فعلى الأصلين؛ لأن رب على ثلاثة أحرف، مثل: ثُمَّ.

ومن قرأ بالتخفيف؛ فلأن رُبَّ حرف مضاعَف، والحروف المضاعفة قد تحذف مثل: إنّ وأنّ ولكنّ، وليس كل المضاعف يُحذف، لم أعلم الحذف في ثُمَّ.

فإن قيل: كيف وَليها الفعل المضارع وقد أَبَوْا دخولها إلا على الماضي؟ كقول الشاعر:

رُبَّمَا أَوْفيتُ في عَلَمٍ   تَرْفَعْنَ ثوبي شَمالاتُ[(٣)]

قلت: حمله أبو إسحاق على إضمار كان، على تقدير: رُبَّما كان يودّ، وأجود منه أن يكون على حكاية الحال. وقد حكى الكسائي عن العرب ربما يندم فلان، قال الشاعر:

---

(١) الحجة للفارسي (٣/ ٢٠، ٢٢، ٢٤). وما بين المعكوفين في الأصل: الفاسي.

(٢) زيادة من الحجة (٣/ ٢٢).

(٣) البيت لجذيمة الأبرش. انظر: الأزهية (ص:٩٤، ٢٦٥)، وخزانة الأدب (١١/ ٤٠٤)، وشرح أبيات سيبويه (٢/ ٢٨١)، وشرح التصريح (٢/ ٢٢)، وشرح شواهد الإيضاح (ص:٢١٩)، وشرح شواهد المغني (ص:٣٩٣)، والكتاب (٣/ ٥١٨)، والمقتضب (٣/ ١٥).
وشمالات: جمع شمال، والشَّمال من الرياح: ما استقبلك عن يمينك إذا وقفت في القبلة. وقيل: مهبّ الشمال من بنات نعش إلى مقْسَطِ النسر الطائر (اللسان، مادة: شمل).

رُبَّما تجْزَعُ النفوسُ من الأمْـ ـرِ له فُرجَةٌ كحَلِّ العُقالِ[(١)]

وقال الزمخشري[(٢)]: جاز ذلك؛ لأن المُتَرَقَّبَ في أخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه، وكأنه قيل: رُبَّما وَدّ.

فإن قيل: ربما وجد في كلامهم للتقليل، ألا ترى إلى قوله:

ألا رُبَّ مَولودٍ وليسَ له أبٌ وذي وَلَدٍ لم يَلدهُ أبوانِ[(٣)]

وإذا كانت للتقليل فشأن ما توعدوا به لا يناسب التقليل، بل التكثير.

قلت: قد سلك بها ابن الأنباري[(٤)] في بعض أجوبته مسلك الأضداد، وأنها تقال على التقليل [والتكثير][(٥)]، كالناهل والجون. ومنه في حديث سويد بن غفلة قال: سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «يا علي! ألا أعلمك كلمات إذا وقعت في ورطة قلتهن؟ قلت: بلى يا رسول الله، جعلني الله فداك، فربما خير قد علمتنيه. قال: إذا وقعت في ورطة فقل: بسم الله الرحمن

---

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت، انظر: ديوانه (ص:٥٠)، والأزهية (ص:٨٢، ٩٥)، وخزانة الأدب (٦/ ١٠٨، ١١٣، ١٠/ ٩)، وشرح أبيات سيبويه (٢/ ٣)، والكتاب (٢/ ١٠٩)، والأشباه والنظائر (٣/ ١٨٦)، وشرح الأشموني (١/ ٧٠)، ومغني اللبيب (٢/ ٢٩٧)، والمقتضب (١/ ٤٢)، وزاد المسير (٤/ ٣٨٢).

(٢) الكشاف (٢/ ٥٣٣).

(٣) البيت لرجل من أزد السراة. انظر البيت في: شرح التصريح (٢/ ١٨)، والحجة للفارسي (١/ ٢٥١)، وشرح شواهد الشافية (ص:٢٢)، والكتاب (٢/ ٢٦٦، ٤/ ١١٥)، والمقاصد النحوية (٣/ ٣٥٤)، والأشباه والنظائر (١/ ١٩)، وأوضح المسالك (٣/ ٥١)، والخصائص (٢/ ٣٣٣).

(٤) انظر: زاد المسير (٤/ ٣٨١).

(٥) في الأصل: والكثير. والتصويب من زاد المسير، الموضع السابق.

الرحيم، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فإن الله يصرف بها ما شاء من أنواع البلاء))[١].

وهذا موضع تكثير لا تقليل، وأنشدوا:

فإنْ تُمْسِ مَهْجُورَ الفِناءِ فرُبَّما أقامَ به بعدَ الوفودِ وُفودُ[٢]

وقال صاحب الكشاف[٣]: هو وارد على مذهب العرب في قولهم: لعلك [ستندم][٤] على فعلك، ولا يَشُكُّون في [تندمه][٥]، ولا يقصدون تقليله، ولكنهم أرادوا: لو كان [الندم][٦] مشكوكاً فيه أو كان قليلاً لحقّ عليك أن لا تفعل هذا الفعل؛ لأن العقلاء يتحرزون [من التعرض للغم المظنون، كما يتحرزون][٧] من المتيقن ومن القليل منه، كما يتحرزون من الكثير، وكذلك المعنى في الآية: ولو كانوا يودون الإسلام مرة واحدة، [فبالحري][٨] أن يسارعوا إليه، فكيف وهم يودونه في كل ساعة.

والقول الجزل في نظري: إجراؤها على ظاهرها وما وُضِعَتْ له، وما ذاك لقلة

---

(١) ذكره الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (٥/ ٣٢٤)، والعجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٥١٧).

(٢) البيت لأبي عطاء السندي يرثي ابن هبيرة. وانظر البيت في: تفسير أبي السعود (٣/ ١٢٦)، واللسان (مادة: عهد)، وفيض القدير (٢/ ٢٣٩).

(٣) الكشاف (٢/ ٥٣٣-٥٣٤).

(٤) في الأصل: تندم. والمثبت من الكشاف (٢/ ٥٣٣).

(٥) في الأصل: تقدمه. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

(٦) في الأصل: التقدم. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

(٧) زيادة من الكشاف (٢/ ٥٣٤).

(٨) في الأصل: بالحري. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

ما توعدوا به، وإنما هم لعِظَمِ ما دهمهُم من أهوال الطامة، وتراكَمَ عليهم من شدائد القيامة، وشدة ما يعانونه من عذاب النار في شغل شاغل، فربما حانت منهم حالة إفاقة [فيتمنون][١] إذ ذاك أنهم كانوا مسلمين، وهذا بالإضافة إلى ذلك الشغل الشاغل قليل.

فإن قيل: متى يودُّون لو كانوا مسلمين؟

قلت: إذا عاينوا الموت وتحققوا الفوت، وظهرت لهم أسباب العذاب، وشاهدوا فوز أهل التوحيد يوم القيامة بالثواب.

وقد روى أبو موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى. قالوا: فما أغنى عنكم إسلامكم وقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها. فسمع الله ما قالوا، فأمر الله بمن كان في النار من أهل القبلة فأُخرجوا. فلما رأى ذلك الكفار قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج من النار كما أخرجوا. قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين * ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾»[٢].

قال ابن عباس: ما يزال الله يشفع ويُدخل الجنة ويَرحم حتى يقول: من كان من المسلمين فليدخل الجنة فذاك حين يقول: ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا

---

(١) في الأصل: فيمنون. والصواب ما أثبتناه.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٢٦٥ ح٢٩٥٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه ووافقه الذهبي، والطبري في تفسيره (١٤/ ٢).

مسلمين﴾[١].

وقوله: ﴿لو كانوا مسلمين﴾ حكاية ودادتهم، وإنما جيء بها على لفظ الغيبة؛ لأنهم مخبر عنهم، كقولك: حلف بالله ليفعل، ولو قال: لأفعلن، أو كنا مسلمين؛ لكان حسناً.

قوله تعالى: ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا﴾ تلويح للرسول ﷺ بخذلانهم وانتظامهم في سلك من لا يجدي معهم تحذير ولا تخويف وتذكير، كأنه قيل: اقطع طمعك من ارعوائهم، ودعهم يأكلوا ويتمتعوا بدنياهم مدة حياتهم.

﴿ويلههم الأمل﴾ يشغلهم عن الاستعداد للمعاد، ﴿فسوف يعلمون﴾ سوء صنيعهم وما جَنَتْ عليهم غفلتهم، وهذا وعيد وتهديد شديد.

وقد ذكرنا مذهب أكثر المفسرين في هذا وأمثاله، وأنه عندهم منسوخ بآية السيف[٢].

والوجه الصحيح ما ذكرته أولاً. ومثله قوله تعالى: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾ [المدثر:١١]، فتفهم ذلك.

وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٨٤ ح٣٣٤٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والطبري (١٤/ ٣). وانظر: الوسيط (٣/ ٣٩).

(٢) أعرض النحاس عن ذكر النسخ في هذه الآية. وذكره ابن سلامة في الناسخ والمنسوخ (ص:١١١)، وابن حزم (ص:٤٢) ولم يستندوا كعادتهم إلى أي دليل نقلي أو عقلي. وردّ دعوى النسخ ابن الجوزي في نواسخ القرآن (ص:٣٧٩) بما ردّ به هنا، وهي أنها وعيد وتهديد.

قوله تعالى: ﴿وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم﴾ أي: أجل مؤقت لا يتأخر عنه ولا يتقدمه.

قال الزمخشري[١]: «لها كتاب» جملة واقعة صفة لـ«قرية». والقياس: أن لا تتوسط الواو بينهما، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون﴾ [الشعراء:٢٠٨]، وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف، كما يقال في الحال: جاءني زيد وعليه ثوب، وجاءني وعليه ثوب.

قوله تعالى: ﴿ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾ «مِنْ» زائدة، وإنما أنّث الأمَّة فقال: «أجلها»، ثم ذكَّرها فقال: «يستأخرون» حملاً على اللفظ تارة، وعلى المعنى أخرى، وحذف عنه لأنه معلوم.

وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى: ﴿وقالوا﴾ يعني: المشركين على مذهبهم في التهكم بالرسول ﷺ ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر﴾ أي: القرآن ﴿إنك لمجنون﴾ قال أبو علي الفارسي[٢]: جواب هذه الآية في سورة أخرى ﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ [القلم:٢].

---

(١) الكشاف (٢/ ٥٣٤).

(٢) لم أقف عليه في المطبوع من كتابه الحجة.

فصل

قلت يوماً لولدي محمد ..[1] وهو قد أربى على عشر سنين بقليل، وكان يتلو عَلَيَّ هذه السورة، فلما جاء إلى هذه الآية قلت له ممتحناً لخاطره: هؤلاء قوم كفار، فكيف قالوا: ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر﴾؟

فقال: الجواب عنه من وجهين:

أحدهما: أنه استهزاء منهم به ﷺ، كما قال قوم فرعون لموسى: ﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ [الشعراء:٢٧]، فحمدت الله تعالى على توفيقه للصواب. وما أعرف للآية وجهاً سوى هذا.

فقلت: والوجه الثاني، ما هو؟

فقال: الوجه الثاني: أن يكون قوله: ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر﴾ نداء من الله له، لا مما حكاه عنهم، يشير إلى أنه كلام معترض، ينعي به عليهم سوء حالهم في نسبتهم من اختصه الله تعالى لإنزال الذكر عليه إلى الجنون.

وهذا وجه سديد لا يتقاصر في الجودة عن الذي قبله، بل ربما زاد عليه.

قوله تعالى: ﴿لو ما تأتينا بالملائكة﴾ قال أبو عبيدة[2]: لولا ولوما لغتان بمعنى واحد، وأنشد لابن مقبل:

لَوْمَا الحياءُ ولوْمَا الدِّينُ عِبْتُكُمَا ... ببعضِ ما فيكُما إذْ عِبْتُما عَوَري[3]

---

(١) كلمة غير مقروءة في مصورة الأصل.

(٢) مجاز القرآن (١/ ٣٤٦).

(٣) البيت لابن مقبل يخاطب ابنتي عَصَر. وانظر: البحر (٥/ ٤٣١)، والدر المصون (٤/ ٢٨٩)، والطبري (١٤/ ٦)، وزاد المسير (٤/ ٣٨٣)، واللسان(مادة: بعض)، والكشاف (٢/ ٥٣٥).

وقال الفراء[١]: لولا ولوما لغتان، معناهما هلا.

ومعنى الآية: هلا تأتينا بالملائكة يشهدون بصدقك.

﴿إن كنت من الصادقين﴾ أو يكون المعنى: هلا تأتينا بالملائكة للعقاب على تكذيبنا لك إن كنت صادقاً.

﴿ما تُنَزِّلُ الملائكةُ إلا بالحق﴾ قرأ أهل الكوفة: «ننزل» بنون العظمة وكسر الزاي، «الملائكةَ» بالنصب، إلا أبا بكر فإنه قرأ: «تُنَزَّلُ» بالتاء المضمومة على ما لم يُسَمَّ فاعله، «الملائكةُ» بالرفع. وقرأ الباقون بفتح التاء[٢]، أي: تتنزل الملائكة.

﴿إلا بالحق﴾ أي: بالأمر الثابت الملجئ إلى التصديق أو العذاب من غير تأخير.

قال ابن عباس: إذا نزلت الملائكة لم ينظروا ولم يمتهلوا، وهو قوله: ﴿وما كانوا إذاً منظرين﴾[٣].

قال صاحب الكشاف[٤]: «إذاً» جواب وجزاء؛ لأنه جواب لهم، وجزاء [الشرط][٥] مقدر، تقديره: ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين وما أخر عذابهم.

قوله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر﴾ ردّ لإنكارهم واستهزائهم [في قولهم][٦]:

---

(١) معاني الفراء (٢/ ٨٤).

(٢) الحجة للفارسي (٣/ ٢٤)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٨١)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٣٠١)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٧٤)، والسبعة في القراءات (ص:٣٦٦).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ٤٠).

(٤) الكشاف (٢/ ٥٣٥-٥٣٦).

(٥) في الأصل: الشرط. والتصويب من الكشاف (٢/ ٥٣٥).

(٦) في الأصل: وقولهم. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر﴾، ولذلك قال: «إنا نحن»، فأكّد عليهم أنه هو المنزل على القطع والبَتّ، وأنه هو الذي بعث به جبريل إلى محمد ﷺ.

﴿وإنا له لحافظون﴾ من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل، بخلاف الكتب المتقدمة، فإنه لم يتولّ سبحانه وتعالى حفظها، بل وَكَلها إلى الأحبار واستَحْفَظَهُم إياها، فأضاعوها وبدّلوها وحرّفوها.

قال قتادة: أنزله الله ثم حفظه، فلا يستطيع إبليس أن يزيد فيه باطلاً ولا ينقص منه حقاً[(١)].

وقال [الكلبي][(٢)]: «وإنا له» أي: لمحمد ﷺ حافظون من شياطين الإنس والجن[(٣)].

والأول أصح وأكثر. وأن المراد بذلك حفظ القرآن العزيز. وقد ظهر أثر ذلك والحمد لله، فلو تمالأ الثقلان على تحريفه وتبديله وزيادته ونقصانه لم يقدروا على ذلك.

ولقد احتدت شوكة الرافضة[(٤)] في زماننا بالموصل واشتدت شكيمتهم، وظنوا أن الوثب تهزهم، ولات حين ما يطلبون، وأنّى وكلمة الله هي العليا، والله مظهر دينه، وناصر من نصره، وخاذل من خذله، وطمعوا اعتزازاً منهم وجهلاً بما

---

(١) أخرجه الطبري (١٤/ ٨)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٥٨). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٦٧) وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) في الأصل: الكبي. والصواب ما أثبتناه.

(٣) زاد المسير (٤/ ٣٨٤).

(٤) انظر في هذه القصة إلى تحريف الشيعة الرافضة خذلهم الله للقرآن الكريم.

كتبه الله تعالى على نفسه من حفظ كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين [يديه][1] ولا من خلفه، أن يحرفوا مواضع من القرآن ويُنزلوها على وفق أهوائهم؛ فقرأ قارئ منهم في محفل من محافلهم آيات من سور شتى انتخبتها طواغيتهم، ولفقوها تلفيقاً متناقضاً، ونظموها نظماً تشهد رصانة القرآن وفصاحته بتهافتها وافترائها، وأنا أستحيي من حكايتها، وأستغفر الله تعالى من جريان قلمي بكتابتها، فقرأ آيات كثيرة منها: «إنما وليكم الله ورسوله وعلي الذين يقيمون الصلاة»، وقرأ: «أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كعلي آمن بالله» وفساد هذا في العربية أكثر وأظهر من أن يذكر، وقرأ: «إن الله وملائكته يَصِلونَ علياً بالنبي»، وقرأ: «فأما عليٌّ فأعطى واتقى وصدق بالحسنى»، وزاد آية في كتاب الله فقرأ في سورة الشعراء عند قوله: ﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾: «وإن علياً وشيعته لهم الفائزون»، في آيات كثيرة اقترؤوها ثم افتروها.

فلما شاع ذلك وذاع، وحدثني به رجل صالح من فضلاء القُرَّاء ممن حضر وسمع، لزمتني حجة الله الذي اتخذها على الذين أوتوا الكتاب ليبيّننه للناس ولا يكتمونه، وطوّقت القول في ذلك طوق الحمامة، فرفعت حديثه إلى والي الأمر بالموصل، فنفى ذلك القارئ من البلاد، وأراح منه العباد.

ومن أعجب ما بلغني عن بعض عظمائهم أنه قال: إنما أنكروا ذلك لكونه في فضائل علي عليه السلام، فقلت: لو أن شخصاً استحل الزيادة في كتاب الله أو التحريف فيه بتوحيد الله وتمجيده والثناء عليه، مضيفاً ذلك إلى القرآن، معتقداً

(١) زيادة على الأصل.

نزوله فيه، كان كافراً بإجماع أهل العلم، ولكن هذا دأبهم وديدنهم عند إنكار أهل الحق عليهم ما يختلقونه في المناقب والمثالب، ونحن بحمد الله تعالى بفضائل أمير المؤمنين علي وآله أدرى، وبمحبته وولايته أولى وأحرى.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك﴾ التقدير: أرسلنا رسلاً، فحذف المفعول لدلالة الإرسال عليه، ﴿في شيع الأولين﴾ يعني: فرقهم. والشِّيعة: الفرقة على مذهب واحد.

ثم عزّى رسوله ﷺ فقال: ﴿وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن﴾ فليس بِبِدْعٍ منهم أن يقرفوك[1] بالجنون ويستهزؤا بك، فإنها سُنَّة شيعتهم في الضلالة.

﴿كذلك نسلكه﴾ أي: ندخله. والسَّلْكُ: إدخال الشيء في الشيء، يعني: الكفر والاستهزاء. وهذا قول ابن عباس والحسن وعامة المفسرين[2].

والمعنى: كما سلكنا الكفر والتكذيب والاستهزاء في قلوب الشيع السالفة نسلكه في قلوب هؤلاء.

---

(١) أي: يتهموك، يقال: قَرَفَه بكذا: أي: أضافه إليه واتّهمه به (اللسان، مادة: قرف).
(٢) أخرجه الطبري (١٤/ ٩). وانظر: الوسيط (٣/ ٤٠)، وزاد المسير (٤/ ٣٨٥).

وقال الزمخشري(١): «نسلكه» يعني: الذِّكْر، ﴿في قلوب المجرمين﴾ على معنى: [يلقيه](٢) في قلوبهم مكذباً مستهزءاً به غير مقبول، كما لو أنزلتُ بلئيم حاجة فلم يجبك إليها فقلت: كذلك أنزلها باللئام، أي: مثل هذا الإنـزال [أنزلناهـا](٣) بهـم مردودة غير مقضية.

والحامل له على هذا التمحل الشديد والتأويل البعيد ومفارقة مـن قبلـه مـن المفسرين؛ ما يستلزم التفسير المشهور من إبطال ما يتنحله من الاعتزال(٤).

﴿لا يؤمنون به﴾ أي: بالذِّكْر. وقيل: بالرسول ﴿وقد خلت سنة الأولين﴾ أي: طريقتهم التي سَنَّها الله في إهلاكهم. وهذا تهديد لأهل مكة.

وقيل: المعنى: وقد خلت سنة الأولين بتكذيب المرسلين.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون﴾ يقال: ظَلَّ يفعل كذا، إذا فعله بالنهار(٥)، وبَاتَ يفعل كذا ليلاً. قال:

عَزَّ على عَمِّكِ أن تَأَوَّقي ... أوْ لَمْ تبيتي ليلةً لم تُغْبَقِي(٦)

---

(١) الكشاف (٢/ ٥٣٦-٥٣٧).

(٢) في الأصل: يقليه. والتصويب من الكشاف (٢/ ٥٣٦).

(٣) في الأصل: أنزلها. والمثبت من الكشاف (٢/ ٥٣٧).

(٤) المقصود به: صاحب الكشاف الزمخشري.

(٥) انظر: اللسان (مادة: ظلل).

(٦) البيت لجندل بن المثنى الطَّهوي. انظر البيت في: اللسان (مادة: كأب، أوق).

قال أبو عمرو: وأَوَّقْتُهُ، وهو أن تُقَلِّل طعامه.

والعروج: الصعود.

والمعنى: لو فتحنا لهم باباً من أبواب السماء وأقدرناهم على العروج في الهواء فشاهدوا بأعينهم ما يوعدون ﴿لقالوا﴾ عناداً وتعنتاً: ﴿إنما سُكِّرت أبصارنا﴾ هذا قول الحسن وقتادة(١).

وقال ابن عباس: الضمير في «فظلوا» للملائكة(٢)، على معنى: لو فتحنا لهم باباً في السماء وشاهدوا الملائكة يصعدون فيه لقالوا إنما سُكِّرت أبصارنا.

وقرأ ابن كثير: «سُكِرَت» بالتخفيف(٣).

قال المبرد وغيره: والمعنى واحد، إلا أن التشديد للتكثير.

وقال أبو عمرو بن العلاء: سُكِرت بالتخفيف؛ مأخوذ من سُكْر الشراب، يعني: أن الأبصار حارت كما يحار السَّكْران.

وقال الزجاج(٤): سُكِّرت بالتشديد: أُغشيت، وبالتخفيف: [تحيَّرَت](٥)، أي: جرت مجرى السكران في عدم تحصيله.

﴿بل نحن قوم مسحورون﴾ سَحَرَنَا محمد ﷺ، فنحن نشاهد ما لا حقيقة له.

---

(١) أخرجه الطبري (١٤/ ١١). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٨٦).

(٢) أخرجه الطبري (١٤/ ١٠). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٨٦)، والسيوطي في الدر (٥/ ٦٨).

(٣) الحجة للفارسي (٣/ ٢٥)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٨٢)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٣٠١)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٧٤)، والسبعة في القراءات (ص:٣٦٦).

(٤) معاني الزجاج (٣/ ١٧٥).

(٥) زيادة من معاني الزجاج، الموضع السابق.

والمقصود من هذا: الإعلام بأنهم قوم شأنهم العناد، وأنهم لفرط توغلهم فيه لو فتحت عليهم أبواب السماء وشاهدوا ما يضطرهم إلى التصديق، لكابروا أنفسهم وأنكروا الحقائق، وأصرُّوا على تكذيبهم وعنادهم.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً﴾ قال ابن عباس: بروج الشمس والقمر، يعني: منازلهما(١).

قال ابن قتيبة(٢): وأسماؤها عندهم: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت.

﴿وزيناها للناظرين﴾ بالشمس والقمر والكواكب.

﴿وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾ فلا يصل إليها ولا يتلقى من جهتها شيئاً.

﴿إلا من استرق السمع﴾ «مَنْ» في موضع النصب على الاستثناء وليس بجر، بدلاً من «شيطان»؛ لأنه استثناء موجب(٣).

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ٤١)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٨٧).

(٢) انظر قول ابن قتيبة في: زاد المسير (٤/ ٣٨٧).

(٣) التبيان (٢/ ٧٢-٧٣)، والدر المصون (٤/ ٢٩٢).

﴿فأتبعه شهاب مبين﴾ أي: لحقه كوكب مضيء.

قال ابن عباس: يحرق ويجرح ويخبل ولا يقتل[(١)].

وقال الحسن: يقتل[(٢)].

وعندي: أنه لا تنافي بين القولين، فإنه عذاب يرمون به، فمنهم من يستأصله ويهلكه، ومنهم من يعذبه ولا يهلكه بالكلية.

فصل

اختلفوا هل كان يرمى بالنجوم قبل مبعث نبينا محمد ﷺ؟ فقال عامر الشعبي: لم يقذف بالنجوم حتى كان مبعث رسول الله ﷺ[(٣)]. واحتجوا لهذا القول بما أخرج الإمام [أحمد][(٤)] في مسنده عن ابن عباس قال: «كانت النجوم لا يرمى بها، فلما بُعث النبي ﷺ كان أحدهم لا يقعد مقعده إلا رُمي بشهاب يحرق ما أصابه، فشكوا ذلك إلى إبليس، فقال: ما هذا إلا من أمر قد حدث، فبعث جنده، فإذا هم بالنبي ﷺ يصلي بين جبلي نخلة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الحدث الذي حدث في الأرض»[(٥)]. قال الترمذي: هذا حديث صحيح.

وقال الزجاج[(٦)]: الدليل على أنها كانت بعد مولد النبي ﷺ؛ أن شعراء العرب

(١) أخرجه الطبري (١٤/ ١٥)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٥٩). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٦٩) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٢) زاد المسير (٤/ ٣٩٠).

(٣) القرطبي (١٠/ ١٢).

(٤) زيادة على الأصل.

(٥) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٢٧ ح٣٣٢٤)، وأحمد (١/ ٣٢٣ ح٢٩٧٩).

(٦) معاني الزجاج (٣/ ١٧٦).

الذين يمثلون في السرعة بالبرق وبالسيل وبالأشياء المسرعة لم يوجد في أشعارها بيتٌ واحد فيه ذكر الكواكب المنقضَّة، فلما [حدثت][(١)] بعد مولد النبي ﷺ استعملت الشعراء ذكرها، قال ذو الرمة[(٢)]:

كأنه كوكب في إثر عِفرِيَةٍ[(٣)] مسوَّمٌ في سواد الليل مُنْقَضِب

والصحيح عندي: أنه كان يرمى بها، وقول ابن عباس محمول على نفي الكثرة لا على نفي أصل الرمي، جمعاً بينه وبين قوله في الرواية الأخرى: كانت الشياطين لا تحجب عن السماوات، فلما ولد عيسى منعت من ثلاث سماوات، فلما وُلد رسول الله ﷺ مُنعوا من السماوات كلها[(٤)].

وقال الزهري: قد كان يرمى بها قبل ذلك، ولكنها غُلِّظَت حين بعث النبي ﷺ، وهذا مذهب ابن قتيبة، قال: وعليه وجدنا الشعر القديم[(٥)].

قال أوس بن حجر، وهو جاهلي:

---

(١) في الأصل: حدث. والتصويب من معاني الزجاج (٣/ ١٧٦).

(٢) البيت لذي الرمة يصف ثوراً وحشياً. انظر: ديوانه (ص:٢٧)، واللسان (مادة: قضب، عفر)، والقرطبي (١٠/ ١١)، وزاد المسير (٤/ ٣٨٨).

(٣) العِفْر والعِفْرية -بالكسر- وعُفَارية -بالضم-، والعِفْرية: الداهية، يريد كأنه في سرعته كوكب ينقض في إثر عفريت.

ومسوّم: أي: واضح ظاهر كالذي به علامة تميزه، ومنقضب: أي: منقض.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ٤١)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٨٩).

(٥) تأويل مشكل القرآن (ص:٤٣٠).

فانقضَّ كالدُّرِّي[١] يتبعُهُ نقعٌ يَثورُ تَخالُهُ طُنُبا[٢]

والذي يزيد ذلك إيضاحاً، ويُفصح بصحة ما اخترتُه إفصاحاً: ما أخبرنا به أبو بكر ابن بهروز قال: [أخبركم عبد الأول قال][٣]: أبنا الداودي، ثنا عبدالله بن أحمد بن حمويه السرخسي، ثنا إبراهيم بن خريم الشاشي، ثنا عبد بن حميد، ثنا عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن علي بن الحسين، عن ابن عباس قال: ((بينا النبي ﷺ [جالس][٤] في نفر من أصحابه من الأنصار، إذ رمي بنجم فاستنار، فقال: ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية؟ قالوا: كنا نقول: يولد عظيم أو يموت عظيم. قال: فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى الأمر في السماء سَبَّحَ حملة العرش، ثم يسبح أهل السماء، وسبح كل أهل سماء، حتى ينتهي التسبيح إلى هذه السماء، ويستخبر حملةُ العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبر [أهل][٥] كل [سماء][٦] أهل سماء، حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء، وتخطف الجن ويرمون، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يقرفون فيه ويزيدون))[٧].

---

(١) الدُّرِّي: الكوكب المنقضُّ يُدْرَأ على الشيطان (اللسان، مادة: درأ).

(٢) البيت لأوس بن حجر. انظر: ديوانه (ص:٣)، والحجة للفارسي (٣/ ٢٢٩)، والمعجم المفصل (١/ ١٣٤)، واللسان (مادة: درأ)، وتهذيب اللغة (١٤/ ١٥٨)، وتاج العروس (١/ ٢٢٤).

(٣) زيادة على الأصل. وقد سبق هذا السند مراراً بهذه الزيادة.

(٤) زيادة من مسند عبد بن حميد (١/ ٢٢٨).

(٥) مثل السابق.

(٦) مثل السابق.

(٧) أخرجه مسلم (٤/ ١٧٥٠ح٢٢٢٩)، وعبد بن حميد في مسنده (١/ ٢٢٨).

قال: قلت للزهري: أَوَ كان يرمى بها في الجاهلية؟ قال: نعم. قلت: أقرأت قوله: ﴿وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ... الآية﴾ قال: غُلِّظت وشدّد أمرها حين بُعث النبي ﷺ. هذا حديث صحيح أخرجه مسلم في صحيحه.

قوله تعالى: ﴿والأرض مددناها﴾ بسطناها على وجه الماء ﴿وألقينا فيها رواسي﴾ وهي الجبال الثوابت لتُسكنها ﴿وأنبتنا فيها﴾ أي: في الأرض. وقال الفراء[1]: في الجبال.

والأول هو القول[2]؛ لاندراج الثاني فيه، ولقوله بَعْدُ: ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾.

﴿من كل شيء موزون﴾ بميزان الحكمة مقدر بمقدار تقتضيه المصلحة.

وقال ابن عباس: يريد: الثمار مما يكال ويوزن[3].

وقيل: ما يوزن، نحو الذهب والفضة والنحاس والحديد والكحل، وأشباه ذلك مما يوزن وزناً، وهذا اختيار الفراء[4]، وهو يجيء على ردّه الضمير إلى الجبال.

قوله تعالى: ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ وأرزاقاً من الحبوب والثمار.

قوله: ﴿ومن لستم له برازقين﴾ «مَنْ» في موضع النصب بفعل مضمر، والتقدير: وجعلنا لكم معايش وأعشنا من لستم له برازقين[5]، فأضمر «أعشنا»؛

---

(١) معاني الفراء (٢/ ٨٦).

(٢) أي: الراجح. وفي زاد المسير: قاله الأكثرون.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ٤٢)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٩١).

(٤) معاني الفراء (٢/ ٨٦).

(٥) التبيان (٢/ ٧٣)، والدر المصون (٤/ ٢٩٣).

لأن ما تقدم تفسير له.

وقال الزجاج[1]: موضع «مَنْ» نصب من جهتين؛ إحداهما: العطف على «معايش». المعنى: وجعلنا لكم من لستم له برازقين. وجائز أن يكون عطفاً على تأويل «لكم»، المعنى في قوله: وجعلنا لكم فيها معايش أعشناكم ومن لستم له برازقين.

قال غير الزجاج: وزعم قوم أن قوله: «ومن لستم له برازقين» في موضع الابتداء، والخبر مضمر، ولا يجوز أن يكون «مَنْ» في موضع الجر بالعطف على الكاف والميم[2]؛ لأنه لم يعد [للام][3]، والمراد بقوله: ومن لستم له برازقين من العيال والعبيد والإماء والأنعام والدواب والوحوش.

وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ
لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا
لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ
عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾ «مِنْ» زائدة، و «شيء» متبدأ،

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ١٧٧).

(٢) قلت: وجاز ذلك من غير إعادة الجار، على رأي الكوفيين وبعض البصريين (انظر: التبيان ٢/ ٧٣، والدر المصون ٤/ ٢٩٣).

(٣) في الأصل: اللام. والصواب ما أثبتناه.

و«عندنا» خبر له، و «خزائنه» ترتفع بالظرف، فجرى الظرف خبراً عن المبتدأ[١].

والمعنى: وما من شيء ينتفعون به من المطر وغيره إلا عندنا خزائنه نتصرف فيه بحكمنا وإرادتنا.

﴿وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ وجمهور المفسرين اقتطعوا ذلك في المطر، قالوا: المعنى وما من شيء من المطر إلا عندنا خزائنه، وما ننزله من السماء في كل عام إلا بقدر معلوم لا ينقص ولا يزيد[٢].

وروي عن ابن مسعود أنه قال: ما عام بأمطر من عام، ولكن الله يقسمه ويقدره في الأرض كيف شاء، عاماً هاهنا وعاماً هاهنا، ثم قرأ هذه الآية[٣].

قوله تعالى: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ وقرأ حمزة: «الريح» على إفراده الجنس[٤].

وفي معنى لواقح اختلاف بين اللغويين، فمن ذاهب إلى أنها بمعنى ملاقح جمع ملقحة، فحذفت الميم وردت إلى أصل الثلاثي كما يقال: أبقل النبت فهو باقل، يجعلونه بدلاً من مبقل، ومنه الحديث: « ومن كل عين لامّة »[٥] أي: مُلِمَّة.

وقال النابغة:

كِليني لِهَمٍّ يا أميمةَ نَاصبِ   وليلٌ أقاسيهِ بَطيء الكواكب[٦]

(١) التبيان (٢/ ٧٣)، والدر المصون (٤/ ٢٩٣).

(٢) زاد المسير (٤/ ٣٩٢).

(٣) أخرجه الطبري (١٤/ ١٩).

(٤) الحجة لابن زنجلة (ص:٣٨٢)، وإتحاف فضلاء البشر (٢٧٤)، والنشر (٢/ ٢٢٣).

(٥) أخرجه البخاري (٣/ ١٢٣٣ ح٣١٩١).

(٦) البيت للنابغة الذبياني. انظر: ديوانه (ص:٩)، والطبري (١٣/ ١٨٣)، وزاد المسير (٤/ ٤٥٦)، =

أي: منصب.

وهذا قول أبي عبيدة(١). فالمعنى: أنها ملقحة للسحاب.

قال ابن مسعود: يبعث الله تعالى الرياح لتلقح السحاب. قال ابن مسعود: فتحمل الماء(٢).

وقال الحسن: تلقح السحاب والشجر(٣). أي: تلقح السحاب فتمطر، والشجر فتثمر.

وقال الضحاك: يبعث الله تعالى الرياح على السحاب فتلقحه فتمتلئ ماء(٤).

وقال أبو بكر بن عياش: لا يقطر من السماء قطرة إلا بعد أن تعمل الرياح الأربع، فالصَّبا(٥) تُهيِّجه، والدَّبور(٦) تُلقِّحه، والجَنُوب(٧) تُدرّه،

= وتاريخ بغداد (٨/ ٣١٢).

(١) انظر: زاد المسير (٤/ ٣٩٣).

(٢) أخرجه الطبري (١٤/ ٢٠)، والبيهقي في الكبرى (٣/ ٣٦٤)، والطبراني في الكبير (٩/ ٢٢٣). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٧٢) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والخرائطي في مكارم الأخلاق.

(٣) أخرجه الطبري (١٤/ ٢١)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٦١).

(٤) أخرجه الطبري (١٤/ ٢٢)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٦١). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٧٢) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٥) الصَّبا: هي الريح التي تأتي من المشرق، وتُسمى القَبُول أيضاً، لأنها في مقابلة مُستَقْبِل المشرق (صبح الأعشى ٢/ ١٨٥).

(٦) الدَّبور: ومهبُّها من مغرب الشمس إلى حدّ القطب الجنوبي، وسميت الدبور؛ لأن مستقبل المشرق يستدبرها، وتسمَّى الغربية لهبوبها من جهة المغرب، وبها هلكت عاد (صبح الأعشى ٢/ ١٨٥).

(٧) الجنوب ومهبها من حدّ القطب الأسفل إلى مطلع الشمس، وتسمى بالديار المصرية: القِبْلِيَّة؛ لأنها =

والشَّمال[(١)] تُفرِّقُه[(٢)].

ومن ذاهب إلى أنها جمع لاقحة، أي: حاملة، كما تقول: ناقة لاقحة؛ إذا حملت الولد، فالمعنى: حوامل للسحاب وما فيها من الماء. ويدل عليه قوله: ﴿حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً﴾ [الأعراف:٥٧] أي: حملت، ولهذا قالوا: ريح عقيم؛ للتي لم تحمل ماء ولا خيراً. وهذا قول الفراء[(٣)] وابن الأنباري واختيار الأزهري[(٤)].

﴿فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه﴾ أي: جعلناه سقياً لكم. قال الفراء[(٥)]: العرب مجمعون على أن يقولوا: سقيتُ الرجل فأنا أسقيه؛ إذا سَقَيْته [لـشَفَتِه][(٦)]، فإذا أجروا للرجل نهراً قالوا: أسقيتُه وسقيتُه، وكذلك السقيا من الغيث قالوا فيها: سقيت وأسقيت.

وقال أبو عبيدة[(٧)]: كل ما كان من السماء ففيه لغتان: أسقاه [الله][(٨)]

= تأتي من القبلة فيها، وتسمّى بها أيضاً المَرِيسية لأن في الجهة القبلية بلاد المريس، وهي أردأ الرياح عند أهل مصر (صبح الأعشى ٢/ ١٨٦).

(١) الشمال: ومهبها من حد القطب الشمالي إلى مغرب الشمس، وسميت شَمالاً لأنها على شمال من استقبل المشرق (صبح الأعشى ٢/ ١٨٥).

(٢) القرطبي (١٠/ ١٦).

(٣) معاني الفراء (٢/ ٨٧).

(٤) تهذيب اللغة (٤/ ٥٥، ٥٦).

(٥) معاني الفراء (٢/ ١٠٨)، وزاد المسير (٤/ ٣٩٤).

(٦) في الأصل: بشفته. والتصويب من زاد المسير، الموضع السابق.

(٧) مجاز القرآن (١/ ٣٤٩-٣٥٠).

(٨) زيادة من زاد المسير (٤/ ٣٩٤).

وسقاه الله(١). قال لبيد:

سَقَى قومي بني مَجْدٍ وأسقى نُميراً والقبائلَ من هِلال

فجاء باللغتين.

وتقول: سَقيت الرجل ماءً أو شراباً من لبن أو غيره، فليس فيه إلا لغة واحدة [بغير ألف](٢) إذا كان في الشَّفة، وإذا جعلت له شرباً فهو أسقيته، وأسقيتُ أرضهُ وإبله، ولا يكون غير هذا، وكذلك إذا استسقيت له، يعني: قلت له: أسقاك الله، تقول: قد أسقيته. قال ذو الرمة:

وقفتُ على رَسْم لميَّة ناقتي فما زلتُ أبكي عنده وأُخاطبُه

وأُسْقيهِ حتى كاد مما أَبُثُّهُ تُكلّمُني أحجارُهُ وملاعِبُه(٣)

قوله تعالى: ﴿وما أنتم له بخازنين﴾ نفى عنهم سبحانه وتعالى ما أثبته لنفسه في قوله: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾.

قال مقاتل(٤): ما أنتم له بحافظين، أي: [ليست خزائنه](٥) بأيديكم.

وقال سفيان الثوري: «ما أنتم له بخازنين» أي: بمانعين(٦).

---

(١) في الأصل زيادة: وسقاه. وانظر: مجاز القرآن (١/ ٣٤٩).

(٢) في الأصل: بألف. والتصويب من مجاز القرآن (١/ ٣٥٠). وانظر: زاد المسير (٤/ ٣٩٥).

(٣) انظر: البيتين في: اللسان (مادة: سقي)، والقرطبي (٩/ ٢٥١)، والطبري (١٤/ ٢٢)، وزاد المسير (٤/ ٣٩٥)، وروح المعاني (٢٢/ ١٨٣). وانظر البيت الثاني في: اللسان، مادة شكا، وفيه: «وأشكيه» بدل «وأسقيه»، وروح المعاني (١٤/ ٣١).

(٤) تفسير مقاتل (٢/ ٢٠١). وانظر: الوسيط (٣/ ٤٢)، وزاد المسير (٤/ ٣٩٥).

(٥) في الأصل: لستم خزانه. والتصويب من زاد المسير (٤/ ٣٩٥).

(٦) أخرجه الطبري (١٤/ ٢٢)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٦١). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٧٣) =

قوله تعالى: ﴿ونحن الوارثون﴾ أي: الباقون بعد فناء الخلق، كقوله: ﴿إنا نحن نرث الأرض ومن عليها﴾ [مريم:٤٠].

وقيل: للباقي وارث؛ استعارة من وارث الميت، ومنه قوله عليه السلام: «واجعله الوارث منّا»[١]، وقد حققنا هذا المعنى فيما مضى.

قوله تعالى: ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾ أخرج الترمذي والنسائي من حديث ابن عباس قال: «كانت امرأة تصلي خلف رسول الله ﷺ حسناء من أحسن النساء، وكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها، ويتأخر بعضهم حتى يكون بالصف المؤخر، فإذا ركع نظر من تحت إبطيه، فأنزل الله تعالى: ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾»[٢] هذا حديث صحيح أخرجه الحاكم في صحيحه.

روى أبو صالح عن ابن عباس «أن النبي ﷺ حرض على الصف الأول، فازدحموا عليه، حتى قال قوم بيوتهم قاصية عن المدينة: لنبيعنّ دورنا ولنشترين دوراً قريبة من المسجد حتى ندرك الصف المقدم، فنزلت هذه الآية»[٣].

وقريب منه قول الحسن وعطاء، يعني: المتقدمين في طاعة الله والمتأخرين عنها[٤].

=

وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٦/ ١٠٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٩٦ ح٣١٢٢)، والنسائي في الكبرى (١/ ٣٠٢ ح٩٤٢)، والحاكم (٢/ ٣٨٤ ح٣٣٤٦).

(٣) زاد المسير (٤/ ٣٩٦)، وأسباب النزول للواحدي (ص:٢٨٢).

(٤) أخرج نحوه الطبري (١٤/ ٢٥)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٦٢) كلاهما عن الحسن. وانظر: الوسيط =

وقال ابن عباس في رواية عنه: المستقدمين من خرج من الخلق، والمستأخرين من هو حي لم يمت[١].

وقال قتادة ومجاهد: المستقدمين من مضى من الأمم، والمستأخرين من بقي، وهم أمة محمد ﷺ[٢]. يدل عليه قوله تعالى: ﴿وإن ربك هو يحشرهم﴾ مع إفراط كثرتهم ﴿إنه حكيم عليم﴾ باهر الحكمة واسع العلم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾ يعني: آدم ﴿من صلصال﴾ وهو الطين اليابس الذي لم يُطْبخ، فإذا نقرته صَلْصَلَ، أي: صُوَّت.

وقيل: هو تضعيف صَلّ؛ إذا أنتن، تقول: صَلَّ اللحم وأصَلَّ؛ إذا تغيَّرت رائحته[٣].

= (٣/ ٤٣)، وزاد المسير (٤/ ٣٩٧). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٧٥) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن.

(١) أخرجه الطبري (١٤/ ٢٤) عن مجاهد، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٦٢) عن ابن عباس. وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٩٦)، والسيوطي في الدر (٥/ ٧٥) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري (١٤/ ٢٥)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٦٢)، ومجاهد (ص:٣٤٠-٣٤١) ولفظه: ﴿المستقدمين﴾: القرون الأول، ﴿والمستأخرين﴾ أمة محمد ﷺ. وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٩٧)، والسيوطي في الدر (٥/ ٧٦) وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) انظر: اللسان (مادة: صلل).

ومثله: نتن وأنتن، وخمّ وأخمّ، وفي معنى ذلك: خَنِزَ اللحم ويخْنَـز، وخَـزِن يَخْزَن. قال طرفة:

ثم لا يخزن فينا لحمها إنما يخزن لحم المدخر

قال أبو عمرو: يقال: ثَعِطَ اللحمُ يَثْعَطُ ثَعَطاً؛ إذا أنتن[١].

قال أبو عبيدة: من قال: نَتَنَ، قال: فهو مِنْتِن، [ومن قال][٢]: أَنْتَنَ، قال: فهو مُنْتِن[٣]. وهذا اختيار مجاهد والكسائي[٤].

﴿من حمأ مسنون﴾ صفة لـ«صلصال» أي: خلقه من صلصال كائن من حمـأ مسنون.

قال أبو عبيدة[٥]: وهو جمع حَمْأَة.

قال ابن الأنباري[٦]: لا خلاف أن الحَمَأْ: الطين الأسود المتغير الريح.

وقد روى السدي عن أشياخه قال: بَلَّ التراب حتى عاد طيناً، ثم ترك حتـى أَنْتَنَ وتَغَيّر[٧].

والمسنون: المتغير الرائحة، ومنـه قولـه: ﴿لم يتـسنَّه﴾ [البقـرة:٢٥٩]، وسُـمّي بذلك: لتقادم السنين عليه. وهو قول ابن عباس في رواية مجاهد عنه، وإليه ذهب

---

(١) انظر: اللسان (مادة: ثعط).

(٢) في الأصل: وقال. والتصويب من اللسان (مادة: نتن).

(٣) انظر: اللسان (مادة: نتن).

(٤) زاد المسير (٤/ ٣٩٧).

(٥) مجاز القرآن (١/ ٣٥١).

(٦) انظر: زاد المسير (٤/ ٣٩٧).

(٧) زاد المسير (٤/ ٣٩٧).

قتادة وابن قتيبة[١].

وقال في رواية ابن أبي طلحة: هو الطين الرطب[٢]، سمي بذلك لأنه يسيل وينبسط، فيكون كالماء المسنون، أي: المصبوب.

وقال أبو عمرو بن العلاء: المسنون: المصبوب[٣]، مِنْ قول العرب: سَنَنْتُ الماءَ على الوجه وغيره؛ إذا صببته[٤].

وقيل: المسنون: المصوَّر، من سُنَّة الوجه؛ وهي صورته[٥]، وهي اختيار سيبويه.

قوله تعالى: ﴿والجان﴾ منصوب بفعل مضمر، يفسره ما بعده. قال ابن عباس: هو أبو الجن، كآدم للناس[٦].

وقال الحسن وعطاء: هو إبليس[٧].

﴿خلقناه من قبل﴾ أي: من قبل خلق آدم ﴿من نار السموم﴾ وهو معنى قول

---

(١) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة (ص:٢٣٨). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٩٨).

(٢) أخرجه الطبري (١٤/ ٣٠)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٦٣). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٧٧) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) زاد المسير (٤/ ٣٩٨).

(٤) انظر: اللسان (مادة: سنن).

(٥) مثل السابق.

(٦) الطبري (١٤/ ٣٠)، وزاد المسير (٤/ ٣٩٩).

(٧) أخرجه الطبري (١٤/ ٣٠) عن قتادة. وانظر: الوسيط (٣/ ٤٤)، وزاد المسير (٤/ ٣٩٩). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٧٨) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة.

مجاهد وقتادة(١).

قال ابن مسعود: من نار الريح الحارة، قال: وهي جزء من سبعين جزءاً من السموم التي خلق منها الجان، وتلا: ﴿والجان خلقناه من قبل من نار السموم﴾(٢).

وقال ابن السائب: هي نار لا دخان لها، والصواعق [تكون](٣) منها(٤).

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾
فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ
﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ
لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ
رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ
يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فإذا سويته﴾ أي: عدلته وصورته ﴿ونفخت﴾ أجريت ﴿فيه من

---

(١) أخرجه الطبري (١٤/ ٣٠) عن قتادة. وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٧٨) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٥١٦)، والطبراني في الكبير (٩/ ٢١٧)، والطبري (١٤/ ٣٠)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٦٣). وانظر: الوسيط (٣/ ٤٤-٤٥)، وزاد المسير (٤/ ٤٠٠). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٧٨) وعزاه للطيالسي والفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان.

(٣) زيادة من الوسيط (٣/ ٤٤)، وزاد المسير (٤/ ٤٠٠).

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ٤٤)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٠٠).

روحي﴾ التي تقوم بها الحياة، وأضافها إليه إضافة ملك أو تشريف، كقوله: ﴿ناقة الله﴾ [الشمس:١٣].

﴿فقعوا له﴾ أمر من الوقوع ﴿ساجدين﴾ سجود تكريم لا سجود عبادة. وقد سبق ذكره في البقرة.

﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ قال سيبويه(١): هذا توكيد بعد توكيد.

وحكي عن الزجاج(٢) أنه [لو](٣) اقتصر على «كلهم» لم يكن السجود قد حصل منهم دفعة واحدة، فلما قال: «أجمعون» أذن بذلك.

﴿إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين﴾ سبق تفسيره.

﴿قال يا إبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين﴾ «ما» مبتدأ، و «لك» في موضع الخبر، أي: أيّ شيء ثابت لك.

وقوله: «أن [لا](٤) تكون» في تقدير: في أن لا تكون، فحذفت في، وهي متعلقة بالخبر أيضاً، فلما حذفت «في» انتصب موضع «أنْ» على قول سيبويه، وبقي على الجر في قول الخليل.

وحمل أبو الحسن «أن» على الزيادة، ويكون قوله: «لا تكون» في موضع الحال، والتقدير: ما لك خارجاً عن الساجدين.

واللام في قوله: «لأسجد» لتوكيد النفي.

---

(١) انظر: الكتاب (١/ ١٥٠).

(٢) معاني الزجاج (٣/ ١٧٩).

(٣) زيادة على الأصل.

(٤) زيادة على الأصل.

وما لم أذكره مفسراً إلى قوله: ﴿وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين﴾ قال ابن السائب: يلعنك أهل السموات وأهل الأرض إلى الحساب؛ لأنه أول من عصى الله[1].

قال ابن الأنباري[2]: إنما قال: «إلى يوم الدين» لأنه يوم له أول وليس له آخر، فجرى مجرى الأبد الذي لا يفنى. فالمعنى: عليك اللعنة أبداً.

وقيل: المعنى: وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين من غير أن تعذب، فإذا جاء يوم الدين عذبت بما يُنسى اللعن معه.

فإن قيل: فما وجه مجيء قوله هاهنا: ﴿وإن عليك اللعنة﴾ بالألف واللام، وفي موضع آخر: ﴿وإن عليك لعنتي﴾ [ص:٧٨] بالإضافة؟

قلت: لما جاء هناك: ﴿ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي﴾ [ص:٧٥] مضافاً، جاء: ﴿وإن عليك لعنتي﴾ على المطابقة والمشاكلة. وجاء هاهنا: ﴿ما لك أن لا تكون مع الساجدين﴾. وسياق الآية على اللام في قوله: ﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾، وفي قوله: ﴿والجان﴾ فجيء باللام أيضاً في قوله: ﴿وإن عليك اللعنة﴾.

﴿قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون﴾ رام الخبيث أن يعبر قنطرة الموت، فقيل له: إنك ﴿من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم﴾ وهي النفخة الأولى حين يموت الخلق كلهم.

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ٤٥)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٠١).

(٢) انظر: زاد المسير (٤/ ٤٠١).

قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

﴿قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض﴾ الباء للقَسَم، و «ما» مصدرية، واللام في «لأزينن» جواب الباء[١].

والمعنى: أقسم بإغوائك إياي لأزينن لهم، ونحوه في القسم: ﴿فبعزتك لأغوينهم﴾ [ص:٨٢].

وقيل: الباء في قوله: «بما» للسببية، والقَسَم مُقدّر، أي: بسبب كوني غاوياً أقسم لأزينن لهم، ومفعول التزيين محذوف، تقديره: لأزينن لهم المعاصي والباطل.

﴿ولأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين﴾ الذين أخلصوا دينهم وعملَهم من الشوائب المفسدة للطاعة والعبادة، واستثناهم اللعين لعلمه أن سهام كيده لا تنفذ في دروع توحيدهم وتقواهم.

﴿قال هذا﴾ أي: قال الله تعالى هذا الإخلاص ﴿صراط عليّ مستقيم﴾ أي: طريق إليّ مستقيم يفضي إلى كرامتي.

وقال الزمخشري[٢]: التقدير: هذا طريق حق عليّ أن أراعيه، وهو أن لا يكون لك سلطان على عبادي.

---

(١) الدر المصون (٣/ ٢٤١-٢٤٢).

(٢) الكشاف (٢/ ٥٤٢).

وقرأتُ على الشيخين أبي البقاء عبدالله بن الحسين اللغوي وأبي عمرو عثمان بن مقبل الياسري ليعقوب الحضرمي: «صراط عَلِيٌّ مستقيم» بكسر اللام ورفع الياء وتنوينها، صفة لـ«صراط»، على معنى: هذا صراط عال، من علوّ الشرف والفضل[(١)].

﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ أن تلقيهم في ذنب يضيق عفوي عنه، ﴿إلا من اتبعك من الغاوين﴾.

﴿وإن جهنم لموعدهم﴾ أي: لموعد الكافرين ﴿أجمعين﴾

﴿لها سبعة أبواب﴾ هي دركاتها.

قال ابن عباس: سبعة أطباق طبق فوق طبق[(٢)].

قال أمير المؤمنين علي كرّم الله وجهه: أبواب جهنم ليست كأبوابكم هذه، ولكنها هكذا وهكذا وهكذا، بعضها فوق بعض، ووصف الراوي بيده وفتح أصابعه[(٣)].

قال ابن جريج: لها سبعة أبواب؛ أولها: جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية[(٤)].

---

(١) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٧٤)، والنشر (٢/ ٣٠١).

(٢) أخرجه الطبري (١٤/ ٣٥)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٦٥) كلاهما عن عكرمة. وانظر: الوسيط (٣/ ٤٥). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٨١) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة.

(٣) أخرجه الطبري (١٤/ ٣٥). وانظر: الوسيط (٣/ ٤٦)، وزاد المسير (٤/ ٤٠٢).

(٤) أخرجه الطبري (١٤/ ٣٥). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٠٢)، والسيوطي في الدر (٥/ ٨١) وعزاه لابن جرير وابن المنذر.

قال الضحاك: هي سبعة أدراك بعضها فوق بعض، وأعلاها فيه أهل التوحيد يعذّبون على قدر ذنوبهم ثم يخرجون، والثاني فيه النصارى، والثالث فيه اليهود، والرابع فيه الصابئون، والخامس فيه المجوس، والسادس فيه مشركوا العرب، والسابع فيه المنافقون[١].

﴿لكل باب منهم﴾ أي: من أتباع إبليس ﴿جزء مقسوم﴾.

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى: ﴿إن المتقين في جنات وعيون﴾ يعني: عيون الماء والخمر والسلسبيل والتسنيم، وغير ذلك من شراب الجنة.

﴿ادخلوها﴾ على إرادة القول، تقديره: يقال لهم: ادخلوها ﴿بسلام﴾ أي: بتحية. وقيل: بسلام من الآفات.

قال ابن عباس: سلموا من سخط الله[٢].

﴿آمنين﴾ من الكذب وشوائب النغص والموت والخروج والخوف، وكل ما ينافي اللذة.

وقرأتُ ليعقوب الحضرمي من رواية رويس عنه: «وعيون أُدْخِلوها» بضم

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٦٥). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٨٢) وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ٤٦).

الألف وكسر الخاء على ما لم يسم فاعله[١]، فلا يحتاج في هذه القراءة إلى إضمار القول.

قوله تعالى: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ مفسر في الأعراف[٢].

﴿إخواناً﴾ نصب على الحال، أو على المدح[٣] ﴿على سرر متقابلين﴾ في محل الحال[٤].

والسُّرر: جمع سرير. قال ابن عباس: على سرر من ذهب مُكَلَّلة بالزبرجد والدر واليواقيت، السرير مثل ما بين أيلة إلى عدن[٥]، «متقابلين» لا يرى بعضهم أقفاء بعض.

قال مجاهد: تدور بهم الأسرَّة حيثما داروا، فيكونون في جميع أحوالهم متقابلين[٦].

﴿لا يمسهم فيها نصب﴾ أي تعب ﴿وما هم منها بمخرجين﴾.

قوله تعالى: ﴿نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم﴾ أي: خبرهم أني أنا الغفور لأوليائي، الرحيم بهم.

﴿وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾ لأعدائي.

وقد روى ابن المبارك بإسناده، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: «اطلع

---

(١) النشر في القراءات العشر (٢/ ٣٠١)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٧٥).

(٢) (٢/ ١٢٤).

(٣) التبيان (٢/ ٧٥)، والدر المصون (٤/ ٢٩٨).

(٤) مثل السابق.

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ٤٦)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٠٤).

(٦) القرطبي (١٠/ ٣٣).

علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة ونحن نضحك، فقال: لا أراكم تضحكون، ثم أدبر حتى إذا كان عند الحِجْر رجع إلينا القهقرى، فقال: إني لما خرجت جاء جبريل عليه السلام فقال: يا محمد! يقول الله تعالى: لِمَ تُقَنِّطُ عبادي؟ نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم»[(١)].

أخبرنا الشيخ أبو القاسم أحمد بن عبدالله بن عبد الصمد قراءة عليه وأنا أسمع بدمشق سنة ست وستمائة، والشيخ أبو الحسن علي بن أبي بكر البغداديان بقراءتي عليه قالا: أنبأ أبو الوقت، أبنا الداودي، أبنا السرخسي، أبنا الفربري، ثنا البخاري، ثنا قتيبة[(٢)]، ثنا يعقوب بن عبد الرحمن[(٣)]، عن عمرو بن أبي عمرو[(٤)]، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري[(٥)]، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه الطبري (١٤/ ٣٩)، وابن المبارك في الزهد (ص:٣١٢). وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص:٢٨٣).

(٢) قتيبة بن سعيد بن جميل بن طريف بن عبد الله الثقفي مولاهم، أبو رجاء البلخي البغلاني، ثقة ثبت صدوق، مات سنة أربعين ومائتين عن تسعين سنة (تهذيب التهذيب ٨/ ٣٢١-٣٢٢، والتقريب ص:٤٥٤).

(٣) يعقوب بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد القاري المدني، حليف بني زهرة، سكن الإسكندرية، وثقه ابن معين وغيره، مات سنة إحدى وثمانين ومائة (تهذيب التهذيب ١١/ ٣٤٣، والتقريب ص:٦٠٨).

(٤) عمرو بن أبي عمرو، اسمه ميسرة، مولى المطلب بن عبد الله بن حنطب المخزومي، أبو عثمان المدني، ثقة ربما وهم، مات بعد الخمسين (تهذيب التهذيب ٨/ ٧٢، والتقريب ص:٤٢٥).

(٥) سعيد بن أبي سعيد واسمه كيسان المقبري، أبو سعد المدني، كان أبوه مكاتباً لامرأة من بني ليث، والمقبري: نسبة إلى مقبرة بالمدينة كان مجاوراً لها، كان ثقة جليل، اختلط قبل موته بأربع سنين، مات في آخر خلافة هشام سنة ثلاث وعشرين ومائة (تهذيب التهذيب ٤/ ٣٤، والتقريب ص:٢٣٦).

يقول: «إن الله تعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك [عنده][(١)] تسعاً وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، ولو يعلم الكافر بكل الذي عند الله [من الرحمة][(٢)] لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار»[(٣)]. هذا حديث صحيح انفرد البخاري بإخراجه.

وبالإسناد قال البخاري: ثنا ابن أبي مريم، ثنا أبو غسان، حدثني زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «قدم على النبي ﷺ سبي، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقي، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته بطنها وأرضعته. فقال لنا النبي ﷺ: أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ قلنا: [لا][(٤)]، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: الله أرحم بعباده من هذه بولدها»[(٥)]. هذا حديث صحيح أخرجه مسلم عن الحسن بن علي الحلواني عن ابن أبي مريم.

وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ
وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ
أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ
ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾

---

(١) زيادة من صحيح البخاري (٥/ ٢٣٧٤).

(٢) مثل السابق.

(٣) أخرجه البخاري في (٥/ ٢٣٧٤ ح٦١٠٤).

(٤) زيادة من الصحيحين.

(٥) أخرجه البخاري (٥/ ٢٢٣٥ ح٥٦٥٣)، ومسلم (٤/ ٢١٠٩ ح٢٧٥٤).

قوله تعالى: ﴿ونبئهم عن ضيف إبراهيم﴾ أي: أخبرهم ليتعظوا أو يعتبروا إذا قصصت عليهم عظيم انتقامي من المجرمين، وقد مضت القصة مفسرة في هود[١]، وذكرنا في قصة إبراهيم نصب: «سلاماً».

﴿قال إنا منكم وجلون﴾ خائفون.

﴿قالوا لا تَوْجل﴾ وقرأ الحسن: «لا تُوجَل» بضم التاء[٢]، من أوْجَلَه يُوجِلُه، إذا [أخافه][٣].

﴿إنا نُبَشّرك بغلام عليم﴾ وهو إسحاق عليه السلام، وهو كلام مستأنف خارج مخرج التعليل للنهي عن الوَجَل.

وقرأ حمزة: «نَبشُرك» بفتح النون وضم الشين مع التخفيف[٤].

﴿قال أبشرتموني على أن مسني الكبر﴾ أي: على حالة الكبر والهرم، ﴿فبم تبشرون﴾ استفهام في معنى التعجب.

قرأ نافع: «تبشرونِ» بكسر النون، ومثله ابن كثير إلا أنه شَدَّد النون، وفتحها الباقون من غير تشديد[٥].

قال الزجاج[٦]: وهو أجود في القراءة.

---

(١) عند الآية رقم: ٦٩.

(٢) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٧٥).

(٣) في الأصل: أضافه. انظر: اللسان (مادة: وجل).

(٤) النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٣٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٧٥).

(٥) الحجة للفارسي (٣/ ٢٦)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٨٢-٣٨٣)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٣٠٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٧٥)، والسبعة في القراءات (ص:٣٦٧).

(٦) معاني الزجاج (٣/ ١٨١).

قال أبو علي الفارسي[1]: من كَسَرَ النون وشدّد، أراد: تبشرونَني، فأدغم النون الأولى التي هي علامة الرفع في الثانية المتصلة بالياء، وحذف الياء اكتفاء بالكسرة منها.

[وأما][2] قراءة نافع فإنه أراد «تبشرونَني» أيضاً، فحذف النون الثانية؛ لأن التكرير بها وقع، ولم يحذف الأولى التي هي علامة الرفع؛ لأن العلامة لا تنحذف، وأثبت الكسرة لتدل على الياء المحذوفة التي هي ضمير المفعول، وقد حذفوا هذه النون في كلامهم؛ لأنها زائدة. قال الشاعر:

أبالموتِ الذي لا بُدَّ أني ... مُلاقٍ لا أباكِ تُخَوِّفيني[3]

ومن قرأ: «تُبَشِّرونَ» بفتح النون، فالنون علامة الرفع، ولم يُعَدِّ الفعل فتجتمع نونان، وحذف المفعول كثير.

﴿قالوا بشرناك بالحق﴾ وهو الأمر الثابت الذي قضاه الله ووعدك به من الولد، ﴿فلا تكن من القانطين﴾ الآيسين من الخير.

﴿قال ومن يقنط﴾ قرأ أبو عمرو والكسائي: «يقنِط» بكسر النون[4]، وكذلك: ﴿يقنطون﴾ حيث كان.

قال الزجاج[5]: يقال: قَنَط يقنِطُ، وقنِطَ يقنَطُ.

(١) الحجة (٣/ ٢٦-٢٧).

(٢) في الأصل: فأما. والتصويب من الحجة (٣/ ٢٦).

(٣) البيت لأبي حية النميري. انظر البيت في: اللسان (مادة: خعل، أبي، فلا).

(٤) الحجة للفارسي (٣/ ٢٧)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٨٣)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٣٠٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٧٥)، والسبعة في القراءات (ص:٣٦٧).

(٥) معاني الزجاج (٣/ ١٨١).

وكلهم قرأ: ﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قَنَطُوا﴾ [الشورى:٢٨] بفتح النون.

والمعنى: ﴿ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾ عن طريق الصواب.

وقال ابن عباس: إلا المكذبون(١). وهذا يدل على أن إبراهيم عليه السلام ما كان قانطاً، لكنه استبعد ذلك في العادة، فظنت الملائكة أنه قانط، فنفى ذلك عن نفسه، وأخبر أن القانط من رحمة الله ضالّ.

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾

﴿قال فما خطبكم﴾ أي: ما شأنكم وما أمركم ﴿أيها المرسلون﴾.

﴿قالوا إنا أرسلنا﴾ يعنون بالعذاب ﴿إلى قوم مجرمين﴾ يعنون قوم لوط.

﴿إلا آل لوط﴾ استثناء منقطع، والمراد: أهله وأتباعه على دينه ﴿إنا لمنجُّوهم﴾ وقرأ حمزة والكسائي: «لمنجُوهم» بالتخفيف(٢).

﴿إلا امرأته﴾ اعلم أنهم جعلوا هذه الآية دليلاً على «إلا» أن الاستثناء من الإثبات نفي، ومن النفي إثبات. فلو قال: لكَ عليَّ عشرة دراهم إلا أربعة إلا درهماً، فلك عليه سبعة، لأنه لما قال: إلا أربعة كان لك ستة، فلما قال: إلا درهماً،

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ٤٧).

(٢) الحجة للفارسي (٣/ ٢٧)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٨٤)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٥٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٧٥)، والسبعة في القراءات (ص:٣٦٧).

كان هذا الاستثناء من الأربعة، فعاد إلى الستة، فصارت سبعة.

ولو قلت: لكَ عليَّ عشرة إلا ثلاثة إلا درهماً كنت مقرّاً بثمانية.

وإن قلت: لكَ عليَّ سبعة دراهم إلا ثلاثة إلا درهماً كنت مقرّاً بخمسة.

قالوا: في هذه الآية استثنى الله آل لوط عن المجرمين فلم يدخلوا في الإهلاك، ثم استثنى عن آل لوط امرأته فدخلت في الهلكى على ما ذكرناه.

وقيل: «إلا امرأته» استثناء من الضمير المجرور في: «لمنجّوهم»، وهذا هو الصحيح. وليس[1] الاستثناء في شيء؛ لأن ذلك إنما يكون عند اتحاد الحكم على ما سبق من المسائل، والحكم هاهنا مختلف؛ لأن «آل لوط» متعلق بـ«أرسلنا» أو بـ«مجرمين»، و «إلا امرأته» متعلق بـ«منجوهم».

﴿قدّرنا﴾ وقرأ أبو بكر عن عاصم: «قَدَرْنا» بالتخفيف[2]، ومثله في النمل، والمعنى: قضينا ﴿إنها لمن الغابرين﴾ الباقين في العذاب.

أضافت الملائكة التقدير إلى نفسها، والمُقَدِّرُ إنما هو الله تعالى؛ إظهاراً لاختصاصهم وقرب منزلتهم من الله، كما يقول الواحد من خواص الملك: نحن فعلنا كذا، ونحن أمرنا بكذا، وما الفاعل والآمر سوى الملك.

فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ

---

(١) في الأصل زيادة قوله: في.

(٢) الحجة للفارسي (٣/ ٢٧)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٨٤)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٣٠٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٧٦)، والسبعة في القراءات (ص:٣٦٧).

﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾

﴿فلما جاء آل لوط المرسلون * قال إنكم قوم منكرون﴾ لا نعرفكم.

وقد أشرنا فيما مضى إلى المعنى الذي أوجب استنكاره إياهم.

﴿قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون﴾ وهو العذاب الذي كانوا يشكون فيه ويكذبون به. ﴿وأتيناك بالحق﴾ أي: باليقين والأمر الثابت من عذابهم، ﴿وإنا لصادقون﴾ فيما أخبرناك به من هلاكهم.

﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم﴾ سِرْ في عقبهم، ولا تترك أحداً منهم وراءك فيصيبه ما أصابهم، ويكون ذلك سبباً لاشتغال بالك وتشعث أحوالك.

﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ مفسر في هود[1]. ويجوز أن يكون كناية عن الإمعان في السير.

﴿وامضوا حيث تؤمرون﴾ قال ابن عباس: إلى الشام[2].

والمعنى: سيروا ممتثلين ما أُمرتم به غير ملتفتين؛ لئلا تشاهدوا ما نزل بقومكم من العذاب، فتأخذكم بهم رأفة ورقة، وهم قوم مسخوط عليهم معذبون.

---

(١) عند الآية رقم: ٨١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٦٩) عن السدي. وانظر: الوسيط (٣/ ٤٨)، وزاد المسير (٤/ ٤٠٧). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٨٩) وعزاه لابن أبي حاتم عن السدي.

﴿وقضينا إليه﴾ أوحينا، ولذلك عداه بإلى، ﴿ذلك الأمر﴾ ثم فسره بقوله: ﴿أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾ و «أن» في موضع نصب بدلاً من موضع «ذلك»[1].

والمعنى: أنهم يستأصلون بالهلاك وقت الصبح.

وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾

﴿وجاء أهل المدينة﴾ يعني: سَدوم[2] ﴿يستبشرون﴾ بأضياف لوط طمعاً في ركوب الفاحشة، ظناً منهم أنهم من بني آدم.

﴿قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون﴾ بالإشارة إليهم، فإن الكريم يفتضح بانتهاك حرمة ضيفه.

﴿واتقوا الله ولا تخزون﴾ مفسرٌ فيما مضى.

﴿قالوا أو لم ننهك عن العالمين﴾ أي: عن أن تجير منهم أحداً وتضيفه، أو تحول بيننا وبينه.

﴿قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين﴾ مريدين قضاء الشهوة، أو أنه قال ذلك لكونه شك في قبولهم.

---

(١) التبيان (٢/ ٧٦)، والدر المصون (٤/ ٣٠٣).

(٢) سَدوم: مدينة من مدائن قوم لوط، كان قاضيها يقال له: سدوم، ويضرب به المثل في الجَوْر، فيقال: أجْور من قاضي سدوم (معجم البلدان ٣/ ٢٠٠).

قوله تعالى: ﴿لعمرك﴾ فيه ثلاث لغات، فتح العين وضمها، وضم العين والميم.

قال الخليل وسيبويه: المعنى واحد.

قال الزجاج[(١)]: إذا استعمل في القَسَم فتح [أوله][(٢)] لا غير؛ لأن الفتح أخف [عليهم][(٣)]، يشير إلى كثرة دور الحلف على ألسنتهم.

قال ابن عباس: وعيشك يا محمد[(٤)].

وقال ابن الأنباري[(٥)]: معناها: وحقك يا محمد على أمتك. تقول العرب: لعَمْرو الله لا أقوم، يعنون: وحقّ الله، وبهذا الاعتبار انعقد قوله: لعمرو الله؛ يميناً عند الإمام أحمد.

وقال الشافعي: لا تنعقد يميناً، وكذا الخلاف بينهما في قوله: وايم الله. ووجه انعقاد اليمين بها أنه قد ثبت لهما عرف الشرع والاستعمال، قال الله تعالى: ﴿لعمرك﴾. وقال الشاعر:

وكلُّ أخٍ مفارقُهُ أخوه　　　لعمْر أبيك إلا الفرقدان[(٦)]

---

(١) معاني الزجاج (٣/ ١٨٣).

(٢) زيادة من معاني الزجاج، الموضع السابق.

(٣) زيادة من معاني الزجاج، الموضع السابق.

(٤) أخرجه البخاري معلقاً (٤/ ١٧٣٦) باب تفسير سورة الحجر، والطبري (١٤/ ٤٤)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٧٠). وانظر: الوسيط (٣/ ٤٩)، وزاد المسير (٤/ ٤٠٨). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٨٩) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٥) انظر: زاد المسير (٤/ ٤٠٨).

(٦) البيت لعمرو بن معد يكرب، وقيل: لسوار بن المضرب، وقيل: لحضرمي بن عامر. انظر: ديوانه =

وقال النبي ﷺ في أسامة بن زيد: «وايم الله إنه لخليقٌ بالإمارة»[(١)].

قال الزجاج[(٢)]: «لعمرك» مرفوع بالابتداء، والخبر مضمر، والتقدير: لعمرك ما أقسم به، أو لعمرك قسمي، وحذف الخبر؛ لأن في الكلام دليلاً عليه.

أخبرنا المؤيد بن محمد بن علي الطوسي في كتابه، أبنا عبد الجبار بن محمد بن أحمد، أبنا علي بن أحمد، أبنا أحمد بن محمد بن إبراهيم المقرئ، ثنا عبدالله بن حامد، ثنا عبد الرحمن بن محمد الزهري، ثنا العباس الدوري، حدثني أبو عتاب سهل بن حماد[(٣)]، حدثنا سعيد بن زيد[(٤)]، حدثني عمرو بن مالك[(٥)]، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ما خلق الله عز وجل ولا ذرأ ولا برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعتُ الله أقسم بحياة أحد إلا بحياته، قال: ﴿لعمرك إنهم

= (ص:١٧٨)، والكتاب لسيبويه (٢/ ٣٣٤)، وخزانة الأدب (٣/ ٤٢١)، والإنصاف (١/ ٢٦٨)، وجمهرة أشعار العرب للقرشي (ص:٥)، ومعاني الأخفش (ص:٩١)، والأشباه والنظائر (٨/ ١٨٠)، وشرح الأشموني (١/ ٢٣٤)، وشرح المفصل (٢/ ٨٩)، ومغني اللبيب (١/ ٧٢)، والمقتضب (٤/ ٤٠٩).

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٨٨٤ ح٢٤٢٦).

(٢) معاني الزجاج (٣/ ١٨٤).

(٣) سهل بن حماد العنقزي، أبو عتاب الدلال البصري، ثقة صدوق، مات سنة ثمان ومائتين (تهذيب التهذيب ٤/ ٢١٩، والتقريب ص:٢٥٧).

(٤) سعيد بن زيد بن درهم الأزدي الجهضمي، أبو الحسن البصري، أخو حماد بن زيد، صدوق له أوهام، مات سنة سبع وستين ومائة (تهذيب التهذيب ٤/ ٢٩، والتقريب ص:٢٣٦).

(٥) عمرو بن مالك النكري، أبو يحيى، ويقال: أبو مالك البصري، صدوق له أوهام، مات سنة تسع وعشرين ومائة (تهذيب التهذيب ٨/ ٨٤، والتقريب ص:٤٢٦).

لفي سكرتهم يعمهون﴾))[١].

والضمير في قوله: «إنهم لفي سكرتهم يعمهون» لقوم لوط.

وقال عطاء: لقوم نبينا ﷺ[٢].

وشكّ صاحب الكشاف فقال[٣]: «لعمرك» على إرادة القول، أي: قالت الملائكة للوط: لعمرك «إنهم لفي سكرتهم[٤]»، أي: لفي غوايتهم التي أذهبت عقولهم «يعمهون» يتحيرون، فكيف يقبلون قولك ويصغون إلى نصيحتك.

فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

﴿فأخذتهم الصيحة﴾ وهي صيحة جبريل ﴿مشرقين﴾ داخلين في شروق الشمس، وهو طلوعها. تقول: شَرَقَت الشمس تَشْرُق شَرْقاً وشُرُوقاً، والشارق: الطالع. ومنه قولهم: لا أفعل ذاك ما ذرَّ شارقٌ، وتقول: أَشْرَقَ؛ إذا دخل في الشروق، ومنه هذه الآية، وأَشْرَقَ وجه الرجل إذا تلألأ حُسْناً، وأشرقتِ الشمسُ؛ أضاءتْ وصَفَتْ، وأَشْرَقَها الله[٥]، اللازم والمتعدي بلفظ واحد.

---

(١) أخرجه الطبري (١٤/ ٤٤)، والحارث في مسنده (٢/ ٨٧١ ح٩٣٤).

(٢) زاد المسير (٤/ ٤٠٩).

(٣) الكشاف (٢/ ٥٤٧).

(٤) في الأصل زيادة قوله: يعمهون. وانظر: الكشاف، الموضع السابق.

(٥) انظر: اللسان (مادة: شرق).

وقيل: شرقت الشمس وأشرقت بمعنى واحد، كقولهم: ضَاءَ وأَضَاءَ، ونَارَ وأَنَارَ، وفي ضده: دَجَى وأَدْجَى، وغَشَى وأَغْشَى.

وما بعده مفسر في هود[١] إلى قوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾ أي: للمتفرّسين.

قال الزجاج[٢]: يقال: توَسَّمْت في فلان [كذا وكذا][٣]، أي: عرفت وَسْمَ ذلك فيه[٤].

وقال غيره: المُتَوسِّم: الناظر في السمة الدالة على الشيء[٥].

أخرج الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري، أن النبي ﷺ قال: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله، ثم قرأ: ﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾»[٦].

قوله تعالى: ﴿وإنها﴾ يعني: مدينة قوم لوط ﴿لبسبيل﴾ أي: بطريق مقيم ثابت واضح، يمر به الناس في أسفارهم، وينظرون آثار هلاكهم، وفي ذلك تنبيه لقريش، كما في قوله: ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨].

فإن قيل: لم قال [هنا][٧]: ﴿إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ فوحد وجمع في التي

---

(١) عند الآية رقم: ٨٢.

(٢) معاني الزجاج (٣/ ١٨٤).

(٣) في الأصل: وفلان كذا. والتصويب من معاني الزجاج، الموضع السابق.

(٤) انظر: اللسان (مادة: وسم).

(٥) مثل السابق.

(٦) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٩٨ ح٣١٢٧).

(٧) في الأصل: هناك. والصواب ما أثبتناه.

قبلها «آيات للمتوسمين»؟

قلت: لأن المشار إليه أولاً آيات [متعددة][(١)]، وهو حديث لوط، ووصف إبراهيم، والبشارة له ولزوجته بالولد، وقلب المدينة على مَنْ فيها، وإمطار الحجارة على مَنْ غاب عنها منهم، وهذه آيات متعددة؛ والمشار إليه في هذه الآية: المدينة المقلوبة، وهي آية واحدة من تلك الآيات.

﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝٧٨ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ۝٧٩﴾

قوله تعالى: ﴿وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين﴾ «إنْ» مخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، وقد ذكرنا نظائر هذا في مواضع.

ونحاة الكوفة يقولون: التقدير: وما كان أصحاب الأيكة إلا ظالمين.

قال المفسرون: قوم شعيب كانوا أصحاب غياض وشجر[(٢)].

﴿فانتقمنا منهم﴾ قال المفسرون: أَخَذَهُمُ الحرُّ أياماً، ثم اضطرم عليهم المكان ناراً فهلكوا[(٣)]، وقد أشرنا إلى ذلك في سورة الأعراف[(٤)].

﴿وإنهما﴾ قال أكثر المفسرين: يعني: الأيكة ومدينة قوم لوط[(٥)].

وقيل: الأيكة ومدين؛ لأن شعيباً أرسل إليهما، فلما ذكر الأيكة دلّ بذكرها على

---

(١) في الأصل: متعدة. والصواب ما أثبتناه.

(٢) أخرجه الطبري (١٤/ ٤٨). وانظر: الوسيط (٣/ ٥٠)، وزاد المسير (٤/ ٤١٠).

(٣) الطبري (١٤/ ٤٨)، والوسيط (٣/ ٥٠).

(٤) عند الآية رقم: ١٣٦.

(٥) الطبري (١٤/ ٤٩)، والوسيط (٣/ ٥٠)، وزاد المسير (٤/ ٤١٠).

مدين فجاء بضميرهما[1].

﴿لبإمام مبين﴾ أي: بطريق واضح غير منطمس ولا مندرس، وسُمِّيَ الطريق إماماً؛ لأنه يُؤتمّ به، أي: يتبع.

وقال ابن الأنباري[2]: «وإنهما» يعني: لوطاً وشعيباً، «لبإمام مبين» بطريق من الحق يؤتم به.

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

قوله تعالى: ﴿ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين﴾ يعني: ثمود.

قال ابن عباس: كانت منازلهم بالحِجْر بين المدينة والشام[3]، والحِجْر: واديهم.

وقيل: اسم مدينتهم. والمراد بالمرسلين: صالح. وإنما جمع؛ لأن تكذيب الواحد من الرسل تكذيب الكل.

﴿وآتيناهم آياتنا﴾ قال ابن عباس: يريد: الناقة[4]، وكان فيها آيات: خروجها من صخرة صمّاء، ودنو نتاجها عند إخراجها، وعظم خلقها، وغزارة لبنها.

﴿فكانوا عنها﴾ أي: عن التفكر والاعتبار بما اشتملت عليه من الآيات

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود (٥/ ٨٧).

(٢) انظر: زاد المسير (٤/ ٤١١).

(٣) زاد المسير (٤/ ٤١١).

(٤) مثل السابق.

والمعجزة لصالح ﴿معرضين﴾.

﴿وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين﴾ من تهدم أرجائها وتداعي بنائها.

وقيل: آمنين من العذاب، ظناً منهم أنها تعصمهم من الله إن أراد بهم سوءاً.

﴿فأخذتهم الصيحة مصبحين * فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ من إحكام مساكنهم، والاعتصام بأماكنهم، والاستظهار بالعدو، والاستكثار من العُدَد.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ أي: خَلْقاً مُلْتَبِساً بالحق والحكمة، منزهاً عن العبث والباطل.

﴿وإن الساعة لآتية﴾ فتجازيك على صبرك ودعائك، وينتقم لك من أعدائك.

﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ وهو الإعراض الخالي عن الهلع والجزع.

وقد قيل: إنه منسوخ بآية السيف[1].

﴿إن ربك هو الخلاق العليم﴾ الذي خلقك وخلقهم، العليم، وهو أعلم بحالك وحالهم، فسيجازيك ويجازيهم.

---

(١) ذكره النحاس في الناسخ والمنسوخ (ص:٥٣٩)، ومكي بن أبي طالب في الإيضاح (ص:٢٨٥) عن سعيد عن قتادة، وابن سلامة في ناسخه (ص:١١١) ولم يناقشوا قضية النسخ، كأن وقوع النسخ هنا مسلّم لديهم. وانظر: نواسخ القرآن لابن الجوزي (ص:٣٧٩-٣٨٠).
قال ابن كثير بعد عزو قول النسخ إلى مجاهد وقتادة: وهو كما قالا: فإن هذه مكية، والقتال إنما شرع بعد الهجرة (انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٥٥٧).

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني﴾ وفيها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها الفاتحة. قاله عمر وعلي وابن مسعود في رواية، وابن عباس في أكثر الروايات عنه، وجمهور المفسرين(١).

ويدل على صحته ما أخبرنا به المؤيد بن محمد الطوسي إذناً، أبنا عبد الجبار بن محمد الخواري، أبنا علي بن أحمد النيسابوري، أبنا إبراهيم بن أبي القاسم الصوفي، أبنا محمد بن علي بن إسماعيل القفال الشاشي(٢)، ثنا الحسين بن موسى بن خلف الرسعني، ثنا إبراهيم بن الهيثم البلدي(٣).

وأبنا به عالياً الشيخان أبو القاسم السلمي وأبو الحسن الصوفي قالا: أبنا أبو

---

(١) أخرجه الطبري (١٤/ ٥٤-٥٥)، والحاكم (١/ ٧٣٧)، والبيهقي في سننه (٢/ ٤٥)، والطبراني في الكبير (١١/ ٢٦٩) كلهم عن ابن عباس. وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٩٤-٩٥) وعزاه لابن جرير وابن المنذر عن عمر بن الخطاب، ومن طريق آخر عن علي، ومن طريق آخر عن ابن مسعود، ومن طريق آخر عن ابن عباس.

(٢) محمد بن علي بن إسماعيل الشاشي الشافعي، أبو بكر القفال الكبير، إمام وقته بما وراء النهر وصاحب التصانيف، كان أعلم أهل ما وراء النهر بالأصول وأكثرهم رحلة في طلب الحديث. ولد سنة إحدى وتسعين ومائتين، وتوفي سنة خمس وستين وثلاثمائة (سير أعلام النبلاء ١٦/ ٢٨٣-٢٨٥).

(٣) إبراهيم بن الهيثم بن المهلب، أبو إسحاق البلدي، ثقة ثبت، سكن بغداد، ومات في يوم الخميس ودفن يوم الجمعة لثمان بقين من شهر جمادى الآخرة سنة سبع -أو ثمان- وسبعين ومائتين (تاريخ بغداد ٦/ ٢٠٦-٢٠٨).

الوقت، أبنا الداودي، أبنا السرخسي، أبنا الفربري، ثنا البخاري -واللفظ له- قالا: أبنا آدم، ثنا ابن أبي ذئب، ثنا سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم»(١).

ولفظ حديث الرسعني عن [البلدي](٢): «الحمد لله رب العالمين، السبع من المثاني»(٣).

وفي تسميتها بالمثاني ستة أقوال:

أحدها: أن الله تعالى استثناها لهذه الأمة، فلم يعطها أمةٌ قبلهم.

الثاني: أنها تثنى في كل ركعة. رويا عن ابن عباس(٤).

الثالث: لاشتمالها على الثناء على الله.

الرابع: لأنها مقسومة بين الله تعالى وبين العبد، بدليل حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ... الحديث»(٥).

الخامس: لنزولها مرتين.

السادس: لأن كلماتها مثنّاة، مثل: الرحمن الرحيم، إياك وإياك، الصراط المستقيم صراط الذين، عليهم عليهم.

والقول الثاني: أنها السبع الطُّوَل، بضم الطاء.

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٧٣٨ ح٤٤٢٧).

(٢) في الأصل: البلد. وانظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١٣/ ٤١١-٤١٢).

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ١٧٣٨ ح٤٤٢٦).

(٤) الطبري (١٤/ ٥٤)، وزاد المسير (٤/ ٤١٣).

(٥) أخرجه مسلم (١/ ٢٩٦ ح٣٩٥).

أخرج النسائي عن ابن عباس «أنه قال في قوله: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني﴾: هي السبع الطُّول، وهي من أول البقرة إلى آخر الأعراف»[١].

واختلف في السابعة، فقيل: الأنفال وبراءة.

قال ابن قتيبة: كانوا يرونهما سورة واحدة. وقيل: يونس.

قال ابن عباس: وإنما سميت السبع الطُّوَل مثاني؛ لأن الفرائض والحدود والأمثال والخبر والعبر تثنَّت فيها[٢].

وقيل: لأن كل سورة تجاوز المائة إلى المائة الثانية.

القول الثالث: أن السبع المثاني القرآن كله. قاله طاووس[٣].

قال ابن قتيبة: سمي بذلك؛ لأن الأنباء والقصص تُثنّى فيه.

قال الثعلبي[٤]: فعلى هذا القول؛ المراد بالسبع سبعة أسباع القرآن، ويكون فيه إضمار، تقديره: وهي القرآن العظيم.

وقال بعض أهل المعاني: الواو في قوله: ﴿والقرآن﴾ مقحمة، مجازه: ولقد آتيناك سبعاً من المثاني [القرآن][٥] العظيم، واحتج بقول الشاعر:

إلى الملكِ القَرْمِ[٦] وابنِ الهُمام ... وليثِ الكتيبةِ في المزدحَمْ[٧]

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٣٧٥ ح١١٢٧٦).

(٢) الطبري (١٤/ ٥١)، وزاد المسير (٤/ ٤١٤).

(٣) أخرجه الطبري (١٤/ ٥٧). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤١٤).

(٤) ذكره الثعلبي في تفسيره (٥/ ٣٥٢).

(٥) في الأصل: والقرآن. والتصويب من القرطبي (١٠/ ٥٥)، وروح المعاني (١٤/ ٧٩).

(٦) القَرْم: السيد العظيم (اللسان، مادة: قرم).

(٧) لم أعرف قائله. وانظر البيت في: القرطبي (١/ ٣٨٥، ٣٩٩، ٨/ ٣٥٣، ٩/ ٢٧٨، ١٤/ ٢٤٥)، =

و «مِن» في قوله: «من المثاني» للبيان أو للتبعيض.

﴿والعظيم﴾ يعني: العظيم القدر؛ لأنه كلام الله ووحيه وتنزيله.

قال صاحب الكشاف[1]: فإن قلت: كيف عطف القرآن العظيم على السبع، وهل هو إلا عطف الشيء على نفسه؟

قلت: إذا عنى بالسبع الفاتحة أو الطُّوَل، فما وراءهن ينطلق عليه اسم القرآن؛ لأنه اسم يقع على البعض كما يقع على الكل.

وإذا عنيت الأسباع؛ فالمعنى: ولقد آتيناك ما يقال له السبع المثاني والقرآن العظيم، أي: الجامع لهذين النعتين وهو الثناء أو التثنية والعِظَم.

﴿لا تمدنّ عينيك﴾ أي: لا تطمح [ببصرك][2] طموح راغب فيه مُتَمَنٍّ له ﴿إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾ أصنافاً من الكفار.

فإن قلت: كيف وصل هذا بما قبله؟

قلت: بقوله لرسوله ﷺ: قد [أوتيت][3] النعمة العظمى التي كل نعمة وإن عظمت فهي إليها حقيرة ضئيلة، وهي القرآن العظيم؛ فعليك أن تستغني به ولا تمدن عينيك إلى متاع الدنيا، ومنه الحديث: «ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن»[4]، وحديث أبي بكر رضي الله عنه: «من أوتي القرآن فرأى أن أحداً أوتي من الدنيا

والطبري (٢/ ١٠٠، ١٣/ ٩٢)، والخزانة (١/ ٤٥١)، والكشاف (١/ ٨٢)، والبحر (٥/ ٢١٤)، والدر المصون (١/ ٩٨).

(١) الكشاف (٢/ ٥٤٩-٥٥٠).

(٢) في الأصل: بصرك. والتصويب من الكشاف (٢/ ٥٤٩).

(٣) في الأصل: أتيت. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

(٤) أخرجه البخاري (٦/ ٢٧٣٧ ح٧٠٨٩).

أفضل ما أوتي، فقد صغّر عظيماً وعظّم صغيراً))[١].

وقيل: وافت من أذْرِعات[٢] وبُصْرَى سبع قوافل ليهود بني قريظة والنضير، فيها أنواع البز والطيب، والجوهر وسائر الأمتعة، فقال المسلمون: لو كانت هذه لنا لتقوّينا بها، ولأنفقناها في سبيل الله، فقال الله: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ... الآيتين﴾[٣].

قوله تعالى: ﴿ولا تحزن عليهم﴾ أي: على الكفار إن لم يؤمنوا، ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾ أي: ليّن جانبك لهم وخُذْهم بالرفق والمداراة.

أنبأنا ابن طبرزد قال: أبنا [أبو][٤] القاسم السمرقندي، أبنا أبو القاسم الإسماعيلي، أبنا أبو القاسم السهمي، ثنا أبو أحمد بن عدي الحافظ الجرجاني قال: أخبرنا الحسين بن سفيان، والقاسم بن الليث الرسعني، وأبو خولة ميمون بن سلمة، وسعيد بن محمد العكي بعكّة، ومحمد بن بشر القزاز، والحسين بن محمد السكوني، ومحمد بن محمد بن سليمان الباغندي[٥]، وإبراهيم بن يوسف الرازي،

---

(١) أخرجه الطبري (١٤/ ٦٠).

(٢) أذرعات: بلد في أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمان، ينسب إليه الخمر (معجم البلدان ١/ ١٣٠).

(٣) الكشاف (١/ ٦٤٦)، وأسباب النزول للواحدي (ص:٢٨٣).

(٤) زيادة على الأصل. وانظر ترجمته في: ذيل تذكرة الحفاظ (١/ ٧٢).

(٥) محمد بن محمد بن سليمان بن الحارث الأزدي الواسطي، أبو بكر الباغندي، أحد أئمة بغداد، ولد سنة بضع عشرة ومائتين، جمع وصنّف وعمّر وتفرّد، كان ثقة كثير الحديث، مات في يوم الجمعة في عشرين شهر ذي الحجة سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة (سير أعلام النبلاء ١٤/ ٣٨٣-٣٨٨).

والفضل بن عبدالله بن مخلد، قالوا: أبنا المسيب بن واضح[(١)]، حدثنا يوسف بن أسباط[(٢)]، عن سفيان الثوري، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: « مداراة الناس صدقة »[(٣)].

﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وقل إني أنا النذير المبين﴾ قال ابن عباس: أنذركم سخط الله وعذابه، وأبيّن لكم ما يقرّبكم إليه[(٤)].

قوله تعالى: ﴿كما أنزلنا على المقتسمين﴾ قال ابن عباس: هم اليهود والنصارى[(٥)].

وقال قتادة: هم كفار قريش[(٦)].

---

(١) المسيب بن واضح السلمي التلمسي الحمصي، صدوق، كثير الخطأ والوهم، وضعفه الدارقطني، مات في آخر سنة ست وأربعين ومائتين وقد نيف على التسعين (لسان الميزان ٦/ ٤٠).

(٢) يوسف بن أسباط بن واصل الشيباني الكوفي، نزل قرية بين حلب وأنطاكية، كان صالحاً عابداً، من عُبّاد أهل الشام وقرّائهم، مات سنة خمس وتسعين ومائة (تهذيب التهذيب ١١/ ٣٥٨).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (١/ ١٤٦ ح٤٦٣)، والبيهقي في الشعب (٦/ ٣٤٣).

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ٥٢).

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦/ ٢٠٧ ح٦٢٠٤)، والطبري (١٤/ ٦١). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٩٨) وعزاه للطبراني في الأوسط.

(٦) أخرجه الطبري (١٤/ ٦٣). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤١٧).

وقال ابن زيد: هم قوم صالح[(١)].

فإن أريد اليهود والنصارى؛ خرج في قوله: ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ قولان:

أحدهما: آية الكتاب العزيز المنزل على محمد ﷺ، عَضَوا القول فيه وفرقوه وقسموه إلى حق وباطل، فآمنوا ببعضه وقالوا: هذا موافق لكتابنا، وكفروا ببعضه فقالوا: هذا مخالف لكتابنا. وهذا معنى قول ابن عباس[(٢)].

وقيل: اقتسموا سور القرآن استهزاء وخلاعة، وكان أحدهم يقول: سورة البقرة لي، [و][(٣)] يقول الآخر: سورة آل عمران لي. قاله عكرمة[(٤)].

الثاني: أن يراد ما يقرؤونه من كتبهم، وكل فريق منهم آمن ببعض كتابه وكفر ببعض.

وإن أريد كفار قريش؛ ففي معنى كونهم مقتسمين قولان:

أحدهما: أنهم اقتسموا طريق مكة يصدون الناس عن رسول الله ﷺ والإيمان به.

قال ابن السائب: هم رهط من أهل مكة اقتسموا عقاب مكة حين حضر الموسم، قال لهم الوليد بن المغيرة: تفرقوا على عقاب مكة حيث يمر بكم أهل

(١) أخرجه الطبري (١٤/ ٦٣). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ١٤٣٥، ٤/ ١٧٣٨)، والحاكم (٢/ ٣٨٧)، والطبري (١٤/ ٦١-٦٢). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٩٨) وعزاه للبخاري وسعيد بن منصور والحاكم والفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس.

(٣) زيادة على الأصل.

(٤) أخرجه الطبري (١٤/ ٦٢). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤١٧).

الموسم، فإذا سألوكم عنه -يعني: رسول الله ﷺ- فليقل: بعضكم كاهن، وبعضكم ساحر، وبعضكم شاعر، وبعضكم غاو، فإذا انتهوا إليّ صدقتكم[١].

القول الثاني: أن أقوالهم تقسمت في القرآن، فقال بعضهم: هو سحر، وقال بعضهم: شعر، وقال بعضهم: كهانة، وقال بعضهم: أساطير الأولين اكتتبها.

وإن أريد بهم قوم صالح؛ فهم التسعة الذين تقاسموا لنبيّتنه وأهله، فكفاه الله تعالى أمرهم.

ويكون المراد بالقرآن على هذا القول: ما جاءهم صالح ومن قبله من الأنبياء من كتب الله تعالى.

وقوله: ﴿عضين﴾ جمع عِضَة، مثل: عِزَة وعِزين، وأصلها: [عِضْوة][٢]، من عَضَّى الشاة؛ إذا جعلها أعضاء. قال رؤبة:

وليس دين الله بالمُعَضَّى[٣]

فالمعنى عضوا القول فيه وفرقوه على نحو ما ذكرناه من اختلاف أقوالهم.

وقال عكرمة: العضة: السحر، بلسان قريش، يقولون للساحرة: عاضهة[٤].

وفي الحديث: «أن رسول الله ﷺ لعنَ العاضِهَة والمستعْضِهَة»[٥] فيكون المعنى:

---

(١) الطبري (١٤/ ٦٣) بلا نسبة، وزاد المسير (٤/ ٤١٨).

(٢) في الأصل: واضوة. والتصويب من الكشاف (٢/ ٥٥١). وانظر: اللسان، مادة: عضه.

(٣) الرجز لرؤبة، انظر: ديوانه (ص:٨١)، والأشموني (١/ ٨٤)، والتصريح (١/ ٧٣)، ومجاز القرآن (١/ ٣٥٥)، والكشاف (٢/ ٥٥١)، واللسان (مادة: عضا)، والدر المصون (٤/ ٣٠٩).

(٤) أخرجه الطبري (١٤/ ٦٦). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٩٩) وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن جرير.

(٥) أخرجه عبد الرزاق (٣/ ١٤١-١٤٢ ح٥٠٩٠). وذكره الجرجاني في الكامل (٣/ ٣٣٩).

جعلوا القرآن سحراً.

وفي قصيدتي الفارقة بين الضاد والظاء قولي:

والوعظُ أين أتى بالظاء غير عِضين الحجْر فاقرأْها ولا تَهِن

فصل

اختلفوا في متعلق الكاف في قوله: ﴿كما أنزلنا على المقتسمين﴾؛ فقال قوم: هي متعلقة بقوله: ﴿ولقد آتيناك﴾ فإن أريد بالمقتسمين اليهود والنصارى، فالمعنى: ولقد أنزلنا عليك سبعاً من المثاني، مثل ما أنزلنا على المقتسمين أهل الكتاب. وهذا معنى قول مقاتل[1].

وإن أريد به كفار قريش؛ فالمعنى: ولقد شرفناك وكرمناك وأنعمنا عليك بالسبع المثاني والقرآن العظيم، مثل ما شرفناك وأنعمنا عليك بما أنزلنا على أعدائك المقتسمين من العذاب حيث انتقمنا لك منهم[2].

وإن أريد بهم قوم صالح؛ كان المعنى: ولقد كرمناك وأيدناك بإنزال السبع والقرآن عليك، كما كرمنا صالحاً بإنزال العذاب على المقتسمين عليه.

وقال قوم: هي متعلقة بقوله: ﴿وقل إني أنا النذير المبين﴾ فإن أريد بالمقتسمين أهل الكتاب أو قوم صالح؛ فالمعنى: قل لكفار قريش: إني أنا النذير أنذركم عذاباً مثل ما أنزل على المقتسمين.

وقال بعضهم: هو ما جرى على قريظة والنضير، فجَعَل المتوقع بمنزلة الواقع، وهو من الإعجاز؛ لأنه إخبار بما سيكون، وقد كان، وعذاب قريش هو ما أصاب

---

(١) تفسير مقاتل (٢/ ٢١٠).

(٢) زاد المسير (٤/ ٤١٧).

المستهزئين -على ما سنذكره عن قريب- وما أصابهم يوم بدر وغيره، وعذاب قوم صالح مذكور في سورة النمل[(١)].

وقال الواحدي[(٢)]: يجوز أن يكون المعنى: أني أنذركم ما أنزلنا، فتكون الكاف زائدة.

وقد فصّلت لك القول في هذه المواضع تفصيلاً كشفت لك به عن وجه المقصود، ورتبته لك ترتيباً جامعاً لأشتات ما ذكره المفسرون، ورددت لك الفروع إلى أصولها، فإذا نظرت فيه فقل: رحم الله قائله.

قوله تعالى: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين﴾ يعني: سؤال تقريع وتوبيخ.

قال أبو العالية: يسأل العباد عما كانوا يعبدون، وماذا أجابوا المرسلين[(٣)].

وأخرج الترمذي من حديث أنس عن النبي ﷺ «في قوله: ﴿لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون﴾ قال: عن قول: لا إله لا الله»[(٤)].

فإن قيل: ما تصنع بقوله: ﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ [الرحمن:٣٩]؟

قلت: إما أن يراد به في بعض مواطن القيامة، أو يراد به: لا يسأل هل عملت؟

---

(١) من آية رقم: (٤٥) إلى آية رقم: (٥٣).

(٢) الوسيط (٣/ ٥٢).

(٣) أخرجه الطبري (١٤/ ٦٧)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٧٤). وانظر: الوسيط (٣/ ٥٢-٥٣)، وزاد المسير (٤/ ٤١٩). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٩٩) وعزاه للترمذي وابن جرير وأبي يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أنس عن النبي ﷺ.

(٤) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٩٨ ح٣١٢٦).

وإنما يقال له: لم عملت كذا؟ وهذان المعنيان مرويان عن ابن عباس (١).

﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ
۝٩٥ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٩٦ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ
أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ
ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾

قوله تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ أي: أظْهِرْهُ واجْهَرْ به، واشتقاقه من الصَّدِيعُ، وهو الصبح. قال الشاعر:

.... كأنَّ بياضَ غُرَّته صَدِيع (٢)

و«ما» مصدرية، تقديره: فاصدع بأمرك. أو بمعنى: الذي، التقدير: فاصدع بالذي تؤمر به من الشرائع.

ويروى: أن النبي ﷺ ما زال مستخفياً حتى نزلت هذه الآية (٣).

﴿وأعرض عن المشركين﴾ إن أريد به الإعراض عن حربهم، فهي منسوخة بآية السيف (٤).

---

(١) أخرجه الطبري (١٤/ ٦٧)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٧٤). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٩٩) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث.

(٢) عجز بيت للشماخ، وصدره: (تَرَى السِّرْحَانَ مُفْتَرِشاً يديه). انظر: ملحق ديوانه (ص:٤٤٧)، وأمالي ابن الشجري (٢/ ٢٤٠)، والدر المصون (٤/ ٣٠٩)، واللسان (مادة: فرش)، وهو في معاني الزجاج (٣/ ١٨٦)، واللسان (مادة: صدع) لعمرو بن معديكرب يصف ذئباً.

(٣) أخرجه الطبري (١٤/ ٦٨). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٢٠).

(٤) الناسخ والمنسوخ لابن سلامة (ص:١١٢)، والناسخ والمنسوخ لابن حزم (ص:٤٣)، ونواسخ

قوله تعالى: ﴿إنا كفيناك المستهزئين﴾ قال ابن عباس: كانوا خمسة: الوليد بن المغيرة، وأبو زمعة الأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والعاص بن وائل، والحارث بن قيس[١].

وزاد سعيد بن جبير: الحارث بن غيطلة[٢].

قال الزهري: غيطلة اسم أمه، وقيس أبوه[٣].

قال ابن عباس: ماتوا كلهم قبل بدر[٤].

وقال ابن السائب: هلكوا جميعاً في يوم وليلة[٥].

قال العلماء بالتفسير والسير: أتى جبريل رسول الله ﷺ والمستهزئون يطوفون بالبيت، فمرّ الوليد بن المغيرة، فقال جبريل: يا محمد، كيف تجد هذا؟ فقال: بئس عبد الله، فقال: كفيت، وأومأ إلى ساق الوليد، فمرّ برجل يَرِيشُ نَبْلاً[٦] له، فتعلقت بثوبه شظية، فمنعه الكبر أن يخفض رأسه فينزعها، وجعلت تضرب ساقه،

= القرآن لابن الجوزي (ص:٣٨١-٣٨٢).

(١) أخرجه الطبري في الأوسط (٥/ ١٧٣)، والبيهقي في سننه (٩/ ٨)، والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (١٠/ ٩٦). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٢١)، والسيوطي في الدر (٥/ ١٠١) وعزاه لأبي نعيم وابن مردويه بسند حسن.

(٢) أخرجه الطبري (١٤/ ٧٠). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٢١).

(٣) أخرجه الطبري (١٤/ ٧١). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٢١).

(٤) أخرجه الطبري (١٤/ ٧٣). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ١٠١) وعزاه لابن جرير والطبراني وابن مردويه.

(٥) زاد المسير (٤/ ٤٢٣).

(٦) يريش نبلاً: أي: يركب عليه الريش (انظر: اللسان مادة: ريش).

فخدشته فمرض منها حتى مات.

وقيل: قطعت عرقاً في عقبه فهلك به.

ومرّ به أبو زمعة فقال: كيف تجد هذا؟ فقال: عبد سوء، فأشار بيده إلى عينيه فعمي، وجعل يضرب برأسه الجدار حتى هلك، وكان يستغيث فيقال له: تفعل هذا بنفسك، فيقول: قتلني ربّ محمد.

ومرّ الأسود بن عبد يغوث فقال جبريل: كيف تجد هذا؟ فقال: بئس عبدالله، فقال: قد كفيت، وأشار إلى بطنه، فاستسقى بطنه حتى مات حَبَناً(١).

ومرّ به العاص فقال: كيف تجد هذا يا محمد؟ فقال: بئس عبد الله، فأشار جبريل إلى أخمص رجله وقال: قد كفيت، فدخلت في أخمصه شِبْرَقة(٢)، فانتفخت رجله حتى صارت مثل عنق بعير، فمات مكانه.

ومرّ به الحارث بن قيس فقال له جبريل: يا محمد! كيف تجد هذا؟ فقال: عبد سوء، فأومأ بيده إلى رأسه وقال: قد كفيت، فانتفخ رأسه فمات. وقال ابن عباس: أصابه عطش فلم يزل يشرب الماء حتى انقدّ(٣) بطنه(٤).

ثم وصفهم بالشرك فقال: ﴿الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر﴾. ثم هدّدهم

---

(١) الحَبَن: داء يأخذ في البطن فيعظم منه ويَرِمُ، وهو أن يكون السّقْي في شحم البطن فيعظم البطن لذلك (اللسان، مادة: حبن).

(٢) الشَّبْرِق: نبات غض، وقيل: شجر منبته نجد وتهامة، وثمرته شاكة صغيرة الجرم حمراء مثل الدم منبتها السباخ والقيعان (اللسان، مادة: شبرق).

(٣) انقدّ: الانقداد: الانشقاق أو القطع (اللسان، مادة: قدد).

(٤) أخرجه الطبري (١٤/ ٧٠)، والبيهقي (٩/ ٨)، والطبراني في الأوسط (٥/ ١٧٣-١٧٤ ح٤٩٨٦)، والمقدسي في الأحاديث المختارة (١٠/ ٩٦-٩٨).

فقال: ﴿فسوف يعلمون﴾.

﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾ يعني: من الشرك والتكذيب والاستهزاء، ﴿فسبح بحمد ربك﴾ أي قل: سبحان الله وبحمده. ﴿وكن من الساجدين﴾ يعني: المصلين.

وفي هذا دليل واضح وبرهان بيّن على أن في ذكر الله تعالى والصلاة شفاء من داء الغمّ والهمّ. وفي الحديث: «كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة»(١).

﴿واعبد ربك﴾ دُم على عبادته ﴿حتى يأتيك اليقين﴾ قال قتادة: هو الموت، وعند الموت والله يقين من الخير والشر(٢).

ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أوحي إليّ أن أجمع المال وأكون من التاجرين، ولكن أوحى إليّ أن ﴿سبح بحمد ربك وكن من الساجدين، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾»(٣).

وأخبرنا أبو العز يوسف بن رافع بن [تميم](٤) وأبو محمد عبد المجير بن محمد

---

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ٣٥ ح١٣١٩)، وأحمد (٥/ ٣٨٨ ح٢٣٣٤٧).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ٥٤).

(٣) ذكره القرطبي في تفسيره (١٠/ ٦٤)، والأصبهاني في حلية الأولياء (٢/ ١٣١)، والسيوطي في الدر (٥/ ١٠٥) وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر والحاكم في التاريخ وابن مردويه والديلمي عن أبي مسلم الخولاني. ومن طريق آخر عن ابن مسعود، وعزاه لابن مردويه، ومن طريق آخر عن أبي الدرداء، وعزاه لابن مردويه والديلمي.

(٤) في الأصل: تيم. وانظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٣٨٣-٣٨٧)، وذيل التقييد (٢/ ٣٢١).

بن عشائر القبيصي الموصليان بحلب، قلت لكل واحد منهما منفرداً: أخبرك أبو الفضل عبدالله بن أحمد بن محمد الخطيب الطوسي بالموصل فأقرَّ به قال: أبنا أبو الخطاب بن أحمد بن البطر، أبنا أبو علي إسماعيل بن محمد الصفار، ثنا أبو عمرو أنيس الدلال، ثنا داود بن رشيد، ثنا الربيع بن بدر، عن يونس [بن][1] عبيد، عن الحسن، عن عمار قال: كان النبي ﷺ يقول: «كفى بالموت واعظاً، وكفى باليقين غنى، وكفى بالعبادة شغلاً»[2].

---

(١) في الأصل: عن. والتصويب من شعب الإيمان (٧/ ٣٥٣). وانظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٨٨-٢٩٦)، وتهذيب التهذيب (١١/ ٣٨٩-٣٩٠).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٣٥٣ ح١٠٥٥٦). وذكره الهيثمي في مجمعه (١٠/ ٣٠٨) وعزاه للطبراني.

فهرس المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
سورة يونس عليه السلام	٣
سورة هود عليه السلام	١١٤
سورة يوسف عليه السلام	٢٦٦
سورة الرعد	٤٣٤
سورة إبراهيم عليه السلام	٥٠٥
سورة الحجر	٥٧٧